العالم الاسلامى

فى العصر الأموى

(٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م)

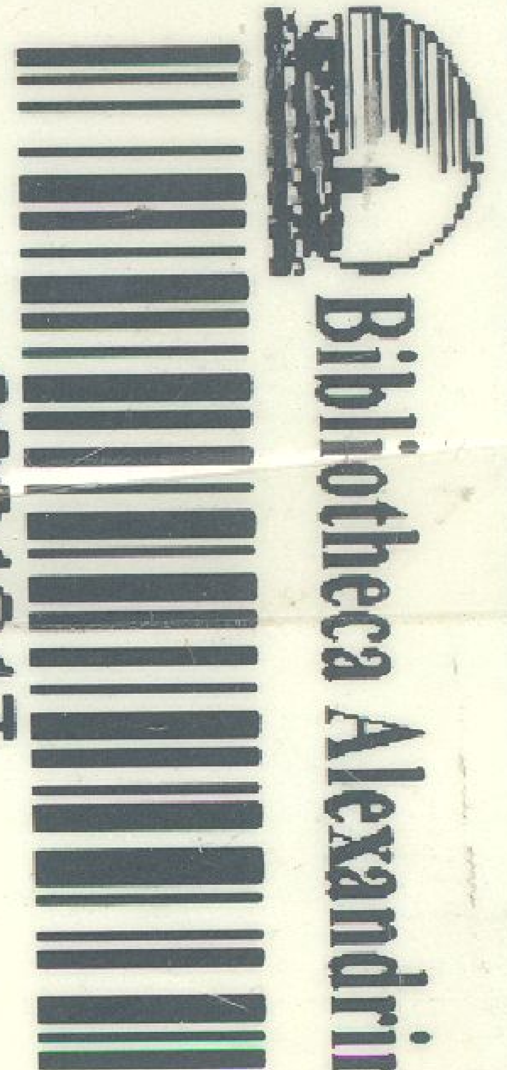
دراسة سياسية

تأليف

دكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد

فى كلية اللغة العربية — جامعة الازهر



الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

العالم الإسلامى

فى العصر الأموى

(٤١ - ١٣٢هـ - ٦٦١ - ٧٥٠م)

(دراسة سياسية)

تأليف

دكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد
فى كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

دار الوفـاء للطباعة
٢٨ درب الأتراك خلف جامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

احمدك اللهم واستعينك واستهديك ، واعــوذ بك من شرور نفسى وسيئات أعمالى ، وأصلى وأسلم على خاتم انبيائك ورسلك ، وعلى آله وصحبه وسلم .. وبعد .

فهذا الكتاب دراسة للجانب السياسى للعالم الإسلامى فى عصر الدولة الأموية ، الذى يعتبر من اكثر عصور التاريخ الإسلامى فى تعدد قضاياه السياسية ، وتشعب حوادثه التاريخية ، ولقد كان الدافع لهذا العمل أن تلك الحقبة من تاريخ المسلمين لا تزال فى حاجة إلى دراسة واعية متأنية ، يكون رائدها البحث عن الحقيقة التاريخية المجردة ، مســتقاة من أوثق مصادرها ، وإلى كلمة حيادية منصفة تقوم على تحليل الروايات ومقارنة الحوادث واستنطاق النصوص التاريخية ، ذلك لأن معظم الكتابات المعاصرة — وهى كثيرة — التى تناولت هذا العصر اتخذت موقفا معاديا للأمويين ، معتمدة فى ذلك على روايات خصومهم ، أو آراء ذوى الهوى والميول من المؤرخين ، فجاء تاريخ خلفائهم وولاتهم مشــوها ، يشوبه كثير من الزيف والتحريف والبعد عن حقائق التاريخ وقد تضافرت عدة عوامل أسهمت فى ذلك التشويه ، وصبغت عصر بنى أمية بألوان قاتمة مظلمة منها :

١ — أن معظم الأمويين وقفوا من الرسالة المحمدية موقفاً العداء المطلق ، وحملوا لواء معارضتها وشن الحرب ضدها أكثر من عشرين عاما ، ولم يدخلوا الإسلام إلا عند فتح مكة ســنة ٨هـ ومع انهم أسلموا وحسن إسلامهم ، إلا أن بعض خصومهم استغلوا هذا الموقف ، واتخذوا منه ذريعة للنيل منهم والتشهير بهم .

٢ — أن بنى أمية دخلوا فى صراع سياسى مع آل البيت — منذ مقتل عثمان — رضى الله عنه — فمالت عواطف كثير من المسلمين إلى آل البيت نظرا لمكانتهم فى نفوس الناس ، وعمق هذا الشعور ما تعرض له بعض

افراد آل البيت من المآسى ممـا خلق شعورا يكاد يكون عـاما بالكراهية للأمويين ، حيث لم يكن من السهل على أى مسلم — مهما كان مذهبه واتجاهه السياسي — أن يرضى عن حادث مقتل الحسين — رضى الله عنه — ذلك الحادث الذى شـغل حيزا كبيرا فى كتب المؤرخين ، واسـاء إلى سمعة الدولة الأموية .

٣ — ما وقع فيه بعض خلفاء وولاة بنى أمية من اخطاء جسيمة مثل غزو المدينتين المقدستين — مكة والمدينة — مما هز مشاعر المسلمين ، وتردد صداه فى نفوسهم وكتاباتهم .

٤ — كثر اعداء بنى أمية من الشيعة والخوارج ومن الحاقدين عليهم والطامعين فى الحكم — مثل المختار الثقفى ، وابن الأشعث ، وابن المهلب وغيرهم — مما اضطر الأمويين إلى الدخول معهم فى معارك طاحنة والتنكيل بهم . وفوق ذلك الموالى الفرس الذين لم ينسوا زوال دولتهم على أيدى العرب ، فصبوا جام غضبهم على الأمويين واتهموهم بالتعصب ضدهم .

تجمعت كل هذه العناصر الموتورة — وكان لكل منها شعراء وخطباء ونقلة للأخبار ورواة — وراحت تبث الشائعات فى جوانب العالم الإسلامى وتضخم الأخطاء الصغيرة وتفتعل الأكاذيب وتلفق الروايات عن العصر الأموى ورجاله ، كما شارك دعاة بنى العباس — إبان المرحلة السرية لدعوتهم والتحضير للثورة على الدولة الأموية — فى هـذا التيار واخذوا يركزون على تشويه سمعة الخلفاء والولاة ليخلقوا رايا عاما معاديا للدولة ، وقـد نجحوا فى ذلك نجاحا كبيرا .

٥ — ظلت هذه الأخبار والشائعات يتردد صداها على السنة الناس حتى بدأ عصر التدوين ، فدون المؤرخون كل ما وصل إلى سمعهم سواء أكان حقا أم باطلا .

وكان من سـوء حظ الأمويين أن تاريخهم دون فى عصر خصومهم العباسيين ، وقد لعبت تلك الخصومة — التى بلغت حد استئصال شافة الأمويين ونبش قبورهم — دورها فى تشويه هذا التاريخ وطمس معالمه .

لقد ادت تلك العوامل مجتمعة إلى تشويه كثير من جوانب التاريخ السياسى لعصر بنى أمية وتزييف عديد من حقائقه وتلفيق الشائعات والأباطيل حول خلفائه وولاته .

فلئن كان بعض الأمويين عادى الإسلام فى البداية ، وتأخر إسلامهم ، إلا أنهم لما أسلموا عام الفتح اظهروا من حسن البلاء فى الفتوحات وقاموا بأدوار بارزة فى رفع راية التوحيد ، وأبدوا من الحب لدين الله والجهاد فى سبيله ما لفت إليهم الأنظار ، حتى أن الرسول ﷺ أسند إلى كثير منهم أجل الأعمال وأخطرها ، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون الثلاثة من بعده ، ولكن على الرغم من ذلك كله فإن بعض الكتاب والمؤرخين سواء ممن اندفعوا وراء رغبة العباسيين والتقرب إليهم بالإساءة إلى الأمويين ، أو ممن سيطر عليهم الهوى ، وأعماهم التعصب المذهبى ، لم يستطيعوا التخلص من نظرتهم إليهم قبل إسلامهم ، فراحوا يعيرونهم بأنهم « الطلقاء وأبناء الطلقاء » ونسوا أن الإسلام يجب ماقبله ، بل وصل التحامل ببعضهم إلى حد اتهامهم بالكفر(١) .

ومن العجيب أن تلك النظرة لازالت تتردد على أقلام بعض الباحثين والكتاب حتى عصرنا الحاضر ، فها هو الكاتب الإسلامى الشهير ، المرحوم الأستاذ سيد قطب ، الذى تعتبر مؤلفاته من أكثر الكتب الإسلامية رواجا وتأثيرا — وبصفة خاصة فى عقول الشباب المسلم — يقول عنهم : « وبنو أمية فى الإسلام هم بنو أمية فى الجاهلية »(٢) ولم يكتف بوصفهم بالظلم والطغيان ، بل راح يشكك فى عقيدتهم وإخلاصهم لدينهم ،(٣) فيقول حقا لم يؤثر إسلام الأمويين فى سلوكهم وأخلاقهم ، فظلوا على

---

(١) انظر على سبيل المثال ما يزعمه الجاحظ بهذا الصدد ، حيث يتهم معاوية بالكفر فى رسالة له عن بنى أمية ، ملحقة بكتاب — النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم — للمقريزى ص ٩٤ — وانظر أيضا ما يقوله المقريزى نفسه فى الكتاب المذكور ص ١٥ ، ٣١ ، حيث يرمى الأمويين صراحة بالكفر ، والعياذ بالله .

(٢) سيد قطب — العدالة الاجتماعية فى الإسلام — ص ١٨٥

(٣) المرجع السابق الصفحات من ١٨٢ — ٢١٦

جاهليتهم ؟ وهل غاب ذلك عن رسول الله ﷺ حين سر بإسلامهم وقربهم ، وأسند إلى كثير منهم أخطر الأعمال فيما يتعلق بمصير الدولة وأمنها ، بل فيما يتعلق بعقيدتها حيث اتخذ منهم كتابا للوحى ؟

ومثل آخر من تحامل المعاصرين على بنى امية ، يمثله المرحوم الأستاذ عباس العقاد فى بعض كتاباته ، وبصفة خاصة كتابه « معاوية بن أبى سفيان فى الميزان » حيث عمد إلى تجريح معاوية — الصحابى الجليل — ووصفه بصفات هى أبعد ما تكون عنه ، فالمصادر — حتى المعادى منها لبنى امية — تجمع على أن من أبرز صفات معاوية — رضى الله عنه — الحلم والتسامح والكرم ، وهى صفات جمعت القلوب والفتها حوله ، وتجمع المصادر أيضا على تسمية عام توليته الخلافة بعام الجماعة ، لكن الأستاذ العقاد يخالف ذلك الإجماع ، ويقول عنه : « ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح ، لما وصفة بغير مفرق الجماعات »(٤) هذه امثلة قليلة من حشد كبير من تحامل المعاصرين على بنى أمية(٥) .

---

(٤) ص ٦٦ من الكتاب المشار اليه

(٥) ومن يريد المزيد من امثلة تحامل المعاصرين على بنى امية فليقرأ احدث كتاب يمس الموضوع ، وهو كتاب الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى الذى طبع هذا العام فى دار غريب للطباعة بالقاهرة بعنوان « على إمام المتقين — الجزء الأول — » — والذى نشر قبل ذلك فى جريدة الأهرام فى مقالات أسبوعية ، كانت تظهر كل يوم اربعاء ابتداء من ٥ رمضان ١٤٠٣ هـ حتى ٩ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ .

وليقرأ كذلك مقالات الدكتور حسين مؤنس ، التى بدأ يكتبها فى مجلة اكتوبر الأسبوعية ، تحت عنوان « تاريخ موجز للفكر العربى » ابتداء من العدد ٣٧١ بتاريخ ١٩٨٣/١٢/٤ م والتى حمل فيها على بنى أمية حملة قاسية ، ووصفهم بأنهم « طواغيت » ص ٢٦ من العدد ٣٧١ . ووسم حكومة معاوية ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك « بالظلم والطغيان والاستبداد » ص ٢٤ من العدد ٣٧٢ فى ١٩٨٣/١٢/١١ م . والعجيب فى الأمر أن الدكتور مؤنس يصور الخوارج — وهم المرفوضون والمدانون من الأمة بإجماع علماء اهل السنة — كما لو كانوا هم وحدهم الذين يمثلون الإسلام الصحيح ، وأن بنى أمية كانوا هم الخارجين على الإسلام . =

وإذا كانت تلك آراء بعض المؤرخين والكتاب فى بنى أمية ، فإن هناك فريقا آخر كان لهم من الوعى الفكرى والأمانة العلمية ما منعهم من الاندفاع وراء هذا التيار والانزلاق فى متاهات التعصب الأعمى والجرى وراء التقاط الشائعات والأكاذيب مثل خليفة بن خياط والطبرى وأمثالهما،ولكن المشكلة بالنسبة لهذا الفريق أنهم — من موقع الأمانة العلمية والحياد — قد دونوا فىكتبهم كل ماوصل إليهم من روايات دون نقد أو تحليل، — الا فى القليل النادر — ودون التمييز بين غثها وسمينها ، فحفلت كتبهم بحشد من الروايات المدسوسة والأخبار المتعارضة والآراء المتناقضة ، تاركين كل ذلك — على ما هو عليه — لفطنة الباحث وتمحيص الدارس وتحليل المتخصص ، ولم يفت مؤرخا كبيرا كالطبرى أن ينبه إلى هذا فى مقدمة كتابه ملقيا تبعة ما فى هذه الروايات والأخبار على الرواة ، فيقول : « فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرفَ له وجها من الصحة ، ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من بعض ناقليه إلينا ، وانا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا(٦) » .

وعلى الرغم من ذلكَ فإنه يمكن للباحث المتجرد من الميول والأحكام المسبقة أن يستخلص التاريخ الصحيح ويستكشف وجه الحقيقة لعصر بنى أمية ويضعهم فى المكان اللائق بهم فى مسيرة التاريخ الإسلامى .

= وهكذا نرى أنه لايزال بعض الباحثين يكيل التهم جزافا لبنى أمية ، ويستقى معلوماته عنهم من المصادر المتطرفة فى عدائها لهم ، ويتجاهل — لا ندرى لماذا ؟ — المصادر المحايدة والمعروفة بالاعتدال والنزاهة ، واغلب ظنى لو أن الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى،والدكتور حسين مؤنس ، قد اطلعا على كتب ، مثل كتاب « العواصم من القواصم » لابن العربى ، و « منهاج السنة النبوية » للإمام ابن تيمية ، لغيرا كثيرا من أفكارهما وآرائهما عن بنى أمية .

(٦) تاريخ جـ ١ ص ٢٥ . ولابن الأثير قولٌ مماثلٌ فىَ مقدمة كتابه « أسد الغابة فىَ معرفة الصحابة » جـ ١ ص ١٤ .

وإنما يتأتى له ذلك بأمرين :

١ ـ تمحيص ما حفلت به المصادر الأصلية التقليدية كالبلاذرى والطبرى وابن الأثير ومن على شاكلتهم ، وذلك بمقارنة الحوادث ودراسة ظروفها ودوافعها ، وتحليل الروايات المتعارضة حولها ، وشخصيات القائمين بها والمشتركين فيها .

٢ ـ عدم الاعتماد على هذه المصادر التقليدية وحدها ، فهناك مصادر لايلتفت إليها كثير من الباحثين ، وقد اثبتت التجربة فى هذه الدراسة أن فى كتب مثل « العواصم من القواصم » لابن العربى ، ومنهاج السنة « لابن تيمية ، تفسير كثير من المواقف المنسوبة لبنى أمية ، وكشف المغزى الحقيقى لعديد من القضايا مما يغير تلك الصورة القاتمة المرسومة عنهم فى أذهان بعض الكتاب والدارسين .

هذا وستقوم دراستنا للعالم الإسلامى وأحداثه وقضاياه السياسية فى عصر الدولة الأموية على أساس أنها ـ كغيرها من دول التاريخ ـ لها إيجابياتها وسلبياتها ، ولهذا فنحن نسلط الأضواء على جوانبها السياسية لمعرفة ما لها من حسنات وسيئات آخذين فى الاعتبار الظروف التى كانت تعيشها وأن رجالها ـ كغيرهم من البشر ـ ليسوا معصومين من الوقوع فى الخطأ .

كما أن هناك أمرا ينبغى الحرص على الإشارة إليه وهو أن هذه الدراسة ستتناول أحداثا وقضايا كان كثير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أطرافا فيها ، والصحابة كلهم عدول بتعديل الله ورسوله لهم ، والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى فضلهم وعدالتهم كثيرة(٧) .

---

(٧) انظر فى فضائل الصحابة وعدالتهم : فضائل الصحابة لأحمد ابن حنبل جـ ١ ص ٤٨ وما بعدها . وصحيح البخارى جـ ٢ ص ٢٨٧ وما بعدها . وصحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ص ١٤٨ وما بعدها . وأسد الغابة لابن الأثير جـ ١ ص ٤ وما بعدها ، والإصابة لابن حجر جـ ١ ص ١٠ وما بعدها . ومنهاج السنة لابن تيمية جـ ٢ ص ٢٦٠ وما بعدها .

ولا يحتاج أحـــد منهم — بعد تعديل الله ورسوله لهم — إلى تعديل أحد من الخلق ، يقول ابن حجر : « على أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شىء مما ذكرناه ، لأوجبت الحال التى كانوا عليهــا من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام ... والمناصحة فى الدين ، وقوة الإيمان واليقين القطع على تعديلهم والاعتقاد على نزاهتهم ، وأنهم كافة أفضــل من جميع الخالفين بعدهم(٨) » .

ويقول ابن حزم : « الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعا ، قال الله تعالى (**لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعــد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى**) وقال تعــالى : (**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون**) فثبت أن الجميع من أهل الجنة ، وأنه لايدخل أحد منهم النـــار ، لأنهم المخاطبون بالآية السابقة »(٩) . ولكن هناك فرقا بين العدالة والعصمة من الخطأ ، يقول ابن تيمية : « والقاعدة الكلية فى هــذا أن لا نعتقد أن أحدا معصوما بعد النبى ﷺ فالخلفاء وغير الخلفـــاء يجوز عليهم الخطأ »(١٠) فإذا نسب خطأ إلى هذا أو ذاك من الصحابة ، فلا يظنن أحــد أن ذلك ينقص من قدرهم — حاشا لله — لأن من أخطأ منهم أخطأ مجتهدا ، ولم يتعمد ذلك الخطأ .

وقد أخطأ بعض الصحابة أخطاء جسيمة فى حياة النبى ﷺ فعفــا عنهم ، ولم يؤثر ذلك فى مكانتهم عنده ، فقد كتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بمســير الرسول ﷺ لفتح مكة ، ومع أن هــذه جريمة عقوبتها الإعدام فى كل القوانين — لأنه أفشى أسرارا عسكرية للأعــداء وقت الحرب — إلا أن الرســول ﷺ قبل عذره وعفا عنه(١١) ثم أخطأ

---

(٨) الاصابة جـ ١١/١

(٩) المصدر السابق جـ ١١/١ — ١٢

(١٠) منهاج السنة جـ ١٧٦/٣ — ١٧٧

(١١) ابن هشام — السيرة جـ ٤ ص ١٧

خالد بن الوليد فى قتل من قتل من بنى جذيمة بعد فتح مكة ، وقد غضب منه الرسول غضبا شديدا ، ورفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى ابرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد »(١٢) فرسول الله يبرأ من صنيع خالد ولكنه لم يبرأ من خالد نفسه ، بل اعتبر عمله اجتهادا خاطئا ودفع دية هؤلاء القتلى ، كل هذا يدل على وقوع الخطأ منهم ولكن خطأهم لا يمنع من عد التهم .

وقد اعتمدت فى هذه الدراسة ، على المصادر الأصلية ، مثل تاريخ خليفة بن خياط ، وفتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفتوح البلدان للبلاذرى ، وتاريخ الطبرى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والبيان المغرب لابن عذارى ، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته وغيرها من مؤلفات اهل السنة المعتدلين ، ولم اغفل مصادر المؤرخين المعروفين بميولهم الشيعية ، مثل اليعقوبى وابن قتيبة والمسعودى وابن الطقطقا .

كما رجعت إلى أمهات كتب التراجم والطبقات ، مثل طبقات ابن سعد ، وفضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ، وأسد الغابة لابن الأثير ، والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر وسير أعلام النبلاء للذهبى ، وأهم كتب الحديث مثل صحيحى البخارى ومسلم . ومن أهم الكتب التى أفادت منها هذه الدراسة ، كتاب العواصم من القواصم لابن العربى ، وكتاب منهاج السنة النبوية لابن تيمية . كما أننى رجعت إلى مؤلفات المحدثين فى هذا الموضوع سواء أكانت عربية أم مترجمة من لغات أجنبية وأفدت منها كثيرا .

ولقد كان العزم فى البداية منعقدا على أن يكون هذا الكتاب شاملا لدراسة العالم الإسلامى فى العصر الأموى من جميع جوانبه ، ولكن ضخامة المادة العلمية وتشعبها جعلتنى أقصر الدراسة هنا على الناحية السياسية ، على أن تكون الناحيتان الاجتماعية والاقتصادية موضوع كتاب لاحق إن شاء الله .

---

(١٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٤

ولهذا فقد قسمت الكتاب بعد هذه المقدمة إلى ستة فصول وخاتمة :

وكان الفصل الأول عن قيام الدولة الأموية ، والثانى عن خلفائها ، والثالث عن الفتوحات فى هـــذا العصر وجهود الأمويين فيها وسياستهم فى البلاد المفتوحة ، وتناول الفصل الرابع انتشار الإسلام فى البلاد المفتوحة ، والخامس عن سياسة الأمويين فى مواجهة الأحزاب المعارضة والثورات التى قامت ضد دولتهم ، وكان الفصـــل الســـادس عن سياستهم الداخلية وأسلوبهم الإدارى فى حكم العـــالم الإسلامى مع الإشـــارة إلى الأجهزة والدواوين والنظم ، وفى الخاتمة لخصت ابرز نقاط الكتاب والنتائج التى تضمنهـــا .

وبعد : فإن كنت قد وفقت إلى ما قصدت فالفضل والمنة لله وحـــده وإن كنت قـــد قصرت فالكمال لله وحسبى أننى حاولت ، والله من وراء القصد عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف

غرة رمضان سنة ١٤٠٤ هـ

الأول من يونيو سنة ١٩٨٤ م

الفصل الأول

قيام الدولة الأموية

شهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين :

ينتسب الهاشميون والأمويون إلى جد واحد هو عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة وكان بنو عبد مناف يتمتعون بمركز الزعامة فى مكة ، لايناهضهم فيه أحد من بطون قريش .. وجميع قريش تعرف ذلك ، وتسلم لهم الرياسة عليها (١) .

وترجع زعامة بنى عبد مناف لمكة ورياستهم عليها إلى عهد جدهم قصى ابن كلاب بن مرة الذى استطاع إقصاء خزاعة عن زعامة مكة وتولى زمام الأمر فيها . يقول ابن إسحاق « فولى قصى البيت وأمر مكة،وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهله فملكوه ، فكان قصى أول بنى كعب ابن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه،فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ...(٢) وهكذا جمع قصى فى يده السلطتين الدينية والزمنية فى مكة ، وأصبحت له السيادة عليها ، فلما كبر سنه خص ابنه الأكبر عبد الدار بما كان له من أمر مكة والبيت ، ولعل ذلك كان تعويضا له عما فاته من ذيوع الصيت والشرف الذى كان لبقية إخوته . يقول ابن اسحاق « فلما كبر قصى ورق عظمه وكان عبد الدار بكره ، . وكان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه ، وذهب كل مذهب ..

---

(١) انظر عبد الملك بن حسين العصامى — النجوم العوالى ٣/٢

(٢) سيرة ابن هشام ١٣٦/١ — ١٣٧ — وانظر أنساب الاشراف للبلاذرى جـ ١ ص ٤٩

قال قصى لعبد الدار : أما والله لألحقنك بالقوم ، وإن كانوا قد شرفوا عليك .. فأعطاه داره ، دار الندوة ، والتى لاتقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة(٣) ، وبعد وفاة قصى ، وفى أبناؤه لأخيهم الأكبر عبد الدار ولم ينازعوه فى الأمر احتراما لرأى أبيهم . ولكن بعد وفاة عبد الدار وعبد مناف أجمع أولاد عبد مناف بن قصى ، — عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل — على أن يأخذوا ما بأيدى أبناء عمهم عبد الدار ، من أمر مكة والبيت ورأوا أنهم أولى بذلك لشرفهم وفضلهم فى قومهم ، فنشأ بسبب ذلك نزاع أدى إلى انقسام قريش إلى طائفتين ، طائفة مالت إلى أبناء عبد الدار وعضدتهم ولعلها كانت ترى فى ذلك محافظة على التقاليد والأعراف السائدة ، وطائفة مالت إلى أبناء عبد مناف ولعلها كانت تنظر إلى واقع الأمر من ارتفاع مكانة بنى عبد مناف بين قومهم فرأت أنهم أولى واحق بوظائف الكعبة وأمر مكة(٤) .. وكاد النزاع يؤدى إلى حرب اهلية فى مكة ، بين الفريقين ولكن عقلاء القوم خافوا عاقبة هذا النزاع واثره على مكة كلها فتداركوا الأمر وسعوا فى عقد صلح تقسم بمقتضاه الوظائف على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا ، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام(٥) .

حصل أبناء عبد مناف على الرفادة والسقاية طبقا لما تم الاتفاق عليه فخصوا بها أخاهم هاشم بن عبد مناف لأنه كان أكثرهم ثروة وجاها ، وبعد وفاة هاشم صارتا للمطلب بن عبد مناف ، ثم لعبد المطلب بن هاشم ثم للزبير ابن عبد المطلب ، ثم لأبى طالب بن عبد المطلب ، ثم للعباس بن عبد المطلب(٦) حتى جاء الإسلام ، والأمر على ذلك .

---

(٣) سيرة ابن هشام ج ١٤١/١ — وأنساب الأشراف ج١/٥٣

(٤) سيرة ابن هشام ج ١٤٢/١ — ١٤٣

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٤

(٦) أنساب الأشراف ج١ ص ٥٧ وسيرة ابن هشام ج١ ص ١٤٧ .

ومما تقدم يتضح لنا أن أبنـــاء عبد مناف جميعا ، ومنوم الهاشميون والعبشميون كانوا يدا واحـــدة فى نزاعهم مع أبناء عمهم عبد الدار حول مناصب الكعبة كما أنهم لم يختلفوا على تقسيم ماحصلوا عليه ، بل سلموه لأخيهم هاشم بن عبد مناف لما كان يتمتع به من يسار وسعة فى فى الرزق . وهذا يؤكد أن العلاقات بين الهاشميين والأمويين قبل الإسلام كانت علاقات اخوة متينة وتضامن كامل . حتى جاء الإسلام فوقف معظم الأمويين موقف العداء من الدين الجديد وصاحبه ﷺ ، ثم هداهم الله إليه فانخرطوا فيه يذودون عن بيضته ويشاركون فى فتوحاته . إلى أن قتـــل الخليفة عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، فبدأ النزاع بين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وبين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما ، حول مقتل الخليفة والقصاص من قتلته مما سنفصله فيما بعد . ولكن بعض المؤرخـــين راح يؤصل هذا النزاع بين الهاشميين والأمويين ويعـــود به إلى ما قبل الإســـلام ، فألف المقريزى كتـــابه الذى سماه « النزاع والتخاصـــم فيما بين بنى أميـــة وبنى هاشم » أدعى فيه أن العداوة بينهم مستحكمة وقديمة(٧) .

وهـــذا الذى ذهب إليه المقـــريزى وجاراه فيه كثـــير من الباحثين المحدثين(٨) لاسند له من التاريخ . وكل ما كان بين بنى هاشم وبنى أمية قبل الإسلام لم يكن يخرج عن المنافسة على الشرف والسيادة مثلما حدث بين أبناء عبد مناف بن قصى وعبد الدار بن قصى — كما ذكرنا آنفا — ولم يصل أمر المنافسة هذا إلى خصومة أو حرب بين الهاشميين والأمويين ، بل كانوا إذا تنافسوا فى أمر تنافروا فيه والمنافرة نوع من أنواع الاحتكام إلى أحـــد الكهان — على عادتهم فى الجاهلية — وكانوا يرضون بما يقضى به الكهان ، ومثل ذلك ماحدث بين هاشـــم بن عبد مناف وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف يقول البلاذرى : « كان أمية بن عبد شمس ذا مال ، فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم فى إطعام قريش فعجز عن ذلك ، فشمت به

---

(٧) انظر ص ١١ من الكتاب المشار إليه .

(٨) انظر : على ســـبيل المثـــال : د. عبد المنعم ماجد — التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص١٥

ناس من قريش وعابوه لتقصيره ، فغضب ونافر هاشما على خمسين ناقة سود الحدق ، تنحر بمكة ، وعلى الجلاء عشر سنين ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى وهو جد عمرو بن لحى ، وكان منزله عسفان — فقضى الكاهن لهاشم على أمية — فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر وخرج أمية إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين(٩) .

هذا هو الذى يثبته التاريخ بين هاشم وابن أخيه أمية بن عبد شمس وهو كما قلنا نوع من الاحتكام أو التقاضى ، وكان أمرا شائعا بين العرب وكان الذى يؤدى إليه التنافس على الشرف والسؤدد ، ولم يكن وليد عداء مستحكم بين أبناء العمومة يمنعهم من التضامن والوقوف معا عندما يواجههم خطر يهددهم جميعا ، ولهذا وقفوا صفا واحدا فى حرب الفجار الأخيرة ، التى كانت بين قريش وكنانة وبن قيس عيلان والتى كانت قيادة قريش فيها لحرب بن أمية ، وقد شهدها رسول الله ﷺ وعمره عشرون سنة ، وقال : ﷺ عنها فيما بعد : « كنت أنبل عن أعمامى ، أى : أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها »(١٠) .

بل لدينا من شواهد التاريخ مايدل على قوة العلاقة بين بنى هاشم وبنى امية ، فقد كان عبد المطلب بن هاشم — زعيم الهاشميين فى عصره — صديقا لحرب بن أمية — زعيم الأمويين — كما كان العباس بن عبد المطلب ابن هاشم صديقا حميما لأبى سفيان بن حرب بن أمية ، وفى قصة إسلام أبى سفيان عند فتح مكة ، ودور العباس فيها أكبر دليل على ذلك كما سنذكره بعد قليل ، والغريب أن المقريزى الذى الف كتابا خاصا عن علاقات الهاشميين والأمويين وجعل محوره النزاع والتخاصم ، يعترف بالصداقة الوطيدة التى كانت بين العباس وأبى سفيان(١١) ، فإذا كانت الصداقة قائمة ووطيدة بين زعماء البيتين — الأموى والهاشمى — وهم أبناء أب

---

(٩) أنساب الأشراف جـ ١ ص ٦١

(١٠) ابن هشام جـ ١ ص ٢٠١

(١١) انظر النزاع والتخاصم ص ٢٩ ، ويشير المقريزى إلى دور العباس فى إسلام أبى سفيان وحرصه على ذلك .

واحد ، هو عبد مناف بن قصى ، فإن الحدس بتأصيل النزاع بينهما بعد الإسلام والرجوع به إلى ما قبل الإسلام لا سند له من التاريخ .

أما قصة إسلام أبى سفيان — قبيل دخول الرسول ﷺ مكة ، عام الفتح — ودور العباس فيها ، والذى يعتبر أكبر دليل على قوة العلاقة والمودة بين كبيرى بنى هاشم وبنى أمية ، فملخصها ، كما يرويها ابن إسحاق(١٢) . أن العباس بن عبد المطلب كان حريصا على الا يدخل رسول الله ﷺ مكة عنوة فخرج عله يجد أحدا يبلغ أهلها بمسير رسول الله ﷺ على رأس جيشه لفتحها ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه ، فالقى بأبى سفيان الذى كان بدوره قد خرج يتحسس الأخبار — وكان فرحه بذلك عظيما — فقال لأبى سفيان : « ويحك ياأباسفيان هذا رسول الله ﷺ فى الناس ، واصباح قريش والله !! قال فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قال : ... والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب هذه البغلة ، حتى آتى بك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك » فأخذه إلى رسول الله ﷺ ومازال يستعطفه حتى صفح عنه ، ولم تهدأ نفس العباس حتى تم إسلام أبى سفيان على يدى الرسول ﷺ فهذا الحرص من العباس على إسلام أبى سفيان وتأمينه إلى الحد الذى جعله يغلظ فى القول لعمر بن الخطاب عندما استأذن النبى فى ضرب عنق أبى سفيان — علام يدل ؟ الا يدل على حسن العلاقة بين أبناء العم ؟ ولم يكتف العباس بتأمين أبى سفيان ، بل مازال بالرسول ﷺ حتى أعطى أبا سفيان مالم يعطه احدا من قريش من ميزات .

قال العباس : قلت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال : « نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » (١٣) هذه القصة الثابتة تاريخيا تسد الطريق على كل من يحاول أن يختلق عداوة وخصومة قديمة بين بنى هاشم وبنى أمية ، فلو كان هذا العداء قديما لما كانت أمام العباس فرصة أعظم من هذه ليقتل أبا سفيان ويتخلص منه أو

---

(١٢) أنظر القصة بتمامها فى سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠ — ٢٢

(١٣) سيرة ابن هشام جـ٤ ص ٢٠ — ٢٢ ونسب قريش ص ١٢٢.

يدع عمر يقتله ، ولكنه بذل قصارى جهده فى الحفاظ على سلامته وإسلامه ، بل أغلظ لعمر فى القول ، لما هم بقتله ، ولم يزل برسول الله ﷺ يستعطفه ويسترضيه ، حتى أخذ له منه الأمان ، ولما أسلم اخذ له منه امتيازا على غيره ، كل هـذا يدل على حسن العلاقة بين زعيمى فرعى عبد مناف ، هاشم وامية .

وقد وقف النبى — ﷺ — من بنى أمية واهل مكة جميعـا الموقف الذى يتناسب مع خلقه وعطفه ورحمته ، لا الموقف الذى يستحقونه ، بسابق كفرهم وعنادهم ، ونصبهم الحرب له ، فقد صارت حياتهم معلقة بكلمة منه قال لهم : « يا معشر قريش ما ترون انى فاعل بكم » ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فانتم الطلقاء »(١٤) صدق من سماك بالمؤمنين رؤوف رحيم . هـذا موقف الرسول ﷺ من أهل مكة جميعا بعد فتحها . أما موقف بنى أمية من الرسول ﷺ قبل الفتح فنحن ندينه ، ولا يستطيع احد الدفاع عنه . ولكن هذا الموقف العدائى الذى وقفه معظـم بنى أمية من الرسول ﷺ والإسـلام ، لم يكن ينبعث — فى نظرنا — من عداء قديم مستحكم بين الهاشميين والأمويين ، وإنما كان بسبب المنافسة على الشرف والسؤدد فى بيئة تقيم وزنا كبيرا لهذه الأمور ، فإذا كانوا قد تنافسوا ، وكادوا يقتتلون على أمور مثل السقاية والرفادة .. الخ ، فكيف بالنبوة ، وهى شرف ما بعده شرف ، ولكنهم نسوا أن النبوة هبة من الخالق سبحانه وتعالى ، يهبها لمن يشاء من عباده ، فهو وحده الذى يعلم حيث يجعل رسالته ، فالنبـوة ليست من الأمـور التى يدعيها الناس ويقتتلون عليها ، أو يخصون بها من يشاؤون من زعمائهم ، ولمـا زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم غير جدير بالرسالة ، « **وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** » (١٥) رد الله تعالى عليهم هذا الزعم الباطل فقال : « **اهـم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيـاة الدنيا** » (١٦) وهـذا الموقف العدائى الذى وقفة معظم بنى أمية من الرسول

---

(١٤) ابن هشام المصدر السابق ج ٤ ص ٣٢
(١٥) الزخرف ٣١
(١٦) الزخرف ٣٢

صلى الله عليه وسلم ودعوته ، شاركهـم فيه كثيرون من بطون قريش ، مثل بنى مخزوم وبنى جمح وغيرهم ، كما شاركهم فيه عـدد من بنى هاشم انفسهم ، فعداء أبى لهب عـم النبى ﷺ وابن عمه أبى سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وعقيل بن ابى طالب ، عداء هؤلاء للنبى لم يكن اقل من عداء ابى سفيان بن حرب وبنى أمية له .

ومع ان الجميع اسلموا بعـد فتح مكة ، وحسن إسلامهم ، وابلوا بلاء حسنا فى نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله ، إلا أن بعض الناس نسى كل عداوات قريش للرسول ﷺ ولم يذكروا إلا عداء بنى امية ، وكانهم وحدهم الذين وقفوا هذا الموقف ، ومع أن الإسلام يجب ماقبله ، إلا ان بعض ذوى الأهواء لايريد أن يفهم ذلك،ولا يكفون عن ذكر المواقف السيئة لبنى اميةالتى كانت قبل إسلامهم وكان القوم ما أسلموا أو ما جاهدوا فى الله حق جهاده ، حتى إن هؤلاء المدعين لتأصيل العداوة بين البيتين قديما نسوا أن بعض بنى امية كانوا من السابقين إلى الإسلام ، بل أن عدد السابقين إلى الإسلام من بنى أمية ربما كان أكثر من السابقين إليه من بنى هاشم ، فقد كان عثمان ابن عفان بن أبى العاص بن أمية من السابقين إلى الإسلام ، وكذلك كان ابناء سعيد بن العاص ، خالد بن سعيد وعمرو بن سعيد ، من السابقين إلى الإسلام ، فقد أسلم خالد بن سعيد بن العاص وكان خامسا فى الإسلام كما تقول ابنته أم خالد : « كان أبى خامسا فى الإسلام — اى اسلم بعد اربعة سبقوه فقط — وهاجر إلى أرض الحبشة وأقام بها عشر سنين ، وولدت أنا بها(١٧) وكذلك أسلم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص وهاجر الهجرتين(١٨) . ثم لحق بهما أخوهما أبان بن سـعيد(١٩) ، وكان خالد وأبان ابنـا سعيد بن العاص ، من كتاب الوحى للرسـول ﷺ(٢٠) ولكن رغم إسلام هؤلاء الرجال من بنى أمية منذ البداية ، وتضحياتهم وهجرتهم

(١٧) الذهبى سير اعلام النبلاء ج ١ ص ٢٦٠ — والاصابة لابن حجر ج ١ ص ١٦
(١٨) الذهبى سير اعلام النبلاء ج ١ ص ٢٦١ — والاصابة ج١ص١٦.
(١٩) الذهبى سير اعلام النبلاء ج ١ ص ٢٦١ — والاصابة ج١ص١٥.
(٢٠) أبو الحسن الخزاعى — تخريج الدلالات السمعية — ص ١٥٩

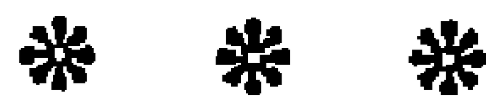
إلى الحبشة ، ورغم إسلام جميع بنى أمية عند فتح مكة ، وترحيب الرسول بهم وفرحه بإسلامهم ، والاعتماد عليهم فى جلائل الأعمال – كما سنذكره بعد قليل – إلا أن كل ذلك لم يشفع لهم عند أصحاب الأهواء ، حتى الكلمات الطيبة التى قالها الرسول ﷺ فى معرض العفو العام عنهم ، وفى اليوم الذى سماه يوم بر ووفاء ، وهى قوله ﷺ « اذهبوا فأنتم الطلقاء » حتى هذا الكلمات ، جعل بعض الناس منها سبة فى جبين بنى امية وحدهم ، وجعلوا يعيرونهم بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء . ولم يفهموا أن هؤلاء الطلقاء وأبناءهم قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وكانت لهم مواقف مشهودة فى نصرة الإسلام فى حياة الرسول ﷺ وبعده فى الفتوحات فى عهد خلفائه الراشدين . يقول الإمام ابن تيمية ردا على صاحب كتاب منهاج الكرامة ، الذى يذم معاوية بأنه طليق ابن طليق . « وأما قوله : إنه الطليق بن الطليق فهذا ليس نعت ذم ، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح ، الذين اسلموا عام فتح مكة ، واطلقهم النبى ﷺ وكانوا نحوا من ألفى رجل ، وفيهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ويزيد بن أبى سفيان وحكيم بن حزام وأبى سفيان بن الحارث ، ابن عم النبى ﷺ الذى كان يهجوه ، ثم حسن إسلامه ، وعتاب بن اسيد ، الذى ولاه النبى ﷺ مكة لما فتحها ، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم ، ومعاوية ممن حسن إسلامهم باتفاق أهل العلم ، ولهذا ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه موضع أخيه يزيد بن أبى سفيان لما مات اخوه يزيد بالشام ... وعمر لم تكن تأخذه فى الله لومة لائم ، وليس هو ممن يحابى فى الولاية ، ولا كان ممن يحب أباه أبا سفيان ، بل كان من أعظم الناس عداوة لأبيه أبى سفيان قبل الإسلام ، حتى إنه لما جاء به العباس يوم فتح مكة كان عمر حريصا على قتله ، حتى جرى بينه وبين العباس نوع من المخاشنة ، بسبب بغض عمر لأبى سفيان(٢١) ، فتولية عمر لابنه

(٢١) لم يكن بغض عمر لأبى سفيان – رضى الله عنهما – لسبب شخصى ، وإنما كان لعداوة أبى سفيان للإسلام قبل أن يسلم ، فلما أسلم وحسن إسلامه ، زال سبب عداوة عمر له ، بل إن عمر كان يحترم أبا سفيان لمكانته فى قومه .

معاوية ليس لهـــا سبب دنيوى ، ولولا استحقاقه الإمارة لمـــا امره ، ثم إنه بقى فى الشام عشرين ســـنة أميرا وعشرين ســـنة خليفة ، ورعيتـــه من اشـــد الناس محبـــة وموافقـــة له ، وهو اعظم النـــاس إحسانا اليهم وتاليفا لقلوبهم »(٢٢) .

فتعبير الأمويين بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء يكشفُ عن الحقد الدفين عند بعض الغـــلاة من الشيعة وغيرهم . فبنوا أمية يدخلون فى جمـــلة مســـلمة الفتح الذين وعدهم الله بالحسنى ، فى قوله تعالى : ((**لايستوىٰ منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل اولئك اعظم درجة من الـــذين انفقوا من بعـــد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير(٢٣)**)) . الله ســـبحانه وتعالى يعدهم بالحسنى ، جزاء قتالهم وجهادهم ، حتى مع تأخر إسلامهم — رحمة منه سبحانه وتعالى .

ولكن بعض أصحاب الأهـــواء من المؤرخـــين يأبى إلا أن يرميهم بالكفر(٢٤) ، نعيذ أنفسنا واياهم بالله من ذلكَ .



---

(٢٢) منهاج السنة جـ ٢ ص ٢٠٢

(٢٣) الحديد — الآية ١٠

(٢٤) انظر ما يقوله المقريزى فى كتابه — النزاع والتخاصم ص ١٥ — فى جراة عجيبة عن رجلٍ من كبار التابعين ، ومن فقهاء المدينة المعدودين وهو عبد الملكَ بن مروان . يقولُ : « ... فإن عبد الملكَ بن مروان ابا الخلفاء من بنى مروان أعرق النـــاس فى الكفر ، لأن جـــده لأبيه الحكم بن أبى العاص .. وجـــده لأمه معاوية بن المغيرة بن أبى العاص » ثم يكرر الكلام نفســـه فى ص ٣١

الأمويون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم

ذكرنا — آنفا — أن معظم الأمويين كانوا قبل فتح مكة بقيادة أبى سفيان بن حرب فى الجبهة المعادية للرسول ﷺ بل كانت لهم قيادة قريش وحلفائها فى كل المعارك ، إلى أن كان فتح مكة فأسلموا جميعا وحسن إسلامهم . وبعد أن أسلموا وعرفوا حقيقة الإسلام وعظمته أدركوا جسامة الخطأ فى تأخرهم عن الإسلام ، وأن هذا التأخير قد نزل بهم درجة من السابقين . كتب أبو سفيان لابنه معاوية بعد أن ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام خلفا لأخيه يزيد . فقال له : « يا بنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقد مهم عند الله وعند رسوله ، وقصر بنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا اتباعا ، وقد ولوك جسيما من أموراهم فلا تخالفهم(٢٥) » .

فهذا كلام رجل مدرك لحقيقة موقفه وموقف أسرته ، نادم على تأخر إسلامه وإسلامهم ، لأن هذا التأخير قعد بهم عن مركز الصدارة الذى كانوا يحتلونه ، فلو أسلموا من البداية لكان لهم التقدم والقيادة ، وفى الحقيقة يمكن القول إن أبا سفيان وسائر بنى أمية ، الذين كانوا يتمتعون بمركز ممتاز فى مكة قبل الإسلام ، قد تصوروا أن الإسلام خطر على مركزهم الاجتماعى والاقتصادى ، فقاوموه وصدوا الناس عنه ، ولو كانوا يعلمون أن الإسلام ما جاء إلا لينتشلهم من وهدة الشرك والوثنية إلى الوحدانية الحقة ، وليفتح أمامهم أبواب المجد الحقيقى لما أبطأوا عنه . فلما تبين لهم ذلك ورأو أمر الإسلام قد ظهر واتضح وعلموا أنه لو كان مع الله إله آخر لأغنى عنهم شيئا — كما قال أبو سفيان — ، وشرح الله صدورهم للإسلام ، أسلموا إسلام الشرفاء ، وأقبلوا على الإسلام يضاعفون جهودهم ليكفروا عن تأخيرهم وسابق عدواتهم ، ويعوضوا ما فاتهم من الجهاد مع رسول الله ﷺ فالقوا بأنفسهم فى معارك الإسلام الكبرى ، غير هيابين ولا وجلين ، واستشهد منهم من استشهد — وهم كثيرون ، ولم يتوان من تأخر به الأجل عن خدمة الإسلام والإخلاص له .

---

(٢٥) البداية والنهاية جـ ١١٨/٨

وقد عرفَ النبى ﷺ للأمويين قــدرهم ، فسر بإســلامهم ، ورحب بهم ، وافســح لهم مكانا فى دولته لتستفيد بجهودهم ومقدرتهم . فقد أعطى الرســول ﷺ لأبى سفيان ميزة لم يعطها أحــدا من اهل مكة ، حين قالَ « من دخل دار أبى ســفيان فهو آمن » وهذا شرفَ كبير حازه أبو سفيان ، يدل على تقــدير الرســول للزعماء وأصحاب الكلمة فى قومهم . واستعملَ الرســول ﷺ أبا سفيان على نجران ، استجابه لطلبه ، كما اتخذ ابنه معاوية كاتبا له . روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ، أن أبا سفيان طلب من النبى ﷺ أن يؤمره حتى يقــاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين ، وان يجعل معاوية كاتبا بين يدية فاستجاب له النبى ﷺ(٢٦) وكان أول وال على مكة ــ وهى أشرف بلاد الله ــ بعد فتحها رجلا من بنى أميــة ، هو عتاب ابن أسيد بن أبى العيص بن امية بن عبد شمس .

يروى ابن اســحاق عن زيد بن اســلم انه قالَ : « لمــا اســتعملَ النبى ﷺ عتاب بن أســيد على مكة رزقه كلَ يوم درهما : فقال أيهــا الناس : أجاع الله كبد من جاع على درهم فقــد رزقنى رسول الله ﷺ كل يوم درهما فليست بى حاجة إلى أحد(٢٧) » .

كما اســتعملَ رسولَ الله ﷺ عمرو بن ســعيد بن العاص بن أمية على قرى خيبر ووادى القرى وتيماء وتبوكَ ، وقبض رسول الله ﷺ وعمرو عليها(٢٨) . كما اســتعمل الحكم بن سعيد بن العاص على سوقَ مكة(٢٩) ، واســتعمل خالد بن سعيد بن العاصى على صــنعاء(٣٠) . واستعمل أبان بن سعيد ابن العــاص على البحرين ، وقبض رسول الله ﷺ وهو عليها(٣١) .

---

(٢٦) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ ص ٦٢ ــ والبداية والنهاية ١١٩/٨

(٢٧) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٦٩ ، ١٤٩ ــ وتاريخ خليفة بن خياط ص ٩٧

(٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١) تاريخ خليفة بن خياط جـ ٩٧ ــ ومنهــاج السنة جـ ٣ ص ١٧٥ ــ ١٧٦

كما كان أبان وخالد ابنا سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان إضافة إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه — من كتاب الرسول ﷺ(٣٢) .

وخلاصة القول : فقد قبض رسول الله ﷺ ومعظم رجالات بنى أمية على مختلف الأعمال ، من الولاية والكتابة ، وجباية الأموال ، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال للرسول الله ﷺ اكثر منهم(٣٣) .

واستعمال النبى ﷺ لأكثر رجال بنى أمية ، أكبر دليل على كفاءتهم وأمانتهم ، فلو لم يكن الرسول ﷺ مطمئنا إلى كفاءتهم وقدرتهم وأمانتهم ، لما عهد إليهم ، بعمل من الأعمال لأن النبى ﷺ لم يكن يحابى أحدا — حاشا لله — ولم يكن يستعمل إلا أهل الكفاية والأمانة ، فهو القائل :

« من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله(٣٤) » . وقد كان بنو أمية — الذين عملوا للرسول ﷺ أهلا للثقة التى اولاهم إياها ، وكانوا عند حسن ظنه بهم ، فلم نسمع ان احدا منهم خان أو غل أو قصر ، ولم يدع أحد من خصومهم شيئا من ذلك(٣٥) . ولم نسمع أن الرسول ﷺ غضب على أحد منهم . وحسبهم ذلك شرفا وفخرا .

الأمويون فى عهد ابى بكر رضى الله عنه :

لحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى بعد ان بلغ الرسالة وادى الأمانة — وبويع أبو بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة ، فسار على نهج الرسول

---

(٣٢) تخريج الدلالات السمعية لأبى الحسن الخزاعى ص ١٥٩ — ١٦٢

(٣٣) منهاج السنة جـ ٣ ص ١٧٥

(٣٤) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١١

(٣٥) العجيب ان المقريزى الذى الف كتابه — النزاع والتخاصم — وملأه بالتشنيع على بنى أمية واتهامهم بأبشع التهم ، لم يستطع أن ينكر أن الرسول ﷺ استعمل بنى امية فى سائر الأعمال ، فهل استعملهم وهم لايستحقون ذلك ؟ ؟

ﷺ فى استعمال بنى أمية ، والاستعانة بهم فى جلائل الأعمال ، وقد استجابوا للصديق ، ولكنهم فضلوا الجهاد فى سبيل الله على الأعمال الإدارية . فاشتركوا فى معارك الإسلام الكبرى فى عهدى الصديق والفاروق ، سواء فى حروب الردة ، أو فى معارك الفتوح فى الشام وفارس . حدث عمرو بن سعيد الأشدق أن أعمامه خالدا وابانا وعمرا ، رجعوا من أعمالهم حين بلغهم موت رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله ﷺ ارجعوا إلى أعمالكم ، فأبوا ، وخرجوا إلى الشام فقتلوا رضى الله عنهم(٣٦) » .

ولما عزم الصديق رضى الله عنه ، على فتح الشام ، عقد لواء من الألوية الأربعة الرئيسية ليزيد بن أبى سفيان ، أسوة بكبار الصحابة — أبى عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة : يقول الذهبى عن يزيد بن أبى سفيان : « وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم ، عقد له أبو بكر ، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه ، وما ذلك إلا لشرفه ، وكمال دينه »(٣٧) . وقد نهض يزيد بمهمته على أحسن وجه ، وكان مثالا للمجاهد المسلم ، بطلا مقداما ، حميد السيرة حسن الأخلاق ، استمر فى جهاده ، يفتح ويغزو ويعلى رايه الإسلام ، حتى وافته منيته فى طاعون عمواس ، فى خلافة الفاروق سنة ١٨ هـ . فتسلم الراية منه اخوه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما الذى كان أبو بكر رضى الله عنه ، قد ارسله ردءا وعضدا لأخيه يزيد ، ناضطلع بمهمة فتح سواحل الشام ، وكان له فيها ذكر حسن واثر جميل(٣٨) .

أما أبوهما أبو سفيان رضى الله عنه ، فقد كان كبر سنه ، ولم يقو على القتال ، ولكنه لم يرض أن يتخلف عن الغزو ومصاحبة جيوش

---

(٣٦) سير اعلام النبلاء جا ص ٢٦٢

(٣٧) سير اعلام النبلاء ج ١ ص ٣٢٨ ومابعدها ، وأنظر كذلك تاريخ خليفة بن خياط ص١١٩ — وأسد الغابة جه ص٤٩١

(٣٨) البلازرى — فتوح البلدان ص ١٦٦ وما بعدها .

الفتح ، فكان دوره تحريض المسلمين على القتال وبث روح الجهاد والتضحية فيهم ، وهو دور لايقل أهمية عن دور المقاتلين يقول المصعب الزبيرى — وعداء الزبيريين للأمويين معروف — : « ذكر سعيد بن المسيب عن أبيه قال : خفيت الأصوات يوم اليرموك إلا صوتا ينادى « يا نصر الله اقترب » فنظرت فإذا أبو سفيان تحت راية ابنه »(٣٩) . ويقول الطبرى : « وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ، فيقول : الله الله : انكم ذادة العرب ، وانصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وانصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك(٤٠) » هذا هو أبو سفيان ، فى مصادر التاريخ الإسلامى الموثوق بها . ولكنه عند بعض الباحثين المحدثين رجل أسلم إسلام الشفة واللسان ، لا إيمان القلب والوجدان وما خالطت قلبه بشاشة الإيمان قط(٤١) ولاندرى كيف أطلع هذا الباحث على قلب صحابى من صحابة رسول الله — تجمع المصادر على أنه أسلم وحسن إسلامه — حتى عرف إن كان الإيمان خالطه أم لا ؟

جاهد أبو سفيان وبنوه واهله فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ووعدهم الله بالحسنى ، ووعده الحق . ومن يرى غير ذلك فحسابه على الله .

وكان على رأس أحد جيوش أبى بكر إلى الشام بطل آخر من أبطال بنى أمية ، وهو خالد بن سعيد بن العاص ، الذى استشهد هو وأخوته — كما ذكرنا آنفا — فى معارك المسلمين مع الروم .

وهكذا استمر الأمويون يعملون فى عهد أبى بكر ، مجاهدين فى سبيل الله ، مفضلين ميادين القتال على الأعمال الإدارية ، ولو كانوا يبحثون عن المناصب والجاه والمال لقعدوا فى ولاياتهم وأعمالهم الإدارية . كما طلب منهم أبو بكر .

---

(٣٩) نسب قريش ص ١٢٢.

(٤٠) الطبرى جـ ٣ ص ٣٩٧

(٤١) سيد قطب — العدالة الاجتماعية فى الاسلام ص ١٨٣.

الأمويون فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

عندما توفى الصديق رضى الله عنه ، فى جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ . وبويع الفاروق بالخلافة ، سار على نهج صاحبيه فى استعمال بنى أمية والثقة فيهم ، فلم يعزل أحدا منهم من عمل ، ولم يجد على أحد منهم مأخذا ، والكل يعرف صرامة عمر ، وتحريه أمر ولاته وعماله ، وتقصيه أعمالهم وأخبارهم ، ومحاسبتهم بكل دقة وحزم ، فاستمرارهم فى عهده يدل على أمانتهم وكفايتهم ، فقد بقى يزيد بن أبى سفيان واليا على دمشق . كما زاد عمر فى عمل معاوية بالشام ، فقد ضم إليه ولاية حمص فوق ما كان يتولاه من أعمل مدن الساحل .

ومما يجدر ذكره هنا أن عمر عزل عن حمص صحابيا جليلا من كبار الصحابة وزهادهم ، هو عمير بن سعد رضى الله عنه ، وكان عمر يسميه « نسيج وحده » ولم يعزله لخيانة ، ولكنه كان يريد رجلا أقوى منه ، فاختار معاوية لقدرته وحزمه وحسن أدائه للأمور . ومما يزيدك يقينا بكفاية معاوية أن عمير بن سعد نفسه شهد له شهادة حق ، فقد روى عنه أنه قال : « لا تذكروا معاوية إلا بخير ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم اهدبه(٤٢) » .

وكما أسند عمر ولاية الشام لمعاوية خلفا لأخيه يزيد بن أبى سفيان سنة ١٨ هـ . كذلك استعمل عمر رضى الله عنه ، رجلا آخر من رجالات بنى أمية وهو الوليد بن عقبة بن أبى معيط . فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٥ هـ(٤٣) أن الوليد بن عقبة كان أميرا على بلاد تغلب وعرب الجزيرة ، يحمى ظهور المجاهدين فى شمال الشام لئلا يؤتوا من خلفهم ، فانتهز الوليد فرصة وجوده وولايته على هذه الجهات ، التى كانت مليئة بنصارى القبائل العربية ، فأخذ مع جهاده الحربى والإدارى ،

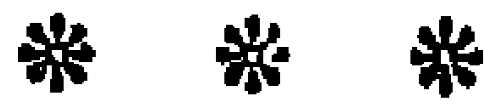
---

(٤٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢٢ ، ويروى أن الذى شهد هذه الشهادة لمعاوية أمير المؤمنين عمر ، فإن كان هو الذى شهدها له وروى دعاء رسول الله ﷺ لمعاوية بأن يهدى الله به ، فذلك أمر عظيم لعظم مكانة عمر . انظر العواصم . هامش ص ٨٣

(٤٣) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٦٠٢

يدعوا إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على اعتناق الإســـلام .

وهكذا استمر الأمويون فى خلافة الفاروق ، وكانوا من خيرة عماله ، وعلى كثرة محاسبة عمر للولاة والعمـــال وعزل بعضهم بسبب التقصير أو الإهمال ، فقد بقى معـــاوية طوال خلافته ، فى عمله مواجهـــا للروم واقفا لهم بالمرصاد . ضابطا لعمله قائما فيه بالقسط ، مرضيا عنـــه من الرعية ومن الخليفة .



الأمويون فى خلافة عثمان رضي الله عنه

تولى عثمان بن عفان الخلافة بعد استشهاد عمر رضى الله عنهما فى أواخر ذى الحجة سنة ٢٣ هـ ، وذلك طبقا للمنهج الذى وضعه عمر قبل وفاته لاختيار من يخلفه فى إمارة المؤمنين ، وحيث لم يكن هناك نظام ثابت ، أو قاعدة محددة مقررة لشغل منصب الخلافة ، فإن هذه القضية تقع فى دائرة الاجتهاد ، وتبادل الآراء والمشورة ، للوصول إلى أفضل الطرق لشغل هذا المنصب الخطير . ولقد فكر عمر – رضى الله عنه – طويلا فى هذا الأمر وقلبه على جميع الوجوه وهو يعانى من آلام الطعنة الغادرة ، التى سددها إليه ابو لؤلؤة المجوسى ، فاستبعد أن يعهد إلى شخص بعينه ، كما صنع أبو بكر معه ، ولابد أن عمر كان مقتنعا بأن هذه الطريقة لم تعد ملائمة ، كما أنه لم يشأ أن يترك المشكلة بدون حل والأمة بدون إمام . فهداه تفكيره إلى أسلوب جديد ، وهو جعلها شورى بين ستة من كبار الصحابة ، الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة وتوفى وهو عنهم راض ، وهم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، رضى الله عنهم جميعا .

وبعد مشاورات طويلة ، وفى جو من الحرص التام على مصلحة الأمة ، وعلى جمع الكلمة فى هذا الوقت العصيب ، الذى صاحب موت الفاروق رضى الله عنه ، وقع الاختيار على عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فاختيار عثمان ، جاء ثمرة التشاور بين كبار الصحابة من أهل الشورى ومن غيرهم ، وهم جميعا أهل لهذه المسئولية وأمناء على مصالح الأمة ومستقبلها ، لايتطرق الشك إلى إخلاصهم وسلامة نواياهم .

والطريقة التى اختير بها عثمان رضى الله عنه ، أحيطت بكل الضمانات التى تكفل الوصول إلى شغل منصب الخلافة ، وبأسرع ما يمكن ، لتستمر مسيرة الأمة .

وعلى كل حال عرضنا هنا بإيجاز موضوع اختيار عثمان وبيعته وخلافته فى هذا البحث ، لنكشف زيف ما يثيره البعض حول علاقة

بنى أمية بموضوع اختيار عثمان رضى الله عنه من ناحية ، واستغلالهم لخلافته للتمكين لأنفسم فى الدولة الإسلامية ، تمهيدا للوثوب إلى منصب الخلافة نفسه فى نهاية الأمر من ناحية ثانية . فقد جنح الخيال ببعض الباحثين إلى القول بأن الدولة الأموية قامت بالفعل فى عهد عثمان(٤٤) . وسيتضح لنا أن هذا القول لا يستند على أساس من الواقع التاريخى ، ولا يقوم عليه دليل مقنع .

ففيما يتعلق بالنقطة الأولى ، وهى علاقة بنى أمية باختيار عثمان لمنصب الخلافة ، فإننا نقرر أن المصادر الإسلامية الموثوق بها ، لاتمدنا بأية معلومات عن أى دور لبنى أمية فى هذا الاختيار ، لأن هذا الأمر كان موكولا لكبار الصحابة من السابقين ، بل إلى عدد محدود منهم ، وهم الستة الذين رشحهم عمر ، وحصر الأمر فيهم ليختاروا واحدا منهم ، فاختاروا عثمان ، ولما بايعه أهل الشورى ، بايعه المسلمون الموجدون فى المدينة ، من صحابة وتابعين ، ولم يتخلف عن بيعته أحد(٤٥) . ولما صارت بيعتهم له إلى الامصار بايعه الناس كلهم ، ولم يتخلف احد ، ولم يعترض أحد . فالزعم بأنه كان لبنى أمية دور فى ذلك ، زعم لايسنده أى دليل ، ولن نطيل الوقوف عند هذه النقطة ، فالحق فيها واضح بين .

اما النقطة الثانية ، وهى استغلال بنى أمية لخلافة عثمان ، واستحواذهم على الولايات الكبرى ، وعلى النفوذ فى الدولة كلها ، فهى التى تستحق البحث والتمحيص ، لبيان وجه الحق فيها ، لأنها كانت أكبر المآخذ التى ادعاها خصوم عثمان رضى الله عنه وأثاروا عليه الناس بسببها ، وشغبوا عليه وقتلوه ظلما من أجلها ، ونكبوا الإسلام

---

(٤٤) يقول سيد قطب فى كتابه العدالة الاجتماعية فى الإسلام ص ١٩٤ — ما نصه : « مضى عثمان إلى رحمة ربه ، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل ، بفضل ما مكن لها فى الأرض وبخاصة فى الشام ، وبفضل ما مكن للمبادىء الأموية العريقة المجافية لروح الإسلام . من الاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع ... الخ .

(٤٥) منهاج السنة جـ ١ ص ١٤٣ — وانظر قصة الشورى وبيعة عثمان بتمامها فى الطبرى جـ ٤ ص ٢٢٧ ومابعدها .

والمسلمين بجريمتهم الشنعاء ، حيث حصروا أمير المؤمنين ، ومنعوا عنه الماء ، وهو الذى كان قد اشترى بئر رومة للمسلمين من ماله الخاص ، ليشربوا منه ، وكان دلوه فيها كسائر دلائهم وقتلوه وهو يقرأ القرآن .

فهل مكن عثمان فعلا لبنى أمية فى الدولة الإسلامية ، ومهد لقيام الدولة الأموية ؟ عندما توفى عمر وبويع عثمان ، رضى الله عنهما ، كان على رأس الولايات الكبرى فى الدولة الإسلامية ، المغيرة بن شعبة فى الكوفة ، وأبو موسى الأشعرى فى البصرة ، ومعاوية بن أبى سفيان فى الشام ، وعمرو بن العاص وعبد الله بن سعد فى مصر(٤٦) وقد بقى هؤلاء الولاة على ولاياتهم فى مطلع خلافة عثمان ، دون تغيير يذكر . ثم بدأ التغيير ، فلماذا وكيف غير عثمان بعض ولاته ؟ وسنقصر كلامنا على هذه الولايات الأربع الكبرى لأهميتها ولان التغيير شمل معظمها ومنها جاءت الشكوى والفتنة ، وسنبدأ بمصر .

ولاية مصر فى عهد عثمان :

كان على مصر فى بداية عهد عثمان أميران ، هما عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبى سرح . يقول ابن عبد الحكم « فتوفى عمر رحمة الله عليه ، ومصر على أميرين ، عمرو بن العاص بأسفل الأرض ، وعبدالله بن سعد بن أبى سرح على الصعيد »(٤٧). فلما توفى عمر، أبقى عثمان الأمر على ماكان عليه ، لكن عمرو بن العاص طلب من عثمان عزل عبدالله بن سعد وأن يفرده وحده بولاية مصر . فأبى عثمان ، فاستعفاه عمرو فأعفاه ، وهذه رواية ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد ، حيث يقول : « وطمع عمرو بن العاص لما رأى من عثمان أن يعزل له عبدالله بن سعد عن الصعيد ، فوفد إليه وكلمه فى ذلك ، فقال له عثمان : ولاه عمر بن

(٤٦) انظر الطبرى جـ ٤ ص ٢٤١ — وتاريخ خليفة ص ١٥٥ — وفتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١١٨ — والكندى كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ١١

(٤٧) فتوح مصر ص ١١٨.

الخطاب الصـــعيد ، وليس بينه وبينه حرمة ، ولاخاصة ، وقد علمت أنه أخى فى الرضاعة ، فكيف أعزله عما ولاه غيرى ... فغضب عمرو وقال : لســت راجعــا إلا على ذلك ، فكتب ابن عفــان إلى عبد الله بن سعد يؤمره على مصر كلها ... فلبث عبدالله بن ســعد عليها أميرا محمودا ، وغزا فيهــا ثلاث غزوات كلهن لها شــأن ، افريقية والأســاور وذات الصوارى(٤٨) » .

هــذه رواية مــؤرخ مصر الإســلامية ابن عبدالحكم — عن فقيهها الليث بن سعد — ويؤيده فيها الكندى ، ومنها يتضح أن عثمان لــم يعزلْ عمرا ، وانما هو الــذى أبى العودة إليهــا إلا على شرط الإنفراد بهــا فكأنه استقالَ من ولايته ولم يعزلْ .

ولكن الأمر صــور عند بعض الباحثين على غير حقيقته ، فزعموا أن عمرا كان واليا وحيدا على مصر ، ولــم يذكروا شيئا عن ولاية عبدالله ابن سعد على الصعيد من قبلَ عمر بن الخطاب ، وادعوا أن عثمان عزلْ عمرا وولاه على مصر لأنه أخــوه من الرضــاعة . محاباة له ، والقصــد من هــذا واضح ، وهو تعميق الإحساس عند النــاس بأن أمر الولاية والعزل فىَ عهد عثمان لم يكن يخضــع لاعتبارات الأمانة والمصلحة العامة ولكن كان لإرضاء الأقرباء وتحقيق سيطرتهم على مقاليد الحكم فى الدولة ، وأن هؤلاء الأقرباء لم يكونوا أهلا للولاية .

وإليكَ ما يقوله مؤلفَ كتاب الفتنة الكبرىٰ بهــذا الصدد : « فإذا تركنا الشــام ، ومضــينا نحو الغرب انتهينا الى مصر ، وكان عمر قد تركَ عمر وبن العاص واليــا عليها ، فأقره عثمان ، كمــا أقــر غيره من عمــال عمر وقتاما . ولكن العــام الأولْ من ولاية عثمان لم يكد ينقضى حتى جعلت قرابة عثمان تنظر إلى مصر نظرة لا تخلو من طمع فيها وطموح إليهــا ، والناس يختلفون فى عــزل عمرو عن مصر ، وتولية عبدالله بن ســعد بن أبى سرح عليها ، فقوم يزعمون أن المصريين شكوا عمرا إلى

---

(٤٨) فتوح مصر ص ١١٨ — ١١٩ وانظر الولاة والقضاء للكندى ص ١١

عثمان فعزله عنهم ، وآخرون يزعمون أن عمرا لم يعزل لسخط المصريين عليه أو ضيقهم به ، وإنما هو الكيد عزل أميرا وولى مكانه أميرا آخر . والشيء البين من أحاديث الرواة ، هو أن عثمان كان يرشح عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، أخاه من الرضاعة لأمر عظيم(٤٩) » .

فالشيء البين لدى هذا الكاتب هو أن عثمان كان يرشح أخاه لأمر عظيم ، وأن هذا الأمر العظيم هو ولاية مصر ، التى أنتزعها من عمرو ابن العاص — فى رأيه — وأسندها إلى أخيه . ولم يذكر لنا الكاتب من هم هؤلاء الرواة ولا ماهى أحاديثهم التى أستقى منها هذا الأمر البين ؟ ولم يذكر شيئا عن ولاية عبد الله بن سعد على الصعيد من قبل عمر بن الخطاب ، ليوحى للقارىء ، أن عثمان جاء بأخيه ووضعه على هذه الولاية الخطيرة ، لمجرد انه أخوه .

ولاندرى إذا كان هذا الكاتب يعتبر ابن عبدالحكم والكندى — وهما من أوثق المصادر فى تاريخ مصر الإسلامية — من الرواة أم لا ؟ ولماذا أعرض عن ذكرهما لولاية عبدالله بن سعد على الصعيد منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؟

وعبد الله بن سعد ، عند ابن عبد الحكم والكندى والذهبى أمير محمود السيرة : يقول الذهبى عنه : « عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى قائد الجيوش ، أبو يحيى القرشى العامرى ... وكان فارس بنى عامر ، المعدود فيهم ، غزا افريقية ... (٥٠) » . ولكنه عند مؤلف الفتنة الكبرى شخص آخر تماما ، غير الذى يعرفه علماء المسلمين ، فهو يقول عنه : « ولم يكن عبد الله بن سعد رجل صدق ، ولم يكن المسلمون يرضون عنه (٥١) » ويذكر بعد ذلك ردته وسخريته بالقرآن — بعد أن كان من كتاب الوحى — وإهدار الرسول ﷺ دمه يوم فتح مكة .

---

(٤٩) انظر الفتنة الكبرى د. طه حسين . عثمان ص ١٢٢

(٥٠) سير اعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣٣ — وانظر ابن عبد الحكم . فتوح مصر ص ١١٩ والكندى . الولاة والقضاة ص ١١ وما بعدها .

(٥١) الفتنة الكبرى ، عثمان ص ١٢٤

وهـــذا كله حق لاريب فيه ، ولكن الحق الذى لاريب فيه كذلك أن الرجل أسلم يوم فتح مكة ، وحسن إســـلامه ، وعفـــا عنه الرسول ﷺ . يقول عنه الذهبى : « إن عبدالله بن ســـعد أسلم يوم الفتح ، ولم يبعد ولافعل ماينقم عليه بعدها ، وكان أحـــد عقلاء الرجال واجوادهم (٥٢) »والذهبى مؤرخ ومحدث ومن علماء الرجال ، فلو كان فى إسلام عبد الله بن سعد بعد الفتح أى مطعن لمـــا سكت عليه . ولو كان عبدالله بن سعد رجـــلا غير صادق ما أســـند إليه عمر بن الخطاب عملا ، ولكن بعض المغرضين لايكفون بين الحين والآخر عن ترديد نفس المزاعم الباطلة والافتراءات التى كان السبئية يرددونهـــا عن عثمان بن عفان وولاته ، قصـــدا إلى تشويه حقائق التاريخ أو قصورا منهم عن استيعاب احداثه .



ولاية الكوفة فى عهد عثمان :

كانت الكوفة من الولايات التى حدث فيهـــا التغيير ، وانبعثت منها الفتنة فى عهد عثمـــان رضى الله عنه ، فلماذا كان التغيير ؟ وكيف نشأت الفتنة ؟

عند وفاة عمر رضى الله عنه ، كان المغيرة بن شـــعبة واليا على الكوفة ، فعزله عثمان فى الســـنة الأولى من خلافته .

وولى مكانه ســـعد بن أبى وقاص ، عملا بوصية عمر بن الخطاب حيث قـــال عند موته : « أوصى الخليفة من بعـــدى أن يستعمل سعد بن أبى وقاص ، فانى لم أعزله عن ســـوء ، وقد خشيت أن يلحقه من ذلك وكان أول عامل بعث به عثمان ، سعد بن أبى وقاص على الكوفة ، وعزل المغيرة بن شعبة(٥٣) » .

(٥٢) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣٤
(٥٣) الطبرى تاريخ ٤/٢٤٤

مكث سعد بن أبى وقاص فى ولاية الكوفة عامـا وبعض عام ، واليا على صلاتها وحربها ، وعبد الله بن مسـعود على خراجها — اى على بيت المـال — ثم نشأ خلاف بينهما بسبب قرض اقترضه سـعد من بيت المـال حين طالبه عبد الله بن مسعود بتسديده ، وتطور الخلاف إلى ملاحاة بالكلام ، وارتفع أمرهما إلى عثمان فغضب عليهما ، وهم بهما — كما يروى الطبرى — لكنه ترك ذلك ، واكتفى بعزل سـعد ، وولى مكانه الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وهو أخـوه لأمه ، وهو فى الوقت نفسـه من البيت الأمـوى .

وكانت ولاية الوليد على الكوفة من أسباب الطعن على عثمـان ، والشـغب عليه من دعاة الفتنة ، الذين اتهموه بأنه ولى أقرباءه وترك كبار الصحابة .

وحقيقة الأمر أن القضـية لم تكن ولاة عثمان وقرابتهم منه ، وما نسب إليهم من أعمال ولفق لهم من تهم ، لم يكن كل ذلك سـبب الفتنة ، وإنمـا كانت هناك أيد خفية تنسـج خيوطها للفتك بدولة الإسـلام ، لا بالخليفة وحده ، وسيتضح لنا ذلك جليا مما سنذكره من أحداث .لقد كان الوليد بن عقبة واليا لعمر بن الخطاب على تغلب وعرب الجزيرة — كما ذكرنا سابقا . وإذن فهو رجل ليس من عامة القوم ، بل من المشهود لهم بالكفاءة والعدل وقوة العزيمة ويؤيد ذلك ما قام به من أعمـال عظيمة فى ولايته لعمر ، وما كان له من أيادى فى خدمة الإسلام ، فاختيار عثمان له بعد ذلك كان عن تجربة سابقة أهلته لولاية أخطر الأمصار واكثرها شغبا ، فلقـد كانت الكوفة منبع المتاعب والفتن منذ عهد عمر رضى الله عنه ، فقد ضج منهـم عمر وبرم بهم ، لكثرة شغبهم على الولاة ، وروى عنه قوله : « لايرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير »(٥٤) .

يروى الطبرى عن الشـعبى ، أن الكوفـة كانت أول مصر نـزغ الشـيطان بينهم فى الإسلام(٥٥) . لأنهم شغبوا على أميرهـم الوليد بن

(٥٤) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ — جـ ٣ ص ٣٢
(٥٥) تاريخ ٢٥١/٤

عقبة واتهموه بأقبح التهم ، مع أن الرجل كان كما يروى ثقــاة المؤرخين من خيرة الولاة ، ومن أهــل الجهاد والغزو والعــدل والصلاح . يقول الطبرى : فقــدم الكوفة وكان أحب النــاس فى النــاس وأرفقهم بهم ، فكان ذلــك خمس ســنين ، وليس على داره باب »(٥٦) . ويقول : « كان الوليد أدخل على الناس خيرا . حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ، ولقــد تفجع عليه الأحرار والمماليك »(٥٧) . ويقول : « كتب إلى السرى عن شعيب عن سيف عن الفيض بن محمد قال : رأيت الشعبى جلس إلى محمد بن عمر بن الوليد — ابن عقبة — ، فذكر غــزو مسلمة — ابن عبد الملك — فقال : كيف لو أدركتم الوليد غزوه وإمارته ! إن كان ليغزوا فينتهى إلى كذا وكذا ، ماقصر ولا انتقض عليه أحد ، حتى عزل عن عمله(٥٨) » .

هذا هو الوليد بن عقبة كما يراه علماء الأمة ومؤرخوها فماذا فعل معه أهل الكوفة وماذا تقولوا عليه ؟ . لقد افتروا عليه كثيرا من الافتراءات ، ولفقوا له تهما باطلة ، كان أخطرهــا ، اتهامه بشرب الخمر ، وقد شهدوا عليه بذلك عند عثمان وأقام عليه الحد ، وعزله عن الكوفة ، فهل كانت هذه التهمة صحيحة ؟ إن المصادر التى تناولت هذه القصة تشير إلى أن هــذه التهمة باطلة ، لفقها قــوم موتورون ، لأن الوليد أقام الحــد على أبنائهم بسببجريمة سرقة ارتكبوهــا . وملخص القصة كما يرويهــا الطبرى : « أن بعض شباب أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعى داره ثم قتلوه . وأحاط الناس بهم ، فأخذوهم ، وفيهم زهير بن جندب الأزدى ، ومورع بن أبى مورع الأسدى ، وشبيل بن أبى الأزدى ، فى عدة ، فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهــم دخلوا عليه . . .فقتله بعضهم ، فكتب الوليد فيهم إلى عثمان،فكتب إليه فى قتلهم،فقتلهم على باب القصر فى الرحبة(٥٩)» .

---

(٥٦) تاريخ ٤/٢٥٢

(٥٧) تاريخ ٤/٢٧٧ — ٢٧٨

(٥٨) تاريخ ٤/٢٧٤ — وانظر ترجمة الوليد بن عقبــة فى نســب قريش — ص ١٣٨ — وأسد الغابة ٥/٤٥١ وسير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤١٢ والبداية والنهاية جـ٨/٢١٤

(٥٩) تاريخ جـ ٤ ص ٢٧١ — ٢٧٢

ولكن آباء هؤلاء القتلة ، الذين قتلوا قصاصا ، حقدوا على الوليد ، واخذ يتجسسون عليه ، ويتربصون للإيقاع به ، حتى كان لهم ماأرادوا فى نهاية الأمر .

يقول الطبرى : « فأتى آت أبا زينب وأبا مورع وجندبا ، وهم يحقدون له مذ قتل أبناءهم ، ويضعون له العيون ، وقال لهم : هل لكم فى الوليد يشارب أبا زبيد(٦٠) ؟ فثاروا فى ذلك ، فقال أبو زينب وأبو مورع وجندب لأناس من وجوه أهل الكوفة ، هذا أميركم ، وأبو زبيد — الشاعر — خيرته ، وهما عاكفان على شرب الخمر ، فقاموا معهم — ومنزل الوليد فى الرحبة : وليس عليه باب — فاقتحموا عليه من المسجد وبابه إلى المسجد ، فلم يفجأ الوليد إلا بهم ، فنحى شيئا فأدخله تحت السرير ، فأدخل بعضهم يده فأخرجه لايؤآمره ، فإذا طبق عليه تفاريق عنب ، وإنما نحاه استحياء أن يروا طبقه ليس عليه إلا تفاريق عنب ، فقاموا فخرجوا على الناس ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وسمع الناس بذلك . فأقبل الناس عليهم يسبونهم ويلعنونهم(٦١) » . إلى هذا الحد يصل الافتراء والمكر وسوء الأدب بهؤلاء القوم فيقتحمون على الأمير داره دون أذن منه ، وهو أمر فى حد ذاته مناف تماما لآداب السلوك الإسلامى وتعاليم الشريعة السمحة مع عامة النس ، فكيف بالأمير وهو لم يكن يعاقر خمرا أو يرتكب إثما ! . ولما علم الناس بفعلتهم سبوهم ولعنوهم . ومع سوء صنيعهم ، فقد كان الوليد كريما معهم حليما عليهم،فلم يفضحهم ، وتغاضى عن فعلتهم .

---

(٦٠) أبو زبيد شاعر جاهلى إسلامى ، كان يقيم عند أخواله بنى تغلب أثناء إمارة الوليدبن‌عقبة على بلادهم،وكان وقع‌عليه ظلم واضطهاد ، فأخذ له الوليد بحقه ، فشكرها له ، وانقطع إليه . فلما ولى الوليد الكوفة أتاه مسلما معظما على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة ، وكان يغشى مجلس الوليد كثيرا للمودة التى كانت بينهما فلفقت لهما هذه التهمة الخطيرة — انظر الطبرى جـ ٤ ص ٢٧٣

(٦١) تاريخ ٢٧٤/٤

يقول الطبرى : « فستر عليهم الوليد ذلك ، وطواه عن عثمان ، ولم يدخل بين النـــاس فى ذلك بشىء ، وكره أن يفســـد بينهم ، فسكت عن ذلك وصـــبر(٦٢) » .

ولكنهم لم يكونوا أهلا للعفو والصفح ، فقــد تأصل الحقد والغل فى قلوبهم ، ولهذا أخذوا فى مواصلة المكيدة للأمير وجندوا بعضـــا من الذين كان قد عزلهم عن بعض الأعمال ، وأوعزوا إليهم بالذهاب إلى عثمان رضى الله عنه فى المدينة ، واتهام الوليد بشرب الخمر ، فلما كلموا عثمان فى ذلك ، قال لهم : من يشـــهد ؟ قالوا أبو زينب وأبو مورع ، فاستدعاهما ، وقال لهما : كيف رأيتما ؟ قالا : كنا من غاشيته ، فدخلنا عليه وهو يقيىء الخمر فقال ما يقيىء الخمر إلا شاربها ، فبعث إليه ، فذهب إليه ، وحلف أنـــه ما شرب ، وأنهم كاذبون ، وأخبره خبرهم ، ولكن عثمان قال له : « نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار ، فأصبر يا أخى ، فأمر سعيد بن العاص فجلده(٦٣) » .

ثم عزله عن ولايةالكوفة ، وهكذا ذهب الحقدوالكيد والوشاية برجل من خيرة الولاة ، حزمـــا وعزما وغزوا وإحسانا للناس ، حتى لقـــد اعتبر عزله عن الكوفة مصـــيبة عند صلحاء أهلها ، وبكاه الأحرار والمماليك .

هكذا كان الوليد بن عقبة عند كبار المؤرخين ، ولكنه عند الدكتور طه حسين شىء آخر فهو يقول :

« وجملة القول أن الوليد إنما كان رجلا من قريش ، أسلم إســـلاما ظاهرا ، واحتفظ بجاهليته كلهـــا ... ومهما يكن من شىء فقـــد عزل الوليد ، وذوو الرأى فى الكوفة ضـــيقون به ساخطون عليه(٦٤) » .

---

(٦٢) المصدر السابق ٤/٢٧٤

(٦٣) نفسه ٤/٢٧٦ — وانظـــر القصة بتمامها فى نفس المصـــدر ٤/٢٧٢ — ٢٧٨

(٦٤) الفتنة الكبرى . عثمان ص ٩٨ — ١٠٠

ولاندرى كيف أطلع هـذا الرجل على قلب الوليد ـ بعد هذه القرون الطويلة ـ حتى عرف أن إسلامه كان ظاهريا فقط ، وأنه احتفظ بجاهليته كلها ، ومن أى مصـدر عرف أن ذوى الرأى فى الكوفة كانوا ضيقين به ، ساخطين عليه ؟ مع أن الطبرى يقـول : « ولقـد تفجع عليـه الأحرار والمماليك(٦٥) » .

ثم كيف يستعمل أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ رجلا كان إسلامه ظاهريا ويثقون فيه ، وأمامهما آلاف من المسلمين ، فهل خدعهما الوليد ؟ حتى جاء صاحب الفتنة الكبرى ليكشف لهما أنهما كانا مخدوعين فيه !!

ولمصلحة من يشـوه التاريخ الإسـلامى ، وتلطخ سـمعة رجاله وقواده الأبطال الـذين حملوا راياته ورفعوها عالية خفاقة ، وهل هناك أمة تصنع بأبطال تاريخها ، كما نصـنع نحن بأبطال تاريخنـا ؟ فبدلا من أن ندرس سيرتهم وأمجادهم لأبنائنا حتى يشبوا على الرجولة والفضيلة ، نقدمهم لهم جاهليين منافقين ، مقترفين لمـا حرم الله .

ولاية سعيد بن العاص على الكوفة :

عزل عثمان بن عفـان الوليد بن عقبة عن الكوفة سـنة ٣٠ هـ ـ وولى عليها سـعيد بن العاص ، فلما دخلها وجدهـم بشر حال ، وقـد أطلت الفتنة فيها بخطمها وعينيها . كما جاء فى أول تقرير بعثه إلى الخليفة بعد وصـوله مباشرة ، حيث جاء فيه : « إن أهـل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسـابقة والقدمة ، والغالب على تلك البلاد ، روادف ردفت وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولابلاء من نازلتها ولانابتتهـا(٦٦) » .

لقد وقع البلاء اذن بين أهل الكوفة ، ونبتت فيها الفتنة ، وافرخت ، حتى اصطلى المسلمون جميعا بنارها ، وفى مقدمتهم الخليفة المظلوم نفسه . فقد غلب عليها اجلاف العرب ، الذين لم يتشرفوا بصحبة الرسول ﷺ ولم

(٦٥) تاريخ جـ ٤/٢٧٨
(٦٦) المصـدر السابق ٤/٢٧٩

يتأدبوا بآ دابه وقد وجد فيهم عبد الله بن سبأ ضالته ، ونفث فيهم سمومه ، وأشعل بينهم نار الفتنة التى لم يستطع أحد إطفاءها .

كان رد عثمان رضى الله عنه ، على رسالة سعيد بن العاص « أما بعد ، ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليهم تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم ، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق ، وتركوا القيام به . وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ، وأعطهم جميعا بقسطهم من الحق ، فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل(٦٧) » .

« فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية ، فقال : أنتم وجوه من وراءكم ، والوجه ينبىء عن الجسد ، فأبلغونا حاجة ذى الحاجة ، وخلة ذى الخلة ، وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف ، وخلص بالقراء والمتسمتين فى سمره ، فكأنما كانت الكوفة يبسا شملته نار ، فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم ، وفشت القالة والإذاعة(٦٨) » .

يتضح من هذا حرص الخليفة ، وواليه على الكوفة على إقامة الحق والعدل ، ومعرفة أقدار الناس والإحسان إليهم ، وسد حاجاتهم ، كما أن سعيدا أتخذ من القراء والصالحين بطانة وسمارا ، مما يدل على رغبته فى العدل والإصلاح . ولكن خطة التآمر مضت فى طريقها تفسد كل رغبة فى الإصلاح ، ففشت قالة السوء واضطرمت الكوفة نارا .

أمام هذا الوضع المتدهور فى الكوفة ، لم يجد سعيد بن العاص بدا من الكتابة إلى عثمان رضى الله عنه ، يشرح له الموقف . فجمع عثمان الناس فى مسجد الرسول ﷺ ووضح لهم الأمر ، وأخبرهم بأن إذاعات السوء قد فشت فى الكوفة ، واستشارهم ، فأجمعوا على أخذهم بالشدة والحزم ، وعدم التساهل ، ونصحوه بألا يطمعهم فيما ليسوا له بأهل . لأن الأمور إذا نهض بها من ليس لها بأهل أفسدها . ولكن عثمان رضى الله عنه

---

(٦٧) المصدر السابق ٤/٢٧٩

(٦٨) المصدر السابق ٤/٢٧٩

كان لديه إحساس بخطورة الموقف دل عليه قولـه لهم : « يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا فقد دبت إليكم الفتن(٦٩) » .

نعم دبت الفتن : وأشار الناس على الخليفة بالحزم والضرب على أيدى العابثين ، الذين أخذوا يعكرون صفو الأمة . ولكن الخليفة يرحمه الله ، غلب عليه اللين والعطف ، فلم يقابل الأمر بما كان يستحقه، فاستمرأ هؤلاء القوم هذا اللين ، ومضوا فى غيهم وضلالهم ، يتزعمهم فى ذلك الأشتر النخعى ويزيد بن قيس .

جمع عثمان رضى الله عنه ، عماله ، معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الله ابن سعد وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، وأدخل معهم عمرو بن العاص ، ليشاورهم فى الأمر ، وأشار كل واحد بما يراه لإصلاح الأحوال(٧٠(. ولما أزمعوا العودة إلى أعمالهم ، وسار سعيد بن العاص إلى الكوفة ، سبقه إليها الأشتر ، ليفسد قلوب الناس عليه وعلى الخليفة ، ويوغر صدورهم فقال لهم: إن سعيدا عازم على إنقاص أعطياتكم . « ويزعم أن فيأكم بستان قريش . فاستخف الناس ، وجعل أهل الحجى ينهونه فلا يسمع منهم(٧١) » .

نجح الأشتر فى تأليب النـاس ، وأحيا فيهم النزعة العصبية البغيضة ، فمنعوا سعيدا من دخول الكوفة ، وأعدوا له من الذين استهوتهم الفتنة ، واستخفهم الأشتر ، وتزعم الذين خرجوا لمنع سعيد من دخول الكوفة يزيد ابن قيس ، ولم يخرج معهم أحـد من أهل الصلاح ، بل بقى حلماء الناس وأشرافهم ووجوههم فى المسجد ، وذهب من سواهم — وعمرو بن حريث

---

(٦٩) المصدر السابق ٤/٢٧٩ — ٢٨٠

(٧٠) أشار عبد الله بن عامر بشغل الناس بالغزو والجهاد ، وأشار سعيد بن العاص بأخذهم بالشدة . وأشار معاوية برأى قريب من رأى سعيد ، وهو إعادة العمال إلى أعمالهم وليؤدب كل منهم أهل الشر والشقاق فى ولايته ، وأشار عبد الله بن سعد ، بتأليف قلوبهم بالمال انظر الطبرى ٤/٣٣٤

(٧١) المصدر السابق ٤/٣٣١

يومئذ خليفة — أى خليفة سعيد على الكوفة — فصعد المنبر ، فحمدالله واثنى عليه ، وقال : أذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا،بعد أن كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . فلا تعودوا فى شر قد استنقذكم الله عز وجل منه ، أبعد الإسلام وهديه وسنته لاتعرفون حقا ولاتصيبون بابه(٧٢) » .

ضاع هذا الصوت،كما ضاعت كل الأصوات العاقلة فى بيداء الفتنة . وعزم الأشرار على منع سعيد من دخول الكوفة ، فرجع إلى المدينة واخبر عثمان بما حدث معه ، فقال له عثمان ! فماذا يريدون ؟ قال : اظهروا أنهم يريدون البدل ، قال : فمن يريدون ؟ قال : أبا موسى الأشعرى . قال : أثبتنا أبا موسى عليهم ، والله لا نجعل لأحد عذرا ، ولانترك لهم حجة ، ولنصبرن كما أمرنا حتى نبلغ مايريدون(٧٣) .

وهكذا كان حرص الخليفة على إصلاحهم وإجابة مطالبهم وعلى إيثار العافية لهم وللأمة ، فلم يعمد إلى القسوة مع أنها كانت مطلوبة ، بل ضرورية فى مثل هذه الحالة . ولم يغضب عليهم لطرد واليه ومنعه من دخول ولايته ، بل قبل مطلبهم .

وكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد أمرت عليكم من أخترتم ، واعفيتكم من سعيد ، والله لأفرشن لكم عرضى ، ولأبذلن لكم صبرى ولأستصلحنكم بجهدى . فلا تدعوا شيئا أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئا كرهتموه لا يعصى الله فيه ، الا استعفيتم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم على حجة(٧٤) » .

فهل هناك ديمقراطية — فى القديم أو الحديث — توخاها حاكم فصنع مثلما صنع الخليفة عثمان ، مع اهل الكوفة حيث لم يدع طريقا يؤدى

(٧٢) المصدر السابق ٤/٣٣٢
(٧٣) المصدر السابق ٤/ ٣٣٢
(٧٤) المصدر السابق ٤/ ٣٣٦

إلى صلاحهم إلا التزمها . فنزل على رغبتهم وعزل الوالى الذى رفضوه وعين لهم من اختاروه واحبوه .

ولكن هؤلاء القوم لم يكونوا يبغون إصلاحا ، بل كانوا أهل فساد وإفساد ، وكانت خطتهم تآمر وكيد للإسلام والمسلمين ، وسوف نحاول هنا البحث عن الحقيقة لكشف أبعاد مؤامرتهم ، وبواعثها وأهدافها حتى يمكن تصحيح بعض المواقف التى لازالت غامضـــة فى التاريخ الإسلامى ، وتنقيتها من الزيف والتشـــويه الذى لحق بهـــا ، وحتى يعرف المســـلمون تاريخهم كما يجب أن يعرفوه .

وقبل أن نتناول هذه الحركة وأطرافها التى اشعلت الفتنـــة واغرقت الأمـــة الإســـلامية فى بحر من الدماء ينبغى أن نعرف ماذا كان من امر البصرة . بعد أن عرفنا أمر مصر والكوفة ، حتى نلـــم بجميع أطـــراف الموقف كله .

ولاية البصرة فى عهد عثمان :

كانت البصرة من الولايات التى حدث فيها تغيير للولاة فى عهد عثمان ، وكان ذلك من أسباب اشتراك أهلها مع أهل الكوفة والفسطاط فى الشغب عليـــه .

كان أبو موسى الأشعرى واليا على البصرة عنـــد وفاة عمر ، واستمر عليهـــا فى عهد عثمان إلى أن عزله ســـنة ٢٩ هـ بناء على طلب أهلهـــا وشكواهم منه ، ويذكر الطبرى ، فى سبب عزله : أن أهـــل ايذج والأكراد كفروا — أى نقضـــوا الصلح — « فنادى أبو موسى فى الناس ، وحضهم وندبهم ، وذكر فضـــل الجهـــاد فى الرجلة — أى أن يســـير المرء راجلا لاراكبا — حتى حمل نفر على دوابهم ، وأجمعوا على أن يخرجوا رجالا . وقال آخرون : لا والله لانعجل بشىء حتى ننظر ما صنيعه ؟ فإن اشـــبه قوله فعله فعلنا كمـــا فعل أصحابنا : فلما كان يوم خرج أخـــرج ثقله من قصره فى اربعين بغلا ، فتعلقوا بعنانه ، وقالوا : احملنا على بعض هذه الفضـــول ، وراغب من الرجلة فيما رغبتنا فيه ، فقنع القوم حتى تركوا

دابته ومضى . فأتوا عثمان ، فاستعفوه منه ، وقالوا : ما كل ما نعلم نحب أن نقوله ، فابد لنابه(٧٥) » .

وعلى عادة عثمان رضى الله عنه فى الاستجابة لرغبات أهل الولايات ، عزل ابا موسى الأشعرى بناء على رغبة أهل البصرة ، وولى عبد الله ابن عامر وهو : « عبدالله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس بن عبدمناف الأمير أبو عبد الرحمن القرشي العبشمى الذى فتح إقليم خراسان. راى النبى ﷺ وروى عنه حديثا فى : « من قتل دون ماله .. »(٧٦) . وهو ابن خال عثمان ، وأبوه عامر بن عمة رسول الله ﷺ البيضاء بنت عبد المطلب .. وكان من كبار ملوك العرب وشجعانهم وأجوادهم ، وكان فيه رفق وحلم(٧٧) » .

ويقول ابن كثير(٧٨) : « ولد — عبد الله بن عامر — فى حياة رسول الله ﷺ وتفل فى فيه ، فجعل يبتلع ريق رسول الله ﷺ فقال : « انه لمسقاء » فكان لايعالج أرضا إلا ظهر له الماء ، وكان كريما ممدوحا ميمون النقيبة ، استنابه عثمان على البصرة بعد أبى موسى ، ففتح خراسان كلها ، وأطراف فارس وسجستان وكرمان وبلاد غزنة(٧٩) » .

---

(٧٥) الطبرى جـ ٤ ص ٢٦٥ ، ابن الأثير ٩٩/٣

(٧٦) الحديث بتمامه : « من قتل دون ماله فهو شهيد » صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦٤/٢

(٧٧) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٨ ، ٢١ . وانظر البداية والنهاية ٨٨/٨ . طبقات ابن سعد ٤٤/٥ ، نسب قريش ١٤٧ ، ١٤٨ . المعارف ٣٢٠ ، أسد الغابة ١٩١/٣ ، والكامل فى التاريخ ٩٩/٣ . والطبرى ٢٦٤/٤ وما بعدها .

(٧٨) البداية والنهاية ٨٨/٨

(٧٩) هذه الاقاليم فتح معظمها فى عهد عمر رضى الله عنه ، ولكن بعد استشهاده كثر الانتقاض من اهلها فى عهد عثمان فكان عمل ابن عامر ردهم إلى الطاعة وتثبيت الفتوحات .

ولمــا علم أبو موسى بعزله وتولية عبد الله بن عامر ، قال لأهــل البصرة : « قــد أتاكم فتى من قريش كريم الأمهات والعمات والخالات ، يقول فيكم بالمــال هكذا وهكذا »(٨٠) .

وقــد بقى عبد الله بن عامر واليا على البصرة ، حوالى ست سنوات (٢٩ — ٣٥ هـ) . وهو من خيرة ولاتهــا ، وكان غازيا مجاهدا ،تصدى لكل محاولات الإنتقاض من جانب الفرس . وقد امتدت فتوحاته إلى ماوراء النهر ، يقول البلاذرى : « ففتح ابن عامر مادون النهر ، نهر جيحون فلما بلغ أهل ماوراء النهر أمره طلبوا إليه أن يصالحهم ففعل ، فيقال انه عبر النهر حتى أتى موضعا موضعا . وقيل بل أتوه فصالحوه ، وبعث من فيض ذلك ، فأتته الدواب والوصفاء والوصائف والحرير والثياب ثم أحــرم لله شكرا(٨١) » .

فما هو العيب إذا فى هــذا الوالى الكفء المجواد ، الذى كان من كبار ملوك العرب وشجعانهم كما يقول الذهبى ؟

لاعيب إلا انه كان قريبا لعثمان ! وإذا كان قريبا لعثمان ، فهو قريب للنبى ﷺ فجدته لأبيه البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم .

ولاية الشــام فى عهد عثمان :

توفى عمر رضى الله عنه ومعاوية أمير على الشام كله(٨٢) . واستمر على ولايته فى عهد عثمان ، ومعاوية فى الواقع قــد اضطلع بالعمل فى الشــام منذ مطلع خلافة الصــديق ، حيث ارســل ردءا لأخيه يزيــد ابن أبى ســفيان — كما سبقت الإشارة إليه — فى سنة ١٢ هـ . وقــد أبلى معاوية بلاء حسنا فى فتوحات الشــام ، وبخاصــة فى فتح منطقة

---

(٨٠) سير أعلام النبلاء ١٩/٣ وتاريخ خليفه ١٦١

(٨١) فتوح البلدان ص ٥٠٤ ، وابن الأثير — الكامل فى التــاريخ ج ٣ ص ١٢٧

(٨٢) خليفة بن خياط — تاريخ ص ١٥٥ — وأبو بكر بن العربى — العواصم من القواصم ص ٨٠

الساحل ، التى ظل واليا عليها ، ثم ضم له عمر بن الخطاب ولاية حمص ، وبعد وفاة أخيه يزيد عينه عمر مكانه ، ثم جمع له الشامات كلها .

واقره عثمان عليها . فظل واليا قائما بأمر ولايته خير قيـام ، متصديا لأعداء الدولة فى الداخل والخارج ، بحزم لالين فيه وعزيمة لاتعرف الكلل ، ساهرا على أحوال رعيته فى يقظة ، يقوم معوجهـا فى رفق وعدل ، ويلم شاردها فى سرعة ومضـاء ، ومما يشهد له بحسن الإدارة والفضـل والفخر انه انشأ أثناء خلافة عثمان الأسـطول الإسلامى ، الذى غزا به جزيرة قبرس وهزم البيزنطيين فى موقعة ذات الصوارى سنة ٣٤ هـ .

ولهذا فلم يكن هناك مايبعث على الشكوى ضـد معاوية لا فى عهد عمر ولا فى عهد عثمان .

ولم يشترك أحد من أهل الشام فى تلك الفتنة التى راح ضحيتهـا الخليفة عثمان رضى الله عنه .

وخلاصة القول أن ولاة عثمان كانوا من خيرة اكفاء الرجـال وإذا ما تجاوزنا تلك الهنات التى قلما يسلم منها إنسـان أيا كان موقعه فإننا لانجد عند واحـد منهم مايقدح فى دينه أو أمانته فى خدمة الإسلام والسهر على رعاية دولته .

ولم يستطع احد من الذين نقموا على عثمان تولية هؤلاء الرجال ، أن يقيم بينة على خطأ كبير أو ظلم وقع على إنسـان ، أو تعطيل لحد من حدود الله ، وكل ما اثاروه كان كيدا للإسلام وتآمرا على رجاله من نوع مالفقوه للوليد بن عقبة وإشاعات السوء ملؤا بها البلاد ، على هؤلاء الولاة ، الذين لاذنب لهم إلا أنهم من أقرباء عثمان . وإذا كانت توليـة الأقرباء من اكبر المـآخذ على عهد الخليفة عثمان ، فلماذا لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لعهد الإمام على — رضى الله عنهما — ام أن الهوى هو الذى حكم على الشىء نفسه أن يكون معيبا فى عهد ومحمودا فى عهد آخر .

يقول ابن تيمية : « ومن العجب أن الشـيعة ينكرون على عثمان ، ما يدعون أن عليا كان أبلغ فيـه من عثمان ، فيقولون : إن عثمان ولى

أقاربه من بنى أمية ، ومعلوم أن عليا ولى أقاربه من أبيه وأمه ، كعبد الله ابن العباس ، فولى عبيد الله بن العباس على اليمن ، وولى على مكة والطائف قثم بن العباس ، أما المدينة فقيل ولى عليها سهل بن حنيف ، وقيل ثمامة بن العباس ، وأما البصرة فولى عليها عبد الله بن العباس ، وولى على مصر ربيبه محمد بن أبى بكر ، الذى تربى فى حجره .. ثم ان الامامية تدعى أن عليا نص على أولاده فى الخلافة ، وولده على ولده الآخر ، وهلم جرا .

ومن المعلـــوم أنه إن كانت تولية الأقـــربين منكرا ، فتولية الخلافة العظمى أعظم من إمـــارة بعض الأعمال ، وتولية الأولاد أقرب إلى الإنكار من تولية بنى العم »(٨٣) .

ثم إن عليا ولى زياد بن أبى سفيان ، والإشتر النخعى ، ومحمد بن أبى بكر « وأمثال هـــؤلاء ، ولايشك عاقل أن معاوية بن أبى سفيان كان خيرا من هؤلاء كلهم »(٨٤) .

ثم إن هؤلاء الذين ولاهم عثمان ، كان معظمهم ممن ولاهـــم الرسول ﷺ — كما أشرنا آنفـــا — واستعملهم أبو بكر وعمر ، فاقتدى عثمـــان بفعلهم .

ومما يزيد هذا الأمر إيضاحا قول ابن تيمية(٨٥) : « ولا نعرف قبيلة من قبائـــل قريش فيها عمـــال لرسول الله ﷺ أكثر من بنى عبد شمس ، لأنهم كانوا كثيرين ، وكان فيهم شرف وسؤدد ، فاستعمل فى عزة الإسلام ، على أفضل الأرض ، مكة ، عتاب بن أســـيد بن أبى العيص بن أمية ، واستعمل على نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية ، واستعمل أيضـــا

---

(٨٣) منهاج السنة جـ ٣ ص ١٧٣ — ١٧٤.

(٨٤) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٧٣

(٨٥) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٧٥ — ١٧٦ ، وانظر كذلك تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٧ ، وتخريج الدلالات لأبى الحسن الخزاعى ص ١٥٩ — ١٦٢

خالد بن سعيد بن العاص على صدقات مذجح وعلى صنعاء اليمن ، فلم يزل حتى مات رسول الله ﷺ واستعمل عمرو بن سعيد بن العاص على بعض السرايا،ثم استعمله على البحرين فلميزل عليها بعدالعلاء بن الحضرمى حتى توفى رسول الله ﷺ .

فيقول عثمان : أنا لم أستعمل إلا من استعمله رسول الله ﷺ ومن جنسهم ومن قبيلتهم ، وكذلك أبو بكر وعمر بعده ، فقد ولى أبو بكر يزيد بن أبى سفيان بن حرب فى فتوح الشام ، وأقره عمر ، ثم ولى عمر بعده اخاه معاوية ، وهذا النقل عن النبى ﷺ فى استعمال هؤلاء ثابت ومشهور عنه ، بل متواتر عند أهل العلم ، ومنه متواتر عند علماء الحديث ، ومنه مايعرفه العلماء منهم ، ولا ينكره أحد منهم ، فكان الإحتجاج على جواز الاستعمال من بنى أمية بالنص الثابت عن النبى ﷺ أظهر عند كل عاقل من دعوى كون الخلافة فى واحد معين من بنى هاشم بالنص ، لأن هذا كذب باتفاق أهل العلم بالنقل ، وذلك صدق باتفاق أهل العلم بالنقل » .

وغنى عن البيان أن الإمام ابن تيمية ، لايقصد — كما لا نقصد نحن كذلك — أن ينتقد عليا رضىالله عنه ، ولا أن يقول أنه أتى منكرا حين ولى أقرباءه ، وإنما يريد أن يفضح أهل الأهواء الذين يكيلون بكيلين مختلفين ، فإذا ولى عثمان اقرباءه فهذا اثم كبير ، وإذا ولى على أقرباءه فهذا عمل عظيم ، وليس هذا من الإنصاف فى شىء .

وخلاصة القول : أن عثمان رضى الله عنه لم يول أحدا من أقربائه لهوى فى نفسه ، أو لأنه ترك من كان يجد خيرا منه ، وكيف يفعل ذلك وهو قد سمع رسول الله ﷺ يقول : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله »(٨٦) . وإنما كانت تولية هؤلاء أو عزلهم تقوم على اجتهاده الخاص فى حدود تعاليم الشريعة ، فإن كان مصيبا فله أجران ، وإن كان مخطئا فله أجر ، ولم يكن الأمر يختلف بالنسبة للإمام على عن ذلك .

---

(٨٦) ابن تيمية — السياسة الشرعية ص ١١

يقول أبو بكر بن العربى(٨٧) : « الولايات والعزلات لها معان وحقائق لايعلمها كثير من الناس ، لقد علمتم أن رســـول الله ﷺ مات عن زهاء اثنى عشر الفا من الصحابة معلومين ، منهم الفان أو نحوهما ، مشاهير فى الجلالة ، ولى منهم أبو بكر سعدا وأبا عبيدة ويزيد وخالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل ، ونفرا غيرهـــم فوقهم ، وولى أنس بن مالك ، ابن عشرين سنة على البحرين ، اقتداء برسول الله ﷺ فى عتاب(٨٨) . ومتى كان استوفى المشيخة حتى يأخذ الشبان ، وولى عمر كذلك،وبادر بعزل خالد ، وذلك كله لفقه عظيم ، ومعارف بديعة بيانها فى موضعها من كتب الإمامة والسياسة والأصول » .

فالعلة فى الحقيقة ، فى الطعن على ولاة عثمـــان ، والنقمة عليهم ، لم تكن بسبب ظلم وقع منهم على أحد ، ولو كانت هذه هى العلة ، لكان فى عزل الولاة الذين كانت الشكوى منهم مايسد تلك الذريعة ، فقد عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة وولى سعيد بن العاص ، ولمـــا رفضوا سعيدا عزله وعين لهم بدله من اختاروه وهو أبو موسى الأشعرى ، فلم يقنع الثائرون الذين أثاروا الفتنة وعكروا صفو الأمة الإســـلامية بذلك ، ولم يرعووا عن غيهم وإفسادهم ، ولاعادوا إلى رشدهم وصوابهم(٨٩) ، بل كلما لان لهم الخليفة ونزل على رغباتهم تمادوا فى ضلالهم ، وازدادوا عتوا وعقوقا . لأنهم لم يكونوا يبحثون عن حق ولا يسعون إلى رفع ظلم ، وإنما كانوا يبحثون عن مطامع شخصية ، وكانوا يطمعون فيما ليسوا له بأهل ، فلما لم يصـــلوا إلى ذلك ملأ الحقد قلوبهم ، وصمموا على إفساد أمر الأمة الإســـلامية ، وقد أصـــاب ابن خلدون كبد الحقيقة ، فى وصف الذين أثاروا الفتنة على عثمان وعماله حين قـــال : « وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار — البصرة والكوفة ومصر — جفاة لم يستكثروا من صحبة النبى ﷺ ولاهذبتهم سيرته وآدابه ، ولاارتاضوا بخلقه ، مع

---

(٨٧) العواصم من القواصم ص ٢٤٣ — ٢٤٤

(٨٨) يقصد عتاب بن أسيد فقد كان شابا حين ولاه النبى ﷺ مكة كما أشرنا سابقا .

(٨٩) ابن خلدون — المقدمة جـ ٢ ص ٦٢٠

ما كان فيهم فى الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان ، وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا فى ملكة المهاجرين والأنصار ، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب ، السابقين الأولين إلى الإيمان ، فاستنكفوا عن ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ، ومصادمة فارس والروم ، مثل قبائل بكر بن وائل وعبدالقيس بن ربيعة ، وقبائل كندة والأزد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر ، فصاروا إلى الغض من قريش والأنفة عليهم والتمريض(٩٠) فى طاعتهم ، والتعلل فى ذلك بالتظلم منهم والاستعداء عليهم ، والطعن فيهم بالعجز عن السوية(٩١) ، والعدول فى القسم عن التسوية ، وفشت المقالة بذلك ، وانتهت إلى المدينة ، وهم من علمت . فأعظموه وأبلغوه عثمان ، فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر ، بعثه ابن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم ، فلم ينكروا على الأمراء شيئا ، ولا رأوا عليهم طعنا ، وأدوا ذلك كما علموه ، فلم ينقطع الطعن من أهل الأمصار ، ومازالت الشناعات تنمو . ورمى الوليد بن عقبة ، وهو على الكوفة بشرب الخمر ، وشهد عليه جماعة منهم ، وحده عثمان وعزله ، ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون عزل العمال ، وشكوا إلى عائشة وعلى والزبير وطلحة ، وعزل لهم عثمان بعض العمال ، فلم تنقطع ألسنتهم(٩٢) » .

المؤامرة الكبرى على الأمة الإسلامية :

عرفنا أن ولاة عثمان — رضى الله عنه — كانوا من خيرة الرجال ، لم يقترفوا خطأ من الأخطاء التى تتنافى مع الدين أو الأمانة — كما شهد بذلك علماء الأمة — غير أن الذين أشعلوا نار الفتنة صمموا على تنفيذ خطتهم بالكيد للأمة الإسلامية وإغراقها فى بحر من الدماء . ولقد استطاعت هذه القلة الحاقدة — مع الأسف — أن تفسد الأمر كله على الكثرة من أصحاب

---

(٩٠) المقصود بالتمريض هنا : التوهين والإضعاف .

(٩١) السوية : الاستواء والاستقامة .

(٩٢) المقدمة جـ ٢ ص ٦١٩ — ٦٢٠

النوايا الطيبة ، بل إنهـــا تمكنت من استغلال بعضهم لصالحها — أحسن استغلال — وسخرتهم فى تنفيذ مؤامرتها .

ولقد كان من سوء الطالع أن ظهرت على مسرح الأحداث شخصية — اتفقت أهدافهـــا مع أهداف تلك القلة الحاقدة — فقامت بدور كبير فى إذكاء نار الفتنة واشعال أوارها ، هذه الشخصية هى :

عبد الله بن ســـبأ :

كان ابن سبأ يهوديا من صنعاء ، وكانت أمه ســـوداء ، ولهذا قيل له : « ابن السوداء » . وقد كان هذا اليهودى يمتلىء حقدا على الإسلام والمسلمين ، فبيت فى نفسه أمـــرا لتخريب دولة الإسلام ، فبدأ تخطيطـــه الخبيث بادعاء الإسلام — فى عهد عثمان — ليسهل عليه تحقيق ماأراد ، ثم أخذ يتنقل فى الأمصار يتصيد فرائسه ويجندهم لتنفيذ خطته ، وقد وجد ضالته فى هؤلاء الذين وصفهم ابن خلدون فسمم أفكارهم ، وألبهـــم على الخليفة وعماله ، أو قل وجد عندهم الاستعداد للتخريب فلم يضيع الفرصة . « فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثـــم الكوفة ، ثم الشـــام ، فلم يقدر على مايريد عند أحد من أهل الشـــام(٩٣) ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم ، فقـــال لهم فيما يقول : العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب أن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد »(٩٤) . فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . قال : فقبل ذلك عنه ووضـــع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها . ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبى ، ولكل نبى وصى ، وكان على وصى محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلى خاتم الأوصياء ، ثم قال بعـــد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة ثم قال لهم بعد ذلك، إن

---

(٩٣) هذه شهادة من الطبرى على أن أهل الشـــام لم يشتركوا فى الفتنة ، وهى فى الوقت نفســـه شهادة لمعاوية رضى الله عنه بأنه كان ضابطا لولايته ، يقظا حذرا ، لم يعط فرصـــة لابن سبأ أن يفسد عليه أمره .

(٩٤) سورة القصص الآية ٨٥

عثمان أخذها بغير حق ، وهــذا وصى رسول الله ﷺ فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابــدؤا بالطعن على امرائكم ، واظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تستميلوا النــاس . وادعوهم إلى هذا الأمر(٩٥) . فبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد فى الأمصــار وكاتبوه ، ودعوا فى السر إلى ماعليه رأيهــم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصــار بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك فى أمصــارهم ، وهؤلاء فى أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، واوســعوا الأرض إذاعــة ، وهــم يريدون غير مايظهــرون ، ويسرون غير ما يبدون ... فأتوا (أهل المدينة) عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أياتيك عن النــاس الذى يأتينــا ؟ قــال : لا والله ، ماجاءنى إلا الســلامة ، قالوا : فإنا قــد اتانا .. وأخبروه بالذى أسقطوا عليه ، قال : فأنتم شركائى وشهود المؤمنين فأشيروا على(٩٦) » .

قبل أن نرى بماذا أشار أهل المدينــة على الخليفة لتدارك هــذه الفتنة ينبغى أن نتدبر هــذا الذى يقوله الطبرى — المؤرخ الثقة(٩٧) — فماذا نجد فيه ؟ إننا نجد أنفسنا أمام مؤآمرة على الخليفة ورجال دولته ، اجاد ابن سبأ حبكها ، وجند لهــا كل الحاقدين الذين استبدت بهم المطامع

---

(٩٥) الطعن على الأمراء إذن لم يكن سوى ذريعة ووسيلة لتحقيق الهدف وهو الأمر الذى يدعو إليه ابن سبأ وهو خلع عثمان رضى الله عنه أو قتله .

(٩٦) الطبرى — تاريخ — جـ ٤ ص ٣٤٠ — ٣٤١

(٩٧) يقول القاضى أبو بكر بن العربى : بعد رده على الشبهات وإذاعات السوء التى اذاعها المفترون على عثمان وعماله ، وينصح المسلمين ويحذرهم من النقل عن عامة المؤرخين من أهل البدع والأهواء . « ولا تقبلوا رواية إلا عن ائمة الحديث ، ولاتسمعوا لمؤرخ كلامــا إلا للطبرى ، وغير ذلك هو الموت الأحمر ، والداء الأكبر ، فإنهم ينشئون احاديث كلها استحقار للصحابة والسلف ، والاستخفاف بهم ... وخروج مقاصدهم عن الدين إلى الدنيا ، وعن الحق إلى الهوى ، فإذا قاطعتم أهل الباطل ، واقتصرتم على رواية العدول . سلمتم من هذه الحبائل » العواصم من القواسم ص ٢٤٨.

والأهواء ، فلم يرعوا فى الإسلام والمسلمين إلا ولاذمة ، ولما لم يجدوا مايأخذونه على الخليفة وعماله ، وضع لهم ابن سبأ الخطة وحدد لهم الذريعة التى يستهون بها عامة الناس البسطاء ، وهى الطعن على الأمراء ، وإظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للتلبيس على الناس . ولإخفاء هدفهم الحقيقى ، وهو خلع الخليفة أو قتله . ولنعد إلى عثمان ، لنرى بماذا أشار عليه أهل المدينة ، كما أخبروه بالذى وصلهم من إذاعات السوء ، وقال لهم : أنتم شركائى وشهود المؤمنين ، فأشيروا على ، فقالوا له : « نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم . فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام ، وفرق رجالا سواهم ، فرجعوا جميعا قبل عمار ، فقالوا : أيها الناس ، ما أنكرنا شيئا ، ولا أنكره أعلام المسلمين ولاعوامهم ، وقالوا جميعا : الأمر أمر المسلمين ، إلا أن امراءهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم »(٩٨) .

فهذه شهادة كبار الصحابة وثقاتهم ، الذين أرسلهم عثمان إلى الأمصار ، ليتحققوا له من صحة الأقاويل التى افتراها السبئية على عماله ، فقد عادوا وأخبروا بأنهم ما انكروا شيئا على العمال ، ولا انكر المسلمون عليهم شيئا ، وهؤلاء الصحابة لم يكن أحد منهم من بنى أمية ، وإلا لاتهموا بالتواطىء مع عثمان وعماله . ولكنهم كانوا فوق الشبهات ، وشهادتهم شهادة عدول .

ولكن السبئيين تمكنوا من اقتناص أحد هؤلاء الصحابة الكبار ، وهو عمار بن ياسر ، الذى أرسل إلى مصر ، فضموه إلى صفوفهم ، وكان عمار صيدا سمينا بالنسبة لهم ، لما له من تأثير كبير على الناس ، لمكانته ومكانة أسرته فى الإسلام . يقول الطبرى : « واستبطأ الناس عمارا حتى ظنوا أنه اغتيل ، فلم يفجأهم إلاكتاب عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، يخبرهم أن عمارا قد استماله قوم بمصر ، وقد انقطعوا إليه ،

---

(٩٨) الطبرى جـ ٤ ص ٣٤١ ، ومقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦١٩

منهم عبدالله بن السوداء ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنانة بن بشر »(٩٩) .

إن عجبنا لاينتهى من قدرة ابن سبأ على إتقان دوره وحبك خطته ، ويبدوا انه كان يتمتع بذكاء فائق — شأن معظم المتآمرين فى تاريخ البشرية — وإلا لما استطاع ان يستغوى هذا العدد الكبير من الناس ، حتى إنه لم يسلم منه ذلك الصحابى الجليل ، الذى وضع الخليفة فيه ثقته وأرسله إلى مصر ليتقصى له الحقائق ، فمازال به حتى أغواه وجعله ينضم إلى عصابة السوء ، ولابد أن ابن سبأ قد قدر مكانة عمار بين المسلمين ، وأدرك أن انضمامه إلى جماعته يقوى حركتهم ، فلم يدعه يفلت من بين براثنه .

إن هذا الدور الخطير الذى قام به ابن سبأ ، لا يقل بشاعة عما صنعه حاقد آخر على الإسلام والمسلمين ، وهو أبو لؤلؤة ، ذلك المجوسى الذى أغتال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فكل منهما — فى رأيى — لم يكن يمثل نفسه فقط ، وانما كان يمثل تيارا سريا يعمل فى الخفاء ضد الإسلام والمسلمين ، بعد أن عجز عن العمل فى العلن .

فإقدام أبى لؤلؤة على جريمته الشنعاء ، واغتياله أعدل الحكام ، إنما كان انتقاما لدولة الفرس التى أزالها المسلمون من الوجود فى عهد عمر ، ليحرروا شعب الفرس من العبودية والظلم والكفر ، ويقيموا فيهم العدل والحرية والمساواة .

فلم يكن أبو لؤلؤة عندما أقدم على فعلته ، مدفوعا بعدم إنصاف عمر له فى شكواه من سيده ، المغيرة بين شعبة . وإنما كان ذلك حقدا يغلى فى قلبه على المسلمين وخليفتهم ، يقول ابن الأثير : « ولما قدم سبى نهاوند المدينة جعل أبو لؤلؤة ، غلام المغيرة بن شعبة لا يلقى منهم صغيرا إلا مسح رأسه وبكى ، وقال له : أكلَ عمر كبدى ، وكان من نهاوند ، فأسرته الروم ، وأسره المسلمون من الروم فنسب إلى حيث

---

(٩٩) تاريخ — جـ ٤ ص ٣٤١

سبى »(١٠٠) فليس هناك شك فى أن قتل عمر كان نتيجة حقد وتدبير مؤامرة ، فأبو لؤلؤة لم يكن وحـــده ، وإنما كان له شركاء كثيرون منهم الهرمزان ، وجفينة(١٠١) ، وربما لم يكن كعب الأحبار بعيدا عن هـــذه المؤامرة(١٠٢) .

فهذه المؤآمرة التى نفذها مجوسى واشترك فى تدبيرها معه مجوسى آخر ونصرانى ليست بعيدة الشبه بمؤامرة ابن ســـبأ ، فكلتاهما تتشابهان من حيث الدافع والهدف والدلالة . فقد كان دافع الأولى هو الانتقام للفرس ، كما كان دافع الثانية هو الانتقام لليهود ، وقد استهدفت كل منهما شخصية خليفة المسلمين باعتباره رمزا لوحدة الدولة وصمام كيانها ، ورأس بنيانها . وايضـــا فإن تدبير المؤامرتين يدل على أن هناك تيارات خفية كثيرة كانت تكيد للإسلام والمسلمين وتحـــاول تقويض بنيـــان دولتهم . ومع هـــذا التشابه فقد كانت مؤآمرة ابن ســـبأ احكم واشمل واوسع نطاقا ، ذلك لأنه إذا كانت فاجعة الأمة الإسلامية فى مقتل الخليفة عمر تعـــد خسارة كبرى إلا أن تلك المؤآمرة لم يشترك فيها مسلم ، ولم تخلف ذيولا تؤدى إلى فتنة بين المسلمين ، امـــا تدبير ابن ســـبأ فلم يقتصر على مقتل نفس زكية ، بل أغرق الأمة كلها فى مأساة دموية راح ضحيتها عشرات الآلاف من المسلمين ، كما كانت بابا من الشر لم يغلق حتى اليوم ، وخلفت وراءها اتباعا واشياعا كانت — ولازالت — تظهر فى صورة أوى أخرى ، ولعلى لا اكون بعيـــدا عن الصواب إذا قلت إن إحـــكام مؤامرة ابن ســـبأ ايقظ ذيولا واتباعا لمؤامرة أبى لؤلؤة أخذت تبث سمومها منذ ذلك الحين وبخاصة فى عهد بنى أمية — لتقويض الوحدة الإسلامية وهد كيانها .

إن تلك الصفحات من التاريخ الإسلامى ينبغى أن تلقى عليها الأضواء ، وتوجـــه إليها عناية الدارسين لتوضيح ابعـــادها وخفاياها عسى أن يتنبه

---

(١٠٠) الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ١٦

(١٠١) انظر الطبرى — تاريخ — ٤/٢٤٣

(١٠٢) انظر المصدر السابق جـ ٤ ص ١٩١ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ — جـ ٣ ص ٥٠

المسلمون ، ويستخلصوا منها دروسا وعبرا يكون لهـــا أثرها فى حاضرهم ومستقبل أيامهم .

نعود إلى عثمان رضى الله عنه ، لنرى كيف بدأ يعالج الموقف بعد أن استفحل أمر السبئية ، وبعد أن عاد الصحابة الذين أرسلهم إلى الأمصار ليكشفوا له الحقائق ، ماعدا عمارا ، الذى جنده السبئيون ، وضموه إلى صفوفهم .

بدأت معالجة عثمان — رضى الله عنه — للموقف بأن كتب إلى أهل الأمصار : « أما بعد فإنى آخذ العمال بموافاتى فى كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته ، وليس لى ولعيالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم ، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون وآخرون يضربون ، فيامن شتم سرا وضرب سرا ، من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموســـم ، فليأخذ بحقه حيث كان ، منى أو من عمـــالى ، أو تصـــدقوا فإن الله يجزى المتصدقين .

فلما قرىء فى الأمصار أبكى الناس ، ودعوا لعثمـــان ، وقالوا : إن الأمة لتمخض بشر ، وبعث إلى عمال الأمصار ، فقدموا عليه ، عبد الله بن عامر ، ومعاوية ، وعبدالله بن سعد ، وادخل معهم فى المشورة ، سعيد ابن العاص — وعمرا — ابن العاص — فقال ويحكم ! ماهـــذه الشكاية ، وماهذه الإذاعة ؟ انى والله لخائف أن يكون مصدوقا عليكم ، وما يعصب هذا — اى يناط — إلابى ، فقالوا : ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء مما يتقوله المتقولون — لا الله ما صدقوا ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا ، وماهى إلا إذاعة لايحل الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليهـــا »(١٠٣) .

حقا إنها إذاعة كاذبة ، وكيد وتضليل ومؤامرة نجح ابن سبأ فى حبكها وتدبيرها ووجد لها أرضا خصبة بين الحاقدين من العرب فى كل قطر — ماعدا

(١٠٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٢ .

الشام — حيث استطاع أن يكون شيعة من هؤلاء،ففى الكوفة جماعةبزعامة عمرو بن الأصم ، وكان منهم الأشتر النخعى ، وزيد بن صوحان ، وزياد بن النضر الحارثى ، وعبدالله بن الأصم . وفى البصرة جماعة أخرى بزعامة حرقوص بن زهير السعدى ، وكان منهم حكيم بن جبلة العبدى ، وذريح بن عباد العبدى ، وبشر بن شريح ، وابن المحرش بن عبد بن عمرو ، وجماعة ثالثة فى مصر على راسها الغافقى بن حرب العكى ، ومن بينهم عبد الرحمن بن عديس البلوى ، وكنانة بن بشر التجيبى ،وعروة بن شييم الليثى ، وابو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وسودان بن رومان الأصبحى ، وزرع بن يشكر اليافعى ، وسودان بن حمران السكونى ، وقتيرة بن غلان السكونى .

تلك هى الجماعات التى اخذت على عاتقها فى الأمصار الثلاثة تدبير أمر الفتنة وتنفيذها ، وقبل أن نمضى معهم لنعرف حجم الجريمة التى ارتكبوها فى حق الأمة الإسلامية . ينبغى أن نوضح دور الدعوة التى دعا إليها صحابى جليل هو ابو ذر الغفارى — رضى الله عنه — ومدى مساهمتها فى اشتعال الفتنة ، دون قصد منه ، أو بعبارة أكثر تحديدا ، كيف استغل السبيئة أباذر ودعوته فى تحقيق اهدافهم ؟

ابو ذر الغفارى ودعوته :

كان أبو ذر الغفارى — واسمه جندب بن جنادة بن سكن(١٠٤) — من السابقين إلى الاسلام ، فقــد أسلم قبل الهجرة إلى المدينة ، وعاش حياته زاهدا متنسكا ، فلما كان عهد عثمان بن عفان ، وكثرت الأموال فى أيدى المسلمين ، وتوسعوا فى المطعم والملبس والمسكن ، مما لم يكن مألوفا

(١٠٤) هذا هو المشهور فى اسم أبى ذر على مارجحه ابن حجرى فى الإصابة جـ ١١ ص ١١٨ وما بعدها . وانظر كذلك ترجمة أبى ذر وفضائله فى صحيح مسلم بشرح النووى حـ ١٦ ص ٢٧ ومابعدها . طبقات بن سعد ٢١٩/٤ — ٢٣٧ — تاريخ خليفة بن خياط ١٦٦ — وابن الاثير — اسد الغابة حـ ٣٥٧/١ — المعارف لابن قتيبة — ٢٥٢ — ٢٥٣ ، والطبرى — تاريخ — حـ ٤ ص ٢٨٣ ومابعدها ، والذهبى سير أعلام النبلاء حا ص٤٦ — ٧٨ .

فى عهد الرسول ﷺ وأبى بكر وعمر ، لم يوافق هذا التطور الذى طرأ على الأمة نزعة الزهد عند أبى ذر ، فرفع شعارا مؤداه ، أنه لا يجوز للمسلم أن يمسك من المال فوق حاجته ، ومازاد على ذلك يجب إنفاقه وتقسيمه على الفقراء،ولما كانت هذه الطريقة التى دعا إليها أبو ذر لا توافق جميع الناس، ولا يأمر بها الشرع الحكيم فقـــد وقع بينه وبين بعض عمال عثمان ، مثل معاوية والى الشام ، وبينه وبين عثمان نفسه بشأنها كلام وملاحاة ، انتهت باعتزال أبى ذر فى الربذة ، فاتخذ دعاة الفتنة من هذه الحادثة ذريعة أخرى لتحقيق أهدافهم ، ادعوا أن عثمان نفى أبا ذر إلى الربذة ، وأن موقف أبى ذر هو الذى يمثل الإسلام الصحيح ، وموقف بقية المسلمين ، وفيهم الخليفة وعماله ، هو الذى ينافى تعاليم الإسلام .

والحق أن أباذر كان صحابيا فاضلا ، وكان رأسا فى الزهد والصدق — كما يقول الذهبى(١٠٥) — وقد قال عنه النبى ﷺ « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر »(١٠٦)

ولكن اجتهاد أبى ذر وحدته فى قضية الأموال هذه كان مخالفا لاجتهاد أغلب الصحابة رضوان الله عليهم ، فلم يوافقه عليه أحد منهم ، وإن كان قد التف حول دعوته بعض العوام والفقراء ظنا منهم أن فى دعوته منفعة لهم .

ولندع الإمام ابن تيمية يحدثنا عن قصة أبى ذر ، فيقول : « كان (أبو ذر) رجلا صالحا ، وكان مذهبه أن الزهد واجب وأن ما أمسكه الإنسان فاضلا عن حاجته ، فهو كنز يكوى به فى النار ، واحتج على ذلك بما لاحجة فيه من الكتاب والسنة ، واحتج بقوله تعالى : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله** ... »(١٠٧)الآية ، وجعل الكنز مايفضل عن الحاجة ، واحتج بما سمعه من النبى ﷺ — « ياأبا ذر ماأحب أن لى مثل أحد ذهبا ، يمضى عليه ثالثة وعندى منه دينار ، الا دينارا أرصده لدين »

---

(١٠٥) سير اعلام النبلاء حـ ١ ص ٤٧ .
(١٠٦) ابن تيمية — منهاج السنة — حـ ٣ ص ١٩٨ .
(١٠٧) سورة التوبة ، الآية ٣٤ .

ولما توفى عبد الرحمن بن عوف وخلف مالا ، جعل ذلك أبو ذر من الكنز الذى يعاقب عليه ، وعثمان يناظره فى ذلك ... وكان قد وقع بينه وبين معاوية بالشام لهذا السبب ، وقد وافق أبا ذر على ذلك طائفة من النساك ... وأما الخلفاء الراشدون ، وجماهير الصحابة والتابعين ، فعلى خلاف هذا القول . فقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « **ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذود صدقة ، وليس فيما دون خمس أواق صدقة** » ، فنفى الوجوب فيما دون المائتين ، ولم يشترط كون صاحبها محتاجا إليها أم لا ، وقال جمهور الصحابة : الكنز هو المال الذى لم تؤد حقوقه . وقد قسم الله المواريث فى القرآن ، ولا يكون الميراث إلا لمن خلف مالا ، وقد كان غير واحد من الصحابة له مال على عهد رسول الله ﷺ من الأنصار ، بل من المهاجرين ، وقد كان غير واحد من الأنبياء له مال . وكان ابو ذر يريد أن يوجب على الناس مالم يوجبه الله عليهم ، ويذمهم على مالم يذمهم الله عليه ، مع أنه مجتهد فى ذلك ، مثاب على طاعته رضى الله عنه ، كسائر المجتهدين . وقول النبى ﷺ ليس فيه إيجاب ، إنما قال : « ماأحب أن يمضى على ثالثة وعندى منه شيء » فهذا يدل على استحباب إخراج ذلك قبل الثالثة لا على وجوبه(١٠٨) .

هذا هو رأى الإسلام وحكمه فى المال ، كما وضحه ابن تيمية ، ومنه يتبين أن دعوة أبى ذر — وإن كنت وافقت هوى بعض الزهاد — إلا أنها لا تصلح مجتمعا ، ولا يقوم عليها بنيان أمة ، وقد حاول عثمان ، كما حاول غيره أن يوضح لأبى ذر هذا الأمر ، ولكنه لم يقتنع — رحمه الله — وربما كانت حدته وسرعة غضبه وزهده المتواصل وإعراضه عن الدنيا من العوامل التى وقفت دون اقتناعه ، ولهذا نصحه الخليفة ، فقال له : « لو اعتزلت ، ومعناه أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس ، فإن للخطة شروطا وللعزلة مثلها ، ومن كان على طريقة أبى ذر فحاله يقتضى أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط ويسلم لكل واحد مما ليس بحرام فى الشريعة(١٠٩) » . ولو دعا أبو ذر لمذهبه دعوة هادئة لينة ، ورغب الأغنياء فى البذل والإنفاق فى سبيل

---

(١٠٨) منهاج السنة حـ ٣ ص ١٩٨ — ١٩٩

(١٠٩) أبو بكر بن العربى — العواصم من القواصم ص ٧٤ .

الله ، لكان ذلك أجدى وأنفع له وللمسلمين ، ولكنه سلك طـريق العنف واستخدم أسلوب التقريع ، وكانت لهجته قاسية .

يقول أبو بكر بن العربى : « وكان أبو ذر يطلق من الكلام مالم يكن يقوله فى زمان عمر ، فأعلم معاوية بذلك عثمان ، وخشى من العامة أن تثور منهم فتنة ، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم ، وإنما هى مخصوصة ببعضهم ، فكتب إليه عثمان أن يقد المدينة ، فلما قدم اجتمع إليه الناس ، فقال لعثمان أريد الربذة ، فقال له افعل ، ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته »(١١٠) .

فاعتزال أبى ذر فى الربذه لم يكن نفيا له من عثمان ، بل إن عثمان أعطاه مالا وخدما وأجرى عليه رزقا ثابتا من بيت المال ، وكما يقول الإمام ابن تيمية : « لم يكن لعثمان مع أبى ذر غرض من الأغراض ، وأما كون أبى ذر من أصدق الناس ، فذلك لا يوجب كونه أفضل من غيره ، بل كان أبوذر مؤمنا ضعيفا ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: « يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » وقد ثبت فى الصحيح أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » فأهل الشورى مؤمنون أقوياء ، وأبو ذر وأمثاله مؤمنون ضعفاء ، فالمؤمنون الصالحون لخلافة النبوة كعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف أفضل من أبى ذر وأمثاله(١١١) » . هذا هو رأى علماء أهل السنة ومجتهديهم فى قضية أبى ذر .

أبو ذر وعبدالله بن سبأ :

قلنا فى بداية حديثنا عن أبى ذر ودعوته ، أن السبئية قد استغلوا دعوته فى تحقيق هدفهم ، وفى تأليب الناس على الخليفة وعماله . وكان أبو ذر ودعوته فرصة نادرة لابن السوداء استغلها أحسن استغلال ، كما استغل مكانة

---

(١١٠) المصدر السابق ص ٧٦ وانظر الطبرى — تاريخ — حـ ٤ ص ٢٨٣ وما بعدها .

(١١١) منهاج السنة حـ٣ ص ١٩٩ — وانظر الطبرى — حـ ٤ ص ٢٨٣ ومابعدها .

عمار بن ياسر، فأبو ذر له مكانته بين المسلمين ، وله تأثيره على كثير منهم ، فعمد إليه ابن السوداء ليؤلبه على عثمان وعماله ، يقول الطبرى : « لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال له يا أبا ذر ! ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ألا إن كل شىء لله،كأنه يريد أن يحتجنهدون المسلمين، ويمحوا اسم المسلمين ، فأتاه أبو ذر ، فقال : مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ! قال : يرحمك الله يا أبا ذر ، السنا عباد الله ، والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله . قال : فإنى لا أقول : إنه ليس لله ، ولكن سأقول مال المسلمين(١١٢) » .

أرأيت التأليب والإثارة ؟ وقد حاول ابن السوداء أن يفعل ما فعله مع أبى ذر مع صحابيين آخرين ، هما أبو الدرداء وعبادة بن الصامت رضى الله عنهما ، حتى تتسع دائرة الشر والفساد ، إذا تكلم هذان الصحابيان الجليلان بمثل مايتكلم به أبو ذر ، ولكنه لم يفلح معهما فقد كشفا أمره وعرفا حقيقة نواياه السيئة : يقول الطبرى : « واتى ابن السوداء أبا الدرداء ، فقال له من أنت ؟ اظنك يهوديا ! فأتى عبادة بن الصامت ، فتعلق به ، فأتى به معاوية ، فقال هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر(١١٣) » . فصنيع هذين الصابيين ، وعدم استجابتهما لابن السوداء يدل على عدم رضاهما عن دعوة أبى ذر ، مما يدل على أن بعض المسلمين قد فطن لحركة ابن السوداء وخطورة تدبيره ومسعاه .

لقد كان ابن السوداء يمثل تيارا خفيا خطيرايعملبتخطيط محكم،وتدبير خبيث لتدمير الدولة الإسلامية ، ولقد صادف هذا التدبير الماكر أرضا خصبة بين العرب الذين أسلموا متأخرين ، وكانوا لا يزالون متأثرين بعصبياتهم وبداوتهم ، يأكلهم الحقد على شيوخ الصحابة الذين أصابوا بسبقهم إلى الإسلام وجهادهم مغانم شرعية ، ومناصب فى الدولة ، فأرادهؤلاء الأعرابان يكونلهممثلها بلاسبق ولاجهاد،كما كان منهم الموتورون

---

(١١٢) تاريخ ـ حـ ٤ ص ٢٨٣

(١١٣) المصدر السابق حـ ٤ ص ٢٨٣

بسبب ماأقيم على بعض أقربائهم من حدود شرعية(١١٤) . وفضلا عن ذلك فان أصبع الاتهام تشير إلى اشتراك بعض الشعوبيين من البلاد المفتوحة الذين كان إسلامهم مثل إسلام ابن سبأ ، وقد كثر هؤلاء فى الأمصار وبخاصة فى البصرة والكوفة ، وإذا كانت أسماء هؤلاء الشعوبيين لا تزال خافية علينا ، فما ذاك إلا لأن الحركات الهدامة تحرص دائما على التخفى والسرية ، وربما تكشف الأيام عن بعض هؤلاء ومدى مشاركتهم فى تلك المؤامرةالكبرى .

هذه هى العوامل الحقيقية الكامنة وراء إشعال تلك الفتنة ، وهؤلاء هم رؤوسها الذين سعروا نارها ونفذوا مخططها ، ولكن يبقى بعد ذلك السؤال الحائر عن سبب سكوت ولاة الأمصار عن تلك الجماعات المخربة ، وتركهم ابن سبأ يتجول فى البلاد يؤلب الناس على الخليفة وعماله ، ويثير حفيظة من يدعون الإسلام ، ويحرضهم على قتل الخليفة حتى تم له ما أراد .

إن الإجراءات التى اتخذت ضد هولاء لم تكن كفيلة بقطع دابر الفتنة واستئصال جذورها ، بل إنها تركت جذوة النار تتحسس طريقها تحت الرماد،وعيون الشر تتحين فرصتها لتمارسنشاطها فى التدبير والتخريب،فما هى تلك الإجراءات ؟ وإلى أى مدى كان تأثيرها على هؤلاء المفسدين ؟ وعلى من تقع المسئولية التاريخية إزاء تلك المؤامرة ضد الدولة الإسلامية ؟ .

إجراءات عثمان ضد مثيرى الفتنة :

من خلال ما تقدم عن مثيرى الفتنة ، كما وصفهم الطبرى وابن خلدون(١١٥) ، يتضح أنه كان يجب أن يعاملوا بمنتهى الحزم وأن ينزل بهم أشد أنواع العقاب ، وبخاصة بعد أن جرب الخليفة معهم أسلوب الرحمة ، واستجاب لكل طلباتهم ورغباتهم ، فلم يجد ذلك معهم نفعا ، بل مضوا فى تدبيرهم وإفسادهم ، فلو قتل هؤلاء الأشرار جميعا

---

(١١٤) انظر الطبرى ٣٤١/٤ ، وابن خلدون — المقدمة ٦١٩/٢ ، والعواصم من القواصم هامش ٥٨

(١١٥) انظر المصادر السابقة نفس الصفحات .

لكان خيرا للإسلام والمسلمين ، ولكان فى ذلك حفاظا على وحدة الأمة وتماسكها بدفع الضرر عنها ، ولكن الخليفة — رحمه الله — مضى فى خطة اللين والعفو والتسامح مع قوم لم يكونوا أهلا لذلك ، وكانت إجراءاته معهم غير كافية لوضع حد لفتنتهم .

فبعد أن وعظهم وزجرهم صلحاء الناس والعلماء واهل الحكمة والعافية ، من أعيان أمصارهم فى الكوفة والبصرة والفسطاط ، ولم ينفع معهم ذلك . كان كل ما صنعه معهم عثمان رضى الله عنه ، أن سيرهم إلى معاوية فى الشام ، ليؤدبهم ويأخذهم بالحزم والشدة ، ولكن معاوية ضاق بهم(١١٦) ، فأرسلهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فى حمص . وقد اشتد عبد الرحمن بن خالد معهم ، وخاطبهم بلهجة قاسية ، وكان جديرا بتأديبهم لو تركوا له .

فقد قال لهم فيما قال : « يا آلة الشيطان ، لا مرحبا بكم ولا أهلا ، قد رجع الشيطان محسورا وانتم بعد نشاط ، خسر عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم ، يا معشر من لا أدرى اعرب أم عجم ؟ لكى لا تقولوا لى ما يبلغنى أنكم تقولون لمعاوية . انا ابن خالد بن الوليد ، انا ابن من عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقىء الردة . والله لئن بلغنى يا صعصعة بن ذل — يقصد صعصعة بن صوحان — أن أحدا ممن معى دق أنفك ثم أمصك لأطين بك طيرة بعيدة الهوى(١١٧) » . ثم حصرهم وأذلهم فلما رأوا بأسه وشدته عليهم ، قرروا أن يفلتوا من يده فأظهروا التوبة ، وقالوا له : « نتوب إلى الله أقلنا اقالك الله ! فمازالوا به حتى قال : تاب الله عليكم ، وسرح الأشتر إلى عثمان(١١٨) » وعند عثمان أظهر الأشتر توبته وتوبة أصحابه ، وكان ذلك خداعا ونفاقا ، فلم تكن توبة صادقة ، ولكن الخليفة ، قبل منهم ورق لهم ، وعفا عنهم « وخيرهم

---

(١١٦) انظر حوار معاوية معهم فى الطبرى — تاريخ — جـ ٤ ص ٣١٩ — ٣٢١ ، ومنه تتضح عصبيتهم ويظهر حقدهم على قريش .

(١١٧) الطبرى تاريخ — جـ ٤ ص ٣٢٢.

(١١٨) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٢٢

حيث يسيرون ، فاختار كلٌ واحـد ما اراد من البلاد ، كوفة وبصرة ومصر ، فأخرجهم ، فما استقروا حيث ساروا حتى ثاروا والبوا حتى انضاف إليهم جمع(١١٩) » .

مسيرهم إلى المدينة ومقتل عثمان :

ماكاد هؤلاء الذين تظاهروا بالتوبة على يد عبد الرحمن بن خالد ، ثم على يـد الخليفة يستقرون فى أمصارهم حتى أخذوا يجمعون أتباعهم ومن انخدعوا بأكاذيبهم ويسيرون إلى المدينـة لقتل الخليفة الذى وسعهم ببره وعطفه وإحسـانه ، والحق أن الكثرة الغالبـة ممن سـاروا إلى المدينة ، سـواء من مصر أو من العراق ، كانوا مخدوعين ومضللين ، ولم تكن فكرة خلع الخليفة أو قتله إلا فى عقول القلة الحاقدة المتآمرة — وهم من ذكرنا أسماءهم فيما سبق — وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ .

خرج إلى المدينة أهل مصر بزعامة الغافقى بن حرب العكى ، وأهل الكوفة بزعامة عمرو بن الأصم ، وأهل البصرة بزعامة حرقوص بن زهير السعدى(١٢٠) ، خرجوا متظاهرين بالحج دون أن يعلم غالبية من كان معهم بحقيقة نواياهم الخبيثة ، يقول الطبرى : « ولم يجرؤا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج »(١٢١) .

سار أهل كلٌ مصر إلى المدينة ، فعسكر أهل البصرة بذى خشب ، ونزل أهل الكوفة الأعوص ، وأهـلُ مصر ذا المروة ، واتصـلوا وتراسلوا للتشاور ، فاتفقوا على إرسال وفد إلى المدينة ، ليستطلعوا آراء الناس هناك ، ويستكشفوا وجهاتهم .

والواقع أن أهل المدينة جميعا كانوا ضـدهم ما عدا ثلاثة أشخاص ، يقولُ الطبرى : « وكان المصريون لايطمعون فى أحـد من أهل المدينـة

---

(١١٩) أبو بكر بن العربى — العواصم من القواصم ص ١١٢.

(١٢٠) الطبرى — تاريخ — ج ٤ ص ٣٤٨ — ٣٤٩

(١٢١) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٣٩

يساعدهم إلا فى ثلاثة نفر ، فإنهم كانوا يراسلونهم ، محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة ، وعمار بن ياسر »(١٢٢) .

كان وفد الثوار الذى أزمعوا إرساله إلى المدينة مكونا من زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم ، فلما سـارا إلى المدينة قالا لبقية الثوار : « لاتعجلوا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا ، فوالله إن كان أهل المدينة خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا ، فهم إذا علموا علمنا اشـد وإن أمرنا هـذا لباطل ، وإن لم يسـتحلوا قتالنا ، ووجدنا الذى بلغنا باطلا لنرجعن : إليكم بالخبر . قالوا : اذهبا . وهـذا الكلام الذى جاء على لسـان وفد الثوار يبرىء أهل المدينة من المشاركة فى الفتنة وحتى من العلم بأمرها ، فقـد أخفى الثوار أمرهم وخطتهم عليهم . فـدخل الرجلان ، فلقيا أزواج النبى ﷺ وعليا وطلحة والزبير ، وقالا : إنما نأتم هـذا البيت ، ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا ، ما جئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول ، فكلهم أبى ونحى ، وقال : بيض ما يفرخن ، فرجعا إليهم ، فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا عليا — وكان هواهم معه — ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة — وكان هواهم معه — ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير وكان هواهم معه(١٢٣) » .

فسلم المصريون على على ، وعرضوا له بالخلافة ، فصاح بهم ونهرهم قائلالهم : « لقـد علم الصـالحون أن جيش ذى المروة وذى خشب ملعونون على لسـان محمـد — ﷺ فارجعـوا لاصحبكم الله »(١٢٤) . وقال طلحة لأهل البصرة ، والزبير لأهل الكوفة مثل ما قال على لأهـل مصر(١٢٥) .

هذا هو موقف كبار الصحابة فى المدينـة من الثوار ، وهو موقف الإنكار عليهم ولعنهم وطردهم ، وعدم الاستجابة لهم . فلما رأوا هـذا

---

(١٢٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٥٣

(١٢٣) الطبرى — تاريخ جـ ٤ ص ٣٤٩ — ٣٥٠

(١٢٤) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٥٠

(١٢٥) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٥٠

الموقف الصارم ، وعرفوا أن المدينة مكشوفة من الناحية العسكرية ، وليس بها قوة كافية لصدهم ، عزموا على اقتحامها بالقوة ، « فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير فى نواحيها »(١٢٦) .

وكان عثمان رضى الله عنه ، قد أرسل كتابا إلى أهل الأمصار يطلب المدد منهم ، ويبين لهم حقيقة الموقف وانه لم يرتكب جرما ، ولم يخالف سنة الرسول ﷺ والخليفتين بعده وانه ولى الخلافة باجماع أهل شورى ، وقال لهم فى كتابه : « ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ من الناس ومنهم على ، على غير طلب منى ولامحبة ، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون ، تابعا غير مستتبع ، متبعا غير مبتدع ، مقتديا غير متكلف ، فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله . جدت ضغائن وأهواء ، على غير إجرام ولا ترة ، فيما مضى إلا إمضاء الكتاب ، فطلبوا — أى الثوار — أمرا وأعلنوا غيره بغير صحة ولاعذر ، فعابوا على أشياء مما كانوا يرضون ، وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها ، فصبرت لهم نفسى وكففتها عنهم منذ سنين ، وأنا أرى وأسمع ، فازدادوا على الله عز وجل جرأة ، حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله ﷺ وحرمه وأرض الهجرة . وثابت اليهم الأعراب ، فهم كالأحزاب أيام الأحزاب ، أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق .

فاتى الكتاب أهل الأمصار ، فخرجوا على الصعبة والذلول ، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهرى ، وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حديج السكونى وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو(١٢٧) » .

أحدث كتاب الخليفة تأثيرا كبيرا وهز مشاعر الناس فى الأمصار ، وبخاصة صحابة رسول الله الذين راحوا يحرضون الناس على الخروج لنصرة الخليفة ، ويقولون لهم : « انهضوا إلى خليفتكم وعصمة أمركم » ، ولكن هذه الاستغاثة جاءت متأخرة عن موعدها ، وربما يكون الثوار قد

---

(١٢٦) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٥٠

(١٢٧) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٥١ — ٣٥٢.

علموا بتحرك النجدات من الأمصار ، فقرروا الفراغ من أمرهم قبل وصولها ، فقد أحاطوا بالمدينة ، وحدثت بينهم وبين بعض الصحابة ملاحات ومدافعات . واستطاع الصحابة وفى مقدمتهم على بن أبى طالب رضي الله عنه ، تسكين الناس .

وتمكن عثمان من أن يخطب فى الثائرين ، فبين لهم أنه لم يرتكب خطأ ، وأن مابلغهم عنه كان باطلا . ودارت بينه وبينهم مناظرة ، وكانوا كلما احتجوا عليه بآية من القرآن الكريم ، بين لهم فيما نزلت ، وأنها ليست مما يحتج به فيما يدعون . يقول خليفة بن خياط : « فجعلوا يأخذونه بالآية فيقول : امضه نزلت فى كذا فما يزيدون فأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطا ، وأخذ عليهم الا يشقوا عصا الطاعة ولا يفارقوا جماعة ماأقام لهم شرطهم ، ثم رجعوا راضين(١٢٨) » . ولكن الذين رجعوا راضين هم عامة الناس ، الذين لم تكن قلوبهم تنطوى على حقد على الخليفة ، وإنما جاءوا مضللين بتأثير الدعاية والشائعات التى كان يطلقها الزعماء المخططون ، فلما التقوا بالخليفة وسمعوا كلامه رقوا له وعادوا راضين مقتنعين بكلامه .

أما الزعماء فلم يكن يرضيهم شىء إلا خلع الخليفة أو قتله ، ولكنهم اضطروا أن يسايروا عامة الناس ، وأن يتظاهروا بالرضى والاقتناع ، حتى لا تنكشف خطتهم أمام الكثرة من أتباعهم ، الذين كانوا يعتمدون عليهم فى ثورتهم . لقد ظلوا سنين يعدون لمؤامرتهم ، وهاهى الفرصة توشك أن تفلت من أيديهم ، ولهذا راحوا يعملون تفكيرهم الشيطانى حتى اهتدوا الى اختراع فكرة الكتاب المزعوم ، الذى ادعوا انهم وجدوه مع غلام لعثمان ! ويتضمن هذا الكتاب : أمرا من عثمان إلى عبد الله بن سعد عامله على مصر ، بأن يقتل بعض المصريين ويضرب البعض الآخر ، عندما يعودون إلى مصر(١٢٩) . فرجعوا بهذا الكتاب إلى المدينة ، وأتوا على

---

(١٢٨) تاريخ خليفة بن خياط ص ١٦٩ وانظر الطبرى — تاريخ ٣٥٥/٤

(١٢٩) انظر نص هذا الكتاب المزعوم فى تاريخ خليفة بن خياط ص ١٦٩ — والطبرى — تاريخ — ٣٥٥/٤

ابن أبى طالب ، فقالوا لـــه : « الم تر إلى عدو الله ! ؟ أنه كتب فينا بكذا وكذا ، وإن الله قد أحل دمه ، قم معنا إليه ، قال : والله لا أقوم معكم ، فقـــالوا له : فلم كتبت إلينـــا ؟ فقال : والله ما كتبت إليكم كتابا قط(١٣٠) ، فنظر بعضـــهم إلى بعض ، ثم قال بعضـــهم لبعض ، ألهـــذا تقاتلون ، ألهذا تغضبون »(١٣١) .

ثم انطلقوا إلى عثمان ، فقـــالوا له : لم كتبت فينـــا بكذا وكذا ، فقال : « إنما هما اثنان ، أن تقيموا على رجلين من المسلمين ، أو يمينى بالله الذى لا إله إلا هو ، ماكتبت ولا أمليت ولا علمت ... وقـــد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل ، وقد ينقش الخاتم على الخاتم(١٣٢) » . فلما حلف الخليفة قالوا له : « مكنا من مروان فإنه كاتبك ، فحلف مروان ، فقـــال لهم عثمان ليس فى الحكم أكثر من هـــذا(١٣٣) » . ولكنهم كانوا عازمين على ارتكاب جريمتهم ، ولهذا لم يقنعوا بقســـم الخليفة وكاتبه وقرروا فرض الحصار على بيت الخليفة ، وتوالت الأحداث .

إن كل الدلائل تشـــير إلى أن هـــذا الكتاب كان مزورا ، وأن الذى زوره هم زعماء الفتنة وذلك لـــا يأتى :

أولا : أن عبد الله بن ســـعد ، الذى زعموا أن الكتاب موجه إليه ليقتلهم ويعذبهم ، كان قـــد خرج من مصر ، متوجها إلى عثمان فى المدينة بناء على طلبـــه ، وعلم بعودتهم وهو فى أيلة(١٣٤) . فكيف يكتب إليـــه

---

(١٣٠) يفهم من كلامهم أنه كانت تصلهم كتب من على ، فإنكار على لها يدل على أنها كانت كتبا مزورة ، والذين كانوا يزورونهـــا هم زعماء الفتنة وهم أيضا الذين زوروا الكتاب الذى وجدوه مع الغلام وهم كذلك الذين استأجروا حامله إمعانا فى حبك الموضوع

(١٣١) تاريخ خليفة بن خياط ص ١٦٩ ، وتاريخ الطبرى ٣٥٥/٤

(١٣٢) انظر خليفة بن خياط ص ١٦٩ ، وتاريخ الطبرى ٣٥٦/٤

(١٣٣) ابن خلدون — المقدمة ٦٢٠/٢

(١٣٤) العواصم من القواصم ، هامش ٣ ص ١٢٦ لمحب الـــدين الخطيب .

عثمان وقد استدعاه من مصر ، التى غلب عليها حينئذ محمد بن أبى حذيفة وهو من زعمائهم .

ثانيا : إن الذين وجدوا الكتاب المزعوم ، هم المصريون ، ولكن الثوار عادوا جميعا فى وقت واحد ، أهل البصرة وأهل الكوفة ، فعودتهم جميعا فى وقت واحد ، مع اختلاف طرقهم ، وتباعد ما بينهم ، يدل على أن الأمر مدبر من قبل . كما قال لهم على نفسه « كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر ، وقد سرتم على مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة(١٣٥) » ... فقال العراقيون بلسان رؤسائهم « فضعوه حيث شئتم لا حاجة لنا إلى هذا الرجل ليعتز لنا » وهذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مفتعلة ، وأن الغرض الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين عثمان ، وسفك دمه الذى عصمه الله بشريعة رسوله ﷺ .

ثالثا : إن قصة عثورهم على الكتاب مع الغلام الذى كان يحمله قصة غريبة ، تؤكد أن الكتاب كان مزورا فى المدينة ، زوره الأشتر النخعى وحكيم بن جبلة لأنهما تخلفا ولم يعودا مع الثوار(١٣٦) . فالغلام الذى وجدوا معه الكتاب . أخذ يتعرض لهم ثم يفارقهم ، ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم ويتبينهم . فقالوا له : مالك إن لك لأمرا ! ما شأنك ؟ فقال أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر ، ففتشوه فإذا هم بالكتاب عليه خاتم عثمان(١٣٧) . فكأن هذا الغلام كان يقول لهم : امسكوا بى فإنى أحمل كتابا فيه قتلكم ، فلو كان هذا الغلام مرسلا من قبل عثمان لكان خليقا بألا يتعرض لهم على هذا النحو المريب ، أو لسلك طريقا غير طريقهم . ولكن الذين استأجروا هذا الغلام وكلفوه بحمل هذا الكتاب المزور ، هم الذين أمروه أن يظهر للناس حتى يفتشوه بعد أن يرتابوا فى أمره . كل هذا يدل على تزوير الكتاب على لسان الخليفة .

---

(١٣٥) الطبرى — تاريخ — ٣٥١/٤

(١٣٦) العواصم من القواصم . هامش ١ ص ١٢٧ لمحب الدين الخطيب .

(١٣٧) الطبرى — تاريخ — جـ ٤ ص ٣٥٥

رابعا : افتضاح امر الثوار امام على رضى الله عنه ، عندم قالوا له لم كتبت إلينا ؟ فاقسم انه لم يكتب إليهم كتابا قط ، وليس على وجده الذى زوروا على لسانه كتبا ليضللوا عامة الناس ، فقد زوروا على لسان طلحة والزبير وعائشة كتبا وادعوا انها مرسلة منهم تحضهم على الخروج على عثمان ، والصحابة كلهم ابرياء من هذه الكتب وقد انكروا علمهم بها . فقد روى عن مسروق انه قال لعائشة بعد مقتل عثمان : « هذا عملك كتبت إلى الناس تامرينهم بالخروج عليه ، فقالت عائشة : والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ، ما كتبت إليهم بسـواد فى بياض حتى جلست مجلسى هذا » قال الأعمش : فكانوا يرون انه كتب على لسانها(١٣٨) .

فزعماء المؤامرة إذن ذوو سوابق فى التزوير على السنة الصحابة : مما يقطع بأن هذا الكتاب كان مزورا وانه كان آخر ورقة فى أيديهم للتذرع بها لارتكاب جريمتهم ، ويعلق الإمام ابن تيمية على قصة هذا الكتاب المزعوم فيقول : « وكل ذى علم بحال عثمان وإنصاف له يعلم انه لم يكن ممن يأمر بقتل محمد بن ابى بكر ولا أمثاله ، ولاعرف عنه قط انه قتل احدا من هذا الضرب ، وقد سعوا فى قتله ، ودخل عليه محمد فيمن دخل ، وهو لايأمر بقتالهم دفعا عن نفسه ، فكيف يأمر بقتل معصوم الدم ، وإن ثبت ان عثمان أمر بقتـل محمـد بن ابى بكر لم يطعن فى عثمان ، بل إن عثمان إن كان أمر بقتل محمد بن ابى بكر ، اولى بالطاعة ممن طلب قتل مروان — وقد كان الثائرون طلبوا من عثمان ان يسلمهم مروان ليقتلوه — لأن عثمان إمام هدى وخليفة راشد ، يجب عليه سياسة رعيته ، وقتل من لايدفع شره إلا بقتله واما الذين طلبوا قتل مروان ، فقوم خوارج ، مفسدون فى الأرض ليس لهم قتل احد ، ولا إقامة حد ... وليس مروان اولى بالفتنة والشر من محمد بن ابى بكر ولاهو اشهر بالعلم منه ، بل أخرج أهل الصحاح عدة احاديث عن مروان وله اقوال مع أهل الفتيا واختلف فى صحبته ، ومحمد بن ابى بكر ليس بهذه المنزلة عند الناس ، ومروان من اقران ابن الزبير(١٣٩) .

---

(١٣٨) تاريخ خليفة بن خيـاط ص ١٧٦ — وابن كثير — البداية والنهاية ١٩٥/٨ .

(١٣٩) منهاج السنة جـ ٣ ص ١٨٨ — ١٨٩ — وانظر العواصم من القواصم ص ١١٠ — ١١١

تشبث الثائرون بهذا الكتاب المزور ، ولم يستجيبوا لنصح الصحابة بالرجوع إلى بلادهم وحصروا الخليفة فى بيته ، فأرسل الصحابة أبناءهم لحراسة البيت والدفاع عن الخليفة . وأقدم الثوار على خطوة لم تفعلها الفرس والروم — على حد قول على رضى الله عنه — فقد منعوا الماء عن عثمان — الذى كان اشترى بئر رومة من ماله الخاص ووهبها للمسلمين — فأرسل إلى على وطلحة والزبير وأزواج النبى ﷺ يطلب منهم ماء ، فكان أول المغيثين له على وأم حبيبة ، فذهب على فى الغلس وقال لهم:« إن الذى تصنعون لايشبه أمر المؤمنين،ولاأمر الكافرين،لاتقطعوا عن هذا الرجل المادة، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى ، وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله ! قالوا : لاوالله ولانعمة عين ، لانتركه يأكل ويشرب(١٤٠) . لم يستطع على أن يوصل الماء لعثمان ، ولا استطاعت أم حبيبه ، بل أساءوا الأدب وتجاوزوا كل حد معها فكذبوها وسبوها ، وكلموها بكلام قبيح وقطعوا حبل بغلتها(١٤١) ! .

هكذا وصل بهم الحقد والكيد إلى حد التجرد من الحياء مع زوجة الرسول عليه السلام . ولما وصل الأمر إلى هذا الحد ، واحكموا حصارهم حول البيت ، وتأزم الموقف ، حتى كادت الحرب تنشب بين الثوار وبين حراس الدار من أبناء الصحابة وبنى أمية ، عندئذ اقسم عثمان على حراس الدار ان يعودوا إلى منازلهم(١٤٢) ، وكره — يرحمه الله أن تراق من أجله محجمة دم ، وهكذا لم تزايله رحمته وبره بالمسلمين حتى فى هذه اللحظات العصيبة . فقرر أن يلقى مصيره وحده ، وقد ظن أن ذلك سيجنب المسلمين إراقة الدماء وهو لا يعلم أن تضحيته بنفسه سوف تكون بداية لإراقة دماء غزيرة ، وفاتحة لمأساة دموية بين المسلمين . وقد كان حقن الدماء الحقيقى يمكن أن يكون فى قتل هؤلاء الخوارج جميعا ، الذين فتقوا فى الإسلام هذا الفتق ، وارتكبوا هذه الجريمة البشعة . فقد اقتحموا على الخليفة داره اقتحاما ، وبعضهم تسلق من دور مجاورة ، وقتلوه وهو يقرأ فى كتاب

---

(١٤٠) ، (١٤١) — انظر الطبرى — تاريخ ٣٨٦/٤

(١٤٢) المصدر السابق ٣٨٤/٤

الله ، وروعوا الأمة الإسلامية فى إمامها . دون ذنب جناه هذا الصحابى الجليل المشهود له بالجنة من النبى ﷺ — . كان قتل عثمان رضى الله عنه فى شهر ذى الحجة سنة ٣٥ هـ فى منتصفه أو فى أيام التشريق ، أو لأيام بقين منه ، على خلاف فى تحديد اليوم من الشهر المذكور(١٤٣) .

هكذا راح ثالث الخلفاء الراشدين ضحية المؤامرة الحاقدة ، ولكى ترى مدى بشاعة تلك الجريمة النكراء فإننا نسوق هنا قائمة الافتراءات التى افتراها هؤلاء الخوارج كما لخصها القاضى أبو بكر بن العربى حيث يقول :«قالوا : متعدين متعلقين برواية كذابين ، جاء عثمان فى ولايته بمظالم ومناكير ، منها : ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه ، ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ، ومنعه عطاءه وابتدع فى جمع القرآن ، وحمى الحمى ، وأجلى أباذر إلى الربذة ، وأخرج من الشام أبا الدرداء ، ورد الحكم ، بعد أن نفاه رسول الله ﷺ وابطل سنة القصر فى الصلوات فى السفر ، وولى معاوية وعبدالله بن عامر والوليد بن عقبة(١٤٤) وأعطى مروان خمس افريقية(١٤٥)

وكان عمر يضرب بالدره وضرب هو بالعصا ، وعلا على درجة رسول الله ﷺ — أى على منبره — ، وقد انحط عنها أبو بكر وعمر ، ولم يحضر بدرا ، وانهزم يوم أحد وغاب عن بيعة الرضوان ، ولم يقتل عبيد الله بن

(١٤٣) انظر الروايات المختلفة عن تحديد اليوم الذى قتل فيه عثمان رضى الله عنه ، فى تاريخ خليفة بن خياط ص ١٧٦

(١٤٤) سبق الحديث عن هؤلاء الولاة جميعا .

(١٤٥) لم يعط عثمان مروان خمس افريقية ، بل كان وعد عبدالله ابن سعد عندما وجهه لغزو إفريقية أن يعطيه خمس الخمس من الغنيمة تشجيعا له على الغزو — انظر الطبرى — تاريخ — حـ ٤ ص ٢٥٣ وقد أخذ عثمان من ابن سعد هذا النفل عندما لم يوافق عليه الناس ، يقول الطبرى : ؟ وقد شكوا عبد الله فيما أخذ ، فقال لهم — عثمان — أنا نفلته . . فإن رضيتم فقد جاز وإن سخطتم فهو رد . قالوا : فإنا نسخطه : قال فهو رد ، وكتب إلى عبد الله برد ذلك واستصلاحهم . تاريخ ج ٤ ص ٢٥٤ . وعثمان لم يكن مبتدعا فى ذلك بل كان مقتديا بعمر رضى الله عنه حيث نفل قبيلة بجيلة ربع الخمس زيادة على نصيبهم فى الغنائم عندما وجههم إلى العراق . الطبرى — تاريخ — حـ ٣ ص ٤٦٢

عمر بالهرمزان ، وكتب مع عبده على جمله كتابا(١٤٦) إلى ابن أبى سرح فى قتل من ذكر فيه (١٤٧)».

إن هذه الافتراءات تبين بجلاء ذلك الحقد الدفين الذى انطوت عليه قلوب هؤلاء الخوارج من الموتورين والأعراب الأجلاف حتى ظنوا أنهم اعلم بالدين والكتاب والسنة من عثمان رضى الله عنه وهو من السابقين الأولين الذين عاصروا الدعوة من بدايتها ، ولكى يكون الحكم على تلك الأكاذيب أكثر وضوحا فإننا نسوق هنا تفنيد ابن العربى لهـذه الافتراءات ، فهو يقول « وهذا كله باطل سندا ومتنا ، أما قولهم جاء عثمان بمناكير فباطل ، وأما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه فزور،وضربه لعمار إفك،ولوفتق أمعاءه ما عاش أبدا ، وأما جمع القرآن فتلك حسنته العظمى وخصلته الكبرى ... وأما الحمى فكان قديما منذ عهد الرسول ﷺ وصاحبيه ، وأما نفيه أبا ذر فلم يفعل ، ووقع بين أبى الدرداء ومعاوية كلام ، وكان أبو الدرداء زاهدا فاضلا قاضيا لهم ، فلما اشتد فى الحق وأخرج طريقة عمر فى قوم لم يحتملوها عزلوه فخرج إلى المدينة ، وهذه كلها مصالح لا تقدح فى الدين ، ولاتؤثر فى منزلة احد من المسلمين بحـال ، وأبو الدرداء وأبو ذر بريئان من عاب ، وعثمان برىء أعظم براءة واكثر نزاهة ، وأما رده الحكم فلم يصح ...وأما ترك القصر فاجتهاد ، وأما معاوية فعمر ولاه وجمع له الشامات كلها ... وأما عبدالله بن عامر فولاه كما قال ، لأنه كريم العمات والخالات — أى رجل شريف صالح كفء — وأما الوليد بن عقبة ، فإن الناس على فسـاد النيات أسرعوا إلى السيئات قبل الحسنات فذكر الافترائيون أنه إنما ولاه للمعنى الذى تكلم به ، قال عثمان ماوليته لأنه أخى ، إنما وليته لأنه ابن أم حكيم ، البيضاء عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه(١٤٨) ، والولاية اجتهاد ، وقدا عزل عمر سعد بن أبى وقاص ، وقدم أقل منـه درجة ، وأما قول القائلين فى مروان والوليد فشديد عليهم ، وحكمهم عليهم بالفسق ، فسق

---

(١٤٦) بينا فيما سبق قصة هذا الكتاب

(١٤٧) العواصم من القواصم ص ٦١ — ٦٢

(١٤٨) ومع هذه القرابة القريبـة من النبى ﷺ فكان الوليد أهلا للولاية بشهادة ثقاة المؤرخين كما ذكرنا فيما سبق

منهم ، مروان رجل عدل من كبار الأمـــة عند الصحابة والتابعين وفقهـــاء المسلمين ... وأما إعطاؤه خمس افريقية لواحد فلم يصح ، على أنه قد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه فى الخمس ، وينفذ فيه ما أداه إليه اجتهاده ، وأن إعطاءه لواحد جائز ... وأما قولهم إنه ضرب بالعصا فما سمعته ممن أطاع أو عصى ، وإنما هو باطل يحكى .. وأما علوه على درجة رسول الله ﷺ فما سمعته ممن فيه تقية ، وإنما هى إشـــاعة منكر ليروى ويذكر ، فيتغير قلب من يتغير . قال علماؤنا : ولو صح ذلك فما فى هذا مايحل دمه ، ولايخلوا أن يكون ذلك حقا فلم تنكره الصحابة عليه ، إذ رأت جوازه ابتداء ، أو لسبب اقتضى ذلك ، وإن كان لم يكن فقـــد انقطع الكلام . وأما انهزامه يوم حنين ، وفراره يوم أحد ، ومغيبه عن بدر وبيعة الرضوان ، فقد بين عبدالله بن عمر وجـــه الحكم فى شأن البيعة وبدر واحد(١٤٩) ، وأما يوم حنين فلم يبق إلا نفر مع رسول الله ﷺ ولكن لم يجر فى الأمر تفسير من بقى ممن مضى فى الصحيح ، وإنما هى اقوال ، ... وهو أمر قد اشترك فيه الصحابة ، وقد عفا الله عنه ورسوله ، فلا يحل ذكر ماأسقطه الله ورسوله ... وأمـــا امتناعه عن قتل عبيدالله بن عمـــر بن الخطاب بالهرمزان فإن ذلك باطل ، فإن كان لم يفعل فالصحابة متوافرون ، والأمر فى أوله وقـــد قيل : إن الهرمزان سعى فى قتل عمر ، وحمل الخنجر وظهر تحت ثيابه ، ... ولعل عثمان كان لايرى على عبيدالله حقا ، لمـــا ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله(١٥٠) ، ... وأمـــا تعلقهم بأن الكتاب

---

(١٤٩) بين عبدالله بن عمر وجه الحق فى هذه الأمور الثلاثة عندما سأله عنها رجل من أهل مصر ، فـــقال له ابن عمر : « تعال أبين لـــك أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له . وأمـــا تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ — رقية رضى الله عنها — وكانت مريضة فقال له رسول الله ﷺ — : ان لك أجر رجل ممن شـــهد بدر وســـهمه وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلوكان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله ﷺ عثمان » انظر — ابن العربى العواصم من القواصم ص ١٠٤ — والقصة فى صحيح البخارى — كتاب فضائل الصحابة ك ٦٢ ب ٧ — حـ ٤ ص ٢٠٣ — ٢٠٤

(١٥٠) سبق أن ذكرنا أن القرائن تدل على اشتراك الهرمزان وجفينة مع أبى لؤلؤة فى قتل عمر رضى الله عنه

وجد مع راكب ، أو مع غلامه ولم يقل أحد قط أنه كان غلامه(١٥١) إلى عبدالله بن سعد بن أبى سرح ، يأمره بقتل حامليه ، فقد قال لهم عثمان ، إما أن تقيموا شاهدين على ذلك ، وإلا فيمينى انى ماكتبت ولا أمرت ، وقد يكتب على لسان الرجل ، ويضرب على خطه ، وينقش على خاتمه ، فقالوا : لتسلم لنا مروان . فقال : لاأفعل ، ولو سلمه لكان ظالما ، وإنما عليهم أن يطلبوا حقهم عنده على مروان وسواه ، فما ثبت كان هو منفذه — وآخذه والممكن لمن يأخذه بالحق ، ومع سابقته وفضيلته ومكانته لم يثبت عليه ما يوجب خلعه فضلا عن قتله(١٥٢) .

وبعد أن فند ابن العربى هذه المزاعـم الباطلة التى ادعاها خصوم عثمان ، بين العلة الكامنة وراء فتنتهم فقال : « وأمثل ماروى فى قصته أنه — بالقضاء السابق — تألب عليه قوم لأحقاد اعتقدوها : ممن طلب أمرا فلم يصل إليه ، وحسد حسادة أظهر داءها ، وحمله على ذلك قلة دين وضعف يقين ، وإيثار العاجلة على الآجلة ، وإذا نظرت إليهم دلك صريح ذكرهم على دناءة قلوبهم وبطلان أمرهم(١٥٣) . حقا أنها أحقادا عمت بصائر من أثاروا الفتنة على عثمان ، فجعلتهم يقلبون الحق ويصيرونه باطلا فهناك أمور أخذوها عليه واعتبروها من مثالبه ، وهى فى الحقيقة من مفاخره ، خذ مثلا قصة تغيبه عن بيعة الرضوان ، فلماذا غاب عثمان عنها ؟ لقد تغيب عثمان عن بيعة الرضوان ، لأن الرسول ﷺ كان أرسله سفيرا إلى قريش ، للتفاوض فى صلح الحديبية ، وهى مهمة لم يجد الرسول ﷺ أحدا من أصحابه أقدر عليها من عثمان ، فقد اعتذر عنها عمر بن الخطاب ، وخاف على نفسه من قريش لشدته عليها ، وقال للنبى ﷺ : «ادلك على رجل أعز بها — مكة — منى ، عثمان بن عفان(١٥٤) » والبيعة كلها كانت من أجل عثمان ، لما أشيع

---

(١٥١) وانما قالوا انه غلام الصدقة ، أى أحد رعاة ابل الصدقة ، وابل الصدقة الوف كثيرة لها مئات من الرعاة — انظر محب الدين الخطيب هامش ١ ص ١٠٩ من العواصم

(١٥٢) أنظر ابن العربى — العواصم من القواصم ص ٦٣ ومابعدها

(١٥٣) المصدر السابق ص ١١١

(١٥٤) أنظر ابن هشام — حـ ٣ ص ٣٦٣

أن أهل مكة قتلوه فقال النبى ﷺ — « إن كانـــوا فعلوها لن نبرح حتى نناجز القوم »وبايعه أصحابه على القتال بيعة رضىالله عنهـــم بسببها ، وحسب عثمان شرفا أن أطهر يد فى الوجود وهى يد الرسول ﷺ — نابت عن يده فى البيعة ، فقد رفـــع الرسول ﷺ يـــده اليمنى وضرب بها على اليسرى ، وقال : « هذه بيعة عثمان »(١٥٥) فهل نال هذا الشرف أحد من الصحابة غير عثمان ؟

ياسبحان الله ! وياعجبا للعقول عندمـــا يسكنها الشيطان ، فتخول الحـــق إلى باطل . وبعد فعثمان رضى الله عنه — كمـــا يقول ابن تيمية : « أفضل من كل من تكلم فيه ، هو أفضل من ابن مسعود وعمار وأبى ذر ومن غيرهم من وجوه كثيرة ، كما ثبت بالدلائل الكثيرة ، فليس جعل كلام المفضول قادحا فى الفاضل بأولى من العكس(١٥٦) .

لقد كان القصد من دراسة الفتنة فى عهـــد عثمان بيان أهم جوانبها وملابساتها ودوافعها ودلالاتها ، حتى يمكن معرفة الصلة بين تلك المؤامرة ومجريات الحوادث فى تاريخ الدولة الأموية ، فلقد ألقت حركة الخوارج فى عهد عثمان بظلالها الكثيفة على مالحقها من أحداث فى الدولة الأموية . بل فى تاريخ الأمة الإسلامية حتى يوم الناس هذا .

فالذين أثاروا الفتنة من أمثال عبدالله بن سبأ ، لم ينتهوا بانتهاء أمر عثمان وعهده ، بل ظلوا يظهرون فى صور وأشكال شتى ، فحركات الخوارج والشيعة والموالى فىالعصر الأموى،ترجع أصولها إلىتلك الأحداث . فالذين خرجوا على عثمان وقتلوه ، هم أصحاب الاتجاه فى الخروج على على — كرم الله وجهه — بعد التحكيم ، وتكفيره ثم قتله ، وهـــم وخلفاؤهم الذين ناصبوا الدولة الأموية العداء من أول يوم ، وشهروا فى وجهها السلاح ، وكرهوا أن يعود الوئام والوحدة إلى الأمة الإسلامية ، وعاثوا فى الأرض فسادا .

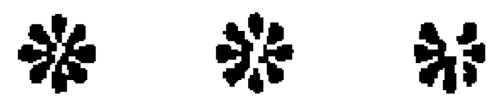
---

(١٥٥) المصدر السابق حـ٣ ص٣٦٥ — وانظر العواصم من القواصم ص ١٠٥ — ١٠٦

(١٥٦) منهاج السنة ١٩٢/٣ .

إن دراسة تلك الفتنة الكبرى بكل جوانبها وابعادهـا وشخصياتها تحتاج إلى دراسة متأنية تقوم على أساس البحث عن الحقيقة المجردة عن العواطف والزيف والمزاعـم الباطلة ، وتعتمد على الروايات التاريخيـة الموثقة ، وعلى المصادر التى تخلص أصحابها من الميول والأهواء ، وبعدوا بها عن عقدة الولاء لهذا العهد أو ذاك ، أى انها تعتمد فى المقام الأول على كتب الحديث وكتب الرجال ، والمؤرخين المشهود لهم بالنزاهة والتجرد مثل الطبرى وابن خياط ، نريد دراسة تحمل طابع الجدية والبحث عن الحقيقة بكل أبعادها ، وليست مثل تلك الدراسة التى نراهـا فى كتب مثل كتاب الفتنة الكبرى الذى استقى صاحبه معلوماته من مصادر مشبوهة لم يمكنه التصريح بها ، فأنت تراه يقول : يقول الرواة ، ويزعم الرواة ، ويجمـع الرواة ، ويختلف الرواة .. الخ . دون أن يعرفنا من هم هؤلاء الرواة .

اذا توفرت مثل هذه الدراسة ، فسوف تتغير مفاهيم كثيرة فى تاريخنا الإسلامى ، كما أنها سوف تلقى الضوء على جوانب كثيرة لاتزال غامضـة فى مسار حوادثه .



خلافة على بن أبى طالب

٣٥ ــ ٤٠ هـ

روعت المدينة لمقتل عثمان رضى الله عنه ، فلم يكن أحد من الصحابة يتصور أن تصل الجرأة بهؤلاء الأشرار الى حد قتل الخليفة وسيطرة الخارجين على مدينة الرسول ﷺ .

فقد ظل الغافقى بن حرب ، زعيم ثوار مصر ، وممن تولوا كبر هذا الإثم ، يصلى بالناس ، خمسة أيام ، وساد الهرج والاضطراب ، عاصمة الاسلام ،ودار هجرة الرسول ﷺ ومنزل الوحى ، ولم يكن فى استطاعة الثوار ان يقيموا خليفة منهم ، فهم يعلمون أن هذا أمرا يخص المهاجرين وحدهم ، فأخذوا يعرضون الخلافة على كبار الصحابة — على وطلحة والزبير وابن عمر وسعد — ولكنهم كانوا يعرضون عنهم(١٥٧) ، تقديرا منهم لضخامة المسئولية . ولكن فى هذا الجو العصيب الذى اضطربت فيه سفينة الأمة ، وماجت بها الأنواء وعصفت بها الرياح ، كان لابد من قائد شجاع يتقدم ، ليحمل الراية وينقذ الأمة من هذه الفوضى ، وهذا التردى ، فلو وصل مقتل عثمان إلى الولايات قبل أن يعرف الناس لهم إماما ، فسيكون لذلك أسوأ النتائج ، وتحت إلحاح الصحابة وتقديرا للمسئولية ، تقدم على رضى الله عنه ، وقبل التضحية ، ومن أولى منه بحمل هذا العبء الثقيل(١٥٨) ؟ روى الطبرى ، مرفوعا إلى أبى بشير العابدى ، قال : « كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضى الله عنه ، واجتمع المهاجرون والأنصار ،فيهم طلحة والزبير ، فأتوا عليا ، فقالوا : ياأباحسن ، هلم نبايعك ، فقال: لاحاجة لى فى أمركم ،

---

(١٥٧) الطبرى جـ ٤ ص ٤٣٢ .

(١٥٨) يقول أبو بكر بن العربى : « ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدرا وعلما وتقى ودينا ، فانعقدت له البيعة ، ولولا الإسراع بعقد البيعة لعلى لجرى على من بها — المدينة — من الأوباش مالايرقع خرقه ، ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار ، ورأى ذلك فرضا عليه فانقاد إليه » العواصم من القواصم ص ١٤٢ .

أنا معكم ، فمن اخترتم فقــد رضيت به ، فاختاروا والله ، فقالوا : مانختار غيرك ، قال : فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمان رضى الله عنه مرارا ، ثم أتوه فى آخر ذلك ، فقالوا له : أنه لا يصلح الناس إلا بأمرة ،وقد طال الأمر،فقال لهم : إنكم قد اختلفتم إلى وأتيتــم ، وإنى قائل لكم قولا إن قبلتموه قبلت أمركم ، وإلا فلا حاجة لى فيه . قالوا ماقلت من شىء قبلناه إن شاء الله . فجاء فصعد إلى المنبر ، فاجتمع إليه النـــاس ، فقال إنى قد كنت كارها لأمركم ، فأبيتم إلا أن أكون عليكم،الا وإنه ليس لى أمر دونكم،إلا أنمفاتيح مالكم معى ، الا وإنه ليس لى أن آخذ منه درهما دونكم ، رضيتم ؟قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد عليهم ، ثم بايعهــم على ذلك .قال أبو بشير :وأنا يومئذ عند منبر رسول الله ﷺ قائم اسمع مايقوله »(١٥٩) .

على وعمال عثمـــان :

تمت بيعة على رضى الله عنه بأغلبية الصحابة من المهاجرين والأنصار ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٣٥ هـ فاستقبل بخلافته عام ٣٦ . وكان أول شىء فكر فيه هو تغييرعمال عثمان ، وأداه اجتهاده إلى أن هذهالفتنة كلها كانت بسبب هؤلاء العمال ، كما أن الثوار ، الذين اصبحوا قوة مؤثرة فى توجيه الحوادث لن يقنعوا إلا بهذا ، ولن تستقيم الأمور بينهموبين هؤلاء الولاة إذا بقوا فى مناصبهم فصلاح الأحوال إذن — حسب اجتهاده — وتهدئة الأمور لم يكن ممكنا إلا بعزلهم ، لذلك لم يقبل نصيحة من أشــــار عليه بابقائهم بعض الوقت حتى تهدأ الأحوال ثم يرى رأيه.بل بدأ على الفور فى تعيين ولاة جدد،فعين عثمان بنحنيف على البصرة،وعمارة بن شهاب على الكوفة، وعبيد الله بن عباس على اليمن،وقيس بن سعد بن عبادة على مصر،وسهل ابن حنيف على الشام(١٦٠) وقــد استطاع ثلاثة من هؤلاء الوصول إلى ولاياتهم ومباشرة أعمالهم دون مشاكل،فعثمان بن حنيف وصل البصرة ،وقد تركها واليها السابق عبد الله بن عامر ، وعبيد الله بن عباس وصل إلى

---

(١٥٩) تاريخ حـ ٤ ص ٤٢٧ — ٤٢٨ — ولعل هذه الرواية من شاهد عيان تقنع من يدعون أن طلحة والزبير بايعا مكرهين ، فقد كانا من الذين ألحوا على على فى قبول الخلافة .

(١٦٠) أنظر الطبرى — تاريخ حـ ٤ ص ٤٤٢

اليمن ، وتركها واليها يعلى بن أمية(١٦١) ،ووصل قيس بن سعد إلى مصر، وكان عبد الله بن سعد واليها السابق قد غادرها قبل مقتل عثمان فلم يعد اليها — فغلب عليها محمد بن أبى حذيفة وهو من مثيرى الفتنة على عثمان .

أما والى الكوفة الجديد ، عمارة بن شهاب فلم يتمكن منها ، لأن أهلها تمسكوا بأبى موسى الأشعرى فقبل الخليفة منهم ذلك وأقر أباموسى ، فكتب إليه بطاعة أهل اكوفة وبيعتهم(١٦٢) .

كذلك لم يستطع والى الشام الجديد سهل بن حنيف ، الوصول إلى ولايته فقد رده أهل الشام ومنعوه من دخولها(١٦٣) ، وكان ذلك متوقعا ، لأن معاوية لم يكن ليسلم بعزله بسهولة . وقد كتب على إلى معاوية كتابا يدعوه فيه إلى البيعة والدخول فى الجماعة ، ولكنه لم يتلق منه ردا(١٦٤) . وبعد عدة شهور ارسل معاوية إلى على كتابا ، فى صدره جملة واحدة«من معاوية إلى على » وأمر حامل الكتاب أن يظهره للناس ، عندما يصل إلى المدينة ، فلما قرأ الناس هذه الجملة عرفوا أن معاوية معترض(١٦٥) وقد بنى معاوية اعتراضه على بيعة على — رضى الله عنه — على المطالبة بدم عثمان ، فقد سأل على حامل كتاب معاوية ، ماوراءك ؟ قال : « ورأى أنى تركت قوما لا يرضون إلا بالقود ، قال :ممن ؟ قال:من خيط نفسك،وتركت ستين الف شيخ يبكى تحت قميص عثمان ، وهـو منصوب لهم ، قد ألبسوه منبر دمشق . فقال : منى يطلبون دم عثمان ؟ ألست موتورا كترة اعثمان ، اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان»(١٦٦) .

وضح ان معاوية لن يستجيب لعلى وقد عزله . وكان ذلك متوقعا — كما ذكرنا آنفا — وقد كان ابن عباس وغيره اشاروا على على بابقاء معاوية ، لانهم يعلمون انه لن يقبل العزل .

---

(١٦١) أنظر الطبرى تاريخ ٤/٤٤٣
(١٦٢) الطبرى حـ٤ ص ٤٤٣ — وابن الاثير حـ٣ ص ٢٠٢
(١٦٣) الطبرى حـ٤ / ٤٤٢ — وابن الاثير حـ ٣ ص ٢٠١
(١٦٤) الطبرى حـ ٤ / ٤٤٣ — وابن الاثير حـ ٣ ص ٢٠٢
(١٦٥) الطبرى حـ٤ / ٤٤٣ — وابن الاثير حـ ٣ ص ٢٠٣
(١٦٦) الطبرى حـ ٤ / ٤٤٤ — وابن الاثير حـ ٣ ص ٢٠٣

ولكن عليا أبى عليهم ، واستعمل حقه كخليفة مسئول يعزل من يشاء ويولى من يشاء طبقا لاجتهاده ، ولما يراه محققا لمصلحة الأمة ، وكنا نتمنى أن يستجيب معاوية ، وأن يقبل قرار الإمام ، وأن يتأسى فى ذلك بسعد بن أبى وقاص ، وخالد بن الوليد ، عندما عزلهما عمر بن الخطاب ، فقبلا وآثرا صالح الأمة على نفسيهما ، ولكن معاوية لم يفعل .

أو أن يسمع على نصيحة عبد الله بن عباس ، بإبقاء معاوية على الشام فقد كان موضع رضا أهلها،فهم متمسكون به لحزمه وضبطه لولايته وسهره على أمنها ، ولهذا لم تنبعث منهم شكوى ضده ، ولم يشترك أحـد منهم فى الفتنة،وقد أبقى الإمام علىأبى موسى الأشعرى واليا علىالكوفة، بناء على رغبة أهلها فلماذا لم يبق معاوية على الشام ، وقد كان أهلها أشد استمساكا به من أهل الكوفة بأبى موسى ؟ الحق أنه كان من الخير للأمة لو أبقى على معاوية على الشام ، ولو فعل ذلك فقد كان يمكن أن تتفادى الأمة كثيرا من الحوادث والعقبات التى شغلت بها ، وأعاقتها عن مواصلة مسيرتها زمنا ، ولكنها ارادة الله وقضاؤه .

تبودلت الرسل والمراسلات بين على ومعاوية ، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة ، فقد تمسك على برأيه فى عزل معاوية ، كما بقى معاوية على مطالبته باقتصاص من قتلة عثمان ، أو تسليمهم إليه باعتباره ولى دم عثمان ، قبل النظر فى البيعة .

وبدأت الأمور تسوء من جديد ، واخذ الأمل الذى راود المسلمين عندما بايعوا عليا فى المدينة ، أن يكون فى مقتل عثمان كفاية ، وأن تستقبل الأمة عهدها الجديد بالخروج من الفتنة،أخذ هذا الأمل يتبدد،وأدرك الناس أن الأمة مقبلة على أمر عظيم ، بدأت علاماته تلوح فى الأفق ، فقد راح الخليفة فى المدينة يعد العدة للمسير بجيشه إلى الشام لرد معاوية إلى الطاعة بالقوة(١٦٧)، ولكنه قبل أن يسير إلى الشام وافته اخبار بأمر آخر لم يكن فى حسبانه .

---

(١٦٧) أنظر الطبرى — تاريخ — حـ ٤ ص ٤٤٥ .

موقعة الجمـــل :

كانت عائشة رضى الله عنها عندما قتل عثمان فى مكة،وبلغها خبر مقتله وهى عائدة إلى المدينة فرجعت إلى مكة ، وهناك جاءها طلحة والزبير ، حيث كانا قد استأذنا عليا لأداء العمرة ، كما تجمع عندها بنو امية ، وأخذوا يتداولون الأمر فيما بينهم ، فأداهم اجتهادهم إلى المطالبة بالثأر لعثمان ، وقد حدثتهم عائشة ، قائلة : « إن هذا حدث عظيموأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى اخوانكم من أهل البصرة ، فأنكروه ، فقد كفاكم اهل الشام ماعندهم ، لعل لله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين ثارهم »(١٦٨) .

لقد كان حدثا عظيما حقا ، وأمرا منكرا ، وعدوانا على الأمة كلها ، ولكن اجتهاد ام المؤمنينومن سار فى ركابها لم يكن موفقا — وإن كان المراد به الإصلاح ووضعالأمور فى نصابها — لأن الطريقةالتى اتخذت لذلك كانت بعيدة عن الصواب ، فليس من الحكمة ان يعـــالج مثل ذلك الأمر بتكوين جيش غير جيش الخليفة المبايع من الأمة ، والذى اصبح منوطا به إقامة الحـــــدود .

كما أن الطريق الصحيح لوضع الأمور فى نصابها لم يكن إلى البصرة ، وإنما كان إلى المدينة ، حيث أمير المؤمنين ، وهو اشد مايكون فى هذا الظرف إلى من يشد أزره ويساعده على جمع كلمة الأمة وبخاصة من ذوى المكانة العالية بين الناس من أمثال عائشة والزبير وطلحة ، ولو أنهم فعلوا ذلك لمـــا فكر أحد فى الذهاب إلى البصرة دونهم ، ولمـــا وقع مايسمى بيوم الجمل الذى لايزال المسلمون يذكرونه بالحسرة والألم .

اسباب خروج عائشة وطلحة والزبير على الخليفة :

ذهب الناس مذاهب شتى فى خروج عائشة وطلحة والزبير على على رضى الله عنهم جميعا ، وجنح الخيـــال ببعض الباحثين إلى القول بأن

---

(١٦٨) انظر الطبرى ـــ تاريخ ـــ جـ ٤ ص ٤٤٤ .

عائشة كانت لاتزال واجدة على موقف على منها فى حادثة الإفك(١٦٩) . فكرهت إمارته ، وأرادت أن تفسد عليه أمره ، وهذا القول أبعد مايكون عن الحق والحقيقة ، فعائشة أتقى وأبر من أن يكون هذا خلقها ، وسوف نرى فيما دار بينها وبين على بعد معركة الجمل أنها لم تكن تفكر فى شىء من هذا مطلقـــــا .

كما ذهب ذلك البعض إلىأن طلحة والزبير خرجا على على لأنه رفض أن يوليهما على بعض الولايات(١٧٠) ، وادعى البعض أنهما بايعا مكرهين ، وكلا الزعمين غير مسلم به،**أما أولهما** : فإن طلحة والزبير قد رفضا الخلافة ذاتها ، فكيف يغضبان من أجل الولاية ؟ كما أنهما لم يتوليا شيئا من الأعمال فى عهود أبى بكر وعمر وعثمان ، وذلك حرصــــا من الخلفاء على بقاء كبار الصحابة إلى جوارهم فى المدينة للتشاور معهم فى أمور الأمة ، والاستفادة بآرائهم وحكمتهم ، فطلحة والزبير أكبر من أن يغضبا على فوات ولاية ، **وأما ثانيهما** : فقد سبق أن عرفنا أن طلحة والزبير كانا مع الصحابة الذين ألحوا على على فى قبول البيعة ، وأنهما بايعاه طائعين ، ثم لماذا يكرههما الخليفة على بيعته،وقد تخلف عنها غيرهما من كبار الصحابة ولم يكرههمعلى ذلك ، مثل سعد بن أبى وقاص ، وعبدالله بن عمــــر ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وأبى سعيد الخدرى ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ونفر وغيرهم ؟ (١٧١) .

فلماذا يلجأ الخليفة إلى إكراه طلحة والزبير ، وليس غيرهما بأقل منهما شأنا وتأثيرا . أغلب الظن أن الروايات التى تبرز أمر إكراههما على البيعة إنما ترمى إلى الربط بين الإكراه وبين الخروج إلى البصرة حتى تشكك فى نواياهما الحقيقية فى الخروج ، والتى لم تكن إلا اجتهادا لأخــذ الثار من قتلة عثمان .

---

(١٦٩) ، (١٧٠) انظر : د. طه حسين ، الفتنة الكبرى جـ ٢ ص ٢٠ — ٢٥ .

(١٧١) انظر فيمن تخلف عن بيعة على من الصحابة — الطبرى — تاريخ — حـ ٤ ص ٤٢٨ — ٤٣٠ .

واذن فخروج عائشة وطلحة والزبير لم يكن لسبب من تلك الأسباب ، وإنما كان ذلك — فى اعتقادى — اجتهادا منهم للمطالبة بدم عثمان ، وإن كان اجتهادا قد جانبه الصواب . وقد كلم طلحة والزبير عليا فى أمر القصاص من قتلة عثمان بعد بيعته مباشرة ، وقبل أن يغادرا المدينة ، فقال لهما : ياأخوتاه، إنى لست أجهل ماتعلمون ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولانملكهم ، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلا لكم يسومونكم ماشاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون ؟ قالوا : لا . قال : **فلا والله لاأرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله** »(١٧٢) ، ثموعدهم بعد أن تهدأ الأمور أن ينظر واياهم فى الأمر ، فوافقوه على ذلك ، ولكنهم حينما تذاكروا مقتل عثمان مع عائشة وبنى أمية فى مكة هالهم الأمـــر وأحسوا بتقصيرهم عن نصرته ، وشعروا بالذنب الذى أوقعتهم فيه دعايات الثوار ووشايتهم على عمال عثمان حتى ظنوا ذلك صحيحا لدرجة أنهم كانـــوا يتعاطفون معهم أحيانا ويشاركونهم فى توجيه النقد للخليفة أحيانا أخرى ، ولكنهم لم يكتشفوا كذب الثوار وتجنيهم على عثمان وعماله الا بعد فوات الأوان . وقد جاء ذلك صريحا على لسان عائشة رضى الله عنها حيث قالت قبل معركة الجمل : « كان الناس يتجنون على عثمان رضى الله عنه ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة ، فيستشيروننا فيما يخبرونا عنهم ، ويرون حسنا من كلامنا فى صلاح بينهم(١٧٣) ، فننظر فى ذلك فنجده برا تقيا وفيا ، ونجدهم فجرة كذبة يحاولون غير مايظهرون ، فلما قووا على المكاثرة كاثروه ، فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام ، والمال الحرام ، والبلد الحرام ، بلا ترة ولا عذر ، الا إن مما لاينبغى لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه ، واقامة كتاب الله عز وجل »(١٧٤) .

---

(١٧٢) الطبرى — تاريخ — جـ ٤/ ٤٣٧ .

(١٧٣) هذا الكلام الحسن الذى كان يسمعه الثوار من عائشة وغيرها من الصحابة ربما شجعهم وجراهم على تزوير كتب على لسان الصحابة — كما مر بك — لاذاعتها بين الناس لإقناعهم أن الصحابة يوافقونهم فى آرائهم .

(١٧٤) الطبرى — تاريخ — جـ ٤ ص ٤٦٤ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٢١٣ .

وكانت عائشة كثيرا ماتردد قولها : « غضبت لكم من سوط عثمان افلا اغضب له من سيوفكم » ولهذا فقد دفعهم هذا الشعور بالتقصير والإحساس بالذنب إلى ماأداهم إليه اجتهادهم ، وهو النهوض للقصاص من قتلة عثمان — رضى الله عنه — وهو وإن كان اجتهادا قد جانبه الصواب ، الا ان ذلك لايقدح فى شخصياتهم فالصحابة ليسوا معصومين من الخطأ ، وهم لم يكونوا يتعمدونه أو ينوون به شرا .

مسير عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة :

اجمعت عائشة وطلحة والزبير على المسير إلى البصرة ، وكان معهم حوالى الف رجل ، جهزهم يعلى بن أمية وعبد الله بن عامر ، ثم لحق بهم حوالى ثلاثة آلاف(١٧٥) ، وكلما اقتربوا من البصرة ازدادت أعدادهم نظرا لوجود عائشة معهم ، حتى بلغ عددهم نحوا من ثلاثين الفا . فلما علم والى البصرة عثمان بن حنيف بوصولهم ، أرسل عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلى ، وقال لهما : « انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها ،

فخرجا فانتهياإليها وإلى الناس وهم بالحفير ، فاستأذنافأذنت لهما ، فسلما وقالا : إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرتك ، فهل انت مخبرتنا ؟ فقالت : والله مامثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولايغطى لبنيه الخبر ، إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل ، غزو حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ، مع مانالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولاعذر .. فخرجت فى المسلمين أعلمهم مأتى هؤلاء القوم» (١٧٦) ثم خرجا من عندها ، فأتيا طلحة والزبير ، وسألاهما عن سبب مسيرهما إلى البصرة ، فقالا لهما : « الطلب بدم عثمان »(١٧٧) رجع عمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف فأخبراه الخبر، فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! دارت رحى الإسلام ورب الكعبة»(١٧٨)

---

(١٧٥) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ حـ ٣ ص ٢٠٨ .
(١٧٦) الطبرى ٤/٤٦٢ — وابن الأثير — ٣/٢١١
(١٧٧) الطبرى ٤/٤٦٢ — وابن الأثير — ٣/٢١١
(١٧٨) الطبرى ٤/٤٦٣ — وابن الأثير — ٣/٢١٢

وعزم على منعهم من دخول البصرة . ودارت بينهم معركة عند الزابوقة ، وكان الذى أشعل المعركة رجال عثمان بن حنيف ، وبصفة خاصة حكيم بن جبلة العبدى ، أحد زعماء الفتنة ، أما عائشة وطلحة والزبير فلم يكونوا راغبين فى القتال ، بل كانوا يناشدون رجال ابن حنيف الكف عن القتال فيأبون(١٧٩) ولكن لما عضتهم الحرب وكثرت القتلى تنادوا إلى الصلح : « ثم اصطلحوا وكتبوا بينهم كتابا ، أن يكفوا عن القتال ، ولعثمان دار الإمارة والمسجد وبيت المال ، وأن ينزل طلحة والزبير حيث شاءآ ، ولايعرض بعضهم لبعض حتى يقدم على »(١٨٠) .

مسير على إلى البصرة :

قرر الإمام على رضى الله تأجيل مسيره إلى الشام ، وأن يتوجه إلى البصرة ، لمواجهة هذا الموقف الجديد ، الذى لم يكن فى حسبانه ، فسار حتى وصل إلى ذى قار ، فوافاه هناك حوالى اثنى عشر ألفا من أنصاره من الكوفة ، ومع أن القتال كان قد نشب من جديد بين والى البصرة عثمان بن حنيف وبين طلحة والزبير ، وانهم اخرجوه من دار الأمارة ، ونتفوا لحيته واهانوه وحبسوه ، ثم اطلقوا سراحه ، بناء على أمر من عائشة ،فوافى عليا فاخبره الخبر ، رغم هذا كله إلا أن عليا — كبرهان على عدم رغبته فى القتال — أرسل إليهم رجلا من خيرة الصحابة وهو القعقاع بن عمروا ، ليعرف خبرهم وماذا يريدون ، فقال له : « الق هذين الرجلين . . . فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقـة »(١٨١) فخرج القعقاع إلى البصرة ، وبدأ بعائشة ، وقال لها : « اى امه ما اشخصك واقدمك هـذه البلدة ؟ قالت : أى بنى ، الاصلاح بين الناس . قال : فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال لهما : إنى سألت أم المؤمنين ما اقدمها ، فقالت : الإصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ امتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ، قال : فأخبرانى ما وجه هذا الإصلاح ، فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لانصلح ، قالا :

---

(١٧٩) الطبرى ٤٦٦/٤ — وابن الأثير — ٢١٤/٣

(١٨٠) تاريخ خليفة بن خياط ص ١٨٣ .

(١٨١) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ حـ ٣ ص ٢٣٢ .

قتلة عثمان ، فإن هــذا إن تركَ كان تركا للقرآن ، قال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة(١٨٢) . وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاســتقامة منكم اليــوم ، قتلتم ستمائة رجــل فغضب لهم ســتة آلاف ، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير ، فمنعه ستة آلاف ، فإن تركتموهم كنتم تاركين لمــا تقولون ، وأن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم ، فالذى حذرتم وقويتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون، وان أنتم منعتم ربيعة ومضر من هــذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هــذا الحدث العظيم والذنب الكبير .

قالت عائشة : فما تقول أنت ؟

قال : أقول : إن هذا الأمر دواؤه التسكين ، فإذ أسكن اختلجوا فإن بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير رحمة ، ودرك بثأر ، وان أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه ، كانت علامة شر ، وذهاب هذا المــال ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم ، ولاتعرضونا للبلاء ، فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم ... قالوا : قد أصبت وأحسنت ، فارجع فإن قدم على وهو على مثل رأيكَ صلح هذا الأمر . فرجع إلى على فأخبره فأعجبه ذلك ، وأشرف القــوم على الصلح »(١٨٣) نستخلص من هــذا الحوار حقيقتين ، أولاهما : أن عليا رضى الله عنه كان على صواب عندما قال لهم من البداية إنه من الحكمة تأجيل القصاص من القتلة حتى تهــدأ الأحوال ، فهاهم بعد ما قتلوا من قتلوا ازدادت الأمور سوءا ، وتعمقت الأحقاد والثارات . الحقيقية الثانية أن عائشة ومن معها خرجوا يبغون الإصــلاح حسب ما أداهم إليه اجتهادهم ، وأن طلحة والزبــير لم يكن غضبهما لفوات إمارة منعها عنهما الخليفة كما يدعى بعض الباحثين(١٨٤) .

---

(١٨٢) كان معظم الذين اشتركوا فى الفتنة وقتل عثمان ، قد قتلوا فى المعارك التى دارت فى البصرة قبل قدوم على ، ماعدا حرقوص بن زهير السعدى ، فقد منعه قومه فلم يستطع أحد الوصول اليه .

(١٨٣) ابن الأثير — الكامل فى التــاريخ جـ ٣ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ والطبرى — تاريخ — ٤/٤٨٩

(١٨٤) د. طه حسين — الفتنة الكبرى جـ ٢ ص ٢٠ .

وخلاصة القــول إن الجميع كانوا يريدون الإصــلاح — كل حسب اجتهاده — ولكن عناصر الشر التى كانت لاتزال على عهدها ، أفســدت هذا المسعى الخير الذى قام به القعقاع بن عمرو .

السبئية يفسدون أمر الصلح ويبداون المعركة :

سر على غاية السرور بالنتيجة التى توصل إليها القعقــاع مع طلحة والزبير وعائشــة. وسربها أهل الصــلاح من الفريقين ، وباتوا يغمرهم الفرح ، ولكن السبئية الذين كانوا فى جيش على ما أن وصلتهم أخـبار الصالح المرتقب حتى راحوا يعملون على إفساد الأمر ، ومنع وقوع الصلح بين الفريقين .

ونقول للحقيقة إن عليا لم يكن له حيلة فى وجودهم فى جيشــه ، فلم يكن قادرا على إبعادهم ، لأنهم كانوا قوة كبيرة والذى يلومه على وجودهم فى جيشــه لايقدر الظروف الواقعيه حق تقديرها(١٨٥) . على أية حــال تحرك السبئية ونشــط عبد الله بن سبأ بين أتباعه ، يحرضهم على القتال ، وقال الأشتر النخعى : لمــا علم بأنباء الصــلح : « قد عرفنا رأى طلحة والزبير فينا ، وأما على فلم نعرف رأيه إلى اليــوم ، ورأى النــاس فينا واحدا ، فإن يصطلحوا مع على فعلى دمائنا ، فهلموا بنا نثب على على فنلحقه بعثمان،فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون»(١٨٦)ولكن هذا الرأى الخطير ، الذى أبداه الأشتر ، لم يعجب ابن السوداء وكأنه لم يقتنع بقتل على وحده ، بل يريدها حربا شاملة تذهب بالمسلمين جميعا ، فرفض فكرة الأشتر وقال له : «بئس الرأى رأيت » (١٨٧) وبــدأ يحض اتباعه على القتال قبل أن يصبح الناس ، فكان له ماأراد ، فقد داهمت فرقة من جيش على — دون علمه — جيش طلحة والزبير وعائشة فى جنح الظلام ، والتحم

---

(١٨٥) انظر الذهبى — دول الاسلام — ج ١ ص ٢٨

(١٨٦) الطبرى — تاريخ — ج ٤ ص ٤٩٣ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٣٥

(١٨٧) انظر الطبرى ج ٤ ص ٤٩٤ — وابن الأثير ج ٣ ص ٢٣٥.

القتال ولم يستطع أحد إيقافه ، وقتل من الفريقين نحو عشرين الفا ، من بينهم طلحة والزبير ، وكثر القتل حول الجمل ، ولولا امر على بعقـره ، لكانت العاقبة أفظع مما حدث(١٨٨) .

ومن هنا فإن القاء تبعة هـذه المعركة على هذا الفريق أو ذاك من الصحابة ضرب من الظن الذى لاينفك غالبا عن الأثم ، ولهذا فنحن مع ابن خلدون حين يقول « وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين .. وعلمت انها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة(١٨٩) .

حقا لقد كانت فتنة ، التبس الأمر فيهـا على الجميع حتى قال الزبير قبل المعركة « إن هـذه للفتنـة التى كنا نحـدث عنها . فقال له مولاه : اتسميها فتنة وتقاتل بها ، قال : ويحك : انا نبصر ولانبصر ، ما كان أمر قط إلا وأنا أعلم موضـع قدمى فيه ، غير هذا الأمر ، فإنى لأدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر!»(١٩٠). وإذا كان لابد من تحديد المسئول عن تلك المأساة الدموية ، فهم أولئك السبئية الذين سعوا فى الفتنة من البداية وعاجلوا الناس بإشعال الحرب قبل أن ينتهى الأمر بهم إلى الصلح .

وإذا كان من واجب المؤرخ أن يبحث عن الأسباب والدوافع فى مسار حوادث التاريخ ، فإنه لايفوته أن ينبه إلى استخلاص العبر منها ، ولاشك أن خير الأمة الإسلامية وامنهـا كان يكمن فى وحـدتها واتفاق كلمتهـا ، واعتصامها بحبل الله المتين امام تلك الفتنة الشعراء .

يقول الإمام ابن تيمية : « إن الفتن إنما يعرف مافيهـا من الشر إذا أدبرت فأما إذا قبلت فإنهـا تزين ويظن أن فيها خيرا ، فإذا ذاق النـاس مافيها من الشر والمـرارة والبلاء صار ذلك مبينا لهم مضرتها وواعظـا

---

(١٨٨) انظر الذهبى — دون الاسلام — ج ٢ ص ٢٨ ، تاريخ خليفة بن خياط ص ١٨٢ وما بعدها ، والطبرى تاريخ — ج ٤ ص ٥٠٦ وما بعدها وابن لاثير — التكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٥٤ وما بعدها .

(١٨٩) المقدمة ج ٢ ص ٦١٩

(١٩٠) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ — ج ٣ ص ٣٢٠

لهم ان يعودوا فى مثلهــا ... ومن استقرأ احوال الفتن التى تجرى بين المسلمين تبين له انه ما دخل فيها أحد ، فحمد عاقبة دخوله فيها ، لمــا يحصــل له من الضرر فى دينه ودنياه »(١٩١) . وقد ندم الجميع بالفعل على ما كان فقــد قالت عائشه بعد المعركة : « والله لو ددت انى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة » ووردت نفس العبارة على لسان على ، فكان قولهما وحدا كما يقول الطبرى(١٩٢) .

حقا لقد كان الدرس قاسيا بالنسبة لها حتى إنها نأت عن الاشتراك فى اى عمل سياسى بعــد ذلك ، وتفرغت للعــلم والفتيا والعبادة ، حتى آخر حياتها . انتهت المعركة واخذ الإمام على يتجول بين عشرين ألفا من القتلى والالم يعتصر قلبه ، فقــد كان كثير منهم من خيرة رجالات الأمــة وشــبابها ، ثم أمر بدفنهم ، وذهب إلى عائشــة التى كانت قــد حملت بهودجها بعد عقر جملها وأدخلت احد بيوت البصرة — لزيارتها ومواساتها ، وتبادلا كلمات العتاب التى تدل على حسن راى كل منهما فى الآخر : فقد قالت عائشة فى حضرة على : « يا بنى لايعتب بعضنا على بعض ، والله إنه ما كان بينى وبين على فى القــديم إلا مايكون بين المراة وبين أحمائها ، وانه على معتبتى لمن الأخيــار ، وقال على : صدقت ، والله مــا كان بينى وبينها إلا ذاك ، وإنهــا لزوجة نبيكم فى الدنيــا والآخرة(١٩٣) . ولعل هذا القول يقطع السنة الســوء التى تدعى أنها خرجت عليه لحنقها منذ حادثة الإفك . جهز على أم المؤمنين بما يليق بها من مركب وزاد ومتــاع وأختار لهــا اربعين امراة من نساء البصرة المعروفات ، وسير أخاها محمد بن أبى بكر معها وودعها إلى المدينة(١٩٤) .

معركة صــفين :

انتهت مأســاة الجمل بهــذه الخســارة الجسيمة ، وكان يجب أن يستفيد المسلمون من عبرتها ويتدبروا أمرهم فى ضوء نتائجها ، ولكن الفتنة

---

(١٩١) منهاج السنة جـ ٢ ص ٢٠٩ — ٢١٠
(١٩٢) تاريخ جـ ٤ ص ٥٣٧
(١٩٣) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٢٥٨ .
(١٩٤) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٢٥٨ .

أبت إلا ان تجرهم لخوض معركة أخرى أشد ضراوة وأكثر ضحايا وهى معركة صفين .

فبعد معركة الجمل دخل على الكوفة ، واستأنف مفاوضاته مع معاوية فارسل له وفدا وكتابا مع جرير بن عبد الله البجلى ، يذكره فيه بأن المهاجرين والأنصار قد بايعوه ، وعليه ان يدخل فى الطاعة والجماعة ، ولكن مصير هذه السفارة كان كسابقاتها ، وعاد جرير ليبلغ عليا بإجماع معاوية واهل الشام على المطالبة بدم عثمان ، وعلى القتال إذا لزم الأمر(١٩٥) .

وقد قوى أمر معاوية بالتفاف أهل الشام حوله ، وطاعتهم له ، فمنذ أن وصلهم قميص عثمان مع النعمان بن بشير الأنصارى ، وضع معاوية القميص على المنبر وأصابع نائلة — زوجة عثمان — معلقة فيه ، وكتب إلى الأجناد ، فثاب إليه الناس ، وأخذوا يبكون » وآلى الرجال من أهل الشام على أنفسهم الا يأتوا النساء ، ولا يمسهم الغسل إلا من احتلام ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان »(١٩٦) .

لقد بات الصدام بين الفريقين وشيكا ، فقد تحرك على بجيشه من الكوفة إلى الشام ، وعلم معاوية بمسيره ، فاستشار رجاله ، ومنهم عمرو بن العاص فأشاروا عليه بأن يخرج هو أيضا بنفسه على رأس جيشه ، فسار ثم عسكر الجيشان قرب صفين ، وكان جيش على حوالى مائة وعشرين الفا ، وجيش معاوية حوالى تسعين الفا ، وقبل نشوب المعركة عاود على إرسال الوفود والكتب إلى معاوية واقترح أحد رجال على عليه بأن يلوح لمعاوية بإمارة ، فقد قال له : شبث بن ربعى : « يا أمير المؤمنين إلا نطمعه فى سلطان توليه إياه ومنزلة يكون لها أثرة عندك إن هو بايعك ، فقال على : إيتوه فالقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه »(١٩٧) وتلك إجابة لاتنم علىموافقة على على اقتراح

---

(١٩٥) انظر الطبرى ج ٤ / ٥٦١ — ٥٦٣

(١٩٦) انظر المصدر السابق ج ٤ ص ٥٦٢

(١٩٧) المصدر السابق ج ٤ ص ٥٧٣

ابن ربعى ، وقد كانت الحكمة تقتضى أن يوافق الإمام فالظروف الراهنة تحتم ذلك ، وبخاصة ان مأساة الجمل ونتائجها لا تزال ماثلة أمام أعين المسلمين ، ولكن تلك الفرصة ضاعت كغيرها من الفرص الآخرى،واصر على على موقفه من معاوية ، كما أصر معاوية أيضتنا على موقفه،ومما جعل الموقف يزداد توترا واشتعالا أن بعض الرجال الذين كان يرسلهم على إلى معاوية كانت تنقصهم الحكمة ، وسعة الصدر ولين الجانب . فقد كانوا يغلظون لمعاوية فى القول ويكلمونة بلهجة فيها استعلاء عليه وازدراء به ، ويتهمونه صراحة فى وجهه بأنه أحب قتل عثمان ، ليتخذ منه ذريعة إلى الوصول إلى الخلافة وانه لو أراد نصرته لكان قادرا على ذلك(١٩٨) وقد رد معاوية على شبث بى ربيعى عندما واجهه بهذا الكلام قائلا : « لقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابى الجلف الجاف فى كل ماذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندى ، فليس بينى وبينكم إلا السيف وغضب »(١٩٩) ورد عليه شبث بكلام أشد من هذا ، ولاشك أن الموقف كان يتطلب من هذا الرسول أن يكون على درجة عالية من الحنكة السياسية وسعة الأفق وأن يركز على البحث على المصالحة والانضواء تحت راية الجماعة ، فليس بغليظ الكلام وجافى القول تستمال القلوب . وهكذا فشلت الدبلوماسية المتهورة ، فبدأت المناوشات بين الجيشين وكان الجميع يخشى الصدام المباشر والحرب الشاملة ، يقول الطبرى : « فأخذ على يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة ، ويخرج إليه من أصحاب معاوية جماعة،فيقتتلون فى خيلهما ورجالهما،ثم ينصرفان ، واخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع اهل العراق أهل الشام،لما يتخوفون أن يكون فى ذلك الاستئصال والهلاك »(٢٠٠) . استمرت هذه المناوشات فى ذى الحجة سنة ٣٦ هـ ، ثم تهادنوا فى المحرم سنة ٣٧ هـ . طمعا فى الصلح كما يقول الطبرى(٢٠١) : « ومشت الوفود من جديد ولكن دون جدوى » .

---

(١٩٨) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٧٤

(١٩٩) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٧٤

(٢٠٠) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٧٤

(٢٠١) تاريخ جـ ٥ ص ٦ وانظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٢٨٩

ولما انتهى المحرم ، ولم تنجح المفاوضات فى عقد صلح ، بدأ الاستعداد للقتال من الفريقين ، وبدأت المعركة الرئيسية فى يوم الأربعاء ، لسبع خلون من صفر سنة ٣٧ هـ . وكان لواء على مع هاشم بن عتبه بن ابى وقاص ، وكان على نفسه فى القلب ومعه مضر البصرة والكوفة ، وفى الميمنة أهل اليمن وعليهم الأشعث بن قيس ، وفى الميسرة ربيعة وعليهم ابن عباس .

أما لواء معاوية فكان مع المخارق بن الصباح الكلاعى ، وفى القلب معاوية نفسه فى الشهباء أصحاب البيض والدروع ، وفى ميمنته أهل اليمن ، وفى الميسرة مضر وعليهم ذو الكلاع ، ودارت الحرب ثلاثة أيام متوالية الأربعاء ، والخميس ، والجمعة ، ولما اشتد القتال وكثرت القتلى من الفريقين ، تنادى الناس من لثغور العراق إن فنى أهل العراق ، ومن لثغور الشام إن فنى أهل الشام ، ثم رفعوا المصاحف ليلة السبت ، ودعوا إلى الصلح ، وافترقوا على سبعين الف قتيل ، خمسة وأربعون الفا من أهل الشام ، وخمسة وعشرون الفا من أهل العراق(٢٠٢) انها كارثة مفزعة وخسارة فادحة ففى أقل من عام خسرت الأمة من ابنائها حوالى مائة الف قتيل — فى الجمل وصفين — فأى ابتلاء أصاب الأمة الإسلامية !! ولو ان كبار الرجال فيها اصغوا إلى صوت العقل والحكمة لتوجهت تلك الآلاف إلى الفتوحات ولتغير وجه التاريخ ولضاعت فرصة الذين لا يزالون يتربصون بالأمة الإسلامية الدوائر إلى الأبد .

التحكيم :

هال الناس استعار الحرب وكثرة القتلى ، فماذا يمكن أن يحدث لو طالت بها الأيام اكثر من ذلك ؟ . من هنا جاءت فكرة رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى كتاب الله عز وجل ، إبقاء على البقية الباقية من المسلمين ، ومهما قيل عن هذه الفكرة وصاحبها عمرو بن العاص — حيث صورت

---

(٢٠٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ١٩٣ — ١٩٤ : والطبرى — تاريخ — جـ ٥ ص ١٥ وما بعدها وأبو بكر بن العربى — العواصم من القواصم ص ١٧٣

على أنها خدعــة لانقاذ جيش معاوية من الهزيمة(٢٠٣) — إلا أنها وبكل المقاييس كانت أفضــل من استمرار القتال ، وما أظن الرواية التى تذهب إلى أن عليا كان كارها لها وأنه قال لأصحابه : « وما رفعوها — المصاحف — لكم إلا دهنا وخديعة ومكيدة »(٢٠٤) . ما أظنها إلا محاولة للتأكيد على أن الفكرة كانت خدعة وأنه ليخامرنى الشك فى صحتها لسببين :

الأول : ان راويها هو أبو مخنف — وهو مؤرخ شيعى معروف — فهو محل شك .

الثانى : أن أبا مخنف يذكر الوليد بن عقبه وعبد الله بن سعد بن أبى سرح فيها ويعتبرهما ممن حضر صفين(٢٠٥) .

وهذا غير صحيح فالثابت أن الوليد بن عقبة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، اعتزلا بعد مقتل عثمان ، ولم يحضرا صفين ولا الجمل ، فالوليد ابن عقبة كما يقول الذهبى : « اعتزل بالجزيرة بعد قتل أخيه عثمان ولم يحارب مع أحد من الفريقين »(٢٠٦) .

ويقول عن عبد الله بن ســعد : وروى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال : أقام عبد الله بن سعد بعسقلان بعد قتل عثمان وكره أن يكون مع معاوية(٢٠٧) . فذكر الوليد بن عقبه وعبد الله بن سعد فى من حضر صفين فى رواية أبى مخنف يقطع بعدم صحتها . ثم انه من المستبعد أن يرفض على التحكيم والصــلح ويكره حقن الدماء ، وهو الذى أرســل العديد من الوفود إلى معاوية قبل المعركة وأثناءها سعيا إلى المصالحة .

---

(٢٠٣) انظر السعودى — مروج الذهب — جـ ٢ ص ٤٠٠

(٢٠٤) الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٤٩

(٢٠٥) المصدر السابق جـ ٥ ص ٤٨

(٢٠٦) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٤١٤ . وانظر ابن كثير البدايــة والنهاية جـ ٨ ص ٢١٤

(٢٠٧) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣٥ وابن الأثير — أسد الغابــة جـ ٣ ص ٢٦٠

لذلك نرجح أن فكرة التحكيم كانت دعوة صادقة لحقن الدماء والمصالحة، ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يرفع المسلمون فيهـا المصاحف لوقف القتال ، ولم تكن الفكرة اختراعا من عمرو بن العاص لم يسبق إليه فقـد أمرت عائشة رضى الله عنها برفـع المصاحف يوم الجمل فقـد ذكر أبو بكر بن العربى ، وابن عساكر — واللفظ له أن عائشة رضى الله عنها قالت : لكعب بن سـور » خل ياكعب بالبعير وتقـدم بكتاب الله فادعهم اليه ، ودفعت إليه مصحفا وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجرى الصلح، فاستقبلهم كعب بالمصحف وعلى من خلفهم يزعهم ويأبون إلا اقداما ، فلما دعاهم كعب رشقوه رشقا واحدا فقتلوه(٢٠٨) .

فإذا كان السبئية قد استطاعـوا قتل كعب بن سور ومنعوا وقف الحرب يوم الجمل فإن سبئية المؤرخين لما فاتهم قتل عمرو بن العاص ومن رفعوا المصاحف يوم صفين جاؤا ليقتلوا الفكرة بتصويرها خدعة ، وإذا كانت هذه الفكرة كذلك فى نظرهم وان عليا كان كارها لها فمازاد الأمر على أنهم صوروا عليا رضى الله عنه بأنه كان رجلا تواقا إلى الحرب متعطشا للدمـاء ، يسره أن يرى مصارع المسلمين بعينيه(٢٠٩) ففكرة التحكيم فى الواقع كانت فكرة ممتازة فى حد ذاتها ولو أنها حققت هدفهـا المنشود ، لكانت من أجل الأعمال ، ولكنها وإن أدت إلى حقن الدماء ومنعت استئصال شأفة كثير من المسلمين إلا أن نتيجتها النهائية جاءت على غير المتوقع .

وأيا ما كان الأمر فقد قبلت الفكرة ، وأوقفت الحرب . وطولب على ومعاوية أن يعين كل منهما مندوبا عنه فى التحكيم ، فعين معاوية عمرو بن العاص ، وأما على فأراد أن يعين ابن عمه عبدالله بن عباس ، أو الأشتر النخعى، ولكن بعض رجاله رفضوا ذلك ، وقالوا له : « وهل سعر الأرض

---

(٢٠٨) العواصم من القواصـم ص ١٥٨ وهامش رقم ٣ بالصفحة نفسهـا .

(٢٠٩) قال ابن خياط فى تاريخه ص ١٩٤ عن قصة رفع المصاحف « فاقتتلوا يوم الاربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت ، ثم رفعت المصاحف ودعوا إلى الصلح » ولم يشر إلى أنها كانت خدعة .

غيرالاشتر؟»(٢١٠) أى أنه هوالذى سعىفى الفتنة منبدايةالآمر،واختاروا ابا موسى الاشعرى ، وكان اختيارهم له لانه كان قد حذرهم منذ البداية من الفتنة ، فهو فى نظرهم رجل سلام ، وقالوا لعلى : « لانرضىإلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه»(٢١١) فوافقهم على على ذلك ، بل قال لأبى موسى : « احكم ولو على حز عنقى »(٢١٢) .

كتاب التحكيـــم :

اتفق الفريقان على التحكيم ، وكتبوا كتابا على أن يحكم الحكمان طبقا لكتاب الله عز وجل من فاتحته إلى خاتمته ، لا يتجاوزان ذلك ولايحيدان عنه إلى هوى ولا أدهان واخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق فإن جاوزا بالحكم كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته فلاحكم لهما(٢١٣) .

ونلاحظ على كتاب التحكيم أنه جاء غامضا مبهما ، فلم ينص فيه على نوع القضية التى سيحكم فيها الحكمان طبقا لكتاب الله.فالحرب نشبت لأن عليا طالب معاوية بالطاعة والبيعة والدخول فى الجماعة فرفض فقرر حمله علىذلك بالقوة،ومعاوية اشترطالقصاص من قتلة عثمان،أو تسليمهم له أولا،ثم ينظر فى أمر البيعة بعد ذلك ومن هنا فقـــد كان المتوقع أن يدور البحث حول هذا الخلاف ، وهل من حق معاوية المطالبة بتسليمه قتلة عثمان أولا ، وهل القصاص من القتلة يقدم على بيعته لعلى أو العكس ؟ .

وهذا الإبهام الذى جاء فى الكتاب جعل الحكمين يتناقشان فى الخلافة ذاتها،وفى خلع الخليفة الشرعى الذى تمت مبايعته بموافقة جمهور الصحابة

---

(٢١٠) الطبرى — تاريخ — جـ ٥ ص ٥١ وابن الاثير — الكامـــل فى التاريخ جـ ٣ ص ٣١٩

(٢١١) الطبرى — تاريخ — جـ ص ٥١ وابن الاثير — الكامـــل فى التاريخ جـ ٣ ص ٣١٨

(٢١٢) سير اعلام النبلاء جـ ٢ ص ٣٩٥

(٢١٣) انظر نص كتاب التحكيم فى تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٨٩ — ١٩٠والطبرى تاريخ — جـ ٥ ص ٥٤/٥٣ وابن الاثير الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٣١٩ / ٣٢٠

من المهاجرين والأنصار ، ولم يكن تخلف معاوية بشخصه عن البيعة هو الذى يشغل عليا أو يقدح فى بيعته ، فقد تخلف عنها من هم أفضل من معاوية ، سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر ، ومحمد بن مسلمه وغيرهم ، ولم يقاتلهم على على ذلك ، ولم يكن تخلفهم يقدح فى بيعته ، لان الإجماع ليس ضروريا ، ويكفى انه بايعه جمهور كبير من الصحابة فأصبحت بيعته شرعية وطاعته واجبة على كل مسلم .

فقتال على لمعاوية لم يكن لمجرد تخلفه عن البيعة ، وإنما لعصيانه أوامره بعزله من ولاية الشام واعتصامه بها، فاعتبره على خارجا عليه وقتاله واجب لرده إلى الطاعة، ثم إن معاوية لم يكن ينازع عليا فى الخلافة، وكان مطلبه محصورا فى قتلة عثمان ، فإما أن يقتص منهم على ، أو يسلمهم له، ولوحدث شىء من ذلك لما بقيت له حجة . لذلك كنا نتوقع ان يدور البحث حول هذه النقطة المحددة. لكن الحكمين — ولعل ذلك اجتهادا منهما — تركا هذا الموضوع المحدد وراحا يتباحثان فى امــــر الخلافة ، وكأنه لم يكن هناك خليفة شرعى مبايع من أغلبية الصحابة ، وراح كل واحــــد منهما يقترح من جانبه أسماء يرشحها للخلافة ، فعرض عمرو بن العاص اسم ابنه عبدالله أو معاوية فرفض أبو موسى، ثم عرض أبو موسى اسم عبد الله بن عمر بن الخطاب فرفض عمرو ، ولما لم يتفقا على شىء قررا عزل على ومعاوية معا ، ورد الامر إلى الأمة تختار من تشاء للخلافة كما تقول رواية أبى مخنف(٢١٤).

اعلان نتيجـــــة التحكيم :

كتب كتاب التحكيم فى الثالث عشر من صفر سنة ٣٧ هـ وحددت مدة ستة شهور يجتمع بعدها الحكمان لإعلان ما توصلا إليه. وقد اجتمعا فى شهر رمضان سنة ٣٧ هـ حسب الموعد ، بدومة الجندل ، ومع كل منهما أربعمائة من أنصار صاحبه ، والناس فى ترقب وقلق، لأن الكل يدرك خطورة النتيجة التى ستعلن ، وقد ذكرت قبل قليل أن الحكمين تركا صلب الخلاف ، وتباحثا فى أمر الخلافة واتفقا على خلع على ومعاوية معا. وقف أبو موسى الأشعرى ليعلن النتيجة فقال : » أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم

(٢١٤) انظر الطبرى — تاريخ — جـ ٥ ص ٧٠ — ٧١

نر اصلح لأمرها ولا الم لشعثها من أمر قداجمع رايى وراى عمرو عليه، وهو: ان نخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة ، هــذا الأمر ، فيولوا منهم من احبوا عليهم ، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ، فأستقبلوا امركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر اهلا ، ثم تنحى ، وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه ، نحمد الله واثنى عليه وقال : إن هذا قال ماسمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبى معاوية ، فإنه ولى عثمان بن عفان ، والطالب بدمه ، واحق الناس بمقامه(٢١٥) .

هذه رواية أبى مخنف ، ويورد المسعودى رواية أخرى ، يذكر فيها أن ابا موسى وعمرو اتفقا على عبد الله بن عمر بن الخطاب ، حيث قال أبو موسى « ايها الناس أننا قد نظرنا فى أمرنا فرينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح وحقن الدماء وجمع الالفة ، خلعنا عليا ومعاوية، وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتى هذه .. واستخلفنا رجــلا قــد صحب رســول الله ﷺ بنفسه ، وصحب أبوه النبى ﷺ فبرز فى سابقتــه ، وهو عبــد الله بن عمــر ، واطراه ورغب الناس فيه ثم نزل »(٢١٦) .

كيفما كان الأمر فقد أعلن أبو موسى خلع على، ووافقه عمرو، ثم أعلن تثبيت معاوية طبقا لرواية أبى مخنف . وهنا يبرز سؤال هام وهو : فى اى شيىء كان تثبيت عمرو لمعاوية ؟ إن كان فى الخلافة فهذا باطل من وجهين : **الأول** : أن معاوية لم يكن خليفة حتى يثبت فيها ، **الثانى** : ان عمرا إن كان يقصــد تثبيته فى الخلافة فإنه يكون بذلك قد خالف ما اتفق عليه مع أبى موسى ، فيكون حكمه باطلا ، لأن كتاب التحكيم يقضى بضرورة اتفاقهما . فانفراد أحدهما بحكم يعتبر مخالفا لنص الكتاب ، ولذلك يرى بعض الباحثين أن عمرا لم يكن يقصد تثبيت معاوية فى الخلافة ، وإنما فى إدارة ما تحتيده من البلاد ، حتى تتفق الأمة على إمام جديد ، يقول الأستاذ محب الدين

---

(٢١٥) أنظر الطبرى — تاريخ — ج ٥ ص ٧٠ — ٧١ واليعقوبى — تاريخ — ج ٢ ص ١٩٠ والمسعودى — مروج الذهب — ج٢ ص ٤٠٩، وابن الاثير الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٣٣٢ .

(٢١٦) مروج الذهب — ج ٢ ص ٤٠٩ — وانظر ايضـــا تـــاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٩٠

الخطيب : « فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين ، واتفق الحكمان على ترك النظر فيها لكبار الصحابة وأعيانهم ، تناول التحكيم شيئا واحدا وهو الإمامة ، أما التصرف العملى فى إدارة البلاد التى كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقى كما كان ، على متصرف فى البلاد التى تحت حكمه ، ومعاوية متصرف فى البلاد التى تحت حكمه ، فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة »(٢١٧) .

وهــذا لعمرى هو الصواب الذى تطمئن إليه نفس الباحث ، لانه يتفق مع أخلاق الصــحابة ودينهم ، ولا يقدح فى واحد منهم وإذا كان أبو موسى وعمرو ، قــد تركا أمر قتلة عثمــان وهو أســاس الخلاف بين على ومعاوية وتباحثا فى أمر الخلافة ، فلعل ذلك كان اجتهادا منهما ، وانهما رأيا انه افضل طريقة لإصلاح ذات البين ، وجمع كلمة الأمة لأننا لانستطيع أن نتهم أيا منهما بالغش والمداهنة فى أمور الدين خصوصا وأن الروايات التى تذكر أن عمرا ثبت معاوية فى الخلافة جاءت عى أبى مخنف وهو مؤرخ شيعى ، وموقف الشيعة من ابى موسى وعمرو لا يتسم بالإنصاف فى شيىء .

موقف على من نتيجة التحكيم :

اجتهد الحكمان فيما كلفا به حتى توصلا إلى تلك النتيجة السابقة ، ونحن هنا لا نملك إزاء ذلك إلا أن نقول : إن كان اجتهادهما صــوابا فلهما اجران ، وإن كان خطأ فلهما أجر واحد ، لكن عليا رضى الله عنه لم يقبل هذه النتيجة ، واعتبرهما قــد تجاوزا فى حكمهما كتاب الله عز وجل ، واعتبر نفسه فى حل من هــذه النتيجة ، فعادت الأمور كما كانت عليه قبل التحكيم ، أى إلى حالة الحرب بينه وبين معاوية ، وبدأ يدعو أنصاره من جديد للسير إلى حرب معاوية لرده إلى الطاعة ، ولكن أصحابه كانوا قد ملوا القتال فتقاعسوا عنه ، وقعــدوا عن نصرته ، كما أنه بدأ ينشغل بحرب الخوارج الذين شقوا عصا الطاعة عليه .

---

(٢١٧) أنظر العواصم من القواصم — هامش ص ١٧٥

على والخوارج :

كان الخوارج هم الداء العياء الذى كان يعانى منه الامام على رضى الله منه فقد ظلوا لا يتفقون معه على أمر ، كما سيطر الفضول لمعرفة كل الأسرار والتدخل فى كل صغيرة وكبيرة على أهل العراق بوجه عام .

كان كل واحد منهم كان يعتبر نفسه إماما ، أو شريكا للإمام فى المسئولية ، فعندما اجتمع الناس لسماع إعلان نتيجة التحكيم ، كان عبد الله بن عباس ، على رأس جماعة على ، يصلى بهم ويلى أمرهم ، وكان عمرو بن العاص على رأس جماعة معاوية ، فكان معاوية إذا كتب لعمرو ، جاء الرسول وذهب ، لا يدرى بما جاء به ، ولا بما رجع به ، ولايسأله أهل الشام عن شيىء . وكان إذا جاء رسول على إلى ابن عباس ، سأله أهل العراق ، بماذا كتب إليك أمير المؤمنين ؟ فإذا كتمهم ظنوا به الظنون ، وقالوا : ما تراه إلا كتب إليك بكذا وكذا ، فضاق ابن عباس بهم وبإلحاحهم ، وقال لهم : « أما تعقلون أما ترون رسول معاوية يجىء لا يعلم بما جاء به ، ويرجع لا يعلم بما رجع به ، ولا يسمع لهم صياح ولا لفظ ، وانتم عندى كل يوم تظنون الظنون(٢١٨) هذه هى العلة والطبع الغالب على أهل العراق ، وقد زادتهم حادثة التحكيم فرقة واختلافا ، حتى قبل إعلان النتيجة فقد عادوا من صفين يتدافعون ، ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط وهم فى الطريق إلى الكوفة ، وانقسموا إلى فريقين ، فريق عاب التحكيم ورفضه ، وهم الذين سموا بالخوارج ، وجعلوا يقولون للفريق الثانى ، الذى قبل التحكيم ، يا أعداء الله ، ادهنتم فى دين الله وحكمتم ، ويقول لهم ، الآخرون ، فارقتم إمامنا ، وفرقتم جماعتنا(٢١٩) .

وعندما دخل على الكوفة ، تخلف عنه الخوارج وكانوا حوالى اثنى عشر الفا وانحازوا إلى حروراء ، واعلنوا العصيان لأمير المؤمنين ، بل اقاموا لهم حكومة خاصة بهم وجعلوا شبث بن ربعى التميمى أمير القتال(٢٢٠) ،

---

(٢١٨) الطبرى — تاريخ — جـ ٥ ص ٦٧.

(٢١٩) الطبرى جـ ٥ ص ٦٣

(٢٢٠) شبث بن ربعى كان من ثقاة على ، وكان أحد سفرائه الى معاوية ، وكان لجفائه وسوء حديثه مع معاوية أثر سيىء فى تعقيد الأمور كما سبقت الاشارة .

وعبد الله بن الكواء اليشكرى أمير الصلاة(٢٢١) . فلما علم على بأمرهم ، أرسل إليهم عبد الله بن عباس ليعرف خبرهم ، ثم ذهب إليهم بنفسه ، وسألهم عن سبب خروجهم عليه ، فقالوا له حكومتك يوم صفين ، فذكرهم بانهم كانوا حاضرين وانهم وافقوا على التحكيم ، فقالوا له : كنا كما ذكرت، وفعلنا ما وصفت وكان ذلك منا كفرا ، وقد تبنا إلى الله عز وجل منه ، فتب كما تبنا نبايعك ، وإلا فنحن مخالفون(٢٢٢). هكذا حكموا على أنفسهم بالكفر ثم تابوا عنه ، ويطالبون أمير المؤمنين أن يفعل كما فعلوا ، وما كان لابن أبى طالب أن يفعلها — حاشا لله — وهكذا ابتلى على رضى الله عنه فى أصحابه فتحول فريق منهم ، وهم الخوارج ليصبحوا الد أعدائه وليتهم كانوا مقسطين فى عداوتهم له أو حصروا خلافهم بينهم وبين أمامهم وجادلوه بالتى هى احسن ، كما أمر الله المسلمين أن يجادلوا غير المسلمين بل ذهب بهم التطرف إلى ابعد الحدود فناصبوا الأمة كلها العداء ، واعتبروا كل من لم ير رايهم ويذهب مذهبهم كافرا ، يحل دمه وعرضه وماله ، ولهذا راحوا ينشرون الرعب والفزع فى قلوب الناس ويعيثون فى الأرض فسادا ، ولا ادل على ذلك من صنيعهم بعبد الله بن خباب بن الأرت ، فقد قتلوه ذبحا وقتلوا امراته وهى حامل ، لا لذنب إلا لأنه ترحم على عثمان وعلى رضى الله عنهما(٢٢٣) كما قتلوا كذلك ، ثلاث نسوة من طىء ، وامراة أخرى اسمها أم سنان الصيداوية ، لقد ذهب التطرف والغلو فى الدين بهؤلاء الذين زعموا أنهم ما خرجوا إلا غضبا لدين الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى حد سفك دماء المسلمين دون ذنب بل إن دماء المسلمين اصبحت عندهم أقل شأنا من دماء الخنازير ، فقد قتل واحد منهم خنزيرا لنصرانى ، بعد قتلهم عبد الله بن خباب وامرأته فقال له الآخرون : هذا فساد فى الأرض وارضوا صاحب الخنزير (٢٢٤) فأنظر إلى العقول عندما تنحرف .

---

(٢٢١) الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٦٣

(٢٢٢) المصدر السابق جـ ٥ ص ٦٧

(٢٢٣) المصدر السابق جـ ٥ ص ٨١ — ٨٢

(٢٢٤) المصدر السابق جـ ٥ ص ٨٢

معركة النهروان :

بلغت هذه الأعمال الوحشية عليـا رضى الله عنه ، وهو فى الكوفة يستعد للمسير لحرب معاوية من جديد ، فأزعجته ، فأرسل إليهم الحارث بن مرة العبدى ليتأكد من صحة هذه الأخبار ، ولكنهم قتلوه(٢٢٥) ، فجزع الناس وفزعتهم هذه الأعمال وخشوا أنهم إن ساروا إلى الشام ، فلن يأمنوا على أهلهم وأموالهم من هؤلاء المفسدين ، فقالوا لعلى : « يا أمير المؤمنين علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى أموالنا وعيالنا،سر بنا إلى القوم ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام »(٢٢٦) .

اقتنع على بوجهة نظرهم تقديرا منه لخطورة هذا الوضع على الأمن فى البلاد فلم يجد بدا من المسير إليهم بقواته ، ولما كان — رضى الله عنه — راغبا عن قتالهم ، حريصا على إصلاحهم ، فقد أرسل إليهم أولا أن يدفعوا إليه قتلة عبد الله بن خباب وامرأته ونسوة طىء ليقتص منهم،فكان ردهم مؤكدا لفساد نياتهم وأحوالهم ، فقد قالوا « كلنا قتلتهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم »(٢٢٧) نفس الكلام الذى كان يردده قتلة عثمان ، من السبئية ، ورغم هذا اراد على أن يعطيهم فرصة أخرى لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، فأمر أبا أيوب الانصارى أن ينصب راية — قبل قتالهم — وان يناديهم : « من تقدم إلى هذه الراية فهو آمن ، ومن دخل الكوفة فهو آمن ، ومن انصرف إلى المدائن فهو آمن » فاستجاب بعضهم وبقى منهم ألفان ، مصرين على موقفهم ، فدارت بينهم وبين الإمام معركة النهروان ، فقتل معظمهم ، ولم يبق إلا عدد قليل(٢٢٨) قيل اقل من عشرة اشخاص وهى

---

(٢٢٥) الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٨٢ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٣٤٢

(٢٢٦) الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٨٢ وابن الاثير — جـ ٣ ص ٣٤٢

(٢٢٧) الطبرى — تاريخ — جـ ٥ ص ٨٣ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٣٤٣

(٢٢٨) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ١٩٧ — ، والطبرى جـ ٥ ص ٨٥ — ٨٧ وابن الأثير جـ ٣ ص ٣٤٥ — ٣٤٦

لا شك ضربة قاصمة جعلتهم يستكينون فيما تبقى من عهد على — رضى الله منه — ولكن البقية الباقية لجأت إلى التدبير الخفى والتخطيط لقتل الإمام حتى نجحوا فى مؤامراتهم . ولم ينته بهم الأمر عند هـذا الحد ، بل انهم أصبحوا رغم قلة عـددهم خطرا دائما ومصـدرا للقلاقل طوال العصر الاموى — كما سنفصل ذلك فيما بعد .

لقد كان من المتوقع أن تكون معركة النهروان — التى كسرت شوكة الخوارج وأضعفت كيانهم — دافعا قويا إلى مواصلة المسيرة والاتجاه نحو الشام ، ولكن الأمر كان على عكس ذلك فأنصار على الذين طلبوا منه أن ينتهى من أمر الخوارج قبل المسير إلى الشام ، ووعدوه أنهم سيسيرون معه بعد القضاء على خطرهم ، قعدوا عن النهوض معه ، وقالوا له : « ياأمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا فأرجع بنا إلى مصرنا ، فلنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا .. فإنه اوفى لنا على عدونا »(٢٢٩) . فأدرك على رضى الله عنه ، أن عزائمهم هى التى كلت ووهنت ، وليس سيوفهم . فقد بدؤا يتسللون من معسكره ، عائدين إلى بيوتهم دون علمه ، حتى أصبح المعسكر خاليا . « فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه فى المسير » (٢٣٠) .

هكذا صار شأنهم ، عصيان ، وخلود إلى الراحة،فضلا عن الشغب والخلافات المستمرة بينهم حتى ضاق بهم الإمام ذرعا وآلمه تقاعسهم وأدرك أنه لايمكن أن تنتصر بهؤلاء الجند قضية مهما كانت عادلة ، فلميستطعأنيكتم هذا الضيق فقال لهم : « ما أنتم إلا أسود الشرى فى الدعة،وثعالب رواغة حين تدعو إلى البأس ، ما أنتم لى بثقة سجيس الليالى ـاى الدهر كله — ما أنتم بركب يصال بكم ، ولاذى عز يعتصم إليه ، لعمر الله لبئس حشاش الحرب أنتم إنكم تكادون ولا تكيدون ، وينتقض أطرافكم ولا تتحاشـون ، ولا ينام عنكم ، وأنتم فى غفلة ساهون ، إن اخا الحرب اليقظان ذو عقل ،

---

(٢٢٩) الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٨٩ — وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٣٤٩

(٢٣٠) الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٩٠ — وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٣٤٩

وبات لذل من وادع » (٢٣١) . فى كلام كثير يعبر عن مدى شعور الإمام بالألم والمرارة من جبنهم وخذلانهم .

الموقف يميل لمصلحة معاوية :

لا شك أن نتيجة التحكيم كانت فى مصلحة معاوية أكثر منها فى مصلحة على . حتى مع افتراض أن الحكمين قد اجتهدا فأداهما اجتهادهما إلى عزل على عن الخلافة .ورد الأمر إلى الأمة تختار لها من تشاء ، وإبقاء على يحكم ما تحت يده ومعاوية يحكم ما تحت يده ، لأنه من غير الممكن ان تبقى هذه البلاد بدون حكومة . هذه النتيجة كانت في مصلحة معاوية ، فقد ساوته بعلى ، وبقى يحكم الشام حكما مستقلا بدون مسئولية أمام أحد ، لكنه لم يقنع بالشام،فأخذ يتطلع لتوسيع دولته وكانت أول ولاية مد إليها بصره هى مصر ، ولقد شجع معاوية على ذلك موقف أهل العراق من على ، وتقاعسهم عن نصرته ، فلا شك أن معاوية كان يراقب موقف على فى العراق عن كثب ، وكان على علم بما يدور فى معسكره . فبينما كان على يعانى من خذلان جنده ويكابد خلافاتهم وعصيانهم . كان معاوية يتمتع بموقف ممتاز ، فجنوده متحدة قلوبهم على محبته ، متفانين فى طاعته وتنفيذ أوامره ، ولا شك أن هذا ثمرة وجوده بينهم وحكمته فى سياسته لهم منذ خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وقد كان على يعلم حقيقة الفرق بين جنده من أهل العراق ، وجند معاوية من أهل الشام ، فكان يقول : « كنت فى اخبث جند وأعصاه ، وكان معاوية فى أطيب جند وأطوعه » . بل روى عنه انه قال لهم « وددت لو أبدلنى الله بكل عشرة منكم واحدا من أهل الشام » وقد جعلت طاعة أهل الشام لمعاوية بعض المؤرخين ذوى الميول الشيعية يتحاملون عليهم ، ويصفونهم بالبلاهة والجهل(٢٣٢) ، ولم يكن ذلك صحيحا بطبيعة الحال ،

---

(٢٣١) الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٩٠ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٣٥٠

(٢٣٢) اكثر المسعودى فى كتابه — مروج الذهب — جـ ٣ ص ٤١ وما بعدها — من اتهام أهل الشام بالجهل ، وانهم لا يفرقون بين الناقة والجمل وان معاوية صلى بهم الجمعة فى يوم الاربعاء ، عند مسيرهم الى صفين فلم يعترضوا .. الخ . ولا شك أن هذه كلها افتراءات .

بل كانوا منقادين لقائد عرف كيف يقــودهم ويحسن سياستهم ، ويشملهم بإحسانه فاجتذب قلوبهم حتى آثروه على الأهل والقرابات(٢٣٣) .

ومن هنا فقد أصبح الوضــع بعد التحكيم مغريا لمعاوية لتوســيع دولته ، ومد نفوذه ، فتطلع أول ما تطلع الى مصر لأهميتها الاستراتيجية والبشرية والاقتصادية .

الصراع حول مصر واستيلاء معاوية عليها :

ذكرنا فيما سبق ، أن عليا ولى على مصر قيس بن سعد بن عبادة ، وأن قيسا وصــل إلى مصر ولم يتصد له أحــد ، لأن والى مصر من قبل عثمان ، وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان قــد غادرها قبل مقتل عثمان .وكانقيس يعد من دهاة العرب ومن أقدر رجاله عصره فى الحرب والسياسة والإدارة ، وله تجربة كبيرة ، فقــد كان يعمــل كرجل الشرطة للرسول ﷺ(٢٣٤) وكان من أخلص رجال على وأوفاهم له .

جاء قيس إلى مصر فوجدها ثلاث طوائف،أولاها — وهى أكبرها — قــد بايعوا لعلى ، ودخلوا فى الجماعة ، وطائفة صغيرة من الســبئية ، قالوا « نحن مع على مالم يقد إخواننا » — يقصدون قتلة عثمان ، والطائفة الثالثة —وكان عــددها حوالى عشرة آلاف — اعتزلت فى قرية خربتا ، وقالت: « ان قتلقتلةعثمان فنحن معكم،وإلا فنحن على جديلتنا حتى نحرك، أو نصيب حاجاتنا »(٢٣٥) لقد كان هذا الموقف يحتاج إلى حكمة وكياسة وحنكة سياسية فى معالجته ، خصوصا فى هــذا الجو الذى كان لازال

---

(٢٣٣) أنظر المسعودى نفسه — مروج الذهب ج ٣ ص ٤٥ والذى يناقض نفسه بعد بضع صفحات فقط ، فطاعة أهل الشام لمعاوية لم تكن نتيجة جهــل كما يدعى المسعودى ، بل كانت نتيجة طبيعتهم البعيدة عن الشقاق والخــلاف ولسياسة معــاوية وإحســانه اليهم — كما اعترفه المسعودى نفسه .

(٢٣٤) انظر نظام الحكومة النبوية للشيخ عبد الحى الكتانى ج ١ ص ٢٠

(٢٣٥) الطبرى — تاريخ ج ٤ ص ٤٤٢

معبـا ببقايا الفتنة . وكان قيس فى الحقيقة هو الرجل المناسب لهـذا الموقف ، فكتب إلى على يشرح له الموقف ، وأخبره بمـوقف المعتزلين فى خربتا ، وامتناعهم عن البيعة ، وأنه رأى أن يهادنهم الآن ، ولا يكرهم على البيعة طالمـا أنهم لن يثيروا له متاعب ، وأنه اتفق معهم على ذلك ، وأنه جبى الخراج ولم ينازعه أحد من الناس(٢٣٦) . ولكن عليا لم يقر قيسـا على سياسته هذه ، وطلب منه تحت إلحاح محمد بن أبى بكر ، ومحمـد ابن جعفر بن أبى طالب أن يأخذ منهم البيعة ، وإن أبوا قاتلهم ، ولكن قيسا لم ير ضرورة لإكراههم على البيعة ولا لقتـالهم عليها . فكتب إلى على : « إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم ، وقد رضـوا منى أن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطيـاتهم وأرزاقهـم ، وقـد علمت أن هواهم مـع معـاوية ، فلست مكابدهم بأمر أهـون على وعليك من الذى افعل بهم ، ولو انى غزوتهم كانوا لى قرنا ، وهم أسود العرب ، ومنهم بسر بن أبى أرطـاة ، ومسلمة بن مخلد ، ومعـاوية بن حديج ، فذرنى فأنا أعلم بما أدارى منهم »(٢٣٧) ولكن عليا لم يذر قيسـا ورأيه فكتب إليه ثانية فى قتالهم ، ولكن قيسا رفض قتالهم ، وكتب لعلى : « إن كنت تتهمنى فاعزلنى وأبعث غيرى ، فبعث الأشتر »(٢٣٨) .

وهكذا قـدر لقضية أهل خربتا أن تفسـد العلاقة بين على وواحد من أخلص الرجال وأوفاهم وأقدرهم ، وأن تحرمه من خبرة هـذا الرجل الذى قاوم كل اغراءات معاوية بالانضمام إليه ، وظل على وفائه لإمامه ، فوجود قيس فى مصر كان أثقـل شىء على معـاوية ، كما يقول الكندى والطبرى(٢٣٩) لهذا حاول استمالته بشتى الطرق ، ولمـا لم ينجح فى ذلك ،

---

(٢٣٦) الطبرى — تاريخ جـ ٤ ص ٥٥٠ — وأنظر الكندى — الولاة والقضـاة ص ٢٠

(٢٣٧) الطبرى جـ ٤ ص ٥٥٢ — ٥٥٣ — وأنظر الكندى — الولاة والقضاه ص ٢١

(٢٣٨) الكندى — الولاه والقضـاه — ص ٢١ — من المعروف ان الأشتر لم يصل مصر بل مات فى الطريق .

(٢٣٩) الولاة والقضاة ص ٢٢ والطبرى — تاريخ — جـ ٤ ص ٥٥٠

لجـأ إلى الحيـلة ، وسعى إلى الإيقـاع بين على وقيس ، يقول الكندى والطبرى : إن معاوية كان يحدث رجالا من ذوى الرأى فى قريش فيقول : « ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلى من مكايدة ، كدت بهـا قيس بن سعد حين امتنع منى قيس قلت لأهل الشام:لاتسبوا قيسا ولاتدعوا إلى غزوه فإن قيسا لنا شيعة تأتينا كتبـه ونصيحته ، ألا ترون ماذا يفعـل بإخوانكم النازلين بخربتا يجرى عليهم أعطيائهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب يأتيه منهم»(٢٤٠) فلما بلغ ذلك عليا اتهم قيسا(٢٤١) وعزله عن ولاية مصر — وكانت تلك غلطة فادحة دفع على ثمنها ضـياع مصر من يده ، ثم ولى بدله الأشتر النخعى فى رجب سنة ٣٧ هـ . وهو نفس الشهر الذى عزل فيه قيس ولكن الأشتر لم يصـل إلى مصر ، فقد مات بالقلزم ، قيل من شربة عسل(٢٤٢) فولى على محمد بن أبى بكر فى رمضان سنة ٣٧ هـ ، ولكنه لم يكن كفؤا للعمل الذى أوكل اليه ، فقـد أغفـل نصيحة قيس له — حين لقيـه ووصـاه — ألا يهيج أهل خربتـا ولا يقاتلهم فعمل بخلاف ما أوصاه به(٢٤٣) . فاضطربت عليه الأمور ، وحانت الفرصـة لمعاوية فاهتبلها وارسل عمرو بن العاص فى جيش من أهل الشـام إلى مصر ، فاستطاع الاستيلاء عليها بسهولة ، وقتل محمد ابن أبى بكر سنة ٣٨هـ(٢٤٤) . وهكذا ضاعت مصر من على ، وكانت تلك خسارة فادحة له بقدر ما كانت مكسبا كبيرا لمعاوية .

اتساع نطاق دولة معاوية :

تأمنت حدود الشام من الجنوب والغرب باستيلاء معاوية على مصر، له ركيزة استراتيجية كبيرة ، ولهذا بدأ فى توسـيع نطاق دولته ، فأخذت جيوشه تشن الغارات على أطراف دولة على فى العراق والحجاز ، فأرسل

---

(٢٤٠) الكندى — الولاة والقضاة ص ٢١

(٢٤١) الطبرى — تاريخ جـ ٤ ص ٥٥٢ ، وانظر مراسلات معاوية وقيس ص ٥٥٠ — ٥٥١

(٢٤٢) انظر الكندى — الولاة والقضاة ص ٢٤

(٢٤٣) المصدر السابق ص ٢٧

(٢٤٤) المصدر السابق ص ٢٨ — ٢٩

النعمان بن بشير الأنصارى فى ألفين إلى عين التمر ، ثم وجه سفيان ابن عوف فى ستة آلاف للإغارة على هيت والأنبار والمدائن ، ثم أرسل عبد الله بعد مسعده الفزازى فى ألف وستمائة إلى تيماء(٢٤٥) . وبهذا امسك معاوية بزمام المبادرة وفرض على على أن يقف موقف الدفاع ، والعجيب أن جند على من اهل العراق لم يتقاعسوا عن المسير معه لحرب معاوية فى الشام فقط ، بل جبنوا وتثاقلوا حتى عن الدفاع عن بلادهم . فعندما هاجم النعمان بن بشير عين التمر ، لم يذعنوا لامر على بالنهوض للدفاع عنها، فقال لهم:«يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر — المنسر القطعة من الجيش تكون أمامه — من مناسر أهل الشام أظلكم ، انجحر كل امرىء منكم فى بيته وأغلق بابه ، انجحار الضب فى جحره ، والضبع فى وجارها ، المغرور من غررتموه ، ولمن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب ، لا أحرار عند النداء ، ولا أخوان ثقة عند النجاء ، إنا الله وإنا اليه راجعون! ما اذا منيت به منكم ، عمى لاتبصرون وبكم لاتنطقون وصم لاتسمعون ،إنالله وإنا اليه راجعون »(٢٤٦) .

هكذا وصل حالُ الإمام على مع أهل العراق ، بينما كان أهلُ الشام يواصلون زحفهم وتقدمهم واقتطاع أجزاء من دولته ، فقد استولوا على الحجاز ، ثم أرسل معاوية بسر بن ابى ارطاة إلى اليمن فى ثلاثة آلاف ، فلما مر على المدينة ، هرب منها واليها من قبل على أبو أيوب الأنصارى ، ولحق بعلى فى الكوفة ، فدخلها بسر وبايعه الناس لمعاوية ، ثم سار إلى مكة ففعل أهلها كما فعل أهل المدينة ، ثم استأنف سيره إلى اليمن وكان عليها من قبل على عبيد الله بن عباس ، فلما بلغه مسير بسر ، فر هاربا تاركا أولاده ولحق بعلى فى الكوفة(٢٤٧) . وكان عدوى أهل الكوفة سرت فى ولاة على ، فلم يثبت احد منهم فى مكانه ، وكانوا فى كثير من الأحيان يتركون ولاياتهم لقمة سائغة لجيش معاوية .

---

(٢٤٥) انظر تفريق معاوية لجيوشه فى أطراف دولة على — الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ١٣٣ — ١٣٤

(٢٤٦) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٣٥

(٢٤٧) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٣٩ وما بعدها .

اتفاق على ومعاويـــة :

إزاء هـــذا الوضع المتردى فى جبهـــة على رضى الله عنه ، وجبن رجاله وتقاعس جنده ، ويأسه من نصرتهم ، مـــال إلى مصالحة معـــاوية لـــا عرض عليه ذلك فقد ذكر الطبرى فى حوادث ســـنة ٤٠ هـ . قال : « وفى هـــذه السنة جرت بين على ومعاوية المهادنة ، بعد مكاتبات بينهما يطول بذكرها الكتاب ، على وضـــع الحرب بينهما ، ويكون لعلى العراق ولمعاوية الشـــام ، فلا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولاغارة ولا غزو ... وتراضيا على ذلك فأقام معاوية بالشـــام بجنوده يجبيهـــا وما حولها ، وعلى بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده »(٢٤٨) .

وهـــكذا جرت تصاريف القـــدر مع على رضى الله عنـــه ، وأجبرته الظروف — التى تكون أحيانا أقوى من الرجال — على أن يصالح معاوية ويتفق معه ويسلم له بنصف الدولة الإسلامية يحكمها حكما مستقلا ، بعـــد أن كان قد رفض إبقاءه واليا على الشام وحدها من قبله ، يأتمر بأمره ، وينتهى بنهيه ، وأصبحنا فعلا وواقعا أمام دولتين إسلاميتين ، على رأس كل منهما أمير .

مقتل على رضى الله عنه :

تضافرت عوامل كثيرة حالت دون استقرار الإمام على — رضى الله عنه — فى الخلافة واستتباب الأمن والنظام فيها ، من أهمها أنه كان أمام خصم قوى داهية وهو معاوية — رضى الله عنه — كما كان أنصـــاره من أهم متاعبه وآلامه بسبب تقاعسهم وعصيانهم وعدم ثباتهم على رأى موحد يجمع كلمتهم ، وفضـــلا عن ذلك فقد كان وجود الخوارج فى صفوفه ثم انشقاقهم هو الداء العياء الذى ظل يعـــاوده متخفيا بعد أن كان ظاهرا . حتى آل الأمر فى النهاية أن يلقى ربه شهيدا ، فى مؤامرة دبرها الخوارج له ولمعاوية وعمرو بن العاص ، فشـــاءت المقادير أن ينجو معاوية وعمرو ، وأن تكون الشهادة من نصـــيبه وحده ، فقد اتفق عبد الرحمن بن ملجم

---

(٢٤٨) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٤٠

المرادى ، والبرك بن عبد الله ، وعمرو بن بكر التميميان — وهم من الخوارج — على قتل هؤلاء الصحابة الثلاثة ، وسموهم أئمة الضلالة — وما كان الضلال إلا فى قلوبهم — لعنهم الله — اتفق هؤلاء الأشرار وهم فى مكة فى موسم الحج على تنفيذ جريمتهم البشعة ، وحددوا لهـا ليلة السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ . وتعهد كل منهم بقتل واحد من الثلاثة عبد الرحمن بن ملجم بقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، والبرك ابن عبد الله بقتل معاوية ، وعمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص ، وسار كل منهم إلى وجهته ، فذهب البرك بن عبد الله إلى دمشق ، وانتظر معاوية عند خروجه لصلاة الصبح ، فلما خرج ضربه بالسيف فوقع فى إليته ، ولم تكن الضربة قاتله ، فعولج منها معاوية وشفى ، وأخذ البرك وقتل . وذهب عمرو بن بكر إلى مصر ، وانتظر عمرو بن العاص حتى يخرج للصلاة ولكنه لم يخرج فى ذلك اليوم ، لأنه كان مريضا فناب عنه صاحب شرطته خارجة بن حذافة ولما كان الرجل لا يعرف عمرا من خارجة فقد ضربه بالسيف فقتله ، فأمسك به الناس وأخذوه إلى عمرو ، فلما سلموا عليه بالإمارة ، بهت الرجل وقال : فمن قتلت أنا إذا ؟ قالوا : قتلت خارجة بن حذافة ، فقال : موجها كلامه إلى عمرو : والله يافاسق ما ظننته غيرك . فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة(٢٤٩) .

أما ابن ملجم فقد ذهب إلى الكوفة لينفذ جريمته فى أمير المؤمنين ، وهناك التقى بامرأة من تيم الرباب ، يقال لهـا قطام ابنة الشجنة ، وكانت فائقة الجمال ، وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان ، فكانت تحقد على أمير المؤمنين ، فلما رآها ابن ملجم فتن بهـا وهام بجمالها ، ونسى حاجته التى جاء من أجلها . ثم خطبها فاشترطت عليه عدة شروط ، منها قتل على ، فقال لهـا : والله ما جاء بى إلى هذا المصر إلا قتل على(٢٥٠) . فاتفقت أهدافهما ، وشجعته هـذه اللعينة ، وأمدته برجل من قومها اسمه وردان

---

(٢٤٩) انظر الطبرى جـ ٥ ص ١٤٩ ، وابن الطقطقا — الفخرى ص ١٠١ — ١٠٢

(٢٥٠) الطبرى جـ ٥ ص ١٤٤ ، وابن الطقطقا — الفخرى ص ١٠١

لميساعده فى جريمته كما استعان هو بمجرم آخر من أشجع يدعى شبيب ابن بجرة . فكمنوا ثلاثتهم مقابل السدة التى كان يخرج منها الإمام ، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب،وهرب وردان، فضربه ابن ملجم بالسيف فىقرنه ضربة قاتلة وكان السيف مسمماً،فقال على لايفوتنكم الرجل،فأمسكوه وجاءوا بهإلى الإمام فقال له : « أى عدو الله ، ألم احسن إليك ؟ قال بلى ، قال فما حملك على هذا ؟ قال شحذته أربعين صباحا ، وسألت الله أن يقتل بـه شر خلقه ، فقال على : « لا أراك إلا مقتولا به ولا أراك من شر خلقه »(٢٥١) .

كانت الضربة قاتلة ، ولم يكن هناك أمل فى نجاة الإمام وشفائه ، وإن العجب ليبلغبنا مداه حينما يدعى هذا المجرم الأثيم الذى باء بلعنة الله وغضبه أنه قتل عليا ليتقرب بذلك إلى الله !!

ومع ذلك فلم تكن تلك الطعنة النجلاء ، ولا معاناة الموت منهـا ، ولا ادعاء هـذا المجرم الآثم بالأشياء التى تغير من عدالة الإمام شيئا ، فقـد أمر بحبس ابن ملجم ، وقال لبنيـه : « النفس بالنفس ، إن هلكت فاقتلوه كما قتلنى وإن بقيت رأيت فيه رأيى ، يابنى عبد المطلب لاتتجمعوا من كل صوب تقولون : قتل أمير المؤمنين الا لا يقتلن بى إلا قاتلى »(٢٥٢) . ثم نهاهم عن التمثيل بالرجل ، وقال لهم « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور »(٢٥٣) .

ولـما حضرت الإمام الوفاة ، وصى أبناءه وصـية جامعة لمبـادىء الإسلام وقواعد الأخلاق الفاضلة والمثل العليا ، ثم اسلم الروح لاحـدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٤٠ هـ رحمة الله(٢٥٤) .

---

(٢٥١) الطبرى جـ ٥ ص ١٤٥ ، وابن الطقطقـا — الفخرى ص ١٠٠.

(٢٥٢) ابن الطقطقا — الفخرى ص ١٠٠

(٢٥٣) الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ١٤٨

(٢٥٤) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٤٧ — ١٤٨

خلافة الحسن بن على ٤٠ — ٤١ هـ

عندما طعن أمير المؤمنين ، وحمل إلى بيته ، وتيقن الناس أن الضربة قاتلة ، وألا أمل فى حياته ، دخل عليه جندب بن عبد الله ، فسأله : « يا أمير المؤمنين إن فقدناك — ولا نفقدك — فنبايع للحسن ، فقال : ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر »(٢٥٥) . وهذا من أقوى البراهين على بطلان مزاعم الشيعة بأن النبى ﷺ أوصى بالخلافة لعلى وعلى لبنيه من بعده . فلو كانت هذه الوصية المزعومة حقا ، لما كان هناك داع لهذا السؤال أصلا ، كما أن عليا نفسه قبلها مكرها بعد مقتل عثمان تحت إلحاح الصحابة ، ولو كانت حقا له لما انتظر من يعرضها عليه بل لكان قبولها واجبا عليه .

على كل حال ترك على أمر الخلافة للمسلمين ، وقال لهم : « أنتم أبصر » فلما قبض — رحمه الله — بايع أنصاره ابنه الحسن ، وكان أول من بايعه فيما يروى الطبرى : قيس بن سعد بن عبادة ، فقد قال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقتال المحلين ، فقال له الحسن رضى الله عنه على كتاب الله وسنة نبيه ، فإن ذلك يأتى من وراء كل شرط ، فبايعه وسكت وبايعه الناس »(٢٥٦) . وقد فهم الناس من تحفظ الحسن رضى الله عنه على قول قيس وقتال المحلين ، أنه راغب عن قتال معاوية ، والحسن كان زاهدا فى القتال من البداية ، فعندما عزم أبوه على الخروج إلى البصرة قبل موقعة الجمل ، للقاء طلحة والزبير وعائشة ، كان من رأيه ألا يخرج أبوه خوف القتال وسفك الدماء(٢٥٧) ، وقد زادت الأحداث والأهوال التى وقعت من الجمل

---

(٢٥٥) المصدر السابق ص ١٤٦ — ١٤٧ ، ويروى الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية جـ ٥ ص ٢٥٠ — ٢٥١ عن الشعبى عن أبى وائل قال: قيل لعلى بن أبى طالب الا تستخلف علينا ؟ فقال : ما استخلف رسول الله ﷺ فاستخلف ،ولكن إن يرد الله بالناس خيرا فسيجمعهم بعدى على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم ، اسناده جيد .

(٢٥٦) الطبرى — تاريخ — جـ ٥ ص ١٥٨

(٢٥٧) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ — جـ ٣ ص ٢٢٢ — ٢٢٣

إلى صفين إلى قتال الخوارج فى النهروان ، زادت هذه الأحداث الحسن زهدا فى القتــال ، كما أنه رأى أن الأحداث غلبت والــده — رضى الله عنه — وهو من هو شجاعة وفضلا ، ورأى رجحان كفة معاوية ، ورأى خذلان أهل العراق لأبيه ، وضيقه بهم ، واقتنع أن هؤلاء الناس لا يمكن الاعتماد عليهم ، كل ذلك جعل الحسن يؤمن بعدم جدوى حرب معاوية ، وأن صلاح حال الأمة وجمع كلمتها وتوحيد صفوفها ، ليس فى مزيد من القتال وسفك الدماء ، وإنما فى المصالحة والألفة ، فمال إلى ذلك ، وكان هــذا عين الصواب والحكمة والواقعية .

وقد أظهر الحسن حنكة كبيرة دلت على سعة أفقه وبصيرته ، عندما لم يشأ أن يواجــه أهــل العراق من البداية بميله إلى مصالحة معــاوية وتسليمه الأمر لأنه يعرف خفتهم وتهورهم ، فأراد أن يقيم من مسلكهم الدليل على صــدق نظرته فيهم ، وعلى سلامــة ما اتجــه إليه . فوافقهم على المسير لحرب معاوية ، وعبأ جيشه ، وبعث قيس بن ســعد فى مقدمته على رأس اثنى عشر ألفا ، وسار هو خلفه ، فلما وصلت تلك الأخبــار إلى معــاوية ، تحرك هو أيضــا بجيشه ونزل مسكن ، وبينما الحسن فى المدائن ، إذ نادى مناد من أهل العراق إن قيسا قــد قتل فسرت الفوضى فى الجيش ، وعادت إلى أهل العراق طبيعتهم فى عدم الثبات ، فاعتدوا على سرادق الحسن ونهبوا متاعه حتى أنهم نازعوه بساطا كان تحته ، وطعنوه وجرحوه ، وهنا حدثت حادثة لهــا دلالة كبيرة فقــد كان والى المدائن من قبل على ، سعد بن مسعود الثقفى ، فأتاه ابن أخيه المختار بن أبى عبيد بن مسعود ، وكان شابا ، فقال له : « هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن ، وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له عمه : عليك لعنة الله ، اثب على ابن بنت رسول الله ﷺ فاوثقه ! بئس الرجل أنت »(٢٥٨) .

---

(٢٥٨) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ١٥٩ — هذا هو المختار ابن أبى عبيد الذى سيخرج فيما بعد مدعيا أنه من شيعة آل البيت وسيطالب بدم الحسين ، ولم يكن ذلك منه إلا نفاقا وستارا يخفى خلفه مطامعه فى السـلطان .

فلما رأى الحسن صنيع أصحابه أيقن أنه لافائدة منهم ، ولا نصر يرجى على أيديهم ، وهـذه كانت قناعته من البداية ، فراسل معاوية في طلب الصلح ، فسر معاوية بذلك وأرسل له عبد الله بن عامر ، وعبد الرحمن بن سمرة ، فقدما على الحسن بالمدائن ، فأعطاه ما أراد ، وصالحه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة الآف درهم(٢٥٩) في أشياء اشترطها ، ثم قام الحسن في أهل العراق ، فقال : « يا أهل العراق انه سخي بنفسي عنكم ثلاث ، قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهابكم متاعي »(٢٦٠) . ويروي الطبري رواية أخرى ، وهي أن معاوية من فرط سروره بميل الحسن إلى الصلح ، أرسل له صحيفة بيضاء ، عليها خاتمه في أسفلها ، ليكتب فيها ما شاء من الشروط(٢٦١) .

لقد كان ما صنعه الحسن هو الصواب والسداد ، وغير هذا لم يكن يعني إلا مزيدا من إراقة دماء المسلمين . ولكنه رضي الله عنه ، مع انعقاد بيعته وأهليته للخلافة ، فقد آثر سلامة المسلمين وقد جاء فعله مصداقا لقول جده عليه الصلاة والسلام فيه ، وهو على المنبر ينظر اليه : « ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»(٢٦٢).وهذا الحديث — عند العلماء — من دلائل النبوة ، فقد صدق الحسن نبوءة جده عليه الصلاة والسلام وحققها .

---

(٢٥٩) قد يظن بعض من لايعرفون حقائق الأمور ان الحسن أخذ هذه الأموال لنفسه وهذا فهم خاطيء . فإنه أخذها ليفرقها بين جنوده ، وكانوا أكثر من اربعين الفا ثم ليواسي بها أسر من قتلوا مع أبيه في الجمل وصفين .وكان عددهم كبيرا .

(٢٦٠) الطبري — تاريخ — ج ٥ ص ١٥٩

(٢٦١) المصدر السابق ج ٥ ص ١٦٢

(٢٦٢) رواه البخاري ج ٤ ص ٢١٦ عن الحسن البصري ، الذي سمعه من أبي بكره وأبو بكره سمعه من النبي ﷺ وانظر — منهاج السنة لابن تيميه ج ٢ ص ٢٤٢ والعواصم من القواصم لابن العربي ص ٢٠٠.

وهذا يبين أن الإصلاح بين الطائفتين كان عملا محمودا يحبه الله ورسوله ، وأن ما فعله الحسن من ذلك كان من أعظم فضائله ، ومناقبه ، التى اثنى بهـــا عليه النبى ﷺ ولو كان القتـــال واجبا أو مستحبا ، لم يثن النبى ﷺ بترك واجب أو مستحب »(٢٦٣) . وبهذا العمل الشجاع أنهى الحسن رضى الله عنه ، فترة مؤلمة وحزينه من تاريخ المســلمين ، وأعاد للأمة وحدتها وسكينتها ، فجزاه الله أحسن الجزاء . ولقــد كان مستريح الضمير مطمئن القلب قرير العين بما فعــل ، ولم يعبأ بسـفه العراقيين وانتقاداتهم ، حينما وصفوه بأوصاف هو منهـــا برىء ، حيث قالوا له : يامسود وجوه المؤمنين »(٢٦٤) . « ويامذل العرب »(٢٦٥).فلم يزد على أن قال لهم : كرهت أن أقتلكم على الملك .

عام الجماعة وقيام الدولة الأموية :

مرت الأمة الاسلامية — كما رأينا — منذ أواخر خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه بمحنة قاسية ، واجتاحتها عواصف هوج ، ولولا صلابتها ومتانة البنيان الذى أقام عليه الرســول ﷺ الدين والأمة والدولة ، لذهبت ريحها ولكنها بفضــل الله صمدت للأحداث ، وخرجت منهـــا — رغم فداحة الخسائر — سليمة ، لتستأنف مسيرتها فى أداء رسالتها العالمية الخالدة ، التى حملها الله إياها لهداية البشرية . كما هدى الله هــذه الأمـــة بخاتم النبيين ﷺ فقد حقن دماءها بسبطه الحسن ، كما جاء فى خطبته بعــد بيعته لمعاوية(٢٦٦) . فقد ارتفع فوق كل الالآم والجراح ، وقدر مصلحة الأمة فأحسن التقدير.بعد أن تمت مفاوضات الصلح واتفق على الشروط. جاء معاوية إلى الكوفة ، واستقبله الحسن والحسين — رضى الله عنهما — وبايعاه وبايعه النـــاس ، وكان ذلك فى الخامس والعشرين من ربيع الأول

---

(٢٦٣) ابن تيميه — منهاج السنة جـ ٢ ص ٢٤٢

(٢٦٤) أبو بكر بن العربى — العواصم من القواصم ص ١٩٧

(٢٦٥) الطبرى — تاريخ — جـ ٥ ص ١٦٥

(٢٦٦) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٦٣

سنة ٤١ هـ(٢٦٧) . واستبشر المسلمون خيرا بهذا الحدث الكبير ، وتنفسوا الصعداء وحمدوا الله على انتهاء عهد الفتن والحروب وسموا عامه عام الجماعـــة .

وبهذا قامت الدولة الأموية رسميا ، وأصبح معاوية رضى الله عنه خليفة للأمة كلها ، ولقب بأمير المؤمنين ، وكان قبل ذلـك يلقب بالأمير فقط(٢٦٨) .

حكمت الدولة الأموية احدى وتسعين سنة هجرية ، من ســـنة ٤١ حتى سنة ١٣٢ هـ وتولى الخلافة خلال هذه المدة أربعة عشرة خليفة . أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وفى الفصل التالى نعرف بهؤلاء الخلفاء وأهم أعمالهم وأحداث عهودهم ، وبالله التوفيـــــق ؟



(٢٦٧) المصدر السابق ص ١٦٣ وتاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٣.
ويروى ان ذلك كان فى ربيع الثانى أو جمادى الأولى . والله أعلم .

(٢٦٨) الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ١٦١.

الفصل الثاني

الخلفاء الأمويون

توالى على حكم الدولة الأموية أربعة عشر خليفة ، وهم :

	هجرية	ميلادية
١ ـ معاوية بن ابى سفيان	٤١ ـ ٦٠	٦٦١ ـ ٦٨٠
٢ ـ يزيد بن معاوية	٦٠ ـ ٦٤	٦٨٠ ـ ٦٨٣
٣ ـ معاوية بن يزيد	٦٤	٦٨٣ ـ ٦٨٤
٤ ـ مروان بن الحكم	٦٤ ـ ٦٥	٦٨٤ ـ ٦٨٥
٥ ـ عبد الملك بن مروان	٦٥ ـ ٨٦	٦٨٥ ـ ٧٠٥
٦ ـ الوليد بن عبد الملك	٨٦ ـ ٩٦	٧٠٥ ـ ٧١٥
٧ ـ سليمان بن عبد الملك	٩٦ ـ ٩٩	٧١٥ ـ ٧١٧
٨ ـ عمر بن عبد العزيز	٩٩ ـ ١٠١	٧١٧ ـ ٧٢٠
٩ ـ يزيد بن عبد الملك	١٠١ ـ ١٠٥	٧٢٠ ـ ٧٢٤
١٠ ـ هشام بن عبد الملك	١٠٥ ـ ١٢٥	٧٢٤ ـ ٧٤٣
١١ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥ ـ ١٢٦	٧٤٣ ـ ٧٤٤
١٢ ـ يزيد بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦	٧٤٤
١٣ ـ ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٧	٧٤٤ ـ ٧٤٥
١٤ ـ مروان بن محمد بن مروان	١٢٧ ـ ١٣٢	٧٤٥ ـ ٧٥٠

١ ـ معاوية بن أبى سفيان
٤١ ـ ٦٠ هـ

يستهل ابن كثير ترجمة معاوية بقوله : وهو معاوية بن أبى سفيان ، صخر بن حرب بن أميـــة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى الأموى ، أبو عبد الرحمن خال المؤمنين(١) ، وكاتب وحى رب العالمين ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف(٢) .

والمشهور ان معاوية أسلم مع أبيه وأخيه يزيد ، وسائر قريش عام فتح مكة ، ولكن يروى عنه انه قال :« أسلمت يوم القضية ــ أى يوم عمرة القضاء سنة ٧ هـ ــ ولكن كتمت إسلامى من أبى ، ثم علم بذلك ، فقال لى : هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه ، فقلت له : لم آل نفسى جهداً . ولقد دخل على رسول الله ــ ص ــ مكة فى عمرة القضاء وانى لمصدق به ، ثم لمـــا دخل عام الفتح اظهرت إســـلامى ، فجئته فرحب بى وكتبت بين يديه »(٣) وشـــهد معاوية ــ رضى الله عنه ــ مع رسول الله ــ ﷺ ــ حنينا وأعطاه مائة من الابل وأربعين أوقية من الذهب(٤) . وكان أبوه من سادات قريش ، وتفرد بالسؤدد بعد يوم بدر ، ثم لما أسلم حسن إسلامه ، وكانت له مواقف شريفـــة وآثار محمـــودة ، فى يـــوم اليرموك وما قبـــله

---

(١) يقصد ابن كثير بقوله : خال المؤمنين ، أن معاوية اخو أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى ــ ﷺ ــ وأم المؤمنين رضى الله عنها .

(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ــ ١١٧ وما بعدهـــا ، وأنظر ابن ســـعد الطبقات الكبرى جـ ٣ ــ ٣٢ ، ٧ ــ ٤٠٦ ــ ونسب قريش ص ١٣٤ والمعارف ص ٣٤٩ ، الطبرى جـ ٥ ص ٣٢٩ ــ ٣٣٥ ومروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩ وما بعدها وأسد الغابة جـ ٥ ص ٢٠٩ ــ ٢١٢ والاصابة جـ ٩ ص ٢٣١ ــ ٢٣٤

(٣) ابن كثير ــ المصدر السابق ١١٧/٨ وابن الأثير ــ أسد الغابة جـ ٥ ص ٢٠٩

(٤) ابن كثير ــ المصدر السابق جـ ٨ ص ١١٧ وابن الأثير ــ أسد الغابة جـ ٥ ص ٢٠٩

وما بعـــده(٥) « كان معـــاوية رضى الله عنـــــه من جمـــلة كتاب الوحى للرسول — ﷺ — « وقد ثبت فى صحيح مسلم عن طريق عكرمة بن عمار عن أبى زميل سماك بن الوليد عن ابن عباس قال : قال أبو سفيان : يارسول الله ثلاث أعطينهن ، قال : نعم ، قال : تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين قال : نعم ، قال ومعاويةتجعله كاتبا بين يديك قال: نعم : وذكر الثالثة وهو انه اراد أن يزوج رسول الله — ﷺ — بابنته الأخرى عزة بنت أبى سفيان فقال : « الرسول — ﷺ — ان ذلك لا يحل لى » لعـــدم جواز الجمع بين الأختين لأن الرسول — ﷺ — كان متزوجا أختها أم حبيبة — يقول ابن كثير : والمقصود منه أن معاوية كان من جمـــلة الكتاب بين يدى رسول الله — ﷺ — الذين يكتبون الوحى »(٦) .

وروى هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها انها قالت : « لمـــا كان يوم أم حبيبة من النبى — ﷺ — دق الباب داق ، فقال النبى — ص — انظروا من هذا ؟ قالوا : معاوية ، قال : ائذنوا له ، فدخل وعلى أذنه قلم يخط به ، فقال : ما هذا القلم على أذنك يامعاوية ؟ قال : قلم أعددته لله ولرسوله ، فقال : جزاك الله عن نبيك خيرا ، والله ما استكتبتك إلا بوحى من الله ، وما افعـــل صغيرة ولا كبيرة إلا بوحى من الله »(٧) . والأخبار متواترة على أن معاوية رضى الله عنه كان من كتاب الوحى لرسول الله (ﷺ) ولكن الذين أعمى الحقد — على بنى أمية بعامة ومعاوية رضى الله عنه بخاصة — بصائرهم وابصارهم لمـــا لم يستطيعوا أن ينكروا انه كان من كتاب الرسول — ﷺ — قالوا : انه كان يكتب له ، ولكنه لم يكن يكتب الوحى(٨) وظنوا أن ذلك يحط من شأن معاوية ، فحتى لو

---

(٥) ابن كثير — البداية والنهاية ص ٨ — ١١٧

(٦) المصدر السابق ص ٨ — ١١٩

(٧) المصدر السابق ص ٨ — ١٢٠

(٨) انظر منهاج السنة لابن تيمية ج ٢ ص ٢١٤ حيث يرد على صاحب كتاب منهاج الكـــرامة فى معرفة الإمامة الذى يدعى أن معـــاوية لم يكتب للنبى — ﷺ — ولا كلمة واحدة من الوحى . وهذا كلام بلا حجة ولا دليل كما يقول ابن تيمية .

سلمنا بانه كان يكتب للنبى غير الوحى . اليس مجرد العمل — أى عمل — بين يدى رسـول الله — ﷺ — يعتبر شرفا ، ودليلا على أمانتـه وثقـة الرسول ﷺ فيه ، إن الصـحابة رضوان الله عليهم كانوا يعدون اى عمل للرسول — ﷺ — شرفا كبيرا — حتى حمل نعليه — فكيف بمن يكتبله ؟

فإذا كانت المصادر الموثوق بها تعده من كتاب الوحى فلا عبرة بكلام الشانئين الحاقدين ، ولمعاوية أحاديث فى الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين(٩) . وقـد اشترك فى معركة اليمامة فى عهد أبى بكر ، ولما سير أبو بكر الجيوش إلى الشام ، سار معاوية مع أخيه يزيد بن أبى سفيان ، وقد أبلى بلاء حسنا فى فتوح الشام وبصفة خاصة فى فتح المدن الساحلية ، مثل عكا ، وصور وقيسارية ، وكان له فىذلك ذكر حسن وأثر جميل(١٠) فلما مات أخوه يزيد فى طاعون عمواس سنة ١٨ هـ أقره عمر على عمله ، عندما بلغه موت زيد ، وقال لأبى سفيان : « أحسن الله عزاءك فى يزيد — رحمه الله ! فقال له أبو سفيان : من وليت مكانه ؟ قال : أخـاه معـاوية ، قال : وصـلتك رحم يا أمير المؤمنين (١١)ثم كتب لابنه يوصيه ، فقال له : «يابنى إن هؤلاء الرهـط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم ، وقدمهم عند الله ورسوله وقصر بنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا اتباعا ، وقدولوك جسيما من أمورهم ، فلاتخالفهم » .. فلم يزل معاوية نائبا على الشام فى الدولة العمرية والعثمانية وافتتح فى سنة سـبع وعشرين جزيرة قبرص ، وسكنها المسلمون قريبا من ستين سنة فى أيامه ومن بعده ، ولم تزل الفتوحـات والجهاد قائما على ساقه فى أيامه فى بلاد الروم »(١٢) . ولقد أحسن معاوية وأجاد فى ولايته وكان موضع رضا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، — وناهيك بمن يرضى عنه عمر — وقد ذكر غير واحد من المؤرخين الثقات أن عمر جمع

---

(٩) أنظر ابن حجر — فتح البارى جـ ٨ ص ١٠٥ والاصابة جـ ٩ ص ٢٣٣ وابن الأثير — أسد الغابة جـ ٥ ص ٢١٢

(١٠) انظر البلاذرى — فتوح البلدان — ص ١٦٦ وما بعدها .

(١١) انظـر ابن الأثير — أسد الغابة جـ٥ ص٢٠٩ وابن كثـير — المصدر السـابق جـ٨ ص ١١٨

(١٢) ابن كثير — المصدر السابق جـ٨ ص ١١٨ — ١١٩

الشـــام كلها لمعـــاوية « لمـــا رآه قائمـــا بعمـــله ســـادا ثغوره ناهضـــا بمسئولياته »(١٣) .

ويروى أنه :« لما قدم عمر بن الخطاب الشام ، تلقاهمعاوية فى مركب عظيم ، فلما دنا من عمر قال له : أنت صاحب الموكب ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين . قال : هذا حالك مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : هو ما بلغك من ذلك . قال : ولم تفعل هذا ؟ لقد هممت أن آمرك بالمشى حافيا إلى بلاد الحجاز ، قال : ياأمير المؤمنين أنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة ، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم به فإن أمرتنى فعلت ، وإن نهيتنى انتهيت، . فقال عمر : يامعاوية ما سألتك عن شيىء الا تركتنى فى مثل رواجب الضرس لئن كان ما قلت حقا انه لرأى أريت ، ولئن كان باطلا انه لخديعة اديت . قال : فمرنى يا أمير المؤمنين بما شئت قال : لا آمرك ولا أنهاك . فقـــال رجل (هو عبد الرحمن بن عوف) يا أمير المؤمنين ما احسن ما صدر الفتى عما أوردته فيـــه ؟ . فقـــال عمر : لحسن موارده ومصـــادره جشـــمناه ماجشمناه »(١٤). وهذه اكبر شهادة لمعاوية.ودخل معاويةعلى عمر وعليه حلة خضراء ، فنظر إليهاالصحابة .« فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة ، فجعل يضربه بها ، وجعل معاوية يقول : يا أمير المؤمنين ، الله الله فى ، فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم : لم ضربته ياأمير المؤمنين ، وما فى قومك مثله ؟ فقال : والله ما رأيت إلا خيرا وما بلغنى إلا خير ، ولو بلغنى غير ذلك لكان منى إليه غيرمارأيتم ، ولكن رأيته — واشار بيده — فأحببت أن أضـــع منـــه مـــا شمخ(١٥) . وحسب معـــاوية شرفا وفخـــرا

---

(١٣) تاريخ خليفه ص ١٥٥ — والعواصم من القواصم ص ٨٠ ، والاصابة جـ٩ ص ٢٣٢ والبداية والنهاية جـ٨ ص ١٢٤ وسير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٣٢

(١٤) ابن كثير — المصدر السابق جـ٨ ص١٢٤ — ١٢٥ والاصابة جـ ٩ ص ٢٣٤ وسير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٣٣ ، الطبرى جـ ٥ ص ٣٣١

(١٥) ابن كثير — البداية والنهاية — جـ ٨ ص ١٢٢

أن عمر عزل صحابيا جليلا ، وهو عمير بن سعد عن حمص ، وضمها إلى معاوية فقال الناس : « عزل عمر عميرا وولى معاوية : فقال عمر لاتذكروا معاوية الا بخير فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اهد به » .

بقى معاوية واليا على الشام طوال عهد(عمر وعثمان رضى الله عنهما واليا كفؤا ، ضابطا لعمله حارسا لحدوده محبوبا من رعيته ، وقد قام فى عهد عثمان بأعمال جليلة ، من أهمها انشاء الأسطول الاسلامى ،ا لذى حمى به شواطىء المسلمين ، وغزا جزر البحر الموسط — كما سنفصل فيما بعد .

معاوية الخليفة ، صفاته ومكانته :

بعد استشهاد الإمام على — كرم الله وجهه — سنة ٤٠ هـ تم الصلح بين معاوية والحسن بن على سنة ٤١ هـ . تنازل بمقتضاه الحسن عن الخلافة وبويع معاوية ، ودخل الكوفة وبايعه الحسن والحسين سنة ٤١هـ. واستبشر المسلمون بهذه المصالحة التى وضعت حدا لسفك الدماء والفتن ، وسموا هذا العام عام الجماعة(١٦) . وهذه إشارة واضحة لرضا الناس عن خلافة معاوية واستقبالها استقبالا حسنا ، فقد تولى الخلافة ، ووراءه تجربة طويلة فى الحكم والإدارة وسياسة الناس ، فولايته على الشام قبل الخلافة لمدة تزيد عن العشرين عاما ، أكسبته خبرة كبيرة هيأت له النجاح فى خلافته ، والحقيقة أن معاوية كان يتمتع بصفات عالية ترشحه لأن يكون رجل الدولة الأول وتجعله خليقا بهذا المنصب الخطير .

يقول ابن الطقطقا : « وأما معاوية رضى الله عنه » فكان عاقلا فى دنياه لبيباعالما حليما ، ملكا قوياجيدا السياسة ، حسن التدبيرلأمور الدنيا، عاقلا حكيما فصيحا بليغا ، يحلم فى موضع الحلم ، ويشتد فى موضع الشدة إلا أن الحلمكان أغلب عليه . وكان كريما باذلا للمال محبا للرياسة شغوفا بها ، كان يفضل على أشراف رعيته كثيرا ، فلا يزال أشراف قريش ، مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وابان بن عثمان بن عفان ، وناس

---

(١٦) أنظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٣ ، وابن حجر الاصابة جـ ٩ ص ٢٣٢ وابن الأثير — أسد الغابة — جـ ٥ ص ٢١١

من آل أبى طالب رضى الله عنهم ، يفدون عليه بدمشق ، فيكرم مثواهم ، ويحسن قراهم ويقضى حــوائجهم ، ولا يزالون يحــدثونه اغلظ الحديث ، ويجبهونه اقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم اخرى ، ولا يعدهم إلا بالجوائز السنية ، والصلات الجمة — إلى أن يقول : واعلم أن معاوية كان مربى دول وسائس أمم ، وراعى ممالك ، ابتكر فى الدولة اشياء لم يسبقه إليها أحد »(١٧) وأما اليعقوبى والمسعودى ، فقالا : « وكان لمعاوية حلم ودهاء ومكر ورأى ، وحزم فى أمر دنياه وجود بالمال»(١٨) وثناء هؤلاء الثلاثة المؤرخين على معاوية ، وحسن سياسته وإدارته لشئون الدولة ، أمر له مغزاه ، وأهميته ، لما عرف عنهم جميعا من ميول شيعية ملموسة . وأما إعجاب ابن خلدون به فيتمثل فى قوله : « وأقام فى سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة ، التى لم يكن أحد من قومه أوفر فيها منه يدا ، من أهل الترشيح من ولد فاطمــة وبنى هاشم وآل الزبير وأمثالهم »(١٩) .

ويروى ابن الأثير فى أسد الغابة عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « ما رأيت أحدا بعد رسول الله (ﷺ) أسود من معاوية . فقيل له : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ؟ فقال : كانوا والله خيرا من معاوية وأفضل ، ومعاوية أسود »(٢٠) .

---

(١٧) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٤ — ١٠٦

(١٨) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٣٨ ، والتنبيه والاشراف ، نقلا عن د. حامد غنيم أبو سعيدمقالة بعنوان « الأسرة الأموية بين القيم الإسلامية والاعتبارات السياسية » مجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض . العــدد الرابع ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م ص ٢٦٨

(١٩) جـ العبر ٣ ص ٧

(٢٠) جـ ٥ — ٢١٠ وراجع ابن كثير والبداية والنهاية جـ ٨ ص ١٣٥، فقد أورد قولا مماثلاعن عبد الله بن عمرو بن العاص . والمقصود بكلمة أسود أسخى وأحلم وأعطى للمال .

ويرى الطبرى مرفوعا إلى عبدالله بن عباس ، قوله : «مارأيت احدا اخلق للملك من معاوية إن كان ليرد الناس منه على أرجاء واد رحب(٢١) . ويقول ابن تيمية « فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خيرا من معاوية ، ولا كان الناس فى زمان ملك من الملوك خيرا منهم فى زمن معاوية ، اذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده اما إذا نسبت إلى أيام أبى بكر وعمر ظهر التفاضل،وقدروى. روى أبو بكر بن الأثرم ورواه ابن بطه من طريقه ، حدثنا محمد بن عمرو بن جبله حدثنامحمد بن مروان عن يونس عن قتاده ، قال لوأصبحتم فى مثل عمل معاوية لقال‌اكثركم هذا المهدى . وكذلك رواه ابن‌بطه باسناده الثابت من وجهين عن الأعمش عن مجاهـــد قال : لو ادركتم معاوية لقلتم هـــذا المهدى »(٢٢) وذكر عمر بن عبد العزيز عند الأعمش فقال : فكيف لو أدركتم معاوية ؟ قالوا : فى حلمه ، قال : لا والله فى عدله »(٢٣) ، واليك شهادة الذهبى له : حيث يقول : « وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم — هو ثغر — فيضبطه ، ويقوم به أتم قيام ويرضى الناس بسخائه وحلمه . . فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه . وقوة دهائه ورأيه »(٢٤) ، وهكذا يكاد ينعقد إجماع علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم على الثناء على معاوية رضى الله عنه وجدارته بالخلافة، وحسن سياسته وعدله ، مما مكن له فى قلوب الناس ، وجعلهم يجمعون على محبته(٢٥) . يقول ابن تيمية : « وكانت سيرة معاوية فى رعيته من خيار ســـير الولاة ، وكان رعيتـــه يحبـــونه ، وقـــد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ انه قال : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصـــلون

---

(٢١) تاريخ جـ ٥ ص ٣٣٧ — والبداية والنهاية جـ ٨ ص ١٣٥ والاصابة جـ ٩ ص ٢٣٣

(٢٢) منهاج السنة جـ ٣ ص ١٨٥

(٢٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٨٥

(٢٤) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٣٢ — ١٣٣

(٢٥) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٣ وابن الطقطقا — الفخرى ص ١٠٤ — ١٠٦ وابن تيمية — منهاج السنة جـ ٣ ص ١٨٩

عليهم ويصلون عليكم » وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم »(٢٦) .

وقد ورد كثير من الأخبار بدعاء النبى ﷺ لمعاوية بالهداية والمغفرة يقول الذهبى : « روى جماعة عن معاوية بن صالح عن يونس بن سيف عن الحارث بن زياد عن العرباض ، سمع النبى ﷺ وهو يدعو إلى السحور فى شهر رمضان ، هلم إلى الغذاء المبارك ، ثم سمعته يقول : « اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب »(٢٧) . قال الحافظ بن عساكر : « وأصح ماروى فى فضل معاوية حديث أبى جمرة عن ابن عباس» وانه كان كاتب النبى — ﷺ — منذ أسلم أخرجه مسلم فى صحيحه ، وبعده حديث العرباض — الذى سبق ذكره — وبعده حديث ابن أبى عميرة « اللهم اجعله هاديا مهديا(٢٨) وقد ثبت فى الصحيح أنه كان فقيها يعتد الصحابة بفقهه واجتهاده فقد جاء فى البخارى عن ابن أبى مليكة قال : « أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فاتى ابن عباس فأخبره فقال: دعه فإنه قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٢٩) . وفى رواية أخرى قيل لابن عباس « هل لك فى أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة ، قال إنه فقيه »(٣٠) وأثر آخر صحيح يدل على فقهه واجتهاده روى البخارى — باسناده — عن معاوية رضى الله عنه ، قال : إنكم لتصلون صلاة لقد صحبنا النبى — ﷺ — فما رأيناه يصليها ، ولقد نهى عنها ، يعنى الركعتين بعدالعصر »(٣١) بعد هذه الطائفة منالأحاديث والأخبار، وأقوال الصحابة والتابعين ، وعلماء الأمة عن معاوية وفضله وصحبته وفقهه واجتهاده ، ينبغى أن نعرف نهجه فى الحكم بعد أن أصبح خليفة .

---

(٢٦) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٨٩

(٢٧) سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٢٤ وراجع ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢١

(٢٨) نقلا عن ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢٢

(٢٩) ابن حجر — فتح البارى جـ ٨ ص ١٠٤ طبعة الحلبى سنة ١٩٥٩

(٣٠) المصدر السابق جـ ٨ ص ١٠٥

(٣١) المصدر السابق جـ ٨ ص ١٠٥

منهج معاوية وأسلوبه فى حكم الأمة الاسلامية :

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة ٤١هـ فأخذ يعمل بكل ما أوتى من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار فى ربوع العالم الإسلامى . فانتهج سياسة داخلية تقوم على عدة قواعد :

أولا : الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم وبخاصة بنو هاشم الذين كان بعضهم يعتقد أنه أفضل منه وأولى بالخلافة ، فراح بدهائه يستل حفيظتهم وبرقته يلم شاردهم ، وبحلمه وعزيمته يقوم معوجهم ، حتى اجتمعت عليه القلوب ودنت منه النفوس .

خطب مرة فى أهل الحجاز بعد توليه الخلافة فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله ، فقال : « وأين مثل هؤلاء ؟ ومن يقدر على أعمالهم ؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم ؟ رحمة الله ورضوانه عليهم ، غير أنى سلكت بها طريقا لى فيه منفعه ، ولكم فيه مثل ذلك ، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة: فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم ، والله لاأحمل السيف على من لاسيف معه ، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى ببعضه .. وإياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة ، وتورث الاستئصال ، أستغفر الله لى ولكم »(٣٢) .

وبمثل هذه السيرة ، كما يقول ابن الطقطقا « صار خليفة العالم وخضع له أبناء المهاجرين والأنصار ، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة »(٣٣) نجح معاوية نجاحا كبيرا فى سياسته وجعل كل خصومه أصدقاءه وأولياءه، وأخذت ألسنتهم تلهج بالثناء عليه . وقد مر بك ما قاله فضلاء الصحابة فيه، ولم يكن ذلك قاصرا على أيام خلافته فقط ، بل لقد كانوا يشيدون بذكره بعد وفاته ، حدث هشام بن عروة بن الزبير قال : « صلى يوما عبد الله ابن الزبير ، فوجم بعد الصلاة ساعة ، فقال الناس : لقد حدث نفسه ،

(٣٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٣٢

(٣٣) الفخرى ص ١٠٥

ثم التفت إلينا فقال لايبعدن ابن هند ! إن كانت فيه لمخارج لانجدها فى أحد بعده ابدا ، والله إن كنا لنفرقه — أى نخوفه — وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا وإن كنا لنخدعه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه ، فيتخادع لنا ، والله لوددت أنا متعنا به مادام فى هذا حجر— وأشار إلى أبى قبيس »(٣٤) . وقول ابن الزبير هذا قاله عندما حصر فى عهد عبدالملك بن مروان وتذكر قول معاوية له : إن الشح والحرص لمن يدعاك حتى يدخلاك مدخلا ضيقا ، فوددت أنى حينئذ عندك استنقذك .

فلا عجب إذن أن نرى الصحابة الذين امتنعوا عن بيعة على رضى الله عنه، مثل سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم قد بايعوا معاوية ورضوا خلافته . يقول الذهبى : « وخلفت معاوية خلق كثير يحبونه ويتغالون فيه ويفضلونه ، إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء وإما قد ولدوا فى الشام على حبه وتربى أولادهم على ذلك . وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة وعدد كثير من التابعين والفضلاء »(٣٥) .

ولم يثر فى وجهه طوال خلافته أحد من الصحابة ولا من أبنائهم . ولم يحدث أن اتخذ ضدهم أى إجراء ، بل إن الاجراء الوحيد الذى شهده عهده، هو ما كان من أمر حجر بن عدى ، أحد كبار الشيعة فى الكوفة ، فقد دأب حجر على نقد سياسة زياد بن أبى سفيان فى الكوفة ، والتشهير به ، وجمع حوله عددا كبيرا من الناس، وضاق زياد ذرعا بحجر ، فكتب فى شأنه إلى معاوية وحرضه على قتله، فطلب منه معاوية أن يسيره إليه، فسيره إليه فيما يقرب من خمسة عشر رجلا ممن كانوا على رأيه . فلما حضروا إلى معاوية ، رجع بعضهم عن رأيه ومقالته وتبرأ مما كان يقول حجر ، وثبت الباقون وفيهم حجر ، فأمر معاوية بقتلهم(٣٦) .

والواقع كانت هذه غلطة من معاوية ، وكان ينبغى أن يتسع حلمه لصحابى من صحابة الرسول — ﷺ — وقد ندم معاوية ندما كبيرا على قتل

(٣٤) ابن قتيبة — عيون الأخبار — ج ١ ص ١١ — ١٢
(٣٥) سير أعلاء النبلاء ج ٣ ص ١٢٨
(٣٦) أنظر الطبرى — تاريخ — ج ٥ ص ٢٥٣ وما يليها .

حجر ، وظل يذكر هذه الحادثة طوال حياته ، حتى يروى أنه قال عند موته يومى من حجر طويل . وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها لما بلغها تسيير حجر إلى معاويةارسلت إليه عبدالرحمن بن الحارث بن هشام لتشفع فيه وفى أصحابه ، ولكن عبد الرحمن وصل بعد قتلهم ، فقال لمعاوية : « أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟ قال : غاب عنى حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى ، وحملنى ابن سمية فأحتملت »(٣٧) . ولما التقى معاوية بعائشة رضىالله عنها بعدذلكعاتبته على قتل حجر،فقال لها: يأم المؤمنين«دعينى وحجرا حتى نلتقى عند الله »(٣٨) وفيما عدا هذا فقد حافظ معاوية على سياسته السلمية القائمة على الحلم وسعة الصدر مع رعيته والتى لخصها هو نفسه فى جمل يسيرة حين قال « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت كانوا إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها » .

ثانيا : القاعدة الثانية التى بنى عليها معاوية سياسته الداخلية ، هى توطيد الأمن فى ربوعالعالم الإسلامى ، ومن أجل ذلكاصطنع عددامن أعقل وأكفأ رجال عصره وأقدرهم ، وأقواهم حزما وأخبرهم بالإدارة وسياسة الناس ، ليساعدوه فى إدارة الدولة وتوطيد الاستقرار فيها ، وكان هؤلاء الرجال إما من أبناء بيته مثل أخيه عتبة بن أبى سفيان ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص أو من اشد الناس إخلاصا له ، وتنفيذا لسياسته مثل عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومسلمة بن مخلد ، كما كان من أهم الرجال الذين اصطنعهم معاوية زياد بن أبى سفيان بعد أن استلحق نسبه بأبيه سنة ٤٤ هـ . وكان قبل ذلك يدعى بزياد بن سمية ، أو ابن عبيد ، أو ابن أبيه(٣٩) .

---

(٣٧) المصدر السابق — جـ ٥ ص ٢٧٨ — ٢٧٩

(٣٨) أبو بكر بن العربى — العواصم من القواصم — ص ٢١٣

(٣٩) أنظر قصة استلحاق زياد فى الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٢١٤ — ٢١٥ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٤١ وما بعدها . وأبوبكر ابن العربى — العواصم من القواصم ص٢٣٥ ومابعدها . حيث ناقش قضية استلحاق زياد وأثبت صحة عمل معاوية وقال : ص ٢٤٢ — وقد صرح مالك فى الموطأ بنسبه فقال : فى دولة بنى العباس زياد بن ابى سفيان ولم يقل زياد بن أبيه .

ثالثا : القاعدة الثالثة التى قامت عليها سياسة معاوية ، والتى ضمنت له توطيد اركان دولته ، أنه كان يباشر أمور دولته بنفسه ، ويعرف كل كبيرة وصغيرة عنها ، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره ، إلا أنه لم يكن يكتفى بذلك بل كرس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين ، ولقد قدم لنا المسعودى(٤٠) تقريرا فريدا عن يوم كامل من أيام معاوية ، وكيف كان يقضى وقته فى تصفح أمور الدولة ، ولأهمية دلالة هذا التقرير نوجزه فيما يلى :

« كان من أخلاق معاوية انه كان يأذن فى اليوم والليلة خمس مرات . كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزاه ، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات ، ثم يخرج إلى مجلسه ، فيأذن لخاصة الخاصة ، فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشى .. ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول : ياغلام أخرج الكرسى .. فيتقدم إليه الضعيف والأعرابى والصبى والمراة ومن لا أحد له ، فيقول: ظلمت ،فيقول: أعزوه ، ويقول عدى على : فيقول ، ابعثوا معه ، ويقول صنع بى ، فيقول: أنظروا فى أمره،حتى إذا لم يبق أحد ، دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلنى أحد عن رد السلام .. فإذا استووا جلوسا قال : يا هؤلاء إنما سميتم أشرافا ، لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل فيقول : أستشهد فلان ، فيقول : افرضوا لولده ، ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم ، اعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم .. حتى يأتى على اصحاب الحوائج كلهم .. فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع ، حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلى ، ثم يدخل فيصلى أربع ركعات ، ثم يجلس ، فيأذن لخاصة الخاصة .. ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ، ويجلس إلى العصر ، ثم يخرج فيصلى العصر ، ثم يدخل إلى منزله .. حتى إذا كان فى آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ، ويؤذن للناس علىمنازلهم .. وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ، ثم يصلى بعدها أربع ركعات .. ثم يدخل منزله .. حتى ينادى بالعشاء الآخرة ،

---

(٤٠) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩ — ٤١

فيخرج فيصلى ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة ، والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرا من ليلتهم ، ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها .. وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة .. ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر ، فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلى الصبح ، ثم يعود فيفعل ما وصفنا فى كل يوم ، وقد كان هم بأخلاقه جماعة بعده ، مثل عبد الملك بن مروان وغيره ، فلم يدركوا حلمه ، ولا إتقانه للسياسة ، ولا التأتى للأمور ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم على طبقاتهم » .

بهذه السياسة الواضحة،التى ترتكز على تلك القواعد الثابتة،استقرت أحوال الدولة الاسلامية ، وسادها النظام والأمن بصفة عامة ، ولم يعكر هذا الاستقرار سوى الخوارج الذين لم تجد معهم هذه السياسة ، وكان موقفهم من معاوية خاصة والأمويين عامة أكثر تطرفا وأشد بغضا مما كان الحال عليه مع على رضى الله عنه ، مما اضطر معاوية أن يخرج عن منهجه السياسى معهم ومعاملتهم بما يستحقونه من حزم وشدة ، كما سنرى ذلك مفصلا فى موضعه إن شاء الله .

سياسة معاوية الخارجية :

سار معاوية فى سياسته الخارجية على نهج ما سار عليه فى سياسته الداخلية ، فقد وضع لها أيضا أسسها المدروسة وقواعدها الثابتة الواضحة ، فى دولة ترامت أطرافها فشملت — بالاضافة إلى شبه الجزيرة العربية — العراق ، وجميع أقاليم الدولة الساسانية ، والشام ومصر ، وهى البلاد التى فتحت فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، وقد تم فتح هذه البلاد بسرعة ، ثم فترت الفتوحات فى أواخر عهد عثمان ، وكل عهد على ، بسبب الفتنة والحروب الأهلية ، وربما كان المتوقع أن يستأنف معاوية — بعد استتباب الخلافة — نشاط الفتح ، ولكن عهده لم يشهد فتوحات على نطاق

واسع — كما كان الحال فى عهد الراشدين — ولم يكن هذا تقصيرا منه ، بل كان حصافة وحسن تقدير للأمور ، وفهما دقيقا للواقع ، فالمسلمون منذ عهد ابى بكر دخلوا فى صراع مع أكبر وأقوى دولتين فى العالم ، وقتذاك ، وهما الفرس والروم ، فأما الدولة الفارسية ، فقد أزالوها من الوجود ، وقضوا على الأسرة الساسانية الحاكمة ، حيث قتل يزدجرد الثالث آخر ملوكها سنة ٣١ هـ فى عهد عثمان . وأما الدولة البيزنطية — الروم — فقد اقتطعوا منها أهم وأغنى ولاياتها فى الشرق ، الشام ومصر ، ولكن بقيت ممتلكاتها فى آسيا الصغرى وأوربا وشمال افريقيا لم يفتحها المسلمون بعد.

ومعنى هذا أن خطر الهجوم العسكرى من الفرس قد زال ، ولكن الأمر كان يتطلب تثبيت الفتوحات والتصدى لحركات التمرد ، التى قد تنبعث هنا أو هناك ، نتيجة الشعور القومى ، عند بعض حكام المقاطعات الفارسية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فقد كان على معاوية أن يعمل على نشر الإسلام بين الشعب الفارسى ، حتى يدركوا تعاليمه الروحية والمادية ، وتنفيذا لهذه السياسة فقد عمد معاوية إلى إسكان عشرات الألوف من الأسر العربية فى هذه المناطق وبصفة خاصة خراسان حتى يكون اختلاط العرب بالفرس سبيلا إلى انتشار الإسلام واللغة والثقافة العربية ، خصوصا وأن هؤلاء العرب كانوا من بقايا الصحابة ومن التابعين، ومع هذا لم يغفل معاوية حراسة الحدود ، فكانت الغزوات تنطلق الى ثغر السند ، وتلامس بلاد ماوراء النهر ، تمهيدا لمراحل من الفتح ستأتى(٤١) ، وقد تكفل بسياسة معاوية هذه فى بلاد فارس ولاة العراق ، وعلى رأسهم عبدالله بن عامر والمغيرة بن شعبة وزياد بن ابى سفيان وابنه عبيد الله ، وهكذا قدر معاوية أن تثبيت الفتوحات ونشر الإسلام حتى يطمئن الناس فى كنفه أفضل وأجدى من الفتح والتوسع فى الخارج ، فى هذا الظرف ، وقد نجحت هذه السياسة وأتت ثمارها فى هذا الجناح الشرقى من الدولة الإسلامية . أما الجناح الغربى — الشام ومصر — المواجه للدولة البيزنطية فهو الذى حظى باهتمام معاوية إلى حد كبير ، وذلك لسببين :

---

(٤١) سيأتى المزيد من التفاصيل عن الغزوات فى عهد معاوية فى هذه الجهات فى الفصل الخاص بالفتوحات فى العصر الأموى .

الأول : قرب الدولة البيزنطية من هذا الجناح ، ومن مركز الخلافة وعاصمتها دمشق .

والثانى : أن خطر هذه الدولة كان لا يزال قائما ، وتهديدها لحدود المسلمين لايزال مستمرا ، كما أن معاوية بحكم طول عمله وإقامته فى الشام ، قبل أن يلى الخلافة ، اكتسب خبرة كبيرة فى التعامل مع البيزنطيين ، وكان على وعى تام بأهدافهم ومرامى سياستهم ، فركز معظم جهده للتصدى لهم ، وإيقافهم عند حدهم ، وبخاصة فى ميدان البحر ، وكان للأسطول الإسلامى الذى جاهد معاوية فى إنشائه منذ ولايته على الشام فضل كبير جعله يشن على البيزنطيين « سلسلة رائعة من الهجمات البحرية ، حتى لايكاد يخلو عام من الأعوام عند الطبرى من الحديث عن غزوات البحر »(٤٢) فاستولى على العديد من الجزر فى شرقى البحر المتوسط ،مثل قبرص ورودس وكريت وأرواد . ولم تسلم منه القسطنطينية نفسها — عاصمة الدولة البيزنطية — فقد حاصرها أكثر من مرة(٤٣) . وواصل ضغطه على البيزانطيين ، حتى جعلهم يقفون موقف الدفاع ويكفون عن الهجوم .

وتمشيا مع سياسة معاوية وانسجاما مع خطته فى الضغط على الدولة البيزنطية فقد توالت حملاته على شمال إفريقيا انطلاقا من مصر ، ففتحت إفريقية — أو المغرب الأدنى (إقليم تونس الحالى) — وأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ لتكون قاعدة للانطلاق إلى الشمال الإفريقى كله.

وخلاصة القول فإن معاوية رضى الله عنه — ظلّ ما يقرب من عشرين سنة يجاهد فى توطيد أركان الدولة ، ونشر الأمن والأمان والاستقرار فى ربوعها ، وحراسة وتثبيت حدودها ، بل وتوسيع هذه الحدود كلما كان ذلك ممكنا ، وكبح جماح أعدائها ، وإبقاء هيبتها فى قلوبهم ، وهكذا خلف وراءه دولة قوية السلطان مرهوبة الجانب ، يخشى بأسها الأعداء .

---

(٤٢) انظر د. شكرى فيصل — حركة الفتح الاسلامى ص ١٩٠ وسيرد الحديث مفصلا عن هذه الغزوات فى الفصل التالى .

(٤٣) سيأتى الحديث أيضا بتوسع عن نضال معاوية وجهاده البحرى ضد البيزنطيين فى فصل الفتوحات .

معاوية وولاية العهد لابنه يزيد :

تعتبر مسألة عهد معاوية بالخلافة لابنه يزيد من بعده ، وأخذه البيعة له من أكثر المسائل التى وجه إليه النقد من أجلها ، على اعتبار أنه خرج بهذا عن النهج الذى اتبعه المسلمون فى اختيـــار خليفتهم منذ خلافة أبى بكر ، حتى خلافة الحسن بن على ، فقد كان هذا الاختيار يتم عن طريق الشورى والبيعة الحرة من غالبية الصحابة على الأقل ، ولم يفكر أحد من الخلفاء الراشدين فى توريث الخلافة لأحد من أبنائه أو أى من أقاربه، حتى أن عمر بن الخطاب استبعد ابن عمه سعيد بن يزيد بن عمرو بن نفيل من أهل الشورى الستة الذين رشحهم للخلافة مع أنه كان من المبشرين بالجنة . وذلك دفعا لشبهة القرابة ، فضلا عن أنه رفض رفضا باتا فكرة تولية ابنه عبد الله عندما أشار عليه بعض الناس بذلك(٤٤) . كما أن على بن أبى طالب رفض أن يعهد لابنه الحسن ، وقـــال لأصحابه : لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر(٤٥) ، فمعاوية إذن قد خرج على هذه القاعدة ، وابتدع فكرة التوريث ، وتشير الرواية المشهورة إلى : أن الذى أشار على معاوية بتلك الفكرة هو المغيرة بن شعبة(٤٦) حينما شعر أن معاوية ينـــوى عزله عن الكوفة فأراد التقرب إليه ، بهذه الفكرة ومهما يكن من أمر هـــذه القصة ، فالذى نرجحه أن معاوية قد عزم على تولية ابنه يزيد العهد ليكون خليفة بعده لأنه رأى أن ذلك ضرورة لوحدة الأمة ومنع الاختلاف ، وكان ينتظر الوقت المناسب لذلك ، حتى ولو لم يشر عليه المغيرة أو غيره بذلك ، وإذا كان للمغيرة من أثر فهو تشجيعه للفكرة ، والترويج لها — مع غيره من كبار الشخصيات — وإقناع الناس بها ، لأن هذا لم يكن أمرا سهلا ، خصوصا مع وجود من يرون أنهم أفضل من يزيد من أبناء الصحابة مثل الحسين بن على ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وقد بذل معاوية جهدا مضنيا لإقناع الناس عن طريق الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى حتى نجحت جهوده فى نهاية المطاف وأخذ البيعة لابنه ولم يعارضه فى

---

(٤٤) راجع الطبرى — تاريخ جـ ٤ ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٤٥) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٤٦ — ١٤٧

(٤٦) المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٠١ — ٣٠٢

ذلك إلا ثلاثة اشخاص ، وهم الحسين بن على ، عبدالله بن الزبير وعبدالله ابن عمر ، ثم بايع عبدالله بن عمر فيما بعـد — كما سنذكر — فانحصرت المعارضة فى الحسين وعبدالله بن الزبير ، ويروى خليفة بن خياط(٤٧) عن وهب بن جرير بن حازم أن معاوية حاول إقناع هؤلاء بالبيعة ليزيد ، فلما لم يستجيبوا هددهم بالقتل واخذ البيعة منهم قسرا ، وهذه الرواية يعارضها مايرويه البخارى عن عكرمة بن خالد أن ابن عمر دخل على حفصة أخته حين كان معاوية يخطب فى أمـر البيعة ليزيد ، فقال لها : « قد كان من الأمر ما ترين فلم يجعل لى من الأمر شيء فقالت : الحق فإنهم ينتظرونك ، واخشى أن يكون فى احتباسك عنهم فرقة « فلم تدعه حتى ذهب(٤٨) ، ثم يروى البخارى ايضا أن عبد الله بن عمر قال عند ثورة أهل المدينة على يزيد : « أنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله(٤٩) » .

فهذه الأخبار الصحيحة التى يرويها البخارى ، والتى تؤكد بيعة ابن عمر ليزيد تعارض رواية وهب بن جرير . وحتى لو سلمنا بصحة روايته فهى لاتفيد أن معاوية كان جادا فى تهديده لهم بالقتل ، وإنما كان ذلك حزما منه لحملهم على البيعة حتى لايشقوا عصا الطاعة ، وتدخل الأمة فى دوامة الفتنة من جديد . والدليل على ذلك ، أن الرواية نفسها تذكر أنه لما أعلن معاوية بيعة الحسين وابن الزبير وابن عمر من على المنبر قال أهل الشام : « لا والله لانرضى حتى يبايعوا على رؤوس الأشهاد ، وإلا ضربنا أعناقهم ، فقال معاوية : مه ! سبحان الله ماأسرع الناس إلى قريش بالسوء لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم ثم نزل(٥٠) ثم تذكر الرواية أيضا ، أن عبدالله بن صفوان دخل على معاوية ، فقال له : « أنت الذى تزعم أنك تقتل ابن عمر إن لم يبايـع لابنك ؟ فقال : أنا اقتل ابن عمر !! إنى والله لا اقتله»(٥١)

(٤٧) تاريخ خليفة ص ٢١٢ — ٢١٧ .

(٤٨) ابو بكر بن العربى — العواصم من القواصم ص٢٢٣ — ٢٢٤ وانظر صحيح البخارى جـ ٥ ص ٤٨ ك ٦٤ ب ٢٩

(٤٩) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٣٠ طبعة الحلبى .

(٥٠) تاريخ خليفة من خياط ص ٢١٤ .

(٥١) المصدر السابق ص ٢١٥ .

كل هذا يؤكد انمعاوية وإن كان قد استخدم معهم طريقالترهيب إلا أنه لم يكن يضمر قتلهم لأنالعنف لم يكن من طبعه ، وهؤلاء هــم سادة الناس ، ومعاوية يعرف ذلك ، وكل ماكان يخشاه هو الاختلاف كما عبر عن ذلك فى نفس الرواية(٥٢) .

وكيفما كان الأمر فقد أخذ معاويةالبيعة لأبنه يزيد ، ولميبق معارضا لهذه البيعة من يعتد به ، سوى الحسين بن على وعبدالله بن الزبير فلم نسمع بأحد غيرهما عارض يزيد بعد موت معاوية ، إلا ماكان من ثورة أهل المدينة ، وهؤلاء قد بايعوا جميعا(٥٣) ، فثورتهم نقض من جانبهم للبيعة .

ولكن ماالدافع الذى جعل معاوية يقدم على أخذ البيعة لابنه ، ويعمل بكل جهده على تحقيقها ؟ ألمجرد أن يزيد ابنه ؟ وهل فكرة ولاية العهد بعيدة عن الإسلام ؟ .

الواقع أن فكرة ولاية العهد لم تكن بعيدة عن الإسلام من الناحية النظرية ، فهذا أمر قد عرف من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده ، كما يقول ابن خلدون : « اذ وقع بعهد أبى بكر رضى الله عنه لعمر، بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضىاللهعنه»(٥٤) .

ولكن هذا يمكن أن يرد عليه بأن أبا بكر عهد إلى عمر لأنه رآه أصلح الناس لتولى الخلافة ، ولم تكن تربطه به صلة قرابة قريبة ، فاختياره له كان اختيارامجردا لله وللدين وللأمة . ثم إن عمر لم يصبح لخليفة بمجرد اختيار أبى بكر ، بل بعد أن شــاور المسلمين فيه ، فاقتنعــوا ورضوا وبايعوه ولو أن معاوية عهد لأحد غير ابنه ، واختار لهــا واحدا ممن هم أفضل منه لما اعترض عليه أحد ، فالاعتراضات جاءت لامن حيث العهد فى حد ذاته ، وإنما من كونه لابنه ، ولكن هل كان دافع معاوية إلى ذلك هو مجرد حبه لابنه فقط ؟ لايستطيع أحد أن يجرد معاوية من حبه لابنه ،

---

(٥٢) المصدر السابق ص ٢١٦ .
(٥٣) المصدر السابق ص ٢١٧ .
(٥٤) المقدمة ج ٢ ص ٦١١

ولكن يبدوا أن الأمر كان أكبر من ذلك بكثير ، فمعاوية بعد التجارب التى رآها من اختلاف المسلمين حول الخلافة وجـد أن المصلحة تقتضى العهد لأحد بعده بالخلافة لاستقرار الأمـور ومنع الخـلاف ، ورأى أنه لو عهد لأحـد من غير بنى أمية لحدث ما كان يخشاه من الخلاف ،لأنهم لن يقبلوا أن تخرج الخلافة منهم ، وعلى هذا بنى ابن خلدون دفاعه عن صنيع معاوية حيث قال : « والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس ، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بنى أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لايرضون سواهم ،وهم عصابة قريش ، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم ، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع ، وإن كان لايظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك ، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه ، فليسوا ممن يأخذهم فى الحق هوادة ، وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق ، فإنهم كلهم أجل من ذلك ، وعدالتهم مانعة منه ... ولم يبق فى المخالفة لهذا العهد الذى اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير وندور المخالف معروف »(٥٥) .

هذه حجة ابن خلدون فى تبرير عمـل معاوية ، وهى حجة قوية لأنها واقعية ، وتؤيدها الوقائع والحوادث اللاحقة ، فعلى سبيل المثال عندما توفى يزيد بن معاوية ، وكان عهد لابنه معاوية وكان ضعيفا عن حمل أعباء الخلافة، فأعلن ذلك ، وكان صريحا مع نفسه — يرحمه الله — فلما طلبوا منه أن يعهد لأحد ، رفض ورد الأمر للأمة(٥٦) . فماذا حدث ؟ .

كان عبدالله بن الزبير قد أخذ البيعة لنفسه فى مكة ، ثم بايعته الحجاز ومصر والعراق وحتى بعض أقاليم الشام ، ورغم ذلك ، فلم يتمله الأمر لأن

---

(٥٥) ابن خلدون — المقدمة ج ٢ ص ٦١٣ — وانظر العواصـم من القواصم لابن العربى ص ٢٢٣ . والدكتور ضياء الدين الريس — النظريات السياسة الإسلامية ص ١٩٣ ... ولاندرى لمـاذا أغفل ابن خلدون ذكر الحسين وقد كان مخالفا للعهد ليزيد كابن الزبير ؟ .

(٥٦) الطبرى — تاريخ — ج ٥ ص ٥٣٠ — ٥٣١ .

بنى امية وانصارهم تغلبوا عليه فى نهاية الأمر ، فلم يكن الأمر فقط مجرد قوة بنى أمية ، ومعهم الأموال والرجال ، ولكن كان معهم كتلة كبيرة تؤيدهم ، وتشد أزرهم ، وبصفة خاصة فى الشام ، فقبائل اليمن فى الشام ، وفى مقدمتهم قبيلة كلب — وهم أخوال يزيد بن معاوية — كانوا قلبا وقالبا مع بنى أمية ، وهم الذين كانوا يرجحون كفتهم فى كل صراع ينشب حول الخلافة .

ثم هناك واقعة اخرى ربما تكون أقوى دلالة فى تأييد رأى ابن خلدون وهى قصة عمر بن عبد العزيز وولاية يزيد بن عبد الملك العهد من بعده ، فلاشك أن عمر بن عبد العزيز كان على يقين بعدم صلاحية يزيد للخلافة ، حتى أن الخوارج فى حوارهم معه لم يستطيعوا أن يفحموه إلا فى هذا الأمر ، حين ارسلوا إليه اثنين منهم ليناظراه فقالا له : « أخبرنا عن يزيد لم تقره لخليفة بعدك ؟ قال : صيره غيرى ، قالا : أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه ، اتراك كنت اديت الأمانة إلى من ائتمنك ؟ فقال لهما : أنظرانى ثلاثة »(٥٧) . ولكنه لم يستطع أن ينزع يزيد من ولاية العهد ويضع بدله واحدا ممن كان يفكر فيهم مثل سالم بن عبدالله بن عمر ابن الخطاب أو القاسم بن محمد بن ابى بكر الصديق ، وذلك لمعارضة بنى أمية له(٥٨) . فخشى إن هو عهد لواحد منهما أن تحدث فتنة فأبقى يزيد وليا للعهد بعده — مع علمه بعدم صلاحيته — تقديرا للواقع . ولايتهم أحد عمر بن عبدالعزيز بالتحيز لابن عمه وإيثاره على مصلحة المسلمين . بل اكثر من هذا فإن سليمان بن عبد الملك عندما عهد لعمر بن عبدالعزيز لما رأى فيه الصلاح والتقوى وتحر للعدل ، متخطيا بذلك إخوته ، لم يجرؤ على ذلك إلا بعد ان ضمن العهد توليته أخيه يزيد بعد عمر ، مع أن عمر ابن عمه ، فأنت ترى هنا أن بنى عبدالملك لم يسمحوا أن تخرج الخلافة منهم إلى ابن عمهم ، إلا بعد أن علموا بأنها ستعود إليهم بعده فى شخص أخيهم يزيد(٥٩) .

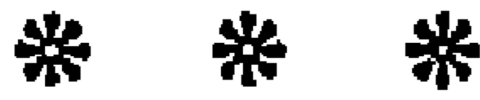
---

(٥٧) الطبرى — تاريخ ج ٥ ص ٥٥٦ .

(٥٨) ابن تيمية — منهاج السنة ج١ ص١٤٦ والدكتور ضياء الدين الريس النظريات السياسية ص ١٩٣ .

(٥٩) انظر الطبرى — تاريخ ج ٦ ص ٥٥٠ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٣٩ .

كل هذا يدل على أن عمل معاوية كان ضرورة فرضها الواقع . ولم يكن لمجرد الميل والعاطفة نحو ابنه كما يذهب بعض الناس — ولو أن الذين عارضوا يزيد وخرجـوا عليه ، قالوا كما قال ابن عمر ، وفعلوا كما فعل ودعوا إلى وحدة الكلمة ، ومنع الخلاف والفرقة ، لما دخلت الأمة فى فتنة جديدة ، ولما سمعنا عن يوم كربلاء ولا يوم الحرة ولا حصار الكعبة(٦٠) .



(٦٠) ومع ذلك كله : فقد يقول قائل : الا تـرى معى أنه لو بحث معاوية رضى الله عنه عن رجل من ذوى الكفاءة — من قريش — واستفتى ذوى الرأى والنهى بشأنه ، ثم وقف وراءه بثقله الكامل وتأييده الصريح ، وطلب من أهل الحل والعقد فى الأمة مبايعته بولاية العهد ، فهل كان يعترض أحد ؟ طبعا لا ، ذلك لأن أمير المؤمنين هو الداعى ، ولأن المرشح لولاية العهد رجل أريد بترشيحه ومبايعته مصلحة الأمة والدولة مجردة من كل شبهة أو عاطفة ! ! الاترى معى أن ذلك كان ممكنا ، وأنه كان محققا للغرض القائل بأن القصد من ولاية العهد هو سد أبواب الخلاف بين المسلمين ، وتجنيب الأمة أخطار التنازع والفتن من جديد ؟ وقد يكون هذا القول وجيها ولكن معاوية على كل حال اجتهد ، فإن كان مصيبـا فله أجـران ، وإن كان مخطئا فله أجر واحـد .

٢ – يزيد بن معاوية
٦٠ – ٦٤ هـ

هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين ، ابوخالد الأموى ، وامه ميسون بنت بحدل بن انيف الكلبى ، ولد سنة خمس أو ست أو سبع وعشرين — للهجرة(٦١) — ويعد من الطبقة الأولى من التابعين ، ويقول ابن كثير: « وقد ذكره أبو زرعة الدمشقى فى الطبقة التىتلى الصحابة وهى العليا ، وله أحاديث ، روى عن أبيه معاوية ، أن رسول الله ﷺ قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » وحديث آخر فى الوضوء وروى عنه ابنه خالد ، وعبد الملك بن مروان »(٦٢) .

فولادة يزيد إذن كانت اثناء ولاية أبيه على الشام فى خلافة عثمان ، فنشأ فى عزالإمارة ومجدها ، وقد عنىمعاوية بتربيته تربية عربية إسلامية فقد أرسله فى طفولته إلى البادية — عند اخواله من بنى كلب ليشب فى أحضان الفطرة ، وخشونة البادية ورجولتها وفتوتها ، وليتعلم العربية النقية ، ولقد اثمرت هذه التربية فى يزيد ، فكان شاعرا فصيحا ، وأديبا لبيبا يحسن التصرف فى المواقف ، حاضر البديهة ،أبى النفس ،عالى الهمة .

قدم زياد يوما على معاوية بأموال كثيرة ، فصعد المنبر ثم افتخر بما يفعله بأرضالعراق ، من تمهيد الملك لمعاوية ، فقام يزيد ، فقال : إن تفعل ذلك يازياد ، فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش ، ومن القلم إلى المنابر ومن زياد بن عبيد إلى حرب بن امية ، فقال معاوية — لابنه — اجلس فداك أبى وأمى(٦٣) .

---

(٦١) نسب قريش للمصعب الزبيرى ص ١٢٧ ، والطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٤٩٩ وابن الاثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ١٢٥ ومابعدها ، ومنهاج السنة لابن تيمية جـ٢ ص ٢٣٧ — والذهبى سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ٣٥ — ٤٠ ، وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٢٦ ومابعدها .

(٦٢) ابن كثير — المصدر السابق حـ ٨ ص ٢٢٦ .

(٦٣) المصدر السابق جـ٨ ص ٢٢

وقد حرص معاوية على تعليم ابنه مكارم الأخلاق ، وفن التعامل مع الناس ، ومجاملاتهم فى المناسبات ، حتى يتحبب إليهم ، وتتوثق الصلات بينه وبينهم ، وفد عبدالله بن عباس على معاوية بعد وفاة الحسن بن على ، فدعا معاوية يزيد ليعزيه فى الحسن ، فلما دخل على ابن عباس رحب به وأكرمه وجلس عنده بين يديه ، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه ، فأبى وقال : إنماأجلس مجلس المعزى ، لا المهنى ، ثم ذكرالحسن ، فقال: رحم الله أبا محمد أوسع الرحمة وأفسحها ، وعظم الله أجرك وأحسن جزاءك ، وعوضك من مصابك ماهو خير لك ثوابا وخير عقبى ، فلما نهض من عنده قال ابنعباس ، إذاذهب بنو حرب ذهب علماءالناس(٦٤) .كما كان معاوية يحرص علىتعليمه التواضع والعدلوالإنصاففقد رآه يضرب غلاما له ، فقال له : « اعلم أن الله اقدر عليكَ منك عليه ، سواة لك ! ! اتضرب من لايستطيع أن يمتنع عليك ؟ والله لقد منعتنى القدرة من الانتقام من ذوى الإحن ، وأن أحسن من عفا لمن قدر »(٦٥) .

وعندما آلت الخلافة إلى معاوية ، حرص على أن يعهد إلى يزيد ببعض الأعمال الكبيرة ، لتدريبه على العمل وإكسابه الجدية ، وتعريف المسلمين به وتهيئته للمنصب الخطير الذى كان يعده له ، وهو منصب الخلافة . فقد أسندإليه قيادة الجيشالذى أرسلهلغزو القسطنطينية سنة ٤٩هـ ، وكان تحت إمرته فى هذا الجيش « ابن عباسوابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى »(٦٦) وهذا الجيش هو الذى وعده الرسول ﷺ بالمغفرة ، فى حديث أم حرام بنت ملحان الأنصارية ، حيث قال : « أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم »(٦٧) ويقول ابن كثير : إن هذا

---

(٦٤) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٢٨

(٦٥) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٢٧

(٦٦) الطبرى — تاريخ — جـ ٥ ص ٢٣٢ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٥٨

(٦٧) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٢٩ ، وابن تيميه — منهاج السنة جـ ٢ ص ٢٤٥

الحديث من أعظم دلائل النبوة(٦٨) ، لأنه تحقق ما أخبر به النبى ﷺ . كما كان معاوية يؤمره على الحج(٦٩) ، وهذه منزلة كبيرة .

وعندما عزم معاوية على العهد ليزيد بالخلافة ، أخذيحمله على حياة الجد والحزم والإقلاع عن حياة الترف والنعومة ، ليؤهل نفسه للمنصب الذى ينتظره ، فعندما تثاقل عن المسير مع الجيش الذى غزا القسطنطينية — المشار إليه آنفــا — اقسم عليه أبوه ليلحقن بالجيش فى أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس(٧٠) . ومن الواضح أن يزيد قــد استجاب ؛ وارتفع إلى مستوى المسئولية الذى أراده له أبوه ، والدليــل على ذلك اشتراك الصحابة معه فى الغزو وعملهم تحت إمرته ، ولو لم يروه أهــلا لذلك لمــا فعلوا .

يزيد الخليفة :

توفى معاوية — رضى الله عنه — فى منتصف شهر رجب سنة ٦٠ هـ فآلت الخلافة إلى يزيد ، فى نفس اليوم الذى مات فيه أبوه ، وكان آنذاك غائبا عن دمشق فأخذ له البيعة الضحاك بن قيس . فلما حضر ، وأقبلت وفود البلدان وأمراء الأجناد ، وأشراف العرب لتعزيته فى أبيه ، وتهنئته بالخلافة ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن معاوية كان حبلا منحبال الله ، مدهالله ماشاء أنيمده ، ثم قطعهحين شاءأن يقطعه ، وكان دون من كان قبله ، وخيرا ممن بعده ، إن يغفر الله له فهو أهله ، وإن يعذبه فبذنبه ، وقد وليت الأمر بعــده ، ولست أعتذر من جهل ، ولا اشتغل بطلب علم ، فعلى رسلكم فإن الله لو اراد شيئا كان ، اذكروا الله واستغفروه » ، ثم نزل ، ودخل منزله ، ثم اذن للناس »(٧١) .

---

(٦٨) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٢٩
(٦٩) الطبرى — تاريخ ٥/٢٤٠
(٧٠) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ — جـ ٣ ص ٤٥٩
(٧١) المسعودى — مروج الذهب — جـ ٣ ص ٧٥ ، وقول يزيد عن أبيه وكان دون من كان قبله فيه إشارةإلى إعترافه بأن عليا كان أفضل من أبيه ولعل هذا يرد على من يزعم أن الأمويين كانوا يلعنون عليا على المنابر .

وقد أجمعت الأمة على بيعة يزيد ، أو بمعنى آخر جددت له البيعة بعد وفاة أبيه ، ولم يشذ على ذلك إلا الحسين بن على وعبدالله بن الزبير رضى الله عنهما(٧٢) وسيكون لكل منهما مع يزيد شأن — كما سنرى — أما بقية الصحابة فقد بايعوا يزيد جمعا للكلمة وحفظا لوحدة الأمة وخوف الفتنـــة ، مثل عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، بل إن عبدالله بن عمر لم يكتف ببيعة يزيد ، وإنما كان يحذر الناس من الخروج عليه ، فقد روى البخارى أنه عندما خلع أهل المدينة طاعة يزيد ، جمع ابن عمر حشمه وولده ، وقال لهم : « إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ينصب لكل غادر لواء يوم القيـــامة ، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإنى لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ، ثم ينصب له القتـــال ، وإنى لا أعلم أحدا منكم خلعه ولا بايع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصل بينى وبينه »(٧٣) .

ولم يكتف ابن عمر بمنع ولده وحشمه من الاشتراك فى الخروج على يزيد وخلع طاعته ، بل سعى فى إخماد الثـــورة ومنع أهل المدينة من خلع طاعة يزيد ، فقد روى مسلم فى صحيحه قال : « جاء عبدالله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان ، زمن يزيد بن معاوية ، فقال : اطرحـــوا لأبى عبد الرحمن وسادة ، فقال : إنى لم آتك لأجلس ، أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله ﷺ يقوله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »(٧٤) .

كما كان لمحمد بن على بن أبى طالب — ابن الحنفية — موقف مماثل لموقف عبد الله بن عمر ، فقد أثنى على يزيد وشهد له بالعدالة والاستقامة وحسن السيرة(٧٥) ، وسنعود لذكر ثورة المدينة تفصيلا — إن شاء الله —

---

(٧٢) أنظر ابن خلدون — المقدمة جـ ٢ ص ٦١٣

(٧٣) الصحيح جـ ٤ ص ٢٣٠ طبعة الحلبى .

(٧٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ٢٤٠

(٧٥) أنظر من شهادة ابن الحنفية ليزيد وثنائه عليه — العواصم من القواصم لابن العربى — هامش ص ٢٢٧ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٢٣٣

ولو قدر لوجهة نظر عبد الله بن عمر ومحمــد بن الحنفية ، وعبد الله بن عباس ، وغيرهم من عقلاء الأمة ، أن تسود فى أوساط المسلمين ، لتفادت الأمة وقوع تلك الفتنة الجديدة والتى أدت إلى هذه الحوادث الدامية ، مثل مقتل الحسين وموقعة الحرة وحصار الكعبة ، تلك الحوادث التى ألقت بظلالها على عهد يزيد ، فأنست الناس مافيه من حسنات وإيجابيات ، حتى أنهم لم يذكروا من هذا العهد إلا أنه فى أول سنة من خلافة يزيد قتل الحسين، وفى الثانية غزيت المدينة وفى الثالثة حوصرت الكعبة . وسوف نرى مدى مسئولية يزيد عن هذه الأحداث .

ومع أننا لانقلل من أهمية هذه الأحداث وآثارها . إلا أننا نستطيع أن نقول إن يزيد حافظ على هيبة الدولة ، وسهر على حراستها ، بل إن حملات الفتح لم تتوقف فى عهده ، ففى نفس السنة التى حدثت فيها ثورة المدينة وموقعة الحرة سنة ٦٣ هـ ، كانت حملة عقبة بن نافع فى شمال إفريقيا ، والتى وصل فيها إلى شاطىء المحيط الأطلسى . ثم واصل غزو بلاد ماوراء النهر ، فعبرت جيوشه تحت قيادة سلم بن زياد نهر جيحون فصالحه أهــل خــوارزم وسمرقند وخجنــده(٧٦) ، كما ظلت حــدود الدولة مع البيزنطيين محروسة ومهابة ، وفى الداخل لم يعكر صفو الدولة الإسلامية فى عهد يزيد سوى أحداث الحجاز — التى أشرنا إليهـــا آنفا وماعدا ذلك فإننا نجد الأمن والاستقرار سائدا فى جميع الأقطار .

ويرجع الفضل فى ذلك إلى تلك السياسة الرشيدة التى خطها معاوية لابنه فى كيفية حكم الدولة وإدارتها ومعاملة الناس(٧٧) حيث قال له قبيل وفاته: «يايزيد اتق الله ، فقدوطأت لك هذا الأمر ، ووليت من ذلك ماوليت، فإن يكن خيرا فأنا أسعد به ، وإن كان غير ذلك شقيت به ، فأرفق بالناس وأغمض عما بلغك من قول تؤذى به وتنتقص به ، وطأ عليه يهنك عيشك ،

---

(٧٦) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥١٠

(٧٧) للانصاف والحقيقة نقول ان يزيد لم يحد عن هذه السياسة التى رسمها له أبوه الا فى مســألة الحسين بن على ، فلو أن يزيد عالج هذه المشكلة بالحلم والحكمة والرفق وعفــا عن الحسين لجنب نفســه ودولته والمسلمين شرا كبيرا .

وتصلح لك رعيتك ، وإياك والمناقشة وحمل الغضب ، فإنك تهلك نفسك ورعيتك ، وإياك وخيرة أهل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم ، ولن لهم بحيث لايروا منك ضعفا ولاخورا ، وأوطئهم فراشك وقربهم إليك وادنهم منك ، ولا تهنهم ولا تستخف بحقهم ، فيهينوك ويستخفوا بحقك ويقعوا فيك ، فإذا أردت أمرا فادع أهل السنوالتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى ، فشاورهم ولاتخالفهم وإياك والاستبداد برأيك فإن الرأى ليس فى صدر واحد وصدق من أشار عليك إذا حملك على ماتعرف ، واخزن ذلك عن نسائك وخدمك ، وشمرإزارك ، وتعاهدجندك ، وأصلح نفسك تصلح لك الناس ، ولاتدع لهم فيك مقالا ، فإن الناس سراع إلى الشر ، واحضر الصلاة ، فإنك إذا فعلت ما أوصيتك به عرف الناس لك حقك ، وعظمته فى أعين الناس ، واعرف شرف أهل المدينة ومكة فإنهم أصلك وعشيرتك ، واحفظ لأهل الشام شرفهم فإنهم أهل طاعتك ، واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب تعدهم فيه منك بالمعروف ، فإن ذلك يبسط آمالهم ، وإن وفد عليك وافد من الكور كلها فأحسن إليهم وأكرمهم . فإنهم لمن ورائهم ، ولا تسمعن وقل قائف ولا ماحل ، فإنى رأيتهم وزراء سوء »(٧٨) .

وقد حاول يزيد ترسم هذه السياسة التى تضمنتها هذه الوصية التى تعتبر من أهم الوثائق فى فن الحكم والسياسة والإدارة والتعامل من الناس فقد داب على إكرام أشراف الحجاز ، وبصفة خاصة بنو هاشم ، مثل عبدالله بن جعفر وعبدالله بنعباس ، ومحمد بن على بن أبى طالب، وعلى ابن الحسين وغيرهم ، فلما وفد عليه عبدالله بن جعفر بنأبى طالب(٧٩) . وكانت جائزته على عهد معاوية ستمائة الف « فاعطاه يزيد الف الف ، فقال له ، بأبى أنت وأمى ، فأعطاه الفالف أخرى ، فقال له ابن جعفر :واللهلا

---

(٧٨) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٢٩ — ٢٣٠

(٧٩) كان معاوية قد وصى يزيد بعبدالله بن جعفر وصية خاصة ، حيث قال له: « إن لى خليلا من أهل المدينة فاكرمه ، قال : ومن هو ؟ قال : عبد الله بن جعفر « انظر البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٠ ، وكان معاوية ويزيد من بعده يغدقان على ابن جعفر لأنه كان جوادا وكان يفيض مما يعطيانه على أهل المدينة جميعا .

اجمع ابوى لأحد بعدك . ولما خـرج ابن جعفر من عنـده رأى على باب يزيد بخاتى مبركات ، قد قدم عليها هدية من خراسان ، فرجع عبد الله بن جعفر إلى يزيد فسأله منها ثلاث بخاتى ليركب إلى الحج والعمرة : وإذا وفد إلى الشام على يزيد . فقال يزيد للحاجب ماهذه البخاتى التى على الباب ؟ — ولم يكن شعر بها — فقال يا أمير المؤمنين : هذه أربعمائة بختيه جاءتنا من خراسان ، تحمل أنواع الألطاف ، وكان عليها أنواع من الأموال كلها ، فقال : « اصرفها إلى أبى جعفر بما عليها . فكان عبدالله بن جعفر يقول : أتلومونى على حسن الرأى فى هذا ؟ يعنى يزيد »(٨٠) .

احسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالمـا استعبد الإنسان احسان

ولم تكن سماحة يزيد قاصرة على بنى هـاشم ، بل كانت تعم أهل الحجاز جميعا حتى إنها شملت أولئك الذين ثاروا عليه وخلعوا طاعته من أهل المدينة فقد جاءه وفد من شيوخ المدينة ، وفيهم عبدالله بن حنظلة ومعه ثمانية بنين له فأعطـاه مائة ألف « وأعطى بنيه كل رجل منهم عشرة آلاف درهم ، سوى كسوتهم وحملانهم فلما قدم عبدالله بن حنظلة المدينة أتاه الناس ، فقالوا ما وراءك ؟ قال اتيتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بنى هؤلاء لجاهدته بهم ، قالوا : فإنه بلغنا انه أجازك وأكرمك وأعطاك ، قال: قد فعل ، وما قبلت ذلك منه إلا لاتقوى بـه عليه(٨١) ، ثم قاد الثورة ضد يزيد وخلع طاعته .

وللعلماء فى يزيد رأى حسن — رغم مآخذهم عليه — فابن كثير يلقبه بأمير المؤمنين — وقال عنه : « وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأى فى الملك ، وكان ذا جمال ، حسن المعاشرة »(٨٢) . ويقول خليفة بن خيـاط : « قرئى على

---

(٨٠) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٠ ، والذهبى — سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٣٩ ، محمد كرد على — الاسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ١٦١ — ١٦٢

(٨١) تاريخ ابن خياط ص ٢٣٧

(٨٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٠

ابن بكير وانا أسمع عن الليث — ابن سـعد — قال : توفى أمير المؤمنين يزيد فى سنة أربع وستين ليلة البدر فى شهر ربيع الأول »(٨٢ م) .

واعتبر أبو بكر بن العربى هذهشهادة ثقة من الليث بن سعد ليزيد ، فقال : « فسماه الليث امير المؤمنين ، بعد ذهاب ملكهم وانقراض دولتهم ، ولولا كونه عنده كذلك ماقال : إلا توفى يزيد »(٨٣) .

ولو درس تاريخ يزيد دراسـة رائدها البحث عن الحقيقة مجردة عن الهوى والميول والعواطف ، لتغيرت نظرة كثير من الناس إليه ، ولأخذ مكانه الصحيح بين الخلفاء فى التاريـخ الإسلامى ،فليس هناك إنسـان معصوم من الخطأ ، ولايعقل أنيحكم يزيد دولة متراميةالأطراف ولهاوفيها الكثير من المشاكل ولايكون له أخطاء ، وسيئآت ، فهو كما يقول ابن تيمية « كأمثاله من خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، وهؤلاء الخلفاء لم يكن فيهم من هو كافر ، بل كلهم كانوا مسـلمين ، ولكن لهم حسنات وسيئات كأكثر المسلمين ، وفيهم من هو خير وأحسن سيرة من غيره »(٨٤) .

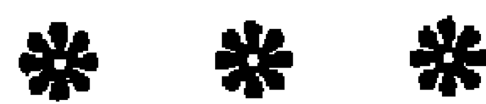
ولعل من احكم ماقيل فى شأن يزيد وخلافته لتسكين الفتنـة وعدم تفريق الكلمة ، ونصيحة الأمة بالتآخى ، ماثبت عن حميد بن عبد الرحمن انه قال : دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حين اسـتخلف يزيد بن معاوية فقال : تقولون إن يزيد بن معاوية ليس بخير أمة محمد ، لا أفقهها فقها ، ولا أعظمها فيها شرفا ، وأنا اقول ذلك ، ولكن والله لأن تجتمع امة محمد أحب إلى من أن تفترق ، أرأيتم بابا دخل فيه أمة محمـد ووسعهم ، أكان يعجـز عن رجل واحـد لو كان دخل فيه ؟ قلنا : لا . قال : أرأيتم لو أن أمة محمد قال كل رجل منهم لا أريق دم أخى ولا آخذ ماله ، أكان يسعهم ؟ قلنا : نعم قال : فذلك ما اقول لكم . ثم قال : قال رسول الله ﷺ لاياتيك من الحياء إلا خير »(٨٥) .

(٨٢ م) تاريخ خليفة ص ٢٥٣
(٨٣) العواصم من القواصم ص ٢٢٨
(٨٤) انظر — سؤال فى يزيد بن معاوية ص ١٣
(٨٥) العواصم من القواصم ص ٢٢٦

هذا قول ومنطق الصحابة ، الحريصين على وحدة الأمة وسلامتها ، ولو قدر لهذا المنطق أن يسود لتغير وجه التاريخ الإسلامى . لأنه ما من شك فى أن احـداث عهد يزيد — والتى كان موقفه فيها رد فعل — كان لها نتائج خطيرة ، أثرت ولا زالت تؤثر فى مجريات هذا التاريخ .

وفـاة يزيـد :

توفى يزيد بن معاوية بحوارين — قرية من قرى حمص — بالشـام لأربع عشرة ليلة خلتمن شهر ربيع الأول سنة٦٤هـ ، وهوابن ثمانوثلاثين سـنة ، وقيل تسع وثلاثين(٨٦) ، وقد خلف اثنى عشر ولدا ذكرا واربع بنات(٨٧) ، وكان يزيد قد عهد لابنه معاوية ، وقد بويع معاوية بالخلافة بعد موت أبيه(٨٨) ، ولكنه لم يباشر مهام الخلافة وتنازل عنها ، ولم يعهد إلى أحد واعتكف فىبيته إلى أن توفى ، وظلالأمر مضطربا على بنى أمية ، حتى اجتمعت كلمتهم فى مؤتمر الجابية ، فى مستهل ذى القعدة سـنة ٦٤ هـ على بيعة مروان بن الحكم .



(٨٦) انظر الطبرى جـ ٥ ص ٤٩٩

(٨٧) ابن قتيبة — المعارف ص ٣٥١ ، ويصل ابن كثير بعدد اولاد يزيد الذكور الى خمسة عشر ولدا . انظر البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٨٨) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٥٥ — والطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٥٠١ وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٧

٣ – معاوية بن يزيد
٦٤ هـ

هو معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وأمه أم هاشم بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة(٨٩) ، وكان يلقب بأبى عبد الرحمن وأبى يزيد ، وكان شابا ورعا تقيــا ، عهد إليه أبوه بالخلافة ، فبويع له بهــا يوم وفاته وهو الرابــع عشر من شهر ربيــع الأول سنة ٦٤ هـ(٩٠) ، ومع أنه أصبــح الخليفة الثالث فى سلسلة خلفاء بنى أمية من النــاحية النظرية ، إلا أنه لم يباشر عمله كخليفة . حيث كان ضعيفا عن النهوض بتبعات المنصب ، وكان صادقا مع نفســه ومع الناس ، فأعلن ذلك صراحة ، يروى ابن كثير أنه بعد أن صلى على أبيه وتم دفنه ، وأقبل عليه الناس وبايعوه بالخلافة ، نادى فى الناس الصلاة جامعة ، وخطب فيهم ، وكان مما قال : « أيها الناس إنى قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه ، فإن أحببتم تركتها لرجل قوى ، كما تركها الصديق لعمر ، وإن شئتم تركتها شورى فى ستة كما تركها عمر بن الخطاب ، وليس فيكم من هو صــالح لذلك ، وقد تركت أمركم ، فولوا عليكم من يصلح لكم ، ثم نزل ودخل منزله ، فلم يخرج حتى مات ، رحمه الله تعالى »(٩١) أراد معاوية بن يزيد أن يقول لهم : أنه لم يجــد مثل عمر ، ولا مثل أهل الشــورى ، فترك لهم أمرهم يولون من يشاؤون وقد جــاء ذلك صريحا فى رواية أخرى للخطبة عند ابن الأثير قال فيهــا : « أما بعد فإنى ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين أستخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم ، ثم دخل منزله وتغيب حتى مات »(٩٢) واعتبر هــذا الموقف منه دليلا على

---

(٨٩) انظر ترجمته فى ســير أعلام النبلاء للذهبى ج ٤ ص ١٣٩ ، وتاريخ خليفة ابن خياط ص ٢٥٥ ، والمعارف لابن قتيبه ص ٣٥٢ ، والبداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٧

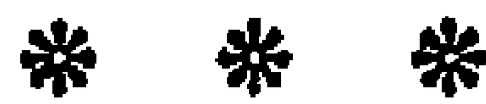
(٩٠) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٥٥ ، والطبرى ج ٥ ص ٥٠١

(٩١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٨

(٩٢) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ١٣٠

عدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثة فقد رفض أن يعهد لأحـــد من أهل بيته حينما قالوا له اعهد إلى أحد من أهل بيتك ، فقال : « والله ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فكيف أتقلد وزرها ، وتتعجلون أنتـــم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ، اللهم انى برىء منها متخل عنها »(٩٣) .

وقد أعقب ذلك فترة من الفتن والصراع بين الأمويين وابن الزبير ، انتهت لصـــالح الأمويين ، الذين استطاعوا تدارك الموقف وبايعوا لمروان ابن الحكم بالخلافة فى مؤتمر الجابية فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ . وخلال الفترة التي عاشها معـــاوية بن يزيد بعد أن بويع بالخلافة وحتى وفاته ، والتى يختلف المؤرخون فى تحديدها ، ما بين أربعين يوما وأربعة شـــهور ، كما اختلفوا فى تقديرسنة ما بين ثمانيةعشرعاما وواحدوعشرين عاما ، فى خلال هذه الفترة ، ظل الضحاك بن قيس الفهرى يصلى بالناس فى دمشق ويصرف الأمور ، حتى انتهى الأمر إلى بيعة مروان بن الحكم »(٩٤) .



(٩٣) المسعودى — مروج الذهب جـ ٣ ص ٨٢

(٩٤) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٥٥ ، والمسعودى — مروج الذهب جـ ٣ ص ٨٢ — والطبرى — تـــاريخ جـ ٥ ص ٥٠١ وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٧

٤ ـ مروان بن الحكم
٦٤ ـ ٦٥ هـ

هو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى أبو عبد الملك ، ويقال أبو الحكم وأبو القاسم ، وهو صحابى عند طائفة كثيرة من المؤرخين لأنه ولد بعد عبد الله بن الزبير باربعة اشهر ، والمعروف أن ابن الزبير ولد فى السنة الأولى من الهجرة ، وعلى هذا يكون مروان قد بلغ العاشرة تقريبا ، عند وفاة النبى ﷺ ولذلك عده البعض من الصحابة وإن كان ابن سعد فى الطبقات يعده فى الطبقة الأولى من التابعين . والأصح أنه من الصحابة(٩٥) . وقد روى عن النبى ﷺ حديثا فى صلح الحديبية والحديث فى صحيح البخارى عن مروان والمسور بن مخرمة(٩٦) ، كما روى مروان الحديث عن طائفة من كبار الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت وبسيرة بنت صفوان الأزدية ، وكانت خالته وحماته ، وروى عنه طائفة من التابعيين منهم ابنه عبد الملك ، وسهل بن سعد وسعيد ابن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلى بن الحسين — زين العابدين — ومجاهد وغيرهم(٩٧) .

وقد كان مروان من سادات قريش وفضلائها ، روى ابن كثير عن الشافعى أنه قال : « كان على يوم الجمل حين انهزم الناس يكثر السؤال عن مروان ، فقيل له فى ذلك : فقال : « أنه يعطفنى عليه رحم ماسة ،

---

(٩٥) انظر ترجمته فى سير أعلام النبلاءوللذهبى جـ٣ص٤٧٦ وطبقات ابن سعد جـ٥ ص٣٥ ، ونسبقريش للمصعب الزبيرىص١٥٩ ، والطبرى — تاريخ جـ٥ ص٥٣٥ والمعارف لابن قتيبة ص٣٥٣ ، ومروج الذهب للمسعودى جـ٣ ص٩٨ ، وأسد الغابة لابن الأثير جـ٥ ص١٤٤ — والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٢٥٧

(٩٦) انظر الصحيح جـ ٣ ص ٤٣ طبعة الحلبى .

(٩٧) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٥٧ — ورواية عروة عن مروان فى البخارى جـ ٣ ص ٦٢ ورواية زين العابدين عنه فى منهاج السنة لابن تيمية جـ ٢ ص ١٢٣

وهو سيد من شباب قريش »(٩٨) . ويقول عنه ابو بكر بن العربى « ومروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين ، وفقهاء المسلمين ... واما فقهاء الأمصارفكلهم على تعظيمه ، واعتبارخلافته والتلفت إلى فتواء ، والانقياد إلى روايتـــه »(٩٩) . ويعتبره ابن تيمية من أقران عبدالله بن الزبير(١٠٠) . ويقول عنه الذهبى : « وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء »(١٠١) وروى عن قبيصة بن جابر قال : قلت لمعـــاوية : من ترى للأمر بعـــدك ؟ فسمى رجالا ، ثم قال : واما القـــارىء الفقيه ، الشديد فى حدود الله مروان — كذا — »(١٠٢) ويروى ابن كثير عن الشافعى ، قال « انبأنا حاتم بن اسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أن الحسن والحسين — رضى الله عنهما كانا يصليان خلف مروان — أثناء ولايته على المدينة لمعاوية — ولايعيدانهـــا ، ويعتدان بها »(١٠٣) . وكان مروان ذا شهامة ومرؤة ، يروى أنه كان دائنا لعلى بن الحسين بستة آلاف دينار ، فلما حضرته الوفاة أوصى ابنه عبد الملك ألا يسترجع منه شيئا ، ولكن عليا امتنع عن قبولها فألح عليه عبد الملك فقبلها(١٠٤) .

كان مروان كاتب ابن عمه الخليفة عثمان بن عفان ، وصاحب سره ، وكان الناقمون على عثمان يحملونه مسئولية مازعموا أنه أخطاء وقعت من عثمان ، كما أتهموه بانه هو الذى كتب الكتاب الذى زعم الثوار المصريون انهم وجدوه مع غلام عثمان . فانكر مروان علمه بالكتاب ، كما أنكر ذلك

(٩٨) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٥٧ — وانظر كذلك سير اعـــلام النبلاء جـ ٣ ص ٤٧٧

(٩٩) العواصم من القواصم ص ٨٩ — ٩٠

(١٠٠) منهاج السنة جـ ٣ ص ١٨٩

(١٠١) سير اعلام النبلاء جـ ٣ ص ٤٧٧

(١٠٢) سير اعلام النبلاء جـ ٣ ص ٤٧٧ وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٥٧

(١٠٣) البداية والنهاية جـ٨ ص٢٥٨ — ولعلّ هذاالخبر يعتبر دليلا آخر على الذين يدعون أن الأمويين كانوا يسبـــون عليا على المنابر ، إذ كيف يصلى الحسن والحسين خلف مروان إذا كان يسب اباهما ؟

(١٠٤) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٥٨

عثمان نفسه(١٠٥) . ولما حاصر الثوار عثمان قاتل مروان يوم الدار . ثم انضم إلى عائشة وطلحة والزبير ، وحارب معهم يوم الجمل ، وجرح فيها وقد مر بك أن عليا رضى الله عنه أكثر السؤال عنه ثم التقى به فامنه فبايعه ، وعاد إلى المدينة(١٠٦) . ولم يحضر صفين مع معاوية .. ومع ذلك فقد ولاه معاوية بعد أن أصبح خليفة المدينة أكثر من مرة ، حيث جعلها دولة بينه وبين سعيد بن العاص ، بل يروى المسعودى(١٠٧) . ان معاوية كان قد جعل مروان ولى عهد بعد ابنه يزيد ، لما رآه غاضبا على تولية يزيد حيث قال له : « أقم الأمور يا ابن أبى سفيان واعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك من قومك نظراء ، فقال له معاوية أنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته فى كل شديدة ، وعضده ، والثانى بعد ولى عهده » ولكنه عزله عنها ، فإن صحت رواية المسعودى هذه فإنها تدل على مكانة مروان وقوة شخصيته ، بحيث كان معاوية يداريه ويسترضيه والأخبار التى ترويها المصادر عن مروان أثناء ولايته المدينة ، تدل على انه كان يتحرى العدل ، ويستشير صلحاء الناس فى الأمر . يروى ابن كثير أنه لما كان مروان واليا على المدينة ، « كان إذا وقعت معضلة جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها ، وهو الذى جمع الصيعان فأخذ بأعدلها ، فنسب إليه فقيل صاع مروان »(١٠٨) .

وروى عن الإمام احمد انه قال : « كان عند مروان قضاء ، وكان يتتبع قضايا عمر بن الخطاب »(١٠٩) . وقد كان يحج بالناس فى إمارته على المدينة .

---

(١٠٥) تقدم الحديث مفصلا عن هذا الموضوع عند حديثنا عن الفتنة فى عهد عثمان .

(١٠٦) الذهبى — سير اعلاء النبلاء جـ ٣ ص ٤٧٩

(١٠٧) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٨

(١٠٨) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٥٨

(١٠٩) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٥٨ ، وسير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٤٧٧

مروان والخلافـــة :

رفض معاوية بن يزيد أن يعهد بالخلافة لأحد من بنى أمية ، بعـــد عجزه عن القيـــام بأعبائها وترك الأمر شـــورى بين المسلمين يولون من يحبون ، فاضطرب أمر بنى أمية اضطرابا شديدا وكادت تذهب دولتهم ، وانتهز عبد الله بن الزبير تلك الفرصة فأعلن تنصيب نفســـه خليفة فى مكة ، وبدأت البيعة تأتيه من سائر الأقاليم ، من العراق ومصر ، بل من الشام ذاتها ، التى انقسم أهلها إلى فريقين ، فريق مال إلى ابن الزبير وهم القيسيون بزعامةالضحاك بنقيس ، والفريق الآخرظل على الولاء لبنى أمية ، وهم اليمنيون فى الشام بزعامة حسان بن مالك الكلبى وغيره من زعمائهم .

وكان مروان وبنوه فى المدينة عند وفاة يزيد بن معاوية فأخرجهم منها عبدالله بن الزبير ، فرحلوا إلى الشـــام ، فلما وصلوها ، وجـــدوا الأمر مضطربا والانقسامات على أشدها . مماجعل مروان يفكر فى العودة إلى الحجاز ، ومبايعة عبد الله ابن الزبير(١١٠) .

تعديل الموقف لصالح بنى امية :

وبينما مروان يدير هذه الفكرة فى رأسه ، وصل إلى الشام عـــدد من رجـــال بنى امية البارزين أمثـــال الحصين بن نمير السكونى ، الذى كان يحاصر ابن‌الزبير فى مكة ، وعبيدالله بن زياد الذىكان فى البصرة عند وفاة يزيـــد فاضطرب عليه الموقف ، ولمـــا عجـــز عن السيطرة عليه هرب متخفيا إلى الشام ، وكان وصول هذين وأمثالهما إلى الشام نقطة تحول فى تاريـــخ الدولة الأموية ، فلو تأخر وصولهـــم ، وذهب مروان لمبايعة ابن الزبير ، لكان فى ذلك نهاية الدولة الأموية ، ولكن هؤلاء الرجال عملوا على إنقاذ الموقف ، واستحثوا عزيمة الأمويين واستثاروا حميتهم وبخاصـــة مروان الذى قال له عبيد الله بن زياد حينما علم بعزمه علـــى مبايعة ابن الزبير : « قد استحييت لك من ذلك ، أنت كبير قريش وسيدها ،

(١١٠) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ١٤٥

تمضى إلى أبى خبيب — يقصـــد ابن الزبير — فتبايعه . فقال له مروان : مافات شيء بعد »(١١١) . تطلعت آمال مروان إلى الخلافة لكن الأمر لم يكن سهلا ، فأمامه صعوبات كثيرة ، فقد كان القيسيون بالشام قد بايعوا لعبد الله بن الزبير كما أن اليمنيين — أنصـــار بنى أمية — كانوا منقسمين إلى فريقين فريق يميل إلى بيعة خالد بن يزيد بن معاوية ، ويتزعمه حسان ابن مالك بن بحدل الكلبى ، ومالك بن هبيرة السكونى . والفريق الآخر يميل إلى بيعة مروان ، ويتزعمه ، روح بن زنباع الجذامى ، والحصين بن نمير السكونى ، ومعهم عبيدالله بن زياد . لقد كان توحيد موقف أنصار الأمويين على رجل واحد ، هو نصف الطريق إلى النجاح ، وبعد مناقشات ومداولات ، بل ومساومات ، تغلب الفريق الثانى ، الذى يؤيد مروان ، وكانت حجتهم فى ذلك أن خالد بن يزيد لايزال صغيرا ، وليس نـــدا لابن الزبير ، فقد قالوا لمعارضيهم : « لا والله لاتأتينا العرب بشيخ — يقصدون ابن الزبير — ونأتيهم بصبى »(١١٢) فاتفقوا على حل يرضى عنه الجميع وهو ان تكون البيعة بالخلافة لمروان ، ثم من بعده لخالد بن يزيد ، ومن بعده لعمرو بن سعيد الأشدق ، واتفقوا على عقد مؤتمر فى الجابية لانهاء المشـــكلة .

ومن هنا بدأت الأمور تسير لمصلحة بنى أمية ، حتى أن الضـــحاك ابن قيس زعيم الفريق الذى مال إلى ابن الزبير ، بل بايعه ، مال إلى بنى أمية من جديد — فقد كان من أقرب رجال معاوية وابنه يزيد وكان الحاكم الفعلى لدمشق منذ وفاة يزيد وحتى بيعة مروان — وارسل إليهم يعتذر عن خروجه عن طاعتهم وأعلن أنه سيحضر مؤتمر الجابية ، ولكنه لم يستطع المضى فى خطته ، فقد مورست عليه ضغوط للبقاء على بيعته لابن الزبير ، من رجاله ، وبصفة خاصة ثور بن معن السلمى(١١٣) . فلم يذهب إلى الجابية ، بل ذهب إلى مرج راهط ، حيث دارت المعركة الحاسمة بينه وبين مروان .

---

(١١١) المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٥
(١١٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٥
(١١٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٧

لم يؤثر موقف الضحاك بن قيس ، وتذبذبه ، على بنى أمية ، فقد أحكموا أمرهم ومضوا فى خطتهم ، وعقدوا مؤتمرهم التاريخى فى الجابية ، وبايعوا لمروان بالخلافة فى الثالث من ذى القعدة سنة ٦٤ هـ (١١٤) .

مروان الخليفـــة :

تمخض مؤتمر الجابية عن انتقال الخـــلافة من البيت السفيانى إلى البيت المروانى وانعقدت البيعة لمروان ، وأخـــذ مكانه فى التاريخ ، رابع الخلفاء الأمويين ، بل مؤسسا لدولة مروانية ، ورثهـــا أبناؤه وأحفاده من بعـــده .

حل مؤتمر الجابية ، مشكلة الخلافة — بين بنى أمية — وكانت هذه خطوة موفقة وحاسمة ، ولكن لم يكن تثبيت هـــذا الأمر سهلا ، فلازالت تعترضه صعوبات كبيرة ، فالضحاك بين قيس ، زعيـــم الجناح القيسى المناصر لابن الزبير قد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصارى والـــى حمص وزفر بن الحارث الكلابى ، أمير قنسرين ، وكان واضحا أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة ، والدفاع عنها وقد حقق أنصـــار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك عنها ، وكان هذا أول فتح على بنى أمية على حـــد تعبير ابن الأثير(١١٥)، ولم يضيع مروان وقتا ، فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن فى الشـــام ، كلب وغسان والسكاسك والســـكون ، وجعل على ميمنته ، عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته عبيدالله بن زياد ، واتجـــه إلى مرج راهـــط ، فدارت المعـــركة الشهيرة ، التى حسمت الموقف فى الشام لبنى أمية ومروان ، حيث هزم القيسيون ، أنصار ابن الزبير وقتل زعيمهم الضحاك بن قيس ، وعـــدد كبير من أشراف قيس فى الشام واستمرت المعركة حوالى عشرين يوما ، وكانت فى نهاية سنة٦٤ هـ وقيل فى المحرم سنة ٦٥ هـ(١١٦) .

---

(١١٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٩

(١١٥) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ١٥٠ .

(١١٦) الطبـــرى جـ٥ ص ٥٣٤ — ٥٣٥ وابن الأثير — المصـــدر السابق ج ٤ ص ١٤٩ — ١٥٠ .

مروان يستولى على مصر :

مكن انتصار مروان فى معركة مرج راهط لدولته فى الشام ، فبسط نفوذه عليها ، وكانت خطوته التالية المسير إلى مصر لاستردادها من عامل ابن الزبير ، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء مروان ، فلمصر أهميتها الكبيرة واستيلاؤه عليها يدعم موقفه فى مواجهة ابن الزبير ، ولم يكن استيلاؤه عليها صعبا ، فمعظم المصريين هواهم مع بنى أمية ، وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة ، وإنما كانت بيعة ضرورة . يقول الكندى(١١٧) : « لما قدم عبد الرحمن ابن جحدم — واليا على مصر من قبل ابن ازبير ومعه الخوارج الذين لايجمعهم وابن الزبير إلا العداء لبنى أمية — بايعه الناس على غل ، ثم دعا شيعة بنى أمية مروان سرا » وهذا مايفسر سهولة استيلاء مروان على مصر فقد سار إليها بجيشه ، ومعه عمرو بن سعيد ، وخالد بن يزيد ابن معاوية وحسان بن مالك ومالك بن هبيرة وابنه عبدالعزيز(١١٨) . ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم ، ثم جاء إلى مروان طالبا العفو عنه على أن يخرج إلى مكة ، فعفا عنه . وكان نجاح مروان فى استرداد مصر فى جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ(١١٩) واقام فى مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها .

ولما أزمع العودة إلى الشام عين ابنه عبدالعزيز واليا عليها . وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية ، وخبرة واسعة ، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه فى مصر فقال لأبيه : ياأمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فقال له : « يابنى عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك واجعل وجهك طلقا تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عينا لك على غيره ، وينقاد قومه

---

(١١٧) الولاة والقضاة ص ٤١ — ٤٢ .

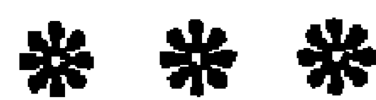
(١١٨) الكندى — المصدر السابق ص ٤٢ .

(١١٩) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٥٦ وابن الاثير — الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ١٥٤ والكندى — الولاة والقضاة ص ٤١ ومابعدها .

إليك ، وقد جعلت معك أخاك بشراموئنسا ، وجعلت موسى بن نصير وزيرا ومشيرا وما عليك يابنى أن تكون أميرا بأقصى الأرض ، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك فى منزلك »(١٢٠) .

عاد مروان إلى الشام ليواجهخطر ابن الزبير ، ولكن الأجل لم يمهله فقد مات فى الثالث من رمضان سنة ٦٥ هـ(١٢١) تاركا هذه المهمة لابنه عبد الملك ، فقدكانمروان بالاتفاق مع زعماء الشام — وبصفةخاصة حسان بن مالك ، الذى كان أكبر المؤيدين لخالد بن يزيد — قد أقنعهم بعدم قدرة خالد ابن يزيد على التصدى لابن الزبير ، ومن ثم نجح فى إقناعهم بالموافقة على البيعة لابنه عبد الملك ثم عبد العزيز ، واعتبر ماتم فى الجابيـــة من العهد لخالد بن يزيد بعد مروان ، ومن بعده عمرو بن سعيد ، اعتبر هـــذا أمر ضرورة ، وقد زالت الضرورة الآن .

وحسب مروان انه فى أقل من عـــام أعاد تأسيس الدولة الأموية ، واسترد الشام ومصر ، وترك لابنه عبد الملك مهمة توحيد الدولة الاسلامية من جديد . وقد خلف مروان عشرة من الزكور وثلاثا من الاناث(١٢٢) .



---

(١٢٠) الكندى — المصدر السابق ص ٤٧ .

(١٢١) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٦٢ — وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ١٩١ .

(١٢٢) المعارف لابن قتيبة ص ٣٥٤ .

٥ ـ عبد الملك بن مروان
٦٥ — ٨٦ هـ

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، أبو الوليد أمير المؤمنين ، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية ، ولد فى المدينة سنة ٢٦ هـ فى خلافة عثمان بن عفان(١٢٣) . ونشأ بها نشأة علمية ، وتتلمذ على كبار الصحابة من أهل المدينة ، وروى عنهم الحديث مثل عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وأبى سعيد الخدرى وأبى هريرة ، كما روى عن أم المؤمنين أم مسلمة ، وبريرةمولاة عائشة . كما روى عن أبيه وعن معاوية بن أبى سفيان ، وكان يكثر من مجالسة العلماء والصالحين . وروى عنه جماعة من التابعين ، منهم خالد بن معدان ، وعروة بن الزبير ، والزهرى ، وعمرو بن الحارث ، ورجاء بن حيوه ، وجرير بن عثمان(١٢٤) وكان من فقهاء المدينة المعدودين ، روى الأعمش عن أبى الزناد قال : « كان فقهاء المدينة أربعة ، سعيد بن المسبب وعروة وقبيصة بن ذؤيب وعبدالملك بن مروان »(١٢٥) وفى رواية أخرى لنافع أنه قال : « لقد رايت المدينة ومافيها أشد تشميرا ولاأفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان »(١٢٦) .

وكان يلقب بحمامة المسجد لملازمته له ، والأخبار متواترة على فقه عبد الملك وغزارة علمه ورجاحة عقله ، قال الذهبى : « ذكرته لغزارة علمه »(١٢٧) وقال الشعبى : « ماجالسنت أحدا إلا رايت لى الفضل عليه

---

(١٢٣) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٢٢٣ — المعارف لابن قتيبة ص ٣٥٥ ، تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٦٩ ، مروج الذهب للمسعودى جـ ٣ ص ٩٩ — البداية والنهاية لابن كثير حـ ٨ ص ٢٦٠ — النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ١ ص٢١٢ — سير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٤ ص ٢٤٦ ومابعدها — ابن الأثير — الكامل جـ ٤ ص ٥١٩ .

(١٢٤) البداية وانهاية لابن كثير جـ ٩ ص ٦٢.

(١٢٥)المصدر السابق جـ ٩ ص ٦٢.

(١٢٦) المصدر السابق جـ ٩ ص ٦٢.

(١٢٧) سير اعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٤٦

إلا عبد الملك بن مروان »(١٢٨)وروى عن عبدالله بن عمر قوله : « ولد الناس أبناء وولد مروان أبا »(١٢٩) . وقد أحتج الامام مالك بقضاء عبد الملك بن مـــروان فى أمر المكاتب(١٣٠) . ويقول ابن خلدون : « وعبدالملك صاحب ابن الزبير ، أعظم الناس عدالة ، وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفقهه ، وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبـــير ، وهما معه بالحجـــاز »(١٣١) .

قضى عبد الملك معظم حياته قبل أن يلى الخلافة فى المدينة ، ينهل من علم علمائها وفقهائهـــا ، ويتأدب بآدابهم ، ولم يكن يغادرهـــا إلا للحج أو الغزو ، فقد اشترك فى غـــزو أفريقية فى عهد معاوية ، روى خليفة بن خياط : « أن معاوية كتب إلى مروانوهو نائبه على المدينة .. ، أن أبعث ابنك عبدالملك على بعث المدينة ، إلى بلاد المغرب ، مع معاوية بن حديج ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته فى تلك البلاد شيئا كثيرا(١٣٢) » وكثيرا ماكان يشترك فى غزو بلاد الروم(١٣٣) .

وعندما خلع أهل المدينة طاعة يزيد بن معاوية ، أخرجوا بنى أمية وطردوهم منهـــا ، فأعادهـــم إليها مسلم بن عقبة ، وشهدوا معه معركة الحرة ســـنة ٦٣ هـ ولكن عبد الله ابن الزبير أخرجهم منهـــا ثانية بعـــد وفاة يزيد ، فخرج عبد الملك معهم إلى الشام وشارك فى الأحداث التى أدت إلى بيعة أبيه فى مؤتمـــر الجابية فى مستهل ذى القعدة سنة ٦٤ هـ . ولمـــا توجه أبوه إلى مصر — بعد معركة مرج راهط — تركه نائبـــا عنه

---

(١٢٨) المصدر السابق جـ٤ ص٢٤٨ — وابنكثير — البدايةوالنهاية جـ ٩ ص ٦٢

(١٢٩) سير اعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٤٨ — والبداية والنهاية جـ ٩ ص ٦٢

(١٣٠) الموطأ — طبعة الشعب ص ٤٩٣

(١٣١) المقدمة جـ ٢ ص ٦٢٣

(١٣٢) تاريخ خليفة — ص ٢١٠ — ٢١١

(١٣٣) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ٦٢.

فى دمشق ، ولما عاد مروان من مصر وتوفى فى رمضان سنة ٦٥ هـ بويع عبد الملك بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبوه .

عبد الملك وتوحيد الدولة الإسلامية :

تجمع المصادر التى ترجمت لعبد الملك وأرخت له ، على أنه كان من عقلاء الرجال ودهاتهم ، ومن أكثرهم حزما وشجاعة وإقداما(١٣٤) . وقد أثبت عبد الملك كفاءة عالية فى إدارة الدولة وسياستها ، وكان غير هياب يمضى إلى هدفه بعزيمة ثابتة ، ولايعرف اليأس إلى نفسه سبيلا ، ولا يتردد من قيادة المعارك بنفسه ، ولقد استطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة ويجمع شمل الأمة الاسلامية وأن يصفى خصومه ، الواحد بعد الآخر ، بالصبر والجلد والمثابرة ، فعندما تولى عبد الملك الخلافة كانت الأمة الإسلامية مقسمة على النحو التالى : عبد الملك وتتكون دولته بشكل رئيسى من الشام ومصر ، ودولة عبدالله بن الزبير وتتكون من الحجاز والعراق ، ويحكمها من مكة ، كما قامت للخوارج الأزارقة دولة فى الأهواز ، وللخوارج النجدات دولة فى اليمامة امتدت حدودها إلى اليمن وحضرموت ، ووصل نفوذها إلى الطائف ، وفضلا عن ذلك فإن الشيعة كادت تقوم لهم دولة بالعراق تحت زعامة المختارين بى أبى عبيد الثقفى .

ولاأدل على هذا الانقسام فى العالم الإسلامى ، من أنه فى سنة ٦٨ هـ ارتفعت فى موسم الحج أربعة الوية : لواء عبد الملك ، ولواء لمحمد بن على ابن أبى طالب — ابن الحنفية — ولواء لنجدة بن عامر زعيم خوارج اليمامة ، ثم لواء عبد الله بن الزبير(١٣٥) .

وكان هذا وضعا شاذا ، واخذ عبدالملك على عاتقه تصحيحه ووضع الأمور فى نصابها ، لأنه كان يعتبر نفسه أولى وأحق من هؤلاء جميعا بالخلافة ، وخلافته هى الخلافة الشرعية وهؤلاء جميعا خوارج

---

(١٣٤) انظر الذهبى — سير أعلام النبلاء جـ٤ ص٢٤٩ وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص٦١ ومابعدها .

(١٣٥) انظر الطبرى تاريخ ١٣٨/٦ وابن الأثير — الكامل٢٩٦/٤

عليها . وقد برهن عبد الملك عن فهم عميق لطبيعة هذه الصراعات ومن ثم اتقن التعامل معها ، وتمكن فى النهاية من القضاء عليها جميعا . وقد وضع لنفسه خطة ذكية وهى ترك هذه القوى يأكل بعضها بعضا ، ومن يبقى منها فى النهاية على مسرح الأحداث ، يكون قد ضعف ، ويسهل القضاء عليه ، ذلك أنه أدرك أن هذه القوى جميعا لايجمعها هدف واحد مشترك ، سوى العداء له ولدولته ، ولكن بينها جميعا تناقضات فى الأفكار والمبادىء والأهداف ، فالخوارج لهم أهدافهم الخاصة وكذلك الشيعة وهؤلاء وأولئك يخالفون ابن الزبير فى أفكاره ومبادئه وأهدافه ، ولذلك عندما رأى عبد الملك تصاعد قوة ونفوذ المختار بى أبى عبيد فى العــراق خصوصا بعد هزيمته لجيش عبد الملك وقتل قائده عبيد الله بن زياد فى معركة الخــازر سنة ٦٧ هـ(١٣٦) . لم يتحرك عبد الملك لضرب المختار والثــأر لهزيمة جنده ، وإنما ترك هذه المهمة لآل الزبير ، لأنه كان على يقــين أن نفوذ المختار فى العراق سيصطدم بنفوذهم ، ومن ثم فلن يتركوه ، وقد صدق ماتوقعه عبد الملك ، فقد تحرك مصعب بن الزبير من البصرة إلى الكوفة وقضى على المختار(١٣٧) ، وبهــذا تخلص عبد الملك من أحــد خصميه الخطيرين ، دون أن يبذل فى ذلك جهدا ، ولكن بعد القضاء على المختار ، رأى أن الموقف قد حان للتخلص من آل الزبير ، والقضــاء على دولتهم ، ولم يترك هذه المهمة لأحــد غيره ، بل قاد جيشه بنفسه ، وسار إلى العراق ، وتمكن من هزيمة مصعب بن الزبير وقتله سنة٧٢ هـ(١٣٨) .ثم أرسل قائده الشهير الحجاج بن يوسف الثقفى إلى مكة للقضــاء على عبدالله بن الزبير ، فنجح فى ذلك سنة ٧٣ هـ وبهذا قضى عبد الملك على أكبر وأخطر خصومه .

---

(١٣٦) الطبرى المصدر السابق جـ ٦ ص ٨٦ وابن الأثــير المصدر السابق — ص ٢٦١

(١٣٨) الطبرى — المصدر الســابق جـ٦ ص١٥١ ومابعدها وابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٢٣ .

(١٣٨) الطبرى — مصدر سابق جـ ٦ ص ١٥١ وما بعدها وابن الاثير — مصدر سابق جـ ٤ ص ٣٢٣ .

أما الخوارج فقد رماهم برجل من أبرز الرجال فى عصره وهو المهلب ابن أبى صفرة ، وكان المهلب صاحب خبرةطويلة فى حرب الخوارج فتمكن من هزيمتهم وكسر شوكتهم وإبعاد خطرهم إلى حين(١٤٠) .

وهكذا ثابر عبد الملك وصبر وجاهد لتوطيد دعائم الدولة الإسلامية تحت قيادته ونجح فى ذلكنجاحا فائقا ، ولم تكن تأخذه هوادة أو رحمة بكل من يحاول أن يعكر صفو الدولة أو يخرج عليها ، فحينما خرج عليه عمرو ابن سعيد الأشدق لم يتوان فى القضاء عليه دون شفقة ، ليكون عبرة لكل من يحاول الخروج على دولته ومهما قيل فى نقد عبد الملك فى صنيعه بعمرو بن سعيد إلا أنه ينبغى النظر إلى الفترة وما سادها من فتن وثورات ، وقلاقل فى معظم الأقاليم ، فلو لم يكن عبد الملك على هذا القدر من الحزم والعزم ، لما استطاع أن يعيد للدولة وحدتها ، فالسياسة عقل لاقلب وعواطف ، فينبغى أن تقدر الضرورة بقدرها ، فقتل رجل واحد أهون واخف ضررامن فتنة يروح ضحيتهاخلق كثير ، كما حدث فى كل الفتن والثورات التى مرت بها الأمة . ومن هنا استحق عبد الملك عن جدارة لقب موحد الدولة الإسلامية أو المؤسس الثانى للدولة الأموية ، بعد معاوية مؤسسها الأول ، ولم يعكر صفو عبد الملك بعد أن حقق وحدة الدولة حوالى سنة ٧٣ هـ إلا ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، وكانت ثورة عارمة ، ولكن عبد الملك استطاع القضاء عليها بفضل مهارة قائده الحجاج بن يوسف الثقفى ، ورباطة جاشه ، فقد تمكن الحجاج بعد معارك شرسة من القضاء على هذه الثورة سنة ٨٣ هـ(١٤١) .

---

(١٣٩) الطبرى : المصدر السابق ج٦ص١٨٧ وما بعدها وابن الاثير ـ المصدر السابق ج٤ص٣٤٨ . سنعود لتفصيل حركةابن الزبير ضدالأمويين فى فصل خاص بالحركات والثورات ضد دولتهم .

(١٤٠) سيأتى الكلام مفصلا عن الخوارج فيما بعد .

(١٤١) انظر الطبرى ــ تاريخ ج ٦ ص ٣٥٧ وما بعدها ، وابن الاثير ــ الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٤٧٨ وما بعدها ــ وسنعود أيضا لتفصيل ثورة ابن الأشعث فيما بعد .

عبد الملك وإدارة الدولة :

ولم يظهر عبد اللك شجاعة ومقدرة ومهارة فى القضاء على خصومه السياسيين فحسب ، بل أظهر براعة فى إدارة الدولة وتنظيمها ، وكان شبيها فى ذلك بمعاوية فى كثير من الوجوه(١٤٢) ، فكما اعتمد معاوية فى سياستة على ركائز ثابتة ، كذلك كان عبد الملك . فقد استعان بنخبة من أمهر رجال عصره فى الإدارة والسياسة مثل الحجاج الذى اعتمد عليه فى إدارة العراق والقسم الشرقى من الدولة ، وأطلق يده فيه فنهض الحجاج بمهمته ، وكان عند حسن ظن عبد الملك به وثقته فيه ، فأخلص كل الإخلاص للخليفة وبذل أقصى جهده فى تثبيت أركان دولته ، كما اعتمد على رجال بيته من إخوته مثل عبد العزيز ومحمد وبشر وغيرهم ، كذلك اقتدى عبد الملك بمعاوية فى مباشرة أعمال دولته بنفسه ، وتصفح أمورها ، فكان دائم المراقبة لعماله ، ولم يكن يتوانى عن محاسبتهم ، مهما كانت أقدارهم ، فحتى الحجاج نفسه رغم مكانته ، لم يسلم من مساءلة عبد الملك له إذا قصر أو أخطأ لأنه رغم حزمه ، بل قسوته أحيانا فى معاملة خصومه السياسيين ، إلا أنه لم يكن ليرضى عن الظلم أوالإساءة إلى الصالحين فقد شكا إليه أنس بن مالك من الحجاج فكتب إليه كتابا شديد اللهجة يؤنبه على ذلك . قال الأعمش : « أخبرنى محمد بن الزبير ، أن أنس بن ملك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج ، ويقول فى كتابه : لو أن رجلاً خدم عيسى بن مريم أو رآه ، أو صحبه ، تعرفه النصارى ، أو تعرف مكانه ، لهاجرت إليه ملوكهم ولنزل من قلوبهم المنزلة العظيمة ، ولعرفوا له ذلك ، ولو أن رجلا خدم موسى أو رآه ، تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ماالستطاعوا ، وإنى خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ، ورأيته ، وأكلت معه ، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه ، وإن الحجاج قد أضر بى وفعل وفعل ، قال : أخبرنى من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكى ، وبلغ به الغضب ماشاء الله ، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ ،

---

(١٤٢) انظر محمد كرد على — الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٦٤

فجاء إلى الحجــاج فقرأه ، فتغير ، ثم قال لحامل الكتاب : انطلق بنــا إليه نترضاه »(١٤٣) .

كما كان عبد الملك يقظا وحريصا على نزاهته عماله ، واستقامة أخلاقهم وبعدهم عن الشبهات وقــد استغل جهاز البريد فى معرفة أخبار العمال والولاة أولا بأول ، والكشف عن أى انحراف ، ومحاسبة صاحبه ، روى المسعودى(١٤٤) ، أن عبد الملك قــد بلغه أن عاملا من عماله قبل هدية فاستدعاه إليه ثم ســأله : اقبلت هدية منــذ وليت ؟ قال : ياأمير المؤمنين « بلادك عامرة ، وخراجك موفور ورعيتك على أفضل حال قال : أجب فيما ســألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : نعم ، قال :إن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيــم ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك ، أو استكفيته مالــم يكن مثله مستكفاه ، إنك لخائن جائر وما أتيت أمر ، لاتخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع ، وأمر بصرفه عن عمله » .

ولم يكن عبد الملك يسمح لأحد أن يداهنه ، أو ينافقه ، أو يضــيع وقته فيما لايفيد . روى ابن كثير(١٤٥) . أن رجلا طلب من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنــده بالانصراف فلمــا أراد الرجل أن يتكلم بادره عبد الملك قائلا : احذر فى كلامك ثلاثا ، إياك أن تخدعنى ، فأنا أعلم بنفسى منك ، أو تكذبنى فإنه لاأرى لكذوب أو تسعى إلى بأحد من الرعية ، فإنهم إلى عدلى وعفوى أقرب منهم إلى جورى وظلمى « وكان من جهود عبدالملك فى إرساء دعائم الوحدة والاستقرار فى الدولة الإسلامية ، إصداره عملة عربية إسلامية لأول مرة وتوحيــد أوزانها ، ضمانا للعــدالة »(١٤٦) . وكانت هذه خطوة حضارية كبيرة فقد حــررت اقتصاد الدولة الإسلامية من الاعتماد على العملات الأجنبية وبصفة خاصة الدينار البيزنطى .

---

(١٤٣) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ٦٥

(١٤٤) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٢٥

(١٤٥) البداية والنهاية — جـ ٩ ص ٦٥

(١٤٦) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٧٢ وما بعدها .

ومن الأعمال الباهرة لعبد الملك تعريب دواوين الدولة ، وبصـــفة خاصـة ديوان الخــراج ، الذى يعتبر من أهم دواوين الدولة ، إن لم يكن اهمها على الإطــلاق ، والذى كان العمل فيه حكرا على غير العــرب ، وكان هذا وضعا شاذا ، فجاءت خطوة عبد الملك لتصحح الوضع ، وتفتح المجال أمام العرب المسلمين للعمل فى هــذا الديوان والتدريب على شئون المــال والاقتصاد ، وكانت تلك الخطوة ذات اثر حضارى كبير فى التاريخ الإسلامى(١٤٧) .

وخلاصة القول فقد كرس عبد الملك بن مروان كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها والسهر على سلامتهــا ، حتى تركها قويــة غنية مرهوبة الجانب مرعية السلطان .

سياسة عبدالمــلك الخارجية :

كما سار عبد الملك على نهجمعاوية فى إدارةالدولة ومعالجة مشاكلها فى الداخل(١٤٨)فقد اتبع المنهج نفسهفى السياسة الخارجية ، فقــد كان العدو الرئيسى للدولة الإسلامية فى عهد عبد الملك هو نفسه الذى كان فى عهد معاوية ، وهوالدولة البيزنطية فقد رأى عبد الملك ـــ كما رأى معاوية من قبله ـــ مهادنة هذه الدولة حتى يفرغ من مشاكله الداخلية ، ولذلك وقع مع الامبواطور البيزنطى جستنيان الثانى معاهــدة ، قبل أن يدفـــع له بمقتضاها مالا ليضمنعدم إغارته على حدود الدولةالإسلامية منتهزا فرصة انشغاله فى الداخل . يقول البلاذرى : « وصالح ـــ عبدالمــلك ـــ طاغية الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربتهوتخوفه أن يخرج إلى الشام

---

(١٤٧) سنتناول تعريب العملة والدواوين بشىء من التفصــيل فى الفصل الخاص بالإدارة فى العصر الأموى .

(١٤٨) لانقصد أن عبدالملك كان مقلدا لمعاوية فى كل شىء ، بل نقصد ترسمه للخطوط العامة لسياسته ، وهذا لايقلل من شأن عبد الملك ، بل بالعكس فالحاكم الحصيف الذكى هو الذى يستفيد من تجارب سابقه ، ومع هذا فقد كانت لعبدالملك شخصيته المستقله الواضحة .

فيغلب عليه ، واقتدى فى صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العـــراق ، فإنه صالحهم على أنيؤدى إليهم مالا »(١٤٩) ، ولكن الامبراطور البيزنطى ظـــن — لقصر نظـــره وافتقاره إلى الوعى السياسى الذى كان ينبغى أن يتحلى به امبراطور بيزنطه(١٥٠) — أنه بإمكانه أن يخدع عبد الملك دون أن ينقض المعاهـــدة نقضا مباشرا ، فاستخدم جماعة المردة المقيمين فى جبل اللكام فى الإغارة على الحدود الإسلامية ، ولكن عبد الملك فوت عليه غرضه بل أظهر تفوقه عليه فى مضمار السياسة ، وقرر أن يتخلص نهائيا من خطر هؤلاء المردة ، الذين كانـــوا أشبه بعصابات تستخدمها الدولة البيزنطية كأداة لتنفيذ وتحقيق أهدافها فى أراضى الدولةالإسلامية ، فدخل فى مفاوضات مع الإمبراطور وظفر منه بتعهدبابعاد هؤلاءعن مناطق التخوم الإسلامية ، وفعلا نقل الإمبراطور اثنى عشر ألفا منهم إلى رومانيا ، ونقل بعضهم إلى تراقيا وتشتتت البقية الباقية منهم فى آسيا الصغرى(١٥١) . وكانت هذه الخطوة مكسبا هاما للدولة الإسلامية ، بقدر ماكانت خسارة للدولة البيزنطية .

ولما تخلص عبدالملك من المشاكل الداخلية واصل ضغطه على الدولة البيزنطية عبر الحـــدود وانتظمت غزوات الصوائف والشواتى ، واضطر البيزنطيين أن يقفوا موقف الدفاع من جديد ، واستمرت هـــذه السياسة حتى وصلت قمتها فى عهد ولديه الوليد وسليمان — كما سيأتى — وتمشيا مع هذه السياسة ، فقد أولى عبد الملك جبهة شمال إفريقيا عناية كبيرة ، لأنه أدرك أن البيزنطيين قد استغلوا هذه الجبهة البعيدة عن مركز الدولة الإسلامية ، وانشغاله فى الداخـــل . فأوقعوا بالمسلمين عـــدة هزائم ، فقد هزموا جيش زهير بن قيس البلوى وقتلوه فأرسل عبد الملك حسان

---

(١٤٩) فتوح البلدان ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(١٥٠) انظـــر د. ابراهيم أحمد العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ٢٠٥ .

(١٥١) المرجع السابق ص ٢٠٦ وانظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ١٨٩ .

ابن النعمان الذى استطاع القضاء على النفوذ البيزنطى فى شمال إفريقيا قضاء تاما(١٥٢) .

أما فى الجبهة الشرقية — فى الجنوب نحو إقليم السندى وفى الشمال حيث إقليم ماوراء النهر — فما أن فرغ عبد الملك من المشاكل الداخلية ، حتى بدأت الغزوات تنطلق إلى هذهالجبهات ، تمهيدا للانطلاقة الكبرى من الفتوحات التى ستبدأ فى عهد ابنه وخليفته الوليد مما سنفصله عند حديثنا عن الفتوحات فى العصر الأموى .

والخلاصة ، أن عبد الملك كما كان بارعا فى إدارة الدولة فى الداخل ، فقد كان بارعا كذلك فى معالجة المشاكل فى الخارج ، فصان حدود الدولة ، وابعد عنها خطر أعدائها ، وتركها لأبنائه ، موطدة الأركان سليمة البنيان ليكملوا مسيرته .

خلف عبد الملك بن مروان خمسة عشر ولدا ذكر وابنتين(١٥٣) وقد كان حريصا على تربية أولاده تربية إسلامية خالصة ، فعهد بتربيتهم إلى عدد من العلماء الصالحين ، كان من ابرزهم اسماعيل بن عبيدالله بن ابى المهاجر . فلما عهد إليه عبدالملك بهذه المهمة قال له :« علمهمالصدق ، كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة ، فإنهم أسوأ الناس رغبة فى الخير وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم فانهم لهم مفسدة ... وعلمهم الشعر ، يمجدوا وينجدوا .. واذا احتجت أن تتناولهم بادب فليكن ذلك سرا لايعلم به أحد من الغاشية فيهونوا عليهم(١٥٤) .

ولما حضرته الوفــاة وصى ابناءه فى شخص أكبرهم وخليفته من بعده الوليد وصية تدلعلى الحزم والعزم وقوة البأسمن رجل يدنو من الموت .

---

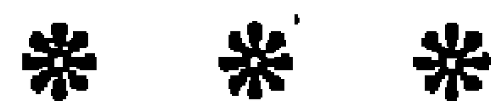
(١٥٢) انظر ابن عبدالحكم — فتوح مصر ص ١٣٥ ومابعدها وابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ج ١ ص ٣٣ ومابعدها وسيأتى الحديث عن هذا مفصلا فى فصل الفتوحات باذن الله .

(١٥٣) المعارف لابن قتيبة ص ٣٥٨

(١٥٤) ابن كثير — البداية والنهاية ج ٩ ص ٦٦ .

فقد بكى الوليد عندما رأى والده يحتضر ، فنظر إليه وقال : «ماهذا أتحن حنين الجارية والأمة ؟ إذا أنا مت فشمر واتزر والبس جلد النمر ، وضع الأمور عند أقرانها واحذر قريشا . . . ياوليد اتق الله فيما استخلفك فيه ، واحفظ وصيتى . . وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه ، فإنه هو الذى مهد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك وشتت الخــوارج ، وأنهاك وأخوتك عن الفرقة ، وكونوا أولاد أم واحدة وكونوا فى الحــرب أحرارا ، وللمعروف منارا ، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه ، ويميل القلوب بالمحبة، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل »(١٥٥).

توفى عبدالملك فى النصف من شوال عام ٨٦ هـ وصلى عليه ابنه الوليد ثم بويع له بالخلافة فى اليوم نفسه(١٥٦) وكان ولى العهد بعد عبدالملك هو أخاه عبدالعزيز بن مروان لأن أباهماأخذ لهما البيعة معا من أهل الشام فى بداية سنة ٦٥ هـ ، وكان عبد الملك قد راود أخاه على التنازل عن الخلافة لابنه الوليد ، فأبى عبدالعزيز ذلك ، وكاد يحــدث بينهما من جــراء ذلك شقاق ، إلا أن المشكلة حلت بموت عبدالعزيز بن مروان قبل أخيه عبدالملك فبايع عبد الملك لوليده الوليد ثم سليمان .



(١٥٥) المصدر السابق جـ ٩ ص ٦٧

(١٥٦) انظر — تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٩٢ ، ٢٩٩

(١٥٧) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ٥١٠

(١٥٨) انظر الكندى — الولاة والقضاة ص ٥٤

(١٥٩) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ١٨٩

٦ ـ الوليد بن الملك
٨٦ — ٩٦ هـ

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه ولادة بنت العباس ابن جزء بن الحارث بن زهير العبسى ، ولد حوالى سنة ٥٠هـ(١٦٠) . وهو اكبر أولاد عبد الملك وقد مر بك أن عبد الملك كان حريصا على تربية أولاده تربية إسلامية ، كما كان يحثهم على الرجولة ومكارم الأخلاق ، وقد أولى ابنه الوليد عناية خاصة ، وكان يحثه على تعلم العربية وإتقانها ، وكان يقول له : « لايلى العرب إلا من يحسن لغتهم » وقد شب الوليد على الصلاح والتقوى ، وحب القرآن الكريم والإكثار من تلاوته . وحث الناس على حفظه ، وإجازتهم على ذلك ، حدث إبراهيم بن أبى عبله قال : «قال لى : الوليد بن عبد الملك يوما ، فى كم تختم القرآن ؟ ، قلت فى كذا وكذا ، فقال : أمير المؤمنين على شغله يختمه فى كل ثلاث — وقيل فى كل سبع — قال : وكان يقرأ فى شهر رمضان سبع عشرة ختمة ، قال إبراهيم : رحمه الله الوليد ، وأين مثله ؟ بنى مسجد دمشق ، وكان يعطينى قطع الفضة فأقسمها على قراء بيت المقدس »(١٦١) ، وروى الطبرى أن رجلا من بنى مخزوم سأل الوليد قضاء دين عليه . فقال : « نعم إن كنت مستحقا لذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، وكيف لا أكون مستحقا لذلك مع قرابتى ؟ قال : أقرأت القرآن ؟ قال : لا ، قال : ادن منى ، فدنا منه ، فنزع عمامته بقضيب كان فى يده وقرعه قرعات بالقضيب ، وقال لرجل ضم إليك هذا ، فلا يفارقك حتى يقرأ القرآن ، فقام إليه عثمان بن يزيد ابن خالد ... فقال يا أمير المؤمنين إن على دينا ، فقال اقرأت القرآن ، قال : نعم ، فاستقرأه عشر آيات من الأنفال ، وعشر آيات من براءة ،

---

(١٦٠) انظر ترجمته فى المعارف لابن قتيبة ص ٣٥٩ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٨٣ ، والطبرى — تاريخ ج ٦ ص ٤٩٦ وما بعدها ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ١٦٦ ومابعدها ، وسير اعلام النبلاء للذهبى ج ٤ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ — والبداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١٦١ وما بعدها .

(١٦١) ابن كثير — البداية والنهاية ج ٩ ص ١٦٢ — وسير أعلام النبلاء للذهبى ج ٤ ص ٣٤٨

فقرا ، فقـــال : نعم نقضى عنكم ، ونصـــل أرحامكم على هذا »(١٦٢) .
ويقول الطبرى : « كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المســـاجد : مسجد دمشق ، ومسجد المدينة ، ووضـع المنابر ، وأعطى النـــاس ، وأعطى المجذومين ، وقال : لاتسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا ، وفتح فى ولايته فتوح عظام »(١٦٣) .

حقا لقد كان عهد الوليد غرة فى جبين الدولة الأموية ، ولكن إنصافا للحقيقة نقول . إن الوليد مدين لأبيه عبد الملك ، أو إن شـــئت فقل : إن عهد الوليد كان ثمرة طيبة لتلك الجهود الكبيرة التى بذلها عبد الملك على مدى عشرين سنة كاملة من عمره فى توحيد الدولة والقضاء على أعدائها فى الداخل والخارج ، وفى تنظيمها وضبطها ، حتى سلمها للوليد وهى أعظم ما تكون قوة واستقرارا وازدهارا . فاستثمر الوليد جهود أبيه أفضـــل استثمار وقام باصلاحات اجتماعية وعمرانية واقتصادية رائعة فى الداخل ، ولشهرته بحبه للبنـــاء والتعمير ، كان الناس يلتقون فى عهـــده ، فيسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع(١٦٤) .

فقد احتفل الوليد بإعادة بنـــاء مسجد الرســـول ﷺ وتوسعته من جميـــع النواحى وإدخال حجرات ازواج النبى فيـــه ، ولم يبخل فى سبيل ذلك بمال ، ليكون المسجد فى أعظم وأبهى صورة ، وعهد بهـــذه المهمة إلى ابن عمه وواليه على المدينة ، عمر بن العزيز فأوكل عمر مهمة الإشراف على بنـــاء المسجد إلى صـــالح بن كيسان ، وبعث إليـــه الوليد بالأموال والرخام والفسيفساء ، وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشـــام ومصر (١٦٥) .

---

(١٦٢) تاريخ جـ ٦ ص ٤٩٦

(١٦٣) تاريخ جـ ٦ ص ٤٩٦ وانظر ابن الاثير ـــ الكامل فى التـــاريخ جـ ٥ ص ٩ وابن كثير ـــ البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٦٤

(١٦٤) انظر الطبرى ـــ تاريخ جـ ٦ ص ٤٩٧

(١٦٥) انظر البلاذى ـــ فتوح البلدان ص ٦ والطبرى ـــ تاريخ جـ ٦ ص ٤٣٦

أما مسجد دمشق فقد جعله الوليد آية من آيـات العمارة الإسلامية وبالغ فى تزيينه وابهته ليكون مظهرا من مظاهر عظمة الإسـلام ، وانفق عليه اموالا طائلة ، حتى إن الناس انتقدوه على كثرة النفقات على بنـاء المسجد فقال لهم ، يا أهل الشـام لكم أربعة أشياء تفخرون بها ، فأردت أن أجعل لكم خامسا ، وقد استغرق بنـاء مسجد دمشق كل عهد الوليد ، بل بقيت فيه بقية أعمال أتمها أخوه سليمان من بعده(١٦٦) .

وكما كان الوليد مهتما ببناء المساجد ، فقـد اعتنى بتعبيد الطرق وبخاصة تلك التى تؤدى إلى الحجاز لتيسير السفر على الحجاج إلى بيت الله الحرام . فكتب إلى عمر عبد العزيز فى تسهيل الثنـايا وحفر الآبار وعمل الفوارة فى المدينة ، وأمر لها بقوام يقومون عليها وأن يسقى منهـا أهل المسـجد(١٦٧) .

وهكذا اتسم عهد الوليد بالاصلاح والتعمير فى الداخل ، أما فى الخارج فقد شـهد عهده أعظم حركة فتوحات فى الدولة الأموية ، بل فى التاريخ الإسلامى كله — بعد فتوحات الخلفاء الراشدين ، وقد برز فى عهده عدد من القواد العظام الذين اتصفوا بالجسارة والإقدام والتضحية فى سبيل الله فاضطلعوا بعبء هـذه الفتوحات فى الشرق والغرب ، ففى المشرق ، وقف الحجاج فى العراق ناشرا جناحيه إلى الجنوب الشرقى ، إلى إقليم السنـد ، فأرسل محمد بن القاسم الثقفى ففتح هـذا الإقليم ، وإلى الشمال الشرقى فيما وراء النهر ، فأرسل قتيبة بن مسلم الذى فتح هذا الإقليم الشاسع وأدخله تحت راية الإسلام .

أما فى المغرب فقـد تألق قائـدان عظيمان همـا موسى بن نصير وطارق بن زيـاد ، اللذان فتحـا الأندلس ، كما اضطلع أخـوه مسـلمة ابن عبد الملك وابناؤه بمنازلة الدولة البيزنطية والضغط عليها ، والاستيلاء على الكثير من حصونها وقلاعها فى مناطق الحدود(١٦٨) .

---

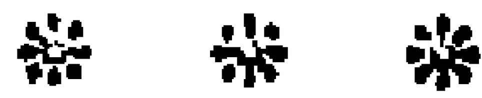
(١٦٦) ابن كثير — البداية والنهاية ج ٩ ص ١٦٠

(١٦٧) الطبرى — تاريخ ج ٦ ص ٤٣٧

(١٦٨) سيأتى الحديث مفصلا عن الفتوحات فى عهد الوليد .

والخلاصة أن عهد الوليد كان عهد الرخاء الواسع والازدهار العظيم ، نعم الناس فيه بالهدوء والاستقرار والبناء والعمران فى الداخل ، ووصلت فيه حدود الدولة من مشارف بلاد الصين حتى الأندلس ، وأصبحت بحق أقوى دولة فى العالم المعروف وقت ذاك .

توفى الوليد بن عبد الملك فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ ، فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك ، وقد خلف الوليد تسعة عشر ولدا ذكرا(١٦٩) .



(١٦٩) الطبرى — جـ ٦ ص ٤٩٥ — ٤٩٦ — وانظر المعارف لابن قتيبه ص ٣٥٩

٧ — سليمان بن عبد الملك
٩٦ — ٩٩ هـ

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، الخليفة أبو أيوب ، وامه ولاده بنت العباس بن جزء العبسية(١٧٠) : فهو شقيق الوليد ، وقد ولد سليمان بالمدينة ، إلا انه نشأ بالشام . وقد أحب البادية ، واغرم بالإقامة فيها ، فابتنى بها قصرا كان ينزل فيه ، وكان من أفضل أولاد عبد الملك ، بويع بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أخوه الوليد ، منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ وقد مر بنا أن عبد الملك كان شديد العناية بتربية أولاده تربية عربية إسلامية ، وكان رغم مشاغله ، يشرف بين الحين والحين بنفسه على تربيتهم ، وتعليمهم ، فقد روى أبو بكر الصولى ، أن عبد الملك جمع بنيه الوليد وسليمان ومسلمة ، فاستقرأهم القرآن ، فأجادوا القراءة(١٧١) وقد أثمرت فيه التربية الإسلامية فكان كما يقول الذهبى « من أمثل الخلفاء نشر علم الجهاد .. وكان دينا فصيحا مفوها عادلا محبا للغزو »(١٧٢) ويروى ابن كثير أن أول كلام تكلم به سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة انه قال : « الحمد لله ما شاء صنع ، وماشاء رفع وما شاء وضع ، ومن شاء أعطى ، ومن شاء منع ، إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، وزينة تقلب ، تضحك باكيا ، وتبكى ضاحكا ، وتخيف آمنا ، وتؤمن خائفا ، تفقر مثريها وتثرى فقيرها ميالة بأهلها ، ياعباد الله اتخذوا كتاب الله إماما ، وارضوا به حكما واجعلوه لكم قائدا ، فإنه ناسخ لما قبله ، ولن ينسخه كتاب بعده ،

---

(١٧٠) انظر ترجمته فى تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٩٣ ، والطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٠٥ ومروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٤ والفخرى لابن الطقطقا ص ١٢٨ ، وسير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٥ ص ١١١ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ١٧٧ وما بعدها .

(١٧١) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٧

(١٧٢) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١١١ ، ١٢٥

اعلموا عباد الله أن هــذا القرآن يجلو كيد الشــيان ، وضغائنه ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس أدبار الليل إذا عسعس »(١٧٣) . هــذه الخطبة تدل على ورع وتقوى وخوف من الله ، ولم تكن خطبة من خطب سليمان تخلو من حث الناس على الاهتمام بالقرآن ، ولم يكن هذا رياء منه ، فسيرته العملية تشهد بأنه كان ورعا تقيا محبا للعدل ، شــديد الإحساس بالمسئولية وكان من شدة ورعه ينهى الناس عن الغناء(١٧٤) .

كان سليمان من أكبر أعوان أخيه الوليد ، يقول ابن كثير : وكان سليمان لأخيه الوليد كالوزير والمشير ، وهو المستحث على عمارة مسجد دمشق »(١٧٥) . ولي فلسطين وكان عليها حين وفاة أخيه الوليد ، فقد جاءته وفاته وهو بالرملة،فأخذ لهالبيعة فيدمشق ابن عمه عمربنعبد العزيز الذى أصبح من أكبر أعوانه ومستشاريه فكان لا يصدر عن أمر إلا برايه فقد قال له: عقب توليته مباشرة ، يا أبا حفص « إنا قد ولينا ما ترى ، وليس لنا علم بتدبيره فما رايت من مصلحة العامة ، فمر به فليكتب وكان من ذلك عزل نواب الحجاج .. مع أمور حسنة كان يسمعها من عمر بن عبد العزيز »(١٧٦) .

ولاشك أن حرص سليمان على الاستعانة بصلحاء الرجال ، من أمثال عمر بن عبدالعزيز ورجاء بن حيوه يعتبر برهانا على صلاحه وتقواه وتحريه للعدل ، فلاأحد ينكر أثر البطانة ، والأعوان على الحاكم ، وانعكاس ذلك على سلوكه وقراراته ، ولذلك لم يكن عمر بن عبد العزيز يكف عن تذكير سليمان بمسئوليته عن الأمة ، فقد حج معه سنة سبع وتسعين . « فلما رأى الناس بالموسم ، قال لعمر : الاترى هذا الخلق الذى لايحصى عددهم إلا الله ، ولايسع رزقهم غيره ، فقال : ياأمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليــوم

---

(١٧٣) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٩ وانظر المسعودى — مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٤.

(١٧٤) الذهبى — سير اعلام النبلاء جـ ٥ ص ١١٢

(١٧٥) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٨

(١٧٦) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٨ . والذهبى — سير اعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٢٥.

وهم غدا خصماؤك عند الله ، فبكى سليمان بكاء شديدا ثـم قال : بالله أستعين » (١٧٧) .

وقد ظهـر تأثير هؤلاء الرجال الصالحين على سليمان ، حيث كان يستشيرهم فى أهم الأمور وبخاصة فى تولية الولاة على الأقاليم ، لأنه كان يحب ان يكونوا من أصلح الناس وأعدلهم ، وهؤلاء لايشيرون عليـه بغير ذلك .فلما أراد أن يعين واليا على إفريقية : « قال لرجاء بن حيوة أريد رجلا له فضل فى نفسه أوليه إفريقية ، فقال : له نعم ، فمكث أياما ، ثم قال : قد وجدت رجلا له فضل قال من هـو ؟ قال : محمد بن يزيد مولى قريش ، فقال أدخله على ، فأدخله عليه ، فقال سليمان : يامحمد بن يزيد ! اتق الله ، وحده لاشريك له وقـم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله ، قال : فودعه وانصرف ، وهو يقول : مالى عذر عند الله إن لم أعدل »(١٧٨) .

ومن هنا ، وبتأثير عمر بن عبدالعزيز ورجـاء بن حيوة ، وأمثالهما ، جاءت فكرة تغيير عمال الحجاج وأسلوبه فى الإدارة والحكم ، وهذه نقطة أساء بعض الناس فهمها ، وصوروها على أنها سياسةعاطفية،لاتقيم وزنا لمصلحة الأمة(١٧٩) ، فاتهم سليمان بأنه عزل ولاة الحجاج ونكل بهم ، انتقاما منهم ومن الحجاج لا لشيىء إلا لأن الحجاج كان قد أيد أخاه الخليفة الوليد عندما أراد أن يعزله من ولاية العهد وأن يولى ابنه عبد العزيز . وهذه نظرة سطحية للأمور وبعيدة عن الواقع تماما ، فالأمر لم يكن أمر عواطف أو انتقام شخصى ، وإنما هى سياسة عامة للدولة رسمها سليمان بالتعاون والتشاور مع كبار مستشاريه . فأى حاكم فى مكان سليمان كان لابد له أن يغير فى الأسلوب والمناخ الذى اشاعه الحجاج وعماله من قسوة وإرهاب بين الرعية أحيانا ، وإذا كان للحجاج مبرراته فى انتهاج أسلوبه القاسى ، فقد تغيرت الظـروف التى ألجأته إلى القسوة ، وعم الهدوء والسـلام

---

(١٧٧) ابن كثير البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٩ .

(١٧٨) ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٤٧ .

(١٧٩) انظر د. محمد ماهر حمادة — الوثائق السياسية العـائدة للعصر الاموى ص ٦٣

والاستقرار أرجـــاء الدولة الإسلامية ، منذ أواخر عهد عبدالملك ، فكان من الحكمة ان يتغير أسلوب الحجاج وأن يستجيب الخليفة لتلك الرغبـــة العامة لدى غالبية الناس ولعل هذا هو السر فى رضاء الناس عن سليمان وثنائهم عليه .

يقول الطبرى كان الناس قـــد استبشروا بخـــلافة سليمان ، وكانوا يقولون : « سليمان مفتاح الخير ، ذهب عنهم الحجاج ، فولى سليمان ، فأطلق الأسارىوخلى أهل السجون ، وأحسن إلى الناس ، وأستخلف عمر ابن عبد العزيز »(١٨٠) . هذا هو وجه الصواب فى المسألة — حسبما نرى — وعندما ندقق النظـــر فى مسألة الولاة الذين قيل إن سليمان بن عبد الملك نكلبهم ، وقتل بعضهم وهم موسى بن نصير ، وقتيبة بن مسلم ، ومحمد بن القاسم الثقفى ، سنرى أن سليمان برىء تماما من هذه التهمة ، فأما موسى بن نصير ، فعندما وصل إلى دمشق فقد تكون حدثت مساءلة له من الخليفة عن بعض المخالفات ، وهذا شيىء طبيعى ، ولكنه مع ذلك ضمه إلى كبـــار مستشاريه . يقول ابن كثـــير(١٨١) : بعد حديثه عن الجيش الذى أرسله سليمان لحصار القسطنطينية والجهود التى بذلت فى إعداده « وذلك كله بمشورة موسى بننصير حين قدم عليه من المغرب »فهذا يدل على حرص الخليفة على الاستفادة من خبرة قائد عسكرى بارز ، وفاتح من كبار الفاتحين ، فكيفيكون قد نكلبهوعذبه ؟ وهليتفق هذا مع ذاك ؟ ، ثم إن المصادر مجمعة على أن سليمان بن عبدالملك حين حج سنة ٩٧ هـ اصطحب معه موسى بن نصير ، وقد مات موسى بالمدينـــة(١٨٢) . فهل كان سيصحبه معه إلى الحج لو كان غاضبا عليه ؟ ، ثم إن الروايات التى تذكر تعذيب سليمان لموسى ونقمته عليه ، ترجع ذلك إلى سبب يتعلق بالأموال والهدايا التى اصطحبها موسى بن نصير معه من المغرب والأندلس(١٨٣) .

---

(١٨٠) تاريخ جـ ٦ ص ٥٤٦ (١٨١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٩

(١٨٢) انظر سير اعلام النبلاء للذهبى جـ ٤ ص ٥٠٠ ، وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٤

(١٨٣) انظر — ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٤٦ — وابن عبد الحكيم — فتوح مصر ص ١٤١

وان سليمان كان قد كتب إلى موسى ليتمهل فى مسيرته ، حتى لايصل دمشق إلا بعد موت أخيه الوليد — الذى كان مريضا — وحينئذ يكون هو قد أصبح خليفة ، وتكون تلك الغنائم من نصيبه ، وهــذه روايات مدسوسة ومن الواضح انها وضعت لتنال من الخلفاءالأمويين ، وتصورهم على انهم نهمون حريصون على المال ، يحاولون جمعه بأى طريقة ، حتى ولوضحوا فى ذلك بدينهم وخلقهم ، وإلا ، فكيف يعــرف سليمان أن أخاه سيموت ؟ فلم يكن الوليد طاعنا فى السن ، حتى يكون موته متوقعا ، وهب أن لوليد قد شفى من مرضه ، وعلم بماصنع أخوه ، فكيف يكون شكل العلاقات بينهما ،ثم هل من الممكن أن يكون سليمان الورع التقى متهافتا على المال إلى حد أن يتمنى من أجله موت أخيه ؟ لا يمكن أن يكون سليمان كذلك ، فلدينا من الروايات مايؤكد عفته عن أمــوال المسلمين ، وتوخيه العــدل فى جمعها ، فابن عبد الحكم يروى فى قصة موسى مع سليمان ما يؤكد هــذا حيث يقول : « فبينما سليمان يقلب تلك الهدايا ، إذ انبعث رجل من أصحاب موسى بن نصير ، يقال له : عيسى بن عبدالله الطويل ، من أهل المدينة ، وكان على الغنائم ، فقال ياأمير المؤمنين إن الله قد أغناك بالحلال عن الحرام ، وإنى صاحب هذه المقاسم،وإن موسى لم يخرج خمسا منجميع ما اتاك به ،فغضب سليمان ، وقام عن سريره ، فدخل منزله ثم خـــرج إلى الناس ، فقال : نعم قد أغنانى الله بالحلال عن الحرام وامر بإدخال ذلك بيت المال »(١٨٤) ثم يتبع ابن الحكم ذلك بفقرة غاية فى الأهمية حيث يقول : « وكان سليمان قد أمر موسى برفع حوائجه وحوائج من معه »(١٨٥) ، وهذه العبارة لاتقال لرجل موضع الغضب والنقمة من الخليفة بل لدينـــا ما هو أكثر دلالة فى تأكيد عفة سليمان بن عبدالملك ، وجميع خلفـــاء بنى أمية عن أمـــوال المسلمين ، حيث يقول صاحب أخبار مجموعة « إن الخلفاء — الأمويين — كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفـــاق ، يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولادرهم ، حتى يحلف الوفـــد بالله الذى لا إله إلا هو ، مافيها دينـــار

(١٨٤) فتوح مصر ص ١٤١

(١٨٥) المصدر السابق ص ١٤١

ولادرهم ، إلا أخذ بحقه ، وإنه فضل أعطيـــات أهل البلد . من المقاتلة والذرية ، بعد ان أخذ كل ذى حق حقه .. فما وفدوا بخراج إفريقية فى زمن سليمان — بن عبدالملك — أمروا بأن يحلفـــوا فحلف الثمانية ، ونكل اسماعيل بن عبيدالله ، مولى بنى مخزوم ، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولانى ، فأعجب ذلك عمر بن عبدالعزيز ، من فعلهما ، ثم ضمهما إلى نفسه ، فاختبر منهماصلاحا وفضلا ، فلما ولى عمر ولىاسماعيل إفريقية ، وولى السمح بن مالك الأندلس »(١٨٦) . فهل يكفى ذلك فى الدلالة على عفة سليمان وورعه عن أموال المسلمين وأن ماروى من غضبه على موسى بسبب الأموال والهدايا لم يكن إلا محض اختلاق .

اما قتيبة بن مسلم ، فقد راح ضحية تسرعه يرحمه الله(١٨٧) . ولم يكن لسليمان فى قتله ذنب وأما محمد بن القاسم ، فقد راح ضحية أحقـــاد شخصية بين والى العراق صالح بن عبد الرحمن وبين آل الحجاج(١٨٨) ، ولم يثبت أن سليمان أمر بقتل محمدبن القاسم ، وإذا كان هناكمن مسئولية على سليمان فقد تكون محصورة فى السكوت على قتل محمد بن القاسم ، وعدم معاقبة قاتليه ، وقد يكون له مبرراته فى ذلك ، ولو كان الأمر يحتاج إلى قصاص لما سكت عنه عمر بن عبد العزيز .

---

(١٨٦) انظر اخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها — لمؤلف مجهول ص ٢٢ — ٢٣ ولمزيد من التفصيل عن علاقة سليمان بن عبد الملك بالقائد الكبير موسى بن نصير وبراءةسليمان مما نسب إليه فى شأن موسى ، انظر البحث القيم الذى كتبه الدكتور محمد شتازيتون بعنوان « تحليل تاريخى لما يذكره المؤرخين عن موسى بن نصير فى فتح الأندلس » فى مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض العدد الثانى ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ص ٣٥٩ — ٣٦٨ .

(١٨٧) لم يأمر سليمان بقتل قتيبة بل أرسل له كتاب توليته على خراسان ، ولكنه هو الذى تسرع وأعلن الثورة وخلع طاعة الخليفة ، مما أدى إلى خروج الجند عليه وقتله ، انظر الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص٥٠٦ — ٥٢٢ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٢ — ٢٠

(١٨٨) انظر قصة مقتل محمد بن القاسم فى البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٣٨

وخلاصة القول أن سليمان بن عبد الملك عند الناس ، كان مفتاحا للخير وعند العلماء كان من أمثل وأفضل الخلفاء وأعدلهم ، يقول ابن كثير : كان سليمان بن عبد الملك « يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق ، واهله ، واتباع القرآن والسنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية ، وقد كان رحمه الله آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مــرج دابق ، لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى ، المسماة بالقسطنطينية ، الا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت ، فمات هنالك .. فحصل له بهذه النية أجر الرباط فى سبيل الله،فهو ان شاء الله ممن يجرى له ثوابه إلى يوم القيامة رحمه الله»(١٨٩)

وقد توج سليمان اعماله بعمل جليل ، ولو لم يكن له غيره لكفاه ، وهو تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة من بعده(١٩٠) ، وهذا من أقوى البراهين على صلاح سليمان وتقواه ، وحرصه على مصلحة المسلمين ، فقد ارتفع فوق عواطفه نحو بنيه وأخوته وآثر ابن عمه عمر لصلاحه وتقواه وعدله ، وعقد عقدا ليس للشيطان فيه نصيب على حد تعبيره هو . فرحم الله سليمان رحمة واسعة على هذه المكرمة الجليلة .

لكن بعض المؤرخين رغم كل تلك الأعمال الجليلة التى قام بها سليمان ، راحوا يملؤون صفحات من كتبهمبحكايات مدسوسة — لايصدقها العقل — عن نهم سليمان وشرهه فى الأكل ، ومن ذلك مــا يرويه المسعودى أن سليمان « خرج من الحمام ذات يوم ، وقد اشتد جوعه ، فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه ، فأمر أنيقدم إليه مالحق من الشواء ، فقدم إليه عشرون خروفا — هكذا — فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة ، ثم قرب بعد ذلك الطعام ، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئا »(١٩١) .

وقد فطن ابن كثير إلى أن مانسب إلى سليمان من ذلك غير معقول : فقال : « وذكروا أن سليمان كان نهما فى الأكل ، وقد نقلوا عنه فى ذلك

---

(١٨٩) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٨٣

(١٩٠) انظر عهد سليمان لعمر بن عبد العزيز ومابذله من جهد فى ذلك فى الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٥٠ ومابعدها . والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ١٨١ وما بعدها .

(١٩١) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٥

أشياء غريبة » ، فمن ذلك أنه اصطبح فى بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية ، وأربع وثمانين كلوة بشحمها ، وثمانين جردقة ، ثم أكل مع الناس على العادة فى السماط العام(١٩٢) « ولا أدرى كيف تتسع معدة الإنسان إلى كل هذه الكميات من الطعام ، فالمعدة لا تقبل زيادة على حجمها ، ثم إن ابن كثير يذكر بعد ذلك ما يتنافى مع هذا ، حيث يقول : وكان سليمان طويلا جميلا أبيض نحيفا حسن الوجه »(١٩٣) والذى يأكل هذه الكميات لا يمكن أن يكون نحيفا جميلا ، ولكن الذين اخترعوا هذه الحكايات ليتخذوا منها نوادر لتسلية خلفاء بنى العباس(١٩٤) ، نسوا ذلك ، فتورطوا فى الكذب ، « وقد قيل إذا كنت كذوبا فكن ذكورا »(١٩٥) ذكرت هذا ليعرف الناس ، أن بعض المؤرخين الذين يبغضون بنى أمية لم يكونوا يدعون فرصة للنيل منهم والتشهير بهم إلا انتهزوها حتى لو دفعهم ذلك إلى الكذب ، إرضاء لخلفاء بنى العباس ، ونيل جوائزهم .

توفى سليمان بن عبد الملك ، فى مرج دابق — مرابطا فى سبيل الله لعشر خلون — وقيل لعشر بقين — من شهر صفر ٩٩هـ . وبويع فى اليوم نفسه لابن عمه عمر بن عبد العزيز (١٩٦) . وقد خلف سليمان أربعة عشر ولدا ذكرا(١٩٧) .

---

(١٩٢) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٨٠

(١٩٣) المصدر السابق جـ ٩ ص ١٨٣

(١٩٤) انظر ما يرويه المسعودى فى ذلك من حكايات الاصعمى وغيره للرشيد عن نهم سليمان فى الأكل — مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٥

(١٩٥) انظر تعليق ناشر كتاب البداية والنهاية لابن كثير على هذه الأخبار السخيفة جـ ٩ ص ١٨٠

(١٩٦) انظر ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٨٥ — وتاريخ خليفة بن خياط ص ٣١٦ — ٣١٧ والمسعودى — مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩٢ — ١٩٣

(١٩٧) المعارف لابن قتيبة ص ٣٦١

٨ — عمر بن عبـــد العزيز
٩٩ — ١٠١ هـ

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن امية ، وامه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وقد ولد بالدينة المنورة ، واختلف فى تاريخ مولده بين أعوام ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ هـ(١٩٨) ويصفه الذهبى بصفات عظيمة تدل على مدى إعجابه به فيقول : «الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد ، العابد ، السيد ، أمير المؤمنين حقا ، أبو حفص الأموى ثم المدنى ثم المصرى ، الخليفةالزاهد الراشد ، أشج بنى أمية »(١٩٩). وكان امير المؤمنين عمردرة فى جبين الخلافة الأموية بلالخلافة الإسلامية وهوممن يفخر بهم الإسلام والمسلمين ، بل ممن تفخر بهم البشرية فى كل العصور ، ذلك النجم الساطع الذى رفع أعلام الحق خفاقة عاليه بين الناس وجـــدد فى نفوسهم الأمل فى العدل والرحمة والبر والحياة الإنسانية الفاضلة .

نشأ عمر بن عبد العزيز فى المدينة ، بناء على رغبة أبيه الذى تولى إمارة مصر بعد مولد ابنه بقليل وظل واليا عليها حتى مات بها (٦٥ — ٨٥هـ)

---

(١٩٨) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٣٣٠ ومابعدها وتاريخ خليفة بن خياط ص ٣٢١ — ٣٢٢ وتاريخ الطبرى جـ ٦ ص ٥٦٥ ومابعدها وتاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٠١ ومابعدها ، ومـــروج الذهب للمسعودى جـ ٣ ص ١٩٢ وما بعدها . والفخرى لابن الطقطقا ص ١٢٩ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٣٨ وما بعدها والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ١٩٢ وما بعدها ، وستير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٥ ص ١١٤

(١٩٩) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١١٤

ولقد أثار عمر بن عبد العزيز بعدله وزهـــده إعجاب الناس قديمـــا وحديثا،فكتبوا عنه الكثير،من ذلك فى القديم سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ، وســـيرة عمر بن عبد العزيز ، للآجرى ، وفى العصر الحديث كتب الاستاذ عبد العزيز سيد الأهل كتاب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، والدكتور عماد الدين خليل كتابه « ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز » .

الإ أنه أبقى ابنه عمر فى المدينة (٢٠٠) ، لينشأ بين أخواله ، من أبناء وأحفاد الفاروق عمر بن الخطاب ، ولينهل من علم شيوخها ، ويتأدب بآدابهم ، فقد كانت المدينة يومئذ موئل العلم والفقه والحديث والتقى والورع والصلاح ، ولا شك أن عمر تأثر كثيرا بهـذه التربية وهـذه البيئة الصالحة ، وروى الحديث عن كثير من الصحابة والتابعين ، فروى عن أنس بن مالك وعبد الله ابن جعفر بن أبى طالب ، والسائب بن يزيد ، وسهل بن سعد ، ويوسف بن عبد الله بن سلام ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن والقاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود(٢٠١) .

وكان عمر فقيها مجتهدا ، وتابعيا جليلا ، وهو حجة عند العلماء ، فقد قال الإمام أحمد بن حنبل : « لا أرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز »(٢٠٢) .

وقد روى عنه كثير من التابعين ، منهم أبو بكر بن حزم ، ورجاء بن حيوة وابن المنكدر والزهرى ، وعنبسة بن سعيد ، وأيوب السختيانى ، وابنه عبد العزيز وأخوه زبان،وكثيرون غيرهم،ولفقه عمر واجتهاده ، وصلاحه، كان شيوخه يأخذون عنه الحديث ، فقد حدث عنه أبو سلمة بن عبد الرحمن وهو من شيوخه ، فهو كما قيل عنه : « معلم العلماء ، وروى عن ميمون بن مهران أنه قال « أتينا عمر بن عبد العزيز ، ونحن نرى أنه يحتاج إلينا ، فما كنا معه إلا تلامذة(٢٠٤) ظل عمر فى المدينة حتى وفاة أبيه سنة ٨٥هـ ، فأخذه عمـه عبـد الملك بن مروان إلى دمشق وخلطه بأولاده ، وزوجه ابنتـه فاطمه (٢٠٥) ، ثم عينه واليـا على إمارة صغيرة فى الشام ، وهى إمارة

---

(٢٠٠) انظر الذهبى — سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١١٦

(٢٠١) المصدر السابق جـ ٥ ص ١١٤ ، وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٢

(٢٠٢) ابن كثير المصدر السابق جـ ٩ ص ١٩٢

(٢٠٣) الذهبى — سير اعلام النبلاء جـ ٥ ص ١١٤

(٢٠٤) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٢٠

(٢٠٥) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٣ ، والذهبى — سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١١٧

خناصرة من أعمال حلب ، ولعل عبد الملك قصد من ذلك أن يعطيه فرصة ليتدرب على الإدارة وفن الحكم ، وظل واليا عليها حتى توفى عمه عبد الملك سنة ٨٦ هـ .

عمر بن عبد العزيز والى المدينة :

لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة بعد أبيه سنة ٨٦ هـ ظل على الإحسان إلى ابن عمه ، وعامله كما كان يعامله أبوه ، ثم عينه واليا على المدينة سنة ٨٧ هـ(٢٠٦) ، وكان تعيين عمر واليا على المدينة دليلا على رغبة الوليد فى إقامة العدل بينهم والإحسان إليهم ، حيث كان هشام بن إسماعيل المخزومى — والى المدينة قبل عمر — قد أساء السيرة فى أهلها ، فأراد الوليد أن يعوضهم برجل يعتبرونه واحدا منهم ، ولاشك أن أهل المدينة سعدوا بولاية عمر الذى ظهرت رغبته فى العدل منذ اللحظات الأولى ، فقد جمع عشرة من خيرة رجالها ، وهم أساتذته وأصدقاؤه ، واتخذهم أعوانا ومستشارين يقول الذهبى : « لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة واليا ، فصلى الظهر دعا بعشرة : عروة ، وعبيدالله ، وسليمان بن يسار ، والقاسم ، وسالما ، وخارجة ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ، وأبا بكر بن سليمان بن أبى حثمة ، وعبد الله ابن عامر بن ربيعة فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال إنى دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم ، أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى ، أو بلغكم عن عامل ظلامة ، فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغنى ، فجزوه خيرا وافترقوا »(٢٠٧) .

وقد ظل عمر واليا على المدينة حوالى ست سنوات كان فيها موضع الرضا من أهلها . وقد أقام الحج أثناء ولايته عدة مرات ، كما جدد بناء مسجد الرسول ﷺ بناء على أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك ،

(٢٠٦) تاريخ — خليفة بن خياط ص ٣٠١

(٢٠٧) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١١٨ — وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٤

وكان عمر يعتبر فترة ولايته على المدينة من أسعد أيام حياته ، ولم يعكر صفو أيامه فيها إلا حادثة خبيب بن عبد الله بن الزبير ، فقد كتب الوليد إلى عمر بضرب خبيب ، فضربه عمر ، بناء على أمر الخليفة ، فمات من أثر الضرب ، فهزت هذه الحادثة نفس عمر ، وظل طول حياته يذكرها نادما وخائفا ، وكان إذا سمع من أحد ثناء عليه يقول : فمن لى بخبيب ؟(٢٠٩) .

وفى سنة ٩٣ هـ عزل الوليد عمر عن المدينة بناء على طلب من الحجاج بن يوسفى الثقفى — والى العراق — الذى شكا إلى الوليد من أن العصاة والخارجين على النظام من أهل العراق ، يلجأون إلى عمر ، ويجدون عنده المأوى والحماية(٢١٠) .

وقيل لأنه رفض موافقة الوليد على عزل أخيه سليمان من ولاية العهد ، وتولية ابنه عبد العزيز ، وقال للوليد : إن لسليمان فى أعناقنا بيعة . وكان لعزله عن المدينة أثره على نفسيته فقد تألم لذلك ، وكان يخشى أن يكون ممن نفتهم المدينة(٢١١) ، عاد عمر إلى الشام ، ولم يل عملا رسميا بقية خلافة الوليد ، فلما مات الوليد وتولى سليمان بن عبد الملك ٩٦ — ٩٩ هـ — أصبح عمر من أقرب الناس إليه ، ومن كبار أعوانه وناصحيه ، ومستشاريه ، وظل يلازمه طوال خلافته .

عمر بن عبد العزيز والخلافة :

عرفنا — أن سليمان بن عبد الملك توج أعماله الصالحة بتولية عمر ابن عبد العزيز الخلافة ، لما توسمه فيه من الصلاح والتقوى والميل

---

(٢٠٨) تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٠١ — ٣٠٢

(٢٠٩) الذهبى — سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٢٠ ، الطبرى تاريخ جـ ٦ ص ٤٨٢

(٢١٠) الطبرى — المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٨١ — ٤٨٢

(٢١١) الطبرى تاريخ جـ ٦ ص ٤٨٢ والذهبى سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٢١

إلى العدل ، والحق أن عمر لم يكن راغبا فى الخلافة(٢١٢) ، فقد كان يعرف انهـا حمل ثقيل ومسئولية جسيمة ، وكان يخاف من التقصير فى مسئولياتها ، دخل عليه سـالم السدى وكان من خاصته بعد أن بويع بالخلافة ، فقـال له عمر : أسرك ماوليت أم ساءك ؟ فقـال : سرنى للنـاس وساءنى لك ، قال : إنى أخاف أن أكون قـد أوبقت نفسى قال : ما أحسن لحالك إن كنت تخاف ، إنى أخاف عليك الا تخاف ، قال : عظنى ، قال : أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة(٢١٣) .

لقد كانت الخلافة نقطة تحول هائلة فى حياة عمر بن عبد العزيز من ناحية ، وذات اثر كبير فى تاريخ الدولة الأموية ، بل فى التاريخ الإسلامى كله من ناحية ثانية ، اما أثرها فى حياة عمر نفسـه ، فقد فصلت بين عهدين ، أو مرحلتين ، مرحلة كان عمر فيهـا — رغم صلاحه وتقواه — يتقلب فى النعم ، ويحيا حياة مترفة ناعمة يلبس لين الثياب ، ويأكل طيب الطعـام ويتبختر فى مشيته حتى عرفت مشيته بالعمرية ، لتميزها ، وكان إذا مر فى شارع تفوح منه رائحة المسك ، كما كان كثير العناية بتمشيط شعره ، وحسن مظهره(٢١٤) .

أما المرحلة التى قضاها عمر — من حياته — فى الخلافة ، فقد تميزت بالزهد الصـادق والبعد عن زخرف الحيـاة وزينتها وصرفه إحسـاسه العميق بالمسئولية عن الاستمتاع بمباهج الحياة التى كان ينهل منها قبل أن يصـبح خليفة ، حتى قسا على نفسـه فى ذلك اعتقادا منه أنه ربما يكون قد أسرف فى الحياة الناعمة قبل الخلافة فكأنه أراد أن يكفر عن ذلك بالقسوة على نفسـه ولذلك رفض استعمال مراكب الخلافة بعـد بيعته ، لمـا فيها من الأبهة والفخامة ، وقال : دابتى أرفق لى .. ثـم رفض أن ينزل فى دار الخلافة وقال : فى فسطاطى كفاية « .. وبـاع

---

(٢١٢) انظر الطبرى — تاريخ ج ٦ ص ٥٥١

(٢١٣) المسعودى — مروج الذهب ج ٣ ص ١٩٤

(٢١٤) انظر المسعودى — مروج الذهب ج ٣ ص ١٩٦ ، والذهبى — سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١١٦

مراكب الخلافة وكانت من الخيول الجياد المثمنة . وجعل أثمانها فى بيت المال »(٢١٥) . وتروى المصادر الكثير من القصص عن زهد عمر ، لدرجة أن أخبار زهده ، ربما تكون قد غطت على جوانب أكثر أهمية للمسلمين فى شخصية عمر بن عبد العزيز الخليفة من الزهد نفسه ، لأن الزهد ربما يكون فضيلة تخصه هو وحده ، أما ما يخص المسلمين والتاريخ فمنهجه فى الحكم ، وأسلوبه فى الإدارة ، مما سنعرف منه طرفا بعد قليل .

أما أثر خلافة عمر بن عبد العزيز فى التاريخ الإسلامى ، فيتلخص فى أنه قد قدم الدليل الساطع على أنه إذا صحت عزيمة الحاكم المسلم ، واستشعر المسئولية عن الأمة أمام الله تعالى ، أصبح فى إمكانه أن يقوم الأحوال المعوجة وأن يرد المنحرفين إلى سواء السبيل ، ومما لا شك فيه أن بعض الخلفاء الأمويين وكثيرا من الأمراء قد كانوا يحبون حياة الترف ، فاقتنوا القصور وزينوها وجملوها ، وقد لايكون ذلك حراما ، فقد رأى عمر بن الخطاب معاوية على هيئة من الأبهة ، والفخامة ، ولم ينهه عن ذلك ، ولو كان حراما لما سكت عنه عمر بن الخطاب . ولكن عمر بن عبد العزيز ربما قصد أن يقف وقفة أمام هذا التيار من الترف . لما كان يخشاه من استمراره على حيوية الأمة وفتوتها ، فليس الخطر على الأمم من الاستغراق فى حياة النعيم ، الذى يصرف الرجال عن العمل الجاد، وبخاصة إذا كان هؤلاء الرجال ممن تقع عليهم مسئولية الدولة وإدارة دفة الأمور فيها ، وليس سرا أن الذى كان يخشاه عمر قد حدث فيما بعد ، وأن اهتمام المتأخرين من خلفاء بنى أمية بالحياة الناعمة أكثر من اهتمامهم بأمور الدولة ، وترك ذلك للولاة والعمال كان من أهم أسباب زوال دولتهم(٢١٦) .

---

(٢١٥) الذهبى — سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٢٥ وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٨

(٢١٦) انظر المسعودى — مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٤١ ، وعبد الحى الكتانى التراتيب الادارية جـ ١ ص ١٤ — ١٥

سياسة عمر بن عبد العزيز الداخلية :

تعتبر سياسة عمر الداخلية من أهم الجوانب فى خلافته ، ومع ذلك فلم يحظ هذا الجانب حتى الآن بدراسة جادة تبين المنهج الذى سار عليه فيه ، وتستقصى أطرافه ، وتجمع شتاته حتى تتكامل صورته منهجا وموضوعا ، ولعل السبب فى ذلك هو انبهار الناس وانشغالهم بما كان يتحلى به ذلك الخليفة من سمات بارزة — وهى العدل والزهد والتقوى .

ونحن هنا لا نتناول هذا الجانب من كل نواحيه ، ولكننا نسلط الأضواء على بعض زواياه حتى يلتفت إليه الباحثون ورواد الدراسات التاريخية .

لقد كان عمر — رضى الله عنه — إداريا ممتازا ، ولا غرابة فى ذلك فقد عركته تجربة الإدارة منذ أن كان واليا على خناصرة والمدينة .. ثم تكاملت عناصر التجربة بعد أن أصبح من أقرب الناس إلى سليمان ابن عبد العزيز مدة خلافته . يرقب الحوادث عنقرب ويتمرس على شئون الدولة وتسيير دفة الحكم فيها ، وما أن تولى مقاليد الخلافة حتى راح يبذل كل جهده ، ويفنى ما تبقى من عمره فى إصلاح أمور الدولة ، واستقرار الأمن والرخاء فى ربوعها ، وتحقيق العدالة والكفاية فى كل أرجائها . وقد اتخذ لذلك منهجا كان من أبرز معامله . الحرص على مال المسلمين ، والمحافظة على الوقت والجهد ، وسرعة التصرف فى الأمور والبعد عن البيروقراطية ، وحسن اختيار القضاة والولاة والموظفين وإزالة آثار كل عمل لايساير روح الإسلام ، وتحقيق التوازن بين الناس ومجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى لاقناعهم وردهم الى حظيرة الجماعة ، كما كان الطابع لهذا المنهج هو العدل والانصاف والرحمة والإحسان .

كان عمر بن عبدالعزيز يعرف قيمة المال والوقت ، وهى الأشياء التى يبددها المسلمون الآن فيما لايفيد ، ويعانون من ذلك مالا يخفى على أحد من التأخر والتخلف ، ولكن عمر الفقيه كان يعرف أن صيانة المال واحترام الوقت من أهم ما يحرص عليه الإسلام ، لترقى الأمة الإسلامية ، وتتزن على الطريق السوى خطاها ، فانظر ماذا قال عمر حين جاءه كتاب من أبى بكر بن حزم ، والى المدينة يطلب ورقا يكتب فيه أمور الولاية ، فكان رد

الخليفة عليه « أدق قلمك وقارب بين أسطرك ، فإنى أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالا ينتفعون به »(٢١٧) فانظر إلى أى مدى بلغ حرصه على المال والوقت والجهد ، فيأمر واليه أن يجعل قلمه دقيقا لئلا يشغل مساحة أكبر من الورق ، وأن يقارب بين السطور ويوجــز فى الكلام توفيرا للوقت والمال ، وقد يبدو هذا المـثل بسيطا لبعض الناس ، ولكنه عظيم الدلالة على فهم الحاكم المسلم لقيمة المال والوقت ، وهما من مقومات الحياة .

ومن حرص عمر على الوقت انه كان لا يعرف تأخير عمل اليوم إلى الغد ، فيومه كله عمل ، ولما لاحظ عليه بعض أهله مظاهر الإرهاق من كثرة العمل ، تقدم إليه قائلا : « يا أمير المؤمنين لو ركبت — فى نزهة — فتروحت ! أجابهم : فمن يجزى عنى عمل ذلك اليوم ؟ قال : تجزيه من الغد ، أجاب عمر : فدحنى عمل يوم واحد ، فكيف إذا اجتمع على عمل يومين »(٢١٨) . كما كان يعمل على سرعة تصريف الأمــور وكان يضيق بالعامل الذى لايحسن التصرف ، أو مانسميه اليــوم بالبيروقراطى ، الذى يحب أن يراجع رؤساءه فى كلّ كبيرة وصغيرة ، فقد كتب إلى عامله على المدينة « أن قسم فى ولد على بن أبى طالب عشرة آلافَ دينار فكتب إليه : أن عليا قد ولد له فى عدة قبائلَ من قريش ، ففى أى ولده ؟ فكتب إليه : لو كتبت إليك فى شاة تذبحها لكتبت إلى ، أسوداء أم بيضاء ؟ إذا أتاك كتابى هذا فاقسم فى ولد على من فاطمة رضوان الله عليهــم عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم »(٢١٩) .

وكان عمر غير راض عن الأسلوب الذى يدير به بعض عمال بنى أمية أمور الدولة ، وكان يرى أنهم تجاوزوا الحد فى القسوة والجبروت ، وقد مر بنا انه نجح فى التأثير على سليمان بن عبد الملك — الذى أنس فيه ميلا إلى العدل والانصاف والرحمة — فاستطاع أن يقصى بقايا تلاميذ الحجاج وأبناء

---

(٢١٧) الذهبى — سير اعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٣٢ ، وقد ذكر الطبرى جـ ٦ ص ٥٧١ مثلا آخر يؤكد هذا الأسلوب الذى كان طابع إدارة عمر بن عبدالعزيز .

(٢١٨) سيرة عمر بن العزيز لابن عبدالحكم ص ٤٩ .

(٢١٩) انظر المسعودى — مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩٤ .

مدرسته فى الإدارة . ولكن مـــع ذلك بقى فى إدارة الدولة رجال لا يتفق أسلوبهم الإدارى مع نهج عمر ، مثل يزيد بن المهلب وآله ، الذين كان عمر يقول عنهم : هؤلاء جبابرة ولاأحب مثلهم ، ولكن هؤلاء كانوا رجال سليمان فأبقى عليهم فلما آلت الخلافة إلى عمر ، قرر أن يقصى كل عامل لايرتاح إليه ، فعزل يزيد بن المهلب(٢٢٠) وأمثاله ، وانتقى أفضل وأصلح الرجال وولاهم الأعمال . « ويبدو جليا من استعراض أسماء الولاة والقضاة وسائر الموظفين الذين اختارهـــم عمر بن عبدالعزيز ، حرصه على الاعتماد على أكثر العناصر كفاءة وعلما وإيمانا وقبولا لدى جماهير المسلمين »(٢٢١) .

ولـــم يكن عمر يكتفى بحسن الاختيار بعد الابتـــلاء ، بل كان يتابع ويسائل ، ويرسم لعماله المنهج الذى ينبغى عليهم أن يطبقوه ليقيموا العدل بين الناس ، كتب إلى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب « سلام عليك ، أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله ، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل والإحسان ، فلا يكونن شىء أهم إليك من نفسك فإنه لاقليل من الإثم ، ولاتحمل خرابا على عامر ، ولاعامرا على خراب ، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر ، ولايؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض . فاتبع فى ذلك أمرى ، فإنى قد وليتك من ذلك ما ولانى الله ولا تعجل دونى بقطع ولا صلب ، حتى تراجعنى فيه ، وانظر من أراد أن يحج من الذريـــة فعجل له مائة يحج بها والسلام »(٢٢٢) .

هكذا عمل عمر على إزالة كل أثر من الآثار التى تراكمت من قبل ، ولم يكن راضيا عنها ، أو كان يرى أنها تنافى روح الإسلام ، ولما كان هو نفسه

---

(٢٢٠) انظر الطبرى — تاريخ — جـ ٦ ص ٥٥٦ — ٥٥٨ .

(٢٢١) انظر د . عماد الدين خليل — ملامح الانقلاب الاسلامى ص ١٥٦ ، وعن أسماء عمال عمر وقضائه : انظر خليفة بن خياط ص ٣٢٢ — ٣٢٥ .

(٢٢٢) الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٦٩ — وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٦١ .

أميرا من أمراء بنى أمية ، فقد آلت إليه أموال وهدايا ، كان يرى أنه لم يكن يستحقها ، فبدأ بنفسه وردها إلى بيت المال ، ثم ثنى بأقربائه واستقصى أموالهم فما رأى أنه أخذ بدون وجه حق ، أخذه ورده إلى بيت المال ولم يقبل فى ذلك مناقشة أو شفاعة من أحـــد ، فقد رفض شفاعة عمته فاطمة عندما وسطوها عنده لتشفع لهم(٢٢٣) .

ومن الآثار السيئة التى وجدها عمر وحرص على إزالتها بكل عزم وتصميم ظاهرة أخذ الجزية من الذين أسلموا حديثا ، فقد كان بعض عمال بنى أمية لما أعوزهم المال بسبب الحروب والثورات ، فقد أبقوا الجزية على من كانوا يدخلون فى الإسلام من أبناء البلاد المفتوحة ، وزعموا أن إسلام هؤلاء لم يكن صادقا ، وأن إعفاءهم من الجزية قد أضر ببيت المال ، وابتدعوا بدعة اختبار من أسلموا بالختان ، ولكن عمر أنبهم على ذلك ، فقد كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمى وإلى خراسان « انظر من صلى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية فسارع الناس إلى الإســـلام ، فقيل للجراح إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفورا من الجزية ، فامتحنهم بالختان ، فكتب الجراح بذلك إلى عمر ، فكتب عمر إليه ، إن الله بعث محمدا ﷺ داعيا ولم يبعثه خاتنا(٢٢٤) وعزل الجراح عن خراسان وولى عبد الرحمن بن نعيم القشيرى ، ثم ولى على الخراج عقبة بن زرعة الطائى وكتب إليه « إن للسلطان أركانا لا يثبت إلا بها ، فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب المال ركن ، والركن الرابع أنا ، وليس ثغر من ثغور المسلمين أهم إلى ، ولا أعظم عندى من ثغر خراسان فاستوعب الخراج وأحرزه فى غير ظلم فإن يك كفافا لأعطياتهم فسبيل ذلك ، وإلا فاكتب إلى حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتـــهم »(٢٢٥) .

---

(٢٢٣) ابن كثير — البداية والنهايـــة جـ ٩ ص ٢٠٠ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٦٤ .

(٢٢٤) الطبرى — تاريخ — جـ ٦ ص ٥٥٩ — وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٥١ .

(٢٢٥) الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٦٨ .

فالمال مهم ، ولكن العدل أهم ، عند الخليفة عمر ، لأن المال وجبايته عنده وسيلة وليست غاية .

وقد يكون من الصعب استقصاء إصلاحات عمر بن عبد العزيز المالية والإدارية ولكن يكفى أن نقول على وجه الإجمال إن سياسته المالية قضت على الفقر وحققت التوازن بين الناس ، حتى لم يعد هناك فقير يحتاج إلى الصدقة ، يروى الذهبى عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عمر بن أسيد ، قال : « والله مامات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح حتى يرجع بماله كله ، قد أغنى عمر الناس »(٢٢٦) .

ولما كان عمر يعتبر نفسه مسئولا عن الأمة كلها ، فليس هناك أحد أولى به من أحد ، وفى ضوء هذا التصور نظر إلى الخوارج ، الذين ناصبوا الدولة الأموية العداء منذ قيامها ، ولم يكد صراعهم معها ينقطع ، وادرك عمر أن هؤلاء الناس قد يكونون طلاب آخرة ، ولكنهم قد أخطأوا الطريق إليها فجاهدوا فى غير ميدانها وبددوا طاقاتهم وطاقات الدولة فى حروب داخلية ، لا طائل من ورائها ، بل كانت لها آثارها السيئة عليهم وعلى الدولة ، فرأى من واجبه أن يبصرهم بخطأ موقفهم فدعاهم إلى محاورته ، فاستجابوا ، وأرسل له زعيمهم شوذب الخارجى اثنين من أتباعه ، ليحاوراه ، وبدأ عمر الحوار ، فقال لهم : « إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدنيا ، ولكنكم أردتم الآخرة ، وأخطأتم طريقها ، وإنى سائلكم عن أمور ، فبالله لتصدقننى عنها » وبدأ يسألهم وهم يجيبون ، وظهرت حجته عليهم فى جميع القضايا التى اثاروها إلا مسألة واحدة ، وجد عمر نفسه عاجزا عن تبريرها ، وهى ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك ، فطلب منهم أن ينظروه ليفكر فى الأمر ، ورضى الرجلان بذلك ، وقال له أحدهما « ماسمعت كاليوم قط حجة أبين وأقرب ماخذا من حجتك . اما انا فاشهد أنك على الحق وأنا برىء ممن برىء منك » واقام عند عمر ورفض العودة إلى الخوارج ، أما الآخر فسأله عمر ، « فأنت ما تقول ؟ قال : ما احسن ماقلت وأبين ماوصفت ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض قولك

---

(٢٢٦) سير اعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٣١ .

عليهم فانظر ماحجتهم »(٢٢٧) .ولكن بقيت هذه المسألة معلقة دون حل ، لأن عمر لم يكن قادرا على تنحية يزيد من ولاية العهد ، خوفا من الفتنة فى بنى امية ، كما أن الأيام لم تمهله حتى نرى ماكان سوف يصنع ، فقد مات رضى الله عنه — بعد ذلك بقليل ، لكن مايهمنا الآن هـو الأسلوب الجديد الذى واجه به عمر الخوارج والذى كان من أثره فيهم انهملم يثوروا عليه ، وهذا يبين أن هؤلاء القوم كانوا مضللين يحتاجون إلى علاج ، ولعلهم بعد مالحق بهم من ضربات كانوا على استعداد للإندماج فى الأمة لو وجدوا بعد عمر من يواصل أسلوبه معهم . ولكن انى للخلافة مثل عمر ؟

سياسته الخارجيـة :

كما كان لعمر بن عبد العزيز وقفته فى السياسة الداخليـة ، ليعيد ما اعوج من الأمور إلى نصابه ، ويحاول إصلاح مارآه انحرافا عن الجادة ، سواء فى الناحية الإدارية ، أو المالية أو غيرها ، كذلك كانت له وقفة مماثلة فى السياسة الخارجية فقد رأى أن مساحة الدولة قد اتسعت ، وأن أطرافها قد ترامت وتباعدت ، ولعل الكثير من المشاكل والأخطـاء التى وقع فيها بعض الولاة قد نشأت عن هذا الاتساع الكبير فى مساحة الدولة ، فكل إقليم كان يضيف إلى مشاكل الدولة عبئا جديدا ، فرأى أنه من الحكمة إيقاف الفتوحات ، أو الحد منها على الأقل ، لأن التوقف عند حدود مافتح من بلاد واقاليم ، والعمل على حل مشاكلها ، وعرض الإسلام عليها بأسلوب حكيم دقيق ، وقدوة حسنة ، سوف يكون أجدى من المضى فى الفتوحات ، بل ربما لا تكون هناك حاجة بعد ذلك إلى فتح جديد ، لأن الناس سيقبلون على الإسلام من تلقاء انفسهم ، لأنهم سيجدون فيه كل مايرضيهم ، روحيا وماديا ، ومايحقق سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد تحقق ماتصوره فى ذلك وزادت حركة الإقبال على الإسلام فى البلاد المفتوحة فى عهده زيادة كبيرة واخذ عمر فى إرسال الدعاة من خيرة العلماء ليدعوا الناس إلى الإسلام(٢٢٨)

---

(٢٢٧) المسعودى — مروج الذهب جـ٣ ص٢٠١—٢٠٢ ، الطبرى— تاريخ جـ ٦ ص ٥٥٦ .

(٢٢٨) انظر بعثة العلمـاء الذين أرسلهم عمر إلى أفريقية فى ابن عذارى — البيـان المغرب جـ ١ ص ٤٨ . وسنعود إلى هذا الموضـوع بالتفصيل اكثر فى الفصل الخاص بانتشار الإسلام فى العصر الأموى .

بدلا من إرسال الجيوش للفتح . كما بدأ يرسل الكتب إلى الملوك والأمراء المعاصرين يدعوهم إلى الإســـلام ، فأرسل إلى أمراء ما وراء النهر ، وإلى ملوك الســـند ، يدعوهم إلى الإســـلام ، والطاعة ، على أن يملكهم على بلادهم ، ويكون لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهـــم ، فلما وصلتهم رسائله ، وكانت قدبلغتهمسيرته وعدله،فقبلواوأسلموا وتسموا بأسماء عربية(٢٢٩).

كما ارسل إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يدعوه إلى الإسلام(٢٣٠) ، بعـــد أن خشى علـــى المســـلمين فأمر بإعادة الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية دون جدوى منذ عهد سليمان بن الملك .

وخلاصة القول أن عمر بن عبد العزيز فى خلال سنتين وبضعة شهور قام بعدة إصلاحات هائلة فى الداخل ، وصحح مسار الدولة الإسلامية وكان موضع الرضـــا والاحترام حتى من أشد الفرق عداء للأمويين كالخـــوارج والشيعة،أما عند علماء الأمة من أهل السنة فهو من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين(٢٣١) .

ولقد تمتع الخليفة عمر بسمعة طيبة ، تجاوزت حدود الدولة الإسلامية فتروى المصادر أنه حينما وصل الوفد الذين أرسلهم عمر إلى إمبراطور الروم لدعوته إلى الإسلام ، جاءت الأخبار إلى الإمبراطور من عيونه بوفاة عمر ، فأرسل يستدعى رئيس الوفد ، فلما مثل بين يديه سأله الإمبراطور ، « أتدرى لم بعثت إليك ؟ قال : قلت لا ، قال : إن صاحب مسلحتى كتب إلى أن الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز مات ، قال : فبكيت واشتد بكائى وارتفع صوتى ، فقال لى مـــابيكيك ؟ النفسك تبكى أم له أم لأهل دينك ؟ قلت لكل أبكى ، قال : فابك لنفسك ، ولأهل دينك ، فأماعمر فلاتبكى عليه ، فإن الله لم يكن ليجمع عليه خوف الدنيا وخوف الآخرة ، ثم قال : ما عجبت لهذا الراهب الذى تعبـــد فى صومعته وترك الدنيا ، ولكن عجبت لمن أتته

---

(٢٢٩) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٤٠ .
(٢٣٠) انظر الذهبى — سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٤٢ .
(٢٣١) انظر الذهبى — سير اعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٢٠ .

الدنيا منقادة ، حتى صارت فى يده ، ثم تخلى عنها ، ثم يضيف الإمبراطور : « ولقــد بلغنى من بره وفضله وصدقه ، ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى ، لظننت أنه يحيى الموتى ، ولقد كانت تأتينى أخباره باطنا وظاهرا ، فلا أجــد أمره مع ربه إلا واحــدا ، بل باطنه أشــد حين خلوته بطاعة مولاه(٢٣٢) .

هذه شهادة إمبراطور الروم لخليفة المسلمين ، رحمك الله يا أبا حفص وجزاك عن الإسلام خيرا ، فلقد كنت عند حسن الظن بك حينما قلت لمن قال لك هذا الدعاء ، بل جزى الله الإسلام عنى خيرا .

وفاة عمــر :

لم تطل حياة هذا الخليفة المبارك ، فلقد اختطفته يد المنون ولما يتجاوز الأربعين من عمره ، ويبــدو أن انهماكه فى أمور المسلمين ومتابعة السهر والعمل فى شئون الدولة ، وعدم اهتمامه بأمر طعامه وشرابه ، قد أثر على صحته فلم يعد جسمه يقوى على المقاومة والاحتمال فلقى ربه راضية عنه قلوب رعيته ، متأثرة لفقده نفوس جيران دولته ، فلقى ربه مرضيا عنه من الأمة .

أما ما يرويه بعض المؤرخين من أن بعض بنى أمية دس له السـم فهذا أمر لم يقم عليه دليل ويبدو أن هــذا لم يكن سوى شائعة من تلك الشائعات التى روج لها أعداء بنى أمية ، فقد اتهموا معاوية رضى الله عنه بأنه دس السم للحسن بن علي وللأشتر النخعى ، ولعبد الرحمن بن خالد ابن الوليد وأن سليمان بن عبد الملك صنع هذا أيضا مع أبى هاشم بن محمد ابن الحنفية ، على أية حال لقيت هذه الروح الطاهرة ربها لخمس ليال بقين من رجب سنة ١٠١ هـ وكانت وفاة عمر بدير سمعان من أعمال حمص وخلفه فى الخلافة ابن عمه يزيد بن عبد الملك وقد ترك عمر أربعة عشر ولدا ذكرا(٢٣٤) .

---

(٢٣٢) انظر الــذهبى ســير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٢٤ — ١٤٣ والمسعودى — مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩٠

(٢٣٣) انظــر تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٢١ ، والطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٦٥

(٢٣٤) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٣٦٣

٩ ـ يزيد بن عبد الملك

١٠١ ـ ١٠٥ هـ

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، أبو خالد القرشى الأموى أمير المؤمنين ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، بويع له بالخلافة بعد عمر ابن عبد العزيز فى رجب سنة إحدى ومائة(٢٣٥) ، وكان مولده فى دمشق ، سنة إحدى أو اثنتين وسبعين،وكان قبل استخلافه يكثر من مجالسة العلماء، دخل يوما على مجلس مكحول الدمشقى ، فهم الحاضرون أن يوسعوا له ، فقال مكحول :« دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس ويتعلم التواضع»(٢٣٦) ويبدو أنه كان ليزيد ميل إلى العدل والاستقامة ، فقد حاول أن يتأسى بعمر ابن عبد العزيز ، ولكن قرناء السوء لم يتركوه ، إلا وقد انحرف عن سياسة عمر ، يقول ابن كثير : « فلما ولى ــ الخلافة ــ عزم على أن يتأسى بسيرة عمر بن عبد العزيز ، فما تركه قرناء السوء ، وحسنوا له الظلم ، قال حرملة : عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ،لما ولى يزيد بن عبد الملك قال : سيروا بسيرة عمر فمكث كذلك أربعين ليلة فأتى بأربعين شيخا فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب »(٢٣٧) إن صح

---

(٢٣٥) انظر ترجمته فى سير أعلام النبلاء ــ للذهبى ــ جـ ٥ ص ١٥٠ ــ ١٥٢ ــ تاريخ خيفة بن خياط ص ٣٣١ ــ تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣١٠ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٣٦٤ ، والطبرى تاريخ جـ ٦ ص ٥٧٤ ، وابن الأثير ــ الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٦٧ ــ وابن كثير ــ البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣١

(٢٣٦) ابن كثير ــ البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٢ .

(٢٣٧) البداية والنهاية ص ٢٣٢ والذهبى ــ سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٥٠ ــ ١٥١ ويعلق الاستاذ شعيب الأرنؤوط فى هامش ص ١٥١ من هذا الجزء من السير على هذا الخبر فيقول : « إن صح هذا الخبر ولا أخاله يصح ، فإن هؤلاء قد شهدوا زورا وبهتانا ، ونقضوا الأحاديث الصحيحة المصرحة أن كلّ إنسان خليفة كان أو أميرا أو من عامة الناس سيسألُ يوم القيامة عن كلّ تصرفاته وأعماله ويجازى بما يستحق من نعيم أو عذاب » .

هذا الخبر ، فإن هؤلاء الشيوخ لم يكونوا شيوخا فى العلم والإصلاح ، وإنما كانو شيوخا فى الضلال والإفساد ولا أظن أن الجهل قد بلغ بيزيد — وهو الذى كان يكثر من مجالسة العلماء على حد تعبير ابن كثير — درجة تجعله يصدق هـذا الذى شهدوا به ، ولا يدرك أن الخلفاء وغيرهم أمام الله سـواء ، بل محاسـبة الخلفاء أشـد ، لأن مسـئوليتهم أكبر . وإذا صرفنا النظر عن هـذه القصـة ، فإن ما تحدثنا به المصـادر تجعلنا على يقين أنه لم يتوفر ليزيد بطانة صـالحة ، كما كان رجاء بن حيوة وعمر بن عبد العزيز مع سـليمان بن عبد الملك ، وكما كان رجاء ومزاحم وميمون بن مهران والسـدى مع عمر بن عبد العزيز ، فلا احـد ينكر تأثير البطانة والجلساء على الحكام ، والحاكم بشر تتنازعه نوازع شتى ، فإذا وجد من يذكره ويعظم له المسئولية ويخوفه مساءلة الله له يوم القيامة عن أمور المسلمين ، فالغالب أن تتيقظ فيه مشاعر الاستجابة ، ويؤكد هذا قصة عمر بن هبيرة والى العـراق من قبل يزيد نفسه مع الشـعبى وابن سيرين والحسن البصرى فقد دعاهم وقال لهم : « إن يزيد بن عبد الملك خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخـذ ميثاقهم بطاعته ، وأخـذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولانى ما ترون ، يكتب إلى بالأمر من أمره فأنفذه ، وأقلده ماتقلده من ذلك ، فماترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبى قـولا فيه تقية ، فقال عمر : ماتقول ياحسن ، فقال الحسن : يابن هبيرة خف الله فى يزيد ، ولاتخف يزيد فى الله ، إن الله يمنعك من يزيد وإن يزيد لايمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث عليك ملكا فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لاينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة إنى أحذرك أن تعصى الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده فلا تتركن دين الله وعباده بسلطان الله ، فإنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق — يقول المسعودى راوى الخبر — وحكى فى هذا الخبر أن ابن هبيرة أجازهم ، وأضعف جائزة الحسـن ، فقال الشعبى : سفسفنا فسفسف لنا »(٢٣٨) . حقا إن مسئولية العلماء جسيمة ، وإذا صلحوا أصلحوا الأمراء ، وإذا صلح الأمراء صلح أمر الناس ، فلو وجد فى كل زمان ومكان أمثال الحسن البصرى يواجهون الحاكم بالنصـيحة الصـادقة ،

---

(٢٣٨) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢١٢ .

ويصدعون أمامه بكلمة الحق ، لما وجد حاكم يجرؤ على أن يوقع ظلما بأحد ، لأن وجود مثل هؤلاء العلماء الصالحين يشجع الناس على المطالبة بحقوقهم ويجعلهم لا يخضعون للظلم ، وشواهد التاريخ كثيرة على ذلك .

والحكام لا يملكون فى مثل هـذه الحالة إلا الانصياع لإرادة الناس ، وإليك مثلا آخر يبرهن على صحة ما نقول ، وهو من عهد يزيد بن عبد الملك أيضا : فقد عين يزيد بن أبى مسلم على إفريقية ، وكان كما يقول ابن عذارى : « ظلوما غشوشا »(٢٣٩) ، فلم يطـق الناس هناك صبرا على ظلمه فقتلوه ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك : « إنا لم نخلع يدا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبى مسلم سامنا مالا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه ، وأعدنا عاملك ، فكتب إليهم يزيد إنى لم أرض ما صنع يزيد بن أبى مسلم وأقر محمد ابن يزيد على عمله »(٢٤٠) ومحمد بن يزيد هذا هو الذى كان ولاه سليمان ابن عبد الملك بعد مشورة رجاء بن حيوة — كما مر فى ترجمة سليمان — كل هذا يؤكد أن يزيد بن عبد الملك قد جانبه التوفيق فى اختيار بطانـة صالحة تقوى فيه نزعة الخير وتوجهه إلى السير على هدى من سيرة سلفه العظيم عمر بن عبد العزيز ، لقد كان يزيد بن عبد الملك ذا فطره سليمة ، وما كان به من بأس كما يقول ابن كثير(٢٤١) ، وكانت لهأخبـار حسان ، كما يقول المسعودى(٢٤٢) ، ولكن سـوء حظه أوقعه فى أحضان بطانة السوء التى تغلبت على أهل الصـلاح فجرته إلى ميدانهـا ، وإن شئت فقل : إن يزيد لم تكن عنده المناعة القوية التى تقف به ضد المغريات ، فلم يستطع الصمود ، وأسلم نفسه للهـو والعبث ، وعكف على الملذات ، وتروى عنه فى ذلك أخبار عجيبة لا تتناسب مع مقام الخلافة وهيبتها وبخاصة من رجل جاء بعـد عمر بن عبد العزيز ، ولابد أن يقارن الناس بين ماكان بالأمس القريب من عدالة عمر واستقامته ، وبين ماهـو كائن من تهافت يزيد على

---

(٢٣٩) البيان المغرب — جـ ١ ص ٤٨

(٢٤٠) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٠١ .

(٢٤١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٣٢ .

(٢٤٢) مروج الذهب — جـ ٣ ص ٢١٥ .

الملذات ووقوعه أسيرا فى أيدى المغنيين والجوارى(٢٤٣) ، حتى أن قصته مع جاريته حبابة وسلامة طغت على تاريخه كله ، وتذهب الروايات إلى أنه مات حزنا وكمدا على جاريته جبـــابة بعد موتهـــا ، ولم يعش بعدها إلا اسبوعا واحدا(٢٤٤) .

ورغم سيرة يزيد هذه ، إلا أن الدولة كانت لاتزال قوية ، والأسرة الأموية عامرة بالرجال من أمثال مسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد ابن عبد الملك ومروان بن محمد وغيرهم،فقد عوض هؤلاء الرجال بفروسيتهم وبطولتهم نقص الخليفة وتصدوا بجسارة للأخطار التى هددت الدولة وامدوا فى عمرها ربع قرن أو يزيد ، فقد تصدى مسلمة بن عبد الملك لاكبر واخطر ثورة هددت الدولة الأموية بعـــد ثورة ابن الأشعث ، وهى ثورة يزيد بن المهلب ، التى عجز ولاة العراق — عدى بن ارطاة فى البصرة ، وعبد الحميد ابن عبد الرحمن فى الكوفة — عن القضاء عليها ، فاستفحل أمرها وكاد ابن المهلب يبسط سلطانه على العراق كله . فلم يجد يزيد بن عبد الملك بدا من إرسال أخيه مسلمة للقضاء على هذه الثورة قضاءا تاما(٢٤٥).كما استطاع مسلمة وهو فى العراق القضاء على ثورة الخوارج بقيادة شوذب — واسمه بسطام اليشكرى — التى اندلعت بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، واستطاع شواذب أن يهزم عدة جيوش عراقية(٢٤٦) ، ولكن مسلمة أرسل إليه جيشا عدته عشرة آلاف رجل بقيـــادة سعيد بن عمر الحرشى ، فاستطاع القضاء

---

(٢٤٣) حاول مسلمة بن عبد الملك نصيحة اخيه يزيد وتذكيره بسيرة عمر بن عبد العزيز وعدله عله يرعوى ويقتدى بعمر ، لكنه كلما عزم على ذلك يعود بسرعة إلى حياة العبث والمجون — انظر المسعودى — مروج الذهب ج ٣ ص ٢٠٧

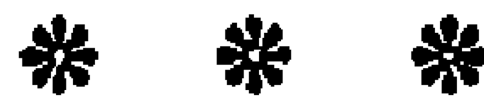
(٢٤٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١٠ وانظـــر ابن كثير — البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٣٣ .

(٢٤٥) انظر الطبرى — تاريخ ج ٦ ص ٥٩٠ وما بعدها .
وسنعود للحديث عن ثورة ابن المهلب فى الفصل الخاص بالثورات .

(٢٤٦) الطبرى — المصدر السابق ج ٦ ص ٥٧٦ وابن الأثير المصدر السابق ج ٥ ص ٦٩

عليه(٢٤٧). وهكذا بفضل هؤلاء الرجال تصدت الدولة لأعدائها فى الداخل ، وحمت حدودها فى الخارج .

وقد توفى يزيد بن عبد الملك لخمس بقين من شعبان سنة ١٠٥ هـ وكانت وفاته بالبلقاء من أرض دمشق(٢٤٨) ، وقد خلف ثمانية أولاد ذكورا(٢٤٩) ، وتولى الخلافة بعده أخوه هشام بن عبد الملك بعهد منه .



(٢٤٧) الطبرى — المصدر السابق ج ٦ ص ٥٧٧ ، وابن الأثير المصدر السابق ج ٥ ص ٧٠

(٢٤٨) الطبرى المصدر السابق ج ٧ ص ٢١ — ٢٢ .

(٢٤٩) ابن قتيبة — المعارف ج ٣٦٤

١٠ — هشام بن عبد الملك
١٠٥ — ١٢٥ هـ

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس أبو الوليد القرشى الأموى الدمشقى ، وأمه ، أم هشام بنت هشام بن اسماعيل المخزومى(٢٥٠) . يقول ابن الأثير أن مولده كان سنة اثنتين وسبعين للهجرة(٢٥١) ويقول الطبرى وابن كثير أنه كان عندما ولى الخلافة — ١٠٥ هـ — فى الرابعة والثلاثين وأشهرا(٢٥٢) ، لم تحدثنا المصادر التى بين أيدينا عن شيىء ذى بال عن حياة هشام بن عبد الملك قبل أن يلى الخلافة ، ولانعرف إذا ما كانت له مشاركة فى أعمال الدولة أو رسم سياستها فى عهود من سبقه من إخوته وابن عمه عمر بن عبد العزيز أو لا ، إلا أننا نجده متطلعا للخلافة عند موت أخيه سليمان بن عبد الملك وكان من أشد المعترضين على عهد سليمان لعمر بن عبد العزيز ، ولم تسكن نفسه ويرضى إلا بعد أن علم أن العهد تضمن البيعة لأخيه يزيد بن عبد الملك بعد عمر ، ومعنى هذا أن الخلافة ستئول مرة أخرى إلى أولاد عبد الملك وسيكون هو التالى بعد يزيد .

وتجمع المصادر التى بين أيدينا على أن هشاما كان فى خلافته ذا رأى ، حازما ذكيا عاقلا ، بل محشوا عقلا — على حد تعبير الطبرى — مدبرا ، له بصر بالأمور جليلها ، وحقيرها(٢٥٣) . حكم هشام مايقرب من عشرين سنة ١٠٥ — ١٢٥ هـ — أدار أمور الدولة فيها بحزم ومقدرة ، وحفظ لها توازنها وكان حكيما فى تعامله مع الكتلتين العربيتين الرئيسيتين

---

(٢٥٠) تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٥٦ ، تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣١٦ وما بعدها والمعارف ص ٣٦٥ والطبرى جـ ٧ ص ٢٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٨ ، ومروج الذهب جـ ٣ ص ٢١٦ ومابعدها — سير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٥ ص ٣٥١ — ٣٥٣ والبداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥١

(٢٥١) الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٢٣

(٢٥٢) الطبرى جـ ٧ ص ٢٠٢ والبداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥١

(٢٥٣) انظر الطبرى جـ ٧ ص ٢٠٢ ، البداية والنهاية جـ٩ ص٣٥١ .

فى الدولة وهمـــا اليمن وقيس ــ اللتين اشتد التنافس بينهما ــ بل احتربا أكثر من مرة .

فكانت سياسة هشام قائمة عى الموازنة بينهما ، وعدم الإنحياز إلى أى منهما على حساب الآخرى لأنه يعلم خطورة هذا الانحياز . والواقع ان قضية العصبية العربية كانت من اخطــر القضايا فى العصر الأموى ، وقد اتهم الأمويون بأنهم هم الذين اوجدوا هذه العصبية ، وكانوا يضربون بعض القبائل بالبعض الآخرإذا كان فى ذلكمصلحتهم ، وهذااتهام ظالم ،فالأمويون لم يخلقوا العصبية العربية ، بل كانت موجودة قبلهم ، وبقيت بعدهم ، وهى سمة من سمات العرب ، ومن عيوبهم الباقية على الزمن ، ورغـــم محاربة الإسلام لها واختفائها فى عهد الرســـول ﷺ وابى بكر وعمر رضى الله عنهما ، إلا انها بدأت تطل براسها من جـــديد منذ أواخر خلافة عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ بل كانت من أهــم أسباب الفتنة فى عهده ، ثم اصبحت من ابرز ظواهر التاريخ الإسلامى ، حيث حملها العرب معهم شرقا إلى خراسان وما وراء النهر ، رغربا الى إلمغرب والأندلس ، وكانت من أسباب مصائبهم هنا وهناك ، فليس صحيحا ، أن الأمويين كانوا وراء إحياء العصبية العربية ، فهى من دقائق التاريخ الإسلامى ، وإنما الصحيح ان التعامل مع هذه العصبية كان يحتاج إلى مهارة عقلية فائقة . وبعض الخلفاء الأمويين كان يتمتع بهذه المهارة ، فكان يسيطر على الموقف ويقيم التوازن بين القبائل ويعمل على إرضاء الجميع ، مثل معاوية رضى الله عنه وعبد الملك ابن مروان وابنه هشام فى الشطر الأكبر من خلافته .

والبعض الآخر لم تكن لديه هذه المهارة فكان الزمام يفلت من يده فتضطرب الأمور ، مثل الخلفاء الذين جاءوا بعد هشام . أما هشام نفسه فكان مدركا تماما لخطر الانحياز لإحدى الكتلتين الكبيرتين من العرب ــ اليمن وقيس ــ ولذلك أشرك زعماء الفريقين فى إدارة دولته ، وكان إذا راى عاملا من عماله قد انحاز لقبيلته ومال الميزان لصالحها على حساب الأخرى ، لا يتردد فى عزله ، صيانة لمصالح الدولة ، فقد أمر عامله على العراق خالد ابن عبد الله القسرى ، بأن يعزل اخاه أسد بن عبد الله عن خراسان ــ وهما يمنيان ــ عندما تعصب لليمن على مضر ، وأساء إلى زعيم قيسى كبير ،

وهو نصر بن سيار ومن معه من زعماء مضر ، وضربهم بالسياط ، واهانهم وخاطبهم بلهجة قاسية(٢٥٤) . ثم عزل هشام خالدا نفسه عن ولاية العراق، بعد أن تولاها خمسة عشر عاما ١٠٥ — ١٢٠ هـ . لما رآه استبد بالأمور دونه ، وأساء إلى زعماء قريش ، وعين بدله قيسيا ، هو يوسف بن عمر الثقفى(٢٥٥) . وإذا نظرنا إلى قوائم الولاة فى عهد هشام ، كما أوردها خليفة بن خياط(٢٥٦) ، نجدها تضم أسماء من معظم القبائل الكبيرة من اليمن وقيس ولكن على الرغم من ذلك فإن تيار العصبية كان جارفا ، فقد انفجر فى أواخر عهد هشام فى معظم الولايات وسادت بسببه القلاقل والفتن حتى نهاية الدولة الأموية ، وكان هشام يقظا ساهرا على مصالح الأمة ، متفقدا لأعمال الولاة حتى قيل عنه : « لم يكن أحد من بنى مروان أشد نظرا فى أصحابه ودواوينه ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم من هشام »(٢٥٧) .

أما تدبير هشـــام للأموال وحفظها فمن الأمور التى يجمع عليهـــا المؤرخون ، وهى فضيلة من فضائله وكان يحرص على جمع المال من وجوهه المشروعة ، وإنفاقه فى وجوهه المشروعة أيضا ، دون تبذير أو تقتير ، يروى الذهبى عن أبى عمير بن النحاس عن أبيه ، قائلا : « كان لا يدخل بيت المال لهشام شيىء حتى يشهد أربعون قسامة ، لقد أخذ من حقه ، ولقد أعطى الناس حقوقهم(٢٥٨) ، وبلغ من حسن تدبير هشام لأموال المسلمين وسلامة دواوينه أن شهد له اعدى أعدائه عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس ، الذى قال : جمعت دواوين بنى مروان فلم أر أصلح للعامة ولا للسلطان من ديوان هشام »(٢٥٩) ، وكان هشام يقسو على نفسه وعلى أولاده ، ويصون الأموال للمسلمين .

---

(٢٥٤) الطبرى جـ ٧ ص ٤٧ — ٤٩
(٢٥٥) المصدر السابق جـ ٧ ص ١٤٣ — ١٤٧
(٢٥٦) تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٥٨ — ٣٦١
(٢٥٧) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥٣
(٢٥٨) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٥٢
(٢٥٩) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥٣ والطبرى جـ ٧ ص ٢٠٣

روى الطبرى أن عقال بن شبة قال : « دخلت على هشام ، وعليه قباء فنك(٢٦٠) أخضر فوجهنى إلى خراسان ، وجعل يوصينى وأنا أنظر إلى القباء ، ففطن فقال : مالك ؟ قلت : رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء فنك أخضر ، فجعلت أتأمل هذا أهو ذاك ، أم غيره ؟ فقال : هو والله الذى لا إله إلا هو ، هو ذاك مالى قباء غيره ، وأما ما ترون من جمعى هذا المال وصونه فإنه لكم »(٢٦١) .

ويروى الطبرى أيضا : أن هشاما تفقد بعض ولده فوجده لم يحضر الجمعة فقال له : « ما منعك من الصلاة ؟ قال : نفقت دابتى ، قال : أفعجزت عن المشى فتركت الجمعة ، فمنعه الدابة سنة . قال ، وكتب سليمان بن هشام إلى أبيه : أن بغلتى قد عجزت عنى ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بدابة فعل ، فكتب إليه : قد فهم أمير المؤمنين كتابك ، وما ذكرت من ضعف دابتك ، وقد ظن أمير المؤمنين أن ذلك من قلة تعهدك لعلفها ، وأن علفها يضيع ، فتعهد دابتك فى القيام عليها بنفسك ، ويرى أمير المؤمنين رأيه فى حملانك »(٢٦٢) .. — وكان سليمان هذا من الغزاة المجاهدين .

هكذا كانت تربية هشام لبنيه وسلوكه معهم وهم أقرب الناس إليه حتى يعلمهم التقوى والرجولة والبعد عن الترف ، وكان هشام يقول : « ثلاثة لا يضعن الشريف ، تعاهد الصنيعة ، وإصلاح المعيشة ، وطلب الحق وإن قل »(٢٦٣) . وبلغ من حرص هشام على أموال المسلمين ، أنه لم يكن يعطى أحدا من بنى مروان عطاء إلا إذا كان يغزو ، فمنهم من كان يغزو ومنهم من يخرج بدلا »(٢٦٤) .

---

(٢٦٠) الفنك . دابة فروتها أطيب أنواع الفراء .

(٢٦١) الطبرى جـ ٧ ص ٢٠١ — والبداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

(٢٦٢) الطبرى جـ ٧ ص ٢٠٤

(٢٦٣) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥٢

(٢٦٤) الطبرى جـ ٧ ص ٢٠٢

ومن أجل هذا الحرص ، وهذا الاهتمام بأموال المسلمين اتهم هشام بالبخل ، وهكذا بنو أمية مظلومون دائما ، فهم أحد رجلين ، إمامتهم بالبخل إذا كان يحرص على أموال المسلمين ولا يصرفها فى غير حقها ، وإمامتهم بالإسراف إذا كان يجود بالأموال ويبذلها للأشراف من الناس ، وإذا كانت النصوص كلها تؤكد حرص هشام على صيانة أموال المسلمين للمسلمين لا له ولا لأولاده فإن لدينا نصوصا أخرى تنفى عنه صفة البخل ، وهذه النصوص ترويها مصادر معروفة بعدائها للأمويين عامة ، يروى المسعودى أنه ذكر لأبى جعفر المنصور تدبير هشام فى حـرب كانت له ، فبعث إلى رجل كان ينزل برصافة هشام يسأله عن تلك الحرب ، فقـدم الرجل ، فقال له : « أنت صاحب هشام ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنـين ، قال : فأخبرنى كيف فعل فى حرب دبرها فى سنة كذا وكذا ، قال : فعل رضى الله عنه فيها كذا وكذا ، وفعل رحمه الله كذا وكذا ، فأغاظ ذلك المنصور ، فقال له : قم عليك غضب الله ، تطأ بساطى وتترحم على عدوى ؟ فقام الشيخ وهو يقول : إن لعدوك قلادة فى عنقى ، ومنة فى رقبتى ، لا ينزعها إلا غاسلى ، فأمر المنصور برده وقال : كيف قلت ؟ قال : إنه كفانى الطلب وصان وجهى عن السؤال ، فلم أقف على باب عـربى ، ولا عجمى منذ رأيته ، أفلا يجب لى أن أذكره بخـير ، وأتبعه بثنائى : فقال : بلى ، لله أم نهضت عنك ؟ أشهد أنك نهيض حرة وغراس كريم ، ثم استمع منه ، وأمر له بجائزة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماآخذها لحاجة ، وماهو إلا أن أتبجح بحبائك ، وأتشرف بصلتك ، فأخـذ الصلة ، فقال له المنصور : مت إذا شئت ، لله أنت ! لو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجدا ، وقال لجلسائه بعد خروجه عنه ، فى مثل هذا تحسن الصنيعة ، ويوضع المعروف ، ويجاد بالمصون ، وأنى فى عسكرنا مثله ؟»(٢٦٥) .

فهذه الواقعة تدل على أن هشاما لم يكن بخيـلا ، وإنما كان يعرف قيمة المال ولايضعه إلا فى موضعه .

---

(٢٦٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٩٨ — ٢٩٩

ومن الصفات الحميدة التى كان يتمتع بها هشام ، بغضه لإراقة الدماء ، ولقد ندم ندما شديدا على مقتل زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، الذى كرر معه أهل العراق خيانتهم مع جده الحسين رضى الله عنه ، فدعوه ليبايعوه بالإمامة ، ثم تخلوا عنه فى أحرج اللحظات ، وتركوه يلقى مصيره على يد والى العراق ، يوسف بن عمر الثقفى ، ولكن هشاما تألم لمقتله يقول ابن كثير : : « وكان هشام من أكره الناس للدماء ، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن على وابنه يحيى أمر شديد ، وقال وددت أنى افتديتهما بجميع ما أملك »(٢٦٦) .

وكان من أظهر صفات هشام بن عبد الملك الحلم ، يقول الأصمعى : « أسمع رجل هشاما كلاما فقال له : أتقول لى مثل هذا وأنا خليفتك »(٢٦٧) كما كان متواضعا عفيف اللسان ، فإذا غضب وبدت منه كلمة سيئة فى حق إنسان ، اعتذر منها على الفور ولاتأخذه العزة بالإثم فيها ، فقد شتم مرة رجلا فقال له الرجل : « أتشتمنى وأنت خليفة الله فى الأرض ؟ فاستحيا ، وقال : اقتص منى بدلها ، أو قال مثلها ، فقال : — الرجل — إذا أكون سفيها مثلك ، قال : فخذ عوضا ، قال : لاأفعل ، قال : فاتركها لله ، قال : هى لله ثم لك ، فقال هشام ، عند ذلك ، والله لاأعود لمثلها »(٢٦٨) . وكان هشام يحب العدل والإنصاف بين رعيته على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، ورى الطبرى عن مروان بن شجاع ، مولى مروان بن الحكم ، قال : « كنت مع محمد بن هشام بن عبد الملك ، فأرسل لى يوما ، فدخلت عليه وقد غضب وهو يتلهف فقلت مالك ؟ فقال : رجل نصرانى شج غلامى وجعل يشتمه ، فقلت له على رسلك ؟ قال فما أصنع ؟ قلت ترفعه إلى القاضى ، قال : وماغير هذا ؟ قلت : لا ، قال : خصى

---

(٢٦٦) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥٢ — وسير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٥٢ ، من المعروف أن يحيى بن زيد هرب من العراق بعد مقتل أبيه ، وقيل قتل فى عهد الوليد بن يزيد . انظر الطبرى — تاريخ جـ ٧ ص ٢٣٠

(٢٦٧) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥١ والطبرى جـ ٧ ص ٢٠٤

(٢٦٨) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥١

له : انا اكفيك ، فذهب فضربه ، وبلغ هشاما ، فطلب الخصى ، فعاذ بمحمد ، فقال محمد بن هشام : لم آمرك ، وقال الخصى : بلى والله لقد أمرتنى فضرب هشام الخصى وشتم ابنه »(٢٦٩) .

بمثل هذا الحزم والعزم والتدبير والحلم والعفة والتواضع والعدل والإنصاف وكره العنف وسفك الدماء ساس هشام الرعية ، وحكم الدولة الإسلامية عشرين سنة ، ولم يكن هشام رجل دولة من طراز رفيع فى إدارة

شئون الدولة الداخلية فحسب ، بل أعطى عناية كبيرة للسياسة الخارجية ، ولصيانة حدود الدولة وتأديب أعدائها ، يقول فلهاوزن : « ولاشك أن المؤرخ يخطىء فى تصور هشام ، إذا ظن أنه كان خليفة لاهم له إلا أمور الإدارة والشئون الداخلية ، على أن هشاما لم يكن جنديا ، ولكنه لم يكن يرهب الحروب ، بل هو وجهها بهمة وبكل الوسائل ، وجهز جيوشا كبيرة ، ولم يدخر فى ذلك الأموال ولاحياة الرجال وكانت يداه دائما مشغولتين بالمشروعات الحربية فى أكثر المواضع تباعدا »(٢٧٠) .

فقد كانت جيوشه تقف بالمرصاد للروم ، واستمر فى إقامة الحصون على الحدود وكان قواده لايكفون عن الغزو والجهاد(٢٧١) . وكان هشام يسند قيادة الجيوش فى معظم الأحيان إلى رجال من أسرته ، مثل أخيه مسلمة بن عبد الملك وأبنائه معاوية وسليمان ، وأبناء عمه مثل مروان بن محمد بن مروان ، وأبناء إخوته مثل العباس بن الوليد بن عبد الملك .

هذا هو هشام بن عبد الملك الذى كان من أقوى خلفاء بنى أمية وأرجلهم على حد تعبير اليعقوبى(٢٧٢) . وإذا كان هناك من مأخذ على هشام ، فهو تغافله عن دعاة بنى العباس الذين نشطوا فى عهده فى الدعوة

---

(٢٦٩) تاريخ جـ٧ ص ٢٠٢

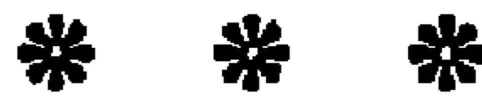
(٢٧٠) تاريخ الدولة العربية ص ٣٢٧ (الترجمة العربية) .

(٢٧١) سنتحدث عن الغزو والجهاد فى عهد هشام فى الفصل الخاص بالفتوحات فى العصر الأموى .

(٢٧٢) تاريخ اليعقوبى — جـ٢ ص ٣٢٨

لآل البيت وانبثوا فى خراسان(٢٧٣) ، وجـــدوا فى تشويه سمعة الدولة الاموية ، وفى الاستعداد لتقويضها ، ولعل كراهية هشـــام للعنف وسفك الدماء كانت سببا فى تغاضيه عنهم حتى استفحل أمرهم ، وقد ظهرت آثار ذلك قبيل وفاته واستفحلت بعده ، بحيث لم يستطع خلفاؤه وقف مد الدعوة العباسية التى نجحت فى نهاية الأمر فى القضـــاء التام على أسرته . ولذلك يقول ابن كثـــير : « لمـــا مات هشام بن عبد الملك مات ملك بنى أمية ، وتولى وأدبر أمر الجهـــاد فى سبيل الله ، واضطرب أمرهم جدا ، وإن كانت تأخرت أيامهم بعده ، نحوا من سبع سنين ، ولكن فى اختلاف وهيج ، ومازالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم ، وقتلوا منهم خلقا وسلبوهم الخلافة »(٢٧٤) .

توفى هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء لست ليال خلون من ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ فكانت خلافته تســـع عشرة سنة وسبعة أشهر واحـــد وعشرين يوما(٢٧٥) ، وخلف عشرة من الأولاد الذكور(٢٧٦) .



---

(٢٧٣) الفخرى ص ١٣٣

(٢٧٤) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٥٤

(٢٧٥) الطبرى جـ ٧ ص ٢٠٠ — وتاريخ خليفة بن خياط ٣٥٦ — ٣٥٧ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٣٦٥

(٢٧٦) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٢٨ — والمعـــارف لابن قتيبة ص ٣٦٥

١١ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك

١٢٥ — ١٢٦ هـ

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفى ، ولد بدمشق سنة تسعين وقيل اثنتين وتسعين للهجرة .

وكان أبوه يزيد بن عبد الملك حين عهد بالخلافة من بعده لأخيه هشام ابن عبد الملك ، جعل ابنه هذا ولى عهد له ، فلما مات هشام بالرصافة فى ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ صلى عليه الوليد بن يزيد ، ثم بويع له بالخلافة بعد عمه فى نفس اليوم(٢٧٧) .

وقد استهل الوليد بن يزيد عهده بزيادة أعطيات الجند ، ويسر له ذلك كثرة الأموال التى تركها عمه هشام — الذى اشتهر بتدبير الأموال — فى بيت المال ، فاستغل ذلك فى عمل الخير ، يقول ابن كثير : « ثم إن الوليد — بن يزيد — سار فى الناس سيرة حسنة بادىء الرأى ، وأمر بإعطاء الزمنى والمجذومين والعميان ، لكل إنسان خادما ، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين ، وزاد فى أعطيات الناس ، ولاسيما أهل الشام والوفود ، وكان كريما ممدحا شاعرا مجيدا ، لايسأل شيئا قط فيقول لا »(٢٧٨) . ولكن رغم هذه الأخبار الطيبة التى يرويها ابن كثير عن الوليد بن يزيد فى بداية عهده ، الا أن كتب المؤرخين ، مليئة بالأخبار التى تتهمه بالفسق والفجور والعكوف على شرب الخمر والغناء حتى اتهم بأنه هم بشرب الخمر فوق الكعبة ، عندما أمره عمه هشام على الحج سنة ١١٩ هـ . كما اتهم بأنه أهان المصحف الشريف ومزقه ، لأنه قد فتحه ليقرأ فيه ، فكانت أول آية طالعته هى قوله تعالى :

---

(٢٧٧) انظر — تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٦٣ — وتاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٣١ ، والطبرى تاريخ ج ٧ ص ٨ ، وما بعدها ، والمسعودى مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٤ وما بعدها وابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٨٩ . والذهبى — سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٧٠

(٢٧٨) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٤

﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾(٢٧٩)

فنصب المصحف وجعله غرضا للنشاب ، وأقبل يرميه وهو يقول :

« أتوعـــد كـل جبـــار عنيـــد
فهـــا أنـــا ذاك جبـــار عنيـــد
اذا مـــاجئت ربـــــك يـــوم حشر
فقـــل يارب خرقني الوليـــد(٢٨٠) »

إلى غير ذلك من الشناعات التى ألصقها به المؤرخون .

الثورة على الوليد وقتله :

قتل الوليد بن يزيد فى قصره بقرية تسمى البخراء ، على بعد أميال من تدمر ، يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ(٢٨١) ، على اثر ثورة أطاحت به ، ولم تكن الثورة هذه المرة من الخـــوارج ، أو الشيعة أو غيرهم من أعداء بنى أمية ، بل من أبناء عمه الذين ينطبق عليهم فى هذه الحالة قوله تعالى : « **يخربون بيوتهم بأيديهم** » وتزعم الثـــورة على الوليد ابن عمه يزيد بن الوليـــد بن عبد الملك ، وقد ظاهره وأعانه على على ذلك بعض إخوته ، وبعض أبناء أعمامه هشام وسليمان والحجاج ، كما كان للعصـــبية القبلية دور بارز فى هذه الثورة حيث وقف اليمنيون خلف يزيد بن الوليد وحرضوه على الثورة على الوليد لتعصبه لقبائل مضر ، وقـــد استغل يزيد بن الوليد وأنصاره التهم والشائعات التى أطلقت حول الوليد ، وأذاعوها فى النـــاس ، ليوغروا صدورهم عليه ، وليبرروا الثورة عليه وقتله(٢٨٢) ، وربما كانوا هم وراء هـــذه الشائعات . لأن المدقق

---

(٢٧٩) سورة ابراهيم الآيتان ١٥ — ١٦

(٢٨٠) انظر المسعودى — مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٢٨١) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٦٣

(٢٨٢) انظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٩١ وابن كثير البداية والنهاية ج ١٠ ص ٩

فى الروايات التى تذكرها بعض المصـــادر عن الوليد وحياته قبل الخلافة وأثنائها ، يدرك أن مقتله لم يكن بسبب مانسب إليه من فسق وفجور . ولكن كان لأسباب أخرى ، لأن حملة التشهير بالوليد قد بدأت أثناء خلافة عمه هشام ، وحينما كان هو وليا للعهد ، فقد أراد منه عمه هشـــام أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه مســـلمة ، فرفض(٢٨٣) ، ووقعت بينهمـــا وحشة بسبب ذلك وتبادلا الاتهامات ، فقـــد يكون هذا وراء حملة التشهير بالوليد ، إذ لو كان الوليد فاسقا ماجنا عاكفا على الخمر والغناء ، لوجد عمه هشـــام مبررا قويا لعزله من ولاية العهد صيانة لمنصب الخلافة عن الابتذال ، وكان عليه أن يختار غيره من أبناء بيته ، وفيهم كثيرون يصلحون لهذا المنصب ، مثل ابن عمه مروان‌بن محمدبن مروان ، وابن أخيه العباس ابن الوليد بن عبد الملك وليس بالضرورة أن يكون البديل أحد أبنائه ، ليثبت بذلك حسن نيته ، وإذ لم يفعل ذلك — وكان الوليـــد على ما وصفته به بعض المصادر — لتحمل هشام كل الوزر فى توليته الخلافة من بعده .

ولكن بعض المصـــادر تروى ما يدل على أن الوليد لم يكن على هذه الصورة المـــاجنة ، فابن الأثير يروى أن الوليد كان ينهى النـــاس عن الغناء لأنه يزيد فى الشهوة ويهدم المرؤة(٢٨٤) . ويقول بعد ذلك : « وقد نزه قوم الوليـــد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه ، وقالوا : أنه قيل عنه والصق به وليس بصحيح . قال المدائنى : دخل ابن للغمر بن يزيد أخى الوليد على الرشيد ، فقـــال له : ممن أنت ؟ قال : من قريش ، قال من أيها ؟ فامسك ، فقال : قل وأنت آمن ولو أنك مروان ، فقـــال : أنا ابن الغمر بن يزيد . فقـــال : رحم الله عمك الوليد ولعن يزيد الناقص ، فإنه قتل خليفة مجمعا عليه ! ارفع حوائجك فرفعها فقضاها »(٢٨٥) ، « وقال شبيب بن شيبة : كنا جلوســـا عند المهدى — الخليفة العباسى — فذكروا الوليد فقال المهدى : كان زنديقا ، فقام أبو علاثة الفقيه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل اعدل من أن يولى خلافة النبوة وأمر الأمة

---

(٢٨٣) ابن كثير — المصدر السابق ج ١٠ ص ٢

(٢٨٤) الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٨٩

(٢٨٥) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٩٠ — ٢٩١

زنديقا ، لقـد أخبرنى من كان يشهده ... بمروءة فى طهارته وصلاته .. فقال المهدى : بارك الله عليك يا أبا علاثة »(٢٨٦) .

وروى الطبرى وتابعه ابن الأثير وابن كثير أنه لما أحاط اتباع يزيد ابن الوليد بالوليـد بن يزيد فى قصره وحصروه قبل أن يقتلوه ، قالوا : « فدنا الوليد من الباب ، فقال : أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه ! فقال له يزيد بن عنبسة السكسكى : كلمنى ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا يزيد بن عنبسة ، قال : يا أخا السكاسك ، الم أزد فى أعطياتكم ؟ الم أرفع المؤن عنكم ؟ الم أعط فقراءكم ؟ الم أخدم زمناكم ؟ فقـال : إنا ماننقم عليك فى أنفسنا ، ولكن ننقم عليك فى انتهـاك ماحرم الله وشرب الخمر ، ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله ، قال : حسبك يا أخا السكاسك فلعمرى لقد أكثرت وأغرقت ، وإن فيما أحل لى لسعة عما ذكرت . ورجع إلى الدار فجلس وأخـذ مصحفا ، وقال : يوم كيوم عثمان ، ونشر المصحف يقرأ « ثم قتلوه ، وكان آخر كلامه قبل أن يقتل : « أمـا والله لئن قتلتمونى لا يرتق فتقكم ، ولا يلم شـعثكم ، ولا تجتمـع كلمتكم »(٢٨٧) . إن الذى يرى فيما أحـل الله له سـعة عن اقتراف المحرمات ، ويفزع إلى المصحف عندما أحيط به ، وأيقن أنهم قاتلوه ، لايمكن أن يكون ماجنا ، يقترف ماروموه به ، ويهين المصحف ويمزقه ، كما تذهب بعض الروايات ، وربما كان عند الوليد ميل إلى اللهو والعبث ، ولكن لم يصل به الحد إلى أن يهم بشرب الخمر فوق الكعبة ، وهل ضاقت عليه الدنيا ، فلم يجد مكانا يشرب فيه الخمر إلا فوق الكعبة ، إن هـذا لو حدث من حاكم مسلم فى عصرنا هذا لرماه الناس بالحجارة ، فكيف بالوليد وهو خليفة المسلمين فى عصر قريب إلى حد ما من عصر النبوة والخلافة الراشدة ، وملىء بالعلماء والصالحين من التابعين . ؟

---

(٢٨٦) المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٩١

(٢٨٧) تاريخ جـ ٧ ص ٢٤٦ — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، والبداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٠ — ١١

الأسباب الحقيقية للثورة على الوليد :

أما وقد استبعدنا أن يكون قد حدث من الوليد من الفسق والفجور ما يستوجب الثورة عليه وقتله ، فلابد أن نبحث عن الأسباب الحقيقية لذلـــك .

إن الذى نطمئن إليه أن سياسة الوليد غير الحكيمة مع أبناء أعمامه ، ومع بعض الولاة ذوى العصـــبية فى الدولة ، كانت السبب الحقيقى فى الثورة عليه وقتله ، فقد انتقم من أبناء أعمامه وبصـــفة خاصة أبنـــاء هشام ، ولعل لذلك علاقة بقصة ولاية العهد وعلاقته بعمه هشـــام ، كما أنه انتقم من خالد بن عبد الله القسرى ، حيث أسلمه إلى يوسف بن عمر الثقفى فظل يعذبه حتى مات ، فأوغر بذلك صدور اليمنية عليه ، فكان غضبهم عليه عارما،وهم قوة كبيرة ليس فى الشام فحسب،بل فى خراسان أيضـــا التى كانت الدعوة العباســـية فيها فى مرحلة الاستعداد والتهيؤ للانقضاض على البيت الأموى كله ، لقد انضم اليمنيون فى الشـام إلى يزيد بن الوليد ضـــد ابن عمه الخليفة وقاموا بتنفيذ محاصرة الخليفة وقتله ، ويؤيد ذلك ما يقوله ابن كثير : « وكان من أعظم ما جنى على نفســـه ، حتى أورثه ذلك هلاكه إفســـاده على نفســـه بنى عميه هشـــام والوليد ابن عبد الملك ، مع إفساده اليمنية ، وهى أعظم جند خراسان وذلك أنه لـــا قتل خالد بن عبـــد الله القسرى وسلمه إلى غريمـــه يوسف بن عمر الذى هو نائب العراق ، إذ ذلك فلم يزل يعاقبه حتى هلك ، انقلبوا عليه وتنكروا له وساءهم قتله ... ثم روى ابن جرير بســـنده أن الوليد بن يزيد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط ، وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان فحبسه بهـــا ... وحبس الأفقم يزيد بن هشـام وبايع لولديه الحكم وعثمان ، وكانا دون البلوغ ، فشق ذلك على الناس أيضا ، ونصحوه فلم ينتصح ، ونهوه فلم يرتدع ولم يقبل »(٢٨٨) .

---

(٢٨٨) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٨ — ٩ ، وانظر الطبرى جـ ٧ ص ٢٣١ — ٢٣٢

وإذا كانت تلك هى الأسباب الحقيقية للثورة على الخليفة وقتله ، فإن مارمى به من التهم والشناعات ما كان إلا لخلق رأى عام يتقبل تلك الجريمة ، فإن قتل الخليفة لم يكن بالأمر الهين الذى يسهل تقبله بين الناس ، ومن هنا لجأ مدبروا الثورة إلى القول بأن خليفتهم متهتك عاكف على شرب الخمر ، ومقارفة المحرمات حتى يهون على الناس دمه ، ويرتضوا الخروج عليه .

أثر مقتل الوليد بن يزيد على الدولة الأموية :

لانبعد عن الصواب إذا قلنا أن مقتل الخليفة الوليد بن يزيد كان بداية النهاية للدولة الأموية ولقد أدرك بعض أبناء البيت الأموى خطورة ذلك الأمر وما تنطوى عليه الثورة على الخليفة من كوارث قد تودى بهم جميعا ، وكان من هؤلاء العباس بن الوليد ، أخو زعيم الثورة ، فقد حاول العباس ثنى أخيه عما هو مقدم عليه ونبهه إلى خطره ولكنه لم يقبل ، فقال له : « والله لولا أنى أخاف عليك لقيدتك وأرسلتك اليه »(٢٨٩) ، أى الى الخليفة ، وقد عبر العباس بن الوليد عن إدراكه العميق لحجم الكارثة التى ستلم بالبيت الأموى كله من جراء تلك الفتنة فقال : « يا بنى مروان انى اظن الله قد أذن فى هلاككم وتمثل قائلا :

إنى أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لاتلحمن ذئاب الناس انفسكم ... إن الذئاب إذا ما الحمت رتعوا
لاتبقرن بأيديكم بطونكم ... فثم لاحسرة تغنى ولاجزع(٢٩٠)

— وهو بأرمينية وال عليها — أن يزيد بن الوليد يؤلب الناس على الخليفة وهو بأرمينية وال عليها — أن يزيد بن الوليد يؤلب الناس على الخليفة ويدعو إلى خلعه حتى هاله ذلك الأمر وأفزعه ، فكتب إلى ابن عمه سعيد بن

(٢٨٩) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٩

(٢٩٠) الطبرى — تاريخ جـ ٧ ص ٢٣٩ ، وابن كثير — المصدر السابق جـ ١٠ ص ٩

عبـــد الملك بن مروان ، يستحثه أن يكف النـــاس عن نقض بيعتهم وبين له عواقب ما هم مقدمون عليه ، وكان مما قال له : « إن الله جعل لكل أهل بيت أركانا يعتمدون عليها ويتقون بها المخاوف ، وأنت بحمد ربك ركن من أركان أهل بيتك ، وقد بلغنى أن قوما من سفهاء أهل بيتك قد استنوا أمرا ، إن تمت لهم رويتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم استفتحوا بابا لن يغلقه الله عنهم حتى تسفك دماء كثيرة منهم ، وأنا مشتغل بأعظم ثغور المسلمين فرجا ، ولو جمعتنى وإياهم لرممت فساد أمرهم بيدى ولسانى ، ولخفت الله فى ترك ذلك ، لعلمى ما فى عواقب الفرقة من فســـاد الدين والدنيا ، وإنه لن ينتقل سلطان قوم قط إلا بتشـتيت كلمتهم وإن كلمتهم إذا تشتتت طمع فيهم عدوهم ، وأنت أقرب إليهم منى ، فاحتل لعلم ذلك وإظهار المتابعة لهم ، فإذا صرت إلى علم ذلك ، فتهددهم بإظهار أسرارهم ، وخذهم بلسانك وخوفهم العواقب ، لعل الله أن يرد إليهم ما قد غرب عنهم من دينهم وعقولهم ، فإن فيما سعوا فيه تغير النعم وذهاب الدولة »(٢٩١) .

ولكن سعيد بن عبد الملك فشل ، كما فشل العباس بن الوليد ، فى إيقاف الثورة فقتل الوليد بن يزيد وبدأت الدولة تسير نحو نهايتها ، فقد كانت النتيجة المباشرة لمقتل الخليفة انقسام البيت الأموى على نفســـه ، فأخذ بعضهم يقاتل بعضا ، كما انحاز بعضهم إلى أعداء دولتهم . وأدى هذا الانقسام والتناحر داخل الأمويين إلى فقدانهم تأييدأهم كتلة عربية كان لها دور كبير فى تأسيس دولتهم ، وظلت ركنا من أركانها ، وهم عرب اليمن فى الشام وخراسان ، ولم ينصرف اليمنيون عن تأييد بنى أمية فحسب بل انهم تحولوا عنهم كلية إلى الدعوة العباسية التى كان دعاتها يتوثبون آنذاك للقضاء على دولة بنى أمية ، وقد كان تحول اليمنيين إلى الدعوة العباسية من أهم عوامل نجاحها .

---

(٢٩١) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٧ ص ٢٣٨

١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك
١٢٦ هـ

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد ، آخر ملوك الفرس(٢٩٢) ، وكان يجمع فى أصوله بين الدم العربى والفارسى والرومى والتركى ، فجده لأبيه عبد الملك بن مروان ، وهو عربى ، وجده لأمه فيروز بن يزدجرد ، وهو فارسى وجدة جده لأمه ابنة قيصر ، وأم جدته لأمه ابنة خاقان الترك ، فكان يفخر بذلك ويقول :

انا ابن كسرى وأبى مروان ∴ وقيصر جدى وجدى خاقان

قاد يزيد بن الوليد الثورة على ابن عمه الوليد بن يزيد ، وأخذ البيعة لنفسه فى قرية المزة ، قبل مقتل الوليد ، ثم سار إلى دمشق وغلب عليها ، وارسل إلى الخليفة الوليد ابن عمه الآخر عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فى جيش من اليمنيين فقتلوه بالبخراء على حدود تدمر — كما ذكرنا آنفا — وبعد مقتل الوليد بويع فى دمشق مرة أخرى ، وأصبح الخليفة الثانى عشر فى سلسلة خلفاء بنى أمية ، وقد لقب بيزيد الناقص ، لأنه أنقص من أعطيات الجند التى كان قد زادها الوليد بن يزيد .

وكان يزيد بن الوليد يظهر الصلاح والتقوى ، ويتشبه بعمر بن عبد العزيز وقد خطب الناس بعد مقتل ابن عمه خطبة يبرر فيها مقتل الخليفة ويشرح لهم منهجه فى الحكم فقال : « ايها الناس انى والله ما خرجت أشرا ولا بطرا . ولا حرصا على الدنيا ، ولا رغبة فى الملك ، وما بى إطراء نفسى ، إنى لظلوم لنفسى إن لم يرحمنى ربى ، ولكنى خرجت غضبا لله ورسوله ودينه ، داعيا إلى الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ لما هدمت معالم الهدى وأطفىء نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد ، المستحل لكل حرمة ، والراكب لكل

---

(٢٩٢) انظر ترجمته فى تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٦٨ — وتاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٣٥ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٢٣٣ — وتاريخ الطبرى ج ٧ ص ٢٩٨ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٣١٠ وسير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٧٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٦ .

بدعة ، مع انه والله ما كان يصدق بالكتاب ، ولا يؤمن بيوم الحساب ، وأنه لابن عمى فى الحسب ، وكفيى فى النسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله فى أمره ، وسألته الا يكلنى إلى نفسى ، ودعوت إلى ذلك من أجابنى من أهل ولايتى وسعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد ، وبحول الله وقوته لا بحولى وقوتى ، أيها الناس إن لكم على الا أضع حجرا على حجر ولا لبنة على لبنة ولا اكرى نهرا ، ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة ولا ولدا ، ولا انقل مالا من بلدة إلى بلدة ، حتى أسد ثغر ذلك البلد ، وخصاصة أهله بما يعينهم فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذى يليه ممن هو أحوج إليه ، ولا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابى دونكم ، فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم ، وإن لكم أعطياتكم عندى فى كل سنة،وأرزاقكم فى كل شهر،حتى تستدر المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم ، فإن وفيت لكم بما قلت ، فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة ، وإن أنا لم أف فلكم أن تخلعونى ، إلا أن تستتيبونى ، فإن تبت قبلتم منى ، فإن علمتم أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه ويدخل فى طاعته.أيها الناس إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا وفاء له بنقض عهد ، إنما الطاعة طاعة الله ، فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يعصى ويقتل، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم »(٢٩٣) .

بهذه الخطبة الطويلة التى خصص جزءا منها للنيل من ابن عمه وتجريحه والطعن عليه واتهامه بالكفر — ليبرر قتله — والباقى لشرح سياسته وكأنه أبو بكر الصديق أوعمر بن الخطاب حيث أراد أن يظهر بمظهر الزاهد فى الحكم ، وأنه ما خرج إلا غضبا لله ولرسوله ولدينه ، بهذه الخطبة استهل يزيد بن الوليد عهده القصير ، ونسى أو غفل أن الناس والوقت والوضع العام فى الدولة قد تغير عما كان الحال فى عهد أبى بكر وعمر ، أو حتى فى

---

(٢٩٣) انظر الطبرى — تاريخ ج ٧ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٩١ — ٢٩٢

عهد جده عبد الملك بن مروان(٢٩٤) .

والحقيقة أنه بفعلته تلك جر على دولة بنى أمية كوارث كانوا فى غنى عنها وشغلهم بصراع مرير فيما بينهم أضعف كيانهم وأنهك قواهم ، فى وقت نشط فيه الدعاة العباسيون وضاعفوا جهودهم للقضاء على الدولة كلها ومن ناحية ثانية لم يستطع أن يفى بوعوده للناس ، واضطر أن يحابى اليمنيين الذين ساعدوه فى الوصول إلى الخلافة ، وأن يغدق عليهم الأموال فأدى ذلك إلى نضوب فى بيت المال،مما اضطره إلى إنقاص أعطيات الجند ، فسموه الناقص ، وهى تسمية لها دلالتها ، كما أن القبائل المضرية نفرت منه لموالاته لليمنيين ، فهبت فى وجهه ثورات المضرية فى حمص وفلسطين وغيرها، فقضى مدة خلافته القصيرة فى قمعها .

اضطراب أمر بنى أمية وانقسامهم على أنفسهم :

ما ان اعتلى يزيد بن الوليد منصب الخلافة وأخذ البيعة لنفسه ، حتى هبت فى وجهه المعارضة العنيفة من أبناء أعمامه ، وثارت عليه الأقاليم الشامية ، وكان أول إقليم هبت منه الثورة هو « حمص » . فقد أخذ أهله يبكون على مقتل الوليد ، ورفضوا البيعة ليزيد ، وكاتبوا أهل الأجناد ودعوهم للطلب بدم الوليد ، وأنضم إليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وأبو محمد السفيانى ، وبايعوا أبا محمد بالخلافة ، وقرروا السير إلى دمشق ، ولكن يزيد علم بخبرهم ، فعاجلهم بجيشين على رأس أحدهما ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، وعلى الآخر سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فاستطاعا هزيمة أهل حمص ، وأخذا يزيد بن خالد وأبا محمد السفيانى أسيرين إلى دمشق فحبسهما يزيد(٢٩٥) .

ثورة أهل فلسطين :

ثم ثار أهل فلسطين ورفضوا البيعة ليزيد بن الوليد،وبايعوا ليزيد بن سليمان بن عبد الملك ثم علم بأمرهم أهل الأردن ، فثاروا هم أيضا ، وخلعوا

---

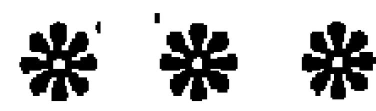
(٢٩٤) د. محمد ماهر حمادة — الوثائق السياسية العائدة للعصر الأموى ص ٧٢

(٢٩٥) انظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٩٠ — ٢٩٤

طاعته ، وولوا عليهم محمد بن عبد الملك ، واجتمعوا على قتاله ، فلما علم بأمرهم ، أرسل إليهم ابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فى جيش عدته حوالى أربعة وثمانين ألفا من أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفيانى ودخلوا فى طاعته ، وقدتمكن سليمان بن هشام من هزيمة أهل الاردن ، فبايعوا ليزيد ودخلوا فى طاعته ، فولى ضبعان بن روح على فلسطين ، واخاه إبراهيم بن الوليد على الاردن(٢٩٦) .

وهكذا بدا ليزيد بن الوليد انه كبح جماح الثائرين على دولته فى مناطق الشام ، بعد أن أطاح بابن عمه ، وظن أن الأمور استقرت له .

إلا انه لم يستمتع بذلك طويلا ، فلم تدم خلافته سوى ستة شهور (جمادى الآخرة — ذو الحجة سنة ١٢٦ هـ) حيث توفى فى ذى الحجة ، ليترك الشام — وهى الحصن الحصين للدولة الأموية — تشتعل نارا ، كما ترك ابناء أسرته منقسمين على انفسهم ، منشغلين بصراعاتهم عن الأخطار المحدقة بهم ، وبصفة خاصة الخطر العباسى ، مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن حركته كلها كانت من العوامل التى مهدت لزوال الدولة الأموية .



١٣ — ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك

١٢٧ هـ

هو إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه أمة بربرية(٢٩٧) ، بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بعهد منه فى نهاية ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ . ولكنه لم يتم له أمر ، فكان الناس كما يقول

---

(٢٩٦) المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٩٤ — ٢٩٥

(٢٩٧) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٥ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، والطبرى تاريخ جـ ٧ ص ٢٩٩ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٣١١ وابن كثير — البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢١

الطبرى(٢٩٨) : جمعة يسلمون عليـــه بالخلافة ، وجمعة بالإمارة وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة . وكان أول من رفض بيعته أهل حمص ، فأرسل إليهم ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ليأخذله البيعـــة منهم بالقـــوة فحاصرهم وبينما هو على حصارهم وهم يرفضـــون البيعة ، قدم مروان بن محمد ، فلما علم عبد العزيز بن الحجاج بمقدمه ترك حمص ، فدخلها مروان وبايعه أهلها ، وساروا معه قاصدين دمشق ، فلقيهم جيش إبراهيم بن الوليد على راسه سليمان بن هشام فى مائة وعشرين ألفا ، فالتقى بهم مروان فى ثمانين ألفا ، ودارت بينهما معركة فى مكان يسمى عين الجر — بين دمشق وبعلبك — فهزم سليمان وقتل من جنده حوالى سبعة عشر ألفا وأسر مثلهم ، فعاد منهزما إلى دمشق والتقى بإبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج واتفقوا على قتل ولدى الوليد بن يزيد — الحكم وعثمان — قبل وصول مروان،وقالوا : « إن بقى ولدا الوليد حتى يخرجهما مروان ويعيد الامر إليهما لن يستبقيا أحدا من قتلة أبيهما ، والرأى قتلهما »(٢٩٩) . فقتلوهما ، ثم هرب إبراهيم بن الوليد وأنصاره ، ودخل مروان دمشق ، وأخرج يزيد بن خالد وأبا محمد السفيانى من السجن ، وجاءوا إليه يابنى الوليد بن يزيد مقتولين ، فشهد أبو محمد السفيانى لمروان بأنهما جعلا له الخلافة بعدهما وبايعه الناس وكان ذلك فى شهر ربيـــع الآخر سنة ١٢٧ هـ(٣٠٠) فكانت مدة خلافة ابراهيم بن الوليد ما يقرب من أربعة أشهر — وتسلممروان بن محمد الخلافة ليصارع أحداثا أقوى منه ، ويواجه دنيا مدبرة ، ودولة ممزقة ، قدر له أن يكتب الفصل الأخير من حياتها



---

(٢٩٨) تاريخ جـ ٧ ص ٢٩٩

(٢٩٩) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٣٢٢

(٣٠٠) انظر الطبرى جـ ٧ ص ٢٩٩ ، وابن الأثير جـ ٥ ص ٣٢٣

١٤ – مروان بن محمد بن مروان
١٢٧ — ١٣٢ هـ

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وامه امـــة كردية ، كانت لإبراهيم بن الأشتر النخعى ، فأخذها محمد بن مروان ، فاستولدها مروان، وذلك فى حوالى سنة ٧٠ هـ(٣٠١) . ويعتبر مروان بن محمد من فرسان بنى أمية وشجعانهم ويعدل فى فروسيته ابن عمه مسلمة بن عبد الملك ، فكما تصدى مسلمة للروم ، وحمى حدود المسلمين منهم ، واستولى على كثير من حصونهم ومعاقلهم ثم حاصر عاصمتهم نفسها فى عهد اخيه سليمان ، كذلك تصدى مروان بن محمد للترك والخزر واللان ، حيث كان هشام بن عبد الملك قد ولاه أرمينيه وأذربيجان سنة ١١٤ هـ(٣٠٢) ، وهى الولاية التى شهدت بطولات ابيه محمد بن مروان ، والذى ولاه اياها اخوه عبد الملك بن مروان ، وكانت هذه الولاية كما يقول فلهاوزن : تتطلب جنديا ، وقد كان مروان كفأ لهذا المنصب وكان عندحسن الظن به « فقـــد استطاع أن يدافـــع عن ثغر القوقاز أمام هجمات الترك دفاعا لا يلين وأن يقوم بغزوات موفقة فى أرض الترك »(٣٠٣) وقد ظل مروان واليا على أرمينية وأذربيجان حتى مقتل الوليد ابن يزيد سنة ١٢٦ هـ ، فغضب لمقتله ، وخرج من أرمينية قاصدا دمشق ، مظهرا المطالبة بدمه ،فلما وصل الجزيرة ، وكان ابنه عبد الملك قـــد أحكم سيطرته عليها ، جاءه كتاب من الخليفة الجديد ، يزيد بن الوليد ، يترضاه ويقره على ولايته فى أرمينية وأذربيجان ، ويضيف إليه أقليم الجزيرة والموصل ، فرضى وبايع ليزيد(٣٠٤) . ولكن يزيد لم يلبث أن توفى سريعا ،

---

(٣٠١) انظر فى ترجمة مروان وأخباره ، تارخ خليفة بن خياط — ص ٣٧٢ وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص٣٣٨ وما بعدها ، وتاريخ الطبرى جـ ٧ ص ٣١١ — ٣١٢ ، ص ٤٣٧ — ٤٤٣ — وابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٣٢٣ ، ص ٤٢٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ ص ٤٦—٤٨

(٣٠٢) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٤٧

(٣٠٣) فلهاوزن — تاريخ الدولة العربية ص ٣٥٧ (الترجمة العربية)

(٣٠٤) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٣١٠ ، وابن كثير البداية والنهاية جـ ١٠ص ٢١

فى نهاية سنة ١٢٦ هـ وكان قد عهد قبل وفاته لأخيه ابراهيم بن الوليد ، فبايعه بعض الناس بالخلافة ، ولكن لم يستقر له الأمر ، فأخذ مروان يزحف على دمشق ، وقد هزم وهو فى طريقه إليها جيش إبراهيم بن الوليد الذى كان قد أرسله لاخماد ثورة أهل حمص وفر قائد الجيش سليمان بن هشام إلى دمشق ، فاستولى هو وإبراهيم بن الوليد على ما فى بيت المال وفرا هاربين،تاركين دمشق مفتوحة الأبواب ، فدخلها مروان،فوجد ابنى الوليد ابن يزيد — الحكم وعثمان — قد قتلا ، ولما كانا فى نظره هما أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة ، وأنه ما خرج إلا للمطالبة بدم أبيهما وبحقهما فيها ، وبعد موتهما لم يعد هناك من يستحقهاغيره ، خصوصا بعد أن شـــهد له أبو محمد السفيانى بأن ابنى الوليد عهدا له بها.وتقدم وبايعه وتبعه الناس فبايعوا مروان(٣٠٥) ، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٧ هـ ، وبهذا أصبح الخليفة الرابع عشر وآخر خلفاء بنى أمية .

ورغم ما كان يتمتع به مروان بن محمد من صفات مثل الشجاعة والإقدام وسداد الراى وغيرها من الصفات التى تؤهله لمنصب الخلافة . إلا أن الأقدار شاءت أن تكتب على يديه نهـــاية الدولة الأموية ، وأن يكون هو الفصل الأخير فى تاريخها ، وقد لا يكون هو المسئول الأول عن ذلك ، فإن العوامل التى أدت إلى زوال الدولة كانت تتفاعل منذ زمن بعيد ، وقدر له وحده أن يصارع أحداثا كانت كلها تعمل ضده،وأول خطر واجهه مروان هو انقسام الأمويين على أنفسهم ، والذى كان من أسوأ نتائجه انقسام كتلتى العرب الرئيستين فى الشام وهما اليمنيون والقيسيون،فقد انقلب اليمنيون ضد مروان وانحاز القيسيون إليه،وتظهر خطورة هذا الانقسام فى أنه حدث فى مقر الخلافة الأموية وبين أكثر أنصار الأمويين قوة ، ولهذا كان اضطراب الأمر فى الشام ، إيذانا باضطراب أمر الدولة كلها ، وقد حاول مروان منذ بيعته فى دمشق ، أن يهدىء خواطر الناس وأن يبعث الثقة فى النفوس ، فلما بايعه الناس ،عرض عليهم أن يختاروا بأنفسهم من يرضون من الولاة

(٣٠٥) الطبرى — تاريخ جـ ٧ ص ٣١١ — ٣١٢ ، وابن الأثير جـ ٥ ص ٣٢٣

لولايات الشـــام الرئيسية ، يقول الطبرى : « فأمرهم أن يختاروا لولاية أجنـــادهم ، فاختار أهـــل دمشق زامل بن عمرو الجيرانى ، وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندى ، وأهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامى»(٣٠٦).كانت تلك سياسة حكيمة من‌مروان فهو لم يفرق بين عرب اليمن وبين قيس ، فهؤلاء الولاة فيهم يمنيون وقيسيون ، وقـــد أظهر مروان بذلك مرونة كبيرة ، حتى أنه قبل اختيارهم لثابت بن نعيم الجذامى ، مع أنه كان قد سبق له الغدر بمروان فى أرمينية(٣٠٧) . وتزعم حركة عصيان قام بها جند الشـــام هناك ضد مروان(٣٠٨) . ولكن مروان عفا عنه وعينه واليا على فلسطين ، تسكينا للفتنة ، وحســـما للفرقة والخلاف .

وبعد أن رتب أوضاع الشام غادر دمشق إلى حران — بالجزيرة — التى اتخذها مقرا لحكمه ، وتمشيا مع خطته ، فى إصلاح الأحوال ، وكبح جماح الفتنة فإنه حينما جـــاءه إبراهيم بن الوليد ، الخليفة المخلوع ، وسليمان بن هشـــام اللذان كانا قـــد هربـــا من دمشـــق قبل وصـــوله إليها ، وطلبا منه الأمان أمنهما وعفا عنهما وبايعاه(٣٠٩) . وهكذا بدأت الأمور وكأنها آخذة فى الاستقرار ولكن ذلك الهدوء لم يكن إلا بمثابة‌السكون الذى يسبق العاصفة ، فلم تلبث الأنبـــاء أن وافت دار الخليـــفة بنشوب الاضطراب فى الشام مرة ثانية وبسريان حمى الثورة من جديد .

ثورة اهل حمص على مروان سنة ١٢٧ هـ :

ظلت حمص منذ بداية الصراع بين ابناء البيت الأموى تقف إلى جانب الوليد بن يزيد ومروان بن محمد ، حتى أن أهلها — ومعظمهم من قيس — بكوا الوليد بعد مقتله(٣١٠) ، ورفضـــوا بيعة يزيد بن الوليـــد واخيه

---

(٣٠٦) تاريخ جـ ٧ ص ٣١٢
(٣٠٧) المصدر السابق — تاريخ جـ ٧ ص ٣١٢
(٣٠٨) انظر فلهاوزن — تاريخ الدولة العربية ص ٣٦٣
(٣٠٩) الطبرى — المصدر السابق جـ٧ ص ٣١٢
(٣١٠) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢٩٢

إبراهيم ، كما قاوموا جيش إبراهيم الذى أرسله إليهم بقيادة عبد العزيز ابن الحجاج ، ولكن حينما وصل إليهم مروان رحبوا به ، وبايعوه وساروا معه إلى دمشق ، ولكن ما أن خرج من دمشق إلى حران حتى ثار عليه اليمنيون من أهل حمص ، بزعامة ثابت بن نعيم الجذامى ، الـذى كان مروان قـد تسامح معه وتناسى غدره وعينه واليا على فلسطين ، ولكنه لم يحفظ الجميل ولم يرع الود والعهد ، فكان هو الذى حرك الثورة على مروان فى الشام كلها .

يقول الطبرى : « لما انصرف مروان إلى منزله من حران ، بعـد فراغه من أهل الشام لم يلبث إلا ثلاثة أشهر ، حتى خالفـه أهل الشام ، وانتقضوا عليه ، وكان الذى دعـاهم إلى ذلك ثابت بن نعيم ، وراسلهم وكاتبهم ، وأرسل أهـل حمص إلى من بتدمر من كلب ، فشخص إليهم الأصبغ بن ذؤالة الكلبى ... ونحو ألف من فرسـانهم ، فدخلوا مدينـة حمص ليلة الفطر من سـنة سبع وعشرين ومائة(٣١١) » فلما علم مروان بخبرهم سار إليهم بنفسه(٣١٢) ، وهزمهم وبدد شملهم ، وهدم أسوار مدينتهـم .

ثورة أهل الغوطة سـنة ١٢٧ هـ :

بينما كان مروان مشغولا بقمع ثورة حمص ، نشبت ثورة أخرى فى الغوطة فقد ثار أهلها وولوا عليهم زعيما يمنيا ، هو يزيد بن خالد القسرى ، وساروا إلى دمشق فحاصروها ، ولكن مروان أرسل اليهم وهو فى حمص قائدين من قواده ، هما أبو الورد بن الكوثر بن زفر بن الحـارث ، وعمرو ابن الوضاح ، فى عشرة آلاف « فلما دنوا من المدينة حملوا عليهم ، وخرج عليهم من بالمدينة ، فانهزموا ، واستباح أهل مروان عسكرهم ، وأحرقوا المزة وقرى من اليمانية ، وأخـذ يزيد بن خالد فقتل ، وبعث زامل — ابن عمرو والى دمشق — برأسه إلى مروان بحمص(٣١٣) .

---

(٣١١) تاريخ جـ ٧ ص ٣١٣

(٣١٢) المصدر السابق جـ ٧ ص ٣١٣

(٣١٣) ابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٣٢٩ ، والطبرى — تاريخ جـ ٧ ص ٣١٣

ثورة فلسطين سنة ١٢٧ هـ :

عرفنا أن ثابت بن نعيم الجذامى — والى فلسطين — كان وراء حركات الشام ضد الخليفة مروان ، وهاهو الآن يعلن الثورة عليه ويخلع طاعته ، ولكن مروان ، عاجله ، وكتب إلى أبى الورد الذى قمع ثورة الغوطة ، وفك حصار دمشق ، أن يسير إلى ثابت ، فلما صار أبو الورد قريبا منه خرج أهل طبرية على ثابت فهزموه ، واستباحوا عسكره ... وتبعه أبو الورد فالتقوا واقتتلوا ، فهزمه أبوالورد ثانية،وتفرق أصحابه ، وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان ، وتغيب ثابت ولده رفاعة ، ولكن الوالى الجديد الذى عينه مروان على فلسطين ، وهو الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ، استطاع أن يقبض على ثابت بن نعيم وأن يرسله إلى مروان ، فأمر بقتله هو وأولاده الثلاثة(٣١٤) .

عقد مروان البيعة لولديه :

وسط هذه الثورات المتلاحقة وجد مروان فسحة من الوقت ليأخذ البيعة فى « دير أيوب » لابنيه عبيد الله وعبد الله ، وانتهز هذه المناسبة لتكون فرصة للمصالحة بين أبناء بيته ، فزوج ابنيه من ابنتى هشام ابن عبد الملك ، وجمع لذلك كما يقول ابن الأثير(٣١٥) : « بنى أمية » ، وكان هذا الزواج كما يقول فلهاوزن « بمثابة حفلة رسمية للدولة ، وكان مروان يعتقد أنه قد استطاع أن يصلح مابينه وبين أسرة بنى أمية ، وأن يضمها إلى جانبه »(٣١٦) . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه،فسرعان ما قلب له أمراء بنى أمية ظهر المجن وواجهوه بالعصيان والتمرد .

ثورة سليمان بن هشام سنة ١٢٧ هـ :

توقع مروان أن مصاهرته لأبناء هشام بن عبد الملك كافية لرأب الصدع بين أبناء البيت الأموى كله ، وأن الأمر فى الشام قد استقام

---

(٣١٤) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٣٣٠ ، والطبرى — تاريخ جـ ٧ ص ٣١٤

(٣١٥) الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٣٣٠

(٣١٦) تاريخ الدولة العربية ص ٣٦٦

له ، ولهذا أخـذ فى إعداد جيش قوامه عشرون ألفـا تحت قيادة يزيد ابن عمر بن هبيرة لمواجهة ثورة الخوارج فى العراق الذين خرجوا عليه بزعامة الضحاك بن قيس الشيبانى منتهزين فرصـة انشـغاله بثورات الشام ، كما ضرب على أهل الشام بعثا للحاق بيزيد ومعاونته فى حـرب الخوارج ، وكان سليمان بن هشام — شقيق زوجتى ولدى مروان — قد استأذنه فى الإقامة بالرصافة أياما للراحة فأذن له(٣١٧) . وبينما يقوم مروان بالاشراف بنفسه على تجهيز جيش ابن هبيرة فى قرقيسياء فاجأته ثورة عارمة قادها صهره سليمان ، حيث انفلت عشرة آلاف من أهل الشـام الذين استنفرهم مروان لقتال الخوارج وذهبوا إلى سليمان بالرصافة ، ودعوه إلى خلع مروان ، فأجابهم إلى ذلك دون أن يعبأ ببيعته وعهوده التى قطعها على نفسـه للخليفة ، ولا مراعاة لصلة الرحم والمصاهرة الجديدة بل ودون أن يضع فى تقديره الظروف التى تمر بها الدولة الأموية كلها .

استفحلت ثورة سليمان فقد اجتمع حوله سبعون ألفا عسكر بهم فى قرية تسمى خساف من أعمال قنسرين .

فاجأت هذه الأخبار مروان على غير توقع ، فقرر أن يسير إلى سليمان بنفسـه فقصده ، فى خساف ، حيث دارت بينهما معركة كبيرة ، هزم فيها سليمان ، وقتل حوالى ثلاثين ألفا من أتباعه(٣١٨) ، وهرب هو بمن بقى من جيشه إلى حمص ، ولكن مروان لاحقه إليها ، ففر منها هاربا ، قبل وصـول مروان ، تاركا فيها أخاه سعيد بن هشام ، ثم وصلها مروان وضرب عليها الحصار لمدة عشرة أشهر ، ثم استسلمت له(٣١٩) .

اضطراب الأمر على مروان :

فى هذا الجو العصيب ، الذى انقسم فيه الأمويون على أنفسهم ، وأخذوا يحاربون بعضهم البعض ، وبينما مروان يحاول رأب الصـدع ،

---

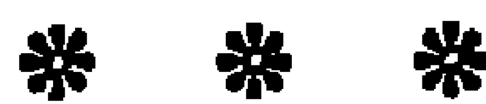
(٣١٧) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٣٣١
(٣١٨) انظر ابن الأثير — المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٣٢
(٣١٩) المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٣٣

وإعادة الأمور إلى نصابها فى الشام ، إذ بالثورات والقلاقل تنفجر فى كل مكان تقريبا فقد شجع انقسام الأمويين على أنفسهم ، واحتدام الصراع بينهم ، أحد أفراد البيت الهاشمى ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب ، على القيام بثورة عارمة فى العراق ١٢٧ — ١٢٩ هـ كما شجع الخوارج على أن يهبوا هبتهم الأخيرة فى العهد الأموى حيث قام الضحاك بن قيس الشيبانى بثورة خطيرة فى العراق ١٢٧ — ١٣٠ هـ وأبو حمزة الخارجى بثورة أخرى فى الجزيرة العربية ١٢٨ — ١٣٠ هـ .

والأدهى من ذلك كله أن الخلل والاضطراب سرى فى أجزاء الدولة من خراسان إلى الأندلس .

وبينما مروان يواجه هذا الموقف الصعب ، وينتقل من ميدان إلى ميدان ، فاجأته الثورة العباسية من خراسان كالسيل المنهمر(٣٢٠) ، فاكتسحت قواته فى خراسان والعراق ، ثم كانت هزيمته الساحقة فى موقعة الزاب فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ . وفراره الى مصر ومقتله هناك فى ذى الحجة من نفس العام .

ولما كانت هذه الأحداث تقترن بسقوط الدولة الأموية فقد أرجأنا الحديث عنها إلى موضعها المناسب فى هذا الكتاب ، وهو آخر الفصل الخاص بالثورات التى اندلعت فى وجهها .



(٣٢٠) بدأ أبو مسلم الخراسانى ، قائد الثورة العباسية أعماله العسكرية فى خراسان فى بداية سنة ١٣٠ هـ ، حيث استولى على مرو عاصمة خراسان ثم واصلت قواته الزحف على العراق ، أى فى قمة انشغال مروان وانهماكه فى قمع ثورات الخوارج .

الفصل الثالث

الفتوحــات فى العصر الأمــوى

تمهيــد : الفتوحات قبل العصر الأموى :

المتتبع لتاريخ حــركة الفتوحات الإسلامية ، خارج شبه الجزيرة العربية ، منذ عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ١١ ــ ١٣هـ يدرك أن هذه الفتوحات جاءت استطرادا وتحت ضغط الظروف أو بمعنى آخر يدرك أن المسلمين اضطروا لهذه الفتوحات إضطرارا فلم يكن هنالك برنامج ــ معد سلفا ــ للفتح أو للصــدام المسلح مع الآخرين ، لأن نشر الإسلام ، الذى هو غاية المسلمين الأولى لم يكن يتطلب بالضرورة أعمالا حربية ، فالدين إيمان يقر فى القلوب ، والقلوب لايستطيع أحــد أن يفرض عليها شيئا بالقوة ، وكل ماكان يطلبه المسلمون أن يفسح الناس لهم طريق الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، بدون عوائق أو موانع ، ولذلك كانت سياسة الرسول ﷺ قائمة على تأمين شبه الجزيرة العربية من أى عدوان خارجى ، ثم دعــوة الناس خارج الجزيرة إلى الإســلام بالحسنى. .ولكن الدول صاحبة القوة والسلطان والمهيمنة على حدود شبه الجزيرة العربية ــ الفرس والروم ــ لم يعطوا الإسلام هذه الفرصة ، بل كادت له وقاومته فكان لابد من الصدام .

والقصة مع الفرس والروم ، تبدأ منذ عهد الرسول ﷺ الذى خاطب الفرس فى شخص ملكهم كسرى إبرويز الثانى ، وخاطب الروم فى شخص إمبراطورهم هرقل ، داعيا إياهم إلى الإسلام ، وكان ذلك فى مطلع العــام السابع الهجرى ، ضمن سلسلة الرسائل التى بعثها إلى الملوك والأمراء

المعاصرين ، سواء خارج شبه الجزيرة العربية أو داخلها(١) . وهذه الرسائل كانت سلمية ، فلم تتضمن أية إشارة إلى القوة أو استخدام السيف لإجبار الناس على اعتناق الإسلام ، بل هى دعوة بالحسنى إلى الإيمان بالله ورسوله ، مما يقطع الطريق على كل من يدعى أن الإسلام دين يدعو المسلمين إلى إشهار السيف لإجبار غير المسلمين على اعتناقه ، ولكن رد فعل كل من كسرى فارس وإمبراطور الروم لم يكن إيجابيا على تلك الرسائل ، وسنحاول تلخيص الموقف مع كل من الفرس والروم ، ابتداء من وصول هذه الرسائل إليهم ، حتى نعرف قصة الفتوحات من بدايتها ، وكيف تطورت فى عهد الخلفاء الراشدين ، والعصر الأموى فيما بعد .

المسلمون والفرس :

تجمع المصادر على أن كسرى ابرويز الثانى عندما وصلته رسالة النبى ﷺ غضب غضبا شديدا ، بل خرج عن حدود اللياقة والأدب ، ومزق الرسالة ، وطلب من باذان عامله على اليمن أن يرسل له الرسول ﷺ مكبلا بالحديد ليحاكمه على جرأته ومخاطبته ملك الملوك ودعوته إياه إلى الإسلام ، ولما وصلت هذه الأخبار إلى النبى ﷺ لم يزد على أن دعا عليه فقال « مزق الله ملكه »(٢) ولا شك فى أن هذا موقف عدائى للغاية من جانب الفرس ، وسوف يتطور ويتجلى أكثر من ذلك فى موقفهم من حروب الردة فى عهد الصديق ، وتحريضهم القبائل العربية فى البحرين على التمرد على سلطان الخلافة ، مما أدى إلى الاشتباك الحربى بين المجاهدين المسلمين ، الذين كانوا يلاحقون المرتدين على ساحل الخليج شمالا ، بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى ، ومنذئذ بدأ الصدام بين المسلمين والفرس ، ذلك الصدام الذى لم يتوقف إلا باجتياح جحافل المسلمين الدولة الساسانية برمتها وإدخالها فى حوزة

(١) انظر رسائل النبى ﷺ إلى الملوك والأمراء والمعاصرين فى المصادر الآتية : تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٧٧ وابن حجر — فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١ ص ٣٢ وما بعدها ، جـ ٨ ص ١٢٧ — وصحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١٠٧ — ١٠٨ ، ود. محمد حميد الله — مجموعة الوثائق السياسية ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٢ ص ٦٥٤

الإسلام ، فبعد المصادمات الأولى بين المثنى والفرس ، وصنائعهم من العرب على تخوم الجزيرة العربية والعراق ، أدرك أن الجبهة اتسعت امامه ، وان الفرس القوا بثقلهم فى المعارك فأرسل إلى ابى بكر طالبا المدد ، وادرك الخليفة ببصيرته خطورة الموقف فرمى تلك الجبهة بأمهر قواده العسكريين ، خالد بن الوليد ، الذى استطاع فى اقل من عام أن يطوى جنوب العراق كله ، وأن يستقر فى الحيرة ، عاصمة الإقليم ، ومقر إمارة العرب المناذرة(٣) .

فى هذه الأثناء كانت جيوش المسلمين قد تحركت إلى الشام — كما سنبين بعد قليل — لمصارعة الروم ، الذين دابوا على العدوان ، وتحرج موقف هذه الجيوش ، وأرسل قادتها إلى بكر يشرحون له حقيقة موقفهم واحتياجهم إلى مدد ، فاضطر أن يرسل إلى خالد بن الوليد ليسير على عجل من العراق إلى الشام كى يعين الجيوش فى موقفها الحرج وينسى الروم وساوس الشيطان — على حد تعبير أبى بكر — ، فلبى القائد البطل اوامر الصديق واخترق الصحراء من العراق إلى الشام بطريقة لازالت محل إعجاب العسكريين ولكنه خالد بن الوليد عبقرى الحرب ، وسيف الله ، وندع خالدا وجهاده فى الشام الآن لنتابع قصة المسلمين مع الفرس ، فبعد رحيل خالد من العراق ، حشد الفرس جيوشهم لإجلاء المسلمين عن هذه المناطق ، وأدرك المثنى دقة موقفه ، وأن البلاد بدأت تنتقض عليه فقدر موقفه ، وقرر الانسحاب إلى تخوم الجزيرة العربية ، حتى يتجنب الصدام مع الفرس فى معركة غير متكافئة ، وارسل إلى أبى بكر يطلب المـــدد ، ولما أبطأ عليه الرد ، قرر الذهاب إلى المدينة ليشرح الموقف للخليفة نفسه ، واستخلف على جنده بشير بن الخصاصية ، ولما وصل إلى المدينة وجد الخليفة على فراش المرض ، ولم يلبث أن توفى فى جمادى الآخر سنة ١٣ هـ ، ولكنه كان قد علم بقدوم المثنى وحرج موقف المسلمين بالعراق ، فلم يشغله مرض الموت عن أمرهم ، فكان من آخر كلامه لخليفته عمر بن الخطاب ، : «إسمع ياعمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا .. فإن انا

(٣) انظر فتوحات خالد بن الوليد فى العراق فى عهد أبى بكر فى البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٩٥ ومابعدها . والطبرى — تاريخ — جـ٣ ص ٣٤٣ ومابعدها .

مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم، ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله ﷺ وماصنعت ، ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو انى أنى عن أمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا .. وإن فتح الله على امراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق ، فإنهم أهله وولاة امره وحده ، وأهل الضراوة منهم والجراة عليهم»(٤) اى رجل هذاالذى لايشغله الموت عن إغاثة المسلمين ؟ ولكن بمثل هذه العزائم تتم الأعمال الجليلة ، وتقوم الدول ، وتزدهر الحضارات الإنسانية الراقية .

عمل عمر بوصية ابى بكر ، فكان اول أعماله ندب الناس مع المثنى ، وكان اول من لبى النداء ابو عبيد بن مسعود الثقفى ،(٥) فعقد له عمر لواء القيادة ، وسار أبوعبيد إلى العراق ، وحقق مع المثنىبعض الانتصارات فى النمارق وكسكر وغيرها ،(٦) لكن الفرس استطاعوا أن يخدعوه ، حين دعوه لعبور النهر ، فعبر رغم نصيحة المسلمين له بعدم العبور ، فترتب على هذا أن هزم الفرسالمسلمين هزيمة كبيرة ، فى معركة الجسر سنة ١٣ هـ(٧) واستشهد أبو عبيد — رحمه الله — ومعظم الجيش ، واستطاع المثنى ببسالة نادرة أن ينقذ من بقى من المسلمين ، وأن يعبر بهم النهر .

كانت هزيمة المسلمين فى الجسر أول هزيمة تحل بهم على أيدى الفرس فى العراق ، غير أن القائد البطل المثنى بن حارثة قرر أن يحرم الفرس من استثمار هذا النصر ، وأن ينسى المسلمين الهزيمة فاستمد العرب المقيمين فى المناطق المجاورة ، فتوافوا اليه بجمع عظيم(٨) ، فخاض ضد الفرس معركة البويب (٩) سنة ١٣ هـ . وانتصر عليهم فيها إنتصارا عظيما ، بدد ظلال هزيمة الجسر ، ورفع روح المسلمين المعنوية .

(٤) الطبرى — تاريخ ج ص ٤١٤
(٥) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٤٤
(٦) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٤٩ — ٤٥٠
(٧) أنظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٣٠٨ — ٣٠٩
(٨) الطبرى — تاريخ ج ٣ ص ٤٦٠
(٩) البلاذرى — المصدر السابق ص ٣١١

ولكن المثنى لم يكن بالقائد الذى تغيب عن باله خطورة الموقف ، وانه يقارع دولة كبرى ، فلم يغره نصره بالبويب ، وايقن ان الموقف يحتاج إلى حشد كبير من المسلمين ، فكتب إلى عمر بن الخطاب — الذى كان شديد الاهتمام بامر هذه الجبهة — بحقيقة الموقف ، فايقن عمر ان الأمر يحتاج إلى عمل كبير ،يحسم به الموقف بين المسلمين والفرس ، وقد اداه هذا إلى ان يعزم على الخروج إلى العراق بنفسه ، (١٠) لولا أن أشار عليه كبار الصحابة بالبقاء فى المدينة ، فهذا انفع للمسلمين فى العراق وغير العراق ، فاستشارهم فى قائد يصلح لهذه المهمة الخطيرة ، فأشاروا عليه بالأسد فى عرينه ، سعد بن أبىوقاص ، فأسند إليه عمر قيادةالمسلمين ، وتوجه سعد إلى العراق .

معركة القادسية (١٤ هـ) :

سار سعد على رأس جيشه إلىالعراق ليحسم الموقف مع الفرس ، وعلم الفرس بقدومه ، وبدأ كل من الفريقين يستعد للقاء الفاصل ، والجميع يعلم خطورة الموقف ، فالمسلمون يعلمون أن كل انتصاراتهم التى تحققت حتى الآن معلقة بمصير المعركة القادمة ، والفرس من جانبهم قد شدت الجبهة انتباههم وتجسم لهم الخطر القادم على دولتهم ، فأعطى يزدجرد الثالث — الذىأصبح آخرملوك الساسانيين — كل اهتمامه لمواجهة المسلمين ، وآية ذلك انه أسند قيادة المعركة إلى أعظم قواده قاطبة ، رستم ، لأن مصير الإمبراطورية معلق بنتيجة هذا اللقاء مع المسلمين .

وقبل أن يلتقى المسلمون والفرس فى القادسية ، دارت المفاوضات ، وعرض المسلمون عليهم الإسلام ، أو الجزئية ، أو القتال(١١) ، ولكن الفرس ابوا إلا القتال ، فبدات المعركة التى اخذت اسمها من المكان الذى دارت فيه — القادسية —(١٢) واستمرت ثلاثة أيام ، ومع ان القائد البطل سعد

---

(١٠) البلاذرى — المصدر السابق ص ٣١٣
(١١) انظر البلاذرى — المصدر السابق ص ٣١٥
(١٢) تقع على بعد خمسة عشر فرسخا ، جنوب الكوفة — انظر: ياقوت — معجم البلدان — جـ ٤ ص ٢٩١

ابن أبى وقاص كان مريضا ، وكان يدير المعركة وهو على فراشه ، فقد انتصر المسلمون انتصارا ساحقا ، وهزم الفرس هزيمة منكرة وقتل قائدهم الشهير رستم ، وبدد شملهم(١٣) .

وتعتبر معركة القادسية من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، لأنها قررت مصير العراق العربى نهائيا ، وبعدها أصبح الطريق مفتوحا أمام المسلمين إلى المدائن — عاصمة الفرس — فدخلها سعد بن أبى وقاص ، بعد القادسية بعدةشهور (١٤) ، وفر منها يزدجرد الثالثإلى حلوان ولكنه بعد دخول سعد المدائن ، حشد جيشا فى جلولاء ، فوجه إليه سعد جيشا بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبه بن أبى وقاص ، فأوقع بالفرس هزيمة ما حقة(١٥) .

معركة نهاوند : (سنة ٢١ هـ) :

ذكرنا فى صدر هذا الحديث أن الفتوحات الإسلامية جاءت استطرادا وكل خطوة كانت تؤدى إلى مابعدها ، ولم يكن فى إمكان المسلمين التراجع بعد أن بدأت المعارك ، والدليل على أن المسلمين لم يكونواراغبين فى القتال أن عمر بن الخطاب رفض أن يأذن لسعد بن أبى وقاص فى متابعة الفرس والانسياح فى بلادهم ، بعد استقراره فى المدائن ، واكتفى بأن يؤمن المسلمون مواقعهم حول المدائن ، وقال لسعد : « لوددت أن بين السود وبين الجبل سدا ، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد ، إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال »(١٦) . ذلك لأن عمر بعد أن دارت المعارك على جبهتى الفرس والروم ، تكونت فى ذهنه فكرة محددة ، وهى أن يمضى بالفتوحات إلى نهاية حدود العراق والشام ، وهذه الفكرة جديدة ، لم تتحدد إلا بعد أن بدأت المعارك ، لأن سياسة الرسول ﷺ كما أشرنا

(١٣) أنظر تفاصيل القادسية فى البلاذرى ص ٣١٥ ومابعدها ، والطبرى تاريخ جـ ٣ ص ٤٨٠ وما بعدها .

(١٤) البلاذرى — المصدر السابق ص ٣٢٢

(١٥) المصدر السابق ص ٣٢٤ ، والطبرى تاريخ جـ ٤ ص ٢٤ وما بعدها .

(١٦) الطبرى — تاريخ جـ ٤ ص ٢٨

آنفا — كانت قائمة على تأمين حدود شبه الجزيرة العربية ضد اى عدوان يأتى من جانب الفرس أو الروم ، والدليل على ذلك ما فعله عندما جاءته الأخبار سنة ٩ هـ بأن الروم يجهزون لعدوان على شبه الجزيرة(١٧) . إذ خرج إلى تبوك لمواجهتهم ، لكنه لما وجدهم قد فروا أمامه هاربين لم يلاحقهم ، واعتبر فرارهم من الميدان هزيمة لهم ، ولو كان لديه نية للغزو خارج شبة الجزيرة العربية ، للحق بالروم داخل الشام ، ولما كان أسهل عليه من أن يهزم جيشا منسحبا من الميدان ، ولكنه لم يفعل ذلك واكتفى ببسط سلطانه على مناطق التخوم ، وإزالة سلطان الروم من هناك ، ثم عاد إلى المدينة ، يرجو أن يهدى الله قيصر وكسرى وأمراء الشام ومصر والعراق إلى الإسلام دون قتال وكانت هذه سياسة أبى بكر « فلما دخل المثنى بن حارثة الشيبانىالعراق وأمده الصديق بخالدبن الوليدفانتصر على الفرس ، ثم لما بدأ الفتح فى الشـام ، لم يدر بخاطر ابى بكر ولا بخاطر عمر أن يتخطيا حدود الشام والعراق إلى ماوراءهما ، فقد كان بالعراق والشام من قبائل العرب التى نزحت من شبه الجزيرة ، وأقامت مملكة الحيرة ومملكة غسان من ينتمون إلى المسلمين بأوثق الصلة،فمن حق المسلمين أن يطمعوا فى مؤازرتهم وانضمامهم إليهم ، فأما ماوراء ذلك من أرض الفرس وأرض الروم فلم يكن للخليفتين الأولين مطمع فى غزوه أو فتحه »(١٨) .

تطور الموقف :

نحن هنا لا نؤرخ للفتوحات فى عهد الخلفاء الراشدين ، ولكننا نمهد للفتوحات التى تمت فى العصر الأموى ، ومـا يهمنا هنـا هو رصـد حركة الفتوحات — بإيجاز شديد — منذ بدايتها لنعرف التطور الذى طرأ عليها ، من سياسة تأمين حدود شبه الجزيرة العربية فى عهد الرسول ﷺ إلى أن طرأت فكرة فتح العراق والشام بعد أن بدأت المعارك على الجبهتين مع الفرس والروم . غير أن هذه الفكرة نفسها تطورت بحكم الظروف — التى

---

(١٧) أنظر سبب غزوة تبوك فى الطبرى — المصدر السابق جـ ٣ ص ١٠٠ وما بعدها .

(١٨) د. محمد حسين هيكل — الفاروق عمر جـ ٢ — ص ٥

احيــانا ما تكون اقوى من الرجال — فعمر بن الخطــاب كان يود أن يقف بالفتوحات عند حدود العراق وآية ذلك رفضه أن ينساح المسلمون فى أرض الفرس بعد استقرارهم فى المدائن — كما اشرنا آنفا — ويبدو أن عمر كان يتوقع أن الفرس بعد هذه الهزائم المتلاحقة التى منوا بها ، سوف يكفون عن المسلمين ، ويدعونهم وشأنهم خصوصا وأن المناطق التى فتحها المسلمون حتى الآن ، لا تدخل فى صميم الوطن الفارسى ، بل هى مناطق فى جملتها عربية وسكانها من العرب ، لذلك قررعمر عدمملاحقتهم ، كى يتفرغ القادة المسلمون لتنظيم المناطق التى فتحوها طبقا لمنهج الإسلام ، ولإشتعار السكان بفوائد الإسلام لهم باعتباره دينا ونظام حياة ، يحمل للناس العدل والمساواة والحرية ، وانه جاء ليخلصهم من الظلم والاستغلال والاستعباد ، لكن هذه السياسة التى عزم عمر على اتباعها ، لم يدركها الفرس ، بلخيل إليهم أن إمساك المسلمين عنهم ، وعدم تعقبهم هو خوف منهم ، فأطمعهم ذلك فيهم واغراهم بمناوشتهم وكان أهل الأهواز — بقيادةالهرمزان القائد الذى هرب من القادسية — أسبق من غيرهم إلى المناوشة ، فكانــوا لذلك أول من اصطدمبالمسلمين ، فدارت الدائرة عليهم ، وكانت هزيمتهم طليعة ماتلاها من هزائم الفرس واندحارهم(١٩) .

وصلت أخبار انتقاض اهل الأهواز وغيرهمإلى عمر ، فتحير فى الأمر ، وظن أن ذلك ربما يرجع إلى خلل فى السياسة التى رسمها ابو بكر ، وسار عليها هو فى البلاد المفتوحة ، تلك السياسة التى تقوم على الإحسان إلى السكان ، والعمل على إصلاح احوالهم ، والوفاء لهم بكل العهود والمواثيق فهل حاد المسلمون عن هذه السياسة ؟ .

دعا عمر وفدا من أولى الرأى والبصر من المسلمين ، ليعرف منهم علة هذه الانتقاضات وسألهم قائلا : « لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة ، فلهذا ينتقضون بكم ؟ قالوا : مانعلم إلا وفاء ، قال : فكيف هذا ؟ فلم يشفه أحد منهم ، إلا أن الأحنف بن قيس قال له : « يا أمــير المؤمنين إنك نهيتنــا عن الانسياح فى البلاد ، وإن ملك فارس بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلوننا

---

(١٩) المرجع السابق جـ ٢ ص ٦.

مادام ملكهم فيهم ، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج احدهما صاحبه ، وقد رايت انا لمناخذ شيئا بعد شيىء إلا بانبعاثهم وغدرهم ، وان ملكهم هو الذى يبعثهم ، ولا يزال هذا دابهم حتى تأذن لنا بالانسياحفى بلادهم ، ونزيل ملكهم، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس»(٢٠) . كان هذا الذى قاله الأحنف هو علة الانتقاض ، والسبب الحقيقى فى المقاومة ، ولذلك اقتنع عمر بوجهة نظر الأحنف وقال له : « صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه »(٢١) .

ومما زاد عمر اقتناعا بما قاله الأحنف،أنه جاءته الأنباء بعد عودة الوفد مباشرة باجتماع الفرس فى نهاوند ، لأن جميع أمراء المقاطعات الفارسية ، كانوا قد كاتبوا يزدجرد بعد فراره من حلوان يحثونه على المقاومة(٢٢) . بل وعلى الهجوم على جزيرة العرب نفسها ، يروى الطبرى عن حمزة بن المغيرة بن شعبة،عن أبى حطمة الثقفى،وكان قد أدرك ذلك،أنه قال إن أمراء فارس،لما كاتبوا يزدجرد الثالث قالوا :« إن محمدا الذى جاء العرب بالدين لم يغرض غرضنا ، ثم ملكهم ابو بكر من بعده ، فلم يغرض غرض فارس ، إلا فى غارة تعرض لهم فيها ، وإلا فيما يلى بلادهم من السواد،ثم ملك عمر من بعده فطال ملكه وعرض ، حتى تناولكم ، وانتقص السواد والأهواز وأوطأها ، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة فى عقر دارهم ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، فقد أخرب بيت مملكتكم ، واقتحم بلاد ملككم ، وليس بمنته حتى تخرجوا من فى بلادكم من جنوده ، وتقلعوا هذين المصرين — البصرة والكوفة — ثم تشغلوه فى بلاده وقراره ، وتعاهدوا وتعاقدوا ، وكتبوا بينهم على ذلك كتابا ، وتمالئوا عليه »(٢٣) .

تجمعت هذه الأخبار عند عمر فلم يعد لديه شك فى أن صداما وشيكا سيقع مع الفرس ،فكان لابد من الاستعداد ، والعدول عن السياسة التى

---

(٢٠) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٥٤٩ — ٥٥٠ — والطبرى تاريخ — جـ ٤ ص ٨٩

(٢١) المصدران السابقان على الترتيب ونفس الأجزاء والصفحات .

(٢٢) البلاذرى — فتوح البلدان ص ٣٧١ — وابن الأثير جـ٣ ص ٥

(٢٣) تاريخ جـ ٤ ص ١٢٢

كان قد عزم على اتباعها ، فأعد جيشا لمنازلة الفرس ، وأسند قيادته إلى النعمان بن مقرن ، والتقى الجيشان فى نهاوند(٢٤) ، ومع أن أعداد الفرس كانت تفوق أعداد المسلمين بكثير ، إلا أن المسلمين انتصروا انتصارا باهرا ، عبر عنه المؤرخون فى إيجاز شديد بأنه فتح الفتوح ، وأن المعركة كانت فاصلة ، فقد قررت مصير الإمبراطورية الفارسية نهائيا ، ولم تقم بعدها للفرس قائمة ، ولم تجتمع لهم كلمة ، يقول الطبرى : « وافتتحت نهاوند فلم يكن للأعاجم بعد ذلك جماعة »(٢٥) .

الانسياج فى بلاد الفرس :

لم يكتف عمر هذه المرة بالانتصار الباهر الذى حققه المسلمون فى نهاوند ، وإنما عقد العزم على القضاء تماما على التهديد الفارسى للدعوة والدولة الإسلامية ، فأصدر أمره إلى المجاهدين المسلمين بالانسياح فى المقاطعات الفارسية ، لتحقيق هذا الهدف ، وتحرير الشعب الفارسى من الوثنية والظلم والاستعباد ، يقول الطبرى : « وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل نهاوند ، فكان ذلك سبب إذن عمر لهم فى الانسياح »(٢٦) فالفرس بكثرة انتقاضهم وتمردهم ، هم الذين حملوا عمر على تغيير سياسته والتصميم على إزالة دولتهم من الوجود . والحق أن هزيمة الفرس فى نهاوند كانت أشد وقعا فى نفوسهم من جميع الهزائم التى لحقت بهم من قبل ، سواء فى القادسية ، أو فى جلولاء ، ولذلك كانت عبارات المؤرخين دقيقة فى تصويرها ، فهى بالنسبة للمسلمين فتح الفتوح ، وبالنسبة للفرس كنت القاصمة ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ولم تجتمع لهم كلمة .

وآية ذلك أن ملكهم يزدجرد الثالث أخذ يهيم على وجهه فى البلاد بعدها ، ولم يستقر له قرار ، واضطر أن يعبر نهر جيحون ملتمسا النصرة

---

(٢٤) أنظر معركة نهاوند — البلاذرى — فتوح البلدان ص ٣٧١ وما بعدها والطبرى — تاريخ جـ ٤ ص ١١٤ وما بعدها — وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٥ وما بعدها .

(٢٥) تاريخ جـ ٤ ص ١١٦

(٢٦) تاريخ جـ ٤ ص ٨٩ .

عند خاقان الترك وملك الصين ، ولكن ذلك لم يجده نفعا . فبلاده أصبحت مفتوحة أمام المسلمين ، وكان لابد من استكمال فتحها ، وإزالة ماتبقى من سلطان آل ساسان ، والقضاء على المجوسية وفتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية فى هذه البلاد ، التى سيصبح لها فى تاريخ الإسلام شأن عظيم ،

وصلت عمر بن الخطاب فى المدينة بشائر النصر العظيم فى نهاوند ، فأعد عددا من القادة المسلمين،وأمرهم بالانسياح والتوغل فى أعماق الإمبراطورية فبعث بلواء إلى نعيم بن مقرن وأمره بقصد همذان ، فإذا فتحها سار إلى ماوراء ذلك إلى خراسان(٢٧) ،وبعث عتبة بن فرقد وبكير بن عبدالله ، إلى أذربيجان ، يدخلها أحدهما من حلوان والآخر من الموصل ، وبعث عبدالله ابن عبدالله بن عتبان إلى أصبهان(٢٨)،وسراقة بن عمرو إلى باب الأبواب على بحر الخزر ، — بحر قزوين — وفى مقدمته عبدالرحمن بن ربيعة ، ثم بعث الأحنف بن قيس إلى خراسان ، وعثمان بن أبى العاص الثقفى إلى اصطخر(٢٩) . وسارية بن زنيم إلى فساوداربجرد ، وعاصم بن عمرو التميمى إلى سجستان ، وسهيل بن عدى الخزرجى إلى كرمان ، والحكم ابن عمرو التغلبى إلى مكران(٣٠) .

وهكذا غطت جيوش الإسلام المقاطعات الفارسية بأكملها ، واللافت للنظر هنا ، أن أمراء تلك المقاطعات الذين كانوا قد كاتبوا يزدجرد الثالث يحثونه على المقاومة بعد فتح المدائن ، قد تغير موقفهم بعد هزيمة نهاوند ، وتخلوا عن ملكهم ، وعن فكرة الدفاع عن الإمبراطورية ، وبدأ كل منهم يفكر فى نفسه ، ومستقبله ، ولذلك أسرع معظمهم إلى لقاء القادة المسلمين طالبين الصلح نزولا على شروطهم ، ولم تحدث مقاومة تذكر ، ولم نجد

---

(٢٧) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ١٨ .
(٢٨) المصدر السابق ج ٣ ص ١٨
(٢٩) تاريخ خليفة بن خياط ص ١٥٢ .
(٣٠) لمزيد من التفصيل عن انسياخ المسلمين فى بلاد فارس بعد نهاوند — انظر الطبرى — تاريخ ج ٤ ص ١٤٦ ومابعدها — وابن الأثير الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٢ ومابعدها .

معارك كالقادسية أو جلولاء أو نهاوند ، ويبدو أن هؤلاء الأمراء كانوا على يقين من عدم جدوى المقاومة ، فسلموا بالأمر الواقع . ومع أن هذه كانت سياسة عملية ، وفيها مصلحتهم ، خصوصا بعد أن لمسوا ورأوا رأى العين أن الحكم الإسلامى أكثر إنصافا ومعدلة،وأقل إرهاقا من حكم الأكاسرة(٣١) مع كل هذا إلا أنهم لم يستكينوا بشكل نهائى للحكم الإســـلامى ، بل تكرر إنتقاضهم ونقضهم للمعاهدات . ولم يكن إنتقاضهم راجعا إلى ظلــم وقع عليهم من المسلمين ، ولكنه الشعور القومى الذى كان لديهم فى ذلك الوقت قويا وغلابا ، وربما كان عند الكثير منهم فوق المنافع والمصالح . ولم يغب هذا عن فكر عمر بن الخطاب ، ولم يفته « أن أمة عريقة فى الحضارة والمجد كأمةالفرس ، لن تذعن من بادىء الأمر لسلطان الأجـــانب عنها ، فأقـــام المسالح فى شتى أرجائها ، واحتاط بذلك لكل انتقاض يمكن أن تقوم به طائفة من أبنائها ، وقد كان عمر فى هذا الأمر — كما كان فى كثير غيره — حصيفا بعيد النظر فالشعور بالكرامة أقوى أثرا فى النفوس من كل شعور ، ولن يستطيع كبحه إلا قوة تضطر الثائر لمهانة نزلت به أن يختار بين كرامتـــه وحياته ، وتجعل الشعور بالكرامة وغريزة الحياة يقفان وجها لوجه ، وقد كان لهذه الوقفة أثر بعيد فى حيـــاة الشعب الفارسى ، أدت به إلى أن يدين بالإسلام(٣٢) » .

المسلمون والروم :

كان أول اتصال رسمى يتم بين المسلمين والروم هو تلك الرسالة التى أرسلها النبى ﷺ إلى هرقل فى مطلع العام السابع الهجرى – وكما أشرنا آنفا – فقد كانت دعوة سلمية من الرسول ﷺ إلى هرقل ليدخل فى الإسلام هو وقومه حيث جاءت خالية من أية إشارة لاستخدام القوة أو التهديد بها،وسواء رد هرقل على هذه الرسالة كما يذكر اليعقوبى(٣٣) أو لم يرد ، فإن تطور الأحداث فيما بعد أثبت أن الروم قد ناصبوا المسلمين العداء وأعلنوا الحرب عليهم ، ومن الأدلة على ذلك تدخلهم فى غزوة مؤتة سنة ٨ هـ فسرية مؤتة

---

(٣١) د . هيكل — الفاروق عمر جـ ٢ ص ٥٥ .
(٣٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥٦ .
(٣٣) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٧٧ .

أرسلها الرسول ﷺ لتأديب العرب القاطنين على تخـوم الجزيرة العربية والشـام ، الذين إعتدوا على الحارث بن عمير الأزدى ، مبعـوث النبى ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى وقتلوه(٣٤) ، فكان لابد من تأديبهم على هذه الجريمة الخطيرة ، فلما وصلت الحملة إلى مؤتة وجدت الروم قد ألقوا بكل ثقلهم فى المعركة ولما بدأ القتال وضح التفاوت فى العدد وأن كفة الروم وحلفائهم راجحة ، واستشهد قواد المسلمين الثلاثة زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبى طالب ، وعبدالله بن رواحة ، وتسلم القيادة خالد بن الوليد ، واستطاع إنقاذ الجيش الإسلامى بصعوبة والعودة به إلى المدينة ، وخرج المسلمون من هـذه المعركة بنتيجة رئيسية وهى أن الروم أعلنوا الحرب على الإسلام.ولذلك اهتم الرسول ﷺ أو قل زاد اهتمامه بالحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية ، وأخذ يرصد حركات الروم هناك ، فلما جاءت الأنباء سنة ٩ هـ بأنهم يعدون العدة للعدوان على المسلمين أعد جيشا تحرك به إلى تبوك ،يقول ابن سعد : « بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأن هرقل قـد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لخم وجـذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء ، فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخـروج وأعلمهم المكان الذى يريد ، ليتأهبوا لذلك ، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وذلك فى حر شديد(٣٥) ووصل رسـول الله ﷺ الى تبوك على رأس أكبر جيش قاده فى حياتـه ، — ثلاثين الفا — فوجد الروم قد انسحبوا من الميدان ، فاكتفى بذلك — كما أشرنا آنفـا — ولم يلاحقهم إلى داخل الشام وهذا أكبر دليـل على أن الإسلام لايعادى أحـدا أو يبدؤه بقتال ، واكتفى النبى ﷺ بفرار الروم من ساحةالقتال وبسط سلطان الإسلام على المقاطعات الواقعةعلى أطراف الحجاز والشام ، مثل أيلة وأذرح والجرباء ومقنا ودومة الجندل(٣٦) ، وأعطى الرسـول ﷺ أمراء هذه المقاطعات معاهدات أمان على أنفسهم

---

(٣٤) انظر ابن سعد — الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٢٨ .

(٣٥) المصدر السـابق جـ ١٦٥/٢ ، وانظـر عن غزوة تبـوك وأسبابها — الطبرى جـ ١٤٢/٣ ومابعـدها وتاريـخ اليعقوبى جـ ٦٧/٢.

(٣٦) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٧١

وأموالهم وأديانهم(٣٧) ، ولم يكره أحدا منهم على الدخول فى الإسلام ، وهذا دليل عملى ساطع على أن الإسلام لايفرض على الناس بالقوة كما يدعى أعداؤه . إذ لو كان فى نية الرسول ﷺ فرض الإسلام على أحد بالقوة لما كان أسهل منه بالنسبة لهذه المجموعات الصغيرة والضعيفة والتى استسلمت دون قتال ، بعد أن هرب جيش هرقل من أمام الرسول .

وكان ماصنعه الرسول ﷺ وهو فى تبوك أكبر ضربة لهيبة الروم ونفوذهم ، حيث دانت تلك المقاطعات — التى كانت خاضعة لهم — للمسلمين ، وظل الرسول ﷺ على حذره تجاه الروم ، فكان آخر سراياه بعث أسامة بن زيد إلى الشام ، حيث أمره « أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين(٣٨) » ، وإذا كان هذا البعث لم يمض لوجهته حينئذ لمرض الرسول ، فقد كان أول أعمال أبى بكر — بعد توليه الخلافة — إنفاذ بعث أسامة ، لأنه فهم هدف الرسول منه وهو أن يلفت نظرهم إلى أن أكبر الأخطار التى تتهددهم ستأتى من جانب الروم ، فأنفذ أبو بكر بعث أسامة الذى نجح فى تأدية مهمته نجاحا عظيما .

إلى هنا نستطيع أن نقول أن سياسة المسلمين تجاه الروم كانت واضحة ، وتقوم على تأمين حدودهم معهم ، ضد أى عدوان منهم ، أو ممن يدور فى فلكهم من القبائل العربية . ولم يكن للمسلمين خطة للاشتباك مع الروم ، إذا تركهم الروم وشأنهم .

وآية ذلك أن أبا بكر الصديق عندما أرسل جيوشه لقتال المرتدين فى شبه الجزيرة العربية ، عقد لواء لخالد بن سعيد بن العاص ، وأمره أن يعسكر بجيشه فى تيماء وهى من مناطق التخوم ، وأمره ألا يقاتل إلا من

---

(٣٧) انظر نص معاهدة الرسول ﷺ ليوحنه بن رؤبة صاحب آيلة فى سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨١ ، وتاريخ خليفة بن خياط ص ٩٢ ، وتاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٦٨

(٣٨) الطبرى — تاريخ جـ ٣ ص ١٨٤

يقاتله ، وألا يبرح تيماء(٣٩) .

ولعل أبا بكر قصـــد من ذلك أن يكون خالد وجنده احتياطيا للقوات المحاربة فى جهات أخرى لينجدها عند الضرورة ، ثم ليراقب تحركات الروم ، لئلا يدهموا المســلمين على غرة فى ذلك الوقت العصيب الذى ارتد فيه معظم العرب ، وتدور فيه المعــارك معهم ، فى جهات عديدة ، لكن الروم عظم عليهم مقــام خالد بن سعيد ، فاستنفروا له العرب من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان(٤٠) ، واستدرجوه إلى داخل الشام ، حتى إذا كان على مقربة من مرج الصفر ، إلى الشرق من بحيرة طبرية ، أوقعوا به هزيمة ساحقة وبددوا معظم جيشه واستشهد إبنه سعيد بن خالد ، وعاد هو منسحبا بمن بقى معه من الجيش(٤١) (سنة ١٢ هـ) .

الروم يتعجلون الصـــدام مع المسلمين :

وصلت أخبار هزيمة خالد بن ســـعيد إلى أبى بكر ، وهو مشغول بمتابعة قمع الردة فى شرق وجنوب الجزيرة العربية ، فلم تشغله هــذه الأحداث الجســام عن أمر الروم ، وأدرك أنهم مصممون على محاربة المسلمين ، ولعل انشغال أبى بكر بأمر الردة ، اغراهم وجعلهم يتعجلون الصـــدام ، ولكن الصديق لم يكن بالرجل الذى يغفل عن هذا الخطر ، فهو السباق دائما إلى اتخاذ زمام المبادرة واتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب ، فقرر أن يتصـــدى للروم قبل أن يهاجموه ، ولقد عبر الطبرى فى كلمة وجيزة ولكنها بليغة عن موقف أبى بكر عندما وصلته أنباء هزيمة خالد بن ســعيد حيث قال : « عنـــد ذلك اهتاج أبو بكر للشـــام وعناه أمره(٤٢) » .

---

(٣٩) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٣ ص ٣٨٨ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٢ص ٤٠٢

(٤٠) الطبرى جـ ٣ ص ٣٨٨ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٤٠٢

(٤١) الطبرى — تاريخ جـ ٣ ص ٣٨٩ ، والدكتور هيكل — الصديق أبو بكر ص ٢٤٥

(٤٢) تاريخ — جـ ٣ ص ٣٨٩

جمع ابو بكر كبار الصحابة على عجل واستشارهم في أمر الروم ؟ وبعد دراسة الموقف من جميع جوانبه ، وتبـادل الآراء ، قر رأيهم على المواجهة بكل حسم وقوة ، طالما أن الروم قد تعجلوا الصدام ، وعقد أبو بكر لأربعة بن كبار القادة المسلمين ، لكل واحد لواء على جيش ووجهم إلى الشام ، أبو عبيدة بن الجراح إلى حمص ، ويزيد بن أبى سفيان إلى دمشق ، وعمرو بن العاص إلى فلسطين ، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن(٤٣) .

انطلقت جيوش أبى بكر إلى الشـام بكل العزم والتصميم على تلقين الروم درسا لن ينسوه أبدا ، واوصى الخليفة قواده بوصايا هي آيات من آداب الحرب الإسلامية .

وليس من شأننا هنا تفصيل أمر المعارك ، التى دارت بين هـذه الجيوش وبين الروم ، سواء فى عهد أبى بكر أو عهد عمر وبقية الراشدين وإنما الذى نريد أن نقوله هنا هو أن الاشتباكات التي دارت بين المسلمين والروم على جبهة الشـام ومصر ، مثل تلك التى دارت بين المسلمين والفرس فى العراق وفارس ، كل منها لم يكن بتخطيط سابق من المسلمين ، وانما كان بتداعى الظروف ، إذ اضطر المسلمون لخوضتها لدفع العدوان ، وافساح الطريق لنشر دعوتهم فى حرية وأمان . وكما انتهت المعارك بين المسلمين والفرس بالقضـاء على الدولة الساسانية ، وضم جميع أراضيها للدولة الإسلامية . وفرار يزدجـرد الثالث آخر ملوك الفرس ، ومقتله فى نهاية الأمر فى خلافة عثمان بن عفـان سنة ٣١ هـ . فكذلك استطاع المسلمون دحر الروم والاسـتيلاء على اهم وأغنى أقاليمهم فى الشرق ، الشام ومصر واضطر هـرقل أن يودع المنطقة الوداع الأخـير وكلماته تقطر أسى وحسرة ، حيث قال عليك السـلام يا سورية سلاما لااجتماع بعده ، ولايعود إليك رومى أبدا إلا خائفا »(٤٤) .

---

(٤٣) الطبرى — تاريخ جـ ٣ ص ٣٨٧

(٤٤) المصدر السابق جـ ٣ ص ٦٠٣

محاولات الروم العودة إلى الشام ومصر :

إذا كان هرقل قد ودع سورية الوداع الأخير ، وأدرك الا أمــل فى العودة إلى هذه البلاد مرة أخرى . فإن خلفـــاء هرقل قد راودهم الأمل فى إمكانية عودة الشـــام ومصر إلى حظيرة الدولة البيزنطية ، وبصـــفة خاصة حفيده قنسطانز الثانى (٦٤١ — ٦٦٨ م) — الذى اعتلى عرش الإمبراطورية بعد موت أبيه قسطنطين الثالـــث ، فى نفس العـــام الذى مات فيه جده هرقل ، وكان قنسطانز الثانى عند اعتلائه عرش الامبراطورية شابا ممتلئا حيوية وطموحـــا وقد راودته الآمال فى استرداد الشام ومصر من المسلمين . ولعله كان مدفوعا فى ذلك بتجربة جده هرقل مع الفرس(٤٥) ، فأعد حملة بحرية وأســـند قيادتها لقائده مانويل(٤٦) ، لمهاجمة الإسكندرية سنة ٢٥ هـ . ومع أن الحملة نجحت فى النزول إلى الإسكندرية ، بل والتوغل منهـــا جنوبا نحو الفسطاط ، إلا أن عمرو بن العاص ، القائد البطل فاتح مصر ، استطاع أن يطرد الروم منهـــا مرة أخرى وإلى الأبد . والجدير بالذكر هنا أن المصريين لم يتجاوبوا مع الروم فى محاولتهم العودة إلى مصر ،

---

(٤٥) فقبل اعتلاء هرقل عرش الإمبراطورية سنة ٦١٠م كان الفرس قد اكتسحوا أقاليمها فى الشرق ، وحتى بعد توليه مضى الفرس فى هجومهم ووصلت جيوشهم إلى الإسكندرية سنة ٦١٦ م .

ولكن اعتلاء هرقل العرش بعث فيها روحا جديدة ، واستطاع أن يقود سفينتها بحذق ومهارة ، وقرر تأجيل الاشتباك مع الفـــرس إلى أن يعيد بناء الجيش ، فلما أحس بقدرته على مهاجمتهم بدأ ذلك سنة ٦٢٢ م . واستطاع أن يهزمهم وأن يحول انتصاراتهم إلى هزائم ، بل غزاهم فى عقر دراهم ، واضطرهم إلى توقيع معاهـــدة صلح معهم كانت فى صالحه ، فاسترد ممتلكاته من أيديهم ، ثم أعاد الصليب المقدس ، الذى كانوا أخذوه من فلسطين ، ولكنه لم يهنأ بهذه الانتصارات ، فقد استولى المسلمون فى أقل من عشر سنوات على كل ماكان قد استرده من الفرس ، فأراد حفيده أن يكرر المحاولة مع المسلمين ولكنه باء بالفشل .

(٤٦) انظر ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١١٩ ، والبلاذرى — فتوح البلدان ص ٢٦٠

فلم ينضموا إلى جيشهم الذى نزل الإسكندرية(٤٧) . وهذا اكبر دليل على أن المصريين وجدوا الحكم الإسلامى افضل لهم من حكم الروم .

إنشاء الأسطول الإسلامى وموقعة ذات الصوارى :

جاءت حملة الروم البحرية على الإسكندرية سنة ٢٥ هـ لتؤكد وجهة نظر معاوية بن أبى سفيان — والى الشام وقتذاك — فى ضرورة أن يكون للمسلمين قوة بحرية تدافع عن شواطئهم فى الشام ومصر ضد هجمات الأسطول البيزنطى . وقد آمن معاوية بهذه الفكرة منذ اشتراكه فى فتوحات الشام وبصفةخاصة المدنالساحلية ، مثلصور وعكا وقيسارية ، التى كان الأسطول البيزنطى يمدها من البحر بالمؤن والعتاد والرجال ، ويجعلها تصمد فى مقاومة المسلمين ، ولكن على رغم كل هذه الصعوبات فقد اتم فتحها ، غير أن ماعاناه فى ذلك عمق لديه الإحساس بأهمية القوة البحرية للمسلمين . فعرض الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب ، إلا أن عمر رفض أن يأذن له فى إنشاء أسطول ومنعه من الغزو فى البحر (٤٨) . لأن سياسة عمر فى تلك المرحلة كانت تتسم بالحذر والخوف على المسلمين من المغامرات التى تحفها المخاطر .

وربما كان عمر مدفوعا فى سياسته تلك بتجارب غير ناجحة فى مجال الغزو البحرى ، كادت أن تسبب للمسلمين بعض الكوارث ، من ذلك محاولة العلاء بن الحضرمى غزو فارس من البحرين ، حيث أخذ الفرس الطريق عليه : وأحاطوا به ، وكاد يهلك هو وجيشه ، لولا أن تدارك عمر الموقف وكتب إلى عتبة بن غزوان بالبصرة بإنقاذه(٤٩) ، ومن تلك التجارب التى خوفت عمر من ركوب المسلمين البحر ، أنه كان قد بعث حملة بحرية تأديبية إلى الحبشة ، بقيادة علقمة بن مجزز المدلجى ، لأن الحبشة كانت قد اعتدت على أطراف المسلمين ، كما يقول الطبرى :

---

(٤٧) ابن عبد الحكم — المصدر السابق ص ١١٩

(٤٨) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ١٨١

(٤٩) انظر الطبرى — تاريخ ج ٤ ص ٧٩ — ٨٣

« ولكن المسلمين أصيبوا فجعل عمر على نفسه الا يحمل فى البحر احدا أبدا(٥٠) » . ومما زاد عمر اقتناعا بوجهة نظره فى الاحتياط من ركوب البحر ، رأى عمرو بن العاص عندما استشاره فيما يعرضه معاوية من بناء أسطول بحرى ، فقد جاء رأى عمرو معززا لوجهة نظر الخليفة(٥١) ، لكل ذلك لم تنجح مساعى معاوية لدى عمر ، حتى بعد أن جسم له خطر الأسطول البيزنطى على شواطىء المسلمين ، حين قال له : يا أمير المؤمنين : « إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم(٥٢) »» ومع تأثر عمر بكلام معاوية هذا ، إلا أنه كتب إليه بعد أن جاءه رد عمرو ابن العاص قائلا : « لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا(٥٣) » .

وإزاء هذا الإصرار من الخليفة على الرفض ، لم يكن لمعاوية بد من أن يؤجل مشروعه إلى أن تحين له الفرصة المناسبة ، واكتفى فى هذه المرحلة بتأمين سلامة شواطىء الشام وتعزيزها بالمقاتلين(٥٤) . لتكون قادرة على صد هجمات الأسطول البيزنطى .

فلما توفى عمر رضى‌الله عنه فى آخر عام ٢٣ هـ وتولى الخلافة عثمان ابن عفان ٢٤ — ٣٥ هـ أحيا معاوية مشروعه وعزز موقفه هجوم الروم على الإسكندرية ، فطلب من عثمان أن يأذن له بالغزو فى البحر ، وفى غزو جزيرة قبرس بالذات ، لقربها من شواطىء المسلمين ، وتهديدها الدائم لها ، وهى القرية التى كان اشار إليها وقصدها فى حديثه إلى عمر . ولكن عثمان لم يكن اقل حرصا من عمر على سلامة المسلمين ، فلم يأذن لمعاوية فى ركوب البحر من أول الأمر ، وإنما رد عليه قائلا ، « قد شهدت مارد

---

(٥٠) المصدر السابق — جـ ٤ ص ١١٢

(٥١) انظر كتاب عمر إلى عمروبن العاص برأيه فى البحر ورد عمرو عليه فى الطبرى — المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٥٨

(٥٢) الطبرى — تاريخ جـ ٤ ص ٢٥٨

(٥٣) المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٥٩

(٥٤) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ١٩٥ .

عليك عمر رحمه الله حين استامرته فى غزو البحر »(٥٥) ومعنى ذلك أن عثمان اراد أن يخبر معاوية ان رأيه فى ذلك مثل رأى عمر ، ولكن معاوية لم ييأس وواصل إلحاحه عليه ، وتحت هذا الإلحاح المستمر كتب إليه عثمان « فإن ركبت البحر ومعك امراتك فاركبه مأذونا لك وإلا فلا(٥٦) » .

ففرح بإذن عثمان له وبدأ فى إنشاء الأسطول ، فلما قوى بدأ فى غزو جزر الروم ، فركب البحر كما يقول البلاذرى: « من عكا ومعه مراكب كثيرة وحمل امراته فاختة بنت قرظة ... وحمل عبادة بن الصامت امراته أم حرام بنت ملحان الانصارية(٥٧) » ، وكانت اول جزيرة يغزوها معاوية من جزر البحر المتوسط فى حملته هذه هى جزيرة قبرس ، فنزلها سنة ٢٨ هـ أو ٢٩ هـ كما يقول البلاذرى : فبعث إليهم أركونها يطلب الصلح ، وقد أذعن أهلها فصالحهم على سبعة آلاف ومائتى دينار ، يؤدونها كل عام ، واشترط عليهم شروطا أخرى منها ، أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم ، وأن يكونوا على الحياد فلا يقاتلون المسلمين ولا يقاتلون معهم(٥٨) ، ولايعينون الروم عليهم .

حقق معاوية هدفه الذى سعى إليه طويلا ، وجاءت تجربته الأولى ناجحة ومشجعة فهاهو ذا الأسطول الإسلامى أصبح حقيقة واقعة ، وقوة استطاعت أن تفرض شروطها على واحدة من أهم قواعد الأسطول البيزنطى فى البحر المتوسط ، وهى جزيرة قبرس .

الغزوة الثانية لقبرس وضمها للممتلكات الإسلامية :

كانت قبرس — كمارأينا — محور مكاتبات معاوية — أثناء ولايته على الشام — مع الخليفتين عمر وعثمان ، وكان واضحا من اهتمام معاوية بهذه الجزيرة القريبة من سواحل المسلمين ، انه يريد أن يضعها تحت مراقبته ،

---

(٥٥) المصدر السابق ص ١٨١ .

(٥٦) المصدر نفسه ص ١٨١ .

(٥٧) المصدر السابق ص ١٨١ .

(٥٨) المصدر نفسه ص ١٨١.

لاهميتها الاستراتيجية وان يحرم البيزنطيين من الاعتماد على هذا المعقل القريب من أرض الإسلام(٥٩) ، ولذلك اكتفى فى غزوته الأولى بفرض شروطه — التى أشرنا إليها آنفا — والتى كان من أهمها الايعاون أهل قبرس البيزنطين على غزو المسلمين ، ولكن القبارسة لم يفوا بهذا الشرط ، فقد نقضوه ، وأمدوا الروم وأعانوهم على العدوان على المسلمين ، فقرر معاوية ان يلقنهم درسا قاسيا ، فهو قد اثبت حسن نواياه نحوهم ، ولكنهم نكثوا ، فصمم على الاستيلاء على الجزيرة ، وضمها للمتلكات الإسلامية وحشد المقاتلين المسلمين فيها ، يقول البلاذرى : « فلما كانت سنة اثنتين وثلاثين اعانوا — اى أهل قبرس — الروم على الغزاة فى البحر بمراكب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين فى خمسمائة مركب ، ففتح قبرس عنوة ، فقتل وسبى ، ثم أقرهم على صلحهم ، وبعث إليها باثنى عشر ألفا كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد ونقل إليها جماعة من بعلبك وبنى فيها مدينة »(٦٠)

موقعة ذات الصوارى :

رغم فشل محاولة الإمبراطور قنسطانز الثانى فى استرداد مصر ، فقد قام بمحاولة اخرى لمهاجمة سواحل الشام ، وأعد لذلك أسطولا ضخما قاده بنفسه ، ولكن لسوء حظه كان الأسطول الإسلامى الذى جاهد معاوية فى إنشائه قد أصبح قوة بحرية هائلة ، فما ان علم المسلمون بتحرك الأسطول البيزنطى إلى سواحل الشام وعلى رأسه الإمبراطور نفسه ، حتى بادروا بحشد أسطولهم ، الذى تعاونت مصر مع الشام فى إعداده ، واسندت قيادته إلى عبد الله بن سعد بن ابى سرح والى مصر ، وتحرك الأسطول الإسلامى إلى ساحل ليكيا عند فوينكس (Phoenix) وبالقرب من هذا المكان دارت المعركة البحرية الشهيرة ، التى تسمى فى المصادر بمعركة ذات الصوارى (٣٤ هـ) . والتى انتهت بفوز ساحق للأسطول الإسلامى ، وهزيمة منكرة للأسطول البيزنطى ، ولم ينج الإمبراطور نفسه من الموت

(٥٩) د. ابراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ٨٨
(٦٠) فتوح البلدان ص ١٨٢

إلا بأعجوبة (٦١) .

وكانت النتيجة التى أسفرت عنها هذه المعركة بالغة الأهمية فى قصة العلاقات بين المسلمين والروم ، بل تعتبر من وجهة نظر بعض الباحثين من المعارك الحاسمة التى غيرت مجرى تاريخ البحر المتوسط ، وقضت على وصفه ببحر الروم ، وجعلته حريا بأن يدعى بحر المسلمين « وتجلت أولى النتائج الهامة التى ترتبت على هذه المعركة الفاصلة فى تخلى الإمبراطور قنسطانز ، ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التى استولوا عليها فى شرق البحر المتوسط ، واستعادة ما كان لهم من سالف النفوذ والسلطان هناك ، وأدرك أولئك الأباطرة أن هذه الفكرة ضرب من الأحلام التى فات أوانها ، وأن قدم المسلمين رسخت نهائيا على الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط ، فجنحوا إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وادخار جهودهم وقوتهم إلى وقت قد يحتاجون فيه للدفاع عن دولتهم ، وحمايتها من التردى نهائيا فى أيدى المسلمين »(٦٢)

وبعد ، فإن التمهيد عن الفتوحات فى عهد الخلفاء الراشدين ، بين يدى الحديث عن الفتوحات فى العصر الأموى قــد طـــال بعض الشيىء ولكنى

---

(٦١) انظر تفاصيل هذه المعركة فى ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٢٩ والطبرى — تاريخ جـ ٤ ص ٢٨٨ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ١١٧ . وبينما تذكر معظم المصــادر أن المعركة دارت بالقرب من سواحل آسيا الصغرى ، ترى الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها البحرية فى مصر الإسلامية ص ٨٤ أنها وقعت بالقرب من ثغر فونيكه غربى الإسكندرية ولكن الأرجح أنها وقت قرب ساحل آسيا الصغرى — انظر د. ابراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ١٠٢ — ١٠٣

(٦٢) انظر د. إبراهيم العدوى — المرجع السابق ص ١٠٥ — ١٠٧ ، د. سعيد عبد الفتاح عاشور — أوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ١٣٣ ، والدكتورة سعاد ماهر — البحرية فى مصر الإسلامية ص ٨٤

قصدت من ذلك أن أبين كيف بدأت الفتوحات الإسلامية فى عهد الراشدين من ناحية ، وأين انتهت من ناحية ثانية ، حتى نعرف من أين بدأ الأمويون ، فالدولة الإسلامية فى عهد الراشدين أصبحت تضم — إضافة الى شبه الجزيرة العربية — العراق وكل أراضى الدولة الفارسية ، والشام ومصر ، فماذا أضاف الأمويون إلى هذه الدولة ؟ هذا ما سنبينه فيما يلى :

* * *

الفتوحات فى العصر الأموى

لا شــك فى أن أعظم إنجازات الأمويين الباقيــة على الزمن ، تلك الفتوحات التى تمت فى عهدهم ، والتى شملت مناطق عديدة فى قــارات العالم القديم — آسيا وأوربا وافريقيا — ففى آســيا فتح الأمويون أقاليم ما وراء النهر — وهى المناطق الواقعة بين نهرى جيحون وسيحون وإقليم السند بالإضافة إلى تثبيت الفتح فى المناطق التى كانت قد فتحت فى عهــد الخلفــاء الراشدين ، وبصفة خاصــة فى فارس ، فقــد كانت خراسان وسجستان وجرجــان وطبرستان وارمينية وأذربيجــان ، كثيرة الانتقاض والارتداد ، فأبلى الأمويون بلاء حسنا فى تثبيت دعائم الإسلام فى هذه البلاد حتى أصبحت من أهم ركائز العالم الإسلامى .

وفى افريقيا فتح الأمويون شمال القارة بأكمله من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى ، وفى أوربا فتحوا شبه جزيرة أيبريا — الأندلس — وأجزاء من جنوب فرنسا . كما استولوا على العديد من الجزر فى شرق وجنوب وغرب البحرالمتوسط . ثم واصلوا ضغوطهم على القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية ، وحاصروها أكثر من مرة وحاولوا الاستيلاء عليها، وإن كانت محاولاتهم لم تنجح فى إسقاطها . إلا أنهم نجحوا فى جعل الدولة البيزنطية تعيش فى حالة دفاع عن النفس وهذا مكسب سياسى وعسكرى ونفسى كبير بالنسبة للمسلمين ، ولم تكن هذه الفتوحات ، مجرد فتوحات عسكرية لاستغلال الشعوب ،على نسق الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث، وإنما كان هذا فتحا دينيا ولغويا وثقافيا ، وكما تجلت عبقرية الأمويين فى الغزو والفتح ، فقــد كانت عبقريتهم فى الإدارة والتنظيم والتقريب بين الشعوب التى دخلت فى حوزة الإسلام أعظم ، فبفضل السياسة المرنة ، والافق الواسع الذى كان يتمتع به الخلفاء الأمويون انصهرت شعوب البلاد المفتوحة — من إيرانيين واتراك وأرمن واكراد وبربر — فى بوتقة الإسلام ، لتشكل عالما إسلاميا واحدا ، وبفضل مثابرتهم وجهادهم مهدوا الأرض فى هذه البلاد لانتشار الإسلام . ومهما كابر المكابرون ، فإن أى منصف لابد أن يعترف بأن العصر الأموى كان عصرا باهرا فى جميع المجالات ، وأن بذور

الحضارة الإسلامية التى غرست منذ بداية ظهور الإسلام أخذت تنمو وتترعرع فى هذا العصر ، وواصلت نموها وازدهارها حتى وصلت إلى أوج عظمتها فى العصر العباسى ، وسنعود لمزيد من التفاصيل عن انتشار الإسلام والسياسة الإدارية فى العصر الأموى فى الفصول التالية من الكتاب ، أما الآن فإننا نفصل ما أوجزناه فى السطور السابقة عن الفتوحات فى العصر الأموى .

قامت الدولة الأموية رسميا سنة ٤١ هـ ، عندما تنازل الحسن بن على ابن أبى طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، وأصبح معاوية خليفة المسلمين دون منازع .

وعندما قامت الدولة الأموية فى هذا التاريخ ، كانت الفتوحات قد توقفت ، أو بمعنى أدق كادت أن تتوقف منذ نهاية خلافة عثمان بن عفان بسبب انشغال المسلمين بالفتن والحروب الأهلية التى ابتلوا بها ، والتى لم تتوقف إلا بتنازل الحسن لمعاوية — كما أشرنا آنفا — فهذه الحروب الداخلية شغلت المسلمين عن مواصلة الفتوحات فى الخارج ، بل يمكن القول إنه لولا الهيبة الهائلة التى أحدثتها الاندفاعة الكبرى فى عهدى أبى بكر وعمر فى قلوب أعداء الإسلام — وبصفة خاصة الدولة البيزنطية — أقول لولا هذه الهيبة التى رسخت فى قلوبهم لأغرتهم الفتن والحروب الداخلية فى الأمة الإسلامية على العدوان . ولكن بفضل الله تعالى لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام على مهاجمة حدود الدولة الإسلامية ، واقتصر أثر الأزمة الداخلية على جمود حركة الفتوحات نسبيا ولكن هذا الجمود المؤقت انتهى بانتهاء عهد الفتنة الأولى . وسوف تنشط حركة الفتوحات نشاطا ملحوظا — وإن كان محدودا — منذ مطلع خلافة معاوية وبصفة خاصة على جبهات الحدود مع الدولة البيزنطية ، سواء فى آسيا الصغرى أو فى شمال إفريقيا .

والملاحظة الرئيسية على عهد معاوية — الذى استمر ما يقرب من عشرين عاما ٤١ — ٦٠ هـ أنه لم يشهد فتوحات مثيرة ، ولم تتم فيه إضافة مساحات كبيرة إلى رقعة الدولة الإسلامية ، التى ورثها عن الخلفاء الراشدين .

ولم يكن ذلك راجعا إلى قصور من معاوية فى حركة الفتوحات ، وإنما كانت سياسة مدروسة ومحسوبة بعناية بالغة ، فمعاوية عندما تولى الخلافة كان على علم وخبرة كبيرة بشئون الأمة الإسلامية ، وكان يعلم أن مجموعة مرموقة من الأمة لم تكن راضية تمام الرضا عن خلافته ، وإنما قبلت ذلك أمرا واقعا لا فكاك لها منه ، فرأى معاوية أن العمل على إقناعهم بشرعية خلافته وجدارته بها أمر ضرورى لاستقرار الأمور فى الدولة ، فأعطى هذا جزءا من وقته وجهده ، لأن الاستقرار الداخلى أمر فى غاية الأهمية لأية دولة خصوصا عندما تكون فى مرحلة التأسيس ، مثلما كانت الدولة الأموية .

ثم هناك ناحيةهامة أخرى شغلت معاوية عنالقيام بفتوحات كبيرة ، وهى أن كثيرا من الأقاليم التى فتحت فى عهد الخلفاء الراشدين — وبصفة خاصة فى بلاد فارس — قد غلبت على أمرها بالقوة ، ولازالت عوامل الثورة والتمرد على الحكم العربى الإسلامى فيها كامنة ، ولازال شعورها القومى قويا،فهى دائمةالتربص للانتفاض والثورة، فرأى معاويةأن تثبيت الحكم الإسلامى فى هذه الأقاليم ، وإشعار الناس بأن هذا الحكم أفضل لهم مما كانوا فيه ، وتهيئتهم لقبول الإسلام دينا ، رأى أن ذلك أجدى بالنسبة لمسيرة الإسلام من إضافة مناطق جديدة ، وهذه فى الواقع نظرة ثاقبة وسياسة حكيمة فتعريف الناس بالإسلام ، وشرح مبادئه ، وترسيخ هذه المبادىء فى قلوبهم عن طريق السلوك الحسن والوفاء بالعهود ، لابد أن يؤتى ثماره فى النهاية .

ولقد أثمرت هذه السياسة التى انتهجها معاوية ثمارها فى عهده وبعده ، وكان أول وأهم هذه الثمار إقبال الفرس على الإسلام فى وقت مبكر(٦٣) ، ولقد أدرك معاوية أن عوامل الثورة والتمرد فى الأقاليم الفارسية ، والتى يحركها الشعور القومى والارتباط بالماضى لن تلبث أن تخف بفعل الزمنوبتأثير الإسلام ، الذىيرتفع بالناس — عندمايعرفونه حق المعرفة — فوق العصبيات والقوميات . لذلك لم تشغل حركات التمرد فى

(٦٣) انظر د. حسن أحمد محمود — الإسلام فى آسيا الوسطى — ص ٣٦ وما بعدها .

الأقاليم الفارسية معاوية كثيرا ، ولم تشكل بالنسبة له خطرا كبيرا ، بعد أن تهاوت الدولة الفارسية منذ سقطت عاصمتها المدائن سنة ١٦ هـ فى أيدى المسلمين ، ثم زال خطرها تماما منذ سنة ٣١هـ . أما الخطرالأكبر من وجهة نظر معاوية فكان من جهة بيزنطة ، فالدولة البيزنطية وإن كانت قد خسرت أهم أقاليمها فى الشرق — الشام ومصر — إلا أن جسم الدولة لازال سليما لم يمس ، فعاصمتها باقية ، وممتلكاتها فى آسيا الصغرى وأوربا وشمال إفريقيا لازالت شاسعة وإمكانياتها كبيرة ، وقدرتها على المقاومة هائلة ، وهى لم تكف بعد عن مناوأة المسلمين ، وباختصار فهى العدو الرئيسى والخطر الأكبر الماثل أمام المسلمين . ولم يكن هناك أقدر من معاوية على فهم وتقدير هذا الخطر ، وعلى مواجهته أيضا ، فمعاوية موجود فى الشام منذ مطلع الفتوحات فى عهد أبى بكر الصديق ، وأصبح واليا عليه ولمدة عشرين سنة تقريبا ، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسى مع الدولة البيزنطية ، فطول إقامة معاوية فى الشام — الذى أصبح الآن قاعدة الدولة الإسلامية ومركز عاصمتها — أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم .

لكل ذلك فليس غريبا أن نرى معاوية يولى حدوده مع الدولة البيزنطية وعلاقاته معها جل اهتمامه ، ويرسم لنفسه نحوها سياسة واضحة ثابتة سار عليها هو وخلفاؤه من الأمويين إلى نهاية دولتهم ، وقد كان من أهدافه الرئيسية الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية .

معاوية والقسطنطينية :

حقق معاوية هدفه وأصبح للمسلمين قوة بحرية فعالة وقادرة على مواجهة البيزنطيين ، فلما أصبح خليفة لم تتغير سياسته البحرية تجاههم ، وإذا كان طرأ على هذه السياسة جديد ، فهو أنه أصبح حرا فى اتخاذ القرار الذى يراه مناسبا لتحقيق سياسته ، وقد طور معاوية هذه السياسة منذ أصبح خليفة سنة ٤١ هـ . ووضع أمامه هدفا واضحا وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيدا للاستيلاء عليها ، ولعل معاوية كان يرمى إلى إسقاط الدولة البيزنطية ذاتها

بالإستيلاء على عاصمتها ، فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيدة هى مركز أعصاب الدولة ومستقر الأموال والرجال ، وفيها العقول المفكرة ، فإذا سقطت فى يده فإن هذا سيؤدى إلى شلل كامل فى الدولة كلها ، وأمامه تجربة المسلمين مع الفرس ، فبعد سقوط المدائن عاصمتهم فى أيديهم أصابهم الارتباك ولاحقهم الفشل ، ولم تقم لهم قائمة وزالت دولتهم ، فإذا استطاع إسقاط عاصمة البيزنطيين فسيكون ذلك نذيرا بإسقاط الدولة ، ويستريح من خصم عنيد وعدو رئيسى ، لذلك واصل ضغطه ومحاولاته لتحقيق هدفه .

اهميـــة القسطنطينية :

ليس من المبالغة القول إن الدولة البيزنطية ظلت على قيد الحياة مدة تقرب من ثمانية قرون ، وهى مدينة ببقائها لعاصمتها القسطنطينية ، فمناعة المدينة وصمودها أمام محاولات الأمويين المستمرة لفتحها ، حال دون ذلك وبالتالى حال دون سقوط الدولة .

والدليل على هذا أنه عندما استطاع السلطان العثمانى محمد الفاتح فتح القسطنطينية والاستيلاء عليها فى سنة ٨٥٧ هـ التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣ م . كان ذلك إيذانا بسقوط الدولة البيزنطية وزوالها من الوجود(٦٤) .

فما العوامل التى مكنت هذه المدينة من الصمود ، وجعلتها بمثابة الدرع الواقى للدولة ، بل الحصن الشرقى الذى طالمـــا حمى أوربا من الأخطار الآسيوية فى العصور الوسطى(٦٥) ، يأتى على رأس هذه العوامل الموقع الجغرافى للمدينة ، وما هيأه لها ، من موانع طبيعية ساعدتها على الصمود فى وجه الغزاة . فمدينـــة القسطنطينية التى أسسها قسطنطين الكبير ، واحتفى بإتمام بنائها فى الحادى عشر من مايو سنة ٣٣٠م(٦٦) قامت على أطلال ميدنة يونانية قديمة أسسها الاغريق ، فى القرن السابع قبل الميلاد

---

(٦٤) انظر د. سعيد عاشور — أوربا العصور الوسطى جـ١ص٦٤٤.
(٦٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٦٤٥
(٦٦) انظر نورمان بينز — الامبراطورية البيزنطية ص ٨

تسمى بيزنطة ، وأطلق قسطنطين على المدينة عند إنشائها اسم روما الجديدة ، ولكن رعاياه أبوا إلا أن يسموها باسمه اعترافا بفضله فاشتهرت بالقسطنطينية(٦٧) .

والمكان الذى اختاره الاغريق ليقيموا عليه مدينة بيزنطة — ومن ثم اختاره قسطنطين ليقيم عليه القسطنطينية — يعتبر مكانا مثاليا من جميع الوجوه ، حيث بنيت المدينة على بقعة من الأرض هى أقرب مكان تلتقى فيه قارتا آسيا وأوربا ، ويسهل منه العبور بين القارتين ، وهذا جعل الانتقال والتجارة والاتصال الحضارى بين القارتين أمرا ميسورا ، كما أدى إلى ازدهار المدينة ذاتها ، وجعلها من أكبر مراكز الحضارة فى العصور الوسطى ولم تكتسب مدينة بيزنطة ومن ثم وريثتها القسطنطينية شهرتها وعظمتها من مجرد بنائها على أقرب نقطة بين القارتين . فقد كانت لها أخت بنيت معها على الشاطىء الآسيوى قبالة البسفور وهى مدينة خلقدونية ، ومع ذلك لم تصل إلى ماوصلت إليه بيزنطة والقسطنطينية بعدها من شهرة وعظمة . وذلك لأنه : « إذا كانت بيزنطة تشترك مع خلقدونية فى أن كلا منهما تطل على البسفور إلا أن الأولى بزت الثانية بسبب تمتع الشاطىء الأوربى بمميزات يفتقر إليها الشاطىء الآسيوى ، فقبل اتصال مياه البسفور ببحر مرمرة يمتد داخل الشاطىء الأوربى خليج عظيم طوله سبعة أميال فى انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله يعرف فى التاريخ بالقرن الذهبى ، وأصبح محصورا بين القرن الذهبى وبحر مرمرة رأس أرضية تلالية على شكل مثلث متساوى الضلعين تقريبا ، رأسه تقابل الشاهىء الآسيوى ، فكانت أى مدينة تقام على هذا الرأس تنعم بميناء طبيعى يهيىء لأساطيلها مرفأ آمنا هادئا ، فضلا عن الحصانة من ناحية البحر ، لأن الماء يحيط بها تقريبا من جميع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية وقبضت بيزنطة على ناصية هذه الميزات الهامة وحدها »(٦٨) ولن نطيل الكلام عن الأسباب التى جعلت قسطنطين

---

(٦٧) انظر د. ابراهيم العدوى — الامويون والبيزنطيون ص ١٥٣ — ولمزيد التفاصيل عن القسطنطينية أنظر معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ٣٤٧.

(٦٨) أنظر د. ابراهيم العدوى — المرجع السابق ص ١٤٨ — ١٥٠.

الكبير يختارهذا المكان بالذات ليقيم‌عليه عاصمة جديدةللإمبراطورية قدر لها أن تلعب دورا بارزا فى تاريخ العصور الوسطى ، فسواء كانت هذه الأسباب سياسية أو اقتصادية أو دينية ، فمن المؤكد أن الرجل كان ثاقب النظرة ، حيث بنى مدينة أصبحت حصنا للغرب طيلة قرون ، ومركز الثقل السياسى والعسكرى ، والاقتصادى ، والدينى والثقافى ، والأدبى للإمبراطورية(٦٩) . وازدادت أهمية القسطنطينية بعد أن سقطت روما تحت ضربات القبائل البربرية سنة ٤٧٦ م ، ولعل الاسم الذى شاء قسطنطين الكبير أن يعطيه لمدينته فى البداية ، وهو روما الجديدة ، يشعر بأنه كان يتوقع أن هذه المدينة ستخلف روما القديمة التى رأى الأخطار تحدق بها من الشمال .

وكيفما كان الأمر فقد هيأ المكان الممتاز الذى قامت عليه القسطنطينية والأسوار والأبراج والتحصينات التى أقامها الأباطره البيزنطيون حولها عبر العصور ، هيأ كل ذلك للمدينة أن تكون واحدة من أمنع وأهم مدن العالم . وأن تطيل فى عمر الإمبراطورية البيزنطية لصمودها أمام زحفة الأمويين عليها .

معاوية يخطط للاستيلاء على القسطنطينية :

أشرنا فيما سبق إلى أن معاوية اكتسب من طول إقامته فى الشام ومجاورته للبيزنطيين خبرة واسعة بسياستهم وأهدافهم ، ورأى محاولاتهم للعودة إلى مصر سنة ٢٥ هـ . والى الشام سنة ٣٤ هـ مما أدى إلى نشوب معركة ذات الصوارى — التى أشرنا إليها آنفا — بين المسلمين والبيزنطيين والتى كان له فيها دور بارز .

ومع أن الشواهد دلت على أن البيزنطيين بعد هزيمتهم فى ذات الصوارى قد غيروا سياستهم واعترفوا بالأمر الواقع ، وهو بروز المسلمين كقوة بحرية كبرى على الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، وآية ذلك أن الإمبراطور قنسطانز الثانى عندما عاد منهزما من ذات الصوارى لم يعد إلى القسطنطينية ، وإنما ذهب إلى جزيرة صقلية ، وهذا أمر له مغزاه

(٦٩) انظر نورمان بينز — الإمبراطورية البيزنطية ص ٧ — ٨

الكبير ، فهو عندما أدرك ألا أمل فى عودة ممتلكاته فى الشرق آثر أن يحافظ على ماتبقى فى الغرب(٧٠) .

ولكن رغم كل شىء فإن معاوية لم يركن إلى هـذا ، فهو يعلم أن الإمبراطور ما لجأ إلى هذه السياسة إلا لعجزه عن التصدى ، ولو آنس من نفسه قوة لما تردد فى معاودة الهجوم ، لذلك قرر معاوية أن يكون زمـام المبادرة دائما فى يده لمواصلة الضغط على الدولة البيزنطية ، وإرغامها على اتخاذ موقف الدفاع لإرهاقها ماديا ومعنويا ، فواصل استعداداته لإسقاط عاصمتها فى يده لأنهـا هى التى تمـد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد وتشجع أهلها على شن الغارات على ساحل مصر والشام(٧١) ، وقد سار لتحقيق هذا الهدف فى عدة اتجاهات .

أولا : الاهتمام بدور صناعة السفن فى مصر والشام ، واختيار أمهر الصناع للعمل فيها ، والإغداق عليهم بالأجور والهبات حتى يبذلوا قصارى جهدهم فى العمل .

وقد أدى التعاون بين مصر والشام فى هذا المجال سواء من حيث المواد الخام اللازمة لصـناعة السفن ، أو الأيدى العاملة المدربة إلى بروز الأسطول الإسلامى قوة ضاربة فى البحر المتوسـط ، فى وقت قياسى ، بحيث لم يقف ندا للأسطول البيزنطى فقط ، وانما انتزع منه السيادة على هـذا البحر ، ففى الشام كانت تتوافر أخشاب الصنوبر القوى والبلوط والعرعر التى تصـلح لبناء السفن وفى مصر كانت توجد أخشاب الصنط التى تصلح لعمل الصوارى ، وضلوع بجوانب السفن ، وخشب الجميز واللبخ والدوم التى تصـلح لصناعة المجاديف(٧٢) ، كذلك استغل معاوية معدن الحديد الذى كان متوافرا فى مصر والشـام واليمن لعمل المسامير

---

(٧٠) انظر د. أحمد مختار العبـادى ـ دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ٥

(٧١) انظر د. سعاد ماهر ـ البحرية فى مصر الإسلامية ص ٨٥

(٧٢) انظر د. السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربيـة ص ٣١٢

والمراسي والخطاطيف والفؤوس ، كما كان يتوافر فى مصر مادة القطران اللازمة لقلفطة السفن ، ونبات الدقس الذى كانت تصنع منه الحبال ، وباختصار فقد أدى التعاون المصري الشامى إلي ازدهار البحرية الإسلامية التى ازدادت اهميتها بعد أن أمر معاوية عامله علي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ببناء دار لصناعة السفن فى جزيرة الروضة سنة ٥٤ هـ . وذلك على إثر غارة شنها البيزنطيون على البرلس سنة ٥٣ هـ(٧٣) .

ثانيا : تقوية الثغور البحرية فى مصر والشام ، وشحنها بالسفن والجند المدربين علي ركوب البحر ، مثل صور وعطا والاسكندرية ، لتكون قادرة على صد اى هجوم بحرى بيزنطى ، ولتكون قواعد راسخة للأسطول الأسلامى فى غزواته البحرية .

ثالثا : الاستيلاء على الجزر الواقعة فى شرقى البحر المتوسط ، وقد بدأ ذلك بالاستيلاء على جزيرة قبرس — كما سبق ذكره — ثم استولى على جزيرة أخرى هامة وهى جزيرة رودس ، يقول البلاذرى : « وكان معاوية يغزى برا وبحرا ، فبعث جنادة بن أبى أمية الأزدى الى رودس ... ففتحها عنوة .. وأمره معاوية فأنزلها قوما من المسلمين وكان ذلك سنة اثنتين وخمسين ... ورودس من أخصب الجزائر ، وهى نحو من ستين ميلا ، فيها الزيتون والكروم ، والثمار والمياه العذبة(٧٤) » . وبعد الاستيلاء على رودس بسنتين استولى جنادة على جزيرة أخرى أكثر اهمية لقربها من القسطنطينية وهى جزيرة أرواد وأسكنها المسلمين ايضا(٧٥) . ثم غزا جنادة جزيرة أقريطش — كريت —(٧٦) . وهكذا استمر معاوية فى الاستيلاء على جزر شرقى البحر المتوسط ، تمهيدا للوصول إلى القسطنطينية ، بل إن غزوات معاوية البحرية امتدت لتنال الجزر الواقعة فى جنوب البحر المتوسط حيث يذكر البلاذرى أن معاوية أغزى معاوية

---

(٧٣) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ٣٨
(٧٤) فتوح البلدان ص ٢٧٨
(٧٥) المصدر السابق ٢٧٩ — وانظر كذلك ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٩٧
(٧٦) فتوح البلدان ص ٢٧٩

ابن حديج جزيرة صقلية ، ويقول « وكان أول من غزاها ولم تزل تغزى بعد ذلك »(٧٧) .

رابعا : كان من الضرورى لكى تؤتى هـــذه الاستعدادات البحرية ثمارها وتحقق أهدافها أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية ، التى تشـــكل مناطق الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية ، ضد غارات البيزنطيين من ناحية ولتكون ســـندا للقوات الزاحفة على القسطنطينية من ناحية ثانية . ذلك لأن المسلمين فى فتوحاتهم الأولى فى عهد الخلفـــاء الراشدين ، وصلوا إلى أطراف الشام الشمالية ، ثم وقفت أمامهم سلسلة جبال طوروس تحول دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية ، وكان البيزنطيون عند انسحابهم وتقهقرهم أمام المســـلمين قـــد قاموا بتخريب المناطق الواقعة شمال حلب وأنطاكية لئلا يستفيد منها المسلمون ، كما خربوا معظم الحصون فيما بين الإسكندرونة وطرسوس(٧٨) ، فرأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق وتعميرها وتحصينها ، « فاهتم أولا بمدينة أنطاكية التى كانت معرضة دائما للإغارات البيزنطية المفاجئة ، واتبع فى تعميرها السياسة التى سار عليها إزاء المدن الساحلية بالشام ، وأغرى النـــاس على الإقـــامة بأنطاكية ، بأن منحهم إقطاعات من الأرض ، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم وأخذ معـــاوية يوالى تدريجيا تعمير المـــدن الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس أثناء إغارته على أراضى البيزنطيين ، حتى أصبحت حدود الشـــام تتاخم مباشرة جبال طوروس الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى ، ولإحكام سيطرته على المعاقل الهامة الواقعة فى مناطق التخوم الإسلامية البيزنطية ، استولى على سميســاط وملطية ، كما جـــدد حصونا أخرى مثل مرعش والحدث ، ثم استولى على حصن زبطرة البيزنطى الهام وأعاد تحصينه(٧٩) .

---

(٧٧) المصدر نفسه ص ٢٧٨

(٧٨) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ١٩٤ والـــدكتور ابراهيم العدوى الأمويون والبيزنطيون ص ١٠٨

(٧٩) الدكتور العدوي المرجع السابق ص ١١٠ — ١١٢

ولكى تكون الحركة مستمرة ، وتكون مناطق الحـدود ميدانا عمليا لتدريب الجند المسلمين ، وتعويدهم على الدروب والطرق والممرات الجبلية الوعرة دأب معاوية على الغزو المستمر ، وأصبح هذا النشاط العسكرى يعرف بغزوات الصوائف والشواتى(٨٠) ، فلا تكاد تمر سنة،إلا ونجد ذكرا عند الطبرى وغيره لغزو فى البر أو فى البحر كأن يقول : وفيها شتى فلان بأرض الروم أو كانت صائفة فلان إلى أرض الروم(٨١) ، وكانت هـذه الغزوات تنطلق إلى بلاد الأعداء وتخرب تحصيناتهم وتغنم وتعود ، وكان تكرار هـذه الغزوات يشكل ضغطا دائما على الدولة البيزنطية ويرهق أعصابها وينهك قواها .

وقد برز فى هـذه الحملات المستمرة عدد من كبار القادة المسلمين الذين تلقوا تدريباتهم فى ميدانها ، وأتقنوا فن الحرب ، مثل عبد الله بن كرز البجلى،ويزيد بن شجرة الرهاوى ، ومالك بن هبيرة السكونى،وجنادة بن أبى أمية الأزدى ، وسفيان بن عوف ، وفضالة بن عبيد(٨٢) . ومالك بن عبد الله الخثعمى ، الذى أطلقوا عليه مالك الصوائف لعلوكعبه فى الميدان الحربى فى آسيا الصغرى(٨٣) . وهؤلاء القادة أبلو بلاء حسنا فى الجهاد ضد البيزنطيين لإعلاء كلمة الله .

---

(٨٠) المقصود بالصوائف الغزوات التى كانت تحدث فى فصلى الربيع والصيف فغزوات الربيع كانت تستمر شهرا كاملا ، من منتصف مايو حتى منتصف يونيو ، وغزوات الصيف كانت تستمر ستين يوما ، من منتصف يوليو حتى منتصف سبتمبر ، أما الشواتى فكانت تحدث فيما بين أواخر فبراير ومنتصف مارس — انظر د. ابراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ١١٦

(٨١) انظر على سبيل المثال — تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٢٢٧ — ٢٣٤

(٨٢) انظر الطبرى — المصدر السابق ٢٣٢/٥ وابن الأثير الكامل فى التاريخ ٤٥٨/٣

(٨٣) انظر د. ابراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ١١٤.

الحصـــار الأول للقسطنطينية :

وعندما استكمل معاوية استعدادته الحربية برا وبحرا ، ودرب رجاله وحصن حدوده بدا فى عجم عود عاصمة البيزنطيين ، فارسل حملة استطلاعية لاستكشاف قوة دفاعات المدينة ، وعهد بقيـــادة هذه الحملة إلى فضالة ابن عبيد الأنصارى الذى استطاع أن يكتسح دفاعات البيزنطيين فى طريقه حتى وصـــل مدينة خلقدونيـــة ، التى كانت تعتبر ضـــاحية من ضواحى القسطنطينية على الشاطىء الآسيوى المقابل لها ، وقـــد أقـــام فضالة بخلقدونية شـــتاء عام (٦٦٨ — ٦٦٩ م) لأن العمليات الحربية كانت تتوقف خلال هذا الفصل من السنة ، وظل ينظم قواته ويدربها ، انتظارا للإمدادات التى كان يعدها معاوية فى عاصمته دمشق(٨٤) ، وكانت هذه الإمدادات هى التى قامت بالغزوة الكبرى ، أو الحصـــار الأول لعاصمة البيزنطيين ، والتى أسند معاوية قيادتها إلى سفيان بن عوف وجعل ابنه يزيد أميرا شرفيا عليهـــا وقد حدثت هذه الغزوة سنة ٤٩ حسب رواية الطبرى(٨٥) ، أما ابن الأثير فيذكرها فى أحداث سنة ٤٩ ، ولكنه يقول : « وقيل سنة خمسين سير معاوية جيشا كثيفا إلى بلاد الروم للغزاة ، وجعل عليهم ســـفيان ابن عوف ، وأمر ابنـــه يزيد بالغزاة معهم فتثاقل واعتـــل ... فأقســـم عليه ليلحقن بسفيان فى أرض الروم ليصيبه ما أصـــاب الناس ، فســـار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه،وكان فى هذا الجيش ابن عباس،وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى ، وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابى ، فأوغلوا فى بلاد الروم حتى وصلوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم فى بعض الأيام ، واشتدت الحرب بينهم ، فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل ... ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم ، فجره الروم برماحهم حتى قتلوه رحمه الله ... ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام ، وقد توفى أبو أيوب عنـــد القسطنطينية ، فدفن بالقرب من

---

(٨٤) انظر د. ابراهيم العدوى — المرجع السابق ص ١٦٣

(٨٥) تاريخ جـ ٥ ص ٢٣٢

سورها ، فأهلها يستسقون به »(٨٦) .

عادت هذه الحملة الأولى دون أن تنال من القسطنطينية لمناعتها ، واغلب الظن أن معاوية نفسه كان يعلم صعوبة الاستيلاء على هذه المدينة الحصينة التى يزيد من صعوبة الوصول اليها — فوق مناعتها الطبيعية — قسوة المناخ حولها ، فهو شديد البرودة بالنسبة للمعرب ، ثم شدة التيارات المائية القادمة من الشمال من البحر الأسود والتى كانت تعوق حركة سير السفن وتردها على أعقابها .

فالمسلمون يعرفون كل ذلك ، ولكنهم لم يتهيبوا ، ولم تمنعهم الصعوبات من المحاولة ، بل أقدموا واقتحموا وأثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم رغم مناعتها ، وقوة تحصيناتها ، فهى ليست بعيدة المنال ، وأنهم على استعداد للصبر والمصابرة ولبذل الأرواح فى سبيل إنهاك اعداء الإسلام ، ومع أن الحملة لم تنجح عسكريا إلا أنها تعتبر ناجحة من الوجهة السياسية ، حيث جعلت شغل الأباطرة الشاغل هو الدفاع عن عاصمتهم ، وتجلى ذلك فى سياسة الإمبراطور قنسطنطين الرابع ٦٦٨ — ٦٨٥ م — الذى خلف أباه قنسطانز الثانى ، والذى لم يكن أقل عداء من أبيه للإسلام والمسلمين . والذى هاله تعرض عاصمته لهجمات المسلمين ، فوجه كل عنايته إلى تقوية وسائل الدفاع عنها ، وأحدث من أجل ذلك تغييرات جوهرية فى النظم الحربية والإدارية فى الإمبراطورية ، وبصفة خاصة

---

(٨٦) الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٥٨ — ٤٥٩ — وقد ظلت ذكرى استشهاد الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى حية فى قلوب المسلمين قرونا عديدة ، وقد كشف موقع قبره على مقربة من أسوار القسطنطينية قبل فتح العثمانيين لها بأيام ، وقد أدى كشفه إلى تفجير الشعور الدينى لدى الجيش العثمانى الفاتح ، وبعد الفتح شيد السلطان العثمانى محمد الفاتح مسجدا بالقرب من ضريح الشهيد أبي أيوب الأنصارى ، وكان من تقاليد سلاطين آل عثمان ان يذهبوا الى المسجد فى موكب رسمى حافل ، حيث يتسلم السلطان سيف السلطان عثمان الأول الجد الكبير للسلاطين العثمانيين من شيخ الطريقة المولوية — انظر د. عبد العزيز الشناوى — الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ ١ ص ٦٤.

فى إقليم آسيا الصغرى ، الذى أصبح بعد ضياع الشام ومصر أهم مورد للدولة فى الشرق تستمد منه الجند القادرين على القتال ، والأموال اللازمة للنهوض بمرافق البلاد للدفاع عن العاصمة ، فركز قنسطنطين على هذا الإقليم باعتباره الآن يشـــكل خط الدفاع الأول عن العاصمة ضد هجمات المســـلمين(٨٧) .

الحصـــار الثانى للقسطنطينية :

لم يثن فشل الحملة السابقة فى الاستيلاء على القسطنطينية معاوية عن المضى قدما فى محاولاته الاستيلاء عليها ، وقـــد استولى بعد عودة الجيش على عـــدة جزر ، منهـــا رودس وأرواد اللتين سبقت الإشارة إليهمـــا(٨٨) .

وقد كان لجزيرة أرواد والتى تسميها المصادر الأوربية كزيكوس(٨٩) أهمية خاصـــة لقربهـــا من القسطنطينية ، حيث اتخـــذ منهـــا الأسطول الإسلامى فى حصـــاره الثـــانى للمدينة أو حرب السنين السبع ٥٤ــ٦٠ هـ قاعدة لعملياته الحربيـــة . وذلك أن معـــاوية أعـــد أسطولا ضخما ، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية ، وظل مرابطا أمام أسوارها من سنة ٥٤ حتى ســـنة ٦٠ هـ(٩٠) . فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هـــذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية على حين يكمل الأسطول الحصار بأن تقف سفنه بين راس هبدمون (Hebdomon) التى تبعد

---

(٨٧) انظر د. إبراهيم العدوى المرجع السابق ص ١٦٦

(٨٨) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٢٧٨ — ٢٧٩ — والطبرى تاريخ جـ ٥ ص ٢٨٨ و ص ٣٩٣ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص٤٩٧

(٨٩) انظر نورمان بينز — الامبراطورية البيزنطية ص ٧٥

(٩٠) انظر الطبرى — من سنة ٥٤ — ٦٠ هـ جـ ٥ ص ٢٩٣ — ٣٢٢ حيث يذكر فى كل سنة اسم القائد الذى شتى اوصاف فى أرض الروم مجاهرا للمدينـــة .

سبعة أميال عن أسوار المدينة وبين رأس كيكلوبيوس الواقعة بالقرب من باب الذهب ، واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر ، تتخلله مناوشات بين أساطيل المسلمين وجنود البيزنطيين ، من الصباح إلى المساء ، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطى المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام(٩١) ، استمر هذا الوضع طيلة سبع سنوات ، حيث كانت العمليات الحربية تقتصر على فترتى الربيع والصيف ، لصعوبة القتال فى فصل الشتاء ، ورغم جلد المسلمين وتحملهم مشقة الحصار إلا أن المدينة صمدت أمامهم لابفضل مناعتها الطبيعية فحسب بل إن الإمبراطور قسطنطين الرابع ، كان قد تنبه منذ الحصار الأول للخطر المحدق بالمدينة ، — كما أشرنا آنفا — فقضى الفترة فيما الحصارين فى إصلاح أسوارها ، وتقوية دفاعاتها ، فضلا عن حشدها بالمؤن والعتاد لتقاوم الحصار إذا ما فكر المسلمون فى معاودة المحاولة ، وهذا أمر كان الإمبراطور يتوقعه فى كل لحظة وفوق هذا فقد ساعد المدينة على الصمود ذلك السلاح الرهيب الذى اخترعه الإغريق فى ذلك الوقت ، والذى تسميه المصادر النار الإغريقية ، وهو عبارة عن مركب كيمائى مكون من النفط والكبريت والقار ، وكان هذا المركب يشعل بالنار وتقذف به المراكب فيشعل فيها النار ، والعجيب أنه كان يزداد اشتعالا إذا لامس الماء ، ومخترع هذا المركب الكيميائى الفتاك ، الذى فتك بالعديد من سفن المسلمين وجنودهم ، هو مهندس سورى الأصل إسمه كالينكوس ، كان فى أول الأمر فى خدمة المسلمين ثم هرب إلى القسطنطينية ، ووضع خبرته فى خدمة البيزنطيين(٩٢) .

وكيفما كان الأمر . فقد تظاهرت عدة عوامل — مناعة المدينة الطبيعية ، وقوة تحصيناتها ، والنار الإغريقية ، ورداءة الطقس وقسوته ، والتيارات المائية الشديدة الانحدار الآتية من البحر الأسود — لتحول

(٩١) انظر د. ابراهيم العدوى — المرجع السابق ص ١٧٥ — ١٧٦ ، و د. السيد عبد العزيز سالم — تاريخ الدولة العربية ص ٣٢٢

(٩٢) د. ابراهيم العدوى — المرجع السابق — ص ١٧٦

دون استيلاء المسلمين على المدينة ، رغم صبرهم وبسالتهم وتحملهم المشاق وفى النهاية دعت الظروف الداخلية فى كل من الدولتين إلى إنهاء الحصار ، فدخلوا فىمفاوضات انتهتبعقد صلح بينهما،عاد بمقتضاه الجيشالإسلامى والأسطول إلى الشـــام .. ففيما يتعلق بالدولة الأموية أدرك معاوية أن مدة الحصـــار قد طالت دون أن يتحقــق الهدف ، ولما كانت سنه قـــد كبرت ، وأحس بدنو أجله ، رأى أن من مصلحة المسلمين أن يعود هذا الجيش الكبير المرابط حول المدينة تحسبالأية مشاكل قد تواجه ابنه وخليفته يزيد بعد موته ، فيكون وجود هذا الجيش عنـــده ضروريا لضبط الأمور داخليا ، وقد صدقت توقعاته بهذا الشأن .

كذلك كانت الدولة البيزنطية تواقة إلى إنهاء هـــذا الحصـــار عن عاصمتها ، فقد أرهقها وأنهك قواها ، ولذلك يقال : « إنها أرسلت إلى دمشق رجلا يدعى يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين ، وأكثرهم ذكاء وفطنة وحضر هـــذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموى . وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ، ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه ونجحت مفاوضاته فى عقد صلح بين الطرفين ، مداه ثلاثون سنة ، وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة برا وبحرا أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشـــام ، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة »(٩٣) .

الحصار الثالث والأخير للقسطنطينية فى العصر الأموى :

بعد عودة الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية فى آخر حيـــاة معاوية سنة ٦٠ هـ لم يلبث معاوية أن توفى . فدخلت الدولة الأموية فى

---

(٩٣) انظر د. ابراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٥ — لم أعثر فى المصادر الإسلامية القديمة على نص هذه المعاهدة التى تشير إليها المراجع الحديثة ، ســـوى أن البلاذرى فى معرض حديثه عن صلح عبد الملك بن مروان مع الإمبراطور البيزنطى ، أثناء انشغاله بحرب ابن الزبير قال : « واقتدى فى صلحه بمعاوية .. فإنه صالحهم » فتوح البلدان ص ١٩٠ — فلعله يقصد ذلك الصلح ولكنه لم يفصله .

دوامة من الفتن وواجهت العديد من الثورات . وقد استمر هذا الوضع إلى أواخر خلافة عبد الملك بن مروان الذى إليه يرجع الفضل فى إعادة الوحدة إلى الأمة الإسلامية ، حيث ترك لابنه وخليفته الوليد ٨٦ — ٩٦ هـ دولة قوية مهابة ، فشهد عهده حركة فتوحات كبرى على عدة جبهات وكان الاستيلاء على القسطنطينية من الأهداف الرئيسية للوليد ، وفى الحقيقة هو هدف رئيسى للسياسة الأموية عامة ، بحيث يمكن القول إن عبد الملك بن مروان نفسه قد وجه نظر ابنه إليها ومهد له الطريق حين زحف على إقليم قلليقيا بآسيا الصغرى ، واصطدم عند مدينة سيواس بالقوات البيزنطية التى كان على رأسها الإمبراطور جستنيان الثانى نفسه ٦٨٥—٦٩٥ م ، والتى كانت تضم عددا كبيرا من العناصر السلافية ، وقد انتصرت قوات عبد الملك على قوات جستنيان الثانى ، ومن الجدير بالذكر أن الجند السلاف الذين كانوا فى جيش الإمبراطور تخلوا عنه ، ودخل معظمهم فى جيش المسلمين وحاربوا معهم ، وهذا يدل على براعة عبد الملك فى استمالة القلوب ، وقد استفاد المسلمون كثيرا من انضمام السلاف إليهم ، فقد كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى والمسالك التى تصل بين أقاليمها ومدنها المختلفة ، فقاموا بوظيفة الأدلاء للجيوش الإسلامية، يهدونها إلى أسهل الطرق للاستيلاء على المعاقل الهامة بهذه البلاد ولذا تابعت الجيوش الأموية إغارتها وانتصاراتها على مدن آسيا الصغرى(٩٤). وقد تابع الوليد بن عبد الملك جهد أبيه وخطواته فى الضغط على الإمبراطورية البيزنطية ، فواصل الاستيلاء على أهم المعاقل والحصون الهامة على الطرق التى ستسلكها الجيوش الإسلامية البرية فى زحفها القادم على القسطنطينية من ذلك أنه أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك وابنه العباس ابن الوليد ، فاستوليا على حصن هام هو حصن طوانه ، الذى يعتبر مفتاح الطريق بين الشام ومضيق البسفور ، ورغم استماتة البيزنطيين فى الدفاع عنه ، إلا أن القوات الإسلامية قد استولت عليه(٩٥) . ولم تكد تمر سنة

---

(٩٤) انظر الدكتور ابراهيم العدوى — المرجع السابق ص ٢١٠ — ٢١١

(٩٥) انظر الطبرى — تاريخ ج ٤ ص ٤٢٩ — ٤٣٤ والدكتور العدوى — المرجع السابق ص ٢١٢

من سنوات خلافة الوليد ٨٦ — ٩٦ هـ ، دون أن يستولى جيشه على معقل أو حصن أو مدينة من مدن الحدود مع البيزنطيين(٩٦) . فقد كان الاستيلاء على حصن طوانه — المشار إليه — فى سنتى ٨٧ ، ٨٨ هـ وفى أحداث سنة ٨٩ هـ يقول الطبرى « قصد مسلمة عمورية ، فوافق بها للروم جمعا كثيرا فهزمهم الله ، وافتتح هرقله وقمودية ، وغزا العباس — ابن الوليد — الصائفة من ناحية البدندون »(٩٧) وفى سنة ٩٠هـ « غزا مسلمة أرض الروم .. من ناحية سورية ففتح الحصون الخمسة التى بسورية ، وغزا فيها العباس بن الوليد .. حتى بلغ الأرزن »(٩٨) وفى أحداث سنة ٩١ هـ يقول الطبرى : « ففيها غزا الصائفة عبد العزيز ابن الوليد وكان على الجيش مسلمة بن عبد الملك »(٩٩) وفى أحداث سنة ٩٢ هـ يقول : « فمن ذلك غزوة مسلمة بن عبد الملك وعمر بن الوليد أرض الروم ، ففتح على مسلمة حصون ثلاثة ، وجلا أهل سوسنه إلى جوف أرض الروم(١٠٠) » وفى أحداث سنة ٩٣ هـ يقول : « من ذلك غزوة العباس بن الوليد أرض الروم ففتح الله على يديه سمسطية ، وفيها كانت أيضا غزوة مروان بن الوليد الروم ، فبلغ خنجره ، وفيها كانت غزوة مسلمة بن عبد الملك ارض الروم ، فافتتح ماسة وحصن الحديد وغزالة وبرجمة من ناحية ملطية »(١٠١) .

وهكذا لا تمر سنة إلا ويغزو المسلمون أرض الروم ويستولون على بعض حصونهم ومعاقلهم ، ومن الجدير بالذكر أن معظم الذين كانوا يقودون هذه الحملات هم من أبناء البيت الأموى ، أولاد الخليفة الوليد نفسه،وأخوه مسلمة الذى لميكد يتخلف سنة واحدةعن غزوأرض الروم،وهذا أمرلهمغزاه

(٩٦) انظر الطبرى — المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩

(٩٧) تاريخ جـ ٦ ص ٤٣٩

(٩٨) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٤٢

(٩٩) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٥٤

(١٠٠) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٦٨

(١٠١) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٦٩ — وللمزيد من التفاصيل عن أخبار هذه الغزوات راجع الطبرى عن عهد الوليد .

فقد كان مسلمة هو الذى قاد الجيش الذى حاصر القسطنطينية الحصار الأخير فى عهد سليمان — كما سنذكر قريبا — ومعنى هذا أن اشتراكه المستمر فى غزو بلاد الروم كان مقصودا ليزداد معرفة وخبرة بالطرق والمسالك المؤدية الى عاصمة البيزنطيين ، التى كانت الهدف الرئيسى من هذه الغزوات .

البيزنطيون يرصدون تحركات المسلمين العسكرية :

من الطبيعى أن تكون عيون البيزنطيين دائما مفتوحة على حدودهم مع المسلمين ، فجبهة الحدود دائما ملتهبة والغزو الإسلامى لايكاد يتوقف ولكى يتأكد البيزنطيون من نوايا المسلمين وأهدافهم من وراء هذا النشاط العسكرى المستمر ، أرسل الإمبراطور البيزنطى أنسطاس ٧١٣ — ٧١٦ م سفارة إلى دمشق لتستطلع الأخبار عن كثب ، وتعرض على الخليفة الوليد مشروع عقد هدنة بين الدولتين ، ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق ، شاهدت عظمة المسلمين فى عاصمتهم ونشاط الخليفة فى إعداد الجيوش لتوجيهها إلى القسطنطينية وعاد السفير إلى الإمبراطور يؤكد صدق عزيمة المسلمين على الجهاد وينصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن العاصمة فأخذ انسطاس برأى سفيره ، وأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة ، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته ، ثم ملأ الخزائن الإمبراطورية بكميات كبيرة من القمح وغيره من الحاجيات التى يتطلبها المدافعون عن المدينة ، واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ، لاسيما الجهات المطلة منها على المياه ، حيث كان التداعى قد دب فيها ، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية ، من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع »(١٠٢).

وبينما يمضى الخليفة الوليد فى استعداداته للزحف على عاصمة البيزنطيين إذ وافته منيته سنة ٩٦ هـ ، فخلفه أخوه سليمان ٩٦ — ٩٩ هـ ليواصل جهوده فى هذا الميدان .

---

(١٠٢) الدكتور ابراهيم العدوى — المرجع السابق ص ٢١٥

سليمان بن عبد الملك والقسطنطينية :

لم يكن الخليفة سليمان ، اقل رغبة من اخيه الوليد فى الاستيلاء على القسطنطينية ، بل لقد كرس كل جهوده فى الإعداد للزحف عليها منذ ولى الخلافة(١٠٣) ، فواصل إرسال الحملات لغزو أراضى الروم على الطريق اليها(١٠٤). وآية اهتمامه بالاستيلاء عليها أنه اتخذ من دابق فى شمال الشام مركز قيادة أقام فيه ليكون على مقربة من مسرح العمليات الحربية وليشد وجوده هناك من أزر الجند ويرفع من روحهم المعنوية « وأعطى الله عهدا الا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى أرض الروم القسطنطينية »(١٠٥) .

كان من الطبيعى أن يتولى قيادة الجيش الزاحف على عاصمة البيزنطيين الرجل الذى تمرس على القتال مع الروم ، وعرف أرضهم وأساليبهم ، وهو مسلمة بن عبد الملك ، ثم تولى قيادة الأسطول أمير البحر سليمان ، وأخذ مسلمة كافة الاحتياطات التى تكفل نجاح الحملة من حيث العتاد العسكرى والطعام للجند والدواب ، والأخشاب اللازمة لإقامة بيوت تقى الجند برودة الشتاء القارس ، يقول الطبرى فى أحداث سنة ٩٨ هـ : « فمن ذلك ما كان من توجيه سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبدالملك إلى القسطنطينية ، وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه ، فشتى بها وصاف ، فذكرمحمدبنعمر أن ثور بن يزيد حدثه عن سليمان بن موسى قال : لما دنا مسلمة من قسطنطينية أمر كل فارس أن يحمل على عجز فرسه مدين من طعام حتى يأتي به القسطنطينية ، فأمر بالطعام فألقى فى ناحية مثل الجبال ، ثم قال للمسلمين : لا تأكلوا منه شيئا ، اغيروا فى أرضهم وازدرعوا ،وعمل بيوتا من خشب فشتى فيها ، وزرع الناس ، فأقام مسلمة

---

(١٠٣) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٢٣

(١٠٤) المصدر السابق جـ ٦ ص ٥٢٣

(١٠٥) المصدر السابق جـ ٦ ص ٥٣١

بالقسطنطينية قاهرا لأهلها ومعـــه وجوه أهل الشـــام ، خالد بن معدان وعبد الله بن أبى زكريا الخزاعى ومجاهد بن جبر »(١٠٦) .

واضح من كلام الطبرى ان مسلمة نجح فى عبور مضيق البسفور ونقل قواته إلى الشـــاطىء الأوربى ، فقوله فأقـــام مسلمة بالقسطنطينية قاهرا لأهلها ، يدل على إحكام الحصار حول المدينة برا وبحرا ، ذلك الحصار الذى بدأ فى أغسطس سنة ٧١٧ م — ٩٨ هـ ، وكان الأسطول الذى دخل مياه البسفور فى أول سبتمبر من نفس العام مكونا من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة . « واخذ مسلمة ينظم التعاون بين القوات البرية والبحرية لإتمام حلقة الحصار على القسطنطينية ، فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار اسوار المدينة من الناحية البرية ، على حين عمـــد سليمان أمير البحر إلى سد المنافذ والمسالك المائية التى يمكن أن تحصل منها العاصمة على الأمداد والمؤن ، ثم حصار أسوار المدينـــة البحرية كذلك ، فاحتل الأسطول الإسلامى مدخل البسفور الجنوبى لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة وبحر إيجة كذلك ، ثم انتهز أمير البحر فرصة هبوب رياح جنوبية طيبة وبعث شطرا من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالى لمنع وصول أى مدد يأتى للمدينة من البحر الأسود ، لاسيما وأن شواطئه الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى تزود القسطنطينية بالغلال »(١٠٧) .

فشل الحملة وأسبابه :

على الرغم من الاستعدادات الهائلة ، والجهود المتواصلة المضنية التى بذلها الخلفاء الأمويون طوال سنوات عديدة ، بحيث لم يتركوا شيئا للصدفة، بل كان التخطيط والدراسة الجادةلكل التفاصيلوإعداد الجيش بكامل العدة والعتاد ، كل ذلك كان واضحا وملموسا من حديث المؤرخين عن الحملة(١٠٨)

---

(١٠٦) تاريخ جـ ٦ ص ٥٣٠ ، وانظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢٧ — ٢٨

(١٠٧) انظر الدكتور العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ٢٢٠

(١٠٨) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٣٠ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢٧ — ٢٨

وعلى الرغم من ضخامة الجيش — حوالى ثمانين ألفا — والأسطول — أكثر من الف وثمانمائة سفينة — وإحكام الحصار على المدينة ، إلا أن الحملة لم تنجح فى الاستيلاء عليها فما الأسباب ؟ .

ليون الإيسورى ودوره فى إفشال الحملة :

يأتى على رأس الأسباب التى أدت إلى فشل الحملة وعدم تحقيق هدفها قصة ليون الإيسورى ، الذى أصبح إمبراطورا لبيزنطة باسم ليون الثالث الإيسورى ٧١٧ — ٧٤١ م والذى أسس أسرة أصبحت تعرف فى التاريخ البيزنطى باسم الأسرة الإيسورية والتى حكمت الإمبراطورية مـدة خمسة وثمانين عاما ٧١٧ — ٨٠٢ م . فما قصة ليون هذا ؟ يقول الطبرى: « وقدم مسلمة فهابه الروم ، فشخص اليون من أرمينية ، فقال لمسلمة : ابعث إلى رجلا يكلمنى ، فبعث إليه ابن هبيرة »(١٠٩) .

اما ابن الأثير فيقول : « وفى هذه السنة ٩٨ هـ — سار سليمان بن عبد الملك إلى دابق وجهز جيشا مع أخيه مسلمة بن عبد الملك ليسير إلى القسطنطينية ، ومات ملك الروم فأتاه اليون من أذربيجان ، فأخبره فضمن له فتح الروم ، فوجه مسلمة معه فسار إلى القسطنطينية »(١١٠) أماجيبون فيقول : إن ليون جاء من جبال إيسوريا(١١١) ، وهذا الإقليم يقع فى الطرف الشرقى لآسيا الصغرى(١١٢) ، وقد نسب إليه فعرف بليون الأيسورى ، وعند زحف الجيش الإسـلامى على القسطنطينية كان ليون حاكما لإقليم اناتوليا — الأناضول — وهو الإقليم الذى توغلت فيه القوات الإسلامية ، أثنـاء سيرها حتى وصلت إلى عاصمته مدينة عمورية ، والقت عليهـا الحصار ، وهنا بدأ ليون الاتصال بمسلمة متظاهرا بعرض خدماته وتسهيل الطريق لوصول المسلمين إلى القسطنطينية ، وليس له إلا مطلب واحد ،

---

(١٠٩) تاريخ جـ ٦ ص ٥٣٠

(١١٠) الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢٧

(١١١) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها جـ ٢ ص ٥٥٢

(١١٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور — أوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ١١٤

وهو رفع الحصار عن عاصمة إقليمه ومنع الجيش من اتلاف أو تخريب أي شيىء فى الإقليم . هذا ما تظاهر به ليون ، ولكن الحوادث أثبتت بعد ذلك انه كان يبيت فى نفسه أمرا خطيرا ، وهو استغلال المسلمين فى الوصول إلى عرش بيزنطة ، ثم ردهم عن القسطنطينية عندما يتمكن من ذلك .

ومن العجيب أن مسلمة صدق ليون فى كل ما قال : فرفع الحصار عن الإقليم ، وكسب ليون من ذلك ولاء أهل عمورية ، الذين حفظوا له تجنيبهم ويلات الحصار ، فنادوا به إمبراطورا على بيزنطة(١١٣) ، وأحكم الرجل خطته فتظاهر بالانضمام إلى جيش المسلمين لإرشادهم إلى ما يجب عمله للاستيلاء على القسطنطينية ، وصاحب الجيش حتى دخل المدينة ، وما إن وصلها حتى بدأ فى تنفيذ خطته ، منتهزا فرصة ضعف الإمبراطور تاوداسيوس الثالث ٧١٦ — ٧١٧ م ، واستغل أخبار الحملة الإسلامية ليجذب إليه الأنظار « فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل ، وأن جيش المسلمين قوى العدة والعتاد وأن الموقف يتطلب شخصية حازمة لمواجهة الأزمة التى توشك أن تحل بالعاصمة ، وساعد ليون على نجاح دعوته العناصر الآسيوية المقيمة بالقسطنطينية ، إذ انضمت إليه ونادت به إمبراطورا ، وفى ٢٥ مارس سنة ٧١٧ م عقد اجتماع من كبار رجال العاصمة قرر عزل تاوداسيوس عن العرش وتنصيب ليون إمبراطورا »(١١٤) .

حقق ليون هدفه ووصل إلى عرش بيزنطة ، وكان أول شيىء فعله هو التصدى للمسلمين وردهم عن العاصمة ، وكان قد مكر بالمسلمين ليضعف مركزهم ويضعهم فى موقف حرج ، حيث أشار عليهم بحرق مامعهم من طعام ، وقال لمسلمة : « إن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال وأنك تطاولهم مادام الطعام عندك ، فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم فأمر به فأحرق فقوى أمر الروم ، وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون »(١١٥) هذه هى الخدعة

---

(١١٣) انظر د. ابراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ٢١٨.

(١١٤) المرجع السابق ص ٢١٩

(١١٥) الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٣١ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢٧ — ٢٨

الكبرى ، ولا ندرى كيف انطلت على مسلمة ، وهو القائد المحنك المجرب ، وتخلى عن الحذر والحيطة اللذين لابد منهما فى مثل هذه الأحوال ، واستحق أن يقول عنه الطبرى « وخدعه خديعة لو كان امراة لعيب بها ، فلقى الجند مالم يلق جيش ، حتى أن الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده ، واكلوا الدواب والجلود وأصـــول الشجر والورق وكل شيىء غير التراب »(١١٦) وهكذا تسببت هذه الغلطة القاتلة من مسلمة فى كارثة للمسلمين ، وذهبت بجهودهم المضنية التى بذلوها طوال أعوام عديدة أدراج الرياح .

وإلى جانب هذه الخديعة الكبرى التى وقع فيها مسلمة ، فقد تظاهرت عدة عوامل أخرى زادت من سوء موقف المسلمين ، وأدت إلى فشل الحملة ، منها التقلبات الجوية الفجائية فى المنطقة ، حيث غيرت الرياح — التى كانت ساعدت المسلمين فى إغلاق المدخل الشمالى للبسفور — اتجاهها فجأة وانحدرت إلى الجنوب بقوة فأدت إلى تدمير عدد كبير من سفن الأسطول الإسلامى . ومنها استخدام البيزنطيين للنار الإغريقية فى إحراق ما تبقى من سفن المسلمين ، بالإضافة إلى دخول فصل الشـــتاء ، وهو فارس البرد « ويعتبر من العوامل الطبيعية المهمة التى تعتمـــد عليها القسطنطينية فى الدفاع عن نفسها ، وإطالة مدة مقاومتها » (١١٧) .

رفع الحصار وعودة الجيش :

تظاهرت كل العوامل السابقة على المسلمين لتجعل مهمتهم بالغـــة الصعوبة إن لم تكن مستحيلة ، ومـــع أنهم تلقـــوا إمدادات بحرية من مصر وشمال إفريقيا وإمدادات برية من الشام ، إلا أن ذلك لم يجد نفعا ، وأثناء الحصار توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ ، وتولى الخلافة بعده عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ فأدرك الصعوبات التى تواجه المسلمين الذين إستمر حصارهم للمدينة عاما كاملا ٩٨ — ٩٩ هـ ٧١٧ — ٧١٨ م فرأى من موقع مسئوليته عن سلامة المسلمين أن ينهى هذه العملية

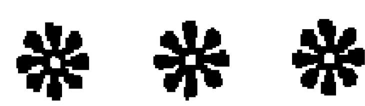
---

(١١٦) تاريخ جـ ٦ ص ٥٣١ ، وابن الأثير — المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٨.

(١١٧) انظر د. ابراهيم العدوى — المرجع السابق ص ٢٢١.

فكتب إلى مسلمة بن عبد الملك وأمره بالرجوع بالجيش فرجع(١١٨) .

ولكن على الرغم من فشل الحملة فإن ذلك لا يقلل من جهود الأمويين في إعلاء شأن الإسلام ، والتصدى بكل حزم وعزم لأعدائه ، غير مبالين بالصعوبات مهما كانت شاقة ، فقد صبروا وصابروا ولم يقصروا ، ويكفى أنهم أذلوا دولة كبرى عتيدة ، وجعلوا قصارى جهدها أن تدافع عن عاصمتها ، وجعلوا الاستيلاء على هذه العاصمة أملا ظل حيا فى نفوس المسلمين أكثر من سبعة قرون ونصف ، حتى تحقق فى النهاية على يد شعب مسلم آخر قادم من أقصى الشرق ، وهم الأتراك العثمانيون ، حيث فتح السلطان العثمانى محمد الفاتح المدينة واستولى عليها سنة ٨٥٧ هـ — ١٤٥٣ م(١١٩) وأنهى الدولة البيزنطية من الوجود .



(١١٨) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٥٣

(١١٩) انظر د. عبد العزيز الشناوى — المرجع السابق جـ ١ ص ٦٣.

الفتوحات البرية فى العصر الأموى

ما سبق كان حديثنا عن جهاد المسلمين فى العصر الأموى فى ميدان الفتوحات البحرية ، وهنا نتحدث عن جهادهم فى مجال الفتوحات البرية التى شملت ثلاث جبهات ، جبهة شمال إفريقيا والاندلس ، وجبهة ما وراء النهر على الحدود الشمالية الشرقية للدولة الإسلامية ثم جبهة السند على الحدود الجنوبية الشرقية .

الفتوحات فى شمال إفريقيا :

عندما جاء عمر بن الخطاب إلى فلسطين ليتسلم مفاتيح بيت المقدس من البطريرك صفرونيوس ، عرض عليه عمرو بن العاص فتح مصر ، لأهميتها البشرية والاقتصادية والعسكرية(١٢٠) . وفوق هذا كله وقبله فإن المسلمين وقد استمتعوا بهداية الإسلام ، وجب عليهم تبليغه للناس ، وإتاحة الفرصة لهم كى يتعرفوا على هذا الدين . ويستمتعوا بهدايته مثلهم ، ولقد كان عمرو بن العاص قائدا عسكريا بارعا إذ فكر فى فتح مصر ، التى كانت مستعمرة بيزنطية ، وكان فيها جيش بيزنطى كبير ، كما أن القائد الرومى الأرطبون قد انسحب إليها بجنوده من فلسطين ، فخشى عمرو أن ينقض هذا القائد على فلسطين مرة أخرى عندما تواتيه الفرصة ويهدد الوجود الإسلامى فيها ، فلجأ إلى الهجوم قبل أن يهاجم ، سار عمرو إلى مصر فى نهاية سنة ١٨ هـ وأتم فتحها فى حوالى ثلاث سنوات ١٨ — ٢١ هـ(١٢١) ، ثم اتجه بعد ذلك بقواته إلى الغرب لتأمين حدود مصر الغربية ، ففتح برقة ، وصالح أهلها على ثلاثة عشر الف دينار ، وقد قبل أهل برقة السيادة الإسلامية ، وكانوا يبعثون بالجزية التى فرضت عليهم من تلقاء انفسهم إذا جاء وقتها ، ولم يكن يدخلها جابى خراج ،

---

(١٢٠) انظر ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ٤٧

(١٢١) انظر ابن عبد الحكم — المصدر السابق ص ٤٧ وما بعدها ، والبلاذرى فتوح البلدان ص ٢٤٩ وما بعدها .

على حد تعبير ابن عبد الحكم(١٢٢) . ومن برقة سار عمرو بن العاص غربا فافتتح طرابلس ، ومن هناك كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بفتح طرابلس ، ويستأذنه فى المضى قدما لفتح إفريقية ، فقال له : « إن الله قد فتح علينا أطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل(١٢٣) » ولكن عمر رفض أن يأذن له بمواصلة الفتح(١٢٤) ولانستغرب هذا من عمر ابن الخطاب فحذره وحيطته فيما يتعلق بالفتوحات معروفان ، فعمر لم يكن تواقا للفتح فى حد ذاته ، وقد رأينا موقفه من فتح فارس ، ولعله لم يكن مستريحا للسرعة التى دارت بها الفتوحات وكان يخشى أن تتسع أمام المسلمين وتصل إلى حد غير مأمون . ومن ناحية ثانية فإن عمر كان على يقين من أن الإسلام سينتشر ويغزو القلوب دون حاجة إلى حرب وقتال ، لأنه دين الفطرة الإنسانية السليمة التى فطر الله الناس عليها ، وكل ماكان على المسلمين أن يفعلوه ، أن يزيلوا من أمامه العقبات ، وأن يدعوا الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة .

أمام إصرار الخليفة عمر على رفض الاستمرار فى الفتح ، لم يكن لعمرو بن العاص بد من العودة إلى الفسطاط ، ولكنه أرسل عدة حملات إلى ودان وفزان وزويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلين(١٢٥) ، وترك عمرو عقبة بن نافع « على هذه البلاد الصحراوية ببرقة يدعو للإسلام ، ونجح عقبة فى كسب كثير من سكان البلاد من قبائل لواته ونفوسة ونفزاوة وهراوة وزواغة فدخلوا فى الإسلام »(١٢٦) . ولم

---

(١٢٢) المصدر السابق ص ١١٦ ، والبلاذرى المصدر السابق ص ٢٦٤

(١٢٣) ابن عبد الحكم — المصدر السابق ص ١١٧ ، والبلاذرى المصدر السابق ٢٦٦

(١٢٤) ابن عبد الحكم — المصدر السابق ص ١١٧

(١٢٥) انظر ابن عبد الحكم — المصدر السابق ص ١١٦ ، وانظر د. حسين مؤنس — فتح العرب للمغرب ص ٦٩ ، و د. السيد عبد العزيز سالم — المغرب الكبير ج ٢ ص ١٥٣

(١٢٦) د. السيد عبد العزيز سالم — المرجع السابق ج ٢ ص ١٥٢

يغفل عمرو أمر حـدود مصر الغـربية فكان كما يقول ابن عبد الحكم ، « يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون(١٢٧) » استمر عمرو بن العاص على سياسته هـذه إلى أن توفى عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ، وفى خلافة عثمان ٢٤ — ٣٥ هـ انفرد عبد الله بن سعد بولاية مصر ، بعد استعفاء عمرو ، — كما سبق وأن ذكرنا — فواصل سياسة عمرو فى توجيه الحملات إلى إفريقية ، وكان كما يقول ابن عبد الحكم : « يبعث المسلمين فى جرائد الخيل ، كما كانوا يفعلون أيام عمرو ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون(١٢٨) » ولكن يبدو أن عبد الله بن سـعد رأى أن هذه الحملات الخاطفة غير كافية ، وأنه كان مرتابا فى أمر السكان فى هـذه المناطق الذين كان الروم يحركونهم لإزعاج المسلمين خصوصا وأن هذه الفترة هى فترة الصحوة البيزنطية على عهد الإمبراطور قنسطانز الثانى — الذى سـبق الحديث عن محاولاته فى غزو مصر والشام — لذلك كتب عبد الله بن سعد إلى عثمان يخبره بقرب أهـل إفريقية من حرز المسلمين ، ويستأذنه فى غزوها ، فشاور عثمان الصحابة فى ذلك ، فوافقوا على غزوها يقول ابن عبد الحكم : « فندب عثمان الناس لغزوها بعـد المشورة منه فى ذلك ، فلما اجتمع النـاس أمر عليهم عثمان ، الحارث ابن الحكم إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد مصر ، فيكون هو الأمير فخرج عبدالله بن سعد إليها ، وكان مستقر سلطان إفريقية(١٢٩) يومئذ بمدينـة يقال لهـا قرطاجنـة ، وكان عليها ملك يقـال له جرجير — جريجوريوس — وكان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل ، وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سـلطانه ما بين أطرابلس إلى طنجة ، فلقيه جرجير فقاتله ، فقتله الله ، وكان الذى ولى قتله — فيما يزعمون — عبد الله ابن الزبير ، وهرب جيش جرجير ، فبعث عبد الله السرايا وفرقها ، فاصابوا

---

(١٢٧) فتوح مصر وأخبارها ص ١١٧

(١٢٨) فتوح مصر ص ١٢٤ ، وابن عـذارى — البيـان المغرب جـ ١ ص ٩

(١٢٩) المقصود بإفريقية هنا إقليم تونس الحالى — انظر فى تحديدها واشتقاق إسمها — ياقوت — معجم البلدان جـ ١ ص ٢٢٨ — ٢٣١

غنائم كثيرة ، فلما رأى ذلك أهل إفريقية طلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ، ورجع إلى مصر ، ولم يول عليهم أحدا ، ولم يتخذ بها قيروانا(١٣٠) » وقد كانت الغنائم من الكثرة ، بحيث بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، والراجل ألف دينار(١٣١) .

كانت هذه الحملات التى قادها عمرو بن العاص ، ومن بعده عبد الله ابن سعد على حدود مصر الغربية مفيدة للغاية بالنسبة للمسلمين ، فقد مكنتهم من معرفة هذه البلاد القريبة من حرز المسلمين — على حد تعبير عبد الله بن سعد — ودراسة جغرافيتها وطرقها ومسالكها ، ومدى قوتها ، وما تمثله من خطر على المسلمين فى مصر ، وهذه سياسة ثابته يلاحظها الدارس لتاريخ الفتوحات الإسلامية فى جميع الجبهات ، حيث كان المسلمون يهتمون بدراسة المناطق المحيطة بهم ، والتردد عليها وطرقها مرارا ، حتى يألفوها وتزول رهبتها من نفوسهم حتى إذا ما دعا الأمر إلى فتحها يكونون على دراية كاملة بها ، واستمرت هذه السياسة فى إفريقية إلى نهاية عهد عثمان . يقول ابن عبد الحكم : « ثم خرج إلى المغرب بعد عبدالله ابن سعد معاوية بن حديج التجيبى ، سنة أربع وثلاثين .. فافتتح قصورا وغنم غنائم عظيمة ، واتخذ قيروانا عند القرن ، فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر وكان معه فى غزاته هذه جماعة من المهاجرين والأنصار ، ثم يقول : وهذه غزوة لايعرفها كثير من الناس »(١٣٢) .

معاوية بن أبى سفيان وفتح إفريقية :

بعد غزوة معاوية بن حديج — المشار إليها آنفا — فى أواخر عهد عثمان بن عفان سنة ٣٤ هـ ، توقفت الغزوات فى شمال إفريقيا ، بسبب الفتنة التى أدت إلى استشهاد عثمان رحمه الله ، والتى استمرت طوال

---

(١٣٠) فتوح مصر ص ١٢٤ — ١٢٥ ، والبلاذرى — فتوح البلدان ص ٢٦٨

(١٣١) ابن عبد الحكم — المصدر السابق ص ١٢٥ وابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ١٢

(١٣٢) فتوح مصر ص ١٣١ — ١٣٢

عهد على بن ابى طالب ٣٥ — ٤٠ هـ حتى استشهد هو أيضـــا رحمه الله ، على يـــد عبد الرحمن بن ملجم ، فلما استتب الأمر لمعاوية ٤١ — ٦٠ هـ — كانت جبهة شـــمال إفريقية ، من أولى الجبهات التى وجه إليها اهتمامه ، لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية ، ومن ناحية ثانية فهى تخضـــع لنفوذ الدولة البيزنطية ، العدو اللدود للمسلمين والتى صمم معاوية على تضييق الخناق عليهـــا ، وعدم إعطائها فرصة لالتقاط أفاسها ، ففى الوقت الذى واصل فيه ضغطه عليها من الشرق ، وزحفه على جزرها فى البحر المتوسط ، تمهيدا للوصـــول إلى عاصمتها القسطنطينية — كما سبق ذكره — نراه قـــد قرر أن يطوقها من الجنوب ، من شواطىء شمال إفريقيا التى كانت تعتبرها من أملاكها . ففى أول ســـنة من حكمه سنة ٤١ — أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقية ثم أرسله ثانية سنة ٤٥ هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل ، فمضى حتى دخل إفريقية ، « وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب .. وعبد الله بن الزبير .. وعبد الملك ابن مروان ، ويحيى بن الحكم بن العاص ، وغيرهم من أشراف قريش ؛ فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقا يقال لـــه : نجفور — نقفور — فى ثلاثين الف مقاتل ، فنزل الساحل ، فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله ابن الزبير فى خيل كثيفة ، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة(١٣٣) اثنا عشر ميلا ، فلما بلغ ذلك نجفورا اقلع فى البحر منهزما من غير قتـــال .. ورجع ابن الزبير إلى معـــاوية ابن حديج وهو بجبل القرن ، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان فى الف فارس إلى مدينة جلولاء(١٣٤) ، فحاصرها ، وقتل من أهلها عددا كثيرا

---

(١٣٣) سوسة مدينة صغيرة بنواحى إفريقية ، بينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلا ويحيط بهـــا البحر من ثلاث جهات ، من الشمال والجنوب والشرق — انظر ياقوت — معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٨٢

(١٣٤) هناك مدينتان تحملان هـــذا الاسم ، إحداهما بفارس ، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ ، وهى على طريق خراسان ، وبهـــا كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس سنة ١٦ هـ — وهذه التى بإفريقية وبينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلا — انظر ياقوت معجم البلدان جـ ٢ ص ١٥٦

حتى فتحها عنوة ، وأغزى معاوية بن حديج جيشا فى البحر إلى صقلية فى مائتى مركب ، فسبوا وغنموا وأقاموا شهرا ، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة(١٣٥) » .

عقبة بن نافع وفتح إفريقية :

أسفرت غزوه معاوية بن حديج — السالفة الذكر — عن فتح سوسة وجلولاء كما أنه غــزا بنزرت وغنم منها مغانم كثيرة ، ورجــع قافلا إلى قمونية ، وبنى بناحية القرن مساكن وسماها قيروانا(١٣٦) .

بعد هذا النشاط الذى بدأ فى جبهة شمال إفريقية نرى تصعيدا لحركة الفتح فيهــا وزيادة اهتمــام من معاوية بن أبى سفيــان بأمرها ، وقد تمثل ذلك فى إسناد قيادة حركة الفتح فى إفريقية إلى قائد من القادة الكبار ، الذين خلد التاريخ الإسلامى أسماءهم فى ميدان الفتوحات وهو عقبةبن نافع الفهرى(١٣٧) » الذى شارك فى غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب فى هذا الميدان خبرات واسعة ، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط ، فظل فيهــا يدعو الناس إلى لإسلام ، وقد جاء إسناد القيــادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة فى طــريق فتــح شمال إفريقيــا كله ، ذلك أنه لطــول إقامته فى برقــة وزويلة وماحــولها ، منذ فتحهــا أيام عمرو بن العــاص(١٣٨) ، أدرك أنه لكى يستقر الأمر للمسلمين فى إفريقية ، ويكف أهلها عن الارتداد ، فلابد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها فى غزواتهم ، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم ، فلما اسند إليه معاوية بن أبى سفيان

---

(١٣٥) انظر ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ١٦ — ١٧

(١٣٦) انظر المــالكى — رياض النفوس جـ ١ ص ١٩

(١٣٧) انظر ترجمة عقبة وأخباره فى ابن الأثير — أسد الغابة جـ ٤ ص ٥٩ والكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ١٠٥ وابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ١٩ والذهبى — سير اعلام النبلاء جـ ٣ ص ٥٣٢ — وابن حجر — الإصابة جـ ٢ ص ٤٩٢

(١٣٨) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٦٥

قيادة الفتوحات فى إفريقية ، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من اسلم من البـربر فكثر جمعه كما يقول ابن الأثـير(١٣٩) ، فسار حتى نزل بمغمداش من سرت(١٤٠) ، فبلغه أن أهل ودان(١٤١) قد نقضـوا عهدهم مع بسر بن أبى ارطأة الذى كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو ابن العاص ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية . فوجه إليهم عقبة قسما من الجيش عليهم عمر بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى ، وسار هو بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان(١٤٢) « فلما دنا منها دعاهم إلى الإسـلام فاجابوا(١٤٣) ثم واصـل فتوحاته : ففتح قصور كوار(١٤٤) ، خاور(١٤٥) ، وغدامس(١٤٦) وغيرها . ثم بدأ عقبة فى تنفيذ

---

(١٣٩) المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٦٥

(١٤٠) يقول ياقوت — فى معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٠٦ : « سرت بضم أوله وسكون ثانية وآخره تاء مثناة من فوق .. مدينة على ســاحل البحر الرومى بين برقة وطرابلس الغرب .

(١٤١) ودان بالفتح اسم لثلاثة مواضع منها ودان اسم لقرية بالحجاز بين مكة والمدينة من نواحى الفرع ، وودان جبل طويل بين فيد والجبلين ، والثالثة ودان التى نتحدث عنها : وهى مدينة جنوبى إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية . انظر ياقوت — معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٦٥ — ٣٦٦

(١٤٢) فزان بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون ، ولاية واســعة بين الفيوم وطرابلس الغرب .. ومدينتها زويلة السودان — ياقوت معجم البلدان — جـ ٤ ص ٢٦٠

(١٤٣) ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٢

(١٤٤) كوار — بضم الكاف وتشديد الواو المفتوحة وآخره راء — إقليم من بلاد السودان جنوبى فزان — ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٨٦

(١٤٥) خاور بفتح الخاء والواو وآخرها راء — مدينة جنوبى فزان ، وهى مدينة كورة كوار ياقوت — معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٤١

(١٤٦) غدامس — بفتح أوله وقد يضم وهى مدينة بالمغرب فى جنوبيه ضاربة فى بلاد السودان — ياقوت — معجم البلدان جـ ٤ ص ١٨٧

الفكرة التى عزم عليها ، وهى بناء مدينـــة تكون قاعدة ثابتة للمســلمين ، فقال لجنوده . « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر ، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين ، وقالوا : نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط ، فقـــال عقبة إنى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطنية بغتـــة فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها صاحب البحر إلا وقد علم به ، وإذا كان بينها وبين البحـــر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون(١٤٧) » ولم يعجبه موضع القيروان الذى كان بناه معاوية بن حديج قبله ، فســـار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم ، وكان واديا كثير الشجر ، تأوى إليه الوحوش والسباع والهوام .. وأمر الناس بالتنقية والخطط ، وركز رمحه وقال هـــذا قيروانكم(١٤٨) . وأمر ببنـــاء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع ، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم ، وتم أمرها سنة خمس وخمسين ، وسكنها الناس(١٤٩) ، وفى أثناء بنـــاء المدينة الذى استغرق خمس سنوات ٥٠ — ٥٥ هـ كان عقبة يغزو ويرسل السرايا ويدعو الناس إلى الإسلام ، فدخل كثير من البربر فى الإســـلام واتسعت خطة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها(١٥٠) .

كانت مرحلة عقبة بن نافع هذه على جانب كبير من الأهمية فى توجيه الفتوحات وتثبيتها فى إفريقية ، وكان تأسيس القيروان دليلا على الإصرار على مواصلة الفتح ولم تقم القيروان بدور كبير فى فتح شمال إفريقيا كله والاندلس فحسب ، وإنما قامت بدور عظيم فى نشر الإسلام فى المغرب ، وأصبحت مركزا من أهم مراكز الحضارة الإسلامية .

---

(١٤٧) ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص١٩ .

(١٤٨) يقول ياقوت عن القيروان : إنها مدينة عظيمة بإفريقية .. مصرت فى الإسلام أيام معاوية رضى الله عنه — معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٢٠ ، وانظر ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ١٣٢ — ١٣٣

(١٤٩) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٦٦ .

(١٥٠) المصدر الســـابق جـ ٣ ص ٤٦٦ — وانظـــر ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٢٠ — ٢١

عـــزل عقبة بن نافـــع :

بينما كان عقبة يواصل فتوحـــاته ، وينظم مدينته الجديدة ، إذ بوالى مصر مسلمة بن مخلد يعزله ، ويولى مكانه مولاه أبا المهاجر، سنة٥٥هـ(١٥١) ولم يكن عزل عقبة لتقصير أو عدم كفاية ، وإنما لأن مسلمة بن مخلد أراد أن يكافىء مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية ، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له : « لو اقررت عقبة فإن له جزالة وفضلا ، فقال : .. إن أبا المهاجر صبر علينا فى غير ولاية ، ولا كبير نيل فنحن نحب أن نكافئه(١٥٢) » .

ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية فى دمشق معاتبا ، وقال له : « فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لى ، ثم أرسلت عبد الأنصار ، فأساء عزلى » فاعتذر إليه معاوية ، وقـــال له : « عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه ، وقيامه بدمه وبذله مهجته(١٥٣) .

واضح أن معاوية كان على علم بعزل عقبة ، فاعتذر له هذا الاعتذار الرقيق ووعده برده إلى ولايته ، ولكن الأمر تراخى كما يقول ابن عـــذارى حتى توفى معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد،فرد عقبة واليا على إفريقية(١٥٤) .

أعتقد أن ما يذكره ابن عبد الحكم وابن عذارى عن حادثة عزل عقبة واضح وأنه يدور فى نطاق العلاقات الشخصية بين القادة والولاة والخلافة.

ولكن بعض المؤرخين المحدثين يعلل الأمر بطريقـــة مختلفة : فيقول الدكتور السيد عبد العزيز ســـالم : « بتأسيس القيروان أخذت إفريقية تظهر كولاية هامة من ولايات الدولة العربية الإســـلامية ، فتطلعت إليها

---

(١٥١) ابن عذارى — البيان المغرب جا ص ٢١ وابن لأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٦٦ .

(١٥٢) ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٤ ، وابن عـــذارى — المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢ .

(١٥٣) ابن عبد الكم — المصدر السابق ص ١٣٤ ، وابن عذارى الصدر السابق جـ ١ ص ٢٢ .

(١٥٤) البيان المغرب حـ ١ ص ٢٢ .

انظار الطامعين فى ولايتها ، والظاهـــر أن اشتغالَ عقبة بتأسيس القيروان طوال خمسة أعوام ، وعزوفه عن الغزو أثناء ذلك(١٥٥) حرم الخلافه من مورد هام لها ، وهو الغنائم الكثيرة التى كانت ترد من هذه البلاد ، وهنا أخذت السعايات ضد عقبة تلعب دورا هاما فى بلاط الخليفة بدمشق،وكان مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر فى مقدمة من سعى لعزل عقبة وضم ولاية إفريقية لمصر طمعا فى مواردها الوفيرة وقد نجح فى ذلك وأصبحت له منذ سنة ٥٥ هـ ولاية مصر والمغـــرب ... ثم يقول وذكر الأستاذ هنرى تراس أن معاوية عزل عقبة من ولاية إفريقية خوفا من أن يستقل بالمغرب عن الخلافة ، وليس من المستبعد أن يتجه تفكير معاوية إلى ذلك ، فقد كان يخشى أيضا مطامع عمرو بن العاص فى مصر وإفريقية ، ولذلك جعل ولاية إفريقية تتبعه مباشرة بعد وفاة عمرو ، ولعله راى فى اهتمام عقبة بإفريقية ، وشعبيته فى بلاد برقـــة وإفريقية ، وتأسيسه القيروان اتجاها منه نحـــوَ الإستقلال بحكم هـــذا الإقليم الغنى بخيراته ، المتطرف عن أملاك الدولة الأموية ... فأسرع بضم ولاية إفريقية إلى مسلمة بن مخلد الأنصارى عامله على مصر ، ولعله أشار على مسلمة بعزل عقبة عن ولاية إفريقية(١٥٦) » الحق لايستطيع الإنسان أن يوافق على هذا الاستنتاج لعدة أمور منها أن نزعة الاستقلال لم تكن تخطر على بال أحد من الولاة فى ذلك الوقت ثم إن عقبة بن نافع بالذات لم يعرفَ عنه أنه طـــامع فى الحكم أو لديه نزعـــة استقلال ، وإنما عرف عنه حبه للغزو والجهاد فى سبيل الله ، وأنه خير والٍ وخير أمير(١٥٧) .

---

(١٥٥) لاأدرى من أين وكيف استنتج الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن عقبة كان اثناء انشغاله ببناء القيروان عازفـــا عن الغزو . مع أن ابن الأثير يقول : « وكان عقبة — فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا — ودخل كثير من البربر فى الإسلام » — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٦٦.

(١٥٦) المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ وانظـــر كذلكَ — د . حسين مؤنس فتح العرب للمغرب ص ١٥٠ .

(١٥٧) انظر ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٢١ .

ثم لو كان معاوية يخشى من عقبة الاستقلال بإفريقية ، فلماذا اعتذر إليه متوددا ، ثم وعده بإعادته إلى ولايته، ولما لم يتم ذلك فى عهده ، أعاده ابنه يزيد إلى ولايته ، ثم كيف يستقل عقبة بإفريقية ، وقد كان يعتمد فى غزوها على الجند الذى يأتيه من مصر والشام حيث سار إليها بعشرة آلاف من قبل معاوية — كما أشرنا سابقا — ثم إن عقبة دفعه شغب أهل البلاد وكثرة انتقاضهم إلى استعمال القسوة ووضع السيف فيهم كما يقول ابن الأثير ، لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوه ، وأظهر بعضهم الإسلام ، فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم(١٥٨) » ، لذلك لم يكن محبوبا لديهم لشدته وقسوته عليهم(١٥٩) ولم تكن له شعبية بينهم ، كما يذهب الدكتور سالم .

لكل ماتقدم لانتفق مع الدكتور سالم فى تعليله لعزل عقبة ، ونرى أن الأمر كما ذكرت المصادر القديمة — ابن عبد الحكم وابن عذارى على سبيل المثال — كان مجاملة من مسلمة بن مخلد لمولاه أبى المهاجر دينار ، ثم مجاملة من معاوية بن أبى سفيان لمسلمة لأياديه ومواقفه مع الأمويين ونصرته لهم .

بقيت نقطة فى هذا الموضوع ، وهى الإساءة التى تعرض لها عقبة من أبى المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة ، فقد سجنه وأوقره حديدا(١٦٠) ولا ندرى ما الذى حمل أبا المهاجر على هذا ؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد ، بأنه هو الذى أوعز إلى أبى المهاجر أن يسىء إلى عقبة(١٦١) . فهذا اتهام لايستند إلى دليل ، خصوصا وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولى أبا المهاجر : « وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة

---

(١٥٨) الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٤٦٥ .

(١٥٩) انظر د . أحمد مختار العبارى — فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤١ .

(١٦٠) انظر ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٣ — ١٣٤ ، وابن عذارى — البيان المغرب ج ١ ص ٢٢ .

(١٦١) فتح العرب للمغرب ص ١٥١ .

احسن العزل ، فخالفه ابو المهاجر ، فأساء عزله وسجنه وأوقره حـديدا ، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه» (١٦٢) ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه وأقسم له بالله لقد خالفه ماصنع ابو المهاجر وقال له : ولقد أوصيته بك خاصة(١٦٣) ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة،مع أنه هو شخصيا كان يجل عقبة ، ويعرف مقامه ، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة ، وقـال هذا رجل لايرد له دعاء ، هذا هو السؤال الذى لانملك عليه جوابا شافيا .. اللهم إلا الاستنتاج الذى أخذ به الأستاذ محمد على دبوز ، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطرارا إلى القبض على عقبة وسـجنه ، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبى المهاجر« ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم ، فاضطر إلى سجنه حتى لايحدث خلل بين المسلمين(١٦٤) » ، إن كان هذا الاستنتاج صحيحا وهو على كل حال معقول ، فقد يخفف من شدة اللوم الذى يوجهه إلى أبى المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجـلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم ، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته ، بدلا من الإساءة وتبادل الأحقاد وأن يكون السابق منهم حريصا كذلك على أن يعطى خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق ، حتى ينجح فى مهمته لأن هدفهم واحد وهو الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه .

فتوحـات أبى المهاجر دينار ٥٥ — ٦٢ هـ

على الرغم من الخطأ الكبير الذى ارتكبه أبو المهاجر فى حق سلفه ، المجاهد الكبير عقبة بن نافع ، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول أنه قام بدور عظيم فى فتح المغرب ، وتمهيده لقبول الإسلام دينا ونظام حياة ، فقد

---

(١٦٢) فتوح مصر ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(١٦٣) المصدر السابق ص ١٣٤ .

(١٦٤) انظـر محمـد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ ص ٣٢ — ٣٣.

كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف ، وقد رأى — بثاقب نظره — أن سياسة القسوة التى كان يسير عليها عقبة ابن نافع لابد أن تتغير ، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب ، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريتهم فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة وقد نجح أبو المهاجر فى سياسته تلك نجاحا كبيرا ، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر فى شمال إفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم ، هم الروم(١٦٥) ، الذين أخذوا يتحببون إلى البربر ، ليجتذبوهم إلى جانبهم فى حربهم ضد المسلمين ، فقرر أن يعزل البربر عن الروم ، أو قل انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ماجاءوا إلى هذه البلاد ليستعمروهم ويستعبدوهم ويستغلوا بلادهم ، كما يحاول الروم أن يفهموهم ، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم وسعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربقة الروم ، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون . ولم تكن هذه مهمة سهلة أمام أبى المهاجر ، ذلك أنه عندما بدأ مهمته فى المغرب ، كانت الدولة البيزنطية ، قد عمدت إلى تغيير سياستها حيال البربر فى شمال إفريقيا ، فأخذت تتقرب إليهم وعملت على إنهاء خلافاتها معهم وبصفة خاصة الخلافات الدينية لتضمن ولاءهم ووقوفهم معهاضد المسلمين،وكان صاحب هذهالسياسة الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع ٦٦٨ — ٦٨٥ م — وقد نجح فى سياسته ، فأزال ماعند البربر المسيحيين من عوامل الكراهية ضد الدولة البيزنطية ، فبدؤا يعملون على شد أزرها ، ومناصرتها فى حربها مع المسلمين وقام بذلك تحالف بين البربر المسيحيين والبيزنطيين بشمال إفريقيا وظهر تعاونهم جليا خلال الحملات الإسلامية التى تلت عزل عقبة ، واصطدم بتحالفهم الأول أبو المهاجر(١٦٦) » .

وكان الروم رغم الهزائم التى حلت بهم فى وسط إقليم إفريقية وجنوبه ، لازالوا قوة فى الشمال ، ولازالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم

(١٦٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٣

(١٦٦) انظر د.إبراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص٢٣٩ — ٢٤٠ وانظر د. السيد عبدالعزيز سالم — المغرب الكبير ج٢ ص ٢١٥ .

يقصدها أحـد من الفاتحين الأولين ، ثم إنهـم لازالوا قوة فى سـاحل المغرب من بنزرت إلى طنجة ، فكان على أبى المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم فى تلك النواحى ، ويكسر الحلف الذى عقـدوه مع البربر ، فسار إلى قرطاجنة ونازلها(١٦٧) ، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية ، فشدد أبو المهاجر الحصـار عليها ، فعلم الروم أنه لاقبل لهـم بالجيش الإسـلامى ، وأن أبا المهاجـر لابد أن ينتصر عليهم ، فيدخـل العاصمة باقتداره وقوته ، فطلبـوا الصلح فصالحهم بإخـلاء جـزيرة شريك(١٦٨) ، لتنزل فيها جنوده ، وتكون للمسلمين ولم يصالحهم بالأموال ليرجع عنهم ، كما فعل عبد الله بن سـعد لأن غرض المسلمين هو الفتح والاستقرار وهذا يكون بامتلاك الأرض لا الأموال(١٦٩) ، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك ، القريبة من قرطاجنة ، أن يراقب الروم وتحركاتهم ، وترك فيهـا حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعانى ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد(١٧٠).

وبذلك حقق نصـرا عسكريا وسياسيـا كبـيرا على البيزنطيين فنزولهم له عن هذه الجزيرة الهامة التى أصبحت قاعدة للمسلمين بجـوار قرطاجنة عاصمة إفريقية يعتبر دليلا على ضعفهم ، إذ لو كانوا قادرين على رده عن قرطاجنة بدون دفع هـذا الثمن لفعلوا ، وهكذا حقق أبو المهاجر هذا النصر ، وضرب التحالف البيزنطى البربرى .

رفع أبو المهـاجر الحصـار عن قرطاجنة بعـد أن انتزع من الروم جزيرة شريك ، ذلك الموقـع الاسـتراتيجى الهـام ، وترك فيهـا

---

(١٦٧) انظر أبو المحاسن — النجوم الزاهرة ١ ص ١٥٢ .

(١٦٨) جزيرة شريك تقع الى شرق قرطاجنة ، وقد سميت بجزيرة شريك نسـبة إلى شريك العبسى ، والدقـرة بن شريك الذى ولى مصر ٩٠ — ٩٦ هـ لأنه كان أحد العاملين عليها — انظر محمد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٣٤ وهامشها وانظر ياقوت معجم البلدان ج٣ ص٩٩

(١٦٩) محمد على دبـوز — المرجـع السابق ج ٢ ص ٣٤ ، د. ابراهيم العدوى المرجع السابق ص ٢٤١ .

(١٧٠) محمد على دبوز — المرجع السابق ج ٢ ص ٣٤ ، د. ابراهيم العدوى المرجع السابق ص ٢٤١ .

حامية تؤمن ظهر المسلمين وتراقب تحركات الروم ، ثم اتجه بعد ذلك مسايرا الساحل ناحية الغرب ، وقد خافه الروم والبربر جميعا ، فلم يتعرض له أحد ، حتى وصل إلى مدينة ميلة(١٧١) ، على بعد خمسين ميلا من بجاية فى جنوبها الترقى(١٧٢) ، فوجدها مستعدة للقتال وكان فيها طائفة من البربر والروم تحصنوا بها،فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها ، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط ، فهى أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم فى هذه البقاع ، فجعلها مقره ، وأقام بها نحوا من سنتين وقد استثمر هذه المدة فى الاتصال بالبربر ، وإفهامهم حقيقة الإسلام ، ودعوتهم إليه ، وقد نجح فى سياسته نجاحا كبيرا فاقبل البربر على الإسلام ، وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له فى هذه النواحى من المغرب ، قسنطينة الآن ونواحيهاإلى بجاية(١٧٣).لأن الرومكانوا يتقوونبالبربر،وهاهو أبو المهاجر قد نجح فى اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم ، فسكنت تلك النواحى ، سكون البحر بعد العاصفة ، على حد تعبير المؤرخ المغربى الأستاذ محمد على دبوز(١٧٤) . وبعد أن اطمأن أبو المهاجر إلى سكون هذه النواحى بدأ ينظر إلى المغرب الأوسط ، يرقب مايجرى فيه ، فترامت إليه الأخبار أن جمعا للروم والبربر يستعد لحربه ، فقرر المسير إليهم .

وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة(١٧٥) ، وهى قسم كبير من أقسام البربر البرانس ، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن

---

(١٧١) أبو المحاسن — النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٥٢ .

(١٧٢) بجاية ، مدينة على ساحل البحر ، بين إفريقية والمغرب — ياقوت معجم البلدان جـ ١ ص ٣٣٩ . وميلة بكسر الميم وسكون الياء وفتح اللام وتاء مربوطة .. مدينة صغيرة بأقصى إفريقية بينها وبين بجاية ثلاثة أيام — ياقوت — معجم البلدن جـ ٥ ص ٢٤٤ .

(١٧٣) محمد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ ص ٣٥

(١٧٤) المرجع السابق جـ ٢ ص٣٥ .

(١٧٥) انظر بن خلدون — العبر جـ ٦ ص ١٤٦ ، وانظر كذلك محمد على دبوز المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٨

لزم ، وكان كسيلة قوى الشخصية ذكى الفؤاد ، غيورا على وطنه وكان البربر يجلونه ، ويحبونه وكان نصرانيا متمسكا بدينه ، وكان لايعرف حقيقة الإسلام والمسلمين ، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا فى الإسلام والمسلمين فرآهم عدوا لدينه ووطنه ، ورأى أن أبا المهاجر فى ميلة فعلم أنه لابد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى ، فذهب يدعو البربر لمكافحة العرب والاستعداد لحربهم ، وإجلائهم عن بلادهم ، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لامة الحرب ، واستعدوا للقراع ، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم (١٧٦) .

معركة تلمسان(١٧٧) :

بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر فى تلمسان ، انتظارا للقاء المرتقب مع أبى المهاجر ولم يطل انتظاره ، فقد وصل أبو المهاجر ، وعسكر بجيشه حول تلمسان ، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية ، أبلى فيها كل من الفريقين بلاء كبيرا ، وأدركوا خطورتها وأن لها مابعدها ، وكثر القتلى من الجيشين ، ثم انزل الله نصره على المسلمين ، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار ، وأسر كسيلة ، فحمل إلى أبى المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك(١٧٨) ،هنا تجلت براعة أبى المهاجر فى استثمار النصر على النحو الذى يحقق هدفه فى استمالة البربر فلم يعمد إلى إذلال زعيمهم ، بل أحسن إليه وقربه وطمع فى إسلامه ، وأدرك أنه لو أسلم كسيلة ، فسيكون إسلامه سببا فى إسلام قومه ، لأنه زعيم كبير ، وله فى قلوب البربر مكانه ومحبة ، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته ، وأنه دين التوحيد الخالص لله ، ودين المساواة والحرية والأخوة الإنسانية ، وأنه لو أسلم

---

(١٧٦) محمد على دبوز المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٨

(١٧٧) تلمسان ، بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة ، وبعضهم يقول تنمستان بالنون ، بالمغرب وهما مدينتان .. بينهما رمية حجر ، إحداهما قديمة ، والأخرى حديثة ، اختطها الملثمون . فهى كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر — ياقوت جـ ٢ ص ٤٤ .

(١٧٨) انظر محمد على دبوز — المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٨ — ٣٩ ، وانظر د. إبراهيم العدوى — المرجع السابق ص ٢٤١ .

فلن يخسر شيئا ، بل بالعكس سوف يكسب الكثير روحيا وماديا..وكان كسيلة ذكيا طموحا مخلصا لقومه لايريد لهم إلا الإصلاح ، فعلم أن الإسلام هو دين السعادة والقوة والحياة وخير الدارين ، وأن العرب المسلمين هم الأخوة الأصفياء ، الذين يسعدون البربر ، ويأخذون بأيديهم إلى النجاح ، فآمن كسيلة بما دعا إليه أبو المهاجر ، فأصبح من المسلمين وأغرم بالعربية فصار يتعلمها ، وأعجب بجمال الإسلام فى سيرة المسلمين فأحبهم ، وأصبح أبو المهاجر وصحبه‌هم خاصته وأولياءه ، وأحب أبوالمهاجر كسيلة ، ورجا منه خيرا كبيرا للإسلام فشمر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين فدعا قومه البربر للدين‌الحنيف ، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم‌لأبى المهاجروالمسلمين ، فأحبوه لما أطلق رئيسهم كسيلة من الأسر ، وأحسن إليه وعظمه وبجله ، والبربر جنس كريم معتد بنفسه ، يملكه من يحترمه ويعرف له مقامه ، فأقبل البربر على الإسلام ، واصبحوا أحباء العرب يزدادون تقاربا على الأيام ليصبحوا شعبا واحـــدا يصل بينهم الإسلام ، وتلحم بينهم العربية ، فقرت عين أبى اهاجر بما رأى، وازداد يقينا بأن السيف وحده ليس وسيلة لامتلاك الشعوب(١٧٩) . عاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريبا من القيروان ، وأقام بقرية تسمى دكرور ، يراقب الأمور ، ويرصد تحركات الـــروم ودسائسهم ، ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقى ، لكن لسوء الحظ ، لـــم يطل به المقام ، فقد توفى مولاه مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر سنة ٦٢ هـ ، وكان مسلمة سندا قويا لأبى المهاجر ، فلما زال هذا السند أعاد يزيد بن معاوية ٦٠ — ٦٤ هـ عقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية وعزل أبا المهاجر .

حملة عقبة بن نافع الثانية ٦٢ — ٦٣ هـ

عرفنا جهود عقبة بن نافع فى فتوح المغرب منذ بدايتها ، سواء عندما كان يعمل تحت إمرة غيره من الولاة مثل عمرو بن العـــاص ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، أو عندما استقل بالعمل وحده حين أسند إليه الخليفة

---

(١٧٩) انظر محمد على دبوز — المرجع السابق ج ٢ ص ٣٨ — ٣٩ ، وانظر أيضا د. إبراهيم العدوى — المرجع السابق ص ٢٤١

معاوية بن أبى سفيان قيادة الغزوات ، وأنه اسس فى هـــذه المرحلة مدينة القيروان ٥٠ — ٥٥ هـ لتكون قاعدة للمسلمين يأمنون فيها ، ومنها ينطلقون فى غزواتهم ، وعرفنا الظروف التى عزل فيها عقبة ، وأنه استاء من العزل فذهب إلى دمشق وقابل معاوية فاعتذر له ووعده بإعادته إلى إفريقية لكن هذا الوعد لم يتحقق إلا فى خلافة يزيـــد بن معاوية ٦٠ — ٦٤ هـ ، وبصفة خاصة بعد وفاة والى مصر مسلمة بن مخلد سنة ٦٢ هـ ، ففى هذه السنة أعاد يزيد عقبة إلى إفريقية وعزل عنها أباالمهاجر(١٨٠) . وصل عقبة إلى إفريقية ، وكان أول ماصنعه هو الانتقام من أبى المهاجر والإســـاءة إليه ، فأوثقه فى وثاق شديد(١٨١) ، واضـــح أن عقبة لم يستطع أن يتخلص من شعوره العدائى ضد أبى المهاجر ، بعد هذه السنين الطويلة ، وكنا نود أن يرتفع عقبة فوق شهوة الانتقام ، وأن يعفو عن أبى المهاجر ، بل أن يصادقه ويستفيد من خبرته وجهوده ، حرصا على مصـــلحة الإسلام ، وكان خليقا بعقبة — وهو المجاهد الكبير — أن يفعل ذلك ، لكن يبدو أنه من الصعب على النفوس البشرية أن تتخلص من نزعاتها فمصادرنا تكاد تجمع على أن عقبة عامل أبا المهاجر معاملة قاسية(١٨٢) .

لم يضيع عقبة وقتا بعد وصـــوله ، فبعد أن رتب أمر القيروان — مدينته التى أسسها وتعبفيها وارتبطت باسمه — ، واستخلف عليها زهير ابن قيس البلوىودعا لها قائلا: يارب املأها علما وفقها واملأها بالمطيعيين لك ، وأجعلها عزا لدينك،وذلا على من كفر بك(١٨٣)بعد هذا بدأ عقبةعلى الفور الاستعداد للغزو ، الذى كان شغوفا به ، تواقا إلى استئنافه ، وكان عدد جنوده الذين سيقودهم فى حملته الكبرى خمسة آلاف حســـب رواية

(١٨٠) ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٤ .

(١٨١) المصدر السابق ص ١٣٤ .

(١٨٢) انظر عبدالحكم — المصدر السابق ص١٣٤، وابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٢٣ والمالكى رياض النفـــوس جـ ١ ص ٢٢ ، د. حسين مؤنس — فتح العرب للمغرب ص ١٧٩ .

(١٨٣) ابن عذارى — المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣

ابن عبد الحكم(١٨٤) ، وخمسة عشر الفا حسب تقدير الدباغ(١٨٥) ، ويرجح الدكتور حسين مؤنس تقدير الدباغ لأن خمسة آلاف جندى أقل من أن ينهضوا بعمل كبير كالذى قام به عقبة فى حملته الكبرى(١٨٦) .

ويبدو أنه لاتعارض بين التقديرين ، لأن العدد الذى أشار إليه ابن عبد الحكم قال عنهم إنهم من المصريين ، فتكون الزيادة التى جاءتفى تقدير الدباغ هى عددالجند من البربر المسلمين ، الذينضمهم عقبة إلىجيشه ومن بقية الجيش الذى كان بالمغرب ، والمصادر مجمعة على أن عقبة فى هذه المرحلة الأخيرة من جهاده قد أطلقلنفسه ولفرسهالعنان ، ولعل الفترة التى قضاها بعيدا عن ميدان غزوه من سنة ٥٥ هـ حتى سنة ٦٢ هـ قد زادته شوقا إلى الغزو ، فأخذ ينتقل من مكان إلى مكان بسرعة لم تمكنه من تثبيت أقدامه فى المكان الذى سيتركه خلفه ، وقد أوجز ابن عذارى غزوات عقبة فى مسيرته تلك على النحو التالى : فقال : وشرع عقبة فى هذه الغزوات المذكورة بعد .. غازيا للروم والبربر ، وهم إذ ذاك مجوس ونصارى وذلك بمدينتى باغاية وقرطاجنة ، وماوالاهما ، فهزمهم وقتلهم وأخذ المسلمين من سبيهم وخيلهم شيئا كثيرا(١٨٧) ثم يمضى ابن عذارى فى حديثه عن غزوات عقبة فيقول : « فمضى إلى مدينة المنستير(١٨٨) ، وكانت فى ذلك الزمان من أعظم مدائن الروم ، فلجأ إليها من كان حولها منهم وخرجوا إليه فى عدة وقوة ، فقاتلهم قتالا شديدا ، حتى ظن أنه الفناء إلى أن هزمهم

---

(١٨٤) فتوح مصر ١٣٥

(١٨٥) د. حسين مؤنس — فتح العرب للمغرب ص١٨١ نقلا عن معالم الإيمان جـ١ ص٤٣

(١٨٦) فتح العرب للمغرب ص ١٨١

(١٨٧) البيان المغرب جـ ١ ص ٢٤ — وانظر ايضا المالكى — رياض النفوس جـ ١ ص ٢٣

(١٨٨)المنستير — بضم أوله وفتح ثانيه وسكون السين المهملة ، وكسر التاء المثناه من فوقها وياء وراء ، هو موضع بين المهدية وسوسة بافريقية بينه وبين كل واحدة منهما مرحلة انظر ياقوت معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٠٩

الله إلى باب حصنهم ، فأصاب المسلمون غنائم كثيرة ورحل عنهم .. وغزوته لهم أيضا بالزاب ، وقتاله إياهم على وادى المسيلة ، فهزمهم وقتلهم ، وذهب عز الروم وملكهم من الزاب(١٨٩) إلى آخر الدهر »(١٩٠) ثم يمضي ابن عذارى فى حديثه عن غزوات عقبة لتيهرت(١٩١) ، وطنجة حتى بلغ السوس الأقصى ، وكان يهزم كل من يتجمع له من الروم والبربر .

وهكذا استمر عقبة فى غزواته هذه السريعة الخاطفة ، من القيروان حتى بلغ المحيط الأطلسى ، وأوطأ فرسه مياهه وقال قولته المشهورة : « اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك »(١٩٢) .

استشهاد عقبة :

يبدو أن عقبة المجاهد المخلص ، كان يحس إحساس المؤمن الصادق ، أنه سيلقى ربه شهيدا فى هذه الجولة ، فعندما عزم على المسير من القيروان فى بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم : « إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل ، وعزمت على من كفر به ، حتى أقتل فيه والحق به ،ولست أدرى ، أترونى بعد يومى هذا أم لا ، لأن أملى الموت فى سبيل الله ، وأوصاهم بما أحب ، ثم قال : عليكم سلام الله .. اللهم تقبل نفسى فى رضاك »(١٩٣) . نعى عقبة نفسه إلى أولاده ، فتقبل الله منه ، وحقق

---

(١٨٩) يوجد أكثر من مكان يحمل اسم الزاب ، من ذلك الزاب الأسفل قرب مدينة واسط بالعراق ، والزاب الأعلى بالعراق أيضا ، وهو المكان الذى دارت فيه معركة الزاب المشهورة بين مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وعبد الله بن على بن عبد الله بن عباس وهو بين الموصل وأربل . أما المقصود هنا فهو زاب المغرب ، وهو كورة عظيمة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة — ياقوت — معجم البلدان جـ ٣ ص ١٠٤

(١٩٠) ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٢٤

(١٩١) تيهرت — المقصود بها تاهرت — وهى بين تلمسان وقلعة بنى حماد — ياقوت — معجم البلدان جـ ٢ ص ٧

(١٩٢) المالكى — رياض النفوس جـ ١ ص ٢٥

(١٩٣) انظر ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٢٣ — ٢٤

له أمله فى الشهادة ، فقد أعد له الروم والبربر كمينا عند تهوذه(١٩٤) ، وأوقعوا به وقضوا عليه ، هو ومن معه من جنوده .

وترجع المصادر أمر الكارثة التى تعرضلها عقبة عند تهوذه إلى سبب رئيسى وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة ، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة فى قومه ، والذى كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه فأسلم وتبعه كثير من قومه ، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة وبالغ فى إذلاله(١٩٥) ، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذى وقع فيه عقبة ولم يكتم نصيحته عنه — رغم أنه كان فى حكم المعتقل — فحاول إقناعه بالإحسان إليه واصطناعه لمكانته فى قومه، ولكن عقبة لم يسمع نصيحة أبى المهاجر ، فلما رأى ابو المهاجر إصرار عقبة على موقفه من كسيلة ، استاء من ذلك ، وقال له غاضبا . «بئس ما صنعت كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب ، وانت تأتى إلى رجل جبار فى قومه فى دار عزه ، قريب عهد بالشرك ، فتهينه ، فتهاون عقبة بكلامه ، فانتهز كسيلة فرصة فنكث »(١٩٦) .

وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم ، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم ، وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة ، وهذا الإذلال الذى لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم ، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له : « عاجله قبل أن يستفحل أمره »(١٩٧) ولكن عقبة لم يصغ إلى

---

(١٩٤) يقول ياقوت — معجم البلدان ج ٢ ص ٦٤ — تهوذه بالفتح ثم الضم وسكون الواو وذال معجمة ، اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم .

(١٩٥) من مظاهر الإذلال الذى الحقه عقبة بكسيلة أمره له بالاشتراك فى ذبح وسلخ الشياه ، فلما قال له كسيلة هؤلاء فتيانى وعبيدى يكفونى المؤونة ، فلم يقبل منه عقبة ذلك ، فوقع ذلك من نفس كسيلة والبربر عامة موقعا سيئا انظر ابن عذارى — البيان المغرب ج ١ ص ٢٩

(١٩٦) ابن عذارى — المصدر السابق ج ١ ص ٢٩

(١٩٧) المصدر السابق ج١ ص٢٩ — وانظر أبو المحاسن — النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٩

هذه النصيحة أيضا وليته احتاط للأمر ، بل أقدم على عمل آخر فى غاية الخطورة ، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بمسافات طويلة ، متخليا عما كان عليه أن يتحلى به من الحذر فى هذا الموقف ، فسهل بذلك لكسيلة والروم مهمة الفتك به ، ذلك أن كسيلة كان قد بيت نية الغدر به منذ بدأ يسىء إليه ، ودارت الرسل بينه وبين الروم ، واتفقوا على تدبير الإيقاع به وبينما هو فى تهوذه ، وإذابكسيلة يحيط به فى جيش كبير عدته خمسون ألفا(١٩٨)، وعندما رأى عقبة ذلك ، وادرك أنه لن يستطيع الإفلات من هذه الكارثة ، قرر أن يواجـــه الموقف بنفسه ونصح أبا المهاجر بالفـــرار ، وقال له : « الحق بالمسلمين فقم بأمرهم ، فأنا أغتنم الشهادة »(١٩٩) ولكن أبا المهاجر أبت عليه شهامته وخلقه أن يتركه وحده ، وقال له : « وأنا والله أغتنمها معك ، فكسر كل واحد منهما جفن سيفه ، وكسر المسلمون أغماد سيوفهم ، وأمرهم أن يترجلوا عن خيولهم ، فقاتلوا قتالا شديدا ، حتى بلغ منهم الجهد وكثرت فيهم الجراح ، وتكاثر عليهم العدو ، فقتل عقبة وأبوالمهاجر ، ومن كان معهما من المسلمين ،ولم يفلت منهم أحد ، إلا بعض وجوههم أسروا ، ففداهم صاحب قفصة ، وبعث بهمإلى زهير بنقيس ، وكان عقبة قد خلفه أميرا على القيروان »(٢٠٠) وهكذا تحقق أمل عقبة ونال الشهادة فى سبيل الله ، ومهما كان من أمره ، وسواء أكان ما حدث له نتيجة لأخطائه التى أشرنا إليها ، ولإفراطه فى الثقه بنفسه ، وعدم حذره ، أو لأى سبب آخر ، فقد أدى الرجلواجبه كاملا ، واستقبل الشهادة فى سبيلالله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها ، وشق بجهاده للإسلام طريقه فى هذا الجزء من العالم الذى سار فيه خلفاؤه من بعده ، زهير بن قيس البلوى ، وحسان بن النعمان الغسانى ، وموسى بن نصير .

---

(١٩٨) انظر ابن العذارى — المصدر السابق — ج ١ ص ٢٩

(١٩٩) نفسه ج ١ ص ٢٩

(٢٠٠) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ ، وانظر كذلك فى استشهاد عقبة ومأساة تهوذه ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص١٣٤،وأبو المحاسن — النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٩ ، د. حسين مؤنس — فتح العرب للمغرب ص ١٩٩

دفع المصير الذى آل إليه عقبة باستشهاده فى تهوذه بعض المؤرخين المحدثين إلى الحكم عليه باحكام قاسية ، وأنه لم تكن له خطة محددة ، ولا غاية واضحة من حملته الكبرى هذه ،(٢٠١) ولا ندرى كيف يوصف عقبة بأنه لم تكن له خطة ولا غاية من حملته ، مع أن غاية الرجل واضحة غاية الوضوح وهى الجهاد فى سبيل الله ، وتمهيد الطريق لنشر الإسلام ، ولكن يبدو أن النهاية التى انتهى إليها عقبة هى التى دفعت بعض المؤرخين إلى هذه الأحكام القاسية عليه ، فلو نجا عقبة من معركة تهوذه ، لكان الكلام غير الكلام ، والأحكام غير الأحكام ، فالأمور عادة بما تصير إليه .

اثر معركة تهوذه على المسلمين :

كانت معركة تهـوذه كارثة على المسلمين ، ما فى ذلك شك ، حيث استشهد القائد البطل الجرىء ، عقبة بن نافع ، وصحبه ، وكان لاستشهاده وقع اليم ، على المسلمين ، وانتابتهم حالة من الهلع والفزع ، فمع أن العدد الذى استشهد مع عقبة كان قليلا — قيل حوالى ثلثمائة جندى — وأن معظم الجيش كان قد سار متقدما ونجا من المعركة ، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقـاوم ، حتى يحتفظ بوجوده فى القيروان ، إلا أن الحـالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك ، وقد حاول زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة على القيروان أن ينفخ فى الجنود روح المقاومة والتصدى لكسيلة عندما زحف على القيروان ، وهتف قائلا : « يامعشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد من الله عليهم بالشهادة ، فاسلكوا سبيلهم ، ويفتح الله عليكم دون ذلك »(٢٠٢) ولكن صيحة زهير هذه لم تجد استجابة ، بل لقيت معارضة وتثبيطا ، حيث تصدى له حنش الصنعانى وقال له: لاوالله مانقبل قولك ولا لك علينا ولاية ! ولا عمل افضـل من النجاة بهـذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم ، ثم قال يامعشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعنى فاتبعه الناس ، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ، فنهض فى

(٢٠١) انظر على سبيل المثـال رأى د. حسين مؤنس فى هـذا الموضوع — فتح العرب للمغرب ص ٢٠٢

(٢٠٢) انظر ابن عذارى — المصدر السابق ج ١ ص ٣١

أثره ، ولحق بقصره ببرقة ، وأقـــام بهـــا مرابطا إلى دولة عبـــد الملك بن مروان »(٢٠٣) ، وأما كســيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية ، وقصـــد القيروان ، وبها أصحاب الأثقال والذرارى من المسلمين ، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم ، ودخل القيروان ، واستولى على إفريقية وأقام بها غير مدافع إلى أن قوى أمر عبد الملك بن مروان »(٢٠٤) . ضاعت إذن كل الجهود التى بذلها المسلمون فى فتح هذه البلاد منذ حملات عمرو بن العاص الأولى وحتى حملة عقبة الثانية ولكن الذى يخفف من الأسى أن المسلمين لم يستسلموا للهزيمة بل ربما يمكن القول أن هذه الهزيمة حفزت المسلمين على مواصلة الفتح ، وشدت أنتباه الدولة الأموية أكثر فأكثر إلى هذه الجبهة فالخليفة عبد الملك بن مروان ٦٥ — ٨٦ هـ رغم انشغاله بمشاكل المشرق وهى كثيرة وهائلة — إلا انه لم ينس شمال إفريقيـــا بل جهز لها جيشـــا وأسند قيادته إلى الرجل الخبير بشئوونها ، وهو زهير بن قيس البلوى .

زهير بن قيس وجهاده :

زهير بن قيس البلوى(٢٠٥) من أشراف الصحابة ، ومن كبار الأبطال الفاتحين المجاهدين شارك فى فتوح المغرب مشاركة كبيرة ، ولازم عقبة بن نافع فى غزواته ، وكان من أكبر أعوانه فى كل ما قام به من أعمال فى المغرب ، وقد رأيت أنه قد استخلفه على القيروان أثناء حملته الأخيرة على المغرب لثقته فى أمانته وشجاعته ، فقد كان زهير يجاهد جهاد المخلصين الذين لاينتظرون غنيمة ولامنصبا ولاشهرة وإنما يبتغون الأجـــر من الله سبحانه وتعالى ، وقد رأيت أن هزيمة تهوذه لم تنل من عزيمته إذ حاول أن يلم شمل المسلمين ويتصدى لكسيلةويمنعه من دخولالقيروان ،ولكنهلم يجد استجابة من رجاله فاضطر أن يرجع إلى برقة ، على أمل أن تمده الخلافة

---

(٢٠٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٣١ وانظر أبو المحاسن — النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٥٩

(٢٠٤) أبو المحاسن المصدر السابق جـ ١ ص ١٦٠

(٢٠٥) انظر ترجمته فى أسد الغابة لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٦٧ والإصابة لابن حجر جـ ٤ ص ٢٥ — وابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٣٢ — ٣٣

بجند يرد بهم هيبة الإسلام ، ويكسر شوكة الكفر ، لكن الخلافة كانت مشغولة عنه بالأحداث الدامية التى تلت وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ولكن ذلك لم يدم طويلا لأن الخليفة عبد الملك بن مروان بلغ من اهتمامه بأمر إفريقية وما حدث فيها أنه لم ينتظر حتى يفرغ من مشاكله الخطيرة فى المشرق ، بل اعناه أمرها وهو فى غمرة الأحداث ، يقول ابن عذارى : وفى سنة ٦٥ من الهجرة ولى عبد الملك بن مروان ، فلما اشتد سلطانه ، واجتمع أكابر المسلمين عليه ، سألوه تخليص إفريقية ومن بها من المسلمين، من يد كسيلة اللعين ، فقال : لايصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله دينا وعقلا فاستشار مع وزرائه ، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوى ، وقالوا : هذا صاحب عقبة ، وأعلم الناس بسيرته وتدبيره ، وأولاهم بطلب دمه ، فوجه عبد الملك بن مروان إلى زهير وهو ببرقة ، يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية، ليستنقذ من بالقيروان ، فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، فأمده عبد الملك بن مروان بالخيل والرجال والأموال وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه ، فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه الى إفريقية »(٢٠٦) .

كان تحرك زهير بن قيس من برقة متجها إلى الغرب فى سنة ٦٩ هـ أى بعد مضى ست سنوات منذ استشهاد عقبة سنة ٦٣ هـ وسيطرة كسيلة على إفريقية ، ولكن ما إن علم بمسير زهير وجيشه إلى القيروان ، حتى انسحب منها إلى ممس — فى غربها — وهذا دليل على الفزع الذى انتابه من مسير المسلمين إليه ، بحيث لم تغنه الجموع الكثيرة التى معه من الروم والبربر ، وقد حاول كسيلة تغطية انسحابه من القيروان أمام جنده وأفهمهم بأن هذا تكتيك عسكرى ، فقال لهم : « إنى رأيت أن أرحل عن هذه المدينة ، فإن بها قوما من المسلمين ، لهم علينا عهود ، ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا ، ولكن ننزل على موضع ممس ،

---

(٢٠٦) البيان المغرب جـ ١ ص ٣١ ، وانظر كذلك البلاذرى — فتوح البدان ص ٢٧٠ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ١٠٨ — ١٠٩ ، أبو المحاسن — النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٦٠

وهى على الماء فإن عسكرنا خلق عظيم فإن هزمناهم إلى طرابلس ، قطعنا آثارهم ، فيكون لنا المغرب إلى آخر الدهر ، وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا »(٢٠٧) .

هزيمة كسيلة ومقتله فى معركة ممس :

لم يغن كسيلة مامعه من جمع عظيم ، ولم يغنه كذلك حيطته وحذره فبعد رحيله عن القيروان تقدم إليها زهير ، فعسكر حولها أياما ليريح جيشه من عناء السفر ، وبعد أن جم واستراح استأنف مسيره إلى حيث يعسكر كسيلة فى ممس ، وهناك دارت المعركة ، وكانت معركة قاسية ، يقول ابن عذارى : « فالتقى الجمعان والتحم القتال بين الفريقين ، ونزل الضر وكثر القتل فى الفريقين ، حتى يئس الناس من الحياة ، فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل ومضى الناس فى طلب البربر والروم ، فلحقوا لكثيرا منهم وقتلوهم ، وجدوا فى طلبهم إلى وادى ملوية بالغرب ، ففى تلك الموقعة ذهب رجال الروم والبربر المشركين ، وقتل ملوكهم وأشرافهم ، ثم انصرف زهير إلى القيروان »(٢٠٨) .

وهكذا انتصر جند الله على أعدائه وانتقموا لاستشهاد عقبة وأصحابه ، وكان لموقعة ممس من الأثر السيىء فى نفوس الروم والبربر ، ماكان لمعركة تهوذه فى نفوس المسلمين ، فتا فى الأعضاد وإثارة للرعب(٢٠٩) .

استشهاد زهير بن قيس :

طريق الجهاد مفروش دائما بأجساد الأبطال ، وأرضه مروية بدمائهم الطاهرة الزكية ، فلم يتحقق هدف نبيل قط بدون تضحيات كبيرة ، فكما

---

(٢٠٧) انظر بن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٣٢ ، وانظر كذلك ابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ١٠٨ — ١٠٩

(٢٠٨) البيان المغرب جـ ١ ص ٣٢ ، وانظر كذلك ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ١٠٩ ، محمد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير جـ٢ ص ٦٣ ، والدكتور حسين مؤنس — فتح العرب للمغرب ص ٢٢٣

(٢٠٩) د. شكرى فيصل — حركة الفتح الإسلامى ص ١٧٢.

كتب على زهير بن قيس أن يرافق البطل الشهيد ، عقبة بن نافع فى جهاده ، وغزواته لإعلاء كلمة الله ، فقد كتب عليه أيضا أن يرافقه فى مصيره وأن ينال مثله شرف الشهادة فى سبيل الله ، فهذا الرجل لم يكن يعمل للدنيا ، ولا لتحقيق مجد شخصى ، وإنما كان يعمل من اجل العقيدة والمثل العليا التى جاء بها الإسلام الحنيف لتحرير الشعوب من الوثنية والظلم والاستعباد ، فلو كان زهير بن قيس يعمل للدنيا والمجد لطاب له المقام بالقيروان ، بعد نصره العظيم ، على كسيلة وجيشه ، ولكنه ترك ذلك كله ، وعاد ليواصل جهاده فى سبيل الله ، يقول ابن عذارى : « ثم إن زهيرا رأى بإفريقية ملكا عظيما ، فأبى أن يقيم بها ، وقال : إنى ماقدمت إلا للجهاد ، وأخاف أن تميل بى إلى الدنيا فأهلك ، وكان من رؤساء العابدين ، وكبراء الزاهدين فترك القيروان آمنة وانصرف عنها وأقام بها كثير من أصحابه(٢١٠) » .

كان الروم أثناء توجه زهير إلى حرب كسيلة ، قد أغاروا على برقة فقتلوا كثيرا من المسلمين ونهبوا وسبوا ، ووافق ذلك قدوم عسكر زهير إلى برقة من إفريقية ، فأخبر بخبرهم ، فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعا أن يدرك سبى المسلمين فيستنقذهم ، فأشرف على الروم وإذاهم فى خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه النزول فنزلوا ، وكانوا أشراف العابدين ، ورؤساء العرب المجاهدين ، وأكثرهم من التابعين ، فنزل الروم إليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال ، وتكاثرت عليهم الروم فقتل زهير — رضه — وأشراف من كان معه من العرب ، ومضى المسلمون إلى دمشق ، فدخلوا على عبد الملك بن مروان ، فأخبروه أن أميرهم وأشراف رجالهم قد استشهدوا ، فعظم ذلك عليه ، لفضل زهير ودينه ، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة قبله ، فاجتمع أشراف العرب ، وسألوا عبد الملك أن ينظر لإفريقية من يسد ثغرها ، ويصلح

(٢١٠) البيان المغرب ج ١ ص ٣٢ — ٣٣ وانظر كذلك ابن الاثير — الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ١٠٩

أمرها ، فقال لهم عبدالملك : ماأرى أحدا كفؤا لإفريقية كحسان بن النعمان(٢١١) .

وهكذا مضى بطل آخر من أبطال المسلمين إلى جوار ربه شهيدا ، بعد أن أدى واجبه على أكمل وأفضل مايؤدي المجاهدون فى سبيل الله ، وكما كان استشهاد عقبة حافزا للدولة على مزيد من الاهتمام بأمر إفريقية ، حيث أرسل عبد الملك زهيرا لتأديب البربر والروم معا ، كان كذلك استشهاد زهير حافزا لعبد الملك على توجيه اهتمام أكبر نحو إفريقية ، فعبد الملك رجل لم يكن يعرف اليأس إلى نفسه سبيلا ، فصمم على القضاء على نفوذ الروم فى الشمال الإفريقى كله قضاء مبرما ، فهم رأس الحية وبيت الداء، فإذا قضى عليهم فيسنفتح الطريق أمام البربر ليتعرفوا أكثر فأكثر على حقيقة الإسلام ، وأهداف المسلمين ، وسيدخلون فى دين الله ، ويصبحون من المجاهدين فى سبيله ، وقد تحقق ذلك كله فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد .

مرحلة حسان بن النعمان الغسانى(٢١٢) :

أقلق استشهاد زهير بن قيس عبد الملك بن مروان وأحزنه ، ولكنه من ناحية ثانية شد انتباهه اكثر إلى جبهة إفريقية فأدرك أن الروم قد ألقوا بثقلهم هناك ، لعلهم يعوضون الهزائم التى حلت بهم فى المشرق ، ويبدو أنهم قد عقدوا العزم على إجلاء المسلمين عن إفريقية ، ولكنهم كانوا واهمين، فإذا كان على أحد أن يرحل عن إفريقية ، بل عن الشمال الإفريقى كله ، فهم الروم أنفسهم ، فصمم عبد الملك على طردهم نهائيا من هناك ، كما طردهم أسلافه العظام من الشام ومصر .

ووقع اختياره على رجل كفء ، من كبار المجاهدين الفاتحين ، ليقود المسلمين لفتح الشمال الإفريقى ، ويلقن الروم درسا لن ينسوه أبدا ،

(٢١١) ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٣٣ — وانظر كذلك ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ١٠٩ — ١١٠

(٢١٢) انظر ترجمته فى سير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٤ ص ١٤٠ ، ٢٩٤ — والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ ١ ص ٢٠٠

ذلك الرجل هو حسان بن النعمان الغسانى ، لم يكن فى استطاعة عبدالملك أن يرسل جيشه إلى إفريقية على وجه السرعة ، لانشغاله بامر ابن الزبير ، فلما انتهت حركته وقتل سنة ٧٣ هـ . كان أول ما اهتم به عبد الملك امر إفريقية ، يقول ابن الأثير : « فلما قتل ابن الزبير واجتمع المسلمون عليه ، جهز جيشا كثيرا ، واستعمل عليهم ، وعلى إفريقية حسان بن النعمان الغسانى ، وسيرهم إليها فى هذه السنة — ٧٤ هـ — فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله »(٢١٣) .

توجه حسان إلى إفريقية ، فوصل إلى طرابلس ، وتجمع إليه بها من كان خرج من إفريقية فقاد جيشه ، ففتح كثيرا من البلاد وأصاب غنائم كثيرة(٢١٤) ، ثم توجه بعد ذلك إلى قرطاجنة ، وهى عاصمة إفريقية البيزنطية ،والتى كان أبو المهاجر قد حاصرها ، ولم يقدر على فتحها ولكن حسان صمم على الاستيلاء عليها وتخريبها ، وكان بقرطاجنة من الروم والبربر خلق عظيم ، لا يحصى كثرة ، على حد تعبير ابن الأثير وابن عذارى(٢١٥) . ولكن حسان هزم هذه الجموع الكثيرة ، وقتل منهم اعدادا كبيرة ، « فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب ، فركبوا فى مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الاندلس ، ودخلها حسان بالسيف ، فسبى وقتلهم قتلا ذريعا وأرسل الجيوش فيما حولها ، فأسرعوا إليه خوفا ، فأمرهم فهدموامن قرطاجنة ماقدروا عليه»(٢١٦) ، بعد الذى صنعه حسان بقرطاجنة ، بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له فى صطفورة(٢١٧)

---

(٢١٣) الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٣٦٩

(٢١٤) ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٥

(٢١٥) الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٣٦٩ — والبيان المغرب جـ ١ ص ٣٤

(٢١٦) ابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٦٩ ، وابن عذارى — المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤ — ٣٥

(٢١٧) صطفورة : يقول ياقوت معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٠٥ بلدة من نواحى إفريقية .

وبنزرت »(٢١٨) « فسار إليهم وقاتلهم ، ولقى منهم شدة وقوة ، فصبر لهم المسلمون ، فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ، ولم يترك حسان موضعا من بلادهم إلا وطئه ، وخافه أهل إفريقية خوفا شديدا ، ولجأ المنهزمون من الروم إلى باجة(٢١٩) فتحصنوا بهـــا ، وتحصن البربر بمدينة بونه(٢٢٠) ، فعاد حســـان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت فى أصحابه ، فأقام بها حتى صحوا »(٢٢١) .

حسان بن النعمان والكاهنة :

بعد هذه الجولة الأولى التى قام بها حسان بن النعمان ، والتى وصل فيها إلى قرطاجنة،— دار ملك الروم بإفريقية — ودمرها وخافه الروم فلجأوا إلى باجه ، وخافه البربر ، فلجأوا إلى بونة ، « ولم يذكر المؤرخون أنه وجد مقاومة ، أو تنمرت له إحـــدى تلك المدن — قابس ونفزاوة ، وقسطيلية وقفصة — فترك عماله فى تلك النواحى ، فســـار إلى القيروان »(٢٢٢) ليستريح ويريح جنده ، وفى الفترة التى تلت استشهادزهير بن قيس حوالى سنة ٧٠ هـ — إلى مجيىء حسان إلى إفريقية سنة ٧٤هـ . كانت زعـــامة المغرب قد آلت بعد مقتل كسيلة سنة٦٩هـ على يد زهير بن قيس إلى امرأة بربرية من قبيلة جراوة البترية ، إسمهاالكاهنة ، وسميت الكاهنة لأنها كانت

---

(٢١٨) بنزرت — بفتح الزاى وسكون الراء — مدينة بإفريقية بينها وبين تونس يومـــان ، وهى من نواحى صطفورة ، مشرفة على البحـــر ، ياقوت — معجم البلدان جـ ١ ص ٤٩٩

(٢١٩) باجة : يقول يقوت فى معجم البلدان جـ ١ ص ٣١٤ هناك خمسة مواضع تسمى باجة ، منها باجة الأندلس ، وباجة هذه التى نتحدث عنها « بلد بإفريقية تعرف بباجة القمح سميت بذلك لكثرة حنطتها ، بينها وبين تنس يومان .

(٢٢٠) بونه — بالضم ثم السكون ، مدينة بإفريقية بين مرسى الخرز وجزيرة بنى مزغناى وهى على البحر ، ياقوت — معجم البلدان جـ ١ ص ٥١٢.

(٢٢١) ابن الأثير — المصدر السابق جـ٤ ص ٣٧٠ وابن عذارى — المصدر السابق جـ ١ ص ٣٥

(٢٢٢) محمد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ ص ٧٠

تدعى علم ما غاب عن الناس، وتخبرهم بأشياء من الغيب(٢٢٣) ، ولما استراح حسان وجم جنده ، قال للناس «دلونى على من بقى من ملوك إفريقية»(٢٢٤) فدلوه عليها وقالوا له: إنها اعتصمت بجبال أوراس(٢٢٥)، « وإن قتلتها لم يختلف البربر بعدها عليك »(٢٢٦) ، استفحل أمر الكاهنة ، فأصبحت أبرز واهم شخصية بربرية فى المغرب ، يقول ابن عذارى : « وجميع من بإفريقيا من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون »(٢٢٧) وهذا تعبير بليغ عما بلغته الكاهنة من سلطان . ولما كان حسان قد جاء للإجهاز على كل قوة تعوق المسلمين عن تحقيق أهدافهم ، كان لابد أن يسير إلى هذه الكاهنة للقضاء عليها حتى يدين له البربر ، ولايختلفون عليه . ولكن يبدو أن قوات الكاهنة كانت ضخمة ، ولعل حسان لم يقدر قوتها حق قدرها لأنها الحقت به هزيمة فادحة ، فى أول معركة نشبت بينهما ، وهى معركة وادى مسكيانة بالقرب من قصر نينى ، وقد سمى المسلمون وادى مسكيانة ، وادى البلاء ، ويوم المعركة يوم البلاء(٢٢٨) ، لشدة مالقوا ولكثرة ما قتل وأسر منهم

ومما يدل على جسامة الهزيمة التى حلت بحسان وجيشه أنه انسحب من إفريقية كلها وعاد إلى برقة(٢٢٩) « وكتب إلى عبد الملك يعلمه بالحال فأمره عبد الملك بالمقام إلى أن يأتيه أمره ، فأقام بعمل برقة خمس سنين »(٢٣٠)

---

(٢٢٣) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٣٧٠
(٢٢٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٠
(٢٢٥) يقول ياقوت فى معجم البلدان ج ١ ص ٢٧٨ : أوراس بالسين المهملة جبل بأرض إفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر .
(٢٢٦) ابن الأثير — المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٠
(٢٢٧) البيان المغرب ج ١ ص ٣٥
(٢٢٧) البيان المغرب ج ١ ص ٣٥
(٢٢٨) محمد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٨٠
(٢٢٩) ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٥
(٢٣٠) ابن الأثير المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٠

الجولة الثانية بين حسان والكاهنة وقضاؤه عليها :

كان من الطبيعى أن يشتد أمر الكاهنة ويقوى بعد هزيمة حسان فى وادى مسكيانة وهو على رأس جيش كبير ، قدر بأربعين ألفا(٢٣١) ، فقد سيطرت على المغرب كله ، ولكن ربما يكون هذا النصر قد ولد لديها إحساسا كبيرا بالغرور،فأساءت السيرة فى أهلها — الذين كانوا يحبونها ويطيعونها — وظلمتهم وعسفت بهم(٢٣٢)،مما كان له أثر فى وضع حد لنهايتها،أما حسان فقد بقى فى برقة مترقبا وصول الأوامر والإمدادات من الخليفة عبد الملك ابن مروان ، وقد طال انتظاره حوالى خمس سنوات ، ويبدو أن عبد الملك آثر هذا الانتظار حتى يفرغ من مشاغل ومشاكل المشرق ، ويستطيع تدبير قوات كافية تقضى نهائيا على هذه الزعيمة البربرية ، ومع فداحة الهزيمة التى حلت بحسان ، إلا أن عبد الملك لم يجزع لها ، لأن أحداث المغرب كانت قدعلمت المسلمين أن طبيعة الحرب هناك لا تدعو لليأس ، بل تحتاج إلى الصبر فما أكثر دخول المسلمين هذه البلاد ، وما أكثر خروجهم منها ولكنهم كانوا فى كل مرة يزدادون جرأة عليها ، وتمكنا منهـا ، وسنرى أن الفترة الثانية من عمل حسان ستثبت ذلك وتمكن له من هذه البلاد(٢٣٣) .

بقى حسان فى برقة ينتظر مدد أمير المؤمنين عبد الملك بنمروان ليسير إلى الكاهنة ، ليثأر لهزيمته منها ، فلما واتت عبد الملك الفرصة أرسل إليه الجنود والأموال(٢٣٤) ، وكان حسان أثناء إقامته فى برقة يعرف أخبـار الكاهنة من أحد رجاله الذين وقعوا فى أسرها ، وهو خالد بن يزيد فقد كتب إليه أن البربر تفرقوا عنها لإساءتها السيرة فيهم ، فقد خربت البلاد وأحرقت الزروع والأشجار وطلب منه الإسراع فى المسير إليها(٢٣٥) ، وعندما توجه حسان إليها تأكد له صدق ما كتب به إليه خالد ، فقد استقبله الروم والبربر

---

(٢٣١) محمد على دبوز — المرجع السابق جـ ٢ ص ٧٩
(٢٣٢) ابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٧٠ — ٣٧١
(٢٣٣) د. شكرى فيصل — حركة الفتح الإسلامى ص ١٧٥
(٢٣٤) انظـر ابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٧١ — وابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٣٧
(٢٣٥) ابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٧١

مستغيثين به منها ، وقدموا له الأموال والطاعة فسره ذلك(٢٣٦) ، واستطاع أن يسترد قابس وقفصة وقسطيلية ، ونفزاوة فى سهولة وكلما تقدم يزداد قوة ، وتزداد الكاهنة ضعفا بتفرق أصحابها عنها إلى الأندلس وغيرها ، وأخيرا دارت المعركة الفاصلة بينهما عند مكان يسمى بئر الكاهنة(٢٣٧) ، فدارت الدائرة عليها وهزم جيشها هزيمة منكرة ولقيت هى حتفها فى المعركة، وانتهى أمر هـــذه الكاهنة التى استبدت وظلمت ، وكان لسوء سيرتها فى أهلها أثر كبير فى هزيمتها ، وبعد المعركة جاء البربر إلى حسان مستأمنين « فامنهم وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشرالفا يجاهدون العدو ، فأجـــابوه إلى ذلك ، فجعل على هـــذا العسكر ابنى الكاهنة ، ثم فشا الإسلام فى البربر وعاد حسان إلى القيروان .. واقام لا ينازعه أحـــد »(٢٣٨) .

كان نصر حسان بن النعمان على الكاهنة هذه المرة حاسما فى تاريخ المغرب كله ، حيث توالت الانتصارات ، وشهد المسلمون فى إفريقيا بعد مقتل الكاهنة وجلاء الروم أولى فترات الاستقرار المتصلة ، فلم يغادروا هذه الأرض بعد تلك الموقعـــة وإنما انطلقـــوا منها لإخضاع ماتبقى من المغرب ، كماسيأتى بعد ، وسينفذون من هناك إلىالأندلس ، وسيكون لهم فى هذا الجزء من العالم تاريخ حى »(٢٣٩) .

حسان وتنظيم المغرب :

لم يقض حسان على مقاومة البربر العتيدة ، وعلى زعيمتهم الكاهنة فقط ، ولم يكن انتصاره عسكريا فحسب ، وإنما شرع فى وضع سياسة للمغرب تنتهى بأهله إلى اعتناق الإسلام ، ليستمتعو بهدايته وليكونوا قوة تجاهد فى سبيله،بعد ان كانوا يقاومونه،وآية هذه السياسة انه أمن البربر

---

(٢٣٦) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٧١
(٢٣٧) ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٦
(٢٣٨) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ — جـ ٤ ص ٣٧٢ — وابن عذارى البيان المغرب — جـ ١ ص ٣٨
(٢٣٩) د. شكري فيصل — حركة الفتح الإسلامى ص ١٧٦

وجعلهم ينضمون إلى جيوش الإسلام وعهد إلى ولدى الكاهنة بالقيادة ، حيث جعل كل واحد منهما على ستة آلاف جندى من قومهم ، الذين أسلموا عن طواعية واختيار وأخرجهم مع العرب يجولون فى المغرب يقاتلون الروم ، ومن كفر من البربر وانصرف حسان إلى القيروان بعد ما حسن إسلام البربر، وخلصت له طاعتهم ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٨٢ هـ(٢٤٠) .

كان عمل حسان إذن أكثر من نصر عسكرى ، فقـد عمل على تنظيم البلاد وتدوين الدواوين ، وإنشاء المدن ، فأسس مدينة تونس ، وأنشاء دارا لصناعة السفنوعلى الجملة فقد أخذالرجل يتفرغ للإدارةوالتنظيم والتعمير ولكنه لم يطل به الزمن ليكمل مهمته الحضارية فقد عزله والى مصر عبد العزيز ابن مروان ، وتولى مكانه بطل آخر من أبطـال المسلمين ليكمل مهمته وهو موسى بن نصير .

مرحلة موسى بن نصير(٢٤١) :

لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه ، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتولية موسى بن نصير فى سنة ٨٥ هـ . قبيل وفاة عبد العزيز ابن مروان ، الذى ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى(٢٤٢) ، ويفهم من كلام ابن عذارى أن عبد العزيز بن مروان قد عزل حسانا وولى موسى بن نصير دون الرجوع إلى أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان حيث يقول : « وكان عبد الملك بن مروان أراد أن يخلع أخاه عن مصر فى هذه السنة ٨٥ هـ على ما فعل من عزل حسان بن النعمان .. فنهاه قبيصه بن

---

(٢٤٠) ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٢٨ والمالكى رياض النفوس جـ ١ ص ٣٦

(٢٤١) انظر ترجمته فى سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤٨٦ — ٥٠٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ١٧١ ، والبيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٤٦ ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ ١ ص ٢٣٥

(٢٤٢) انظر الكندى — الولاة والقضاة ص ٥٢ — ٥٣

ذؤيب ، وقال : لعل الموت يأتيه فتستريح منه .. وكانت وفاة عبد العزيز في جمادى الأول من السنة المؤرخة »(٢٤٣) وهي سنة ٨٥ هـ .

وكيفما كان الأمر فقد ولي موسى بن نصير المغرب بعد حسان بن النعمان وقدر له أن يقوم بدور هام في تاريخ هذا الجزء من العالم الإسلامي . حيث جنى ثمار جهود القادة الذين سبقوه ، فاستكمل فتح المغرب ، ثم ارتبط إسمه هو ومولاه طارق بن زياد بفتح الاندلس . وعندما قدم موسى بن نصير المغرب خطب في المسلمين خطبة حماسية(٢٤٤) ، بث بها فيهم روح الجد وحثهم على التضحية والفداء في سبيل الله ووضح عزمه الاكيد على استكمال فتح المغرب .

وقد بدأ عمله على الفور ، ففي أواخر سنة ٨٥ هـ . وهي السنة التي تولى فيها ، استهل أعماله بالاستيلاء على قلعة زغوان(٢٤٥) . وهي منطقة جبلية بين القيروان وتونس ، ثم بعث ابنه عبد الرحمن إلى نواحي القيروان وبعث أحد قواده وهو عياش بن أخيل إلى قبائل هوارة وزناته وكتامة(٢٤٦)، ثم غزا صنهاجة وسجومة في المغرب الأوسط ثم وجه ابنه مروان إلى السوس الاقصى ، وكان ملك السوس يومئذ يسمى مزدانة ، فالتقى به مروان بن موسى وهزمه وقتل جنوده ، قتل الفناء على حد تعبير صاحب الإمامة والسياسة(٢٤٧) ، وكانت تلك الغزوة استئصالا لمقاومة أهل السوس ، ثم واصل غزواته وفتوحاته وتوج ذلك بالإستيلاء على مدينة طنجة ، وولى عليها مولاه طارق بن زياد ، وترك معه سبعة عشرة رجلا يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام(٢٤٨) ، وعلى وجه الإجمال فقد أخضع موسى ابن نصير المغرب كله ، ولم تستعص عليه إلا مدينة سبتة الساحلية ،

---

(٢٤٣) البيان المغرب جـ ١ ص ٤١

(٢٤٤) أنظر الخطبة بكاملها في الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة جـ ٢ ص ٥١

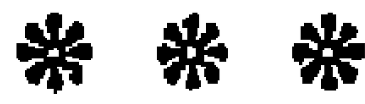
(٢٤٥) ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٤٠

(٢٤٦) المصدر السابق جـ ١ ص ٤١

(٢٤٧) جـ ٢ ص ٥٨ — ٥٩

(٢٤٨) ابن عذارى — المصدر السابق جـ ١ ص ٤٢

لمناعتها ، ولأن الإمدادات كانت تأتيها من البحر(٢٤٩) . ولم تقتصر غزوات موسى بن نصير على المناطق البرية فى المغرب ، وإنما قام بعـــدة غزوات بحرية على الجزر الواقعة فى البحر المتوسط قبالة الشواطىء الإفريقية من ذلك غزوته لصقلية فى أوائل سنة ٨٦ هـ ، والتى غنم فيها غنائم كبيرة ، ثم عقد لعياش بن أخيل لواء حملة بحرية غزا فيها جزيرة سرقوسة ، ثم غزا عبد الله بن مرة جزيرة سردانية(٢٥٠) ، هذا النشاط البحرى الذى قام به موسى بن نصـــير يدل على وعى كامل بالخطر الذى لازال الروم يمثـــلونه بالنسبة للمسلمين ، فقـــد أراد بذلك أن يمنع إغاراتهم وإغـــارات حلفائهم القوط على السواحل الإسلامية ، كما أنه من المحتمل جدا أن تكون هـــذه الغزوات البحرية التى قام بها موسى بن نصير لتمهيد الطريق لفتح الأندلس .



(٢٤٩) د. السيد عبد العزيز سالم — المغرب الكبيرة جـ ٢ ص ٢٥٧

(٢٥٠) انظر فتوحات موسى بن نصير وغزواته البرية والبحرية فى المغرب — ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٧ ، والبلاذرى — فتوح البلدان ص ٢٧٢ — الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة جـ ٢ ص ٥٤ ومـــا بعـــدها . ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٤٢ وما بعـــدها ود. السيد عبد العزيز سالم — المغرب الكبير جـ ٢ ص٢٥٤ ومابعدها ومحمد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ ص ١٢٨ وما بعدها .

فتــح الأندلــس

يطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون — قديما — كلمة الأندلس على شبه جــزيرة أيبريا(٢٥١) ، والتى تضم فى الوقت الحاضر دولتى اسبانيا والبرتغال ، ولكن كلمة الأندلس فى المدلول الجغرافى الحديث تطلق على الولاية الجنوبة من أسبانيا الواقعة بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وبين ولاية مرســية ، وأشبيلية(٢٥٢) . ويعلل ابن الأثير تســمية الأندلس ، فيقول : « قالوا أول من سكنها قوم يعرفون بالأندلش بشين معجمة ، فسمى البلد بهم ، ثم عرب بعد ذلك بسين مهملة والنصارى يسمون الأندلس ، اشبانية باسمرجل صلب بها يقال لهاسبانش ، ويقالباسم ملك كان بها فى الزمان الأول اسمــه اشــبان بن طيطس ، وهــذا هو اسمــه عنــد بطليموس »(٣٥٣) ، وهناك تفاصيل كثيرة عن أصل التسمية ومدلولاتها لا نرى داعيــا للإطالة فيها ، فالذى يعنينا من أمر الأندلس أكثر من غيره أوضاعها السياســية والاجتماعية الدينية قبيــل الفتح الإســلامى ، ثم الاسباب التى دعت المسلمين إلى فتحها .

أولا : الناحية السياسية :

كانت الأندلس — أو شبه جزيرة أيبريا — منذ القرن الخامس الميلادى تحت حكم القوط الغربيين ، والقوط من القبــائل البربرية التى هبطت من شمال أوربا(٢٥٤) ، وأخذت تعيث فسادا فى أراضى وممتلكات الإمبراطورية

---

(٢٥١) انظر معجم البلدان لياقوت — جـ ١ ص ٢٦٢ وما بعدها تحت كلمة الأندلس .

(٢٥٢) انظر — كتاب بين الإسلام والمسيحية لأبى عبيدة الخزرجى هامش ص ٨ تحقيق د. محمد شامة .

(٣٥٣) الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٥٦ — ٥٥٧ وانظر كذلك ابن خــلدون — العبر جـ ٢ ص ٢٣٥ وانظر فى وصف الأندلس وجغرافيتهــا وتاريخها من بدايته حتى الفتح الإسلامى — ابن عذارى — البيان المغرب جـ ٢ ص ١ وما بعدها .

(٢٥٤) د. سعيد عبد الفتاح عاشــور — أوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ٦٩

الرومانية ، وبعد حروب طويلة معها ، طرأت ظروف جديدة جعلتهم يطلبون الدخول فى طاعة الإمبراطورية ، من تلك الظروف زحف الهون من الشرق وضغطهم على القوط وهزيمتهم(٢٥٥)،فانقسموا قسمين ، قوط شرقيون ، أذعنوا للهون ، وانضووا تحت جناحهم ، وقوط غربيون لم يجدوا لهم ملاذا سوى أن يطلبوا من الإمبراطور الرومانى فالنز ٣٦٤ — ٣٧٨ م الدخول فى طاعته فقبل منهم ولكنهم لم يكونوا قد تخلصوا من بداوتهم ، فكانوا كثيرى الشغب والثورات على الدولة ، وفى عهد الإمبراطور هونوريوس ٣٩٥ — ٤٢٣ م قاموا بأكبر ثوارتهم ضد الإمبراطورية بقيادة زعيمهم الاريك ، وخربوا تراقيا واليونان ، وفى سنة ٤١٠ م استولوا على روما ونهبوها(٢٥٦) . ولكن بعد وفاة زعيمهم الاريك اضطروا لعقد الصلح من جديد مع الإمبراطورية واندمجوا فى جيوشها ، واشتركوا فى قمع الثورات التى هبت فى وجهها فى غاليا — جنوب فرنسا — وشمال أسبانيا ، ثم استقروا فى وسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهرى الجارون واللوار ، واتخذوا مدينة تولوز عاصمة لهم ، وهكذا قامت للقوط دولة ، ولكن فى نطاق التبعية للدولة الرومانية ، واستمر القوط الغربيون على ولائهم لها ، فعاونوها فى محاربة الوندال ، الذين كانوا قد استقروا فى شبه جزيرة أيبريا ، وكان تيودريك الثانى زعيم القوط — وهو ابن الاريك — قد اشترط على الدولة الرومانية أن يحتفظ لنفسه ولعقبه بما يفتحه من أسبانيا ، فاستطاع أن يطرد الوندال منها إلى شمال إفريقيا فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى، ولم تأت نهاية ذلك القرن حتى كان القوط الغربيون قد ملكوا شبه الجزيرة الأيبيرية كلها، واتخذوا مدينة طليطلة عاصمة لهم ، ووضعوا لدولتهم الجديدة نظما وقوانين خاصة بهم ، ولكنها متأثرة بروح النظم والحضارة الرومانية ، كما أنهم قد اعتنقوا المسيحية ، واستمر حكمهم لشبه جزيرة ايبريا حتى الفتح الإسلامى ، وقبيل دخول المسلمين الأندلس كانت الأوضاع السياسية فيها قد تدهورت وسادها الاضطراب بسبب الصراع على العرش بعد وفاة الملك غيطشة سنة ٧٠٨ م بين ابنه قارله وبين رذريق الذى نجح فى اغتصاب الملك

(٢٥٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٧٠
(٢٥٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٧٣

بمساعدة بعض النبلاء ورجال الدين ، الأمر الذى أدى إلى إنقسام خطير بين صفوف الجيش والشعب ، فريق يوالى الملك الجديد ، وفريق يوالى الملك المخلوع(٢٥٧) ، ودخلت البلاد فى حـــالة من الفوضى السياسية ، وفقدان الوحدة والنظام ، وجاء المسلمون والبلاد على هذه الحال ، ومن المحتمل أن تكون هذه الأوضاع من الأسباب التى جعلت الملك المخلوع وانصاره يدعون المسلمين لفتح بلادهم .

ثانيا : الوضع الاجتماعى فى الأندلس وقت الفتح الإسلامى :

ساد البلاد تحت حكم القوط ، وضـــع اجتماعى شـــاذ ، حيث قسم المجتمع إلى عدة طبقات :

١ — **طبقة النبلاء :** وهم الأمراء القوط وعلى راسهم الملك ، وهؤلاء كانوا ، يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة ، وينعمون بامتلاك الإقطاعات ، والضياع الواسعة ، ومعظم حكام الأقاليم منهم(٢٥٨) .

٢ — **طبقة رجال الدين :** وهؤلاء استغلوا مركزهم الدينى — لما للدين من سلطان على الناس فى تلك الأزمنة — فاستمتعوا بأكبر قسط من النفوذ والسلطان واصبحوا على درجة كبيرة من الثراء وساعدهم على بلوغ هذه الدرجة أن القوط كانوا متدينين ، يغلب عليهم الميل إلى إرضاء رجال الدين، وقد تمتع الأحبار والرهبان بمركز مرموق لدى الحكام ، مما جعل لهم تاثيرا مكنهم من توجيه القوانين والنظم ، وصياغة الحياة العقلية والاجتماعية وفقا لاتجاه الكنيسة وغاياتها ، وقد استغل رجال الدين هذا النفوذ فى إحراز الضياع،وتكديس الثروات،واقتناء الزراع والأرقاء وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجتمع فى أيدى فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين ، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة ، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار(٢٥٩) د

---

(٢٥٧) انظر د. أحمد مختار العبادى — فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٤

(٢٥٨) أنظر المرجع السابق ص ٥١

(٢٥٩) انظر بين الإسلام والمسيحية لابى عبيدة الخزرجى ص ١١ من مقدمة المحقق ، وانظر : الدعوة إلى الإسلام لتوماس آرنولد ص١٥٤، وما بعدها ود. أحمد مختار العبادى — المرجع السابق ص ٥١

٣ — **طبقة سواد الشعب** : وهــذه الطبقة كانت مكونة من الزراع الذين كانوا شبه أرقاء ، يلحقون بالضياع ، للسيد عليهم حق الحياة والموت وكانت هذا الطبقة ترزح تحت شقاء الحياة وبؤسها ، ويفرض عليها وحدها القيام بالأعمال الشاقة ، ودفع الضرائب والمغارم ، وفوق هذا كله فقد سلبت كل الحقوق المدنية ، وحرمت حتى من الشعور بالعزة والكرامة(٢٦٠)

٤ — **اليهود** : كان بالأندلس جالية كبيرة من اليهود ، وهذه لم تكن تنعم بالحياة الهادئة ، إذ كانت موضع البغض والكراهية ، والتحامل ، بل كان اليهود يعانون أبشع الوان الجور والاضطهاد ، وكانت الكنيسة منذ قوى نفوذها تحاول تنصيرهم وتمارس فى سبيل ذلك أشد أنواع العنف وأقسى طرق المطاردة(٢٦١) .

مما تقدم نرى أن أسبانيا لم تشهد فسادا سياسيا فحسب ، بل كانت أوضاعها الاجتماعية أشد فسادا فلا عجب إذن أن نرى ترحيبا بالمسلمين الفاتحين وبصفة خاصة من الطبقتين الأخيرتين ، وهما طبقة سواد الشعب وطائفة اليهود ، لأن الإســلام خلصهم من الظلم وحررهم من الاســتغلال والاستعباد ، يقول توماس آرنولد — وهو أوربى مسيحى ، ولايمكن أن يتهم بالدفاع عن الإسلام والتحامل على الكنيسة : « واتخذ القسس من وراء هذه القوة التى وصلوا إليها سبيلا لاضطهاد اليهود الذين كانوا طائفة كثيرة العدد فى أسبانيا ، وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من يمتنع عن الدخول فى المسيحية ، وكان من أثر هــذه الاضطهادات أن رحب اليهود بالعرب الغزاة وعدوهم مخلصين لهم ، مما حل بهم من المظالم ، فساعدوهم على فتح أبواب المدن ، كما استعان بهم الفاتحون فى حماية المدن التى وقعت فى أيديهم ، كذلك رحب بالمسلمين هــؤلاء الذين حــل بهم البؤس والشقاء فى عهدالمسيحيين الكاثوليك الذينكانت معرفتهم بأصول المسيحية

---

(٢٦٠) انظر بين الإسلام والمسيحية ص ١٢ ، وتوماس أرنولد — المرجع السابق ص ١٥٥ ، د. أحمد مختار العبادى — المرجع السابق ص ٥٢

(٢٦١) المراجع السابقة على الترتيب وأرقام الصفحات .

سطحية ، إذا ما ووزنت بذلك التسامح الدينى ، وهذه المزايا الكثيرة التى حصلوا عليها بإلقاء زمامهم إلى المسلمين »(٢٦٢) .

ثالثا : الوضع الدينى :

لن نطيل الكلام عن الناحية الدينية فى الأندلس عند الفتح الإسلامى لها ، فكل الشعب تقريبا باستثناء اليهود — كان مسيحيا على المذهب الكاثوليكى ، الذىفرضه رجال الكنيسة فرضا ، وحرمواانتشار أى مذهب آخر غيره فى البلاد ، وبهذا أحكم رجال الدين الكاثوليك قبضتهم على الناس المتدينين البسطاء واستطاعوا بنفوذهم الطاغى استصدار قانون « يحرم على كل شخص أن يتطرق إلى ذهنهأى شك فى الكنيسة الكاثوليكية المقدسة وفى النظم الإنجيلية وتفاسير الآباء الروحيين ، والمراسم الكنسية والقرابين المقدسة » ، وقد كسب رجال الدين لطائفتهم نفوذا راجحا فى شئون الدولة ، وكان الأساقفة وكبار رجال الدين يحضرون المجالس الوطنية التى كانت تجتمع لإقرار الشئون العامة فى الدولة ، والمصادقة على انتخاب الملك وادعت لنفسها الحق فى عزله إذا أبى الإذعان لقراراتهم(٢٦٣) .

دوافع المسلمين لفتح الأندلس :

هذا هو الوضع فى الأندلس ، — من جميع نواحيه السياسية والاجتماعية والدينية — فى الوقت الذى كان العرب المسلمون قد أتموافتح الشمالى الإفريقى كله ، وأصبحت لهم السيادة على الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط ، قبالة الأندلس ، عدا مدينة سبتة ، التى ربما كان عدم الإستيلاء عليها مقصودا وباتفاق مع حاكمها القوطى يوليان ، الذى كان له دور لاينكر فى فتح الأندلس ، ومساعدة المسلمين على نجاح مشروعهم لفتحها ، فالمجتمع طبقى فيه تمايز كبير بين الطبقات وفيه ظلم ، ونظامه السياسى فاسد(٢٦٤) ، وغير متماسك ، وحياته الدينية أشد

---

(٢٦٢) الدعوة إلى الإسلام ص ١٥٤ — ١٥٥

(٢٦٣) المرجع السابق ص ١٥٤

(٢٦٤) أنظر جاك . ريسلر — الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون ص ٤١ . والدكتور أحمد مختار العبادى — فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٤

فساداً وظلماً ، والحياة كلها يسودها التذمر والشعور بالظلم وعدم الثقة أو الانسجام بين الحاكمين والمحكومين ، ومجتمع هذا شأنه لايستطيع الصمود أمام أية قوة غازية ، ولكن ما شأن هذا كله بالإسلام والمسلمين ، أو بمعنى آخر ، هل كانت هذه الأوضاع السيئة التى يعيشها الشعب فى لأندلس هى التى دعت المسلمين لفتحها ؟ وتخليصه من الظلم والفوضى ؟ . وفى الإجابة على ذلك نذكر أن المؤرخين الأوربين متفقون على أن الوضع فى الأندلس كان فى غاية الفساد والظلم من جميع نواحيه وأن المنصفين منهم يرون أن الفتح الإسلامى لهذه البلاد كان خيراً وبركة على السواد الأعظم من الشعب ، الذين رحبوا بالمسلمين الفاتحين(٢٦٥) . وأن اسبانيا تحت الحكم الإسلامى أصبحت هى البقعة الوحيدة المضيئة فى أوربا فى عصورها الوسطى المظلمة وبعض المؤرخين يذكر صراحة أن المسلمين عبروا المضيق تلبية لنداء وجهه إليهم يوليان حاكم سبته القواطى(٢٦٦) ، نيابة عن سكان الأندلس لتخليصهم من نير الحكم القوطى(٢٦٧) ، لأنه من غير المعقول أن يتحمل بوليان وحده تبعة هده الدعوة التى وجهها للمسلمين لفتح بلاده ، ومن غير المعقول كذلك أن نعول كثيراً على قصة ابنته واعتداء روذريق عليها ، وأن ذلك وحده كان سبب حقده عليه ، مما جعله يستعدى عليه المسلمين ، بل المعقول أن نرجح أن يوليان فى موقعه فى سبته على الشاطىء الإفريقى قد أصبح ملاذاً لكل الحاقدين على حكم روذريق من الشعب الأسبانى ، وبصفة خاصة أولاد الملك المخلوع غيطشه ، الذين اغتصب روذريق ملكهم ، وهذا كله تؤكده وقائع التاريخ ، فإن أبناء غيطشة قد ساروا مع روذريق متظاهرين بالتعاون معه لحرب المسلمين فى أول وأهم معركة حدثت بينه وبينهم ، وهى معركة شذونه لكنهم ما إن نشبت المعركة حتى تخلوا

---

(٢٦٥) انظر — توماس أرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ١٥٥ ، وجاك ريسلر الحضارة العربية ص ٤١

(٢٦٦)ابن عبد الحكم — فتوح مصر — ص ١٣٨ وابن الأثير — الكامل ٤ — ٥٦١

(٢٦٧) بين الاسلام والمسيحية ص ٩

عنه هم وكثيرون غيرهم بغضا له(٢٦٨) . وعلى هذا فإننا لا نجد بأسا من القول بأن المسلمين عبروا المضيق إلى الأندلس وفتحوها لتخليص الشعب من الظلم والطغيان وتحريره من الاستغلال والإذلال ، وهذه مهمة نبيلة يجب أن يقدم الشكر للمسلمين على القيام بها ، ومن المستبعد أن يكون الدافع للمسلمين لفتح الأندلس هو الرغبة فى التوسع لذاته ، لأن المسلمين كان لديهم مايكفيهم من بلاد ، بل كانوا يعتقدون أنهم أصحاب رسالة إنسانية سامية توجب عليهم ألا يتخلوا عن أى شعب يطلب نصرتهم ، ويستغيث بهم ليحرروه من الظلم .

وهناك تفسيرات أخرى لبواعث الفتح يضيفها بعض المؤرخين إلى ما تقدم مثل القول بأن المسلمين أرادوا الانتقام من القوط ، لأنهم كانوا يساعدون الروم فى صراعهم مع المسلمين فى شمال إفريقيا ، وأن أسطولهم اشترك مع الأسطول البيزنطى فى مهاجمة المسلمين(٢٦٩) .

المفاوضات التى سبقت فتح الأندلس :

عبر طارق بن زياد المضيق إلى الأندلس ، على رأس جيشه المكون من سبعة آلاف جندى كان معظمهم من البربر فى شهر رمضان سنة ٩٢ هـ . ولكن كم من الوقت استغرقت المفاوضات والاستعدادات لهذا الفتح العظيم ، منذ عرض يوليان الفكرة على طارق بن زياد الذى نقلها إلى قائده موسى بن نصير وموسى نقلها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ؟ تقول مصادرنا أن يوليان عرض الفكرة ووجه الدعوة للمسلمين منذ سنة ٩٠ هـ(٢٧٠) وهو تاريخ يبدو معقولا ، لأن يوليان — كما أشرنا آنفا — عرض الفكرة على طارق بن زياد الذى كان يلى أمر منطقة

---

(٢٦٨) انظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٥٦١

(٢٦٩) انظر أمير على ، مختصر تاريخ العرب ١١١ ، وسيديو — تاريخ العرب العام ص ١٥٨

(٢٧٠) انظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٥٦١

طنجة(٢٧١) ، وطارق أرسل إلى موسى بن نصير الذى كان بالقيروان(٢٧٢) ، وموسى لم يرد أن يبت فى أمر خطير كهذا ، وآثر الرجوع إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك فى دمشق ، فكتب إليه أولا بمضمون مشروع الفتح ، فرد عليه يأمره أن يختبر البلاد بالسرايا الاستطلاعية الصغيرة ليعرف أحوالها لئلا يعرض المسلمين لأهوال البحر ، فرد عليه موسى بأن البحر ليس متسعا فى هذا المكان ولاخوف منه ، يقول ابن الأثير : « فكتب موسى إلى الوليد بما فتح الله عليه ، وما دعاه إليه يوليان ، فكتب إليه الوليد : خضها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال ، فكتب إليه موسى : إنه ليس ببحر متسع ، وإنما هو خليج يبين ما وراءه ، فكتب إليه الوليد : أن اختبرها بالسرايا وإن كان الأمر على ماحكيت »(٢٧٣) فهذه المراسلات والمراجعات المتكررة بين موسى بن نصير والوليد بن عبد الملك تستغرق وقتا طويلا لبعد المسافة بين دمشق مقر الخليفة والقيروان مقر الوالى ، وكل هذا يدل على الحيطة والحذر ، وأن المسلمين لم يكونوا يقدمون على خطوة قبل أن يدرسوها من جميع جوانبها ، ويستكملوا استعداداتهم ليضمنوا لأنفسهم النصر فإن فتح الأندلس مشروع كبير وخطير ، فهو ليس غزوة على منطقة أو مدينة فى شمال إفريقيا ، فلو كان أمره يشبه شيئا من هذا لكان سهلا عليهم ، لأن هذه أرض متصلة وخطوط المواصلات بينها وبين عاصمة الخلافة ممتدة وآمنة ، وإذا اضطر المسلمون إلى التراجع عن منطقة أو مدينة انحازوا إلى غيرها ، فقواعدهم فى الخلف كثيرة وقوية ، أما هذه الخطوة فلابد لها من الاستعداد الكافى ، والوقت الذى أنفقوه فى التفاوض والتشاور والاستعداد بشأنها ليس وقتا ضائعا ، فلأول مرة يقدم المسلمون على فتح قطر كبير فى قارة أوربا ، بينهم وبينه بحر شديد الأهوال على حد تعبير الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وإذا كان موسى بن نصير حاول

(٢٧١) انظر ابن عذارى — البيان المغرب جـ ٢ ص ٤

(٢٧٢) انظر ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٨

(٢٧٣) الكامل فى التاريخ جـ٤ ص٥٦١ ، وانظر أيضا ابن عذارى — المصدر السابق جـ ٢ ص ٥

التقليل من شـأن هـذه الأهـوال فإنه لابد من تأمين جسر بحرى — إن جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير — يربط بين العدوتين الأفريقية والأوروبية على جانبى البحر ، لأن الجيش الإسـلامى الذى سوف يعبره لابد أن يكون على اتصـال دائم بقواعده ومركز قيادته فى شمال إفريقيا ، ولابد أن يكون هذا الاتصال آمنا دائما حتى إذا دعت الضرورة إلى استدعاء مدد يكون ذلك ممكنا وفى الوقت المناسب .

مرحلة الاستطلاع واختبار النوايا :

كان الخليفة الوليد بن عبـد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ حصيفا عندما طلب من موسى بن نصير أن يختبر الأندلس بالسرايا قبل أن يقدم على فتحها ، وقد أفاد موسى بن نصير من موقف الخليفة الحذر هذا إذ جعله يحتاط أكثر فأكثر للأمـر ، وآية ذلك أنه لم يركن إلى يوليان ركونا تاما ، بل وضعه موضع الاختبار ليعرف مدى صـدقه ونصيحته للمسلمين ، فيوليان وإن كان قد عرض الفكرة وأغرى المسلمين بالفتح ،بما شرح من فساد الأحوال فى الأندلس ومن ضعف المقاومـة هنـاك ، فإنه قبل كل شىء رجل قوطى مسيحى ، فلابد من اختبار نواياه ، لئـلا يقع المسلمون فى شرك الخداع والمكر ، لذلك أرسل موسى بن نصير إلى يوليان وصارحه بمخاوفه وشكوكه دون مواربة ، فقال له : « إننا لانشك فى قولك ولانرتاب ، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لايعرفونها ، وبيننا وبينها البحر ، وبينك وبين ملكك روذريق حمية الجاهلية واتفاق الدين ، فجز إليه بنفسك ، وشن الغارات على بلاده ، واقطع مابينك وبينه ، إذ ذاك تطيب النفس عليك ، ونحن من ورائك إن شاء الله ، فانصرف يوليان وحشـد جيوشه وجاز فى مركبين إلى الأندلس ، وشن الغارات على الساحل الجنوبى ، فسبى وقتل وغنم ورجع ، وقد امتلأت أيديهم خيرا ، وشاع الخبر فى كل قطر فتحمس الناس للغزو(٢٧٤) » أثبت يوليان بهذه الحملة صدقه وإخلاصه ، واطمأنت نفس موسى بن نصير بعض الشىء ، ولكن الأمر خطير ، فلابد من زيادة التأكيد ،

---

(٢٧٤) انظر د . أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٤ — ١٥ نقلا عن كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء لابن الكردبوس

وليتثبت من صـــدق التقارير التى رفعها إليه يوليان ، فقــد أرسل حملة إسلامية مستقلة على رأســـها طريف بن مالك التى يقول عنها ابن الأثير : « فبعث موسى بن نصير رجلا من مواليه يقال له طريف فى أربعمائة رجل ومعهم مائة فارس ، فسار فى أربعة سفائن فخرج فى جــزيرة بالأندلس فسميت جزيرة طريف ، لنزوله فيهـــا ، ثم أغار على الجزيرة الخضراء ، فأصاب غنائم كثيرة ، ورجع سالما فى رمضان ســـنة إحدى وتسعين فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الغزو(٢٧٥)» .

حملة طارق بن زيـــــاد(٢٧٦) :

إلى هنا يمكن القول إن الدراسات والمفاوضات والاستشارات قـــد أخذت حقها ، كما أن الحملات الاستطلاعية التى جاست أرض الأندلس قد نجحت وجاءت تقاريرها مشجعة ، ومن هنا اتخذ القائد الجسور موسى بن نصير قراره على الفور فى تنفيذ خطة الفتح ، وعقـــد لواء القيادة لمولاه البطل طارق بن زياد على سبعة آلاف جندى ، فعبر بهم المضيق ، ونزل على الجبل الذى ارتبط باسمه حتى الآن وهو جبل طارق، وقبل أن نتحدث عن المعركة التى خاضهـــا طارق ضد الملك القوطى روذريق ، ينبغى أن نقول كلمة عن السفن التى اقلت المسلمين إلى الأندلس فهل كانت هـــذه السفن ملكا ليوليان صاحب سبتة ، أو هو الذى دبرها للمسلمين كما يفهم من بعض المصـــادر الإسلامية(٢٧٧) ؟ نحن لانستبعد أن يكون يوليان قد أسهم ببعض السفن لنقل الجنـــد المسلمين إلى الأندلس ، فهـــذا شيىء طبيعى ، ويتفق مع موقفه الذى وضحناه من قبل ، ولكن الذى نستبعده أن يقوم عمل إسلامى كبير له خطورته على سفن مملوكة للغير ، مهما كان أمره ، ونتفق مع الدكتور مختار العبارى فيما ذهب إليه ، من أن الركون

---

(٢٧٥) انظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٦١ .

(٢٧٦) انظر ترجمته فى البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٤٣ ، وسير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٤ ص ٥٠٠ — ٥٠٢ .

(٢٧٧) انظر ابن عذارى — المصدر السابق جـ ٢ ص ٦ .

والاعتماد على سفن يوليان وحدها ، أمر لا يتفق مع الواقع التاريخى ، ولا مع سياسة الدولة الأموية ، فالواقع التاريخى يشهد بأن المسلمين كانت لهم فى شمال إفريقية قوة بحرية كبيرة(٢٧٨) ، وقد تصاعدت هـذه القوة منذ أنشأ حسان بن النعمان الغسانى ٧٤ — ٨٥ هـ دارا لصناعة السفن الحربية فى تونس(٢٧٩) ، وقد قام الأسطول الإسلامى بغزو العـديد من الجزر فى غرب البحر المتوسط مثل جزيرة صقلية وسردينية وسرقوسة ، — كما أشرنا آنفا — وتم ذلك قبل أن يتصل المسلمون بيوليان أو يعرض عليهم مشروعه ، وهذا يدل على أن المسلمين كانوا يمتلكون القوة البحرية الكافية للقيام بمثل هذا العمل الكبير .

أما عن سياسة الدولة الأموية بصفة عامة ، والوليد بن عبد الملك بصفة خاصة فقد كانت تقوم على الحـذر والتأنى والدراسة الجادة قبل القيام بأى عمل كبير من هذا النوع ، وعدم المغامرة بالمسلمين فى البحر ، إلا بعد أخذ كافة الضمانات والاحتياطات التى تكفل سلامتهم ، مثل إنشاء القواعد والأساطيل ، وقد رأينا كيف راجع الخليفة الوليد بن عبدالملك موسى ابن نصير اكثر من مرة بشأن مشروع فتح الأندلس ، وأكد عليه أن يحتاط للأمر وأن يختبر البلاد بالسرايا قبل الإقدام على الفتح ، والرأى الصواب كما يقول الدكتور مختار العبادى : « هو أن موسى بن نصير اعتمد فى فتح اسبانيا على أساطيله الإسلامية التى كانت تحت قيادته ورهن إشـارته على طول الساحل المغربى ، إذ لا يعقل أن تكون أربع سفن فقط كافية لنقل جيش كبير عدته على أقل تقدير سبعة آلاف محارب ، عدا الخيل والعتاد ، كما أنه لا يعقل كذلك أن يعهد موسى إلى شخص أجنبى مهما خلصت نيته بمثل هذه العملية الحربية الكبيرة التى تتوقف عليها سـلامة أرواح آلاف من المسلمين(٢٨٠) » .

---

(٢٧٨) انظر د . سعاد ماهر — البحرية فى مصر الإسلامية ص٨٧ والدكتور حسين مؤنس — فتح العرب للمغرب ص٢٦١ والدكتور ابراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ٢٥٨ .

(٢٧٩) انظر محمد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ ص ١١٥ .

(٢٨٠) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٧ — ١٨ .

وبمناسبة الحديث عن السفن فقد ذكرت بعض المصـــادر أن طارق ابن زياد قد أحرق السفن التى عبر عليها ، بعد نزوله على شاطىء الأندلس، ليقطع على جنوده كل تفكير فى التراجع والارتداد ، وخطب فيهـــم خطبته المشهورة ، التى قال فيها : « أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، فليس ثم والله إلا الصدق والصبر(٢٨١) » .

والحقيقة أن الإنسان إذا كان لايستطيع أن ينفى أو يثبت صحة هذه الواقعة إلا انه يستبعدها من ناحية المنطق والواقع ، فمن غير المعقول أن يقدم قائد عسكرى بارع وحصيف مثل طارق بن زياد على مثل هذا العمل ، لأن المسلمين كانوا فى مسيس الحاجـــة إلى السفن الحربية ، لا من أجل هذا المشروع فحسب ، بل من اجل حماية شواطئهم على سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبيـــة التى ما فتئت تتعرض لهجمـــات الأسطول البيزنطى ، كما أن طارق بن زياد نفسه يعلم أنه لن يستغنى عن طلب مدد يأتيه من شمال إفريقية ، وقد طلب فعلا هذا المـــدد وقبل أن يشتبك مع القوط فى المعركة الحاسمة لما رأى كثرتهم ، وقد ارسل له موسى بن نصير خمسة آلاف جندى بخيولهم وعتادهم(٢٨٢) فكيف كان سيأتيه هذا المدد ، وعلى أى شىء كانت ستعبر هذه القوات لو انه اقدم على إحراق السفن ؟ ثم إن موسى بن نصير نفسه اضطر للعبور إلى الأندلس للمشاركة فى الفتح والاطمئنان على سيره ، وذلك بعد عبور طارق بعام واحد(٢٨٣) ، وقـــد عبر موسى ومعه جيش كبير قـــدره المؤرخون بثمانية عشر ألفا بخيولهم وعتادهم ، فلو كانت السفن قد أحرقت ، فعلى أى شىء عبر موسى بهذه القوات ، لذلك نرى أن قصة إحراق السفن غير جديرة بالتصديق(٢٨٤) .

---

(٢٨١) انظر الخطبة بكاملها فى الإمامة والسياسة المنســـوب لابن قتيبة جـ ٢ ص ٦١ وانظر عن موضوع إحراق السفن د . مختار العبادى ـــ المرجع السابق والمصادر التى ذكرت ذلك واشار هو إليها .

(٢٨٢) انظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٦٢ .

(٢٨٣) انظر ابن عبد الحكم — فتـــوح مصر — ص ١٣٩ ، وابن الأثير المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٦٤ .

(٢٨٤) انظر د . محمد شتا زيتون ـــ المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ص ١٦٣ .

معركة شذونه (سنة ٩٢ هـ)

عبر طارق بن زيـــاد بجيشه الأول — والذى كان قوامه ســبعة آلاف — المضيق واحتل الجبل الذى حمل اسمه حتى اليوم ، ويبدو انه لم يستول على هذا الجبل بسهولة ، لأنه لايعقل أن يكون القوط ظلوا غافلين طوال هذه المدة التى كانت فيهـــا الحملات الإسلامية تطرق بلادهم عن حراسة هذا الجبل الذى يعتبر المدخل الجنوبى لبلادهم ، وإنما يمكن للمرء أن يتصور أن الجبل كان محروسا وأن معركة كبيرة نشبت عنده بين طارق وبين حراسته القوطية(٢٨٥) .

وإذا كانت المصـــادر الإسلامية قد ركزت اهتمامهـــا على المعركة الرئيسية ، وهى معركة شذونة ، ولم تهتم كثيرا بمعركة الجبل ، إلا انها تحدثت عن قتال دار قبل معركة شذونة ، فالراجـــح أن هذا القتال دار عند الجبل ، يقول ابن عبد الحكم : « فلما جاز طارق تلقته جنود قرطبة واجترأوا عليه للذى رأوا من قلة أصحابه ، فاقتتلوا فاشتد قتالهـــم ، ثم انهزموا فلم يزل يقتلهم حتى بلغوا مدينة قرطبة ، وبلغ ذلك روذريق فزحف إليهم من طليطلة ، فالتقوا بموضع يقال له شذونة(٢٨٦) » . لذلك نرى أن طارقا لم يستول على الجبل بدون قتال لأنه لأهميته لم يكن خاليـــا من القوات التى توضع لمقاومة غزو محتمل . وأهمية هذا الجبل لم تغفل عنها أية دولة حكمت الأندلس ، منذ الفينيقيين الذين كانوا أقاموا عليه أبراجا للمراقبة(٢٨٧) ، وكيفما كان الأمر فقـــد لقى طارق مقاومة عنيفة سرعان ما تغلب عليها ، وطارد المقاومين فلاذوا بمدينة قرطبة ، وبقى هو يحصن نفسه فى هذا الموقع الهام لكى يحمى ظهره عند ما يتوجـــه إلى الشمال لخوض المعركة الفاصلة ، ولم تكن معركة جبل طارق هى المعركة الوحيدة

---

(٢٨٥) أنظر د. مختار العبادى — دراسات فى تاريخ المغرب — والأندلس ص ١٩

(٢٨٦) فتوح مصر ص ١٣٩ وانظر كذلك ابن عذارى — البيـــان المغرب جـ ٢ ص ٩ حيث يعتبر أن أول فتوحات طارق فى الأندلس الاستيلاء على الجبل ، ومعنى ذلك أنه حدثت عنده معركة .

(٢٨٧) د. مختار العبادى — المرجع السابق ص ١٩

التى خاضها ضد القوط قبل اللقاء الحاسم مع روذريق فى شذونه ، فابن عذارى يحدثنا عن معارك كثيرة حدثت قبل شذونه ، فيقول : « لما بلغ روذريق خبر طارق ومن معه ، ومكانهم الذى هم فيه بعث إليهم الجيوش ، جيشا بعد جيش ، وكان قد قود على أحدهم ابن أخت له يسمى بنج،وكان اكبر رجاله فكانوا عند كل لقاء يهزمون ويقتلون ، وقتل بنج وهزم عسكره، فقوى المسلمون وركب الرجالة الخيل ، وانتشروا بناحيتهم التى جازوا بها(٢٨٨)» ومعنى هذا أن المسلمين أحكموا سيطرتهم على المنطقة المحيطة بالجبل واتخذوها قاعدة لانطلاقهم .

المعركة الفاصلة :

أين كان روذريق ملك القوط ، عندما كانت تجرى هذه الأحداث الهائلة على أرضه ؟ وبأى شىء كان مشغولا ؟ بحيث لم تنبهه الحملات الاستطلاعية الأولية — حملة يوليان وحملة طريف بن مالك — ولانزول طارق على الجبل واستيلاؤه عليه وعلى ماحوله ، وهزيمته لكل قواته التى أرسلها . تقول المصادر أنه كان مشغولا بقمع ثورة قام بها البشكنس فى الشمال ، وأنه كان قد استخلف أثناء غيابه ملكا أو حاكما من حكام مقاطعاته يقال له تدمير :« فلما بلغ تدمير مكان طارق ومن معه من المسلمين كتب إلى لذريق إنه قد وقع بأرضنا قوم لاندرى أمن السماء نزلوا أم من الأرض نبعوا ؟ فلما بلغ لذريق ذلك أقبل راجعا إلى طارق فى سبعين ألفا(٢٨٩) » ويقول الدكتور العبادى نقلا عن المؤرخ الأسبانى سافدرا SAAVEDRA ومن المحتمل جدا...أن تكون هذه الثورةمفتعلة وبإيعاز من أعداء الملك لشغل أنظاره عنعمليات نزول المسلمين فى أسبانيا(٢٩٠)» فإذا صح هذا — وهو على لسان مؤرخ أسبانى — فإنه يؤكد أن غزو المسلمين للأندلس كان بناء على رغبة أهل البلاد وبطلب منهم ، وأنهم كانوا حريصين على نجاح المسلمين ، ولذلك عمدوا إلى شغل ملكهم حتى لايتمكن

---

(٢٨٨) البيان المغرب جـ ٢ ص ٨ .

(٢٨٩) انظر الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة جـ ٢ ص ٦٠

(٢٩٠) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠

من الدفاع عن بلاده ، وكيفما كان الأمر فقد جاء روذريق يزحف من الشمال على رأس جيش جرار عدته سبعون الفا — كما ذكر صاحب الإمامة والسياسة — أو مائة الف حسب رواية ابن الأثير(٢٩١) ، وكان طارق قد استقبل المدد الذى طلبه من موسى بن نصير، وهو خمسة آلاف جندى ، فتكامل عدد جيشه أثنى عشر الفا ، ومعهم يوليان يدلهم على عورة البلاد ويتجسس لهم الأخبار(٢٩٢) ، والتقى الجيشان على وادى لكة من كورة شذونه ، حيث دارت المعركة الرئيسية والحاسمة فى الوقت نفسه ، وكان ذلك لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢ هـ ، واستمرت ثمانية أيام(٢٩٣) ، وأسفرت عن نصر مؤزر للمسلمين ، وهزم جيش روذريق هزيمة منكرة ، ولقى هو مصرعه فى المعركة ، وقيل غرق فى النهر ، يقول ابن عذارى : « وقتل الله رذريق ومن معه ، وفتح للمسلمين الأندلس ، ولم يعرف لرذريق موضع،ولا وجدت له جثة،وإنما وجد له خف مفضض،فقالوا انه غرق وقالوا أنه قتل ، والله أعلم »(٢٩٤) ، ولا نبالغ إذا قلنا إن معركة شذونة قد قررت مصير الأندلس كلها لصلحة المسلمين ، وكانت شبيهة بمعركة اليرموك التى قررت مصير الشام ، ومعركة القادسية التى قررت مصير العراق ، ومعركة نهاوند التى قررت مصير الإمبراطورية الفارسية كلها .

فبعد انتصار طارق الساحق فى شذونة ، زحف على مدينة إستجة(٢٩٥) ، فاستولى عليها بعد قتال شديد ، وفر القوط — وقد

---

(٢٩١) الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٦٢ .

(٢٩٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٦٢ .

(٢٩٣) انظر ابن عذارى — البيان المغرب جـ ٢ ص ٨ وانظر عن تفاصيل المعركة ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣٩ وابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٦٢ — ٥٦٣ .

(٢٩٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ٨

(٢٩٥) إستجه ، بالكسر ثم السكون وكسر التاء وجيم وهاء إسم لكورة بالأندلس بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ — انظر ياقوت — معجم البلدان جـ ١ ص ١٧٤ .

سيطر الرعب على قلوبهم — إلى طليطلة(٢٩٦) ، وهنا أشار يوليان — كما يقول ابن الأثير — على طارق أن يسير هو إلى طليطلة للإستيلاء عليها وأن يفرق جيوشه إلى المدن الأخرى . ففرق جيوشه من مدينة استجه ، وبعث جيشا إلى قرطبة(٢٩٧) ، وجيشا إلى غرناطة(٢٩٨) ، وجيشا إلى مالقة(٢٩٩) وجيشا إلى تدمير(٣٠٠)، وسار هو ومعظم الجيش إلى جيان(٣٠١) يريد طليطلة ، فلما بلغ طليطلة وجدها خالية ، ولحق من كان بها بمدينة خلف الجبل يقال لها ماية(٣٠٢) » . هذا الانتشار السريع والإستيلاء على المدن والمقاطعات الأندلسية،ووصول طارق إلىطليطلة — عاصمة مملكة القوط — ووجودها خالية ودخولها بدون قتال ، كل هذا يصور مدى ماوصلت إليه الروح المعنوية عند القوط بعد معركة شذونه ، ويؤكد ماقلناه من أنها كانت معركة حاسمة .

---

(٢٩٦) طليطلة ، يقول ياقوت جـ ٤ ص ٣٩ — ٤٠ ضبطه الحميدى بضم الطائين وفتح اللامين ، وأكثر ماسمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية مدينة كبيرة ... بالأندلس ، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم وهى على شاطىء نهر تاجه .

(٢٩٧) قرطبة ، بضم أوله وسكون ثانيه وضم الطاء المهملة ، وفتح الباء ... مدينة عظيمة بالأندلس ، وسط بلادها .. وبها كانت ملوك بنى أمية ، وبينها وبين البحر خمسة أيام — ياقوت — المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٢٤ .

(٢٩٨) غرناطة ، بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون وبعد الألف طاء مهملة .. وهى أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس .. وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخا — ياقوت جـ ٤ ص ١٩٥ .

(٢٩٩) مالقة ، بفتح اللام والقاف .. مدينة بالأندلس ، عامرة من أعمال رية ، سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية ، المصدر السابق جـ ٥ ص ٤٣ .

(٣٠٠) تدمير ، بالضم ثم السكون وكسر الميم وياء ساكنة وراء ، كورة بالأندلس وهى شرقى قرطبة — المصدر السابق جـ ٢ ص ١٩ .

(٣٠١) جيان ، بالفتح ثم التشديد وآخره نون ، مدينة لها كورة واسعة فى الأندلس ... فى شرقى قرطبة — المصدر السابق جـ٢ ص١٩٥

(٣٠٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٦٣

بقى طارق فترة من الزمن فى طليطلة ، وجاء إليه اليهود الذين حولها مرحبين مهنئين بالنصر ، فتركهم فيهسا وترك معهم حامية من جنوده وسار هو إلى وادى الحجـارة فقطع الجبل من فج فيه ، فسمى بفج طارق إلى اليوم وانتهى إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة ... ثم مضى إلى مدينة ماية فغنم منها ورجـع إلى طليطلة فى سنة ثلاث وتسعين(٣٠٣) .

وهكذا فى مدى عام واحد ٩٢ — ٩٣ هـ ، فتح طارق بن زياد باثنى عشر الفا من الجنود المسلمين ، هذه المساحات الشاسعة ، وتساقطت المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى بين أيدى رجالـه ، واستقر هو فى طليطلة عاصمة القوط بعد انهيار دولتهم منتظرا قـدوم موسى بن نصير ليتدارسا سويا الموقف ، ويمضيا لفتح بقية شبه الجزيرة الأيبيرية ، ولم يطل به الانتظار ، فقد جاء موسى ليطمئن على الأحوال بنفسه وليشترك فى الفتـح .

عبور موسى بن نصير إلى الأندلس :

عبر موسى بن نصير إلى الأندلس فى رمضان سنة ٩٣ هـ بنـاء على طلب طارق بن زياد حيث كتب إليه : « إن الأمم تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث(٣٠٤) » وهذا يصور انه على الرغم من الانتصارات التى أحرزها طارق ووصوله إلى العاصمة طليطلة فقـد انبعثت ضده مقاومة استدعت أن يكتب إلى الأمير موسى ليحضر بنفسه ويطلع على جلية الموقف عن قرب ، والدليل على ذلك أن موسى عبر على رأس قوات كبيرة قدرت بثمانية عشر الفا ، وهى اكبر من العدد الذى عبر مع طارق مضافا إليه المدد الذى طلبه ، نزل موسى بقواته فى الجزيرة الخضراء ، وقرر أن يتخذ خط سير مغاير للطريق الذى سار فيه طارق وذلك بقصد أن يتمكن من فتح المدن والمناطق التى لم يفتحها طارق فاستولى موسى على العديـد من المدن فى

(٣٠٣) انظر ابن الاثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٦٤ ، وابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢ .

(٣٠٤) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة جـ ٢ ص ٧٤ .

غـربى البلاد ، مثل قـرمونية(٣٠٥) واشـبيلية(٣٠٦) ومـاردة(٣٠٧) ولبلة »(٣٠٨) .

لقاء موسى وطارق ومواصلة الفتـح :

التقى موسى بن نصير بعد هذا الزحف الموفق بمولاه طارق بن زياد عند العاصمة طليطلة ، وهنا تتحدث المصادر عن قصة الخلاف الذى قيل أنه حدث بين القائدين الكبيرين ، وتبالغ هذه المصادر فترجع أمـر هذا الخلاف إلى حسد دب فى نفس موسى على مولاه طارق وعلى ماحققـه من نجاح ، وتنسـب إلى موسى أنه أهـان طارقا بأن وضع السـوط على راسه(٣٠٩) . ومثل هذه الروايات ينبغى أن تقابل بالشك فيها ، لأن مثل هؤلاء الرجال الكبار الذين قاموا بهذه الأعمال الجليلة وعرضوا أرواحهم لمثلهذه الأخطار،يستبعد أن تصدرمنهم ما تنسبه إليهم هذه الروايات،ثملمادا يحسد موسى طارقا ويحقد عليه ؟ الأنه نجح فى مهمته هذا النجاح الهائل ، او ليس هذا ما كان يتمناه موسى ؟ أم انه كان يريد له الفشل والإخفاق ؟ نحن لانستبعد أن ينشأ خلاف وأن تتعارض وجهات النظر فى بعض الأمور

---

(٣٠٥) قرمونية بالفتح ثم السكون وضم الميم وسكون الواو ونون مكسورة وياء خفيفة وهاء،كورة بالأندلس غربى قرطبة وشرقى اشبيلية — ياقوت — معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٣٠ .

(٣٠٦) إشبيلية ، بالكسر ثم السكون وكسر الباء وياء ساكنة ، ولام وياء خفيفة ،مدينة كبيرة عظيمة وهى غربى قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا — ياقوت — المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٥ .

(٣٠٧) ماردة ، كورة واسـعة ... من أعمال قرطبة — ياقـوت المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣٠٨) لبـلة ، بفتح أوله ثم السكون ولام مربوطة ، قصبة كورة بالاندلس..بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام — ياقوت — المصدر السابق جـ ٥ ص ١٠ ، وانظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ٤ ص ٥٦٤ وابن عذارى — البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣ — ١٥ ، د . مختار العبادى — دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٧

(٣٠٩) انظر ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٦٤ ، وابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ١٦ .

أو الخطط ، مثل تسرع طارق فى خطة الغزو(٣١٠)، أو على أى أمر آخر ، فهذا كله وارد وممكن ، ومن الجائز أن يكون موسى قد غضب على طارق ، ولكنهما عند اللقاء ترضاه طارق واعتذر له فرضى عنه وقبل عذره(٣١١). أما أن تكون مكافأة طارق على أعماله الجليلة هى الإساءة ، فهذا مالايقبله العقل ، ولا يتفق مع أخلاق المسلمين فى ذلك الزمان بالذات ، فكلا القائدين موسى وطارق كان يهمه فى المقام الأول مصلحة المسلمين وسلامة أرواحهم ، ومسير موسى نفسه فى غرب الأندلس يدل على أن خطة الغزو كان متفقا عليها بكل تفاصيلها ومدبره تدبيرا محكمـــا ، وهى تشبه مايطلق عليه فى المصطلحات العسكرية الحديثـــة حركة الكماشـــة ، « طارق يسير من طريق ، وموسى يسير من طريق آخر مقابل له ، وتنتهى حركة الالتفاف أو التطويق هذه بالتقاء القائدين عند العاصمة القوطية نفسها(٣١٢) » ومما يدعم هذا ويؤكده الاتفاق التام بين القائدين الكبيرين على خطة إتمام الفتح بعد لقائهما ، حيث خرج طارق من طليطلة على رأس مقدمة الجيش ، ومن خلفه موسى فى بقية الجيش متجهين إلى المناطق الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة الايبيرية حيث فتحا مدنا مهمة مثل سرقسطة(٣١٣) وبرشلونة(٣١٤) ثم سار بعد ذلك طارق على رأس فيلقه إلى إقليم جليقية الجبلى فى الشمال الغربى ، وسار موسى بقواته إلى البرنيه ، حيث غزا إقليم سبتمانيه الذى

---

(٣١٠) انظر ابن عذارى — المصدر السابق ج ٢ ص ١٣.

(٣١١) انظـــر الطبرى — تاريخ ج ٦ ص ٤٨١ ، وابن الأثير — المصدر السابق ج ٤ ص ٥٧٦ .

(٣١٢) د . مختار العبادى — دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٨ .

(٣١٣) سرقسطة بفتح أوله وثانيه ثم قاف مضمومة وسين مهملـــة ساكنة وطاء مهملة بلدة مشهورة بالأندلس تتصـــل أعمالها بأعمال تطيلة ، ياقوت — معجم البلدان ج ٣ ص ٢١٢ .

(٣١٤) مدينة من أعمال إقليم لبلة — ياقوت — المصدر السابق ج ١، ص ٣٨٤ .

كان تابعا للقوط ، واستولى على قرقشونة(٣١٥) ، وأربونة(٣١٦) ، وحصن لودون على وادى ردونه — الرون(٣١٧) — .

تفكير موسى بن نصير فى غزو القسطنطينية من الغرب :

تروى المصادر أن موسى بن نصير لما بلغ هذا المدى من النجـاح فى فتح الأندلس هو ومولاه طارق بن زياد لمعت فى ذهنه فكرة المسير إلى القسطنطينية والاستيلاء عليها من الغرب(٣١٨) ، وهـذه فكرة لاتستبعد لأن نية الاستيلاء على القسطنطينية كانت قائمة عند المسلمين منـذ عهد معاوية بن أبى سفيان — كما رأينا — خصوصا وأنه فى ذلك الوقت الذى كان موسى وطارق مشغولين فيه بفتـح الأندلـس ٩٢ — ٩٥ هـ كانت الاستعدادات قائمة فى المشرق على قدم وساق للزحف على القسطنطينية من الشرق ، فربما أراد موسى أن يلتقى بهذه القوات الزاحفة من الشرق عند أسوار القسطنطينية ، ولعل هـذه الأخبار وصلت الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فخشى من موقع مسئوليته وحرصـه على سـلامة المسلمين أن يعرضهم للأخطار ، خصوصا وأنهم كانوا سيسيرون فى طـرق جبلية

---

(٣١٥) قرقشونة ، فى شمال شرق الأندلس ، وبين قرقشونة وقرطبة خمسة وعشرين يوما انظر ياقوت — معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٢٨ .

(٣١٦) أربونة بفتح أوله ويضم ثم السكون وضم البـاء الموحـدة وسكون الواو ونون وهاء بلد فى طرف الثغر من أرض الأندلس .. بينها وبين قرطبة على ماذكره ابن الفقيه الف ميل ، ياقوت — المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٠ .

(٣١٧) انظر الدكتور السيد عبد العزيز سالم — المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٨٠ .

(٣١٨) انظر ابن خلدون — العبر — جـ ٤ ص ١١٧ — ١١٨ .

وعرة ، طقسها قاس ، فآثر سلامة المسلمين(٣١٩) وطلب من موسى أن يعود إلى دمشق ومعه طارق بن زياد .

أما ما يذكره بعض المؤرخين من أن الوليد استدعى موسى ومنعه من مواصله الفتح خوفا من أن يخلعه وينفصل بالمغرب والأندلس(٣٢٠) ، فهذا أمر بعيد جـدا ، لأن فكرة الانفصال عن الخلافة فى ذلك الوقت ، وتكوين دول إسلامية مسـتقلة لم تخطر على بال أحد(٣٢١) ، ولو كان موسى بن نصير ينوى ذلك فعلا ، لمـا اذعن لأمر الخليفة بالعودة إلى دمشـق .

---

(٣١٩) وتروى بعض المصـادر أن الجند قـد أدركهم التعب وربما كان من الصعب عليهم تنفيذ مشروع كبير كهذا ، وقـد برز هذا الشعور من حديث أحد القادة مع موسى بن نصير ، وهو حنش الصنعانى حيث قال له : أيهـا الأمير إنى سمعتك تذكر عقبة بن نافع ، وتقول : لقد غرر بنفسـه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ وأنا رشيدك اليوم ، أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ، إنى سمعت من الناس مالم تسمع ، وقـد ملأوا أيديهم وأحبوا الدعة ، قال : فضحك موسى . ثم قـال : أرشدك الله وكثر فى المسـلمين أمثالك ، ثم انصرف قافلا إلى الأندلس . فقال موسى يومئذ : « أما ولله لو انقادوا إلى لقدتهم إلى رومية ، ثم يفتحها الله على يدى انشاء الله » انظر الإمامة والسياسية المنسوب لابن قتيبة جـ ٢ ص ٨٠ — ٨١ ولعل موسى يقصد انه كان سيفتح روما وهو فى طريقه إلى القسطنطينية .

(٣٢٠) انظر المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٥ ، ومحمد عبد الله عنان دولة الإسلام فى الأندلس قسم ١ ص ٥٤

(٣٢١) إن فكرة توحيد الخلافة الإسلامية ظلت سائدة عند المسلمين حتى بعد سقوط الدولة الأموية فى الشرق سنة ١٣٢ هـ وقيام الـدولة العباسية ، حتى ليذكر بعض المؤرخين أن جميع أمراء بنى أمية فى الأندلس منذ قيـام إمارتهم على يد عبد الرحمن الداخل سـنة ١٣٨ هـ ظلوا يدعون فى خطبهم الدينيـة لخلفاء بنى عباس ببغـداد وظل ذلـك حتى أعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة الاموية فى الأندلس سـنة ٣١٦ هـ ، انظر د. مختار العبادى — دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٦ نقلا عن ابن الكردبوس — الاكتفاء ص ٦٠ — ٦١ ، وابن أبى دينار المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٤١ — ٤٣ . وإن كان المشهور أن ذلك كان فى إمارة عبد الرحمن الداخل ثم توقف منذ بداية عهده .

الأندلس بعد عودة موسى بن نصير إلى دمشق :

كان على موسى بن نصير أن يعود إلى دمشق امتثالا لأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك وقد صحب معه طارق بن زياد ، وعندما عاد القائدان الكبيران كانت الأندلس قد فتحت ، ماعدا الجزء الشمالى الغربى المسمى بإقليم اشتورش فى منطقة جلليقية ، وبعض المناطق فى الشرق ، وقد تولى الأندلس منذ عودة موسى بن نصير إلى دمشق سنة ٩٥ هـ ، وحتى قيام الإمارة الأموية هناك سنة ١٣٨ هـ حوالى عشرين أميرا .

كان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير ٩٥ — ٩٧ هـ(٣٢٢) ، الذى القى أبوه بزمام الأندلس بين يديه ، وكان خير خلف لخير سلف ، فقد ضبط الأمور وسد الثغور وافتتح مدائن كثيرة ، وكان من خيرة الولاة(٣٢٣) . واهم فتوحات عبد العزيز بن موسى إقليم تدمير فى شرق الأندلس ، وقد فتحه صلحا(٣٢٤) ، ولكن لسوء الحظ لم تطل مدة عبد العزيز بن موسى فى حكم الأندلس ، فقد قتله بعض الجند غيلة لأشياء نقموها عليه ، وكان ذلك فى مستهل رجب سنة ٩٧ هـ(٣٢٥) .

أعقب مقتل عبد العزيز بن موسى فترة من الاضطراب ، ومكث أهل الأندلس شهورا لايجمعهم وال . حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب

---

(٣٢٢) ابن عذارى — البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣ — ٢٤

(٣٢٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤

(٣٢٤) انظر د. مختار العبادى — دراسات فى تاريخ العرب والأندلس ص ٣٨

(٣٢٥) بن عذارى — المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤ — لم يوضح ابن عذارى الأشياء التى نقمها الجند على عبد العزيز بن موسى فقتلوه من أجلها ، أما ما يذكر من أن الخليفة سليمان بن عبد الملك هو الذى أوعز إلى الجند بقتله ، فذلك بعيد جدا ، لأن سليمان كما يقول صاحب أخبار مجموعة ص ٢٢ — شق عليه ذلك ، وأمر بالقبض على قاتليه وإرسالهما إليه لمحاكمتهما ، فهذا دليل على انه لم يأمر بقتله . وعلى هذا فقد يكون قتل عبد العزيز بسبب ما أشاعه عنه أعداؤه من انه تنصر بعد زواجه من أرملة روذريق ، كما يذكر ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٤٢ — أو لاستياء الجند منه فالله أعلم بحقيقة الحال .

اللخمى ، ابن أخت موسى بن نصير(٣٢٦) . وكان أيوب رجلا صالحا فاضلا ولكن مدة ولايته لم تطل ، ويبدو أن الناس هناك هم الذين نصبوه ليدبر الأمور حتى تعين الخلافة واليا من قبلها ، وقد عينت الحر بن عبد الرحمن الثقفى الذى كان أهم أعماله نقل مقر إمارة الأندلس من إشبيلية — حيث كان يحكم عبد العزيز بن موسى — إلى قرطبة(٣٢٧) . كما كان له غزوات تجاوز بهـــا حدود بلاد الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحى أربونة ، فسبى وغنم ، وقفل بالأسارى والغنائم(٣٢٨) ، وقـــد أدى انشغال الحر الثقفى بالغزو فى الشمال الشرقى إلى انتعاش حركة المقاومة المسيحية — فى المنطقة التى لم يتمكن المسلمون من فتحها وهى المنطقة الشمالية الغربية — بزعامة بلاى(٣٢٩) ، مما اضطره إلى العودة لقمع تلك المقاومة ، وبينما هو مشغول بذلك عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ وعين مكانه السمح بن مالك الخولانى ١٠٠ — ١٠٢ هـ .

كان السمح بن مالك من خيرة الرجال وصلحائهم(٣٣٠) ، وقد عمل على استقرار الأحوال الداخلية فى الأندلس مع إخضاع المتمردين المسيحين فى الشمال الغربى وقـــد نجح فى ذلك وأجبر المتمردين على اللجوء إلى معاقلهم فى الجبال ولمـــا اطمأن إلى كل هذا بدأ غزوه لإقليم سبتمانيه ، مخترقا جبـــال البرنية وتمكن من اســـتعادة أربونة وقرقشونة ، ومعظم المدن والحصـــون التابعة للإقليم(٣٣١) ، ثم توجه ببقية جنوده إلى الغرب ، نحو مجرى الجارون باسطا سيطرته على كل المدن والحصون فى طريقه

---

(٣٢٦) ابن عذارى — البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥

(٣٢٧) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥

(٣٢٨) د. محمد شتا زيتون — المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ ص ١٩٣

(٣٢٩) د. مختار العبادى — دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٠ — ٤١

(٣٣٠) انظر ابن عذارى — البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٦ وأخبـــار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٢٣

(٣٣١) د. محمد شتا زيتون — المرجع السابق جـ ١ ص ١٩٨

حتى وصـــل إلى طولوشة — تولوز — عاصمة إقليم اكوتين ، الـــذى استقل به الدوق أودو ، وقــد ضرب السمح الحصار عليها ، ولكن قبل أن يتمكن من الاستيلاء عليهــا قصـــده الدوق أودو بجيش عظيم ، قيل انه كان يبلغ حوالى عشرة أضعاف الجيش الذى كان معه ، وفى ذى الحجة سـنة ١٠٢ هـ يونيو سـنة ٧٢١ م درات معركة بين الجيشين بظاهر تولوز ، ورغم استبسال المسلمين ، فقد تغلب عليهـم الفرنج لكثرة عددهم وهزموهم واستشهد السمح بن مالك رحمه الله(٣٣٢) — وأدى استشهاده إلى اضطراب الجند واختلال نظامهم إلا أن عبد الرحمن الغافقى استطاع أن ينقذ الموقف ، وأن ينسحب بمن بقى من الجيش الإســلامى إلى أربونة(٣٣٣) ، التى صارت قاعدة للمسلمين فى الشمال بمهارة تذكرنا بصنيع خالد بن الوليد فى معركة مؤتة وظل عبد الرحمن يدير الأمور فى الأندلس حتى وصلها الوالى الجديد عنبسة بن سحيم الكلبى ١٠٣–١٠٧هـ .

تابع عنبســة سياسة سلفه العظيم ، السمح بن مالك فى العــدل والإصلاح الداخلى فى الأندلس والتصدى لكل من تسول له نفسه الخروج على النظام ، وبعد أن استتب الأمن وساد النظام فى الداخل ، استأنف حركة الجهاد ضــد الفرنج ، فخرج فى جيش من خيرة المقاتلين ، أهل النية فى الجهاد ، والحسبة فى الثواب على حــد تعبير ابن عذارى(٣٣٤)، فاخترق جبال البرنية ، واسترد المعاقل والمدن التى كان المسلمون قــد فقدوها بعد معركة تولوز فاستولى على قرقشونة ونيمة وغيرها من الأماكن المهمة وتابع سيره فاستولى على إقليم بروفانس ، واتجه شمالا مع نهر الرون ، فاستولى على ليون ، ثم وصل إلى أتون فى أعالى النهر(٣٣٥) ، وغزا مدينة سانس ولكن أهالى البلاد تمكنوا من قطع خط الرجعة عليه ،

---

(٣٣٢) ابن عذارى — المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦ و د. محمد زيتون — المرجع السابق جـ ١ ص ١٩٩ ، و د. مختار العبادى — فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٨٧

(٣٣٣) د. مختار العبادى — المرجع السابق ص ٨٧

(٣٣٤) البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٧

(٣٣٥) د. مختار العبادى — المرجع السابق ص ٧٨ ، د. محمد زيتون — المرجع السابق جـ ١ص ٢٠٠ .

وأحاطوا به فاستشهد — رحمه الله — فى شعبان سنة ١٠٧ هـ(٣٣٦) — وبعد استشهاده فقد المسلمون مرة أخرى مواقعهم وعادوا إلى اربونة ، بقيادة عذره بن مالك الفهرى ، ثم سادت الأندلس فترة من الاضطراب توقفت فيها حركة الفتح لأكثر من أربع سنوات . وفى هذه الفترة المضطربة توالى على ولاية الأندلس أربعة ولاة ، ثم جاء دور عبد الرحمن الغافقى ١١٢ — ١١٤ هـ .

كان يلى أمر الأندلس قبل ولاية عبد الرحمن ، الهيثم بن عبيد الكنانى الذى كان قد بدأ حركة الجهاد فى سبيل الله فى جنوب فرنسا ، وعند وفاته سنة ١١٢ هـ أسندت الإمارة إلى عبد الرحمن الغافقى ، ذلك القائد الشجاع ، الذى كان قد أنقذ المسلمين بعد معركة تولوز سنة ١٠٢ هـ بعد استشهاد السمح بن مالك — كما سبقت الإشارة — وعندما تولى عبد الرحمن أمر الأندلس كانت ذكرى استشهاد السمح بن مالك ورفاقه ماثلة فى ذهنه فقرر أن ينتقم من الأعداء ، ولكن قبل ذلك كان عليه أن يعيد الأمن والنظام والاستقرار الداخلى ، ثم يتفرغ للجهاد ، فقام بجولة فى ربوع الأندلس ، طاف فيها معظم مدنها ، ومقاطعاتها ، وتفقد أحوالها ، واستمع إلى شكاوى الناس ، وعمل على نشر العدل وإزالة المظالم ، ولم يكن يفرق فى المعاملة بين المسلمين والمسيحيين واليهود، كما نظم الإدارة المالية ، وعاقب بشدة كل من أثار شغبا أو أحدث فتنة ، وبذلك تمكن من توطيد الأمن فى ربوع البلاد(٣٣٧) ، وفى الوقت نفسه كان يعد الجيش إعدادا جيدا لاستئناف الجهاد ضد الفرنجة ، ففى مطلع عام ١١٤ هـ تحرك بجيشه فاخترق جبال البرنية واتجه إلى مدينة أرال على نهر الرون ، حيث دارت بينه وبين الفرنجة معركة كبيرة انتصر فيها عليهم ، واستولى على المدينة ، ثم عبر نهر الجارون وانقض على أكوتين ، دوقية أودو الذى كان أوقع بالمسلمين فى تولوز فاستطاع عبد الرحمن أن

---

(٣٣٦) ابن عذارى — المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧ ، د. مختار العبادى — المرجع السابق ص ٨٧ ، د. محمد زيتون — الرجع السابق جـ ١ ص ٢٠١

(٣٣٧) د. محمد زيتون — المرجع السابق جـ ١ ص ٢٠٦

يمزق جيشه ، وأن يستولى على ولايته برمتها(٣٣٨) ، وعندما عجز أودو عن الوقوف فى وجه عبد الرحمن الغافقى ، الذى كان بسط سلطان الإسلام على نصف فرنسا الجنوبى فى بضعة شهور(٣٣٩) ، استنجد بالدولة الميروفنجية .

معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ :

اضطر أودو أمام زحف المسلمين على ولايته أن يهرب إلى الشمال وأن يلجأ إلى أمير القصر فى دولة الفرنجة ، شارل مارتل ، طالبا منه العون لاسترداد دوقيته من أيدى المسلمين ، وربما كان شارل مارتل نفسه يتوقع ذلك ، بل ربما لو لم يستنجد به أودو لهب هو من تلقاء نفسه لإعانته ، لأنه كان يخشى من أن يزحف المسلمون — بعد استيلائهم على دوقية أكوتين — على دولة الفرنجة ذاتها ، وقد يكون الهدف من تأخر شارل مارتل عن التصدى للمسلمين إلى هذا الوقت هو أن يثبت لأودو حاجته إليه ، وفى الوقت نفسه يكون المسلمون قد أدركهم التعب من كثرة غزواتهم وانتقالهم السريع من معركة إلى معركة ، بحيث يسهل عليه التغلب عليهم عندما يحين اللقاء ، الذى كان يعد له فى سرية وكتمان شديدين،بحيث عجزت عيون عبدالرحمن الغافقى عن معرفة أى شىء عنه(٣٤٠) . وقد حدث اللقاء الحاسم بين الغافقى وشارل مارتل فى السهل الواقع بين تور وبواتيه ، وقد كان لقاء بين جيش مستريح كامل العدة والعتاد ، يحارب على أرضه ، وهو جيش شارل مارتل ، الذى حدد زمان ومكان المعركة ليضمن لنفسه النصر ، وجيش قطع مسافات طويلة ، وخاض معارك عديدة ، وفقد الكثير من الشهداء ، كما أنه كان مضطرا لترك حاميات لحراسة المدن والمواقع التى كان يستولى عليها ، وهو جيش عبد الرحمن الغافقى ، ولكن على الرغم من كل هذه الصعوبات ، فقد قاتل المسلمون

---

(٣٣٨) د. مختار العبادى فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٨٧ ، و د. محمد زيتون — المرجع السابق جـ ١ ص ٢٠

(٣٣٩) د. محمد زيتون — المرجع السابق جـ ١ ص ٢٠٧

(٣٤٠) د. محمد زيتون — المرجع السابق جـ ١ ص ٢٠٨

ببسالة وبطولة فى المعركة ، التى بدأت فى أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ ، بمناوشات استمرت أسبوعا تقريبا ، ثم اشتد القتال ، ولاح النصر للمسلمين ، لولا حدوث مفاجأة من المفاجئات التى تحدث أحيانا فى الحروب فتغير موازين القوى ، وتحول النصر إلى هزيمة ، والهزيمة إلى نصر . فقد تمكنت فرقة من جيش الفرنجة من الوصول إلى المكان الذى جمع فيه المسلمون غنائمهم — التى كانوا قد استولوا عليها فى غزواتهم الكثيرة — واشيع أن العدو سيستولى عليها ، وهنا ترك بعض الجنود مواقعهم الأمامية ، ليدافعوا عن الغنائم ، الأمر الذى أدى إلى حدوث خلل كبير فى صفوفهم ، وقد حاول عبد الرحمن الغافقى جهده ليعيد النظام إلى قواته ، وتقدم الصفوف ، جاعلا من نفسه سدا أمام الأعداء وليضرب المثل لجنده فى الاستبسال ، لكن أصابه سهم من الأعداء ، فسقط شهيدا فى ميدان القتال (٣٤١) ، وقد أدى استشهاده إلى زيادة الاضطراب والخلل فى صفوف المقاتلين ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يقاتلون حتى حل الظلام ، فحجز بينهم وبين الأعداء ، وعاد كل جيش إلى مواقعه ، وكان ذلك فى أول شهر رمضان سنة ١١٤ هـ .

عاد المسلمون إلى معسكرهم ، وقد فقدوا قائدهم البطل وأخذوا يتدارسون موقفهم ، فانقسموا إلى فريقين ، فريق رأى الاستمرار فى القتال ، وفريق خشى عواقب ذلك ، وفضل الانسحاب ، فاستقر رأيهم على هذا ، فانسحبوا فى جنح الظلام عائدين إلى سبتمانيه ، مخلفين جرحاهم وأمتعتهم(٣٤٢) . وهذه المعركة تذكرنا بمعركة أحد ، حيث أدى انشغال بعض المسلمين بالغنائم إلى ضياع النصر الذى كاد أن يتحقق لهم فى بدايتها ، وتكون هذه عبرة أخرى ، من العبر الكثيرة التى يحفل بها تاريخنا الإسلامى ، وهى أن المسلمين إذا تخلوا عن أهدافهم النبيلة ومثلهم العليا وانشغلوا بأمر الدنيا حلت بهم الهزائم والنكبات .

---

(٣٤١) انظر — ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٧٤ وابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٥١

(٣٤٢) جاك — ريسلر — الحضارة العربية ص ٤٣

أما عن الفرنجة وقائدهم شارل مارتل ، فما كانوا يتوقعون أن ينسحب المسلمون من الميدان ، وخصوصا وأن المعركة لم تنته بنصر حاسم ، وإنما كان الظلام هو الذى أوقف القتال ، ولذلك كان شارل مارتل يتوقع استئناف القتال فى اليوم التالى ، ولكنه عندما بث عيونه يترصدون المسلمين عند الفجر ، هالهم خلو المكان وهدوؤه فظنوا أن فى الأمر خدعة ، فأمر شارل مارتل فرقة من جيشه بالتقدم على حذر ، فتأكدوا من خلو المكان من المسلمين وكان فرح شارل مارتل عظيما ، حيث رأى فى ذلك نصرا نهائيا لم يكن يتوقعه ، وآية ذلك أنه لم يحاول أن يتعقب المسلمين أو يسير خلفهم ، وبهذا انتهت المعركة التى يسميها الأوربيون معركة توربواتيه ، ويسميها المسلمون معركة بلاط الشهداء(٣٤٣) .

ويبالغ كثيرون من مؤرخى الغرب فى نتيجة معركة بلاط الشهداء ويعتبرونها — بالإضافة إلى ارتداد المسلمين عن القسطنطينية سنة ٩٩ هـ — من المعارك الحاسمة التى حمت أوربا من خطر الإسلام ولكن المؤرخ المنصف لايخفى عليه أن معركة بلاط الشهداء حرمت أوربا من نور الإسلام وعدالته ، فلو لم يوقف شارل مارتل تقدم المسلمين فى أوربا الغربية عند توروبواتيه ، لنعمت أوربا كلها بما نعمت به الأندلس تحت الحكم الإسلامى ، التى أصبحت هى البقعة الوحيدة المضيئة فى أوربا فى العصور الوسطى المظلمة ، وحققت تقدما رائعا فى شتى مجالات الحياة ، وهذه شهادة أحد المنصفينمن الأوربيين أنفسهم لما حققه الإسلام للأندلس وهو جاك — ريسلر — الذى يقول : « كانت إدارة الأعمال العامة فى الأندلس — وهكذا كانت تسمى أسبانيا الإسلامية — من أكثر الأعمال تطورا بلاجدال فى ذلك العصر ، وكانت قوانينها المبنية على العقل والمتقنة الوضع ، فى ظل نظام شرطى منظم تنظيما كاملا ، مطبقة بطريقة إنسانية على أيدى قضاة غاية فى النزاهة ، وكانت الضرائب معقولة ، وميسرة التحصيل ، وأقل نسبيا من ضرائب البلاد الأوربية ، بفضل تطبيق اقتصاد موجه توجيها حسنا ، وكان دخل إمارة قرطبة وحدها أعلى من دخول

---

(٣٤٣) د . مختار العبادى — فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٨٨ .

بجميع العالم المسيحى اللاتينى وكان ثلث الدخل لدفع نفقــات الجيش ، والثلث الثانى للنفقات العامة ، والثلث الأخير للاحتياطى . وعلى الجملة أحدث النظام الإسلامى تقدما ثابتا بموازنة النظم القوطية الغربية السابقة حتى قيل أن بلاد الأندلس لم تعرف أبدا هــذا اللون من الهــدوء والعدل والحكمة مثلمــا عرفته فى ظل الفاتحين العرب ، وتحت القوة الدافعــة الإسلامية تفوقت الزراعة فى اسبانيا بشكل واضــح عن بقية الغرب .. وكانت الصناعة منتشرة كما كانت دروع قرطبة وسيوف طليــطلة ذات شهرة عظيمة وكانت مرسية تتقن صناعة النحاس والحديد وكانت حكومة الخلفاء تشرف على خدمة بريدية منظمة ، وكانت ألف من المراكب القادمة من برشلونة وبلنسية وقرطاجنة والمرية ومالقة وقادس — الميناء النهرى لإشبيلية — مهمتها تأمين حركة التجارة مع إفريقية وآسيا وكان التعامل يجرى بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية ... وكانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة فى عبادتها ، وكان اليهود المطاردون حتى هذه البلاد لديهم مطلق الحرية فى اقتناء الثروات ، ووصــلوا أحيانا إلى مراكز سامية ، واختلط المسيحيون مــع المسلمين ، واتجهت العادات نحو التشابه بعضها مع البعض ، وحــدث أن مسيحيين ومسلمين احتفــلوا بأعيادهم فى المسجد وفى الكنيسة ، ونتيجة لهذه الحرية البالغة أقصى حد ، شوهد بعض المسيحيين يتخــذون لأنفسهم أكثر من زوجة على الرغم من تحريم الكنيسة ، بيد أنه عندما بهرت هذه الحضارة المشرقة بعض رجال الدين والعلمانيين من أوربا المسيحية كلها ، أخذوا يزحفون — حبا فى هذه الحرية — إلى قرطبة وطليطلة وإشبيلية لكى يحضروا دروس الجامعــات الإسلامية ومحاضراتها(٣٤٤) » . هذه مقتطفات من كلام مــؤرخ أوربى منصف — أى شاهد من أهلها — فمعركة بلاط الشهداء لم تحم أوربا من خطر الإسلام ولكنها حرمتها من نعمته ، وكانت على أية حال آخر المعارك الكبيرة التى خاضها المسلمون فى عصر الدولة الأموية ٤١ — ١٣٢ هـ فى هذه الجبهة ، لأن ماتلا ذلك من عهد الولاة فى الأندلس إلى سقوط الدولة الأموية فى المشرق كان عهد نزاع وتنافس بين الولاة وصراع بين العــرب

---

(٣٤٤) الحضارة العربية ص ١٥٢ — ١٥٤ .

والعرب ، وبين العرب والبربر ، فانشغلوا عن الغزو والجهاد فى سبيل الله . كما أن الدولة الأموية ذاتها انشغلت بأحداث المشرق عن الأندلس التى لم يخلصها من الفوضى والإنقسامات سوى وصول عبد الرحمن الداخل ، الذى أسس فيها إمارة أموية سنة ١٣٨ هـ . بعد سقوط الدولة الأموية فى المشرق بست سنوات .

* * *

الفتوحات الأموية فى المشرق

تثبيت الفتوحات فى بلاد فارس :

امتدت الفتوحات الإسلامية فى العصر الأموى إلى بلاد ماوراء النهر — نهر جيجون أو آموداريا — فى الشمال الشرقى ، وإقليم السند فى الجنوب الشرقى — ولم تتوجه الحملات الإسلامية لفتح هذه الأقاليم بشكل جدى وثابت — فى العهد الأموى — إلا منذ بداية عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ . أما قبل ذلك فقد كان الأمويون مشغولين بتثبيت الفتوحات التى تمت فى عهد الخلفاء الراشدين فى بلاد فارس ، مع التمكين لنشر الإسلام فيها بتقديمه للناس وتعريفهم به بأسلوب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . وبمتابعة الجهاد ضد الدولة البيزنطية — المتربصة — فى الغرب من ناحية أخرى.وقد أشرنا فيما سبق إلى أن معاوية ابن أبى سفيان قد ركز جهده على محاربة هذه الدولة ، أما فى فارس فقد عول على تثبيت أقدام المسلمين هناك ، قبل الانتقال إلى ميدان جديد ؛ وبعد وفاة معاوية سنة ٦٠ هـ ، دخلت الدولة الأموية فى دور جديد من أدوار الفتن الداخلية ، وهبت فى وجهها الثورات والحركات المناهضة ، وقد طالت هذه الفترة فاستغرقت عهد يزيد بن معاوية ٦٠ — ٦٤هـ ومروان ابن الحكم ٦٤ — ٦٥ هـ وعبد الملك بن مروان ٦٥ — ٨٦ هـ الذى قضى معظم سنى حكمه فى القضاء على الثائرين ، إلى أن تمكن من إعادة الوحدة إلى الدولة الإسلامية ، وترك لابنه الوليد ٨٦ — ٩٦ هـ دولة موحدة قوية سليمة البنيان ، فأفاد الوليد من جهود أبيه أفضل إفادة فشهد عهده أعظم حركة فتوحات إسلامية — بعد فتوحات الخلفاء الراشدين — فاستكمل فتح شمال إفريقيا ، ثم فتح الأندلس — كما رأينا ثم سارت جيوشه مظفرة بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلى لتفتح أقاليم ما وراء النهر — فى آسيا الوسطى — ومحمد بن القاسم الثقفى لتفتح إقليم السند .

وهذه الفتوحات الكبرى لم تبدأ من فراغ ، بل مهدت لها جهود جبارة استمرت زمنا طويلا ، فالفترة التى انقضت منذ عهد عمر بن الخطاب ١٣— ٢٣ هـ الذى تحققت فيه الفتوحات الكبرى — فى مرحلتها الأولى — وحتى

استئناف الفتوحات — فيماوراء النهر والسند — هذه الفترة التى تزيد على الستين عاما ، لم تتوقف جهود المسلمين فيها عن تثبيت أقدامهم فى بلاد فارس ، وفى مناوشة الاتراك فيما وراء النهر ، لدفع عدوانهم ورد غاراتهم ولمعرفة بلادهم وأحوالها وطرقها ، حتى يكونوا على بينة من أمرها ، إذا قدر لهم أن يفتحوها . فالفرس قد تحطمت مقاومتهم ولم تجتمع لهم كلمة ، بعد موقعة نهاوند (فتح الفتــوح) فى ســنة ٢١ هـ . وانساحت جيوش المسلمين فى جميع أنحاء فارس ، فأكملت فتحها صلحا ، مقاطعة بعد أخرى وانتهى أمر يزدجرد الثالث ومحاولاته الأخيرة للمقاومة فى خراسان ، حيث قضى عليه فى مرو سنة ٣١ هـ وبسط المسلمون سلطانهم على جميع المقاطعات الفارسية دون مقاومة تذكر ، بل بمعاهدات صلح قامت على الرحمة والتسامح من جانب المسلمين(٣٤٥) .

وهنا ينبغى أن نقف وقفة قصيرة نتأمل فيها سلوك المسلمين فى تلك البلاد بعد فتحها ، ونسأل : هل انتهز المسلمون فرصة انهيار المقاومــة وتدهور الروح المعنوية عنــد الفرس واستولوا على بلادهم وممتلكاتهم وهل أجبروهم على اعتناق الإسلام بالقوة ؟ وكان كل ذلك سهلا عليهم ، لا ، لم يفعل المسلمون ذلك ، لأنهم لم يكونوا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا، ولم يكن يحركهم الطمع فى الاستيلاء على خيرات البــلاد كما يدعى أعـــداء الإسلام ، وإنما هم أصحاب رسالة آمنوا بها واستمتعوا بنورها وهديها وفضائلها وإيمانهم بهذه الرسالة وبما تحمله من خير للبشرية جعلهم تواقين إلى أن يشاركهم فيها غيرهم من الناس ، لينعموا كما نعموا هم به ، لأن المسلم الحقيقى لا يعرف الأنانية ، ولا الاستئثار ، بل يسعده أن يفيض مامعه من خير على الآخرين ولكنهم لا يحاولون مطلقا فرض دينهم على أحد بالقوة ، بل يعرضونه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسنرى فيما بعد عند الحديث عن انتشار الإسلام أن سلوك المسلمين فى البلاد المفتوحة كان من أهم الأسباب لإقبال الشعوب على الإسلام .

---

(٣٤٥) سيأتى الحديث مفصــلا عن المعاهدات التى وقعها القـــادة المسلمون مع حكام المقاطعات الفارسية فى عهد عمر بن الخطاب وأثرها فى انتشار الإسلام فى بلاد فارس .

ولكن هل استكان كل الفرس للفاتحين المسلمين ، واستجابوا للإسلام وآمنوا به منذ ذلك الوقت الذى فرض المسلمون فيه سيطرتهم السياسية ، الواقع أنه حدثت استجابة سريعة للإسلام ، وآمن به كثيرون من الفرس منذ البداية(٣٤٦) . وبصفة خاصة من الطبقات التى كانت تعانى من الظلم والاستغلال حيث وجدت العزة والكرامة والحرية فى اعتناق الإسلام(٣٤٧).

أما طبقة الحكام الذين استسلموا للمسلمين وقبلوا دفع الجزية وأعطوا بذلك عهودا ومواثيق ، فقد كان موقفهم مختلفا ، فمعظمهم لم يستجب للإسلام منذ البداية،بل لم يتركوا فرصة للانتقاض ونكث العهود إلا واهتبلوها وكان على المسلمين أن يردوهم إلى الطاعة والنظام . ففى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ٢٤ — ٣٥ هـ يكاد يكون عمل ولاة الكوفة والبصرة جهودا متواصلة لرد الولايات الفارسية الثائرة إلى الطاعة والنظام . يقول الطبرى: « وفى هذه السنة — ٢٤ هـ — غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينية لمنع أهلها ماكانوا صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر » ثم إن الوليد صالح أهل أذربيجان على ثمانمائة ألف درهم ، وذلك هو الصلح الذى كانوا صالحوا عليه حذيفة بين اليمان سنة اثنتين وعشرين ، بعد نهاوند بسنة ، ثم إنهم حبسوها عند وفاة عمر ، فلما ولى عثمان وولى الوليد بن عقبة الكوفة سار حتى وطئهم بالجيش ، فلما رأوا ذلك انقادوا إليه ، وطلبوا إليه أن يتم لهم على ذلك الصلح ففعل ، فبض منهم المال ، وبث فيمن حولهم من أعـداء المسلمين الغارات »(٣٤٨) . ويقول البلاذرى : « حدثنى على بن محمد وغيره أن عبد الله بن عامر ، توجه يريد خراسان سنة ثلاثين ، فنزل بعسكره شق الشيرجان من كرمان .. ووجه الربيع بن زياد الحارثى إلى سجستان فأغار على أهله .. وصالح الدهقان على حقن دمه .. ثم ولى ابن عامر عبدالرحمن ابن سمرة سجستان فأتى زرنج فحصر مرزبانها فى قصره فى عيد لهم . فصالحه على الفى ألف درهم ، وألفى وصيف ، وغلب ابن سمرة على ما بين

---

(٣٤٦) انظر د. حسن أحمد محمود — الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٣٥ وما بعدها .

(٣٤٧) آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٧

(٣٤٨) تاريخ جـ ٤ ص ٢٤٦ — ٢٤٧

زرنج وكش من ناحية الهند(٣٤٩)» وهكذا استمرت حركات التمرد والعصيان ونقض العهود من جانب حكام المقاطعات الفارسية ، طوال عهد الخلفاء الراشدين . حتى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه — رغم انشغاله بالمشاكل الخطيرة التى واجهته — لم يغفل أمر حركات التمرد الفارسية — ولم يتردد فى إرسال الجيوش لقمعها وردهم إلى الطاعة والنظام . فقد كتب إلى عبد الله بن عباس ، وكان قد ولاه البصرة وأمره أن يوجه إلى سجستان من يضبط أمرها . فوجه ربعى بن الكاس العنبرى فى أربعة آلاف، فورد البلاد وضبطها(٣٥٠) . ثم طمع أهل فارس وكرمان فى كسر الخراج وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا عمالهم « فشاور على الناس فى رجل يوليه فارس ، فقال له ، جارية بن قدامه : الا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأى ، عالم بالسياسة ، كاف لما ولى ؟ قال : من هو ؟ قال : زياد قال : هو لها ، فولاه فارس وكرمان ، ووجهه فى أربعة آلاف ، فدوخ تلك البلاد حتى استقاموا(٣٥١) » ، هكذا كان حال المقاطعات الفارسية طوال عهد الخلفاء الراشدين فلما قامت الدولة الأموية ، سار معاوية على هذه السياسة وهى تثبيت أقدام المسلمين فى تلك البلاد ، وكانت الكوفة والبصرة تضطلعان بتلك المهمة ، كل مدينة منهما فيما والاها ، يقول البلاذرى: « ثم لما ولى معاوية بن أبى سفيان ، استعمل على البصرة عبد الله بن عامر ، فولى عبد الرحمن بن سمرة سجستان ، فأتاها وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبطى ، ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر التميمى ، وعبد الله بن خازم السلمى ، وقطرى بن الفجاءة ، والمهلب بن أبى صفرة ، فكان يغزو البلد قد كفر أهله ، فيفتحه عنوة ، أو يصالح أهله ، حتى بلغ كابل .. ثم سار إلى زابلستان ، فقاتلوه وقد كانوا نكثوا ، ففتحها وأصاب سبيا ، وأتى كابل ، وقد نكث أهلها ، ففتحها(٣٥٢) » .

---

(٣٤٩) فتوح البلدان ص ٤٨٦

(٣٥٠) المصدر السابق ص ٤٨٧

(٣٥١) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ١٣٧ ويروى الطبرى عن شيخ من أهل اصطخر قال : سمعت أبى يقول : « أدركت زيادا وهو أمير على فارس وهى تضرم نارا ، فلم يزل بالمداراة حتى عادوا إلى ماكانوا عليه من الطاعة والاستقامة » .

(٣٥٢) فتوح البلدان ص ٤٨٨ — ٤٨٩

ولما عزل معاوية عبد الله بن عامر عن البصرة ولى عليها زياد بن أبى سفيان سنة ٤٥ فاستمر على سياسة التصدى لحركات التمرد والانتقاض ، فى أقاليم فارس الجنوبية ، ثم بدأ يتطلع إلى فتح بلاد ماوراء النهر ، وقد ركز على خراسان ، لتكون منطلقا ينطلق منه المسلمون فى غزواتهم إلى تلك البلاد وقسمها على عدد من القواد وجعل لكل منهم حرية التصرف فيما يراه لصالح المسلمين . يقول الطبرى : « جعل زياد خراسان أرباعا ، واستعمل على مرو أمير بن أحمر اليشكرى ، وعلى أبر شهر خليد ابن عبد الله الحنفى ، وعلى مرو الروذ والفارياب والطالقان قيس بن الهيثم ، وعلى هراة وبادغيس وقادس وبوشنج نافع بن خالد الطاحى(٣٥٣) » .

ولما جمع معاوية الكوفة مع البصرة لزياد ، بعد وفاة المغيرة بن شعبة سنة ٥١ هـ أصبح زياد سيد المشرق كله ، فخطا خطوات هامة فى سبيل توطيد الحكم الإسلامى فى بلاد فارس بعامة ، وفى خراسان بخاصة ، التى قرر أن يجعلها قاعدة ثغرية لتقوم فى عمليات فتح بلاد ماوراء النهر ، بالدور نفسه الذى كانت تقوم به العراق فى فتح بلاد فارس ، فعمد إلى توطين العرب فيها بأعداد كبيرة ليؤدى استقرارهم وامتزاجهم بالسكان إلى التمكين للإسلام والمسلمين فى هذه البلاد وجذب أهلها إلى الإسلام .

يقول الطبرى : « ثم بعث زياد الربيع بن زياد الحارثى إلى خراسان فى خمسين ألفا ، من البصرة خمسة وعشرون ألفا ، ومن الكوفة خمسة وعشرون ألفا ، على أهل البصرة الربيع ، وعلى أهل الكوفة عبد الله بن أبى عقيل وعلى الجماعة الربيع بن زياد »(٣٥٤) . وبعد وفاة زياد سنة ٥٣ هـ ولى معاوية ابنه عبيد الله بن زياد خراسان ، فلما قدمها وجد أن جهود أبيه ومن سبقه فى توطيد الأمن والاستقرار فى الإقليم قد آتت ثمارها وأنه أصبح قاعدة مكينة ، يمكن الانطلاق منها إلى ما وراء النهر ، فبدأ فى طرق هذه البلاد لعجم عودها ، يقول الطبرى : « وقدم عبيد الله خراسان ثم قطع

---

(٣٥٣) تاريخ جـ ٥ ص ٢٢٤

(٣٥٤) تاريخ جـ ٥ ص ٢٢٦ ، وانظر كذلك البلاذرى — فتوح — ص ٥٠٧

النهر إلى جبال بخارى على الإبل ، فكان هو أول من قطع إليهم جبال بخارى فى جند ففتح رامثين ونصف بيكندوهما من بخارى ، فمن ثم أصاب البخارية، وهم الأسرى الذين عاد بهم وعدتهم الفان(٣٥٥) » .

فهل كان عبيد الله بن زياد أول من عبر النهر فعلا ؟ طبقا لما يرويه البلاذرى ، لم يكن عبيد الله بن زياد أول من فعل ذلك ، بل سبقه الحكم بن عمرو الغفارى ، الذى عبر النهر فى ولاية زياد وكان أول من صلى وراء النهر(٣٥٦) . ثم توالت الغزوات بعد غزوة عبيد الله بن زياد ، فكانت غزوة سعيد بن عثمان بن عفان، الذى كان معاوية قد ولاة خراسان سنة ٥٦هـ(٣٥٧)، وقد قطع سعيد النهر وقصد بخارى « فلما بلغ خاتون عبوره النهر حملت إليه الصلح ، واقبل اهل الصغد والترك واهل كش ونسف ، إلى سعيد فى مائة وعشرين الفا ، فالتقوا ببخارى وقد ندمت خاتون على أدائها الأتاوة ونكثت العهد ، فحضر عبد لبعض تلك الجموع فانصرف بمن معه فانكسر الباقون ، فلما رأت خاتون ذلك أعطته الرهن وأعادت الصلح ودخل سعيد مدينة بخارى ، ثم غزا سمرقند فأعانته خاتون بأهل بخارى فنزل على باب سمرقند وحلف الا يبرح أو يفتحها ، ويرمى قهندزها،فقاتل أهلها ثلاثة أيام وكان أشد قتالهم فى اليوم الثالث ففقئت عينه وعين المهلب بن أبى صفره .. ثم لزم العدو المدينة ، وقد فشت فيهم الجراح فأتاه رجل فدله على قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم ، فسار إليهم وحصرهم فلما خاف أهل المدينة أن يفتح القصر عنوة ويقتل من فيه ، طلبوا الصلح ، فصالحهم على سبعمائة الف درهم ، وعلى أن يعطوه رهنا من أبناء عظمائهم ، وعلى أن يدخل المدينة »(٣٥٨) .

---

(٣٥٥) تاريخ جـ ٥ ص ٢٩٨ والبلاذرى — فتوح ص ٥٠٧

(٣٥٦) فتوح ص ٥٠٦

(٣٥٧) انظر الطبرى تاريخ جـ ٥ ص ٣٠٤ — والبلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٠٧

(٣٥٨) البلاذرى المصدر السابق ص ٥٠٧ — ٥٠٨

ثم قطع النهر سلم بن زياد فى عهد يزيد بن معاوية ٦٠ — ٦٤ هـ وصالح أهل (خوارزم) على أربعمائة الف حملوها إليه ، وأخذ من أهل سمرقند الف دية ، ثم وجه جيشا إلى خجنده ، ثم رجع إلى مرو(٣٥٩) .

هذه الحملات التى توالت على بلاد ماوراء النهر ، والتى كانت تعود محملة بالغنائم ، لا تشذ عن الأسلوب الذى أتبعه المسلمون فى فتوحاتهم فى البلاد التى كانت معرفتهم بها قليلة ، فقد اتبعوا ذلك فى شمال إفريقيا وفى الاندلس عندما كانوا يرسلون الحملات الاستطلاعية لارتياد البلاد ومعرفة طرقها ، ومناخها وظروفها ، وهى مراحل تمهيدية تسبق الفتح المنظم إلى ان يحين وقته ، كما أن عبور النهر الذى بدأ منذ عهد معاوية يدل على أن سياسة المسلمين فى تثبيت الفتوحات فى بلاد فارس قد نجحت ، وان خراسان بالذات التىكانت أكثر الاقاليم التى قاومت ، لم تستكن للمسلمين وتنضوى تحت حكمهم فحسب ، بل أصبحت منطلقهم إلى بلاد ماوراء النهر، كما خطط لذلك زياد بن أبى سفيان .

وبعد هذه الحملات الأولى مضت بضع عشرة سنة قبل أن يتمكن المسلمون من استئناف غزواتهم فى هذه البلاد ، وهذه السنوات الممتدة من نهاية خلافة يزيد بن معاوية ٦٠ — ٦٤ هـ إلى أواخر خلافة عبد الملك بن مروان ٦٥ — ٨٦ هـ شهدت العديد من الفتن والثورات الداخلية التى شغلت المسلمين وعاقت تقدمهم فى فتح أقاليم ما وراء النهر . لكن حين تمكن عبد الملك بن مروان من القضاء على عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ بدأ يتنفس الصعداء ومنذ أن أصبح الحجاج واليا على العراق سنة ٧٥ هـ بدات الحركة تدب فى الأطراف الشرقية للدولة ، واستؤنف الفتح فيما وراء النهر ، وأول من عبر النهر فى هذه المرحلة هو أمية بن عبد الله بن خالد ، الذى ولاه عبد الملك على خراسان ، ولكن غزوته لم تكن ناجحة ، لأنه بمجرد عبوره النهر جاءته الأخبار بعصيان بكير بن وشاج — الذى كان يلى خراسان قبله وعزل به — وموسى بن عبد الله بن خازم مما اضطره أن يصالح اهل بخارى

---

(٣٥٩) نفسه ص ٥١٠ .

ويعود إلى خراسان(٣٦٠) .

وفى سنة ٧٨ هـ عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن خراسان ، وضمها إلى الحجاج مباشرة ، فاختار لها رجلا من خيرة رجال عصره ، ومن القادة المبرزين وهو المهلب بن أبى صفرة(٣٦١) ، صاحب البلاء الحسن فى كسر شوكة الخوارج — المهلب ليس غريبا على خراسان ، ولا على بلاد ماوراء النهر ، فقد صحب سعيد بن عثمان بن عفان فى غزوته وفقئت عينه هناك — كما أشرنا آنفا —

وقد بدأ المهلب غزوه لبلاد ماوراء النهر سنة ٨٠ هـ يقول ابن الأثير : « وفى هذه السنة قطع المهلب نهر بلخ(٣٦٢) ، ونزل على كش ، وعلى مقدمته أبو الأدهم الزمانى فى ثلاثة آلاف ، وهو فى خمسة آلاف ، وكان أبو الأدهم يغنى غناء الفين فى البأس والتدبير والنصيحة ، فأتى المهلب وهو نازل على كش ابن عم ملك الختل فدعاه إلى غزو الختل فوجه معه ابنه يزيد ، وكان اسم ملك الختل الشبل ، فنزل يزيد ونزل ابن عم الملك ناحية ، فبيته الشبل وأخذه فقتله ، وحاصر يزيد قلعة الشبل فصالحوه على فدية حملت إليه ، ورجع يزيد عنهم ، ووجه المهلب ابنه حبيبا فوافى صاحب بخارى فى أربعين الفا ، فنزل جماعة من العدو قرية فسار إليهم حبيب فى أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية ، فسميت المحترقة ، ورجع حبيب إلى أبيه ، وأقام المهلب بكش سنتين ، فقيل له : لو تقدمت إلى ماوراء ذلك فقال: ليت حظى من هذه الغزاة سلامة هذا الجندوعودهم سالمين(٣٦٣) » .

---

(٣٦٠) انظر البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٠٣ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٤٤٤ .

(٣٦١) ابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٤٨ .

(٣٦٢) المقصود نهر جيجون ، يقول ياقوت : « وهو يسمى نهر بلخ مجازا لأنه يمر بأعمالها فأما مدينة بلخ فإن اقرب موضع منه إليها مسيرة اثنى عشر فرسخا — معجم البلدان جـ ٢ ص ١٩٧ .

(٣٦٣) الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٤٥٣ — ٤٥٤ والبلاذرى — فتوح البلدان ص ٥١٤ ، والطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

ولم يلبث المهلب أن توفى بعد عودته سنة ٨٢ هـ(٣٦٤) وخلفه على خراسان ابنه يزيد واقره الحجاج ، وقد قام يزيد بن المهلب بغزو خوارزم(٣٦٥) ، ولكن الحجاج عزله وعين مكانه أخاه المفضل بن المهلب ، ثم لم يلبث أن عزل المفضل ايضا وولى قتيبة بن مسلم ، الذى قدر له أن يفتح هذه البلاد ، ويجعلها جزءا من العالم الإسلامى ، ولكن قبل أن نمضى مع قتيبة فى فتوحاته ، ينبغى أن نعرف أحوال تلك البلاد آنئذ .

احوال بلاد ماوراء النهر عندما فتحها المسلمون :

ما وراء النهر لفظ استخدمه المؤرخون والجغرافيون المسلمون للتعبير عن المنطقة المحصورة بين نهرى جيجون فى الجنوب ، وسيحون فى الشمال ، وتقع فى الشمال الشرقى من حدود الدولة الفارسية القديمة ، وسكان هذه المنطقة من العنصر التركى الذى انحدر إليها من الشرق ، منذ القرن السادس الميلادى ، وكونوا لهم عدة ممالك مستقلة فيها ، وأهم مصدر حديث يمدنا بمعلومات قيمة عن أصل هؤلاء السكان ، هو دراسة المؤرخ الروسى بارتولد ، والمتخصص فى تاريخ الترك ، بصفة عامة ، والذى اعتمد بدوره على آثار أورخون التى يعتبرها أهم مصدر فى الكشف عن ظهور الترك فى آسيا الوسطى ، ويقول عنها : « ومن الآثار التى تهم صاحب الدراسات التركية ، وتهم المؤرخ أيضا آثار أورخون ، وهى تخلد أقدم ذكر للسان التركى ، وقد اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهى أقدم آثار تركية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم ، فأصحاب هذه الآثار قد سموا أنفسهم لأول مرة فى التاريخ بالترك ، وهم قوم قد ظهروا فى القرن السادس ، واستولوا فى زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين إلى إيران وبيزنطة(٣٦٦) » .

---

(٣٦٤) الطبرى — المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٥٥ ، وابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٧٥ .

(٣٦٥) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥١٤ .

(٣٦٦) بارتولد — تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٢ — ٣ ، وانظر د . حسن أحمد محمود — الإسلام فى آسيا الوسطى ص ١٣٥ ومابعدها .

وطبقا لنظرية الأستاذ بارتولد فى دراسته يكون سكان ماوراء النهر من أصل تركى ، وليسوا خليطا من الأتراك والإيرانيين ، كما يرى الدكتور شكرى فيصل(٣٦٧) . والدولة الساسانية لم تستطع قط أن تفرض نفوذها السياسى عليهم ، وإن كان لها تأثير ثقافى ودينى بحكم تفوقها الحضارى ، وسيطرتها على طرق التجارة البرية والبحرية(٣٦٨) ، وربما كان عجز الساسانيين عن فرض سلطانهم السياسى على الترك فيما وراء النهر — بل حتى أحيانا عن حماية حدودهم منهم — راجعا إلى انشغالهم بصراعهم الدائم مع البيزنطيين ، « وقد أفاد الترك من هذا الوضع ، فسلبوهم حوض نهر جرجان ، الذى يصب حاليا فى بحر الخزر — بحر قزوين — ولكن الأتراك باستيلائهم هذا ، وقعوا تحت تأثير المدنية الإيرانية ، ودخلوا فى الديانة الزرادشتية ، ويدلنا هذا المثل على أن إيران الساسانية كانت تؤثر بفضل مدنيتها وأهميتها الاقتصادية على جيرانها دون أن تنتصر عليهم عسكريا(٣٦٩) »

قامت فى هذه المنطقة **عدة ممالك** مستقلة عن بعضها البعض ، بل ومتحاربة باستمرار(٣٧٠) .

مملكة طخارستان — وهى بلاد واسعة تقع على ضفتى نهر جيجون — من أهم هذه الممالك ، وكانت بلخ عاصمتها ، وقد نسب إليها نهر جيجون ، فكان يطلق عليه نهر بلخ(٣٧١) .

مملكة الختل ، وهى كورة واسعة كثيرة المدن ، وقصبتها هلبك ، وهى أول مملكة وراء نهر جيحون(٣٧٢) .

---

(٣٦٧) حركة الفتح الإسلامى ص ١٩٢ .

(٣٦٨) بارتولد — المرجع السابق ص ٤٠

(٣٦٠) المرجع السابق ص ٤٠

(٣٧٠) د. حسن أحمد محمود — المرجع السابق ص ١٣٧

(٣٧١) المسعودى — مروج الذهب ج ١ ص ١٠١ — وياقوت — معجم البلدان ج ٢ ص ١٩٧ .

(٣٧٢) ياقوت — المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٦

مملكة صغانيان ، وهى ولاية عظيمة متصلة الأعمال بترمذ وقصبتها تسمى صغانيان أيضا(٣٧٣) .

مملكة الصغد ، وقصبتها سمرقند ، ويقال هما صغدان ، صغد سمرقند وصغد بخارى(٣٧٤) . ثم **مملكة خوارزم** ، وقصبتها الجرجانية(٣٧٥) .

وبالإضافة إلى هذه الممالك الواقعة بين النهرين ، فتح العرب عدة أقاليم أخرى ، خلف نهر سيحون ، عرفت بالممالك السيحونية ، ومنها مملكة فرغانة ، وعاصمتها تسمى فرغانة أيضا(٣٧٦) ، ومملكة اشروسنة إلى الشرق من فرغانة(٣٧٧) ، ثم مملكة الشاش إلى الشمال من أشروسنة .

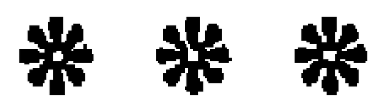
هذه هى البلاد التى اتم المسلمون فتحها فى خلافة الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلى ، فكيف كانت أوضاعها السياسية والاجتماعية ؟ كانت أوضاع هذه المنطقة التى أصبحت متاخمة لحدود المسلمين فى خراسان غير مستقرة سياسيا — قبيل الفتح الإسلامى — وكانت المنازعات دائمة بين الولايات ، وقد شكل هذا الوضع خطرا على المسلمين مما جعلهم يفكرون فى وضع حد لحالة الفوضى فى هذه البلاد ، وضمها للدولة الإسلامية وإخضاعها للنظام ، قبل أن يستفحل خطرها ، وسكان هذه الأقاليم وإن كانت الروابط بينهم غير قوية ، إلا أنهم محاربون أشداء وقد يحفزهم إحساسهم بالخطر من جانب المسلمين على توحيد صفوفهم لمحاربتهم خصوصا وأنهم قد سبق لهم عبور النهر لنجدة يزدجرد الثالث فى خراسان ضد المسلمين،فكان من الحكمة أن يطرقهم المسلمون قبل أن يصلوا إلى هذه المرحلة . ونستعير تلخيص الاستاذ جب — فى كتابه غزوات العرب فى آسيا الوسطى — للوضع السياسى فى هذه المناطق حيث يقول : « كانت

---

(٣٧٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .
(٣٧٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٠٩ .
(٣٧٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٩٥ .
(٣٧٦) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥٣
(٣٧٧) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٧

الولايات فى هذه المنطقة تعترف بالخان سيدا لها ، وتدفع له الجزية ، وكانت إمارة صغديان — الصغد — مقسمة إلى ولايات صغيرة مستقلة ، تقوم بينها معاهدات مرنة ، وكان اقوى ما يصل بينها من رباط إنما هو تجارة الحرير مع الصين ، وأهم مراكزها سمرقند وبيكنــد وكش ، وكانت سمرقنــد أوفرها حظا من النجاح فى عــالم التجارة ، ومنها كانت ترســل البعوث التجارية إلى بلاد الصين ، اما المشتغلون بالزراعة فكانو كلهم من الجنس الآرى ، وقد ارتبطت الولايات فيما عدا ذلك برباط ثان ، وهو سيادة أسرة معينة فيها على جميع الأسر الأخرى ، ولكنه لم يكن رباطا وثيقا ، وكان إلى جانب هؤلاء الأمراء سادة محليون ، لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه، وكل شيىء فى هذه الاوضاع الاجتماعية والتفكك السياسى فى حياة هذه الولايات ، كان فى صالح الفتح العربى »(٣٧٨) .

هذه هى بلاد ماوراء النهر ، التى بدا المسلمون يطرقون أبوابها منذ أن وطدوا أقدامهم فى خراسان ، وبصفة خاصة من بداية عهد معاوية بن ابى سفيان إلى أن تسلم الراية قتيبة بن مسلم .



(٣٧٨) الدكتور شكرى فيصل — حركة الفتح الإســلامى ص ٢٠٩. نقلا عن جب — غزوات العرب فى آسيا الوسطى .

فتوحات قتيبة بن مسلم فيما وراء النهر

ولى قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلى خراسان من قبل الحجاج سنة ٨٥ هـ ، بعد عزل المفضل بن المهلب — كما سبقت الإشارة — وكان قتيبة من الابطال الشجعان ، ذوى الحزم والدهاء والرأى والغناء ، ويعتبر بحق من اعظم القادة الفاتحين ، الذين عرفهم التاريخ الإسلامى ، بعامة ، وتاريخ الدولة الأموية بخاصة ،(٣٧٩) ففى خلال عشر سنين ، فتح أقاليم شاسعة «وقد هـــدى الله على يديه خلقا لا يحصيهم إلا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل »(٣٨٠) .

حمل قتيبة راية الفتوحات فى بلاد ما وراء النهر فى وقت ملائم تماما، وأفاد من جهود القادة الذين سبقوه ومهدوا له الطريق على مدى يزيد عن الأربعين عاما . كما كان يستند إلى والى العراق القوى الحـــازم اليقظ ، الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى اختاره لهذه المهمة ، ووضع ثقته فيه ، ولم يقصر فى إمداده بالرجال وتشجيعه وحثه على الإقدام كما كان من حسن حظ قتيبة أن ولايته على خراسان واضطلاعه بقيادة الفتوحات فيما وراء النهر — فى أواخر خلافة عبد الملك بن مروان — جاءت فى وقت كانت الدولة الأموية قد تغلبت على جميع مناوئيها واستقرت أمورها ، واستردت عافيتها وقوتها، فاجتمعت لقتيبة شجاعة القائد وإقدامه ، وعزم الوالى وتصميمه ، وقـــوة الدولة ، واستقرارها ، فكانت أعماله الرائعة فيما وراء النهر .

ولقد كان قتيبة يدرك أنه مقدم على تنفيذ عمل جليل وخطير،وهو فتح بلاد ما وراء النهر ، ولابد أنه ناقش تفاصيل هذا المشروع مع الحجاج قبل أن يتوجه إلى خراسان ، واستعرض معه كل الوسائل التى تؤدى إلى نجاحه ولقد برهن قتيبة على أنه لم يكن قائدا عسكريا فذا فقط ، وإنما رجل إدارة

(٣٧٩) انظر ترجمة قتيبة واخبـــاره فى — ابن قتيبة — المعـــارف ص ٤٠٦ ، والطبرى جـ ٦ ص ٣٩٥ ، ٥٠٦ وابن الاثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ص ١٢ ، والذهبى — سير اعلام النبلاء جـ ٤ ص ٤١٠ ، وابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٦٧

(٣٨٠) ابن كثير — المصدر السابق جـ ٩ ص ١٦٧

وتنظيم ، كما برهن على أنه كان يعرف كل شيء عن أحوال خراسان قبل أن يصل إليه . فقد كانت رياح الخلافات والعصبيات العربية قد هبت عليها، من جراء التنافس على الولاية ، حيث ترك مقتل عبـد الله بن خـازم أثره هناك ،(٣٨١) ، كما أن تنحية آل المهلب عن مركز الصدارة فى خراسان وهم أزد يمنيون لهم عصبية كبيرة ، لابد أن تكون لها عواقب ، فكان على قتيبة أن يقضى على هذه العوائق وأن ينسى العرب خلافاتهم ، ويجعلهم يرتفعون فوق العصبيات،ويذكرهم برسالتهم السامية ويعدهم للجهاد فى سبيل الله، فجمع أعيانهم لأول ما وصل خراسان ، وخطبهم قائلا : « إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ، ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المـال استفاضـة ، والعدو وقما — أى ذلا — ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق ، وكتاب ناطق، فقال : « **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** »(٣٨٢) ووعد المجاهدين فى سـبيلة أحسن الثواب ، وأعظم الذخر عنده فقال : « **ذلك بأنهم لا يصبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله** » إلى قوله : « **أحسن ماكانوا يعملون** »(٣٨٣) ثم أخبر عمن قتل فى سبيله أنه حى مرزوق ، فقال : « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** »(٣٨٤) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإياى والهوينى »(٣٨٥) .

بهذه الخطبة الموجزة ذكر قتيبة العرب برسالتهم ، ومسئوليتهم تجاهها، وأهاب بهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقة فى سبيل الله وأن يسيروا

---

(٣٨١) كان عبد الله بن خازم قد تغلب على خراسان أثناء حركة ابن الزبير فأمره عبد الملك عليها ، ولكنه أبى طاعته ، فكتب إلى بكير بن وشاج — وكان على شرطة ابن خازم — بولايتها ، فنشب بينهما صراع انتهى بمصرع ابن خازم ، فأدى ذلك إلى تفاقم الخلافات بين العرب فى خراسان . انظر البلاذرى — فتوح البدان ص ٥١١ — ٥١٣

(٣٨٢) سورة الصف — الآية ٩

(٣٨٣) سورة براءة الآيتان ١٢٠ — ١٢١

(٣٨٤) سورة آل عمران — الآية ١٦٩

(٣٨٥) الطبرى — تاريخ ج ٦ ص ٤٢٤

فى طريق أسلافهم ، طريق الجهاد لنصرة دينهم ، والنتيجة مضمونة وهى العزة فى الدنيا ، والفوز بالجنة فى الآخرة .

وقد نجح قتيبة فى توحيد صفوف العرب تحت راية الجهاد ، كما عمل على كسب ثقة الخراسانيين وودهم ، فقربهم وعهد إليهم بالوظائف ،(٣٨٦) وبذلك ضمن تعاونهم معه لتحقيق هدفه ، وهذه بداية سليمة تدل على ذكاء وخبرة ومقدرة إدارية كبيرة .

وليس من اليسير هنا تتبع خطوات قتيبة خطوة خطوة ، فى فتوحاته التى استمرت حوالى عشر سنين ٨٦ — ٩٦ هـ والتى فتح فيها منطقة ماوراء النهر ثم عبر نهر سيحون ، وفتح عدة أقاليم خلفه ، حتى وصل كاشغر متاخما بذلك حدود الصين . ولذلك فإننا نكتفى بالوقوف عند المراحل الكبرى فى هذه الفتوحات ، وهى :

المرحلة الأولى : من سنة ٨٦ — ٨٧ هـ — وهى المرحلة التى أخضع فيها إقليم طخارستان ، ذلك الإقليم الكبير الذى يقع على ضفتى نهر جيحون، ويبدو أن هذا الإقليم لم تستقر أوضاعه للمسلمين طوال هذه السنين منذ فتحه الأول على يدى الأحنف بن قيس فى خلافة عثمان بن عفان(٣٨٧) . مما اضطر قتيبة إلى فتحه من جديد ، قبل أن يمضى إلى فتوحاته فيما وراء النهر ، لأن فتح ماوراء النهر لم يكن ممكنا بدون بسط سيطرة المسلمين على طخارستان(٣٨٨) ، وبعد أن استتب الأمر لقتيبة فى خراسان استخلف عليها إياس بن عبد الله بن عمر(٣٨٩) ، وسار إلى طخارستان « فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وبعض عظمائها فساروا معه ، فلما قطع النهر تلقاه تيش الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده.. واتى ملك كفتان بهدايا واموال ، ودعاه إلى بلاده ، فمضى مع تيش إلى الصغانيان فسلم إليه بلاده ، ثم جاء غشتاسبان ملك اخرون وشومان،وهما

---

(٣٨٦) انظر د. شكرى فيصل — حركة الفتح الإسلامى ص ٢١٥
(٣٨٧) انظر الطبرى — تاريخ — جـ ٤ ص ٣١٣
(٣٨٨) د. شكرى فيصل — حركة الفتح الإسلامى ص ٢١٠
(٣٨٩) الطبرى — المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٢٤

من طخارستان ، فصالحه على فدية اداها إليه ، فقبلها قتيبة ورضى ، ثم انصرف إلى مرو واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم »(٣٩٠) ، يفهم من هذه الرواية أن طخارستان خضعت لقتيبة بدون قتال . ولكن الطبرى نفسه يورد رواية أخرى يفهم منها أن قتيبة لقى حربا ، حيث يقول : « وقد قيل أن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر فى هذه السنة — ٨٦ هـ — على بلخ لأن بعضها كان منتقضا عليه .. فحارب أهلها .. ثم إن أهل بلخ صالحوا من غـــد اليوم الذى حاربهم قتيبة فيه » وعلى كل حال لايبـــدو الخلاف كبيرا بين الروايتين ، لأن أهل بلخ لم يكونوا ملحين فى حربهم لقتيبة ، بدليل أنهم صالحوا من غد اليوم الذى حاربوا فيه ، وقد خضعت طخارستان طوعا أو صلحا بعد قتال يسير،ولكن متاعب قتيبة لم تنته مع أهلها،وبصفة خاصة من جانب نيزك صاحب قلعة بادغيس ، الذى كان قتيبة قد صالحه على ألا يدخل قلعته »(٣٩١) ووفى له قتيبة ، بل صحبه معه فى غزوة بيكند سنة سبع وثمانين(٣٩٢) . إلا انه غدر ونقض الصلح فيما بعد وعمل على تكوين حلف من ملوك طخارستان ضد قتيبة(٣٩٣) ، ومع أن هؤلاء الملوك أجابوه وخلعوا طاعة قتيبة ، أثناء غيابه فيما وراء النهر ، إلا أنهم بمجرد عودته سارعوا للقائه والاعتذار له عما حدث ، أما نيزك فقد لقى مصيره ، الذى يستحقه فقد قبض عليه قتيبة ، وقتله مع سبعمائة من أنصاره وكان مقتله سنة ٩١هـ (٣٩٤) . وبمقتله استقرت أمور طخارستان للمسلمين نهائيا .

---

(٣٩٠) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٢٥ ، والبلاذرى — فتوح البلدان ص ٥١٦ — ٥١٧

(٣٩١) الطبرى : تاريخ جـ ٦ ص ٤٢٧

(٣٩٢) البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥١٧

(٣٩٣) الطبرى — المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٤٥ — ٤٤٦

(٣٩٤) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٥٨ ، والبلاذرى — المصدر السابق ص ٥١٧

المرحلة الثانية : من ٨٧ ـ ٩٠ هـ :

وهى المرحلة التى فتح فيها قتيبة إقليم بخارى :

وكانت أول مدينة غزاها فى هـــذا الإقليم ، هى مدينة بيكند ، يقول الطبرى : « إن قتيبة لمـــا صالح نيزك ، أقام إلى وقت الغزو ، ثم غزا فى تلك السنة « ٨٧ هـ » فقطع النهر وسار إلى بيكند ، وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل بعقوتهم استنصروا الصغد ، واستمدوا من حولهم ، فأتوهم فى جمع كثير ، وأخذوا بالطريق ، فلم ينفذ لقتيبة رسول ، ولم يصـــل إليه رســـول ، ولم يجر له خبر شهرين ، وأبطأ خبره على الحجاج ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر النـــاس بالدعاء لهم فى المساجد ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وهم يقتتلون كل يوم ، فكانت بين الناس مشـــاولة(٣٩٥) ، ثم تزاحفوا والتقوا وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر ، ثم منح الله المســـلمين أكتافهم فانهزموا يريدون المدينة ، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلا وأسرا كيف شاءوا واعتصم من دخـــل المدينة بالمدينـــة ، وهم قليل ، فوضـــع قتيبة الفعـــلة فى أصـــلها ليهدمها ، فسألوه الصلح فصالحهم ، واستعمل عليها رجلا من بنى قتيبة(٣٩٦) » ولكنهم سرعان ما نقضوا الصـــلح ، وقتيبة منهم على خمسة فراسخ فرجع إليهم ، وقتل من كان فى المدينـــة ، وغنم غنائم كثيرة « ورجع قتيبة إلى مرو ، وقوى المسلمون ، فاشتروا الســـلاح والخيل .. وتنافسوا فى حســـن الهيئة والعـــدة »(٣٩٧) .

استمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى فى هذه المرحلة بصـــفة منتظمة كل ســـنة ، وكان غزوه يتم فى فصل الصيف ، فإذا دخل الشتاء عاد إلى مرو .

---

(٣٩٥) المشاولة القتال بالرماح .

(٣٩٦) الطبرى ـــ تـــاريخ جـ ٦ ص ٤٣٠ ـــ ٤٣١ وابن الأثير ـــ الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٢٨

(٣٩٧) الطبرى ـــ المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٣٢ وابن الأثير ـــ المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٢٩

ففى سـنة ٨٨ هـ ، ترك أخاه بشارا على مرو وعبر النهر ففتح نومشكث ورامثنة من أعمال بخارى صلحا بناء على طلب أهلها(٣٩٨) . ولكن هاله حلف من اهل فرغانة والصغد فى مائتى الف عليهم ابن أخت ملك الصين — كورمغايون — وواضح من هـذا التجمع الكبير أن الأمم فى هذه المناطق قد تداعت وتحالفت على المسلمين ، ولكن الله نصر قتيبة وجنده على هذا الحلف ، ثم عاد إلى مرو(٣٩٩) .

وفى العام التالى ٨٩ هـ استأنف قتيبة فتوحاته وقصد بخارى هذه السـنة بناء على اوامر الحجاج ، فلقيه فى طريقه جمع من أهـل كش ونسـف فظفر بهم ، ومضى إلى بخارى ، فتصدى له ملكهـا — وردان خذاه — فلم يستطع الاستيلاء عليها ، فرجع إلى مرو ، وكتب إلى الحجاج يخبره فطلب منه الحجاج أن يصورها له فبعث إليه بصورتها ، فنصحه وأمده وعرفه الموضع الذى يأتيها منه ، وأمره بالمسير إليها ، فسار إليها سـنة ٩٠ هـ ومع أن وردان خذاه كان قـد استجاش الصـغد والترك ليساعدوه فى التصـدى لقتيبة ، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم بعـد معارك شرسة ، واستولى على بخارى ، وكتب بالفتح إلى الحجاج(٤٠٠) ، وبهذا استكمل قتيبة فتح إقليم بخارى كله فى ثلاث سنوات .

المرحلة الثالثة من ٩٠ — ٩٣ هـ :

وهى المرحلة التى فرض فيها قتيبة السـيادة الإسلامية على حوض نهر جيحون ، وتوج عمله فيها بالإستيلاء على مدينة سمرقند ، أعظم المدائن فى بلاد الصـغد ، وكان طرخون ملك الصغد ، قد أرسل إلى قتيبة بعد انتصـاره فى معركة بخارى سنة ٩٠ هـ ، يطلب الصلح ، فأجاب قتيبة

---

(٣٩٨) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٤٣٦ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٣٣

(٣٩٩) المصدران السابقان على الترتيب جـ ٦ ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٥٣٣/٤

(٤٠٠) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٤٤٢ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٤٢

وصالحه ، ورجع قتيبة(٤٠١) ، وفى سنة ٩١ هـ كان غدر نيزك — صاحب قلعة بادغس — وتأليبه ملوك طخارستان ، ورتبيل ملك سجستان على المسلمين ، وقد نكل به قتيبة وقتله جزاء غدره كما مر ذكره(٤٠٢) ، وفى سنة ٩٢ هـ غزا قتيبة سجستان من الشمال وربما كانت تلك أول مرة يغزو فيها قتيبة سجستان ، وربما كان قد أراد تأديب رتبيل ملكها لانضمامه إلى نيزك فى غدره ، ولكن رتبيل قدر العواقب وطلب الصلح فقبل قتيبة ، وصالحه ، وانصرف عائدا إلى مرو ، وترك عبد ربه بن عبد الله ابن عمير الليثى عاملا على سجستان(٤٠٣) .

وفى سنة ٩٣ هـ ، فتح قتيبة خوارزم صلحا ، وكان ملكها هو الذى دعاه وبعث إليه بمفاتيح مدائن خوارزم ثلاثة مفاتيح من ذهب ، وصالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع(٤٠٤) .

فتح سمرقند :

توج قتيبة فتوحاته فى هذه المرحلة بفتح سمرقند ، وهى أعظم مدائن ماوراء النهر ، والذى دعاه إلى ذلك أن طرخون ملكها كان قد نقض الصلح الذى أبرمه معه قتيبة سنة ٩٠ هـ ، وامتنع عن دفع ما كان صالح عليه ، فقرر قتيبة أن يضع حدا لهذا العبث ، فجمع جنده وأخبرهم بنقض طرخون الصلح وبعزمه على فتح سمرقند بالقوة ، وجهز أخاه عبد الرحمن بن مسلم فى عشرين ألف مقاتل وأمره بالمسير أمامه ، ثم تبعه هو فى أهل خوارزم وأهل بخارى وضرب عليها الحصار وقال : إنا إذا نزلنا

---

(٤٠١) المصدران السابقان على الترتيب ج ٦ ص ٤٤٥ ، ج ٤ ص ٥٤٣

(٤٠٢) الطبرى — المصدر السابق ج ٦ ص ٤٥٨ ، والبلاذرى — فتوح البلدان ص ٥١٧

(٤٠٣) الطبرى — المصدر السابق ج ٦ ص ٤٦٨ وابن الأثير — المصدر السابق ج ٤ ص ٥٦٩

(٤٠٤) انظر الطبرى — المصدر السابق ج ٦ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ ، وابن الأثير — المصدر السابق ج ٤ ص ٥٧٠

بساحة قوم ((**فســاء صباح المنذرين**))(٤٠٥) ، متيمنا بقول : رسول الله ﷺ عندما حاصر خيبر ، فلما رأى أهل سمرقند أن مدينتهم قد حوصرت ، خافوا طول الحصـــار فكتبوا إلى ملوك الشاش وفرغانه يستغيثونهم ، ويحرضونهم على المســلمين وقالوا لهم : « إن العرب إذا ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل مـــا أتونا به فانظروا لأنفسكم(٤٠٦) » . استجاب هؤلاء الملوك لنداء أهل سمرقند ، واختاروا عددا من أولادهم ومن أهل النجدة والبأس من أبنـــاء المرازبة والأســاورة والأبطال ، وأمروهم أن يفجأوا قتيبة فى معسكره ، وهو مشغول بحصار سمرقند ، ولكن قتيبة كان يقظا باثا عيونه ، ولم يغب عن باله حدوث مثل هـــذه المفاجآت ، فعلم بخبرهم ، وأرسل لهم فرقة من جنده بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، فبدد شملهم وقتلهــم ولــم يفلت منهــم إلا الشريــد ، وغنم المســلمون أمتعتهــم وأسلحتهم(٤٠٧) .

فلما رأى الصغد ماحل بهؤلاء انكسروا وضيق عليهم قتيبة الخناق ونصب المنجنيق على المدينة واستطاع إحداث ثلمة فيها ، وصاح صيحة الأسد : « حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ، أما والله لئن أصـــبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية .. فلما أصبح أمر النـــاس بالجد فى القتال فقاتلوهم ، واشتد القتـــال ، وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا ، فأرسل الصغد إلى قتيبة ، فقالوا لـــه : انصرف عنا اليوم ، حتى نصالحك غدا ، فقـــال : لانصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة ... فصالحهم من الغد على ألفى ألف ومائتى ألف مثقال فى كل عام ، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس وأن يخلوا له المدينة

---

(٤٠٥) المصدران السابقان على الترتيب جـ ٦ ص ٤٧٢ — ٤٧٣ ، جـ ٤ ص ٥٧١ (الآية ١٧٧ الصافات) .

(٤٠٦) الطبرى — المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٧٣ ، وابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٧٢

(٤٠٧) الطبرى المصدر السابق — جـ ٦ ص ٤٧٤ ، وابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٧٢

فلا يكون لهم فيها مقـاتل ، فيبنى فيها مسجدا ، ويدخل ويصلى ويخطب ويتغذى ويخرج(٤٠٨) . دخل قتيبة سمرقند وحطم ما بها من الأصنام ، ولم يعبأ بما خوفوه منها ، حيث قال له أحدهم مدعيا نصيحته : « لاتتعرض لهذه الأصنام فإن منها أصناما من أحرقها أهلكته ، فقال له : أنا أحرقها بيدى ، فأمر بإشعال النار ، وكبر ثم أحرقها ، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين الف مثقال(٤٠٩) . وبعد أن أتم قتيبة هـذا الفتح العظيم عاد إلى مرو ، لكى يستريح ، ثم يستعد لجولته الأخيرة التى سيفتح فيها المناطق السيحونية .

المرحلة الرابعة من ٩٤ — ٩٦ هـ :

وهى المرحلة التى فتح الله فيها على يديه أقاليم الشاش وفرغانة ، وكاشغر وقد بدأ هـذه المرحلة سنة ٩٤ هـ ، حيث سار فى موعد غزوه — فى الصـيف — ومعه عشرون الفا من أهـل بخارى وكش ونسـف ، وخوارزم(٤١٠) ، فوجه قسما منهم إلى الشاش ، وتوجه هو بالقسم الآخر إلى فرغانة ، حيث دار بينه وبين الترك قتـال عنيف حول مدينة خجنده ، ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة ، حيث توجه قتيبة إلى كاشان قبل أن يحسم أمر خجنده وهناك أتاه جنوده الذين كان أرسلهم إلى الشاش ويبدو أن قتيبة قـد وجد مقاومة شرسة من الأتراك فى هذا البلاد ، فقـد كتب إلى الحجاج يطلب مددا ، فأرسـل إليه جيشـا من العراق(٤١١) ، ثم أمر محمد بن القاسم الثقفى أن يوجه إليه من السند مددا أيضـا(٤١٢) ، فإمداد قتيبة بهذه الجيوش من العراق ومن السند ، فوق ما معه من قوات كبيرة ، يدل على قوة المقاومة التى لقيها فى أقاليم سيحون ، وأنه أراد أن يكون متفوقا عليهم ، حتى يحقق هدفه ، وقـد

(٤٠٨) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٤٧٥ ، والبلاذرى — فتوح البلدان ص ٥١٨ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٧٠.

(٤٠٩) الطبرى — جـ ٦ ص ٤٧٦ وابن الأثير جـ ٤ ص ٥٧٣

(٤١٠) الطبرى جـ ٦ ص ٤٨٣

(٤١١) انظر الطبرى جـ ٦ ص ٤٩٢ وابن الأثير جـ ٤ ص ٥٨٣

(٤١٢) الطبرى جـ ٦ ص ٤٨٤

نجح بالفعل وفتح أقاليم الشاش وفرغانة سنة ٩٥ هـ(٤١٣) وبعد أن أتم هذا الفتح الكبير ، جاءته الأخبار المحزنة ، فقد مات الحجاج فى شوال من تلك السنة ، فاغتم لموته ، لما كان يجد منه من التأييد والتشجيع والمساندة وقفل راجعا إلى مرو ، وتمثل قول الحطيئة :

لعمرى لنعم المرء من آل جعفر بحوران أمسى أعلقته الحبائل

فإن تحى لا أملل حياتى وإن تمت فمافى حياة بعد موتك طائل(٤١٤)

الخليفة الوليد يواسى قتيبة ويشد أزره :

عاد قتيبة إلى مرو وقد ترك حاميات من جنده فى بخارى وكش ونسف ، وانتظر ما تأتى به الأيام بعد موت الحجاج .

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجاج وقتيبة ، وأن للحجاج دورا كبيرا فى نجاح قتيبة فى مهمته ، فقدر وقع نبأ موت الحجاج عليه ، لذلك واساه وأرسل إليه رسالة كلها تشجيع وثناء وتزكية ، قال له فيها : « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك فى جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك ، فأتمم مغازيك ، وانتظر ثواب ربك ، ولاتغيب عن أمير المؤمنين كتبك ، كأنى أنظر إلى بلادك ، والثغر الذى أنت فيه(٤١٥) » وقد أحدثت هذه الرسالة أثرا طيبا فى نفس قتيبة ، وأعطته دفعة قوية من العزم والتصميم ، فتوجه من مرو ، ليواصل فتوحاته ، فقصد مدينة كاشغر ، التى يقول عنها الطبرى : « إنها أدنى مدائن الصين(٤١٦) » ومع أن الوليد بن عبد الملك قد توفى فى جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ ، ووصل نبأ وفاته إلى قتيبة وهو فى فرغانة(٤١٧) . وقبل أن يصل إلى كاشغر ، إلى أنه واصل سيره حتى

---

(٤١٣) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٩٢
(٤١٤) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٩٢ .
(٤١٥) انظر الطبرى جـ٦ ص ٤٩٢ — ٤٩٣،وابن الأثير جـ٤ص٥٨٣
(٤١٦) تاريخ جـ٦ ص ٥٠٠
(٤١٧) المصدر السابق جـ ٦ ص ٥٠٠ .

فتحها ، وهنا جاءه رسول من ملك الصين يطلب منه أن يوجه إليه وفدا ليعرف خبرهم ، يقول الطبرى : « وأوغل قتيبة حتى قرب من الصين .. فكتب إليه ملك الصين أن أبعث رجلا من أشراف من معكم ، يخبرنا عنكم ونسائله عن دينكم(٤١٨) ، فاختار قتيبة عشرة — وقيل إثنى عشر — من خيرة رجاله برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابى، فأرسلهم إلى ملكالصين ، ويقص الطبرى خبر هذه السفارة فى حديث طويل ، نكتفى منه بما انتهى إليه الحوار مع ملك الصين ، حيث قال لهم مهددا : « فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له : ينصرف ، فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه ، فرد عليه هبيرة فى شجاعة المؤمن وعزته ، فقال له : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك ، وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ، ولانخافه » .

أعادت هذه المقالة ملك الصين إلى صوابه ، وأيقن أنه أمام قوم لايجدى معهم التهديد ولا الوعيد فاعتدل فى كلامه ، وقال لهبيرة : فما الذى يرضى صاحبكم ؟ قال : إنه قد حلف الا ينصرف حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوككم ، ويعطى الجزية ، قال : فإنا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها . قال : فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختم الغلمان وردهم ، ووطىء التراب »(٤١٩) . وهكذا انتهت هذه المرحلة من فتوحات قتيبة ، التى طوى فيها أقاليم ماوراء نهر جيحون ، ثم عبر نهر سيحون ، وفتح فرغانة والشاش ، وأشروسنه ، وكاشغر ، وفرض سيادة الإسلام على ملك

---

(٤١٨) انظر القصة بتفاصيلها فى الطبرى جـ ٦ ص ٥٠١ — ٥٠٣ وابن الأثير جـ ٥ ص ٥ .

(٤١٩) انظر الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٥٠٣ ، وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٧ .

الصين ، وجعل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وكان قتيبة قائدا عسكريا فذا ، وبطلا سياسيا بارعا ، قهر الصعاب ، وتغلب على كل المشـــاكل التى واجهته ، ولم يثنه عن عزمه لاصعوبة الطـــرق ووعورتها ، ولاقسوة المناخ وشدته ، فقد كان عزمه حديدا ، وكان هدفه نبيلا ، وغايتـــه شريفة ، والعون من الله دائما مكفول لأصـــحاب هــذه الغــايات .

نهاية قتيبـــــة :

للأسف انتهت حيـــاة هذا البطل نهاية لا تليق به ، فقد مات الخليفة الوليد وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ٩٦ — ٩٩ هـ ، وكانت العلاقة بين سليمان والحجاج ورجاله ، ومنهم قتيبة غير حسنة ، قيل لأنهم كانوا وافقوا الوليد على خلـــع أخيه سليمان ، وتولية ابنه عبد العـــزيز بن الوليد(٤٢٠) . فخشى قتيبة أن يعزله سليمان ، فأرسل إليه رسائل يعزيه فى الوليد ويهنئه بالخلافة ، ويختبر نواياه نحوه ، لكن سليمان لم يعزله ، بل أرسل له عهدا بولاية خراســـان(٤٢١) ، مع رسول خاص من عنده ، تكريما له ، ولكن قتيبة تعجل وخلع طاعة سليمان قبل وصول ذلك العهد ، فغضب الناس وكرهوا خلع سليمان ، وثار الجند على قتيبة فقتلوه(٤٢٢)، وراح — يرحمه الله — ضحية تسرعه ، يقول ابن كثير بعد أن عدد مآثره وفتوحاته : « ولكن زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية .. لكن سبق له من الأعمال الصالحـــة ما قد يكفر الله به سيآته ، ويضاعف به حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبل منه ماكان يكابده من مناجزة الأعداء(٤٢٣) » . وكيفما كان الأمر فقد خسرت الأمة واحدا من أعظم وأنبل أبنائها — وجل من لايخطىء — وسيبقى اســـم قتيبة مضيئا فى التاريخ الإسلامى ، فقد أضاف للعـــالم

---

(٤٢٠) الطبرى — المصدر السابق ج ٦ ص ٥٠٧ .
(٤٢١) المصدر السابق ج ٦ ص ٥٠٨ .
(٤٢٢) انظر الطبرى — تاريخ ج ٦ ص ٥٠٦ ومابعدها،والبلاذرى — فتوح البلدان ص٥٢١ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ ج٥ ص١٢ومابعدها
(٤٢٣) البداية والنهاية ج٩ ص ١٦٨ .

الإسلامى إضافة رائعة ، ووجه مدنا كبخارى ، وسمرقند وترمذ وغيرها لتكون مراكز مشرقة للحضارة الإسلامية ومنابت لغرس الإســلام فى آسيا الوسطى فجزاه الله خير الجزاء وجعل الجنة مثواه .

مرحلة مابعــد قتيبة :

لم تحدث فتوحات إسلامية فيما تبقى من عهد الدولة الأموية فى هذه الجهات بعد فتوحات قتيبة ، وتوقفه عند كاشغر على حدود الصين . ذلك لأن الظروف التى مرت بها الدولة الأموية منذ هذا التاريخ ، وحتى سقوطها سنة ١٣٢ هـ — لم تكن تسمح بذلك . فقد انشغلت بالثورات التى بدأت تهب فى وجهها من جديد مثل ثورات الخوارج وثورة يزيد بن المهلب فى عهد يزيد بن عبد الملك ١٠١ — ١٠٥ هـ كما أن الخلافات نشبت من جديد بين العرب فى خراسان ، وفى هذا الجو بدأت الدعــوة السرية للرضا من آل محمد ، وهى الدعوة التى كان يوجهها العباسيون لمصلحتهم بكتمان ومقدرة رائعة ، والتى نجحت فى النهاية فى الإطاحة بالدولة الأموية ، كما أن التناحر والتنافس والنزاع قد احتدم بين أبناء البيت الأموى أنفسهم ، وأصبحوا يقاتل بعضهم البعض ، مما أضعف هيبة الدولة فى عيون الناس ، كما أن هذه البلاد نفسها ، التى فتحها قتيبة ، لم تكف عن التمرد والثورة ونقض العهود ، فأصبح جهد الخلفاء والولاة منصبا — بعد مرحلة قتيبة — على إخضاع الثائرين والمتمردين وردهم إلى الطاعــة والنظام(٤٢٤) ، وقــد نجحت الدولة الأموية فى ذلك ، فهى وإن كانت لم تضف جديدا إلى فتوحات قتيبة فى هذاالجزء من العالم،إلا أنها لم تتراجع ولم تخسر أرضا واحتفظت بمواقعها ، ونهض الولاة فى هــذه المناطق بمسئولياتهم ، وهيأوها لقبول الإسلام ، وجعلها جزءا لايتجزأ من العالم الإسلامى .

---

(٤٢٤) انظر البلاذرى — فتوح البــلدان ص ٥٢٣ — ٥٢٧ تجــد تفاصيل جهود الولاة الأمويين فى تثبيت الفتوحات فيما وراء النهر — بعد مقتل قتيبة بن مسلم .

فتـوح السنـد

يقع إقليم السند فى شمال غـرب شبه القارة الهندية ، وشرق بلاد فارس الجنوبية مكونا دلتا نهر السند(٤٢٥) .

وبعد أن استقام الأمر للمسلمين فى جنوب فارس ، وقضى الحجـاج إبن يوسف على حركات رتبيل ملك سجستان وأخضعه للسيادة الإسلامية بدأ يعد العدة لفتح السند ، ويعتبر فتح السنـد شبيها بفتوحات أقاليم ماوراء النهر من عـدة وجوه ، منها وحـدة الزمان ، فقد بدأ المسلمون فتوحاتهم فى هذا الإقليم سنة ٨٩ هـ أى بعد أن بدأ قتيبة بن مسلم فتوحه لما وراء النهر بعامين اثنين ، وفى ظل الوحدة التى ضمت العالم الإسلامى فى عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦ ــ ٩٦ هـ ، ومنها وحدة القيادة العامة ، فكما كان الحجاج بن يوسف الثقفى ــ والى العراق والمشرق الإسلامى ــ هو الذى وجه قتيبة بن مسلم لفتـح ماوراء النهر فكذلك كان هو نفسه الذى وجه صهره وابن عمه محمد بن القاسم الثقفى(٤٢٦) لفتح إقليم السند ، وكان القوة المحركة وراء القائدين العظيمين،ومنها وحدة الإعداد والتجهيز، فكما تم فتح بلاد ماوراء النهر بعد سلسلة طويلة من الغزوات الخاطفة ، بقصد التدرب على طبيعة البلاد واكتساب المزيد من الخبرة عن أحوالها استعدادا للمعارك الحاسمة(٤٢٧)،فكذلك حدث الشىء نفسه فى إقليم السند، حيث طرق المسلمون هذا الإقليم منذ خلافة عمر بن الخطـاب ، ولم تكد تنقطع عنه الغزوات حتى جاء محمد بن القاسم الثقفى وأتم فتحه ، وجعله جزءا من الدولة الإسلامية . ويمـدنا البلاذرى بمعلومات مستفيضة عن غزوات المسلمين وحملاتهم على ثغر السنـد منذ عهد عمر ، حيث أرسل واليه على البحرين وعمان ، عثمان بن أبى العاص الثقفى أخاه المغيرة بن

---

(٤٢٥) انظر ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ج ٣ ص ٢٦٧ .

(٤٢٦) محمد بن القاسم هو ابن ابن عم الحجاج وإنما يطلق عليه ابن عمه تجاوزا .

(٤٢٧) انظر د . حسن أحمد محمود ــ الإسلام فى آسيا اوسطى ص ٢٠٩ .

أبى العاص إلى خور الديبل فلقى العدو فظفر به(٤٢٨) ، وفى عهد عثمان ابن عفان استمر اهتمام المسلمين بأمر ثغر السند ، فقد أمر عثمان واليه على البصرة ، عبد الله بن عامر أن يوجه إليه من يعلم له خبره ، فأرسل حكيم بن جبلة العبدى ، فلما عاد أرسله ابن عامر إلى عثمان ، فلما سأله عن أحوال البلاد ، قال يا أمير المؤمنين . « قد عرفتها وتنحرتها ، قال : فصفها لى ، قال : ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، إن قل فيها الجيش ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا ، فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ قال : بل خابر ، فلم يغزها أحــد(٤٢٩) » وقد تكون أحداث الفتنـــة فى النصف الأخير من خلافة عثمـــان قد شغلت المسلمين عن الاهتمـــام بأمر السند ، لكن على بن أبى طالب استأنف توجيه الغزوات إلى ثغر السند . فقد أرسل سنة ٣٨ هـ الحارث بن مرة العبدى لغزو السند » فظفر وأصاب مغنما وسبيا . وقسم فى يوم واحد ألف رأس ، ثم إنه قتل ومن معه بأرض القيقان إلا قليـــلا(٤٣٠) » وفى عهد معاوية بن أبى سفيان ازداد اهتمام المسلمين بأمر هذا الإقليم ، الذى أصبح متاخما لحدودهم ، فقام المهلب بن أبى صفرة بغزوه سنة ٤٤ هـ ، حيث وصل إلى بنة(٤٣١) ولاهور ، وهما بين الملتـــان(٤٣٢) ، وكابل(٤٣٣) ، ثم وصل القيقـــان ، حيث استشهد

---

(٤٢٨) فتـــوح البلدان ص ٥٣٠ ، والديبل : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند وهى مدينة كراتشى الحالية فى باكستان . راجع ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٩٥

(٤٢٩) المصدر السابق ص ٥٣٠ .

(٤٣٠) المصدر السابق ص ٥٣١ ، ومعجم البلدان لياقـــوت جـ ٤ ص ٤٤٣ والقيقـــان من بلاد السند مما يلى خراسان . انظر المصدرين الســـابقين .

(٤٣١) بنة مدينـــة بكابل — انظر ياقوت — المصدر السابق جـ ١ ص ٥٠٠

(٤٣٢) الملتـــان أو مولتـــان بالواو هى مدينـــة من نواحى الهنـــد قرب غزنه — معجم البلدان جـ ٥ ص ١٨٩

(٤٣٣) كابل — ولاية كبيرة بين الهند وغـــزنه — المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٢٦

الحـــارث بن مرة ورفاقه ، ولقى المهلب جمعـــا من الترك فهزمهم وظفر وغنم وعاد . وفى هذه الغزوة يقول الأزدى :

ألـــم ترى أن الأزد ليلة بيتـــوا ببنة كانوا خير جيش المهلب(٤٣٤)

ثم غزا عبد الله بن سوار العبدى القيقان ، فأصاب مغنما ثم وفد على معاوية واهدى إليه خيلا قيقانية ، فاستجاشوا الترك فقتلوه(٤٣٥) .

وقد تصاعد اهتمام المسلمين بإقليم السند منذ أصبـــح زياد بن أبى سفيان واليـــا على البصرة سنة ٤٥ هـ ، فقد أرسل زياد عدة حملات إلى الثغر ، منها حملة سنـــان بن مسلمة بن المحبق الهزلى(٤٣٦) ، وحملة راشد بن عمرو الجديدى ، ولم يكتف زياد بتوجيه الحملات على السند من مكران فى جنوب شرق فارس ، وإنما بـــدأ يغزوها من سجستان ، حيث ارسل ابنه عباد فقطع المفازة حتى أتى القندهار(٤٣٧) ، فقاتل أهلهـــا وهزمهم وفتحها بعـــد أن اصيب رجال من المسلمين(٤٣٨) ، ثم ولى زياد المنذر بن الجارود العبدى ثغر السند ، فغزا البوقان(٤٣٩) ، والقيقان وفتح قصـــدار(٤٤٠) وسبى بها ، وكان سنان قد فتحها إلا أن اهلهـــا انتقضوا ، ومات هو هناك فقال الشـــاعر :

حـــل بقصـــدار فاضحى بهـــا فى القبر لم يقفـــل مع القـــافلين
لله قصـــــدار واعنابهــــــــا اى فتى دنيـــا اجنت ودين(٤٤١)

---

(٤٣٤) البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٣١
(٤٣٥) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٨ — والبلاذرى ص ٥٣١
(٤٣٦) تاريخ خليفة ص ٢١٢ ، والبلاذرى ص ٥٣١
(٤٣٧) القندهار : مدينة فى الإقليم الثالث ، وهى من بلاد السند — معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٠٢ — ٤٠٣
(٤٣٨) البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٣٢
(٤٣٩) البوقـــان بلد بأرض الســـــند ياقوت — معجم البـــلدان جـ ١ ص ٥١٠
(٤٤٠) قصدار — ناحية مشهورة قرب غزنة : المصـــدر الســـابق جـ ٤ ص ٣٥٣
(٤٤١) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٣٦ ، البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٣٣

وتوالت حملات المسلمين على السند طوالَ عهد معاوية بن أبى سفيان ومنذ وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، توقفت الحملات بسبب الصراع الداخلى بين المسلمين ولم تستأنف إلا بعد أن ولى الحجاج بن يوسف العراق سنة ٧٥ هـ لأن البلاذرى — وهو صاحب اوفى الأخبار عن هذه الحملات — ينتقل من آخر حملة وجهها عبيد الله بن زياد إلى إقليم السند — ولم يحدد أكانت فى عهد معاوية أو فى عهد ابنه يزيد — إلى فترة الحجاج مباشرة حيث يقول بعد ذكر الحملة المذكورة : « ولما ولى الحجاج بن يوسف العراق ، ولى سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى مكران وذلك الثغر ، فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافيان ، فقتل ، وغلب العلافيان على الثغر ، فولى الحجاج مجاعة بن سعر التميمى ذلكَ الثغر ، فغزا مجاعة فغنم وفتح طوائف من قندابيل(٤٤٢) ، ثم أتم فتحها محمد ابن القاسم »(٤٤٣) ، وبعد وفاة مجاعة — بمكران — استعمل الحجاج على الثغر محمد بن هارون بن ذراع النمرى ، فأهدى إليه ملكَ جزيرة الياقوت(٤٤٤) نسوة ولدن فى بلاده مسلمات ، وكان آباؤهن تجارا فأراد التقرب بهن إلى الحجاج ، فعرض للسفينة التى كانت تحملهن قوم من مدينة الديبل فأخذوها بمن فيها ، فنادت امرأة منهن — وكانت من بنى يربوع — ياحجاج ! وبلغ الحجاج ذلك ، فقال : يا لبيكَ ، فأرسل إلى داهر — ملك السند — يسأله تخلية النسوة ، فلم يستجب — وقالَ : إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم(٤٤٥) . وعلى أثر ذلكَ أغزى الحجاج عبيد الله بن نبهان الديبل ، فقتل هناك ، ثم كتب إلى بديلَ بن طهفة البجلى، وهو بعمان أن يسير إلى الديبل ، ولكنه قتل هناكَ أيضا(٤٤٦) ، فبدأ الحجاج يعد العدة لفتح السند ، فكانت حملة محمد بن القاسم .

---

(٤٤٢) قندابيل ، هى مدينة بالسند ... ومن قصدار إلى قندابيلَ خمسة فراسخ — انظر ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٠٢

(٤٤٣) البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٣٣

(٤٤٤) يقول البلاذرى — سميت جزيرة الياقوت لحسن وجوه نسائها — المصدر السابق ص ٥٣٤ وهى جزيرة فى بحر الهند .

(٤٤٥) المصدر السابق ص ٥٣٤

(٤٤٦) المصدر السابق ص ٥٣٤

محمد بن القاسم وفتح السند ٨٩ — ٩٦ هـ

من خلال هذا العرض الموجز لحملات المسلمين على إقليم السند التي بدأت منذ عهد عمر بن الخطاب ، واستقينا أخبارها بشكل رئيسى من البلاذرى ، وأشار إلى بعضها باقتضاب خليفة بن خياط(٤٤٧) — نرى أن المسلمين قد خبروا هذه البلاد وعرفوا أخبارها وتجرؤا عليها ، ومهدوا الطريق تماما لفتحها حتى أصبحت كالثمرة الناضجة ، تنتظر من يقتطفها وكان ذلك من نصيب الفاتح الشاب محمد بن القاسم الثقفى ، الذى ارتبط فتحها باسمه ، كما ارتبط فتح بلاد ما وراء النهر باسم قتيبة بن مسلم .

فقد رأى الحجاج — بعد أن استقرت أحوال الدولة الأموية — أن مرحلة الحملات الخاطفة قد أدت دورها ، وأن أوان العمل الحاسم ، والفتح الكامل قد حان ، فاختار لهذه المهمة ابن عمه محمد بن القاسم ، الذى لم يكن قد تجاوز العشرين عاما ، إلا أنه أظهر من الشجاعة والبطولة والعبقرية ، ما يضعه فى مصاف كبار الفاتحين ، والقادة العسكريين(٤٤٨) ، وقد احتفل الحجاج بأمر حملة محمد بن القاسم احتفالا كبيرا ، وأعدها الإعداد الذى يكفل لها النجاح من حيث العدد والعدة وأدوات الحصار . ومع أن المصادر لاتمدنا بأخبار عن العدد الحقيقى للجيش ، إلا أنه يرجح أنه كان كبير الحجم ، ففوق ما كان مع محمد بن القاسم من قوات فى فارس ، فقد أمده الحجاج بستة آلاف من جند الشام وخلقا من غيرهم(٤٤٩) . وقد جهز الحجاج الجيش بكل احتياجاته ، حتى الخيوط والمسالى(٤٥٠) ، ولم ينس أمر الطعام ، حتى أمرهم أن يحملوا معهم الخل لأنه قليل بالسند ، فقد ذكر البلاذرى أن الحجاج :

---

(٤٤٧) انظر تاريخ خليفة ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٢

(٤٤٨) انظر د. عبد المنعم حامد ، التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٢٣٥

(٤٤٩) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٣٤ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٥٣٧

(٤٥٠) المصدران السابقان على الترتيب ص ٥٣٤ ، جـ ٤ ص ٥٣٧

« عمد إلى القطن المحلوج فنقع فى الخل الخمر الحاذق ، ثم جفف فى الظل ، فقال : إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق ، فانقعوا هذا القطن فى الماء ، ثم اطبخوا به واصطبغوا(٤٥١) » ، وبعد أن تكامل جيشه انتقل إلى مكران التى كانت نقطة الانطلاق ، وقاعدة الفتح(٤٥٢) . وقد قسم محمد جيشه إلى قسمين قسم برى وقسم بحرى ، ثم تحرك من مكران قاصدا الديبل ، ففتح فى طريقه قنزبور وارمائيل(٤٥٣) ، وفى أرمائيل وافته السفن التى كانت تحمل السلاح والرجال والأداة(٤٥٤) ، فسار إلى الديبل وحاصرها ونصب عليها المنجنيق ، وكان منها منجنيق تعرف بالعروس ، كبيرة الحجم ، يعمل فيها خمسمائة رجل(٤٥٥) ، وأثناء الحصار كتب إلى الحجاج عن صنم كبير فى الديبل داخل منارة عظيمة وأن اسم هذا الصنم بد ، وكل شىء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد(٤٥٦) ، فأمره الحجاج بتحطيمه فنفذ الأمر ، وأخذ يضرب الصنم بحجارة المنجنيق حتى كسره فتطير الكفار بذلك(٤٥٧) ، فشدد محمد الحصار على المدينة ونصب السلالم وأصعد عليها الرجال ، واقتحمها ، ودار بينه وبين أهلها قتال استمر ثلاثة أيام وفى النهاية هزمهم وفتح المدينة عنوة ، وهرب منها عامل داهر ، فأخذ محمد يختط للمسلمين بها وبنى لهم مسجدا وأنزلها أربعة آلاف منهم(٤٥٨) ، وجعلها قاعدة بحرية

---

(٤٥١) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٣٤

(٤٥٢) انظر د. حسن أحمد محمود — الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٢١١

(٤٥٣) أرمائيل : يكتبها ياقوت أرمئيل ، ويقول مدينة كبيرة بين مكران والديبل من أرض السند بينها وبين البحر نصف فرسخ — معجم البلدان جـ ١ ص ١٥٩

(٤٥٤) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٣٥

(٤٥٥) المصدر السابق ص ٥٣٥ ، وابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٣٧

(٤٥٦) انظر البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٣٥ وابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٣٧

(٤٥٧) المصدران السابقان على الترتيب ص ٥٣٥ ، جـ ٤ ص ٥٣٧

(٤٥٨) المصدران السابقان على الترتيب ص ٥٣٥ ، جـ ٤ ص ٥٣٧

للمسلمين فى المحيط الهندى ، كما كانت قاعدة العمال ومقر الحكومة(٤٥٩) .

كان استيلاء محمد بن القاسم على الديبل ذا أثر كبير على كلا الفريقين العرب الفاتحين وأهل السند ، الذين هرعوا إليه طالبين الصلح ، وكانت أول مدينة قصدها بعد الديبل هى البيرون ، فتلقاه أهلها وصالحوه بل قدموا له المؤن والعلوفة للدواب ، وأدخلوه المدينة ، وجعل لايمر بمدينة إلا فتحها ، حتى عبر نهرا دون نهر مهران(٤٦٠) ، فأتاه سمنية سربيدس فصالحوه عن من خلفهم ووظف عليهم الخراج ، وسار إلى سهبان ففتحها(٤٦١) . ثم أرسل محمد بن مصعب بن عبد الرحمن الثقفى إلى سدوسان ، فطلب أهلها الصلح والأمان ، فصالحهم وأمنهم ، ووظف عليهم الخراج ، وانضم إليه أربعة آلاف من الزط ، فأخذهم وسار بهم إلى محمد ، وولى رجلا على سدوسان(٤٦٢) .

مع كل هذه الانتصارات الرائعة التى حققها محمد بن القاسم ، والمدن التى دانت له ، وانضمام الآلاف من السكان إليه — وبصفة خاصة الزط — إلا أنه كان يعلم أن المعركة الحاسمة لم تقع بعد مع داهر ملك السند الذى انسحب أمامه ليطيل خطوط مواصلاته ، وليختار هو مكان وزمان المعركة الفاصلة ، فقرر محمد أن يعاجله ، قبل أن يستكمل استعداداته ، فعبر نهر مهران على جسر أقامه عليه ، وبمجرد عبوره بدأ المعركة مع داهر ، الذى اقبل على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاترة ، فاقتتلوا قتالا شديدا — لم يسمع بمثله على حد تعبير البلاذرى — وانجلت المعركة عن هزيمة داهر ، الذى لقى مصرعه ، وكان الذى قتله رجل من كلاب فقال بعد قتله :

---

(٤٥٩) انظر د. حسن أحمد محمود — الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٢١٧ .

(٤٦٠) مهران : نهر عظيم بقدر دجلة تجرى فيه السفن ويسقى بلادا كثيرة ويصب فى البحر عند الديبل ، انظر ياقوت . معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٣٢

(٤٦١) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٣٦ وابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٣٧

(٤٦٢) المصدران السابقان على الترتيب ص٥٣٦ ، جـ٤ ص٥٣٨ .

الخيل تشهد يوم داهر والقنـــا ومحمـــد بن القاســم بن محمـــد
انى فرجت الجمـــع غير معـــرد حتى عـــلوت عظيمهـــم بمهنـــد
فتركته تحت العجـــاج مجـــدلا متعفر الخدين غير موســـد(٤٦٣)

بعد انتصار محمد بن القاسم على داهر ومصرعه سار يستكمل فتح بقية اقاليم السند ، فاستولى على حصن راور بعد المعركة ، وكانت امراة داهر به ، فخافت أن تقع أسيرة ، فأحرقت نفسها وجواريهـــا ، وجميـــع مالها(٤٦٤) ، ثم تقدم محمد إلى برهمناباذ ، فاستولى عليهـــا عنوة ، ثم سار إلى الرور وبغرور ، فتلقاه أهل ساوندرى ، فسألوه الأمان والصلح فصالحهم وأمنهم ، وحذا حذوهم أهل بسمد ، ثم وصل إلى الرور وهى من كبرى مدائن السند ، فضرب عليها الحصار ، حتى طلب أهلها الصلح والأمان فقبل منهم ، ووضع عليهم الخراج وبنى بهـــا مسجدا(٤٦٥) ، ثم اجتاز نهر بياس إلى الملتان ، فحاصرها ويبدو أن هذا الحصار قد طال ، لأن المسلمين كما يذكر البلاذرى : نفذت أقواتهـــم حتى اكلوا الحمر ، مما اضطر محمدا أن يقطع عنهم الماء ، فلما اشتد عليهم العطش نزلـــوا على حكمه ، فقتل مقاتلتهم وسبى الذرية ، وسدنة البد وكانوا ستة آلاف ، وأصاب كثيرا من الذهب ، حتى سميت الملتان فرج بيت الذهب(٤٦٦) ، وبعد أن استولى محمد على الملتان جاءه نبأ موت الحجـــاج فاغتم لذلـــك وعاد إلى الرور ، ثم وجه جيشا إلى البيلمان ، فأعطوه الطاعة دون قتال ، ثم سالمه أهل سرست ثـــم اتى الكيرج ، فخرج إليه دوهر ، فقاتله فهزم جيشه وقتله ، وقال أحد رجاله :

---

(٤٦٣) المصدران السابقان على الترتيب ص ٥٣٦ — ٥٣٧ ، ج٤ ص ٥٣٨ .

(٤٦٤) البلاذرى — المصدر السابق ص٥٣٧ وابن الأثير — المصدر السابق ج ٤ ص ٥٣٨ .

(٤٦٥) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٣٨ .

(٤٦٦) المصدر السابق ص ٥٣٨ ، وابن الأثير — المصدر السابق ج ٤ ص ٥٣٩ .

نحـن قتلنـــــا داهر ودوهرا والخيل تردى منسر فمنسرا(٤٦٧)

وهكذا أصبح وادى السند بأسره فى قبضة الفاتح البطل ، وجاءته القبائل تقرع الأجراس وتدق الطبول فرحة هاتفة مرحبة ، فقـــد حررهم الفتح الإسلامى من استبداد الهندوس وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وكان على رأس المرحبين بالفتح الإسلامى الميد والجات ــ الزط(٤٦٨) ــ .

نهاية محمد بن القاسم ، فاتح السنــد :

بينما محمد بن القاسم يدبر أمر الســـند وينظم أحواله بعد الفتح ويستعد لفتح إمارة قنـــوج ، وهى أعظم الإمارات فى شمال الهنـــد توفى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ ، وتولى أخوه سليمان ٩٦ ــ ٩٩ هـ ، الذى بدأ يغير ولاة الحجـــاج ، فعين على العراق رجلا من الد اعـــداء الحجاج ، وهو صالح بن عبد الرحمن ، الذى كان الحجاج قد قتل أخا له إسمه آدم بن عبد الرحمن ، كان يرى رأى الخوارج(٤٦٩) ، فقرر صالح ابن عبد الرحمن أن ينتقم من أقرب الناس إلى الحجـــاج ، وهو محمد بن القاسم ، فعزله عن السند ، وولى رجلا من صنائعه ، وهو يزيد بن أبى كبشة ، وأمره بالقبض على محمد ، فقبض عليه وأرسله إليه ، فحبسه فى واسط فى رجال من آل أبى عقيل وأخـــذ يعذبه حتى مات ، وهكذا انتهت حياة بطل وفاتح كبير هذه النهاية الأليمة، وحرمت الدولة من هذه العبقرية الشابة ، فإن محمدا حقق هذه الأمجاد وهو فى مقتبل العمر حتى قال فيه يزيـــــد بن الحكم :

إن الشجاعة والسماحة والنـــدى لمحمـــد بن القاســـم بن محمـــد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجـــة ياقرب ذلك سؤددا من مولد(٤٧٠)

---

(٤٦٧) انظر البلاذرى ــ المصدر السابق ص ٥٣٩ .
(٤٦٨) انظر د . حسن احمد محمود ــ الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٢١٨ ــ ٢١٩ .
(٤٦٩) البلاذرى ــ المصدر السابق ص ٥٤٠ .
(٤٧٠) انظر تاريخ لخليفة بن خياط ص ٣٠٤ .

وقد ادركَ محمد مصيره بمجرد أن قبض عليه يزيد بن أبى كبشة ، فتمثل قائـــــلا :

اضــــــاعونى وأى فتى اضــــاعوا　　　ليــوم كريهــة وســدا وثغــــر

وقال قبل موته وهو بالسجن :

فلئن ثويت بواســـط وبأرضــــها　　　رهن الحــــديد مكبــلا مغــلولا

فلرب فتيــة فارس قـــد رعتهـــا　　　ولرب قرن قـــد تركت قتيــــلا

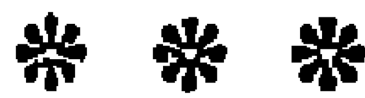
وقد آثر محمد بن القاسم ان يلقى هذا المصير المؤلم على أن يشــق عصا الطاعة على الدولة فقال :

لو كنت اجمعت القـــرار لوطئت　　　إنــاث أعـــــدت للوغى وذكــور

وما دخلت خيل السكاسك أرضــنا　　　ولا كان من عـــــك على أمــير

ولا كنت للعبــــد المزونى تابعـــا　　　فيالك دهــر بالكرام عثــور(٤٧١)

وهذا البطل الذى سجنه المسلمون وعذبوه وقتلوه بكى عليه اهل السند واقاموا له التماثيل(٤٧٢) .



(٤٧١) هذه الأبيات كلها موجودهفى البلاذرى فتوح البلدانص٥٣٩
(٤٧٢) انظر المصدر السابق نفس الصفحة .

السند بعد محمد بن القاسم

توقفت الفتوحات فى هذه الجبهة عند الحدود التى وصل إليها محمد ابن القاسم ، ولم يستطع ولاة بنى أميــة — فيما تبقى من عمر دولتهم — أن يضيفوا جديدا ، ولكنهم استطاعوا المحافظة على ماتحقق من فتوحات ، وبذلوا قصارى جهدهم فى تثبيت أقدام الإسلام فى إقليم الســند ، ووقفوا بالمرصاد لكل حركات التمرد والثــورات التى قام بها الأمراء الهندوس ، بعد رحيل محمد بن القاسم ، فقد حاول هؤلاء الأمراء استرداد إماراتهم ، وبصفة خاصة ابن داهر المسمى حليشة أو جيشبة ، الذى حاول الرجوع إلى برهمناباذ ولكن حبيب بن المهلب — الذى ولاه سليمان بن عبــد الملك السند — لم يمكنه من ذلك(٤٧٣) .

ولما مات سليمان ، وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١هـ نهج نهجا جــديدا فيما يتعلق بالفتوحــات ورأى أنها قد امتدت واتسعت وأن من الأفضل فى المرحلة الراهنة أن تتجه الجهود إلى نشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة ، وإلى تعليم الناس أمور الــدين فكانت دعوته إلى ملوك السند بالدخول فى الإسلام والطاعة على أن يملكهم بلادهم ، ويكون لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم فاستجابــوا له — وكانت سيرته وعدله قد بلغهم — فأسلموا وتسموا بأسماء عربية ومنهم ابن داهر نفسه(٤٧٤) ، ولكن بعد وفاة عمر بن عبد العــزيز عاد الأمراء الهندوس إلى ثوراتهم ومحاولة استرداد سلطانهــم على بلادهم ، ولكن الأمويين تصدوا لهذه المحاولات بحزم شديد ، خصوصــا بعد أن أصبح إقليم السند ملجــأ للخارجين على الدولة ، فقد هرب إليه آل المهلب ، بعد فشل ثورتهم التى قادها يزيد بن المهلب ضد الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك(٤٧٥) سنة

---

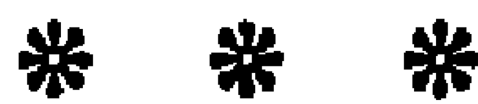
(٤٧٣) المصدر السابق ص ٥٤٠ .

(٤٧٤) المصدر نفسه ص ٥٤٠ .

(٤٧٥) انظر المصدر السابق ص ٥٤٠ والطبرى — تاريــخ جـ ٦، ص ٦٠٢ .

١٠٢ هـ ، واستمرت السياسة الأموية فى المحافظة على إقليم السند ، فكانوا يعهدون بولايتها إلى رجال الأقوياء ، فقد أسند هشام بن عبد الملك ١٠٥ — ١٢٥ ولايتها إلى الجنيد بن عبد الرحمن الذى وطد سلطان الإسلام فى الإقليم ، فقضى على الثورات وفرق عماله على مدنه ومقاطعاته(٤٧٦) ، وظل الولاة بعده إلى آخر أيام الدولة الأموية محافظين على هذه السياسة تدعيما للوجود العربى الإسلامى ، فقد أنشأوا المدن لتكون مراكز لتجميع العرب مثل مدينة المحفوظة(٤٧٧) التى أنشأها الحكم بن عوانة الكلبى فى عهد هشام بن عبد الملك ، ومدينة المنصورة(٤٧٨) ، التى أنشأها عمرو ابن محمد بن القاسم الثقفى ، ابن الفاتح العظيم .

وخلاصة القول ، أن الأمويين على الرغم من الظروف الصعبة التى كانت تمر بها دولتهم فى أواخر أيامها فإنهم حافظوا على السند مع ماحافظوا عليه من الممالك إلى انتهاء عصرهم ، وقيام الدولة العباسية .



---

(٤٧٦) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٤١ ، وانظر د . حسن أحمد محمود الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٢٢٠ .

(٤٧٧) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٤٢ .

(٤٧٨) ينسب البلاذرى ص ٥٤٣ بناء المنصورة إلى عمرو بن محمد بن القاسم ولكن ياقوت يقول : سميت المنصورة نسبة الى منصور بن جمهور عامل بنى امية فهو الذى بناها ، أو نسبة إلى عمرو بن حفص الذى بناها فى عهد ابى جعفر المنصور الخليفة العباسى معجم البلدان ج٥ص٢١١.

الفصل الرابع

انتشـــار الإسلام فى العصر الأموى

يعتبر موضوع انتشـــار الإسلام بصفة عامة ، وفى العصر الأموى بصفة خاصـــة ، ميدانا خصـــبا ، لايزال ينتظر جهودا كبيرة ، صـــادقة ومخلصة من كل المهتمين بالدراسات والحضـــارة الإسلامية . وهو من الموضوعات التى تكتنفها بعض الصعوبات أمام الباحثين نظرا لقلة المعلومات عنه فى المصادر القديمة من ناحية ، وبعثرتهـــا فى أماكن متفرقة من ناحية أخرى ، وجمع هذه المعلومات وتنسيقها يحتاج إلى جهد كبير ، فالمصـــادر القديمة على كثرتها وتنوعها وضخامتهـــا قـــد ركزت اهتمامها على أخبار الغزوات والفتوحات وماصاحبها من الإنتصارات والهزائم ، وعلى تفاصيل الأحداث السياسية ، وأخبار الفرق والأحزاب والثورات ولم تفسح مكانا مناسبا لحركة انتشار الإسلام كموضوع مستقل ، يستطيع الباحث الوصول إليه مباشرة ، حتى الذين كتبوا عن الحضارة الإسلامية ، تركز جل جهدهم على نظم الحكم والجانب الثقـــافى والعمرانى ، دون أن ينال موضـــوع انتشار الإسلام قـــدرا من اهتمامهم . وعلى الرغم من نشاط الكتـــاب والمؤرخين المســـلمين فى العصر الحديث فإن موضوع انتشار الإسلام لم يحظ أيضا بالقدر الذى يستحقه من اهتمامهم . فلاتزال الكتب التى تناولته محدودة العدد والمساحة الزمانية والمكانية .

ومن العجيب أن يكون من أوائل من تصدوا لهذا الموضوع فى العصر الحديث — إن لم يكن أسبقهم على الإطلاق — هو البـــاحث الانجليزى توماس آرنولد ، فى كتابه المترجم بعنوان : « الدعوة إلى الإسلام » ولعله أوفى كتاب فى موضوعه حتى الآن ، من حيث تغطيته لمعظم أرجاء العالم الإســـلامى من ظهور الإســـلام ، حتى مطلع القرن العشرين(١) ، كما أن

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الانجليزية ســـنة ١٨٩٦ م ثم أعاد المؤلف نفسه طبعة ثانية سنة ١٩١٣ وبعد وفاته فى يونيو =

مؤلفه من اكثر الباحثين الغربيين — الذين تناولوا القضـايا الإسلامية فى بحوثهم — نزاهة وإنصافا وبعدا عن التعصب ، أما على الجانب الإسلامى ، فإن عدد الكتب الجادة التى تناولت الموضوع لازال قليلا ، ومن هذه الكتب كتاب الأستاذ الدكتور شكرى فيصل ، «المجتمعـات الإسلامية فى القرن الهجرى الأول » ومع أن هذا الكتاب لم يخصصه مؤلفه لموضوع انتشار الإسلام ، إلا أنه تناول الموضوع والقى عليه الأضـواء فى اسلوب علمى رصين . ومنها : كتابا الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود « الإسلام فى آسيا الوسطى ، بين الفتحين العربى والتركى » و « الإسلام والثقـافة العربية فى إفريقية » وكتاب الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن « انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية » وكتاب الأستاذ الدكتور حامد غنيم أبوسعيد — « انتشار الإسلام حول بحر قزوين » .

وقد اعتمدت فى هذا الفصل على هذه الكتب — سواء بشكل مباشر أو غيرمباشر — بالإضافة إلى المعلومات المتناثرة فى ثنايا المصادر الإسلامية القديمة تاريخية وغير تاريخية ، ومع كل هذا فلا زال الموضـوع محتاجا إلى جهد مركز لدراسة الأوضاع السياسية والدينية والثقافية والإجتماعية والإقتصادية والحضارية فى البلاد التى فتحها المسلمون فى القرن الهجرى الأول ، وكيف أقبلت على الإسلام واعتنقته وأصبحت أجزاء من العـالم الإسـلامى .

رأينا فى الفصل السابق أن الفتوحات الإسلامية قد امتدت — فى مرحلتها الثانية — فى عهد بنى أميـة ، وبخاصة فى عهد الوليـد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦هـ من كاشـغر على حـدود الصين فى الشرق ، إلى الأندلس وجنوب فرنسا فى الغرب ، ومن بحر قزوين فى الشمال إلى المحيط الهندى فى الجنوب ، وأن هذه الفتوحات قد أضافت إلى رقعة الدولة الإسلامية —

= سنة ١٩٣٠ م أعاد طبعه للمرة الثالثة باللغة الإنجليزية أيضا الأستاذ نيكلسون سنة ١٩٣٥ م وقد ترجمة إلى اللغة العربية الدكتور حسن ابراهيم حسن ، والدكتور عبد المجيد عابدين والأستاذ اسماعيل النحراوى ، وطبع لأول مرة فى سنة ١٩٤٧ م بالقاهرة .

التى ورثها الأمويون عن الخلفـــاء الراشدين ــ مساحات هائلة ، تضم شعوبا وأجناسا كثيرة ، وفيها العديد من الديانات والمذاهب واللغـــات والثقافات والعادات والتقاليد والأوضاع الإقتصادية والإجتماعية المختلفة . فهل كان فتح هذه البلاد ــ على أيدى المسلمين ــ فتحا عسكريا فقط ، أكتفى منه المسلمون ببسط سلطانهم السياسى على تلك الشـــعوب وكان كل همهم الغلب والظفر والمغانم المادية ولاشيىء اكثر من ذلك ؟ .

الواقع التاريخى يشهد ان هذا الفتح لم يكن عسكريا فحسب ، بل كان فتحا دينيا ولغويا وثقافيا ، فانتشر الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية فى البلاد المفتوحة بخطى حثيثة كما تغيرت معه أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية بحيث يمكن القول أن هذا العالم الفسيح ، أصبح عالما إسلاميا واحـــدا فالسيادة الإسلامية على هذه الرقعة الواســعة لاتنازع ، والإسلام هو الدين الغـــالب فى سماحة ، المسيطر فى رحمة ، الحاكم فى عدل . لم تأخـــذه نشوة النصر على البطر أو الظلم ولم يحمله الظفر على إذلال المغلوبين ، بل على العكس راح يحدب عليهم ، ويعاملهم معاملة سمحة كريمة ، يحترم إنسانيتهم ، ويصـــون أرواحهم وأموالهم ، لقد كانت مبادىء الإسلام فى الحرية بصفة عـــامة ، وفى الحرية الدينية بصفة خاصـــة ، وحسن معاملة الشـــعوب المفتوحة ، ورعاية العهود والمواثيق ، والوفاء بها بصدق وإخلاص معها وإشراك أبناء هذه الشعوب فى إدارة بلادهم ، كان ذلك هو الذى هيأ للإسلام السبيل ومكن له فى قلوب الناس ، بل إن هذه المبادىء لم تؤد إلى انتشار الإسلام انتشارا سلميا فحسب ، ولكن أدت إلى تناسق فى الســـلوك الأخلاقى ، وفى العـــادات والتقاليد فى هذه البلاد التى تكون منها العالم الإسلامى .

يقول احد الباحثين الأوربيين:« فىعصر الأمويين فى القرن السابع والثامن الميلاديين،وعلى الرغم من تنوع الأجناس والشعوب التى تشكل الإسلام ، كان المسلمون يبينون سلفا عن خصائص متشابهة ، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرق بين حضر وبدو،أغنياء وفقراء كانوا يسلكون تقريبا مسلكا واحدا ، ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة ، تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوته ، وقد وضع روح القرآن قواعـــد التصرفات اليوميـــة

للناس ، وخلق الجو المعنوى للحياة ، حتى تغلغل شيئا فشيئا فى الأفكار ، فانتهى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق ، كما كان تأثير الدين عظيما بسبب انتشار اللغة ، وبسبب نتائج السياسة الخارجية المشتركة وكذلك بسبب نظام اجتماعى معمم »(٢) .

ولكن ما العوامل التى مكنت للإسلام لكى ينتشر فى البلاد المفتوحة ؟ وكيف انتشر ؟ وما السبيل التى سلكها المسلمون لنشره ؟

لقد كانت هناك عدة عوامل أدت إلى هـذا ، منها عالمية الإسـلام وبساطته ومنها الأساس الذى عامل عليه المسلمون أبنـاء الشعوب المفتوحة ، والذى تضمنته معاهدات الصلح . ومنها إشراك أبناء الشعوب المفتوحة فى حكم بلادهم وإدارتها ، وأخيرا فساد الأديان وانحلالها فى تلك البلاد ، وسنفصل كل عامل من هذه العوامل على حدة .

أولا : عالمية الإسلام :

الحقيقة الثابتة التى تؤيدها النصوص القاطعة ، أن الإسلام دين عالمى ، ورسالته للجنس البشرى كله ، لا لأمة دون أمة ، ولا لشعب دون شعب،فمحمد رسول الله إلى الناس كافة : ((**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**))(٣) ، ((**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**))(٤) ، ((**تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**))(٥) ، ((**قل يا أيهـا الناس إنى رسول الله إليكم جميعا**))(٦) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى توضح أن الرسالة الإسلامية للناس كافة ، وأنهـا خاتمة رسـالات السماء إلى أهل الأرض ، فليس بعد القرآن الكريم كتاب ، وليس بعـد

---

(٢) جاك — ريسلر الحضارة العربية ص ٥٠ وانظر أيضا آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ٩٢

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

(٥) سورة الفرقان الآية ١

(٦) سورة الأعراف الآية ١٥٨

محمد رسول : « **ماكان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** » (٧) ولقد صور النبى ﷺ موقع رسالته من رســـالات السماء فقال : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة »(٨) وعلى هذا فطبيعة الرسالة الإسلامية تختلف اختلافا أساسيا واضحا عن سابقاتها من رسالات السماء، فتلك الرسالات كانت محدودة الزمان والمكان والبيئة البشرية ، ومن هنا فلم يكن أمرا مستغربا أن يجتمع رسولان متعاصران ومتجاوران أو أكثر كما حدث بالنسبة لإبراهيم ولوط ، وبالنسبة لشعيب وموسى وهارون ، ولهذا أيضا كانت معجزة كل رسول منهم تتناسب مع القوم الذين أرسل إليهم ، وتنتهى بانتهاء مهمة الرسول مع قومه ، وهذا لا يقلل من شأن هؤلاء الرسل عليهم السلام ، لأن هذا وضع اقتضاه تطور الجنس البشرى . فكل رسالة جاءت فى وقتها المناسب وكل رسول أدى دوره ، وكان لبنة صالحة فى صرح عقيدة التوحيد إلى أن جاء الوقت الملائم لوضع اللبنة الأخيرة ، فكانت الرسالة العالمية الخاتمة لكل الرسالات والناسخة لكل الأديان ، لاتشركها رسالة أخرى معها أو بعدها ، كما كانت معجزة رسولها محمد ﷺ معجزة خالدة باقية تناسب كلعصر وتسير مع كل تطور بشرى ، ذلك هو القرآن الذى نزل مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . وكلف رسولها محمد ﷺ أن يبلغها للناس كافة . وهنا يرد سؤال ، وهو : هل معنى عالمية الإســـلام أنه يجب أن يكون كل الناس مسلمين ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو السبيل لحملهم على ذلك ؟

وللإجابة على الشق الأول من السؤال نقول : ليس معنى عالميـــة الإسلام أنه يتحتم أن يكون كل الناس مسلمين ، بل إن القرآن الكريم يلفت نظر الرسول ﷺ إلى أن حمل الناس جميعا على دين واحد قد يكون أمرا صعبا ، إن لم يكن مستحيلا ، يقول تعالى : « **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** » (٩) ، ويقول :

---

(٧) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(٨) انظر ابن حجر العسقلانى — فتح البارى ج ٦ ص ١٥٨

(٩) سورة يونس الآية ٩٩

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين »(١٠) ويقول **« ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم »**(١١) .

وقد يتبادر إلى بعض الاذهان أن هاهنا تناقضا ، لأننا فى الوقت الذى نقول فيه بعالمية الإسلام ، نعترف بأن حمل الناس كافة على اعتناق دين واحد أمر غير ممكن ، وغير واقعى ، ولم يحدث قط فى تاريخ البشرية والواقع انه لا تناقض فى الأمر ، لأن معنى عالمية الإسلام انه دين مفتوح لكل البشرمن جميع الأجناس دون قيود أو حدود وليس دينا خاصا بقوم أو قبيلة أو طائفة من الناس — كما يدعى اليهود أن ديانتهم خاصة بهم،اختصهم الله بها وحدهم دون البشر -- بل هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، والذى يلائم جميع الناس فى كل زمان ومكان ، لبساطته وسهولته ويسر عبادته وسلامة مبادئه . فكل إنسان يريد أن يكون مسلما ليس عليه اكثر من أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.وبعدها يكون مسلما له كافة حقوق المسلمين وعليه واجباتهم .

أما الإجابة على الشق الثانى من السؤال ، وهو معرفة السبيل لحمل الناس ، أو بالأحرى لدعوة الناس للدخول فى الإسلام فنأخذها من المنهج الذى حدده الله سبحانه وتعالى للنبى ﷺ حين قال له : **« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن »**(١٢) فلا إكراه فى الدين بعد أن تبين الرشد من الغى ، وقد ذكرنا فى صدر الفصل السابق أن النبى ﷺ قد وضح هذا المنهج فى دعوته الملوك والأباطره خارج شبه الجزيرة العربية إلى الدخول فى الإسلام ، فى رسائله التى اشرنا إليها ، والتى لم تتضمن اية إشارة إلى إجبار الناس على اعتناق الإسلام بالقوة ، بل كانت دعوة سلمية إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة . كما أن سلوك النبى ﷺ العملى أكد هذا المنهج وزاده وضوحا ، ففى غزوة تبوك عندما سار النبى ﷺ لحرب الروم ، بعد أن بلغته الأخبار

---

(١٠) سورة يوسف الآية ١٠٤
(١١) سورة هود — الآيتان ١١٨ — ١١٩
(١٢) سورة النحل — الآية ١٢٥

بتحفزهم لمهاجمته فى الجزيرة العربية فلما وجدهم قد انسحبوا من الميدان إلى داخل الشام ، لم يلاحقهم ولم يتعقبهم واكتفى بانسحابهم . ولما جاءه أمراء المقاطعات الواقعة بين الجزيرة العربية والشام ، ومنهم يوحنة بن رؤبة ، صاحب أيلة ، مذعنين مستسلمين ، لم يفرض الإسلام عليهم بالقوة ولو كان ذلك منهجا له ، ما كان أسهله عليه بالنسبة لهذه المجموعات الصغيرة الضعيفة والتى لم تكن قادرة على مقاومته ، بعد أن انسحبت أكبر واقوى قوة فى المنطقة من امامه وهى جيش الروم ، بل عاملهم معاملة حسنة ، وقبل منهم أن يظلوا على عقائدهم ، واكتفى منهم بالخضوع لسلطان الإسلام ، ودفع الجزية ، وأعطاهم معاهدات ضمن لهم فيها حرية عقائدهم وأموالهم وانفسهم(١٣) .

فسبيل الدعوة إلى الإسلام إذن ، هى الحكمة والموعظة الحسنة ، ولم تكن الحرب يوما هى الطريق لنشر الإسلام ، واما الحروب التى نشبت — منذ بداية عهد الخلفاء الراشدين — بين المسلمين وجيرانهم ، الفرس والروم فقد اضطر المسلمون إليها اضطرارا — كما بينا فى الفصل السابق — إما للدفاع عن أنفسهم ، وإما للدفاع عن حرية نشر عقيدتهم ، لا لنشرها والفرق كبير جدا بين الأمرين ، ولا يخفى على من يريد البحث عن الحقيقة

ثانيا : أما العامل الثانى الذى كان له اثر كبير فى إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام ، فهو المعاملة السمحة الكريمة التى عاملهم المسلمون بها ، والتى تضمنتها معاهدات الصلح ، التى نظمت العلاقة بين المسلمين الفاتحين وبين أبناء البلاد المفتوحة والتى التزم بها المسلمون التزاما كاملا ، وطبقوها بكل امانة وإخلاص .

ولما كانت هذه المعاهدات قد تمت فى عهد الخلفاء الراشدين — وبصفة خاصة فى عهد عمر بن الخطاب — نذكر بعض نماذج منها ، لأنه على أساسها قام التعامل بين المسلمين وغيرهم طوال العصر الأموى ، بل وما بعده ، فقد كان المسلمون عندما يواجهون قوة من القوى التى اضطروا

(١٣) انظر نص معاهدة الرسول ﷺ ليوحنة بن رؤبة فى سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٠ ، ١٨١ والبلاذرى — فتوح البلدان ص ٧١

لمواجهتها ، منذ عهد أبى بكر الصديق ، خارج الجزيرة العربية ، يعرضون على الناس قبل القتال ، إما الإسلام وإما دفع الجزية ، وإما المنابذة ، فإذا أسلموا طواعية فهم أخوان فى الدين لهم حقوق المسلمين وعليهم واجباتهم، وإذا رفضوا الدخول فى الإسلام ورضوا بدفــع الجزية ، قبلت منهم ، وتركوا وشأنهم ، وأعطوا أمانا على أموالهم وانفسهم وعقائدهم ، وإذا رفضوا الإسلام ، ودفع الجزية ، فمعنى ذلك أنهم مصرون على الحرب والمقاومة ، وإذا انتصر المسلمون فى الحرب ، فهــل كانوا يستخدمون مايسمى بحق الغالب فى فرض شروطه على المغلوب ؟ وهل كانوا يكرهون الناس على اعتناق الإسلام بعد أن يهزموهم فى ساحات القتال ؟ إن ذلك لم يحدث قط فى أى معركة من معارك المسلمين،بل إن الناس بعد هزيمتهم إما مسلم برغبته ورضاه،وإما ذمى يعطى عهدا ، وقد توسع المسلمون فى معنى الذمى فجعلوه يشمل أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين وجميع أهل الشرك من المجوس وعبدة الأوثان وعبدة النيران والحجارة والصابئة(١٤) فكل هؤلاء ، يعاهدون وتؤخذ منهم الجزية ، لأن الرسول ﷺ أخذ الجزية . من مجوس هجر(١٥) ، وأخذها عمر بن الخطاب من مجوس فارس(١٦) . وإذا قبل هؤلاء جميعا دفع الجزية ، فمن حقهم البقاء على عقائدهم.وإليك نماذج لبعض المعاهدات التى نظمت العلاقات والالتزامات بين المسلمين وغير المسلمين ، ونبدأ بعهد عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء الذى جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله ، عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ولا من شيىء من أموالهم ، ولايكرهون على دينهم ، ولايضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن

---

(١٤) أنظر أبو يوسف — كتاب الخراج ص ٢٦٥
(١٥) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٩٧ ، وابن سـلام — كتاب الأموال ص ٣٥
(١٦) البلاذرى — المصدر السابق ص ٩٨ .

وعلى أن يخرجوا منها الروم واللصوت(١٧) ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنـون على أنفسهم ، وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض .. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء فسار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيىء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية ، شهد على ذلك خالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة »(١٨) .

معاهدة خالد بن الوليد لأهل الحيرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هـذا مـا عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمرا ، ابنى عدى ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قبيصة ، وحيرى بن أكال وهم نقبـاء أهـل الحيرة ، ورضى بذلك أهـل الحيرة ، وأمروهم به ، عاهدهم على تسـعين ومائة ألف درهم ، تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسيسيهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيـا ، تاركا لهـا أو سائحا تاركا للدنيا ، وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شيىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة ، وكتب فى ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة ودفـع الكتاب إليهم(١٩) » .

معاهدة عمرو بن العاص لأهل مصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم » هـذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمـان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم ، وصلبهم

(١٧) اللصوت — جمع لصت ، وهو اللص
(١٨) الطبرى — تاريخ جـ ٣ ص ٦٠٩
(١٩) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٦٤

وبرهم وبحرهم ، لايدخل عليهم شيء من ذلك ، ولاينتقص ، ولايساكنهم النواب — اهل النوبة — وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية ، إذا اجتمعوا على هــذا الصلح ... ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب ، فله مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مامنه ... على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمة المؤمنين شهد الزبير بن العوام ، وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر(٢٠)» ..

معاهدة سويد بن مقرن لأهل قومس :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هــذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومن حشوا من الأمان على أنفسهم وملهم وأموالهــم ، على أن يؤدوا الجزية عن يد ، عن كل حالم بقدر طاقتــه ، وعلى أن ينصحوا ولا يغشــوا ، وعلى أن يدلــوا ، وعليهم نزل من نزل بهم من المســلمين يوما وليــلة من أوســط طعــامهم ، وإن بدلوا واستخفوا فالذمــة منهم بريئــة(٢١) » .

معاهدة عتبة بن فرقد لأهل اذربيجان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هــذا مــا أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، أهل أذربيجان ، سهلها وجبلها وحواشيها وشــفارها ، واهــل مللهــا كلهم الأمان على أنفســهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على ان يؤدوا الجزية على قــدر طاقتهم ، ليس على صبى ولا على امراة ولازمن ليس فى يديه شيء من الدنيا ، ولا متعبد متخل ليس فى يديه شيء من الدنيا ، لهم ذلك ولمن سكن معهم ، وعليهم قرى المســلم من جنود المسلمين يوما وليلة ، ودلالته ومن حشر(٢٢) منهم فى

(٢٠) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٠٩

(٢١) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٢

(٢٢) المقصود بمن حشر منهم الذى يستعين به المسلمون فى عمل سواء فى الجيش او غيره فإنه يعفى من الجزية .

سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ومن أقام فله مثل مالمن أقام من ذلك ، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه ، وكتب جندب وشهد بكير بن عبد الله الليثى ، وسماك بن خرشة الانصارى(٢٣) » .

معاهدة حبيب بن مسلمة لأهل تفليس :

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس. . .بالأمان على أنفسكم وأموالكم وصوامعكم وبيعكم وصلواتكم،على الإقرار بصغار الجزية على أهل كل بيت دينار واف ، ولنا نصحكم ونصركم على عدو الله وعدونا وقرى المجتاز ليلة من حلال طعام أهل الكتاب وحلال شرابهم وهداية الطريق فى غير مايضر فيه بأحد منكم ، فإن أسلمتم وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، فإخواننا فى الدين وموالينا ، ومن تولى عن الله ورسوله وكتبه وحزبه فقد آذناكم بحرب على سواء . إن الله لايحب الخائنين ، شهد عبد الرحمن بن خالد ، والحجاج وعياض وكتب رباح ، وأشهد الله وملائكته والذين آمنوا وكفى بالله شهيدا(٢٤) » .

معاهدة سراقة بن عمرو لأهل ارمينية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى سراقة بن عمرو ، عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهربراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان ، وأعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وملتهم ، ألا يضاروا ولا ينتقضوا ، وعلى أهل أرمينية والأبواب الطراء منهم والتناء(٢٥) ، ومن حولهمفدخلمعهم أن ينفروا لكل غارة ، وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا ، على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر ، والحشر عوض من جزائهم ، ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوما كاملا ، فإن حشروا وضع ذلك

---

(٢٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٥

(٢٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٦٢ — ١٦٣

(٢٥) الطراء ، الذين يأتون من مكان بعيد ، انظر لسان العرب ج ١ ص ١٠٨ . وتنأ بالمكان أقام به والتناء الإقامة — اللسان ج ١ ص ٣٢

عنهم وإن تركوا أخذوا به ، شهد عبد الرحمن بن ربيعة ، وسلمان ابن ربيعة ، وبكير بن عبد الله ، وكتب مرضى بن مقرن وشهد »(٢٦) .

نكتفى بهذا القدر من المعاهدات التى أعطاها المسلمون لأهل البلاد المفتوحة لأننا لم نقصد الاستقصاء ولكن التدليل على الأساس الذى كان يحكم العلاقات بين المسلمين واهل تلك البلاد وهذه المعاهدات — التى أعطيت لأهل الشام ومصر والعراق والمقاطعات الفارسية — تتشابه تشابهسا كبيرا بل تكاد تتطابق فى نصوصها ومضمونها ، لأنها تعبر عن سياسة ثابتة للمسلمين وربما كان التفاوت الملموس بينها فيما يتعلق بمقدار الجزية التى كان يفرضها المسلمون فأحيانا تكون مقدارا معينا على أهل البلد كلهم ، كما هو الحال بالنسبة لأهل الحيرة وأحيانا على مقدار معين على اهل كل بيت ، وأحيانا على مقدار معين على كل شخص قادر على الكسب ، وفيما عدا هذا التفاوت فى مقادير الجزية التى كان يفرضها المسلمون ، والذى روعى فيه التيسير على المعاهدين وعدم إرهاقهم لانجد اختلافا كبيرا بين هذه المعاهدات ، التى تنص صراحة على تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، وعلى حمايتهم . ولقد أشاعت هذه المعاهدات العادلة جوا من الطمأنينة والأمان عند السكان ، وازالت عن نفوسهم الخوف الذى يشعر به المغلوب فى مثل هذه الظروف ، فعادتهم بالجيوش الغازية — وقد جرب الفرس والروم ذلك فى حروبهم الطولية والمستمرة فيما بينهم — أنها تدمر وتنهب وتعيث فى الأرض فسادا ، أما فى فتوح الإسلام ، فالأمر مختلف تماما ، فالمسلمون لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويذلوا أهلها ، وإنما ليعمروها ويعزوا أهلها ، ويحرروهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد ، ويخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعتها ، فهم أصحاب رسالة خالدة ، تحمل للناس العدل والإنصاف ، وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية ، ولكن الناس فى البلاد المفتوحة ، لأنهم لم يشهدوا فتحا كالفتح الإسلامى من قبل ، كانوا فى حاجة إلى وقت ليعرفوا أهداف المسلمين الحقيقية ، فلما

(٢٦) الطبرى — المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٦ — ١٥٧.

تكشفت لهم حقيقة الإسلام اسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة — كما سنعرفه فيما بعد — ولقد حرص المسلمون على الوفاء بكل ما التزموا به ، ولم يكن هذا من حسن السياسة فقط ، وإنما هو واجب دينى يفرضه الإسلام على المسلمين ، فالوفاء بالعهد ليس تبرعا من المسلمين يمنون به على الناس ، ولكنه مسئولية واجبة عليهم : يقول الله تعالى ((**واوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا**))(٢٧) ويقول الرسول ﷺ : ((**من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فانا حجيجه**))(٢٨) الوفاء بهذه المعاهدات من جانب المسلمين هو السياسة الثابته حتى عندما كان ينقض أهل إقليم من الأقاليم المعاهدات من جانبهم ، كان المسلمون يكتفون منهم بالعودة إلى الطاعة وأداء التزاماتهم ولم يحملهم الانتقاض على الانتقام فقد ذكر الطبرى : أن أهل أذربيجان كانوا قد نقضوا عهدهم ، فغزاهم الوليد بن عقبة — من الكوفة — فى عهد عثمان ، وصالحهم على ثمانمائة الف درهم ، وذلك هو الصلح الذى كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان سنة اثنتين وعشرين — بعد نهاوند بسنة — ثم إنهم حبسوها عند وفاة عمر فلما ولى عثمان ، وولى الوليد بن عقبة الكوفة سار حتى وطئهم بالجيش فلما رأوا ذلك انقادوا له وطلبوا إليه أن يتم لهم على ذلك الصلح ففعل(٢٩) ، ولم يكن هذا مثلا وحيدا ، بل تكرر كثيرا .

ولما كانت الجزية هى أبرز الالتزامات التى فرضها الفاتحون المسلمون على المعاهدين وكثر الكلام حولها من جانب بعض المستشرقين ، من حيث علاقتها بإسلام الشعوب المفتوحة ، فينبغى أن نخصها بكلمة .

الجزية :

تقررت الجزية على المعاهدين بنص الآية الكريمة : ((**قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم**

---

(٢٧) الإسراء الآية ٣٤

(٢٨) أبو يوسف — كتاب الخراج ص ٢٥٧

(٢٩) تاريخ جـ ٤ ص ٢٤٧

صاغرون(٣٠) » فاداؤهم للجزية يكف عنهم القتال ، ويظلون على عقائدهم ، فهم لم يقاتلوا ليسلموا ، فلو كان القتال لحملهم على الإســلام ، لقال الله تعالى : « **قاتلوهم حتى يسلموا** » فالجزية إذن لم تكن عقابا لامتناعهم عن قبول الإســلام ، وإنما هى علامة على التسليم وعــدم المقــاومة ، وفى مقابل ادائها فإنهم إلى جانب تمتعهم بالبقــاء على أديانهم يستمتعون بحماية الدولة الإسلامية لهم ، فإذا عجزت عن حمايتهم فهم فى حل من ادائها ، كما نص على ذلك فى معاهدة خالد بن الوليد لأهل الحيرة(٣١) ، بل اكثر من ذلك فقد كان المسلمون فى حالة العجز عن حمايتهم يردون إليهم ما كانوا قد أخذوه منهم ، فقــد رد ابو عبيدة بن الجراح ما كان أخذه من أهل حمص وكتب إليهم : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنــا ما جمع لنا من الجموع ، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لانقدر على ذلك ، فرددنا عليكم ما اخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم » فقال أهل حمص : لولا يتكم وعد لكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم »(٣٢) ويعلق الأستاذ آرنولد على هذه الحادثة الفريدة فى تاريخ البشرية بقوله : « وبذلك ردت مبالغ طائلة من أموال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم — الروم — فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء بقى لنا »(٣٣) . وقد بلغ عدل الإسلام ورحمته بأهل الذمة انه لم يكن يعفى فقراءهم من الجزية فحسب بل كان يفرض لهم عطاء دائما ، من بيت مال المسلمين ، فقد فرض عمر بن الخطاب لليهودى الذى وجده يطلب الصدقة ، رزقا دائما من بيت المال »(٣٤) .

وكانت الجزية بصفة عــامة يسيرة القيمة ، فقد تراوحت بين ٤٨ درهما فى السنة على الأغنياء ، ٢٤ درهما على المتوسطين ، ١٢ درهمــا

---

(٣٠) التوبة — الآية ٢٩
(٣١) انظر نصها فى الطبرى جـ ٣ ص ٣٦٤
(٣٢) البلاذرى — فتوح البلدان ص ١٦٢
(٣٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٩
(٣٤) أبو يوسف — الخراج ص ٢٥٩

على القادرين على الكسب من الفقراء، كما كانت تجبى بروح الرحمة الإنسانية ولم يكن الخلفاء يسمحون إطلاقا باستخدام القوة فى جبايتها(٣٥) . وهذه شهادة آرنولد فى هذا المجال حيث يقول : « وقد أوصى جباة الجزية أن يظهروا الشفقة بأهل الذمة خاصة ، فلا يظلموهم ولا يؤذوهم فى المعاملة ، ولا ينزلوا بهم عقابا جسمانيا إذا لم يؤدوا الجزية »(٣٦) وقد ظلت هذه الروح الإسلامية الرحيمة سارية فى الدولة الإسلامية أمدا طويلا ، وهاهو أبو يوسف يقول لهارون الرشيد فى نهاية القرن الثانى الهجرى :« وقد ينبغى لك ياأمير المؤمنين — أيدك الله — أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك ، وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتقدم لهم حتى لايظلموا ولايؤذوا ولايكلفوا فوق طاقتهم ، ولايؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم »(٣٧) .

وقد توسع المسلمون فى الإعفاء من الجزية ، فأعفوا منها طوائف عديدة ، فالفقراء غير القادرين على الكسب والنساء والأطفال والمرضى ورجال الدين كل هؤلاء لاجزية عليهم .. كما كان يعفى منها من يحتاج المسلمون إلى خدماتهم فى الجيش من القادرين على ذلك كما ورد فى بعض المعاهدات التى ذكرناها .

يقول آرنولد : « وقد فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين الذكور ، مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين ، ومن الواضح أن أى جماعة مسيحية كانت تعفى من اداء هذه الضريبة إذا مادخلت فى خدمة الجيش الإسلامى ، وكان الحال على هذا

---

(٣٥) المصدر السابق ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٣٦) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٩ .

(٣٧) الخراج ص ٢٥٧ .

النحو مع قبيلة الجراجمة(٣٨) » ثم يستطرد فيذكر أمثلة من إعفاءات الجزية التى كان يتمتع بها المسيحيون الذين يعملون فى الجيش الإسلامى ، حتى العهد العثمانى ، كماهو الحال بالنسبة لمسيحى ألبانيا ورومانيا(٣٩). ومعنى هذا أن مراعاة الرحمة والعدالة لم تتوقف مع أهل الذمة طوال مسيرة التاريخ الإسلامى .

والعجيب بعد ذلك كله أن يعزو الأستاذ بتلر إقبال المسيحيين فى مصر على الإسلام إلى الهروب من الجزية(٤٠) ، ويحاول أن يهرب من الحقيقة وهى أن تحولهم إلى الإسلام يرجع إلى إقتناعهم به دينا يدعوا إلى التوحيد الخالص الذى لاتشوبه أية شائبة من شرك ، ولاندرى كيف يترك الإنسان دينه هروبا من اداء جزية يسيرة المقدار ، وهل هانت العقائد على الناس إلى الحد الذى يجعل الإنسان يغير عقيدته من أجل بضعة دراهم يدفعها كل عام ؟ ونحن نعرف أن المسيحيين الأوائل عندما كانت عقيدتهم صحيحة تقوم على التوحيد الخالص كانوا يضحون من اجلها بأرواحهم ، كما فعل أصحاب الأخدود نصارى نجران(٤١) ، فالذى يؤمن بدين ويراه جديرا بالإيمان لايصرفهعنه شيىء مهما كان الثمن غاليا .

---

(٣٨) الدعوة إلاسلام ص ٧٩ — ٨٠ — ويشير آرنولد إلى ما حدث مع الجراجمة فى عهد الوليد بن عبد الملك سنة٨٩ هـ . حيث اتفق معهم ، كما يروى البلاذرى فى فتوح البلدان ص ١٩١ على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ، ويجرى على كل امرىء منهمثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت ... وعلى الا يكرهوا ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية ، وعلى ان يلبسوا لباس المسلمين ، ولايؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية ، وعلى أن يغزوا مع المسلمين ، فينفلوا أسلاب من يقتلون » .

(٣٩) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٩ — ٨٠

(٤٠) الدكتور شكرى فيصل — المجتمعات الإسلامية ص ١٥٤ نقلا عن بتلر — فتح العرب لمصر .

(٤١) اقرأ سورة البروج .

ثالثا : إشراك أبناء البلاد المفتوحة فى إدارة بلادهم :

كانت سياسة المسلمين منذ بداية الفتوحات من سعة الأفق والمرونة بحيث أدركوا أن إستتباب الأمن وسير الأمور سيرا حسنا فى البلاد المفتوحة بما يحقق خيرأهلها ومصالحهم ، يكمن فى الأسلوب الإدارى الذى سيسيرون عليه فلم يترددوا فى الاحتفاظ بالنظم الإدارية التى وجدوها فى البلاد المفتوحة سواء كانت خاضعة للبيزنطيين مثل الشام ومصر أو خاضعة للفرس ، مثل العراق ، وبلاد فارس نفسها ، فهذه البلاد كان بها منذ قرون سابقة إدارات وهيئات وأجهزة ومرافق حكومية راسخة ، وورءاها تجاربطويلة فى فن الحكم والإدارة ، فقرر المسلمونأن يستفيدوا من هذا كله ، وأن يطوروا مايرونه ضروريا ليتفق مع دينهم ونظامهم السياسى ، والإجتماعى ويحقق الصالح العام ، للدولة وللمواطنين فقد اقتبس عمر بن الخطاب ديوان الجند عندما أشير عليه بذلك من النظام الفارسى(٤٢) . ولم يجد أى غضاضة فى ذلك ، وبهذا سن عمر — رضى الله عنه — للمسلمين سنة الإستفادة من الخبرة الإدارية التى وجدوها فى البلاد المفتوحة،ثم كتب إلى عمرو بن العاص عندما فتح مصر : « أن يسأل المقوقس عنها من أين تأتى عمارتها وخرابها ؟ فسأله عمرو ، فقال له : تأتى عمارتها وخرابها من وجوه خمسة ، أن يستخرج خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ويرفع خراجها فى إبان واحد ، عند فراغ أهلها من عصير كرومهم ، وتحفر كل سنة خلجها ، وتسد ترعها وجسورها ، ولايقبل محل أهلها — يريد البغى — فإذا عمل هذا فيها عمرت ، وإذا عمل فيها بخلافه خربت(٤٣) » هذا ولم يستفد المسلمون بالنظم الإدارية التى وجدوها ، ويحتفظوا بها فحسب ، بل احتفظوا كذلك بالجهاز الإدارى وطبقة الموظفين الذين كانوا يسيرون دولاب العمل فى البلاد .

وقد احتفظ المسلمون بالمناصب العليا ، كالإدارة وقيادة الجيوش ، فالأمير وقائد الجيش فى كل بلد لابد أن يكون مسلما ، وكان يطلق عليه

---

(٤٢) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٥٤ — ٥٥٥ وابن الطقطقا — الفخرى ص ٨٣ .

(٤٣) انظر ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١١١ .

إذا جمع بينهما أمير الحرب والصلاة ، وكان أحيـانا تضم إليه السلطات المالية — الخراج — وأحيانا كان يعين للخـراج وال مستقل ، وكان هذا طابع الإدارة فى عهد الخلفاء الراشدين ، أما فى العهد الأموى ، فقد كان الوالى فى معظم الأحيـان يتمتع بكل السلطات والصلاحيات الإداريـة والعسكرية والمالية . وكان المسلمون يحتفظون أيضا بمناصب القضـاء والشرطة والحسبة . أما ماعدا ذلك من الوظـائف الإدارية فكان المجال فيها متسعا أمام أبناء البلاد المفتوحة للمشاركة فى الإدارة(٤٤) . بل إن كثيرين منهم وصـلوا إلى مناصب إدارية فى ظل الحكم الإسلامى كانـوا محرومين منها فى ظل حكومات ماقبل الإسلام . كما هو الحال فى مصر فقد كان البيزنطيون يستحوذون على معظم المناصب الإدارية ، بالإضافة إلى المناصب العسكرية العليا ، ولايتركون للمصريين إلا أقل القليـل . تقول الدكتورة سيدة كاشف : « وكما أن روح الإسلام الحقه هى التى حفزت العرب إلى اتباع سياسة التسامح الدينى نحو المصريين ، فقد كان أيضا للعوامل السياسية أكبر الأثر فى حملهم على ترك تقاليد الأمور فى يد أهل مصر من الأقباط ، محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليـا ، وتنفيـذ أحكام الدين . أى أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة فى الدين ، كما أصبح لهم نصيب كبير فى إدارة بلادهم ، ربما لم يصلوا إليه قبل الفتح العربى ، ولاشك أن القبط حلوا محل الـروم الذين غادروا مصر والذين كانـوا يشغلون كثيرا من الأعمال فيها(٤٥) ولم يقتصر القبط على الأعمال الإدارية الصغيرة ، بل شقوا طريقهم إلى أعمال لها خطورتها ، ففى ولاية عبـد العزيز بن مروان على مصر ٦٥ — ٨٥ هـ كان هناك كاتبان قبطيان لإدارة مصر ، واحد لمصر العليا ، والآخر لمصر السفلى : وقد أشـار ساويرس أسقف الأشمونين إلى اسميهما وهما اثناسيوس وإسحاق ، بل أكثر من ذلك فقد تولى ولاية الصـعيد وال قبطى اسمه بطرس ، وقد اعتنـق

---

(٤٤) انظر د . حسن أحمد محمود — الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٥٠ ، د . سيده كاشف مصر فى فجر الإسلام ص ٢٦ ، د . إبراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص ٢٦٥ ومابعدهـا .

(٤٥) مصر فى فجـر الإسلام ص ١٧٠ .

الإسلام بعد توليه منصبه ، كما كان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوناس(٤٦).

ولم يكن هذا فى مصر وحدها ، بل حدث مثله فى الشام والعراق وفارس وشمال إفريقيا والأندلس ، وقد بقيت دواوين خطيرة بأكملها فى أيدى غير المسلمين عشرات السنين ، فديوان الخراج ، وهو أهم دواوين الدولة ، ظلت رئاسته فى يد سرجون بن منصور الرومى وابنه منصور طوال عهود معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، كذلك كانت رئاسة ديوان الخراج فى العراق فى يد رجل فارسى هو زادان فروخ(٤٧) ، ولم يكن سرجون بن منصور — وهو رومى مسيحى — رئيسا لديوان الخراج المركزى فى دمشق عاصمة الخلافة فحسب ، وإنما كان مستشارا سياسيا لمعاوية بن أبى سفيان(٤٨)، وابنه يزيد كما استعمل معاوية طبيبه الخاص ابن آثال على خراج حمص ، وقد توسع الأمويون فى استخدام أهل الذمة فى الإدارة ، مما أشعرهم بالأمان والإطمئنان تجاه الدولة ، فبدؤا يقبلون على اعتناق الإسلام لترتفع مكانتهم أكثر فأكثر .

رابعا — الوضع الدينى فى البلاد المفتوحة :

لاشك أنه مما جعل أبناء البلاد المفتوحة يقبلون على الإسلام بسرعة ، فساد الأديان فى بلادهم وانحلالها ، وفساد رجالها ، سواء كانت هذه الأديان سماوية كاليهودية والمسيحية أو وضعية كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها من الأديان الوثنية التى كانت سائدة فى البلاد المفتوحة . ففى فارس على سبيل المثال : كان الدين الرسمى للدولة هو الزرادشتية ، والمشهور من تعاليم زرادشت أنه كان يقول : » إن للعالم أصلين ، أوالهين أصل الخير وهو أهورا ، أو أهورا مزدا ، وأصل الشر وهو أهرمن ، وهما فى نزاع دائم . ولكل من هذه الأصلين قدرة الخلق ،

---

(٤٦) د . سيدة كاشف — المرجع السابق ص ١٧٠ .

(٤٧) البلاذرى — فتوح البلدان ص ٣٦٨ .

(٤٨) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٢٨ — والطبرى تاريخ ج ٥ ص ٣٣٠ ، ٣٤٨ .

فأصل الخير هو النور ، وقد خلق كل ماهو حسن وخير ونافع ، فخلق النظام وخلق النور وأصل الشر هو الظلمة ، وقد خلق كل ماهو شر فى العالم(٤٩) » ولزرادشت كتاب مقدس يسمى ، أفستا AVESTA وعليه شرح يسمى زندافست ، وإذا عرب أثبتت فيه قاف فقيل الأبستاق ، وعدد سوره إحدى وعشرون سورة تقع كل سورة فى مائتى ورقة(٥٠)» ومنذ أن غدت الزرادشتية الدين الرسمى للدولة ناصرها الحكام ، وافسحوا المجال لكهنتها ، حتى أصبح لهم نفوذ كبير فى الدولة فاستغلوه فى اضطهاد كل الأديان المخالفة وكانتكثيرة فى البلاد ، مثل البوذية والصابئة والمانوية والمزدكية ، بالإضافة إلى اليهودية والمسيحية التى كان يعتنقها بعض الطوائف . وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهية المريرة الذى أحسه الشعب الفارسى نحو هذا الدين الذى تغلغل فى بلادهم ، ونحو تلك الدولة التى وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع ، كما كان من الأسباب التى ساعدت على انتصار الفاتحين المسلمين وجعلهم يظهرون فى صورة من جاءوا لتخليص الأهلين مما أصبحوا فيه ، وما أن تم للمسلمين ماأرادوا على هذا الوجه ، حتى تنفس الفرسالصعداء ورحبوا بالمسلمين حبا فى الخلاص من ظلم الحكام أولا،ورغبة فى إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيا ، ثم أملا فى تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر ، وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين . أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية(٥١) ، هذه الحرية الدينية التى وفرها الإسلام للناس جعلتهم يقارنون بين الإسلام وبين تلك الأديان الوثنية ، فكانت النتيجة لصالح الإسلام ، لأن الأديان الوثنية لايمكن أن تصمد أمام دين سماوى يقوم على التوحيد الخالص لله تعالى ، ويحمل للناس الخير ويسوى بينهم فى الحقوق والواجبات والقيمة الإنسانية ، لذلك أسرع معظم الفرس إلى ترك تلك الأديان ، واعتنقوا الإسلام عن اقتناع بل دافعوا عنه فى حرارة وإخلاص كالعرب تماما(٥٢) .

---

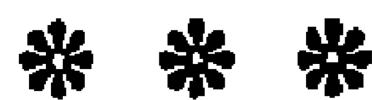
(٤٩) أحمد أمين — فجر الإسلام ص ١٠١

(٥٠) المرجع السابق ص ١٠٠

(٥١) آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٥٢) د . حسن أحمدمحمود — الإسلام فى آسيا الوسطى ص٤٨ .

ولم تكن الأوضاع الدينية فى البلاد المسيحية التى فتحها المسلمون بأحسن حالا مما كان عليه الوضع فى بلاد فارس ، ففى مصر كانت العقيدة المسيحية قد انحلت وأصبحت فى غاية من التعقيد والإبهام على عقول الناس حتى لم يعودوا يفهمونها وفقدت تأثيرها عليهم ، يقول آرنولد : « ومن المرجح أن تأثير المسيحية فى السواد الأعظم من أهل مصر كان قليلا فى القرن السابع ، وأن التعليقات النظرية التى استغلها زعماؤهم فى إثارة شعور الكراهية والمقاومة فى وجه الحكومة البيزنطية كان يمكن أن يدركها عدد قليل جدا من الناس،كما أن سرعة انتشار الإسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى — كذا — قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء،أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام ، وأن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين طائفة منفصلة ، والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها وقتا طويلا ، ودفعوا ثمنا غاليا فى هذا السبيل قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ماتكون غموضا وإبهاما من الناحية الميتافيزيقية ولاشك أن كثيرا من هؤلاء قد تحولوا — وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم من حولهم — إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد(٥٣) صلى الله عليه وسلم .



(٥٣) الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٥ — ١٢٦ .

سياسة الأمويين واثرها فى انتشـــار الإسلام

ذكرنا فيما سبق أن من بين العــوامل التى مكنت للإسلام فى البلاد المفتوحة وســاعدت على سرعة انتشــاره ، معاملة المسلمين لأهل تلك البلاد ، والتى تضمنتها معاهدات الصلح ، والتزام المسلمين الكامل بالوفاء بما جاء فى تلك المعاهدات ، وقد سار الأمويون على تلك السياسة ، ولم يحيدوا عنها(٥٤) ، فلم ينقضوا معاهدة ولم ينكثوا عهدا ، ولمنسمع طوال العهد الأموى كله إلا شكوى واحدة فيما يتعلق بنقض المعاهدات ، وهى الشكوى التى رفعها أهل سمرقند إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ حيث قالوا له إن قتيبة بن مسلم ، دخل مدينتهم على غــدر(٥٥) « فكتب عمر إلى عامله أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروه ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا فنصب لهم القاضى جميع بن حاضر الناجى ، فحكم بإخراج المسلمين ، على أن ينابذوهم على سواء ، فكره أهل سمرقند الحرب ، واقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم(٥٦) . هذه هى الشكوى الوحيدة التى قرأنا عنها ، ضد عامل من عمال بنى أميةخالف ماكان قد اتفق عليه ، فلما شكاه اهل سمرقند أنصفهم الخليفة ، وهذا المثل الوحيد — وسط هذه الحروب الطويلة والأحداث المتلاحقة ، وكثرة الانتقاض ونكث العهود من أهل البلاد — يدل على أن السياسة العامة ، التى اتبعهــا الأمويون هى المحافظة على نصوص وروح المعاهدات ، فلو كانت هناك مخالفات مماثلة لسمعنا عنها ، ولسنا نريد الإدعاء بأن جميع خلفاء وعمال بنى أمية كانوا بريئين من الأخطاء والمخالفات ، فهم بشر ولا عصمة لهم من الأخطــاء ، ومن كان فى موقفهم ، ويدير دولة كدولتهم ذات المســاحات الشاسعة ، والتى تضم العديد من الأجناس والطوائف والفرق والأحزاب والأديان ، لا يسلم من الخطأ ، ولكن المخطىء سرعان ما كان يرجع إلى

---

(٥٤) د. حسن أحمد محمود — المرجع السابق ص ٤٨

(٥٥) كان قتيبة بن مسلم عندما فتح سمرقند قد اتفق مع اهلها على أن يدخل المدينة ويبنى فيها مسجدا ويصلى ويخرج ، ولكنه بعد أن دخلها لم يوف بالتزامه وأبقى فيها جنده . انظر الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٤٧٥

(٥٦) البلاذرى — فتوح البدان ص ٥١٩

الصواب ، فقدأخطأبعض عمال بنى أمية — لما اعوزهم المـال وتناقصت الجزية بإقبال الناس على اعتناق الإسلام — وفرضوا الجزية على حديثى الإسلام فلم يحتمل ضمير الأمة هذا الخطأ الجسيم المخالف لروح ومبادىء وأصول الشريعة الإسلامية،التى تنص على عدم أخذ الجزية من المسلم(٥٧) وضج المسلمون من العرب وسخطوا على هؤلاء العمال الذين ارتكبوا هذا الخطأ الكبير ، فلما رفع الأمر إلى عمر بن عبد العزيز أمر على الفور برفع الجزية عمن أسلموا ، وصاح فى عماله صيحته المشهورة : قبح الله رايكم، فإن الله قد بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا »(٥٨) وبادر بعزل العمال الذين وقعوا فى هذا الخطأ ، مثل الجراح بن عبد الله الحكى والى خراسان(٥٩) . وكان ضمير الأمة يقظا على حراسة المبادىء والأصول الإسلامية ، وكان يرد العمال إذا أقدموا على مخالفة من هـذا القبيل ، فعندما ازمع عبد العزيز بن مروان — والى مصر — اخذ الجزية ممن أسلموا من أهل الذمة ، قال له القاضى ابن حجيرة : « أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر ، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف تضعها على من أسلم منهم ؟ فتركهم عند ذلك »(٦٠) . وكان الخلفاء الأمويون فى غالب الأحوال يتحرجون من أخذ الأموال بدون وجه حق ويمنعون العمال من ذلك ، فعندما كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى اخذ الفضول من أموال السواد ، منعه من ذلك وكتب إليه :«لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك . وابق لهم لحوما يعقدون عليها شحوما »(٦١) وكان الوليد بن عبد الملك إذا تشكك فى مصدر الأموال التى يرفعها إليه العمال ، لا يقبلها إلا اذا أقسم العامل أنه ما ظلم فيها أحدا ، ولا غصب منها شيئا ولا أصابها إلا من طيب(٦٢) .

---

(٥٧) أبو يوسف — الخراج ص ٢٥٤

(٥٨) ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٠٧ والطبرى — تاريخ — جـ ٦ — ٥٥٩

(٥٩) الطبرى — المصدر السابق جـ ٦ ص ٥٦٨

(٦٠) ابن عبد الحكم — فتوح مصر — ص ١٠٧

(٦١) الماوردى — الأحكام السلطانية ص ١٤٩

(٦٢) الطبرى — تاريخ جـ ٦ ص ٤٩٨

وقد مر بنا فى ترجمة سليمان بن عبد الملك ما ذكره صاحب أخبار مجموعة من ان الخلفـاء الأمويين . « كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصـار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولادرهم ، حتى يحلف الواحد بالله الذى لا إله إلا هو ، ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وانه فضل اعطيات اهل البلاد من المقاتلة والذرية ، بعد أن أخذ كل ذى حق حقه »(٦٣) ، ومر بنا فى ترجمة هشام بن عبد الملك انه لم يكن يدخل بيت ماله مالا إلا بعـد أن يشهد أربعون قسامة ، لقد أخـذ من حقـه ، ولقـد أعطى الناس حقوقهم(٦٤) ، وكان الخلفاء الأمويون يجتهدون فى اختيـار الولاة الذين ينفذون هذه السياسة ، التى تراعى الحق والعدل والإنصاف للناس ، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة على ذلك فى تراجمهم ، كما كانوا لا يترددون فى عزل العامل إذا اتضح لهم ظلمه وشططه فى جباية الخراج والجزية والصدقات(٦٥) .

هذه السياسة العادلة الرحيمة ، التى كانت تراعى الصالح العام ، وتصحح نفسها بنفسها إذا حدث ميل أو انحراف عن السبيل السوى ، أسهمت إسهاما كبيرا فى إقبال أبناء البلاد المفتوحة على الإسلام .



---

(٦٣) اخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٢٢ — ٢٣

(٦٤) الذهبى — سير اعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣٥٢

(٦٥) د. سـيدة كاشف — الوليد بن عبد الملك — سلسلة اعلام العرب ص ٥٦

انتشار الإسلام فى مصر(٦٦)

بعد أن أتم عمرو بن العاص فتح فلسطين ، سار إلى مصر — بعد أن أقتنع الخليفة عمر بن الخطاب بضرورة فتحها لتأمين فتوحات الشام ولأسباب أخرى كثيرة — وقد فتحها فى خلال ثلاث سنوات ١٨ — ٢١ هـ ويعتبر فتح مصر من اسهل الفتوحات التى أنجزها المسلمون لأنهم لم يكونوا يحاربون الشعب المصرى ، بل جيشا بيزنطيا محتلا ، وسرعان ما هزموا هذا الجيش الذى تعودوا على قهره ، وأرغموه على الرحيل عن مصر . أما الشعب المصرى فلم يشترك فى مقاومة المسلمين ، بل رحب بهم ، وكان عونا لهم ، يقول آرنولد : « ويرجع النجاح السريع الذى أحرزه الغزاة العرب فى مصر ، قبل كل شىء إلى مالقوه من ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطى ، لما عرف به من الإدارة الظالمة ، ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت ، فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين ، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسى التابعين للبلاط ، الذين ألقوا فى قلوبهم بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم »(٦٧) فمع أن المصريين كانوا مسيحيين كالبيزنطيين ، فإن اشتراكهم فى الدين لم ينجهم من الاضطهاد لأنهم خالفوهم فى المذهب الدينى ، فقد كان المصريون يعاقبة ، يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح ، بينما كانت الدولة البيزنطية تدين بالمذهب الذى قرره مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م وهو أن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية .

وقد مارست الدولة البيزنطية أشد أنواع الإكراه لحمل المصريين على اعتناق مذهبها واشتد الأذى عندما جاء الإمبراطور هرقل ٦١٠ —٦٤١ م بمذهبه التوفيقى الجديد ، وهو مذهب المشيئة الواحدة للمسيح ، وحاول

---

(٦٦) رأينا أن نبدأ بانتشار الإسلام فى القسم الغربى من العالم الإسلامى بادئين بمصر فشمالى إفريقيا فالأندلس ، ثم نعود إلى المشرق ، الشام والعراق وفارس وما وراء النهر والسند .

(٦٧) الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٣ — وانظر كذلك د. حسن ابراهيم حسن انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ١٤

فرضه على المصريين بالقوة ، وأوكل هذه المهمة إلى قيرس — المقوقس — الذى عينه حاكما على مصر بجانب رئاسته للكنيسة ، وقد اشتط قيرس فى فرض هذا المذهب الجديد ، وتحت ضغوطه تحول كثيرون إليه ممن لم يستطيعوا الهرب ، ومنهم بعض الأساقفة أما البطريرك بنيامين فقد هرب وظل مختفيا فى الصحراء الغربية حتى دخل عمرو بن العاص مصر وأعاده إلى كرسى البطريركية ، ومن لم يستطع الهرب ، ولم يقبل المذهب الجديد فقد قاسى أشد أنواع العذاب مثل الأب مينا (٦٨) . أخى البطريرك بنيامين وبهذا الأسلوب القاسى قطع قيرس آخر خيط كان يربط المصريين بالدولة البيزنطية(٦٩) .

هذه الصورة القاتمة من الاضطهاد الدينى الذى مارسه البيزنطيون فى مصر ، حلت محلها صورة وضيئة مع مجيىء الفتح الإسلامى الذى وفر للمصريين « حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان ، وقد تركهم عمرو بن العاص أحرارا على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذى أنوا من عبئه الثقيل فى ظل الحكم الرومانى، لم يضع عمرو يده على شيىء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب »(٧٠) ، ولكن اللافت للنظر أنه بالرغم من الحرية الدينية الكاملة التى أتاحها الفتح الإسلامى للمصريين ، وعدم التدخل فى شئونهم الدينية ، فقد تحول كثيرون منهم إلى الإسلام ، وتركوا عقيدتهم المسيحية ، منذ الإيام الأولى للفتح ، بل تحول كثير منهم إلى الإسلام قبل أن يتم فتح مصر ، حيث كانت الاسكندرية — حاضرة مصر — وقتئذ ، لا تزال تقاوم الفاتحين(٧١) وكتب يوحنا النقيوس ان بعض المصريين تركوا الدين المسيحى وأسلموا ، وصحبوا جيوش العرب أثناء الفتح وكان منهم

---

(٦٨) د. سيدة كاشف — مصر فى فجر الإسلام ص ٨ نقلا عن ساويرس بن المقفع .

(٦٩) المرجع السابق ص ٨ نقلا عن بتلر .

(٧٠) آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٣

(٧١) المرجع السابق ص ١٢٤

يوحنا احد رهبان دير سينا(٧٢) . واصبح تناقص الجزية بشكل ملحوظ مؤشرا كبيرا على كثرة الداخلين فى الإسلام من المصريين فقد نقصت الجزية من اثنى عشر مليون دينار فى عهد عثمان بن عفان ٢٣ — ٣٥هـ إلى خمسة ملايين فى عهد معاوية بن ابى سفيكان ٤١ — ٦٠ هـ ، ثم بلغ النقص مداه فى خلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ وهذا هو الذى خلق المشكلة التى تورط فيها بعض الولاة فى مصر حيث استمروا يأخذون الجزية ممن أسلموا من القبط ، وهو الوضـــع الذى قضى عليه عمر بن عبدالعزيز(٧٣) .

وقد استمرت حركة دخول مسيحيى مصر فى الإســـلام فى زيادة مضطردة ، ففى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك دخل أربعـــة وعشرون ألفا منهم الإسلام دفعة واحدة فى سنة ١٠٨ هـ — ٧٤٤ م (٧٤) ولم يكن الدخول فى الإسلام منذ أن فتحت مصر قاصرا على طبقة بعينها ، بل دخل فيه رجال من كل الطبقات من رجال الدين مثل يوحنا — راهب دير سينا — المشـــار إليه آنفا — ومن المفكرين والأشراف ومن عامة الناس(٧٥) .

ولم يقتصر اعتناق الإســـلام على القبط بل أسلم كثير من الروم الذين بقوا فى مصر بعد الفتح(٧٦) ، وهكذا استمر دخول مسيحيى مصر فى الإســـلام ، حتى تحول اغلبية السكان إليه ، وتعلموا اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، والتى غدت لغة الدواوين والإدارة واصبحت مصر بالتدريج بلدا عربيا مسلما ، اغلبية سكانه مسلمون ، وبقى بعض القبط على دينهم حتى الآن ، وبقاء هـــذا العدد من المصريين على مسيحيتهم دليل على التسامح الإســـلامى ، وعلى أن من اعتنق الإسلام منهم اعتنقه

---

(٧٢) الدكتورة سيدة كاشف — مصر فى فجر الإسلام ص ١٦٤

(٧٣) أرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٤ ، وراجع ابن عبدالحكم — فتوح مصر ص ١٠٧

(٧٤) آرنولد — المرجع الســـابق ص ١٢٥ ، نقـــلا عن ساويرس ابن المقفع .

(٧٥) د. شكرى فيصل — المجتمعات الإسلامية ص ١٥٦

(٧٦) المرجع السابق ص ١٥٦

عن رضى وقناعة ، دون جبر او إكراه ، فلم نسمع عن حادثة واحدة استخدمت فيها القوة لحمل أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام وهذه حقيقة يعترف بها الكتاب المسيحيون أنفسهم فى صراحة تامة(٧٧) .

وقد يتساءل القارىء : إذا كان المسلمون قد منحوا المصريين حريتهم الدينية ولم يكرهوا أحدا منهم على الدخول الإسلام ، فلماذا ترك أكثرهم دينه المسيحى واعتنق الإسلام ؟ والإجابة عن هذا التساؤل تكمن فى العوامل السابقة التى ذكرناها ، عالمية الإسلام وبساطته وملاءمته للفطرة ، وبعده عن التعقيد والإبهام ، ومعاملة المسلمين الحسنة ، وإتاحة الفرصة للمصريين للمشاركة فى إدارة بلادهم ، وأخيرا انحلال الديانة المسيحية وتعقيداتها اللاهوتية وفساد رجال الدين ، كل ذلك زهد المصريين فى المسيحية وجعلهم يقبلون على الدخول فى الإسلام ، كما أشار إلى ذلك آرنولد فى أكثر من موضع فى كتابه(٧٨) ، وكما يقول بتلر عن الموضوع نفسه : « فقد رأوا — المصريون — أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ، ويجعلهم إخوانهم فى كل شيىء ، يسهم لهم فى الفيء ولا يفرض عليهم الجزاء ، فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام ، لاسيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا ، وحطم يقينهم باضطهاده(٧٩) » .

وقد يتساءل القارىء ايضا عن دور المسلمين فى جذب مسيحى مصر إلى الإسلام ؟ والذى يعرفه كل مطلع على سير الدعوة الإسلامية أن أعظم ما يدخل السرور على قلب المسلم ، أن يهدى الله به ولو رجلا واحدا إلى الإسلام فهذا خير له من حمر النعم . فدور المسلمين فى ذلك هو دور الداعى إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، والقدوة

---

(٧٧) انظر آرنولد — الدعوة إلى الإسلام — ص ٦٥ ، ٨٨ .

(٧٨) المرجع السابق ص ٧٤ ، ٨١ ، ٨٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥

(٧٩) نقلا عن الدكتور شكرى فيصل — المجتمعات الإسلامية ص ١٥٤

الطيبة فالخلفاء والأمراء كان دورهم التشجيع وخلق الجو المناسب ، والالتزام بروح ونصوص المعاهدات وإشاعة الحرية والتسامح بين الناس .

أما العرب المسلمون الذين عاشوا فى مصر بعد الفتح فقد كان تأثيرهم فى جذب القبط إلى الإسلام من ناحية سلوكهم الإسلامى الملتزم وقدوتهم الحسنة ، وامتزاجهم بالمصريين ، فالعرب المسلمون لم يكونوا يعتبرون أنفسهم طبقة فوق المصريين يتعالون عليهم ، بل اختلطوا بهم ، وصاهروهم وعايشوهم ، ومن أسلم منهم فهو أخوهم فى الدين ، ومن لم يسلم فله كل الاحترام وكل الوفاء ، وقد أفاضت المصادر فى ذكر الآثار التى تنسب إلى الرسول ﷺ فى الوفاء لأهل الذمة ، وفى وصية المسلمين بأهل مصر لأن لهم ذمة ورحما(٨٠) ، مما كان له تأثير كبير على معاملة المسلمين للمصريين . وكان انتشار الإسلام يزداد فى مصر مع ازدياد وفود العرب المسلمين إليها ، فيذكر المقريزى أن الإسلام فشا فى قرى مصر بعد هجرة عرب قيس إليها فى خلافة هشام بن عبد الملك(٨١) ، فسكنى هذه القبائل فى مصر وإقامتها لشعائر الدين ، وانقطاع جماعات منها للدعوة ، لابد وأن يكون له أثر فى تقريب الإسلام إلى قلوب المصريين ، لأن هذه القبائل لم تكن تعيش فى نطاق محصور ، ولكنها كانت تجوب مناطق كثيرة ، ولم تكن تعيش منعزلة ، وإنما كانت تشارك فى كل مظاهر الحياة وألوان النشاط ، فى إطار من سلوكها الإسلامى ، ولذلك فإن لنا أن نتصور أنها أعانت على نجاح الدعوة الإسلامية ومكنت لها فى البلاد(٨٢) .

---

(٨٠) انظر على سبيل المثال — ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص ١٣

(٨١) الخطط جـ ٢ ص ٢٦١

(٨٢) د. شكرى فيصل — المجتمعات الإسلامية ص ٢١١ .

انتشـــار الإســـلام فى المغرب

ما نقصده بالمغرب — هنا — الشمال الإفريقى كله ، من حـــدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى ، وهى المنطقة التى اتم المســلمون فتحها فى نهاية القرن الهجرى الاول — كما عرفنا فى الفصـــل السابق — بعد جهود مضنية ، بسبب مقاومة البربر العنيدة(٨٣) ، والتى كان من اهم اسبابها ان البربر لم يفهموا منذ البداية طبيعة الإسلام ومميزانه ، ومايحمله لهم من خير ، فكانت مقاومتهم للمسلمين فى ضوء تجاربهم المريرة مع من تداول حكمهم خلال قرون ، من رومان ووندال وبيزنطيين ، وما عانوه من هـــذه الحكومات من ظلم واضطهاد ، ولكن بعـــد أن كثر احتكاكهم بالمسلمين،وتعرفوا على طبيعة الإسلام وأهدافه ومبادئه،تغير الموقف تماما، وتحول معظم البربر إلى الإسلام ، وحملوا رايته ودافعو عنه ، وكان لهم فى فتح الأندلس دور مشكور وبلاء حسن .

سكان المغرب عند الفتح الإسلامى وديانتهم :

من خلال المصادر التى تحدثت عن اصل وعناصر السكان فى الشمال الإفريقى نستخلص انهم كانوا يتالفون من ثلاثة عناصر رئيسية هى :

---

(٨٣) أجمل الأستاذ محمد على دبوز — فى كتابه — تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ ص ١٠٧ — ١١٠ — الصعوبات التى لقيها المسلمون فى فتح المغرب فذكر منها كره البربر للحكومات المركزية ، وعشقهم لحياة الحرية والاستقلال ، وكرههم للأجنبى أيا كان ، ونفورهم من أى شيىء يأتيهم من الخارج ، ومنها الدعاية الكاذبة المسمومة التى كان يذيعها الروم بينهم لتنفيرهم من الإســـلام والمسلمين ، ومنها ان المسلمين عندما طرقوا أبواب المغرب ، كان فى مرحلة الشباب والقوة والفتوة ،ووجدوه واقفا على قدميه، مستعدا لبناء دولته المستقلة ، كما ان طبيعة البلاد ، ذات الجبال الشاهقة والطرق والمسالك الوعرة ساعدتهم على المقاومة وفوق هذا كله شجاعتهم وشده شكيمتهم فى الدفاع عن أرضهم .

لكنهم بعد ان عرفوا الإسلام ومبادئه حق المعرفة وادركوا ما يحمله لهم من الخير اقبلوا عليه وآمنوا به بحماس شديد ودافعوا عنه ببسالة .

أولا : البربر وهم أهم هـــذه العناصر وأكثرها عددا ويقول عنهم ابن خلدون : « هؤلاء البربر جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى ... ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل إلى الإسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومى وبلاد السودان(٨٤) » وينقســـم هؤلاء البربر إلى قسمين كبيرين البربر الحضر الذى يسكنون النواحى الخصبة فى الشمال على الساحل ، ومعظمهم من البرانس ، والبربر الرحل ، الذين يعمرون الصحارى والواحات التى تلى ذلك جنوبا(٨٥) ، ومعظمهم من قبـــائل البـــتر .

ثانيا : الأفارقة : وهم — كما يرى الحسن بن الوزان : إما من أصل فلسطينى ، لجأوا إلى المغرب بعد ان طردهم الأشوريون من بلادهم ، وإما من اصـــل يمنى ، أو من سكان بعض مناطق آسيا(٨٦) ، ولكن يبدوا أن الأفارقـــة لم يكونوا ينتمون إلى أصل واحـــد ، وأن كلمة أفارقة تعنى أخلاطا من الناس « كانوا يســـكنون النواحى الساحلية العـــامرة المحيطة بالمـــدائن البيزنطية ، والأجزاء المزروعـــة الأخرى ، الداخلة فى الرباطات البيزنطية ، وهؤلاء خليط من المستعمرين اللاتين ، وبقايا الشعب القرطاجنى القديم ، ومزارعى البيزنطيين وصناعهم ونفر من البربر ممن استقر ودخل فى طاعة البيزنطيين »(٨٧) .

ثالثا : الروم ، وهم الذين غلبوا على البلاد وحكموها ، وهاجروا إليهـــا وسكنوها ، وكان منهم رجال الحكم والإدارة ، والتجار والصناع ، وعلى الجملة كانوا الطبقة المسيطرة فى البلاد(٨٨) . تلك هى أهم العناصر التى كان يتألف منها سكان المغرب عند الفتح الإسلامى .

---

(٨٤) العبر ج ٦ ص ١٠٦

(٨٥) د. حسين مؤنس — فتح العـــرب للمغـــرب ب — ص ٦ ، د. شكرى فيصل — حركة الفتح الإسلامى ص ١٨١

(٨٦) وصف إفريقيا ص ٤٣

(٨٧) د. حسين مؤنس — المرجع السابق ص ٥

(٨٨) د. شكرى فيصل — حركة الفتح الإسلامى ص ١٨٠.

الديانـــة :

كان القسم الأكبر من أهل الشمال الإفريقى — وبصفة خاصة فى المناطق الداخلية بعيدا عن الساحل — وثنيين(٨٩) . وقد دخلت المسيحية بلاد المغرب منذ القرون الأولى للميلاد،عن طريق مصر وإيطاليا ، وقد لقيت تبولا عند بعض السكان ، خصوصا فى المناطق الساحلية الشمالية ، وقد نشأت فى البلاد الكنائس ، وكانت كنيسة قرطاجنة من انشط الكنائس فى العالم المسيحى . وقـــد أمدته بعدد كبير من رجال الدين والقديسين : امثـــال القديس أوغسطين(٩٠) . فمـــا هو مصير المسيحية والمسيحين وكنائسهم بعد الفتح الإسلامى للمغرب ؟ يقول أرنولد : « إن الكنيسة فى المغرب قد تلاشت كما يتلاشى الضباب(٩١) » فهل كان للفتح الإسلامى يد فى ذلك ؟ يجيب فى صراحة عن هذا : فيقول « تعود الباحثون أن ينسبوا اختفاء المسيحيين من أهالى تلك البلاد إلى اضطهاد الفاتحين المسلمين ، الذى املته عليهم روح التعصـــب الدينى ، وإكراههـــم على الدخول فى الإسلام ، ولكن هناك اعتبارات شتى تدفع ما استقر عليه الراى فى هذه المسألة الشائكة ، أولها عـــدم وجود الدليل البين الذى يؤيد مثل هذا الراى ... وأن بقاء الكنيسة الوطنية بعد الفتح العربى ، أكثر من ثمانية قرون ، لشاهد على روح التسامح التى استطاعت وحدها أن تجعل هذا البقاءأمرا ممكنا فمن اللازم أن نتلمس الأسبابالتى مهدت السبيل إلى تدهور المسيحية فى شمال إفريقيا فى شىء آخر ، أكثر ممـــا نتلمسها فى تعصب الولاة المسلمين(٩٢) » ويلخص تلك الأسباب فى ضعف تاثير المسيحية على الناس ، وعجزها عن التغلغل فى الداخل بعيداعنالساحل،وفى اضطهاد، الوندال للكنيسة الأفريقية الأرثوذكسية — أثناء احتلالهم للشمال الإفريقى خلال القرنين الخامس والســـادس الميلاديين — حيث شردوا أساقفتها

---

(٨٩) ابن خلدون — العبر — ج ٦ ص ١٠٦ وانظر آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٥

(٩٠) آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٣

(٩١) المرجع السابق ص ١٤٣.

(٩٢) المرجع السابق ص ١٤٤

وحرموا على الناس الجهر بشعائر دينهم ، وقسوا فى تعذيب من لم يدخل فى مذهبهم الدينى(٩٣) .

كما أن من أسباب تدهور المسيحية فى شمال إفريقيا أن كنيستها لفتها دوامة الخلافات الدينية ، خصوصا بعد أن دخلها المذهب اليعقوبى على يد رجال الدين الذين فروا إليها من مصر بسبب الاضطهاد البيزنطى فى القرنين السادس والسابع(٩٤) ، ومما زاد الطين بلة محاولة هرقل فرض مذهبه الجديد — مذهب المشيئة الواحدة — على أهل شمال إفريقيا . كما حاول ذلك فى مصر ، فلقى معارضة شديدة من رجال الكنيسة ، فقوبلت المعارضة بالقسوة والاضطهاد كما حدث فى مصر ، كل هذه الأسباب بالإضافة إلى تعقيد الديانة المسيحية واستعصائها على إفهام الناس أدت إلى تدهور المسيحية وتناقص عدد المسحيين فى شمال إفريقيا قبل وصول المسلمين إليها(٩٥) .

سرعة استجابة السكان للإسلام :

على الرغم من المقاومة العنيدة التى لقيها المسلمون من أهل المغرب ومن طول أمد الفتح ، إلا أن الملاحظ أن الاستجابة إلى الإسلام ربما كانت أسرع وأوسع انتشارا مما حدث فى المشرق ، فى العراق والشام ومصر .

فمنذ غزو عمرو بن العاص لبرقة — أواخر عهد عمر بن الخطاب — نجد إقبالا من السكان على اعتناق الإسلام فقد كتب إلى عمر : أنه ولى عقبة بن نافع الفهرى المغرب ، فبلغ زويلة ، وأن من بين زويلة وبرقة ، سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، وقد أدى مسلمهم الصدقة ، واقر معاهدهم بالجزية وأنه أمر عماله أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء ويردوها على الفقراء ، وأن يأخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ، ومن أهل

(٩٣) نفسه ص ١٤٦ .

(٩٤) د. حسين مؤنس — فتح العرب للمغرب ص ٤٤

(٩٥) آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ١٤٧

الصلح صلحهم(٩٦) . فذكر الصدقة وأرض المسلمين ، يدل على وجـود أعداد ليست قليلة اعتنقت الإسلام فى هـذا الوقت المبكر ، ويذكر ابن خلدون : أنه فى عهد عثمان بن عفان وقع احد ملوك البربر — وهو وزمار بن صقلاب ، وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناته — فى الأسر ، فأرسلوه إلى عثمان فأسلم على يديه ، وعقـد له على قومه(٩٧) ، ومن الممكن أن نفترض أن قوم وزمار هذا قدأسلموا — أو بعضهم على الأقل — بإسلامه، على عادة الناس فى متابعة زعمائهم فى تلك البلاد يومئذ ، ومن المؤكـد أن أن هؤلاء الذين أسلموا فى ذلك الوقت المبكر قد حسن إسلامهم ، وظلوا متمسكين به رغم انشغال المسـلمين عن الفتوحات فى المغرب ، من أواخر خلافة عثمان حتى بداية خلافة معاوية ، لأننا نجد كثيرينمن مسلمى البربر ينضمون إلى عقبة بن نافع يغزون معه ، عندما أسند إليه معاوية قيـادة الفتح فى المغرب(٩٨) ، وقد ازداد عدد المسلمين زيادة ملحوظة فى ولاية عقبة الأولى ٤٦ — ٥٥ هـ — خصوصا بعد بناء القـيروان ، حيث دخل كثير من البربر فى الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين — على حـد تعبير ابن الأثـير(٩٩) .

ويعلل الدكتور حسين مؤنس إقبـال البربر على الإسلام فى هذه المرحلة المبكرة بعدائهم للروم من ناحية ، وضعف تأثير المسيحية عليهم من ناحية ثانية فيقول : إننا نعرف أن القبائل التى كانت تسكن الناحية التى أقيمت فيها القيروان أو تحيط بهـا ، إنمـا هى لواته ونفزاوة ونفوسه ، وأن هذه القبائل معدودة من قبائل البدو ، الذين لبثوا على عداء الـروم زمنا طـويلا ، ونعرف أن تاثير المسيحية فى هـذا الفريق من البربر كان ضعيفا جدا ، فهل يكون ذلك مؤيدا لرواية إسلامهم السريع(١٠٠) » .

---

(٩٦) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٢٦٥ .

(٩٧) العبر جـ ٦ ص ١٠٨ .

(٩٨) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٦٥ .

(٩٩) المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٦٦ .

(١٠٠) فتح العرب للمغرب ص ٢٨٤ .

قد يكون هذا أو ذاك من الأسباب،لكن من المؤكد — وقد عرفنا اعتزاز البربر بأنفسهم — أن هذه الأسباب وحدها لم تكن هى التى دفعتهم إلى إعتناق الإسلام ، إلا إذا كانوا قد اقتنعوا به دينا يدعوا إلى توحيد الله فى بساطة وانه حقق لهم المساواة بإخوانهم المسلمين الفاتحين ، فأقبلوا عليه ، واخذت أعدادهم تزيد باطراد حتى أسلموا عن آخرهم فى نهاية الأمر(١٠١) .

اضطردت خطى الإسلام فى المغرب فى ولاية أبى المهاجر دينار ، الذى حل محل عقبة بن نافع فى المغرب ٥٥ — ٦٢ هـ والذى عرف طبيعة البربر فمال إلى سياسة الملاينة معهم والتقرب إليهم ، وقد نجحت هذه السياسة ، وآتت ثمارا طيبة فى مجال تقريب الإسلام إلى عقول وقلوب البربر فازداد إقبالهم عليه . وقد فتح أبو المهاجر المغرب الأوسط وتجلت سياسته بعد الفتح ، فى جذب أبرز زعيم فى المنطقة ، وهو كسيلة بن لمزم إلى الإسلام(١٠٢) ، حيث أسلم بإسلامه كثير من قومه ، فإسلام كسيلة كان حدثا عظيما دون شك ، ولايقلل من أهميته ماحدث بين عقبة بن نافع فى حملته الثانية وبين كسيلة والذى انتهى باستشهاد عقبة فى حادثة تهوذه ، ولم يكتف أبو المهاجر بإسلام كسيلة ومن تبعه من قومه ، وإنما عمل على توطيد اقدام الإسلام فى المغرب كله ، فكان كلما فتح مدينة يقيم فيها ويبنى المساجد ، ويدعو الناس إلى الإسلام فعل ذلك فى ميلة وفى تلمسان ، وفى غيرها ، وكان يعمل على تحقيق الامتزاج بين العرب والبربر ، ليحدث أثره فى اقتباس البربر الدين واللغة من العرب(١٠٣) . وقد أثمرت جهود أبى المهاجر فى مجال نشر الإسلام ، ووضحت آثارها بعده بثلاثين سنة تقريبا ، حيث نجد رجالا من البربر مسلمين ، على ثقة وتمكن من دينهم يسيرون مع العرب جنبا إلى جنب لفتح البلاد ورفع راية الإسلام ، « وهذا هو ما يفسر ظهور رجل كطارق بن زياد عربى الإسم عربى الأب فى

---

(١٠١) انظر ابن خلدون — العبر ج ٦ ص ١١٠ .

(١٠٢) ابن عذارى — البيان المغرب ج ١ ص ٢٨ — ٢٩ .

(١٠٣) محمد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير — ج ٢ ص ٥٦ .

سنة٩١هـ وإنما ضربنا المثل بطارق لكى نؤكد أن حركة الاختلاط بين العرب والبربر ، بالزواج والإسلام ، كانت تسيرجنباإلى جنبمع الفتوح(١٠٤)».

وبينما ابو المهاجر دينار يواصل فتوحاته فى المغرب ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، ويحقق النجاح تلو النجاح ، إذا بالخليفة يزيد بن معاوية يعزله ، ويرد عقبة بن نافع ثانية إلى المغرب ، وقد قام عقبة فى هذه المرحلة بحملته السريعة التى وصل فيها إلى شواطىء المحيط ، وفى هذه المرحلة أسلم على يديه خلق كثير من البربر ، منهم المصامدة الذين ترك فيهم عقبة بعض أصحابه يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام منهم شاكر صاحب الرباط وغيره(١٠٥) ، وقد ظهرت آثار جهود عقبة ومن سبقوه فى نشر الإسلام وتوطيد أقدامه فى المغرب فى حادثة تهوذه التى استشهد هو فيها.فعلى الرغم من مرارة هذه المأساة ، إلا انها كشفت عن رسوخ أقدام الإسلامفىالبلاد وسعة انتشاره يقول ابن الأثير،أنه بعدمقتل عقبة ومنمعه، وقع جماعة منهم فى الأسر ، منهم : « محمد بن أوس الأنصارى فى نفر يسير ، فخلصهم صاحب قفصة(١٠٦) وبعث بهم إلى القيروان(١٠٧) » ، فمن هو صاحب قفصة الذى خلص المسلمين من أسر كسيلة وبعث بهم إلى القيروان ؟ الا يحق لنا أن نفترض أنه كان مسلما وأن كثيرا من أهل مدينته كانوا مسلمين حتى اندفع يخلص أسرى المسلمين ويبعث بهم إلى القيروان(١٠٨) . ثمإن كسيلة بعد سيطرته علىالمغرب ، عقب استشهاد عقبة وانسحاب المسلمين من القيروان إلى برقة ، أعطى المسلمين الأمان(١٠٩) ، فهل كان ذلك رحمة بالمسلمين ، وهو الذى ارتد وقضى على عقبةوأصحابه ، أم أنه يجوز لنا أن نفترض أن اكثرهؤلاء المسلمين —

---

(١٠٤) د . حسين مؤنس — فتح العرب للمغرب ص ٢٨٦ .

(١٠٥) ابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٤٢

(١٠٦) بلدة صغيرة فى طرف إفريقية ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام — ياقوت — معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٨٢ .

(١٠٧) الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ١٠٨ .

(١٠٨) د . شكرى فيصل — المجتمعات الإسلامية ص ١٧٨ .

(١٠٩) ابن الأثير — المصدر السابق جـ ٤ ص ١٠٨

الذين أعطاهم الأمان — كانوا من البربر وأنه فعل ذلك معهم ليتقرب إليهم وإلى قبائلهم ؟

حسان بن النعمان وموسى بن نصير ونشر الإسلام فى المغرب :

نجح حسان بن النعمان فى القضاء على النفوذ البيزنطى فى المغرب كله ودمر عاصمتهم قرطاجنة ، كما مكنه انتصاره الساحق على الكاهنة ، من بسط سلطان الإسلام على معظم المغرب ، ولم يكن حسان فاتحا فحسب وإنما كان هدفه الأكبر نشر الإسلام وتمكينه من قلوب الناس بالدعوة الصادقة والقدوة الحسنة وكان حريصا على تحقيق هذا الهدف فعندما انتصر على الكاهنة حذا حذو أبى المهاجر بعد انتصاره على كسيلة الأربى فى تلمسان ، فقد أحسن إلى أولادها وأهلها ، وعهد إلى ابنها الأكبر بولاية قومه من جراوة وعلى جبال أوراس(١١٠) ، ونتيجة لهذه السياسة الحسنة أسلم على يدى حسان اثنا عشر الفا من البربر — قوم الكاهنة — دفعة واحدة « فعقد لولدى الكاهنة — الآخرين — لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون فى المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر(١١١) » ولم ينصرف حسان إلى القيروان إلا بعد أن كان الإسلام قد فشا بين البربر وحسنت طاعتهم(١١٢) ، بحسن سياسته ، فقد عرف كيف يملك قلوبهم بحكمته ، حيث أشعرهم أن دولة الإسلام فى المغرب دولتهم ، حينما أشرك أبناء الكاهنة وغيرهم من الزعماء فى القيادة وإدارة البلاد ، وساوى فى الأعطيات والغنائم بين العرب والبربر . وضرب بذلك المثل العملى على المساواة التى يحققها الإسلام لأبنائه مهما اختلفت أجناسهم .

أما موسى بن نصير ، الذى اتم فتح المغرب كله ، فقد ركز اهتمامه على نشر الإسلام بين البربر ، فعندما عين مولاه طارق بن زياد على

---

(١١٠) محمد على دبوز — تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ١٠٢ ، نقلا عن الاستقصاء للسلاوى ج ١ ص ٨٣

(١١١) ابن عذارى — البيان المغرب ج ١ ص ٣٨ .

(١١٢) المصدر السابق . نفس الصفحة .

طنجة ، ترك معه سبعة عشر الفامن العرب ، واثنى عشر الفا من البربر، كلهم مسلمون وأمر العرب أن يعلموهم القرآن ويفقهوهم فى الدين(١١٣) . كما ترك بين قبائل المصـــامدة « سبعة عشر رجلا من العـــرب يعلمونهم القرآن، وشرائعالإسلام ، وكان عقبة بن نافع قدترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن »(١١٤) ، فهذا الربط من ابنعذارى بين عمل موسىبننصير وعمل عقبةبننافع قبله وبينهما ربعقرن تقريبا يدل على اتصالالجهود لنشر الإسلام بين البربر ، وتعليمهم القــرآن وأمور الدين . وعلى يدى موسى ابن نصير « تم إسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التى كان بناها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر فى مساجد الجماعات(١١٥) » ويذهب الدكتور حسين مؤنس إلى أن هؤلاء ألذين أسلموا على يد موسى ، هم من بربر الحضر ، الذين يسكنون المــدن التى فيها كنائس يمكن تحويلها إلى القبلة وإقامة المنابر فيهـــا وعلى هذا تكون رواية ابن عذارى على جانب عظيم من الأهمية لانها تدل على أن طائفة من البربر الحضر ، الذين كانوا متأثرين بالحضـــارة اللاتينية واعتنـــق النصرانية منهم نفر ، بدأت تقبل الإسلام وأنإسلامها كان صحيحابحيث اقتضىإقامةالمساجد عندهم(١١٦) ، ومن المهم هنا أن نعيد إلىالأذهان أن هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام وحولوا دور عبادتهم إلى مساجد ، سواء كانوا بربرا أو رومـــا ، قد تحولوا إليه بمحض إرادتهم واختيارهـــم ، ولم يمارس عليهم اى ضغط لإكراههم على اعتناق الإسلام(١١٧) ، وإنما اقبلوا عليه لنفس العوامل والأسباب التى تحدثنا عنها فى صـــدر هذا الفصل ولانريد أن نكررهـــا هنا ، وأن دور المسلمين هنا — كما كان دورهم فى مصر وغيرها — فى مجال نشر الإسلام بين البربر ، هو دور الدعوة والقدوة والتعليم ، وكان الخلفاء الأمويون من وراء هذا كله يشجعـــون ويبعثون الدعاة ويختارون أكفـــأ وأصلح الولاة(١١٨) لتحقيق هدفهم النبيل ، وهو نشر الإسلام .

---

(١١٣) ابن عذارى — المصدر السابق جـ ١ ص ٤٢

(١١٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

(١١٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٣ .

(١١٦) فتح العرب للمغرب ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(١١٧) آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٤

(١١٨) ابن عذارى — البيان المغرب مج ١ ص ٤٧ .

عمر بن عبد العزيز ونشر الإسلام فى المغرب

هذه الجهود المتلاحقة التى بذلهـا الولاة لنشر الإسلام فى المغرب حققت دفعة هائلة فى عهد عمر بن عبد العـزيز الذى جعل هدفه الأول نشر الإسلام فى البلاد المفتوحة ، واعتبر هذا مسئوليته الأولى فكتب إلى ملوك وأمراء هذه البلاد يدعوهم إلى الإسلام ، فى رقة ولين ، وعدل عن إرسال الجيوش إلى إرسال الدعاة،وقد خص المغرب بأكبر قدر من اهتمامه واختار لولايته رجلا من أصلح وأتقى وأعلم الرجال ، كان يراقبه منذ زمن بعيـد(١١٩) ، فلما اطمأن إليه ولاه المغرب ، وعهـد إليه بنشر الدعـوة وأرسل معه عددا من التابعين ليعاونوه فى مهمته(١٢٠) ، هذا الرجل هو اسماعيل بن أبى المهاجر الذى كان خير أمير وخير وال — على حد تعبير ابن عذارى : « ومازال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام ، حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه ، وبعث معه عمر — رضى الله عنه عشرة من التـابعين أهل علم وفضل ، منهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى ، وسعيد بن مسـعود التجيبى وغيرهما »(١٢١) ولنا أن نتصور الأثر العظيم الذى يحدثه وصول عشرة من علماء التابعين إلى المغرب فى تعليم البربر أمور الدين ، وقد وضع هؤلاء العلمان نـواة التعليم المنظم فى المساجد ، وبصفة خاصة فى القيروان التى أقام فيها معظمهم(١٢٢) .

وكان الناس يفدون عليهم من انحـاء البلاد لتلقى العلم والتفقه فى الدين ، وقد بنى هؤلاء التابعون عدة مساجد منها مسجد الرباطى ، الذى بناه عبد الرحمن بن عبدالله بن يزيد المعافرى الإفريقى ، وجامع الزيتونة

---

(١١٩) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٢٣ .

(١٢٠) المالكى — رياض النفوس جـ ١ ص ٦٤ ومابعدها .

(١٢١) انظر : أبو العرب القيروانى طبقـات علماء إفريقية وتونس ص ٨٤ ومابعدها وابن عذارى — البيان المغرب جـ ١ ص ٤٨

(١٢٢) المالكى — المصدر السابق جـ ١ ص ٦٤ ومابعدهـا ، فقد ترجم للعشرة الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى المغرب وذكر أخبارهم وسنى وفاتهم ، والقيروانى — المصدر السابق ص ٨٤ ومابعدها .

الذى بناه اسماعيل بن عبيد الأنصارى والمعروف بتاجر الله(١٢٣) ، وقد تلقى العلم عن هؤلاء الشيوخ عدد طيب من اهل إفريقية(١٢٤) ، لقد واتت الظروف فى عهد عمر بن عبد العزيز إلى ترسيخ أقدام الإسلام فى الشمال الإفريقى كله لاهتمامه الشخصى بنشر الإسلام كما أن الأندلس قد فتحت وشارك البربر المسلمون بجهود عظيمة فى فتحها ، وكان لذلك أعظم الأثر فى تمكين الإسلام فى قلوبهم ، ففوق ماحقق هذا الفتح من فوائد دينية وروحية،فقد غنم منه المسلمون مغانم كثيرة،واصاب البربرنصيبهم منها على المساواة الكاملة بالعرب ، فحفز ذلك منلم يكن قد اعتنق الإسلام من البربر على اعتناقه بعدما راوا إخوانهم الذين أسلموا قد رفع الإسلام من شأنهم وساواهم بالعرب ، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ، فقرروا اللحاق بهم ، لينعموا بما نعموا به . كما كان لفتح الأندلس اثر عظيم آخر فى ترسيخ دعائم الإسلام ومبادئه فى المغرب فقد اقتضى هذا الفتح إيفاد كثيرين من عرب المشرق من الشام والحجاز ، وكان هؤلاء من أعرق القبائل وأعلمها بالدينواللغة العربية ، فكانوا وهم فىطريقهم إلى الأندلس يمرون بالمغرب ، ويختلطون بالبربر ، بل كان كثيرون منهم يتخلفون فيه ، وكانت تحدث بينهم وبين البربر مصاهرات ، ومن ثم أتيح للأخيرين فرص كثيرة للاستزادة من معرفة اصول الإسلام ، واحكامه ، واللغة العربية وآدابها ، وقد استمرت حركة ازدهار الإسلام فى المغرب بعد عهد عمر بن عبد العزيز فقد أصبح البربر أنفسهم من المدافعين عنه بحماس ، بعدما أدركوا ما تحقق لهم من خير فى رحابه ، وقد عرفوا حقوقهم التى كسبوها بإسلامهم ، فلم يدعوا فرصة لأحد من الولاة ليعبث بها ، فالوالى الذى كان يسىء السيرة فيهم كانوا يعزلونه ، ويولون من يرونه أصلح لهم دون أن يخلعوا طاعة الخلفاء وكان الخلفاء يستجيبون لهم » (١٢٥) .

---

(١٢٣) المالكى — المصدر السابق جـ ١ ص ٧٠ .

(١٢٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٩ .

(١٢٥) عندما أساء يزيد بن أبى مسلم — والى يزيد بن عبد الملك على المغرب — السيرة وظلم وجار ، قتلوه ، وولوا غيره ماقرهم الخليفة على ذلك وقد أشرنا إلى القصة كاملة فى ترجمة يزيد بن عبد الملك .

وخلاصة القول أن خطى الإسلام قد انتظمت فى المغرب منــذ مطلع الفتوحات واضطردت مســيرته ، وكان فى كل يوم يكسب أرضا جديدة حتى عــم الإقليم كله وفاض على ماحوله(١٢٦) ، واكتملت للمغــرب كل الأسباب وتهيأت كل الفرص من تشجيع الخلفاء وجهود الولاة والدعاة ، ليصبح بلادا عربية إسلامية خالصة ، يحكمهاعامل لخليفة المسلمين واختفى المغرب القديم بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضارته الواهنة ، وحل محله المغرب الإسلامى .

وبدأ هذا القطر الكبير يأخذ طريقه ليقوم بدوره المجيدفىتاريخ الإسلام والحضارة العالمية ، وكان فاتحوه من العرب قد مهدوا له الطريق لذلك ، فمهدوا له الساحل وأنشأوا عليه تونس الميناء الإسلامى الجديد ، الذى أطل منه أهل المغرب على البحر الأبيض ليلعبوا دورهم الخطــير فيه ، وفتحــوا له أبواب أسبانيا ، فانبســط أمام أهله ميدان جديد ، للفتح والعمل والحيــاة ، وكان المغرب القرطاجنى والرومى لايعدو الساحل ، فشمل المغرب الإسلامى شمال إفريقيا كله ... فبدأت الحياة تتنفس فى هــذه النواحى التى ظلت حتى ذلــك الوقت شــيئا مهملا فى حســاب الحضارة والتــاريخ وبدأت فى ظل الإسلام تأخــذ سبيلها إلى الحيــاة العقلية والسياسية ، وتساهم بنصيب مشكور فى بنــاء صرح الحضارة البشرية(١٢٧) .

---

(١٢٦) د . شكرى فيصل — المجتمعات الإسلامية ص ١٨٠ .

(١٢٧) د. حسين مؤنس — المرجع السابق ص ٢٩٩

انتشـــار الإسلام فى الأنــدلس

ذكرنا من قبل أن المسيحية الكاثوليكية كانت هى السائدة فى الأندلس عند الفتح الإسلامى ، كما كانت هناك جالية يهودية كبيرة بالإضافة إلى بعض الوثنيين ، فلما أتم المسلمون فتح البلاد ، بدأ قطاع كبير من الشعب فى التحول إلى الإسلام ، وكان أول من تحول إلى الإسلام طبقة الرقيق ، الذين كانوا قد وصلوا إلى الحضيض فى السلم الاجتماعى ، وكانوا يعانون الظلم والقهر من طبقة الحكام ورجال الدين ، فوجدوا فى الإسلام مخلصا لهم من هذا الظلم ، فأقبلوا عليه مرفع من شـــأنهم(١٢٨) ، وعاشوا فى ظله حياة عزيزة كريمة ، ولم تكن طبقة الأرقاء وحدها هى التى اقبلت على الإسلام واعتنقته بل اعتنقه عدد كبـــير من الذين كانـــوا لايزالون على الوثنية . وكثيرون من أشراف المسيحيين(١٢٩) .. يضاف إلى ذلك عدد كبير من أهالى الطبقات الدنيا والوسطى الذين تدينوا بالإسلام عن إيمان ثابت متحولين إليه من ديانتهم القديمة التى أهمل رجالهـــا مصالحهم ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها ، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا ، فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم وبعد أن تحـــول هؤلاء الأسبان إلى الإسلام ظهروا بمظهر الغير لدينهم الجديد(١٣٠) » .

بل أن بعض رجال الدين المسيحى تحولوا إلى الإسلام ، ومن الأمثلة على ذلك يتودسنكلوس (Thiodisclus) الذى كان رئيس أساقفة إشبيلية فلجأ إلى العرب ، ودان بالإسلام بين ظهرانيهم(١٣١) . حـــدث كل هذا فى السنوات الأولى التى أعقبت الفتح ، فما الذى جعل الأسبان من كل الطبقـــات يقبلون على الإسلام بهذا الشكل الذى يتحـــدث عنه المؤرخون الأوربيـــون فى صراحة ؟ هل كان ذلك عن إكراه لهم من جانب المسلمين لحملهم على اعتناق الإسلام ؟ إننا ندع واحدا من هؤلاء المؤرخين

---

(١٢٨) آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ١٥٥

(١٢٩) المرجع السابق ص ١٥٥ .

(١٣٠) المرجع السابق ص ١٥٥ .

(١٣١) المرجع السابق ص ١٥٧ .

يجيب عن هذا السؤال حيث يقول : « أما عن حمل الناس على الدخول فى الإسلام ، أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد ، فإننا لانسمع عن ذلك شيئا ، وفى الحق إن سياسة التسامح الدينى التى أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية ، كان لها أكبر الأثر فى تسهيل استيلائهم على هذه البلاد(١٣٢) » وإذا انتفى عنصر الإكراه من جانب المسلمين على هذا النحو الذى يؤكده هذا الباحث المسيحى ، فيكون إقبال من أقبل من الأسبان على الإسلام قد تم عن رضى وإقتناع لما رواه فى الإسلام من البساطة والبعد عن التعقيد والكهنوت الذى أحال ديانتهم المسيحية إلى طلاسم تحار فى فهمها العقول ، ولمساواته لهم بالفاتحين المسلمين فى الحقوق والواجبات .

كما أن سياسة التسامح التى التزم بها المسلمون نحو رعاياهم من الإسبان سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين ، كان لها أكبر الأثر فى انتشار الإسلام فى أسبانيا ، فقد كانت جميع الأديان فى ظل الحكم الإسلامى لها حق الممارسة المطلقة فى عباداتها(١٣٣) . وهناك أمر آخر كان له أثر كبير فى انتشار الإسلام وهو اختلاط العرب المسلمين بأهل البلاد ومصاهرتهم ، فمن المعروف أن الإسلام يبيح للمسلمين التزوج بالكتابيات ، مسيحيات أو يهوديات ، وقد أقبل المسلمون على الزواج من بنات القوط المسيحيات منذ بداية الفتح ، وكان من أوائل من أقبلوا على هذا الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير ، فقد تزوج من أرملة روذريق — ملك القوط الذى قتل فى معركة شذونه — ، وقيل ابنته(١٣٤) ، وحذا حذوه كثيرون من العرب ، ونتج عن هذه المصاهرات جيل جديد عرف باسم « المولدين » وقد نشأ هؤلاء مسلمين بطبيعة الحال ، وسرعان ماتزايد عددهم ، وأصبحوا يشكلون أغلبية السكان ، كما أصبحت لهم أهمية

---

(١٣٢) المرجع نفسه ص ١٥٧ .

(١٣٣) جاك — ريسلر — الحضارة العربية ص ١٥٤

(١٣٤) انظر ابن عبد الحكم — فتوح مصر ص١٤٢ وابن عذارى — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤

كبيرة فى الدولة(١٣٥) ، وعملية الاختلاط والمصاهرة هذه أدت إلى التشابه فى العادات والتقاليد بين العرب والأسبان ، حتى من ظل منهم على دينه المسيحى ، وظهر أثر المسلمين واضحا على أهل البلاد فى مجالات كثيرة ، فقد كان بعض المسيحيين يتخذ لنفسه أكثر من زوجة — تقليدا للمسلمين — على الرغم من تحريم الكنيسة لذلك العمل .

وخلاصة القول ، فإن الإسلام واللغة العربية بدآ فى الانتشــار فى أسبانيا منذ الأيام الأولى بعد الفتح ، وأخذت بالتدريج تصبح بلدا عربيــا إسلاميا فى هدوء وسلام وحرية تامة بعيدا عن أى تعصب ، فلم يستغل المسلمون انتصارهــم العسكرى الحاســم على القوط لاستئصال الدين المسيحى من البلاد ، كما صنع فرديناند وإزابيلا بالمسلمين بعد ذلك بثمانية قرون . يقول آرنولد : « أدخل العرب الظافرون الإسلام فى أسبانيا سنة ٧١١ م ، وفى سنة ١٥٠٢ م أصدر فرديناند وإزابيلا مرسوما يقضى بإلغاء شعائر الدين الإسلامى فى جميع أرجــاء البلاد ، ولقد كتبت أسبانيــا الإسلامية فى القــرون التى تقع بين هذين التــاريخين صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها فى تاريخ أوربا العصور الوسطى ، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس إلى الممالك الأوربية الأخرى ، وأتت بنهضة جديدة فى الشعر والثقافة ، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ماأثــار فى نفوسهم النشـــاط العقلى حتى جــاء عصر النهضة الحديثـــة(١٣٦) » .

(١٣٥) جاك ريسلر — المرجع السابق ص ١٥٤.
(١٣٦) الدعوة إلى الإسلام ص ١٥٤ .

إنتشـــار الإســـلام فى الشـــام

كان أغلب سكان الشام ، عند الفتح الإسلامى من العرب ، الذين هاجروا إليه من الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرون عـــديدة إلى جانب أقليات من الروم المستعمرين والأرمن واليهود والجراجمة ، وهذه الكثرة الكثيرة من العـــرب الذين كانوا يقطنـــون الشام ، وكانت لهم فيه دول وإمارات(١٣٧) ، دفعت بعض المؤرخين إلى الظن بإنهـــا مهدت الطريق للفتح الإسلامى ، بل واعانت عليه ، بل بالـــغ هذا البعض فقال : « إن الفتح كان حركة قومية ، وإن الفـــوز فيه كان للقومية العـــربية لا للدين الإسلامى(١٣٨) » ولكن الواقع التـــاريخى وحوادث الفتح بل وماسبق الفتح من أحداث ، لايؤيد هذا الرأى بل ينقضه تماما ، فالمسلمون منذ حياة الرســـول ﷺ كانوا يواجهون عدوان الروم والعرب معا ، كما حدث فى غزوة مؤته سنة ٨ هـ وغزوة تبوك سنة ٩ هـ وظل موقف عرب الشام على العداء للرسول طوال حياته ، ففى عام الوفود — بعد تبوك — وجدنـــا معظم القبائل فى شبهالجزيرة العربية ترسل وفودهامعلنة إسلامها وبيعتها بين يدى رســـول الله ﷺ فى المدينة ولم نجد ذكرا لوفد واحـــد أتى من الشام(١٣٩) . فإذا تجـــاوزنا عهد الرسول ﷺ إلى عهد أبى بكر وبداية الفتوحـــات وماتلا ذلك ، وجـــدنا إصرارا من عرب الشام على المقاومة العنيفة والوقوف مع البيزنطيين ضد العرب المسلمين ، فالذين يذهبون إلى غير هذا ، ويعولون على مساعدات عرب الشـــام للمسلمين الفاتحين يريدون أن يقللوا من جهود المسلمين التى بذلوها فى هذا الفتـــح الذى استرخصوا فى سبيله الحيـــاة ذاتها ، بل إن الموت فى سبيل الله دفاعا عن دينه كان أحب إليهم من الحياة ، ولكن ماالذى جعل عـــرب الشام

---

(١٣٧) د . ابراهيم العدوى — الأمويون والبيزنطيون ص٨ — ٩ .

(١٣٨) فيليب حتى — نقلا عن الدكتور شـــكرى فيصـــل — حركة الفتح الإسلامى ص ٤٥ .

(١٣٩) انظر ســـنة الوفود وقوائمها فى ابن هشام ج ٤ ص ٢٢١ ومابعدها والطبرى — تاريخ ج ٣ ص ١١٥ وما بعدها .

ينضمون للروم ويقفون هذا الموقف المعادى لأبناء عمهم الفاتحين القادمين من الجزيرة العربية ؟

لعل أهم أسباب ذلك خوفهم أن يزاحمهم المسلمون فى بلادهم ويقاسموهم نفوذهم ومعيشتهم ، ولكن هذا الموقف لم يدم طويلا فقد حدث التغيير بعد ظفر المسلمين ، وهزيمتهم للروم وطردهم من البلاد ، عندئذ استيقظت صلة القربى التى تربط العرب القاطنين بالعرب الفاتحين ، بل إن عرب الشام وجدوا انفسهم فى حاجة إلى الاعتداد بهذه القرابة ، التى مكنت لها وحدة اللغة ، والتفتت القبائل العربية فى الشام ، فوجدت أن الأصداء التى كانت تنبعث من مراكز الحكم يونانية ، والأصداء التى كانت تستجيب لها آرامية ، أضحت عربية مبينة صوتا ومقالا ، فلم لاتكون هذه القبائل الفراغ الذى تتردد فيه ، والصدى الذى تتجاوب معه ، أليس فى ذلك مايرفع شأنها ويعلى مكانها ، ويتيح أن يكون لها فى ميزان الدولة نصيب(١٤٠) » ثم إن عرب الشام وجدوا أن المخاوف التى ساورتهم من أن يزحزحهم أبناء عمومتهم القادمون من الجزيرة العربية عن سلطانهم ، وأن يقاسموهم أرزاقهم ، ويستولوا على ممتلكاتهم ، وجدوا أن هذه المخاوف لم يكن لها مايبررها ، بعد أن راوا المعاهدات التى اعطيت لكل المدن فى الشام تنص على احترام الأموال ، إلى جانب احترام الأنفس ، والأديان ، فمن يسلم من هؤلاء العرب ومن غيرهم ، فلن تمس أمواله بل يصبح مسلما له كل حقوق وعليه كل واجبات المسلمين دون تمييز ، ومن يبقى على دينه فعليه الجزية ، ولاشيىء فوق ذلك . ثم رأوا أن أبواب العمل والاشتراك فى الإدارة مفتوحة أمامهم ، سواء من أسلم منهم أو من بقى على دينه ، وقد سبقت الإشارة إلى اشتراك كثير من المسيحيين فى الإدارة ، بل فى بعض الأعمال ذات الأهمية الكبرى ، رأوا كل ذلك فاطمأنوا وتغير موقفهم ، فقد انتهت المعارك وانقشع غبارها ، ووضحت نتائجها وزالت مفاجآتها ، وزال معها سلطان الروم ، وبقى العرب القاطنون وجها لوجه مع العرب الفاتحين ، فاستيقظت صلة القربى ، وبدأ التفاهم وأدى

---

(١٤٠) د . شكرى فيصل — المجتمعات الإسلامية ص ٦٦ .

إلى التضامن بل إلى مشاركة عرب الشام عرب الجزيرة فى عقيدتهم ومثلهم وتطلعاتهم .

وشاءت الأقدار أن يصبح الشام حاضرة العالم الإسلامى فى العصر الأموى ١٤١ – ١٣٢ هـ ودمشق عاصمة الخلافة ، ومركز الحكم والسلطان ، والإدارة ما يقرب من قرن من الزمان .

سارت الدعوة الإسلامية ، وبدأ الإسلام فى الانتشار فى الشام بخطى حثيثة ، وأسرعت القبائل العربية – والتى كانت قد اعتنقت المسيحية منذ قرون عديدة – إلى ترك هذه الديانة ، والإيمان بالدين الجديد ، مثل قبيلة الغساسنة ، أكبر القبائل العربية فى الشام ، والتى كانت تبسط نفوذها على شرق الأردن وجنوب سوريا ، حتى قيل عنهم « أرباب فى الجاهلية نجوم فى الإسلام (١٤١) » كما أسلمت قبائل لخم وجذام ، وكلب وغيرها ، عن اختيار وإراده حرة ، وأكبر دليل على ذلك أن فريقا من هذه القبائل بقى على مسيحيته ودفع الجزية ، ومن الظواهر الواضحة فى الشام حتى الآن ، أننا نجد فى سوريا والأردن وفلسطين قبائل بعضها مسلمون وبعضها مسيحيون ، ومنها قبيلة غسان نفسها(١٤٢) ، وهذا أقوى دليل على تسامح الإسلام وعلى عدم إكراه أحد على اعتناقه ، ولم يقتصر اعتناق الإسلام على القبائل العربية بل إن كثيرا من المسيحيين غير العرب تحولوا إلى لإسلام الذى لفت نظرهم ما فيه من سماحة وبساطة إلى ماكانوا عليه من ضلال ، وما حل بديانتهم من خلل وفساد ، بعد أن كانت توحيدية خالصة ، فحولتها الخلافات بين الفرق الدينية المتناحرة من نساطرة ويعاقبة وغيرهم إلى طلاسم وألغاز استعصت على أفهام الناس ، وبعثت فيهم الملل والضجر ، وملأت نفوسهم حيرة وقنوطا ، يقول آرنولد : « فكم من أناس لابد أن يكون هذا الجدل المستمر قد زعزع أسس عقيدتهم ؟ وكم كان يكون غريبا لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا وهم فى ضجرهم وحيرتهم ، ملجأ من

---

(١٤١) آرنولدر الدعوة إلى الإسلام ص ٦٥

(١٤٢) المرجع السابق ص ٧٠

هذه المجادلات التى لاتنتهى عند حد ولاتعرف اللين والتسامح ، فى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة ، حقيقة الوحدانية مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ﷺ ونبوته(١٤٣) » ثم يقول : « وشبيه بهذا مايراه كايتانى من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى ... لأنها أحالت تعاليم — المسيح عليه السلام — البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس ، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها ، فلما أهلت آخر الأمر انباء الوحى الجديد فجاة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية الشرقية ، التى اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت قواعدها الأساسية واستولى على رجالها اليأس ، والقنوط من هذه الريب ، لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد ، الذى بدد بضربة واحدة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لاتقبل الجدل ، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى بلاد العرب(١٤٤) » . هذا الفساد الذى ادخله رجال الدين المسيحى على المسيحية جعل الناس فى الواقع لايعبدون الله الواحد الأحد — كما جاءت بذلك الديانة فى أصلها وجوهرها — وإنما صيرهم مشركين ، يعبدون زمرة من الشهداء والقديسيين .. فأزال الإسلام هذا الفساد وتلك الخرافات ، وكان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبنة ، باعتبارها راس التقوى ، ولقد بين أصول الدين ، التى تقوم على وحدانية الله وعظمته ، كما بين أن الله رحيم عادل ، يدعو الناس إلى الإمتثال لأمره ، والإيمان به وتفويض الأمر إليه .. ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الدينى ، والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين فى الدين ، وأحل الشجاعة محل

---

(١٤٣) المرجع السابق ص ٨٩ .

(١٤٤) المرجع السابق ص ٩٠ .

الرهبنة ، ومنح العبد رجاء ، والإنسانية إخاء ، ووهب النـــاس إدراكا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية(١٤٥) .

فليس غريبا إذن أن يتحول غالبية عرب الشام وكثيرون غيرهم إلى الإسلام ، ذلك الدين العالمى الخالد وخاتم الأديان كلها ، وكان من الطبيعى أن يكون حجم انتشار الإسلام فى الشام كبيرا ، لقربه من الحجاز ، مهبط الرسالة ، ووفود كثـــير من أعلام الصحابة إليه فى الفتوحـــات وبعدها وأقامتهم فيه بالإضافة إلى جيوش الفتح نفسها التى بقيت فى الشام ، فقد كان لهؤلاء جميعـــا أعظم الأثر فى نشر الإسلام فى الشام ســـواء بشرح تعاليمه ، أو بالقدوة الحسنة والسلوك الإسلامى الرفيع ، كما كان الخلفاء يرسلون وفودا من علماء الصحابة لتعليم النـــاس أمور دينهم . فقد كتب يزيد بن أبى سفيان لعمر بن الخطاب « قد احتـــاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويثقفهم ، فأرسل معاذا وعبادة وأبا الدرداء .. وقد تفرق هؤلاء الثلاثة فى بلاد الشام يعلمون أهلها ، فنزل عبادة حمص ، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ومعاذ إلى فلسطين(١٤٦) » .

ولما قامت الدولة الأموية سنة ٤١ هـ واتخذ مؤسسها معـــاوية بن أبى سفيان من دمشق عاصمة لها ، اتســـع نطاق الإسلام بين القبـــائل العربية فيها وأصبحت الشام مركز الدولة الإســـلامية ، بل الركن المكين الذى كان يعتمد عليه الأمويون كلما حز بهم أمر ، أو هبت فى وجههم ثورة وهذا يدل على أن الشام فى العهد الأموى قد أصبح قطرا عربيا إسلاميا خالصا — تعيش فيه بعض الأقليات المسيحية واليهودية فى حرية وأمان — وأصبح منطلقا للدعـــوة الإسلامية يخـــرج منه الدعاة لنشر الإسلام فى أطراف الدولة .

---

(١٤٥) المرجع السابق ص ٩٠ .

(١٤٦) أحمد أمين — فجر الإسلام ص ١٨٨ — ١٨٩ .

انتشار الإسلام فى العـــــراق

العراق بلد من بلدان الحضارات القديمة ، تعاقبت على حكمه أمم كثيرة ، فالبابليون والأشوريون والكلدانيون والسومريون والفرس ، كـل هؤلاء انشأوا فى العراق ممالك تختلف صبغتها ، وكانت حضارتهم منارا يلقى أشعته على ماحوله من بلدان(١٤٧) ، وقد نزل العراق كثـــير من القبائل العربية ، خصوصا منقبائل بكر بن وائل وربيعة ، ثم قامت فيه إمارة العرب المناذرة ، التى كانت عاصمتها مدينة الحيرة ، وكان الفرس هم الذين أقامـــوا هذه الإمارة على حدودهم مع شبه الجـزيرة العربية والشـــام ، لتقوم بصد غارات البدو عن حدود الدولة الفارسية ، ولتكون خط الدفاع الأول ضد أعدائها البيزنطيين وحلفائهم الغساسنة فى الشام ، ولكن قبيل ظهور الإسلام سنة٦٠٢م أسقط الفرس هذه الإمارة العربية ، وحكموا العراقحكما مباشرا(١٤٨) . ولكن العرب القاطنين ظلوا يعيشون فى العراق ، فكيف كان موقفهم من الفتح الإسلامى للعراق ؟ وكيف تطور هذا الموقف بعد إتمام الفتح ، وماذا كان موقفهم من الإسلام ؟ . إن الوقائع التاريخية تشير إلى أن موقف عرب العـــراق قد اختلف عن موقف عرب الشام من الفتح الإسلامى اختلافا يسيرا ، فبينما كان موقف عرب الشام موقف عداء ومقاومة صريحة للفتح ، وتضامن كامل مع البيزنطيين ، فقد تردد موقف عرب العراق بين العداء والمقاومة وبين الترحيب والتعاون ، وإن كانت المواقف العدائية أظهر . وقد قسم الأستاذ ثابت الراوى أهل العراق فى موقفهم من الفتح الإسلامى إلى ثلاث فئات(١٤٩) .

الفئة الأولى : وهم القبائل النصرانية كبكر بن وائل وهذه الفئة ساعدت الفرس على العـــــرب .

الفئة الثانية : وهم أكثر سكان السواد من العرب والنبط ، وهؤلاء رحبوا بالعرب الفاتحين ولم يقاوموهم .

---

(١٤٧) أحمد أمين ـــ فجر الإسلام ص ١٧٩ .
(١٤٨) ثابت اسماعيل الراوى ـــ العراق فى العصر الأموى ص٨ .
(١٤٩) المرجع السابق ص ١٠ .

الفئة الثالثة : كانت محايدة ، وهؤلاء هم عرب الحيرة .

وهذا التقسيم فى الواقع غـــير دقيق ولايعكس الواقع التاريخى ، فإن عربالحيرة لم يكونوا محايدين تماما ، فقد ساعدوا الفرس فى بعض معاركهم ضد المسلمين كمايعترف بذلك الأستاذ ثابت الراوى نفسه(١٥٠) ، ومن يرجع إلى المصادر التى فصلت أحـــداث الفتح ، كالطبرى(١٥١) — يرى أنه ما من معركة مع الفرس فى العراق إلا وكان للعرب مشاركة فيها ضد المسلمين ، مثل معارك الليس والمصيخ والولجه والأنبار . ومع ذلك فقد ظهر من بعض عرب العـــراق ميل إلى العرب المسلمين ، بل قاتلوا معهم فى معركة البويب ، حيث انضم بعض تغلب والنمـــر إلى المثنى بن حارثة ، وقالوا : حين رأوا نزول العرب بالعجم نقاتل مع قومنا(١٥٢) » ولكن هذه المواقف كانت محـــدودة ، ولاتعكس اتجاها عامـــا نرى فيه مساعدة كبيرة قدمها العـــرب القاطنون إلى العرب الفاتحين ، والدليل على ذلك ما كان من حركات الإرتداد الكثيرة ونقض عهود الصلح والأمان من جانب عرب العراق ، « لقد نقض أهل الحـــيرة عهدهم ثلاث مرات ولقد نقض أهل الأنبـــار عهودهم ، لم تنفع عروبتهم المســـلمين فى شيىء كما لم تنفعهم عروبة الحيرة(١٥٣) » . ونتساءل لم وقف عرب العراق من الفتح الإسلامى هذا الموقف ؟ أغلب الظن أن الذى جعلهم يتخـــذون هذا الموقف جهلهم بطبيعة الفتح الإسلامى من ناحية ، وخوفهم من الفرس من ناحية ثانية ، ولعلهم كانوا يخشون — كما كان حال عـــرب الشام — أن يقاسمهم المسلمون السيادة والرزق فى بلادهـــم .

وعلى كل حال لم تنفعهم مقاومتهم ، ولا نفعت مقـــاومة الفرس فى صد المسلمين ، وتم فتح العـــراق ، فماذا كان موقفهم من الإسلام بعد الفتح وكيف اقبلوا عليه ؟ .

---

(١٥٠) المرجع السابق ص ١١ .

(١٥١) تاريخ جـ ٣ ص ٣٥٣ ومابعدها .

(١٥٢) الطبرى — تاريخ جـ ٣ ص ٤٦٤ .

(١٥٣) د . شكرى فيصل — حركة الفتح الإسلامى ص ٩٤ .

لقد تحدثنا فى صدر هذا الفصل عن العوامل التى مكنت للإسلام فى البلاد المفتوحة وأدت إلى إقبال ابناء هذه البلاد عليه واعتناقه ، وهذه العوامل هي بعينها التى مكنت له فى العراق ، وجذبت أبناءه إليه ، فالعراق متاخم للجزيرة العربية ، واغلب سكانه عرب ، يمتون إلى أهلها بصلة القربى ، وهؤلاء السكان كانوا يعيشون تحت حكم الفرس وكانوا يعانون من نير هذا الحكم وطغيانه واستغلاله ، وكانت حياتهم أقرب ماتكون إلى حياة العبودية ، فقد كان معظمهم يشتغلون بفلاحة الأرض ، ولاينالهم من ناتج عملهم إلا اقل القليل ، أما وافر الخير فكان يذهب إلى دهاقين الفرس ، الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم(١٥٤) .

وقد قدر المسلمون منذ البداية ظروف هؤلاء العرب وغيرهم من سكان العراق ، فعملوا على تغيير هذه الحال ، ورفع الظلم عنهم ، ودلت السياسة التى رسمها أبو بكر الصديق للمسلمين ليسيروا عليها فى العراق ، علىنظرة ثاقبة وخبرة ومعرفة بأحوال العراقوسكانه وعلاقاتهم بالفرس ، فكانت توجيهاته للقادةأن سكان العراق — من عرب وغيرهم — إذا ماعرفوا طبيعة الدعوة الإسلامية معرفة حقيقية ، وما تحمله لهم من خير وعدل وإنصاف وحرية وعزة وكرامة ، فلن يجدوا مبررا لمقاومتها ، فليس فى الحكم الفارسي ما يغريهم بالتمسك به والدفاع عنه ، فهم ما خضعوا له إلا مكرهين ، فواجب المسلمين الأول أن يجعلوا هؤلاء الناس يحسون بطريقة عملية بمزايا الإسلام ، ولا يأخذوهم بجريرة الفرس ، فأصدر أبو بكر أوامره إلى قواده بالعراق الا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء ، لا يقتلون منهم أحدا ، ولا يأخذون منهم أسرى ، ولا يسيئون إليهم فى أمر يتصل بهم ، فهم عرب مثلهم ، وهم يشعرون بالظلم تحت نير فارس ، فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم بمقدم العرب ، ويجب أن يعمهم العدل على أيدى بنى عمومتهم ، ذلك واجب المسلمين ، يأمرهم الله به ، وهو بعد السياسة الحكيمة التى تكفل لهم النصر ، وألا يؤتوا بعد نصرهم من

---

(١٥٤) د . محمد حسين هيكل — الصديق أبو بكر ص٢٠٣ .

خلفهم(١٥٥) ، وقد طبقت هـــذه السياسة التى وضـــعها أبو بكر بأمانة وإخلاص ، فلم تنتزع منهم أرض ، ولم يكرهوا على ترك دينهم واعتناق الإسلام ، وكفلت لهم الحماية والأمن على الأرواح والأموال ، فظهر عليهم الارتياح والاطمئنان ، وتمثل ذلك فى كتبهم إلتى كتبوها عن خالد بن الوليد يعبرون فيهـــا عن اقتناعهم حيث قالوا : « إنا أدنيا الجزية التى عاهدنا عليهـــا خالد ، العبد الصـــالح والمسلمون عباد الله الصالحون ، علـــى أن يمنعونا وأميرهم ، البغى من المسلمين وغيرهم »(١٥٦) .

استمرت هذه السياسة الإسلامية ، العادلة الرحيمة ، فى عهد عمر ابن الخطاب ، بل جاء تصرف عمر فى أرض السوداء ليزيل كل هواجسهم وشكوكهم نحو الإسلام والمسلمين ، وليزيد من اطمئنانهم إلى سياستهم الرحيمة ، فمع ان معظم ارض السواء فتحت عنوة ، وكانت بمقتضى حق الفتحغنيمة خالصة للمسلمين ، إلا أن عمر اجتهد فى الأمر . فلم يأخـــذ الأرض ويوزعها على الفاتحين ، وإنما قرر إبقاءها فى أيدى أهلها يزرعونها ويدفعون خراجهـــا للدولة(١٥٧) ، وكان هذا اجتهادا موفقا من عمر ، حقق أكثر من فائدة ، فقد أدى إلى ارتياح أصحاب الأرض واطمئنانهم إلى عدالة الإسلام . كما ضمن لبيت المال موردا ثابتا للإنفاق على مرافق الدولة كلها .

لكل ماتقدم بدأت نظرة أهل العراق إلى الفتح الإسلامى تتغير ، فأرضهم بقيت فى أيديهم ، ولم يجبروا على تغيير أديانهم ، بالإضافة إلى أن كابوس الحكم والسيطرة الفارسية قد أنزاح عنهم ، وحلت محله حكومة رحيمة عادلة متسامحة ، فبدأوا يستجيبون للإسلام ، وأسلمت جماعات من شتى القبائل ، بل إن من أسلموا كانوا يحاربون مع المسلمين من لم يسلم من قبائلهم(١٥٨) .

---

(١٥٥) المرجع الســـابق ص ٢٠٣ ، وانظر د. شكرى فيصـــل — المجتمعات الإسلامية ص ٧٨

(١٥٦) الطبرى — تاريخ جـ ٣ ص ٣٧١

(١٥٧) أبو يوسف — الخراج ص ٩١ ، وانظر : أبو عبيد القاسم بن سلام — كتاب الأموال ص ٦١ — ٦٢

(١٥٨) الطبرى — تاريخ جـ ٣ ص ٣٥٥

ولم تقتصر الاستجابة للإسلام على العرب فى العراق ، بل أسلم كثير من الفرس أنفسهم ، وقدموا للمسلمين خدمات طيبة واشتركوا معهم فى القتال فى موقعة القادسية ، واستشار سعد بن أبى وقاص بعض مسلمى الفرس فى كيفية التغلب على الفيلة التى أرهقت المسلمين وقتلت منهم أعدادا كثيرة ، يقول الطبرى : « ولما رأى سعد الفيلة تفرق بين الكتائب ، وعادت لفعلها يوم أرماث ، أرسل إلى أولئك المسلمة : ضخم ، ومسلم ، ورافع ، وعشنق ، وأصحابهم من الفرس الذين أسلموا ، فدخلوا عليه ، فسألهم عن الفيلة ، هل لها مقاتل ؟ فقالوا : نعم ، المشافر والعيون لا ينتفع بها بعدها »(١٥٩) وكان المسلمون كلما حققوا نصرا على الفرس يزداد عدد المسلمين من الفرس ، فقد أسلم أربعة آلاف من الديلم دفعة واحدة بعد القادسية ، حيث أرسلوا إلى سعد بن أبى وقاص يخبرونه بعزمهم على الدخول فى الإسلام ، والاعتزاز بهم ، فرحب بهم « فأسلموا وشهدوا فتح المدائن مع سعد ، وشهدوا فتح جلولاء ، ثم تحولوا فنزلوا الكوفة مع المسلمين »(١٦٠) . فازدياد حركة الإقبال على الإسلام بعد القادسية ، سواء من العرب ، أو من غيرهم ، يدل على أن اشتراك هذه الطبقات المقهورة مع الفرس فى مقاومة المسلمين فى البداية كان خوفا من بطش الفرس ، فلما تحطمت قوتهم فى القادسية زال الخوف وأقبل الناس على الإسلام يعتزون به كما عبر من أسلم من الديلم أنفسهم(١٦١) وبالإضافة إلى هذه الطبقات التى كانت مغلوبة على أمرها ووجدت فى الإسلام حريتها وعزتها وكرامتها ، فقد أسلمت أعداد من الأساورة والأشراف وعلية القوم ، فقد كتب سعد بن أبى وقاص إلى عبد الله بن المعتم : « أن خلف على الموصل مسلم بن عبد الله ، الذى كان أسر يوم القادسية ، فيمن استجاب لكم من الأساورة ، ومن كان معكم منهم »(١٦٢)

---

(١٥٩) تاريخ جـ ٣ ص ٥٥٥

(١٦٠) البلاذرى — فتوح البلدان ص ٣٤٤ والطبرى — المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٦٧

(١٦١) البلاذرى — المصدر السابق ص ٣٤٤

(١٦٢) د. شكرى فيصل — المجتمعات الإسلامية ص ١١٥

ويروى الطبرى أن القعقاع بن عمرو التميمى ، استخلف على حلوان بعد فتحها رجلا اسمه قباذ ، أصله من خراسان ، وأنزلها قوما من الحمراء(١٦٣) ، فاستخلاف القعقاع قباذ على حلوان ، وهى مدينة هامة ، والاستعانة به دليل على إسلام طبقة من أشراف الفرس ، ممن يصلحون للحكم والإدارة(١٦٤) .

وهكذا نرى الإسلام ينتشر بخطى حثيثة فى العراق ، وبين كافة الطبقات التى كانت تكون المجتمع ، فدخله عرب ، وفرس من العامة والدهاقين والأساورة وأبناء البيوتات ، ولا شك أن إسلام هؤلاء قد فتح الأبواب للإسلام أمام من وراءهم من قومهم ، حتى إذا تقدمت الأيام رأينا معظم السكان فى هذه المناطق ، وقد أصبحوا مسلمين .

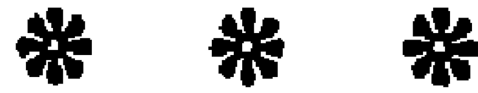
وفى الواقع إن تأمل الحياة فى العراق بكل جوانبها السياسية والدينية والاجتماعية،يبعث على الاعتقاد بأنها كانت صائرة إلى التحول إلى الإسلام طال الزمن أو قصر ، فقد استبد القلق الدينى بالناس ، فالمسيحية لم تكن أرسخ قدما هنا ، أو أحسن حالا منها فى مصر والشام ، الزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها من النحل الفارسية ، اشتدت خلافاتها وتطاحنها ، ولم يكن شيىء من هذا كله مستحقا للبقاء ، أو قادرا على الصمود فى وجهالإسلام .

ولم ينته الأمر بالعراق ليصبح قطرا إسلاميا فحسب ، بل أصبح فى العهد الأموى مركزا لتثبيت الحكم الإسلامى فى بلاد فارس كلها ، ومنطلقا للفتوحات وانتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر والسند ، فالعرب المسلمون الذى فتحوا العراق واستقروا فيه كانوا ومن أسلم من أهله هم الذين قاموا بالدور الكبير والخطير فى فتوح ماوراء النهر والسند ، ونشر الإسلام بين أهل هذه البلاد ، حتى لقد أصبح العراق فى العصر

(١٦٣) تاريخ ج ٤ ص ٣٤ — ٣٥ . وتعبير الحمراء هنا المقصود به العجم لأن العرب كانوا يطلقون عليهم ذلك — وبصفة خاصة الديلم — البلاذرى فتوح البلدان ص ٣٤٤

(١٦٤) د. شكرى فيصل — المرجع السابق ص ١١٥

الأموى ، يعنى به الشطر الشرقى كله من الدولة الإسلامية ، ولذلك كان عامل العراق يشرف على العراق والأقسام الشرقية كلها ولم تكن حدود العـــراق الإدارية والسياسية تتطابق مـــع حـــدوده الجغرافية فحددوه الجغرافية كانت تمتد من تكريت شمالا إلى عبادان جنوبا ومن حلوان شرقا إلى العذيب غربا . اما حدود الإدارية والسياسية فكانت تمتد من هيت على الفرات غربا حتى حدود الصين شرقا ، مشتملة بذلك على بلاد فارس والسند وما وراء النهر(١٦٥) .



(١٦٥) ثابت اسماعيل الرواى — العراق فى العصر الأموى ص ٢٣.

انتشار الإسلام فى فارس

ذكرنا من قبل أن الزرادشتية كانت هى الديانة الرسمية فى بلاد فارس قبل الإسلام(١٦٦) ، وإلى جانبها كانت توجد مذاهب وديانات أخرى مثل البوذية والمانوية ، والمزدكية بالإضافة إلى وجود اليهودية والمسيحية على نطاق ضيق والزرادشتية ديانة تقوم فلسفتها على وجود إلهين للعالم : إله للخير أو النور ، وإله للشر أو الظلمة .

ولما كانت هذه الديانة هى المعترف بها من الدولة الساسانية ، ويدين بها الملوك والأمراء من آل ساسان ، كان من الطبيعى أن تلقى المناصرة والتأييد من الدولة على حساب الاديان والمذاهب الأخرى ، كما أصبح لكهنتها نفوذ كبير فى مجالس الملك ، فاستغلوا هذا الوضع فى اضطهاد كل الديانات المخالفة لديانتهم(١٦٧) ، مما جعلها بغيضة عند من لايدين بها وزاد من بغضهم إياها تعضيد الدولة لها(١٦٨) ، فلما فتح المسلمون بلاد فارس ، وزالت الدهشة التى صاحبت الفتوحات من نفوس الناس ، بدأوا يفكرون فى الوضع الجديد ، فالدولة الساسانية قد زالت من الوجود ، فهل خسر الشعب الفارسى شيئا بزوالها ؟ الحق أن الشعب الفارسى لم يخسر شيئا على الإطلاق ، بل تنفس الصعداء ، حيث زال عنه حكم ظالم مستبد(١٦٩) ،وحل محله حكم عادل رحيم،هو الحكم الإسلامى ، الذى يقوم على المساواة بين الناس ، ويحقق لهم العزة والكرامة والحرية ، وقد تأكد الناس من هذه المبادىء ، بعد أن استقر الحكم الإسلامى ، ورأوا حرص المسلمين على تحقيقها ، كما نصت عليها معاهدات الصلح التى تمت بين المسلمين وحكام المقاطعات الفارسية التى أشرنا إليها فيما سبق ، والتى ضمنت للفرس المحافظة على الأنفس والأموال ، وأباحت لهم البقاء

---

(١٦٦) انظر أحمد أمين — فجر الإسلام ص ١٠٣ ، أرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٥

(١٦٧) آرنولد — المرجع السابق ص ٢٣٥

(١٦٨) المرجع السابق ص ٢٣٥

(١٦٩) المرجع السابق ص ٢٣٦

على أديانهم إذا أرادوا ذلك ، ودفعوا الجزية ، حيث ساواهم الإسلام فى هذه الناحية بأهل الكتاب(١٧٠) . فلما راوا ذلـك كله ، ورأوا أن المسلمين لم يكرهوا أحـدا على ترك دينه واعتناق الإسـلام(١٧١) ، بدأوا يفكرون فى الإسـلام ، ويقارنون بينه وبين غيره من الأديان ، ثم يقبلون عليه من تلقاء أنفسهم ، وقـد رأينا مما تقدم أن إقبال الفرس على الإسـلام قد بدأ حتى قبل تمام فتح فارس كلها ، فقد أسـلمت جماعات كبيرة من مختلف الطوائف بعد معركة القادسية سنة ١٥ هـ(١٧٢) . ثم أخذ الإسـلام ينتشر مبكرا فى أطراف فارس ، ففى عهد عثمان بن عفان أرسل الوليد بن عقبة — والى الكوفة — الأشعث بن قيس إلى أذربيجان ، وأمره أن يسكنها بعض العرب ، وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام(١٧٣) ، ثم ولى على بن أبى طالب فى خلافته ، الأشعث أذربيجان . « فلما قدمها وجـد أكثرها قـد أسلموا وقرأوا القـرآن . فأنزل أردبيل(١٧٤) جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب ومصرها ، وبنى مسجدها(١٧٥) » . وكلما حقق المسـلمون خطوة من النجاح ، سـواء فى ميدان الفتوحات ، أو فى مجال تطبيق المبادىء الإسلامية تطبيقا سليما وأمينا ، كانت تتبعها خطوات من جانب الشعب الفارسى فى الإقبال على الإسـلام لأن جميع الأديان — وهى أديان وثنية — لم تقو على الصمود أمام الإسلام ، ذلك الدين البسيط الخالى من التعقيد والكهنوت والذى يدعوا إلى وحـدانية الخالق فى وضوح ، وأدرك الشعب الفارسى أنه لم يخسر شيئا بزوال الدولة الساسانية فلم يندم على أيامها الغابرة ، ولم يجد مبررا لتمسكه بعقائد

---

(١٧٠) أبو يوسف — كتاب الخراج ص ٢٥٣ ، ٢٦٥

(١٧١) آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٨

(١٧٢) البلاذرى — فتوح — ص ٣٤٤ ، والطبرى — تاريخ جـ ٤ ص ٣٤ — ٣٥

(١٧٣) البلاذرى — فتوح — ٤٠٣

(١٧٤) أردبيل — أشهر مدن أذربيجان وكانت قصبتها قبل الإسلام — ياقوت معجم البلدان جـ ١ ص ١٤٥

(١٧٥) البلاذرى — المصدر السابق ص ٤٠٤

وأديان مليئة بالخرافات والأباطيل ، فتركها غير آسفة عليها وأقبل على اعتناق الإسلام ، وكذلك المسيحيون منهم — الذين كانوا يعانون من الاضطهاد الديني — تخلوا عن ديانتهم واقبلوا على الإسلام . يقول آرنولد : « وقد أدى تغيير الحكومة إلى تخليص الكنيسة المسيحية المضطربة فى فارس من استبداد ملوك الساسانين الذين اثاروا الخلافات بين اليعاقبة والنسطوريين ، وزادوا فى فوضى الطوائف المتنافرة .. ولعل هذه الأحوال المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك التحول الفجائى فى شعورهم ، الذى سهل تغيير العقيدة وإلى جانب الاضطراب السياسى فى الدولة ، ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التى ملأت عقول المسيحين الذين وقفوا أمام هذه المصائب المتراكمة والآلام المعنوية التى اثارها قيام الصراع العنيف بين هذه العقائد المتنافرة ، فمالوا إلى هذا النظام العجيب من التنسيق العقلى الذى ينمو فيه الدين الجديد فى سهولة ويسر ، ويكتسح أمامه اكثر الأديان الأخرى ، ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد ، وبعبارة أخرى كان أهالى فارس .. قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد والترحيب باعتناقه فى حماسة ملحوظة لما يمتاز به من البساطة ، وهكذا قدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة . كل هذه الغيوم وأن يفتح أمام الناس سبلا واضحة من الآمال الكبيرة ، وان يعدهم بتخليصهم فى أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة(١٧٦) » .

تتابع دخول الفرس فى الإسلام بخطى حثيثة عن اختيار حر واقتناع ، ولم يمارس عليهم أى نوع من أنواع الإكراه(١٧٧) ، وكل ما كان يفعله المسلمون لجذب الفرس إلى الإسلام ، وهو التعريف به وشرح مبادئه . ولما أستقر الفتح فى العهد الأموى ، خطا الأمويون خطوة كان لها أثر كبير فى انتشار الإسلام فى بلاد فارس ، وهى التوسع فى تهجير القبائل العربية إلى الأقاليم الفارسية ، وبصفة خاصة إلى خراسان ، التى أصبحت إقليما ثغريا فى العصر الأموى ، لمواجهتها لأقاليم ما وراء النهر ، فقد

(١٧٦) آرنولد — المرجع السابق ص ٢٣٦ — ٢٣٧
(١٧٧) المرجع السابق ص ٢٣٨

نقل زياد بن أبى سفيان إلى خراسان — فى سـنة ٥١ هـ خمسين الفا بأسرهم ، من أهل البصرة والكوفة(١٧٨) . وتتابعت هجرات العرب إلى الأقاليم الفارسية للإقامة والسكنى بأعداد كبيرة ، وكان لهؤلاء المهاجرين العرب اثر فى انتشار الإسلام بين الفرس بالمخالطة وعن طريق القدوة ، وإقامتهم لشمائر الدين(١٧٩) .

وهذه الهجرات العربية إلى أقاليم فارس ، صاحبتها هجرة مضادة من الأقاليم الفارسية إلى الأمصار الإسلامية ، وبصفة خاصة إلى البصرة والكوفة فقد قصدت أعداد كبيرة من الفرس — الموالى — هذه المدن للعمل فى التجارة والأعمال الحرفية(١٨٠) ، كما عمل كثيرون منهم فى دواوين الدولة ، ففى ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة ٥٥ — ٦٤ هـ كان عـدد العمال من الموالى المقيدين فى ديوانه مائة واربعين الفا(١٨١) ، وقد يندهش البعض من ضخامة هـذا العـدد ، ولكن الدهشة تزول إذا عرف أن ديوان البصرة كان يشمل الموظفين المدنيين فى الكور والمقاطعات الفارسية الجنوبية حتى خراسان . ولقد أكثر ابن زياد من استخدامهم فى الديوان لكفاءتهم ومهارتهم وأمانتهم ، وقال بصدد ذلك : « كنت إذا استعملت الرجل من العرب على الخراج يكسره،فإذا أغرمته أو غرت صدور عشيرته ، وإذا تركته تركت مـال الله وانا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، وأهون فى الطلب منكم(١٨٢) .

فوجود هـذا العدد الكبير من الموالى فى ديوان البصرة ، يـدل على الثقة التى منحتها الدولة لهم(١٨٣) ، وقد كثر الموالى كثرة هائلة فى الأمصار الإسـلامية ، وبصفة خاصة فى البصرة والكوفة ، وتركوا قراهم

---

(١٧٨) البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٠٧
(١٧٩) د. شكرى فيصل — المجتمعات الإسلامية ص ٢١١
(١٨٠) د. حسن محمود — الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٥٦
(١٨١) الطبرى جـ ٥ ص ٥٠٤
(١٨٢) المصدر السابق جـ ٥ ص ٥٢٣
(١٨٣) د. حسن محمود — المرجع السابق ص ٥٠ ، ٥٨

فتأثرت الزراعة وتناقصت المحاصيل ، مما جعل الحجاج الثقفى يعيد كثيرين منهم إلى مواطنهم الأصلية ليعملوا فى الزراعة كما كانوا .

والذى نستخلصه من وجود الموالى بأعداد كبيرة فى المدن الإسلامية واشتراكهم فى الجباية ، والأعمال الإدارية وغيرها من وظائف الدولة بالإضافة إلى وجود اعداد كبيرة منهم فى البيوت العربية ، فقلما كان يخلو بيت عربى من وجود مولى او أكثر فيه(١٨٤) ، الذى نستخلصه أن هؤلاء أو معظمهم على الأقل قد اعتنقوا الإسلام ، بل لم يكتف هؤلاء بالدخول فى الإسلام وإنما اتخذوا أسماء والقابا عربية للمحافظة على أوضاعهم وزيادة حقوقهم واستعرابهم على هذا النحو زادهم اتصالا بالمجتمع والحكومة(١٨٥) .

وباختصار يمكن القول أن غالبية الشعب الفارسى قد تحولت إلى الإسلام فى العصر الأموى ، وليس ادل على ذلك من المشكلة التى أوجدها إقبال الفرس على الإسلام أمام ولاة بنى أمية فهؤلاء عندما راوا أن كثرة الذين دخلوا فى الإسلام قد ادت إلى تناقص موارد المال من الجزية التى كانت تؤخذ منهم قبل إسلامهم عمدوا إلى إبقاء الجزية عليهم حتى بعد إسلامهم ، وكان هذا خطأ كبيرا من الولاة الذين فضلوا الجباية على الهداية ، وقد ازال عمر بن عبد العزيز هذا الخطأ ، وصحح المسار الإسلامى وكتب إلى جميع عماله برفع الجزية عمن أسلم من الفرس وغيرهم — كما وضحنا ذلك فيما سبق — فازداد فى عهده الإقبال على الإسلام زيادة كبيرة .

أصبح الفرس فى العصر الأموى عنصرا مؤثرا فى الدولة والمجتمع الإسلامى ، وكان تأثيرهم نافعا ايجابيا فى الناحية العلمية . فقد نبغ عدد كبير منهم فى مختلف العلوم الإسلامية ، وكانوا موضع احترام وتقدير

---

(١٨٤) أحمد أمين — فجر الإسلام ٩١

(١٨٥) د. حسن محمود — المرجع السابق ص ٥٠ — ٥١

العرب بمن فيهم الخلفاء أنفسهم(١٨٦) . نذكر من هؤلاء على سبيل المثال لاالحصر : مجاهد بن جبر (ت ١٠٣هـ) وعطاء بن يسار (ت ١٠٣هـ) والحسن البصرى (ت ١١٠هـ) ومحمد بن سيرين (ت ١١٠ هـ) ومكحولا الدمشقى (ت ١١٣ هـ) وعطاء بن أبى رباح (ت ١١٥ هـ) ونافعا مولى عبد الله بن عمر (ت ١١٧ هـ) وميمون بن مهران (ت ١١٧ هـ) وربيعة الرأى(ت ١٣٦ هـ) وصالح بن كيسان (ت ١٤٠ هـ) وابن جريج (ت ١٥٠ هـ) . وقد أثرى هؤلاء العلماء الحركة العلمية الإسلامية ، وتتلمذ على أيديهم أعداد كبيرة من العرب . أما فى الناحية السياسية فكان تأثير

---

(١٨٦) ذكر ابن قتيبة فى المعارف ص ٤٤٤ والذهبى فى سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٨٤ ، واللفظ له قال : « دخل عطاء بن أبى رباح على عبد الملك بن مروان ، وهو جالس على السرير ، وحوله الأشراف وذلك بمكة فى وقت حجه فى خلافته ، فلما بصر به عبد الملك قام إليه فسلم عليه، وأجلسه معه على السرير ، وقعد بين يديه ، وقال : ياأبامحمد : حاجتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله ، وحرم رسوله ، فتعاهده بالعمارة واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين ، فإنك وحدك المسئوول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك ، فلا تغفل عنهم ، ولاتغلق دونهم بابك ، فقال له : أفعل ، ثم نهض وقام ، فقبض عليه عبدالملك ، وقال : ياأبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك ، فما حاجتك ؟ قال : مالى إلى مخلوق حاجة ثم خرج ، فقال عبدالملك : هذا وأبيك الشرف ، هذا وأبيك السؤدد » ... هذا هو تقدير عبد الملك بن مروان لأحد علماء التابعين من الموالى ، ويزداد تقديرنا لموقف عبد الملك إذا عرفنا أن عطاء كان من انصار عبدالله بن الزبير ، وقاتل معه حتى قطعت يده ، انظر السير جـ ٥ ص ٨٠ ، ولكنه العلم يسمو بأهله فقد كان عطاء كما يقول الذهبى مفتى الحرم لأنه كان من أعلم الناس بمناسك الحج ، وقد روى عن كيسان قوله : « أذكرهم فى زمان بنى أمية يأمرون فى الحج مناديا يصيح : لا يفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح ، فإن لم يكن عطاء ، فعبدالله بن أبى نجيح » سير جـ ٥ ص ٨٢ .

الموالى الفرس سلبيا ، أو بمعنى آخر كان تأثيرا معاكسا للدولة الأموية ، فقد ناصبوها العداء طوال تاريخها وانحازوا انحيازا كاملا لكل خصومها ، فانضموا إلى عبد الله بن الزبير وحاربوا معه . ولبوا نداء كل ثائر أو خارج على الدولة ، مثل المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ويزيد بن المهلب ، وغيرهم كما انضموا إلى الخوارج ، وحاربوا فى صفوفهم .

ثم تحالفوا تحالفا رئيسيا مع الشيعة ، فبالإضافة إلى اشتراكهم معهم فى العداء الشديد لبنى أمية فقد كان هناك سببان رئيسيان وراء ميل الموالي إلى الشيعة وتعضيدهم ، **السبب الأول** : أن نظرية الشيعة فى الإمامة وتخصيصها لآل البيت ، تنسجم مع نظرية الحكم الملكى الفارسى ، التى كانت تقصر الملك على أسرة ملكية بعينها ، يتوارثه أبناؤها فيما بينهم . **السبب الثانى** : هو زواج الحسين بن على بن أبى طالب ، من شاهبانو بنت يزدجرد الثالث آخر ملوك الأسرة الساسانية ، فنظروا إلى ذرية الحسين منها على أنهم يحملون أنقى دم عربى ، لانتسابهم إلى الرسول ﷺ من جهة أبيهم . وأنقى دم فارسى ، لانتسابهم إلى ملوك الفرس من جهة أمهم . وعلى هذا فهم فى نظرهم أحق الناس بالإمامة وحكم الأمة الإسلامية ، فألقوا بكل ثقلهم وراء حركات الشيعة ، ثم آل امرهم إلى أن أصبحوا من أقوى دعائم الدعوة العباسية ، التى استغلت ميلهم إلى آل البيت ، واستثمرت جهودهم فى تقويض الدولة الأموية .

هذا الموقف العدائى الشديد الذى وقفه الموالى من الدولة الأموية جعل كثيرا من الباحثين يظن أن هذا الموقف كان نتيجة ظلم وقع عليهم من جانبها ، لأنها كانت تتعصب للعرب ضدهم(١٨٧) ، وهذا الظن بعيد

---

(١٨٧) انظر على سبيل المثال : أحمد أمين — ضحى الإسلام جـ ١ ص ٣٧ و د. محمد الطيب النجار — الدولة الأموية فى المشرق ص ١٤٩ ومابعدها و د. عبدالمنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٣٢٧ . و د. زاهية قدورة — الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى ص ٤٦ — ٤٧ .

عن الواقع إلى حـــد بعيد ، فالدولة الأموية عـــرفت بسياسة التسامح تجاه اهل الذمة ، فكيف يمكن أن نتصور أن صدور خلفائها تضيق بالموالى وتضطهدهم وهم مسلمون ؟ هذا بعيد جـــدا .

أما السبب الرئيسى لعـــداء الموالى للدولة الأموية — فيما أرى — فيكمن فى أن كثيرين من الفرس لم يستطيعوا التخلص تماما من المـــاضى ، ذلك الماضى الذى كانت لهم فيه السيادة والكلمة العليا ، فلما فتح المسلمون بلادهم ، وضموها إلى الدولة الإسلامية ، عز عليهم أن يحكمهم العرب فعملوا كل مافى وسعهم لتقويض الدولة الأموية .

وحتى لانعمم الحكم ، ولانظلم الفرس كلهم ، فإننا نستطيع — من خلال استقراء حوادث العصر فىمصادرها الأصلية — أن نقسم الموالى — وهى التسمية التى كانت تطلق على المسلمين من غير العرب ، وبصفة خاصة الفرس — إلى أربع طوائف رئيسية هى :

الطائفة الأولى : وهم الذين أسلموا إسلاما حقيقيا ، وملك الإسلام كل جوانب حياتهم ، وارتفع بهم فوق العصبية القومية ، وخلصهم من الماضى الفارسى بكل ما فيه ، ويمثل هؤلاء فى جيل الصـــحابة ســـلمان الفارسى رضى الله عنه ، وفى جيل التابعين من ذكرنا أسماءهمآنفا ، فهؤلاء اندمجوا فى الأمة الإسلامية اندماجا كاملا ، وأخلصوا لها غاية الإخلاص ، وآمنوا أن الإسلام سوى بين الناس جميعـــا ، فلم يفرقوا بين عربى وعجمى ، ولم يروا بأسا فى أن يحكمهم العرب،بل إنهم كانوا ينظرون إلى العرب نظرة احترام وتقدير ، ويعرفون لهـــم أنهم هم الذين هدوهم إلى الإســـلام ، واستنقذوهم من ضلال المجوسية إلى هدى الإسلام(١٨٨) .

الطائفة الثانيـــة : وهم الذين أسلمـــوا إسلاما رقيقـــا ولم يستطيعوا التخلص نهائيا من الماضى الفارسى ، وظلوا يفخـــرون ويتغنون بالأمجاد الفارسية القديمة يوم أن كانوا أعز من العـــرب وأعظم سلطانا ، وهذه الطائفة لم ترفض الإسلام دينا ، ولكنها رفضت الحكم العـــربى ، وظلت

---

(١٨٨) انظر أحمد أمين — المرجع السابق ج ١ ص ٣٠ .

تسعى للقضاء عليـــه . وهؤلاء هم أصحاب النظرة الشعوبية التى قامت على تفضيل العجم على العرب ، والفخــر بمجد الفرس القديم وعزهم التالـــد(١٨٩) .

وقد كشفت هذه الحركة عن وجهها فى أواخــر الدولة الأموية ، وكان أحد دعاتها الشاعر الفارسى ، اسماعيل بن يسار (ت نحو ١٣٠ هـ) الذى كان يتغنى بأمجاد الفرس ، ويفخر بها على العرب ، حتى فى حضرة الخلفاء ، فقد ألقى قصيدة بين يدى الخليفة هشام بن عبــد الملك يفخر فيها بأمجاد الفرس القديمة ، مما أحنق عليه الخليفة(١٩٠) .

الطائفة الثالثــة : وهم الذين أسلموا نفاقا ، لأنهم رأوا أن الجاه والمال والسلطان بيد العــرب ، وانهم لايستطيعون الوصـــول إلى هذا كله إلا بالإسلام ، فأســلموا إسلاما ظاهريا ، ولمــا يدخل الإيمان فى قلوبهم ، فالإسلام عند هؤلاء كان ثيابا ظاهرية ، يرتدونها أمام العرب ، ويخلعونها إذا خــلوا إلى أهليهم ، وإذا أمكنتهم الفرصة كادوا للإسلام وللعرب ، ودعوا للشعوبية والمذاهب الدينية القديمة ، وهؤلاء هم مؤسسوا الحركة التى عرفت باسم الزندقـــة(١٩١) .

الطائفة الرابعــة : وهم الذين لم يسلموا قط واتاحت لهم الحرية الدينية التى منحها إياهم العرب ، أن يظلوا على مجوسيتهم(١٩٢) . هذه الطوائف الثلاث الأخيرة ، ناصبت العرب ، كل العرب ، العــداء وكان دينهم أن يقتل العــرب ، كما جاء على لســان نصير بن يسار فى قصيدته التى يقول فيهـــا :

---

(١٨٩) أحمد أمين ـــ المرجع السابق جـ ١ ص ٢٨

(١٩٠) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٩

(١٩١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٥٠

(١٩٢) آرنولد ـــ الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٨

الا أبلغ ربيعـــة فى مرو وفى يمن — ان اغضبوا قبل ان لاينفع الغضب
مابالكم تنشـــبون الحـــرب بينكم — كأن اهل الهجى عن رأيكم غيب
وتتركون عـــودا قـــد احاط بكم — ممن تاشـــب لا دين ولا حســـب
من كان يسالنى عن اصـــل دينهم — فإن دينهم ان تهلك العـــرب(١٩٣)

وهى القصيدة التى قالها ليهيب بالعرب فى خراسان أن يتحدوا فى مواجهة خطر ابى مسلم الخراسانى .

ناصبت هذه الطوائف العرب العداء ، وخصت الأمويين بالنصيب الأكبر منـــه ، باعتبارهم أصحاب الدولة ويمثلون السيادة العربيـــة فى نظرهم . ولما كانوا لايستطيعون الدعوة صراحة لإقامة حكومة فارسية عندما كانت الدولة الأمويةقوية وفى عنفوانها ، فقد عمدوا إلى تقويضها — كخطوة أولى — عن طريق الانضمام إلى كل ثائر عليها ، ولما نجحـــوا فى نهاية الأمر فى القضاء عليها،لم يقنعوا بما أتاحه لهم العباسيون،من مشاركة فى الحكم وإدارة الدولة ، بل حاولوا السيطرة والاستحواذ على السلطات كلها ، ومن هنا بدأ صدامهم مع العباسيين منذ بداية دولتهم ، وكان أول من تنبه لخطر بعث الروح القومية الفارسية ، وطموح الفرس إلى السيطرة على الدولة ، هـــو أبو جعفر المنصـــور ، الذى تخلص من ابى مســـلم الخراسانى ، صاحب الدور البارز فى القضـاء على الدولة الأموية والبطل القومى فى نظر الفرس ، ثم جاءت نكبة البرامكة على يد الرشيد ، ونكبة بنى سهل على يد المأمون .

كل ذلك يؤكد أن الفرس كانوا يسعون إلى الإطاحة بالحكومة العربية وتحويلها إلى حكومة فارسية ، ولما لم يستطيعوا ذلك فى العصر العباسى الأولى ١٣٢ — ٢٣٢ هـ لوجود خلفاء أقوياء ، كانوا يقفون لحركاتهم بالمرصاد فقد أنتظروا حتى مضى عصر الخلفاء الأقوياء . وجاء العصر العباسى الثانى وضعفت سلطة الخلافة العباسية وفاعليتها ، فأخـــذوا يقطعون أوصالها ويقيمون دولا مستقلة على حسابها .

---

(١٩٣) ابن الأثير — الكامل جـ ٥ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

من كل ما تقدم يتضح أن القول بأن عداء الفرس الموالى للأمويين كان نتيجة الظلم والاضطهاد والتعصب ضدهم ، هو قول بعيد عن الواقع ، فلم تكن هناك سياسة عامة مرسومة للدولة الأموية لاضطهادهم ، أو التعصب ضدهم ، ولم يكن هناك مجال من مجالات العمل موصد أمامهم ، إلا المناصب العليا ، التى كانت تفرض الضرورة أن يحتفظ بها العرب فى تلك المرحلة ، لأنهم كانوا آنئذ أكثر فهما للرسالة ، وأهدافها من غيرهم ، ولم يكن متصورا ولا معقولا أن يقيم العرب دولة ثم يسلموها للفرس ، وليس هذا من التعصب فى شيىء ، بل هو من باب المحافظة على الكيان الذى جاهد العرب فى إقامته .

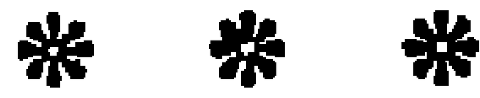
وفى النهاية نود أن نقول إننا لا نبرىء العرب بصفة عامة من أن بعضهم كان ينظر إلى الموالى نظرة فيها نوع من التعالى وهى نظرة كان منشؤها ما يولده شعور الغالب المنتصر من عزة فى نفسه ولعل الذى عمق الشعور بهذه النظرة المتعالية عند الموالى ، إحساسهم بهزيمتهم أمام العرب ، وضياع دولتهم على أيديهم .

والحق أن هذه النظرة المتعالية إلى الموالى ، لم تكن نظرة كل العرب ، بل كانت نظرة البدو الذين لم يفهموا الإسلام فهما حقيقيا وربما كانت نظرة بعض الولاة ، الذين كان يستفزهم عداء الموالى للعرب ، فيصدر منهم ما يعتبره الموالى إهانة لهم وازدراء بهم ، ومن الظلم أن يحمل ذلك على أنه السياسة العامة للدولة الأموية .

وكما كان فى الفرس من ارتفع به إيمانه فوق العصبية والعنجهية القومية فقد كان الكثير من العرب من فهم الإسلام جيدا ، وآمن بأنه يسوى بين جميع المسلمين، من عرب وعجم ، وأيقن أن الرجل يشرف بدينه وعمله وخلقه ، وليس بجنسه وعرقه ، فأكرم الناس عند الله أتقاهم ، ولافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . فالحسن البصرى ، وهو مولى ، كانت له منزلة كبيرة عند العرب وكلمة مسموعة حتى عند الدولة ، بل كان ينتقد علانية خلفاء بنىأمية وولاتهم ، دون أن يتعرض له أحد بأذى ، ويوم مات

تبع الناس كلهم جنازته ، حتى لم يبق فى المسجد من يصلى العصر(١٩٤) .

وعلى كثرة من قتل الحجاج بن يوسف الثقفى من العرب والموالى ، فى الثورات والفتن العديدة التى شهدتها ولايتــه على العراق ، لم يشتد استنكار الناس عليه فى قتل أحد ، كما اشتد عليه فى قتله ســعيد بن جبير(١٩٥)، وهو مولى ، وذلك لمكانة سعيد عند الناس ، مع أنه كان قد خرج ثائرا على الدولة مع ابن الأشعث .



(١٩٤) الذهبى — سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٥٨٧

(١٩٥) أحمد أمين — المرجع السابق جـ ١ ص ٢٨

انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر

على الرغم من أن منطقة ما وراء النهر كانت من آخر المناطق التى فتحها المسلمون فى العصر الأموى ، حيث تم فتحها فيما بين سنتى ٨٧ — ٩٦ هـ وأن ما تبقى من عهد الدولة الأموية كان جهودا متواصلة من الولاة لتثبيت الفتوحات من ناحية(١٩٦) ، ولصد خطر الأتراك الشرقيين فيما وراء نهر سيحون من ناحية ثانية(١٩٧) ، على الرغم من كل ذلك فقد أخذ الإسلام ينتشر فى هذه البلاد بخطى حثيثة ، منذ بداية الفتوحات(١٩٨)، لأن معظم أهالى البلاد وإن كانوا قد قاوموا المسلمين ، وخاضوا معهم معارك طاحنة ، إلا انهم سرعان ما بداوا يفكرون فى الإسلام ، دين هؤلاء الفاتحين ، فوجدوه دعوة خالصة لتوحيد الله سبحانه وتعالى ، وأنه دين سمح عادل رحيم ، يدعو إلى المساواة بين الناس جميعا ، وإلى عزتهم وكرامتهم ، فأقبلوا على اعتناقه عن طواعية واختيار ، ولا شك أن فساد الأحوال الدينية فى بلادهم قد شجعهم على ذلك ، فقد كان معظمهم وثنيين يعبدون الأصنام(١٩٩) ، وكان بعضهم متأثرا بالأديان المنتشرة فى بلاد فارس ، مثل الزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها ، ولكن يبدو أن هذه

---

(١٩٦) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٢٤ وما بعدها .

(١٩٧) انظر د. حسن محمود — الإسلام فى آسيا الوسطى ص ١٥٢ — ١٥٣

(١٩٨) ينبغى أن نتذكر هنا أيضا أن كثيرين من أهالى ما وراء النهر من الذين كان المسلمون يأسرونهم فى غزواتهم السابقة على فتوحات قتيبة ويعودون بهم إلى بلادهم ، وكانوا يقسمونهم على الفاتحين كموالى لهم ، يعيشون معهم فى مخالطة تامة ، لابد أن هؤلاء أو معظمهم على الأقل قد اعتنقوا الإسلام ، فقد عاد عبيد الله بن زياد من غزوته لما وراء النهر فى عهد معاوية بأعداد كبيرة من أسرى بخارى وقدم بهم البصرة ، وفرض لهم العطاء . انظر البلاذرى ص ٥٠٧

(١٩٩) المصدر السابق ص ٥١٨ ، والطبرى جـ ٦ ص ٤٧٥ — ٤٧٦

الأديان الباطلة لم تكن راسخة فى هذه البلاد ، ولم يكن تمسك الناس بها قويا ، وقـــد زال كل أثر لتمسكهم بها لـــا تبين لهم فسادها بالمقارنة مع الإسلام ، واتضح لهم أنها لم تكن إلا خرافات وأوهاما .

فعندما دخل قتيبة بن مسلم مدينة سمرقند سنة ٩٣ هـ واشترط أن يبنى فيها مسجدا ، وأبقى فيها جمـــاعة من المسلمين ، فيهم الضحاك بن مزاحم ، صاحب التفاسير ، كما يقول البلاذرى(٢٠٠) ، عندئذ وجد قتيبة عددا كبيرا من الأصنام فى المدينة ، فقرر تحطيمها ، ولـــا خوفه بعض السكان من ذلك ، وقالوا له : أن من يقترب منها تهلكه ، لم يأبه بهـــذه الخرافات وأقسم أن يحطمها بيديه ، وحطمها فعلا وأحرقها بالنار ، ولم يحدث له شيىء بطبيعة الحال ، فلما رأى الناس ذلك أدركوا أن هـــذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ، فأسرع كثير منهم إلى اعتناق الإسلام(٢٠١) ، ويبدو أن صدى هذه الحادثة قد تردد فى مدن أخرى كثيرة ، فأسلم كثير من أهلها ، بدليل أن قتيبة لـــا سار ليفتح إقليم الشاش فيما وراء نهـــر سيحون سنة ٩٤ هـ — بعد هذه الحادثة بسنة واحدة — كان جيشه يضم عشرين ألفا من أهل بخارى وكش ونسف(٢٠٢) ، لأن أهل بخارى الذين قاوموا الفاتحين فى البداية مقاومة شديدة ، سرعان ما أقبلوا على اعتناق الإسلام فى حماس شديد .

يقول المستشرق المجرى أرمينيوس فامبرى : أن بخارى التى قاومت العرب فى البداية مقاومة عنيفة ، قد فتحت لهم أبوابها لتستقبلهم « ومعهم تعاليم نبيهم ، تلك التعاليم التى قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة ، ثم أقبل القوم من بعد ذلك عليها فى غيرة شديدة ، حتى لترى الإسلام الذى أخذ شأنه اليوم يضعف فى جهات آسيا الأخرى ، وقد غدا فى بخـــارى اليوم—١٨٧٣م—على الصورة التى كان عليها أيام الخلفاء الراشدين»(٢٠٣)

---

(٢٠٠) فتوح — ص ٥١٨
(٢٠١) المصدر السابق ص ٥١٨ ، وانظر أيضا — آرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ٢٤٣
(٢٠٢) انظر الطبرى ج ٦ ص ٤٨٣
(٢٠٣) تاريخ بخارى ص ٦٧ — الترجمة العربية .

وهكذا اخذ الإسلام ينتشر بين سكان أمهات المدن فيما وراء النهر ، حتى قبل تمام الفتح ، وكان الفاتحون المسلمون يشجعون النساس على اعتناق الإسلام بالدعوة اليه بالحكمة والموعظة الحسنة وهى مهمة واجبة يقوم بها أولئك الرجال الذين كان يخلفهم قتيبة فى المدن ، التى كان يحرص على أن يبنى فيها المساجد لأداء شعائر الإسلام ، ولكى يقوم الدعاة فيها بتعريف الناس بالإسلام ، وشرح مبادئه ، ونشر الثقافة الإسلامية ، وتعليم اللغة العربية(٢٠٤) ، مما جعل أعداد المسلمين من أهل البلاد فى زيادة مستمرة ، إلى الحد الذى جعل بعض الولاة يأخذون الجزية ممن اسلموا ، حرصا منهم على الأموال ، بحجة أن كثرة المسلمين من أهل البلاد وإعفاءهم من الجزية قد أضر بيت المال ، وهو الإجراء الخاطىء الذى أزاله عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) الذى خطت حركة انتشار الإسلام فى عهده فى بلاد ما وراء النهر ، وفى غيرها من البلاد المفتوحة خطوات كبيرة ، حيث أصدر أمره إلى العمال برفع الجزية عمن أسلموا ، وصاح فيهم صيحته المشهورة « إن الله بعث محمدا ﷺ هاديا ، ولم يبعثة جابيا »، ثم كتب إلى ملوك ما وراء النهر ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم(٢٠٥)، ثم تتابعت الجهود لنشر الإسلام ، بعد عمر بن عبد العزيز ، وبصفة خاصة فى عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ — ١٢٥ هـ ، ففى سنة ١٠٩ هـ أسند هشام ولاية خراسان إلى اشرس بن عبد الله السلمى ، وكان رجلا فاضلا خيرا ، وكان الناس يسمونه الكامل لفضله عندهم ، كما يقول الطبرى(٢٠٦) فلما استقر فى خراسان ، عزم على توجيه الدعاة إلى ما وراء النهر ، يدعون الناس إلى الإسلام ، فقال لخاصته : « ابغونى رجلا له ورع وفضل ، أوجهه إلى من وراء النهر ، فيدعوهم إلى الإسلام ، فأشاروا عليه بأبى الصيداء ، صالح بن طريف »(٢٠٧) ، فاستدعاه وعرض عليه القيام بالمهمة، ولكن أبا الصيداء قال له : « أخرج على شريطة أن من أسلم لم يؤخذ منه

(٢٠٤) د. حسن محمود — المرجع السابق ص ١٥٤

(٢٠٥) البلاذرى — فتوح ص ٥٢٤

(٢٠٦) تاريخ جـ ٧ ص ٥٢

(٢٠٧) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٤

الجزية .. قال اشرس : نعم ، قال أبو الصيداء لأصحابه : فإنى اخرج ، فإن لم يف العمال اعنتمونى عليهم ، قالوا : نعم »(٢٠٨) . نفهم من كلام أبى الصيداء ، وتشدده فى اشتراط ان من يسلم لا تؤخذ منه الجزية ، أن العمال بعد عمر بن عبد العزيز ، قد عادوا إلى السياسة الخاطئة والضارة معا ، وهى اخذ الجزية ممن كانوا يسلمون . ذهب أبو الصيداء إلى ما وراء النهر واخذ يدعو أهل سمرقند وما حولها إلى الدخول فى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية ، فسارع الناس إلى الإسلام(٢٠٩) .

أثمرت دعوة ابى الصيداء ، وآتت نتائج طيبة ، واقبل اهل ما وراء النهر على الإسلام إقبالا هائلا ، ولكن دعوته اصطدمت مرة أخرى بمشكلة الجزية فقد كتب بعض العمال إلى أشرس ، أن إقبال الناس على الإسلام وإعفاءهم من الجزية ، قد اضر بيت المال(٢١٠) ، فاستجاب أشرس — للأسف — لهؤلاء العمال ، وامر بإعادة الجزية على من أسلموا ، ولاندرى كيف ارتكب هذا الرجل — الذى وصف بأنه خير فاضل — هذا الخطأ الفادح ، مع أن عامل الخراج فيما وراء النهر ، وهو هانىء بن هانىء كتب إليه : « إن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد »(٢١١) كما جاءه وفد من أهل بخارى وقالوا له « ممن تأخذ الجزية وقد صار الناس كلهم عربا »(٢١٢) يقصدون أنهم أصبحوا مسلمين .

ولكن على الرغم من ذلك فقد كتب اشرس إلى عماله ، وقال لهم : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه ، فأعادوا الجزية ، على من اسلم فامتنعوا ، واعتزل من أهل السغد سبعة آلاف ، فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند ، وخرج إليهم ابو الصيداء ، وربيع بن عمران التميمى والقاسم

---

(٢٠٨) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٤

(٢٠٩) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٥

(٢١٠) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٥

(٢١١) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٥

(٢١٢) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٥

الشيبانى ، وابو فاطمة الأزدى ، وعامر بن قشير — أو بشير — الخجندى، وبيان العنبرى ، وإسماعيل بن عقبة ، لينصروهم »(٢١٣) .

واضح من هذا النص الذى أورده الطبرى ، أن أبا الصيداء ، الداعية الإسلامى قد ساءته إجراءات الوالى أشرس ، ونكوصه عن شرطه الذى كان قد اشترطه عليه ، وهو إعفاء من يسلمون من الجزية ، وأن طائفة من صلحاء المسلمين العرب ، قد تضامنوا معه ، وانحازوا جميعا إلى إخوانهم الذين اسلموا من السغد ، لينصروهم ، وليقاوموا إجراءات الوالى بالقوة ، ومعنى هذا انه إذا كان الوالى قد فضل الجباية على الهداية ، فإن المسلمين من العرب الذين تمكنت مبادىء الإسلام من نفوسهم لم يوافقوا على ذلك ، وانحازوا إلى المسلمين الجدد ، وقرروا التصدى للوالى ، ولكنه تغلب عليهم ، وامر بالقبض على ابى الصيداء ، فقبض عليه ، وأرسل إلى اشرس فى مرو فضعفت حركة أصحابه بعده ، وتغلبت سياسة الوالى ، التى آثرت المال على نشر الإسلام(٢١٤) .

ولكن كان لذلك رد فعل عنيف عند اهالى ما وراء النهر ، الذين ظلوا يقاومون هذه التصرفات بالقوة(٢١٥) ، واستمر الصراع بينهم وبين الولاة الأمويين سنين عديدة ، ولم يعالج الموقف ، ويصحح الخطأ ، إلا نصر بن سيار . منذ أصبح واليا على خراسان فى سنة ١٢٠ هـ ، فقد شخص بنفسه إلى ما وراء النهر سنة ١٢١ هـ ، وخطب فى الناس ، وأعلن رفع الجزية عمن أسلموا فكان لذلك اثر طيب وسريع عند الناس ، حتى يقول الطبرى « فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاه ثلاثون الف مسلم ، كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم »(٢١٦) ومعنى هذا ان هؤلاء الثلاثين الفا ، الذين أتوا نصرا ، ظلوا يدفعون الجزية ولم يرجعوا عن إسلامهم ، ممـا يدل على رسـوخ

---

(٢١٣) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٥
(٢١٤) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٦
(٢١٥) المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٦
(٢١٦) المصدر السابق جـ ٧ ص ١٧٣

العقيدة الإسلامية فى قلوبهم ومن الطبيعى ان أعدادا كبيرة اعتنقت الإسلام بعد إعلان نصر هذا

وهكذا يمكن القول أن حركة انتشـــار الإسلام فى بلاد ماوراء النهر قد مضت فى طريقها رغم المعوقات التى كان يضعها بعض الولاة فى طريقها فى بعض الأحيان ، وبصفة خاصة مشكلة أخذ الجزية ممن كانوا يسلمون ولولا هذا الإجراء الخاطىء لكانت حركة انتشار الإسلام قد مضت بخطى أسرع فى هذه البـــلاد .

والذى يبدو لى أن استياء المسلمين من سكان ماوارء النهر من دفع الجزية ، لم يكن راجعا إلى كونها عبئـــا ماليا ، بقدر ماكان راجعـــا إلى إحساسهم بالمهانة من دفعهـــا وهم مسلمون ، بعد أن علموا أنه لا جزية على المسلم ، ولذلك تمسكوا بهذا الحـــق المشروع ، وقاوموا الولاة من اجل ذلك ، وكان العرب المسلمون يتضامنون معهم لرفع هذا الحيف ، ولتصحيح اخطاء الولاة .

وخلاصة القول : انه على الرغم من كل شيىء فقد شق الإسلام — ذلك الدين السمح البسيط — طريقه إلى قلوب الناس ، وتحـــول أهالى ماوراء النهرإليه بالتدريج ، وأصبحت بلادهم جزأ هاما من العالم الإسلامى أثرت فى تاريخه وحضارته تأثيرا كبيرا ، وازدهرت فيها الثقافة الإسلامية وأخرجت عـــددا هائلا من العلماء والمفكرين المسلمين ، وأصبحت مدن كبخـــارى وسمرقند وترمذ ونسف ، وغيرها من أهم مراكز الحضـــارة الإسلامية .

ولاادل على رسوخ الإسلام فى هذه البلاد من تمسك أهلها به على مدى القرون الماضية وحتى الآن ، رغم وقوعها منذ القرن الماضى وبداية القرن الحالى تحت براثن الحكم الشيوعى الروسى .

كما أصبحت بلاد ماوراء النهر معبرا رئيســـيا للإسلام إلى الصين وغيرها من بلدان شرق آسيا ، فقد أخذ التجار المسلمون يجوبون الطرق

التجارية القديمة بين العالم الإسلامى وتلك البلاد ، وكانوا إلى جانب تجارتهم يقومون بدور الدعاة إلى دين الله(٢١٧) ، وكانوا لأمانتهم وصدقهم وحسن معاملتهم يجذبون الناس إلى الإسلام بأعداد كبيرة .

وقد يسر للتجار المسلمين مهمتهم تلك العلاقات الطيبة التى قامت بين الدولة الأموية فى أواخر ايامها وبين إمبراطورية الصين ، فقد سبق ان ذكرنا أن قتيبة بن مسلم كان قد وصل بفتوحاته سنة ٩٦هـ عند كاشغر على حدود الصين ، وانه أرسل وفدا إلى إمبراطور الصين ، بناء على طلب الأخير ، وأن الوفد عاد محملا بالهدايا والجزية .

ثم قامت بعد ذلك علاقات ودية بين الدولة الأموية وإمبراطور الصين فقد ذكر آرنولد(٢١٨) نقلا عن المصادر الصينية ، أن الخليفة هشام ابن عبد الملك ارسل فى سنة ١٠٨هـ — ٧٢٦م سفيرا إسمه سليمان إلى إمبراطور الصين هزوان تسنج ، ومع أن آرنولد لم يحدثنا عن طبيعة هذه السفارة ومهمتها ، إلا أنها تدل على حسن العلاقات على كل حال ، تلك العلاقات التى تطورت إلى افضل مع العباسيين ، حيث يذكر المؤلف نفسه أن إمبراطور الصين سوتسونج ، وهو ابن الإمبراطور السابق ، قد استغاث بالخليفة العباسى ، أبى جعفر المنصور ، ضد ثورة قامت عليه فى سنة ١٣٩ هـ — ٧٥٦ م فأغاثه المنصور بفرقة من الجيش الإسلامى ، التى لم تعد إلى بلادها بعد القضاء على الثورة ، بل بقى الجنود المسلمون فى الصين وتزوجوا وعاشوا هناك(٢١٩) .

---

(٢١٧) د. حسن محمود — المرجع السابق ص١٥٥ ، وبارتولد — تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص١٢٩ .

(٢١٨) الدعوة إلى الآسلام ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .

(٢١٩) المرجع السابق ص ٣٣٣ .

انتشـــار الإسلام فى السنـــد

كان إقليم السند عنـــدما فتحه المسلمون — فى أواخر القرن الأول الهجرى — مملكة مستقلة ، يحكمه ملك ، هو داهر بن جج ، الذى قضى عليه محمد بن القاسم ، ذلك لأن الإمبراطورية الهندية كانت قد أضعفتها غزوات الهون ، التى انحـــدرت إليها من بلاد ماوراء النهر منذ القـــرن الخامس الميلادى(٢٢٠) ، فتفككت وانقسمت إلى ولايات مستقلة ، ولم تكن العلاقـــات بين هذه الولايات ودية وإنما سادت بينها المنازعـــات والحروب قبل الفتـــح الإسلامى ، وكان وضعها شبيها بوضع إمارات ماوراء النهر ، فى الفترة ذاتها(٢٢١) ، وكانت السند واحدة من هـــذه الولايـــــات .

وكانت الأديان السائدة فى السنـــد آنئذ ، هى الأديان نفسها التى كانت سائدة فى ســـائر الولايات الهندية ، وهى البرهمية ، والجينيـــة والبوذية ، وليس من شـــأن هذه الدراسة أن تخوض فى تفاصيل عقائد ومبادىء وأصول هذه الديانات وإنما يكفى أن نقول : إن الديانة البرهمية مثلا : قامت على الاعتقاد بألوهية براهما(٢٢٢) ، وبفكرة الحلول وتناسخ الأرواح(٢٢٣) .

وقد اعتقد الهنـــود أن إلههم براهمـــا خلق الخلق على أربعـــة أنـــواع(٢٢٤) :

---

(٢٢٠) د. حسن محمود — الإسلام فى آسيا الوسطى ص١٩٩ .

(٢٢١) المرجع السابق ص٢٠١ — ٢٠٢ .

(٢٢٢) أحمد أمين — ضحى الإســـلام ج ١ ص ٢٣٧ ، نقـــلا عن البيرونى — تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة .

(٢٢٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٨ ، وانظر د. عبـــد الله مبشر الطرازى — موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب ج ١ ص ٣١٨ .

(٢٢٤) د. على عبد الواحـــد وافى — حقوق الإنسان فى الإسلام ص ١١ .

النوع الأول ، خلقه من فمه ، وهم طبقة البرهميين .

النوع الثانى ، خلقه من ذراعه وهم الأكشترية ، أو الكشتريون .

النوع الثالث ، خلقه من فخذه وهم الفيشية ، أو الفيشيون .

النوع الرابع ، خلقه من قدمه وهم الشودرية ، أو المنبوذون .

وعلى هذا الأساس قام نظام الطبقات الهندى المشهور ، حيث اعتبروا الطبقة الأولى المخلوقة من الفم ، هى أشرف الطبقات ، وأطهرها ، تليها الطبقة المخلوقة من الذراع ، ثم المخلوقة من الفخذ ، وأحط هذه الطبقات جميعا هى المخلوقة من القدم .

ولقد انعكس هذا التقسيم على الأوضاع الاجتماعية ، حيث قسمت الكتب المقدسة عند الهنود ، وهى أسفار الفيدا ، الوظائف بين الطبقات على النحو التالى :

تتمتع **طبقة البرهميين** بأرقى الوظائف ، وهى الوظائف الدينية ، فهم وحدهم الذين يعلمون الناس الأسفار الدينية المقدسة ، ويشرفون على القرابين والضحايا ، ولهم وحدهم الحق فى القبول والمنع ، والإعطاء والأخذ .

أما الطبقة الثانية ، **الأكشترية** ، فلهم الوظائف الحربية وحماية الشعب ، والعمل على استتباب الأمن .

وتختص الطبقة الثالثة ، وهم **الفيشيون** بأعمال الزراعة والتجارة والصناعة الخ ..

أما الطبقة الرابعة ، وهم **المنبوذون** فهم ليسوا إلا خدما للطبقات الثلاث السابقة ، وفوق ذلك فهم رجس ونجس ، فلا يصح لمسهم ، ولامؤاكلتهم ، ولامصاهرتهم ، ولا الارتباط بهم بأية علاقة غير علاقة السيد بالمسود(٢٢٥) .

---

(٢٢٥) د. على عبد الواحدوافى — المرجع السابق ص١١ — ١٢ ، د. عبد الله الطرازى — المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

ولايخفى مافى هذا التقسيم من ظلم وبعد عن الإنسانية وبصفة خاصة للطبقة الأخيرة ، والعجيب أن يظل هذا التقسيم الغريب للبشر قائماً حتى الوقت الحاضر فى الهند ، حيث يمثل مشكلة من اخطر المشكلات الاجتماعية التى تهدد الكيان الهندى كله .

وقد قامت الديانتان الأخريان (الجينية والبوذية) ، كرد فعل لنظام الطبقات الذى اتسمت به البرهمية ، وقد نشأتا فى وقت متقارب ، حيث ولد مهاديرا مؤسس الديانة الجينية عام ٥٩٩ قبل الميلاد ، وولد بوذا مؤسس البوذية عام ٥٥٧ قبل الميلاد ، وقد حارب الجينيون والبوذيون نظام الطبقات حربا لاهواده فيها ، ولم يبحثوا فى أمر الإله(٢٢٦) ، كما هو الشأن فى البرهمية وإنما اهتموا بالنواحى الأخلاقية ، فدعوا إلى تجرد الإنسان من شرور الحياة . وإلى تطهير النفس من شهواتها وتحليها بالأخلاق فى معاملاتها مع الناس ، فمبادىء الجينية والبوذية تتشابه تشابها كبيرا فى هذه النواحى(٢٢٧) . والذى يعنينا هنا هو وضع هذه الأديان فى السند عند الفتح الإسلامى حيث كانت الديانة الجينية قلا تلاشت من الإقليم لأسباب كثيرة لاداعى لذكرها ، وبقيت الديانتان الآخريان ، ولكن فى صراع ، فقد كانت البرهمية هى ديانة الملك والطبقة الحاكمة ، وكان الملك داهر نفسه من أسرة دينية برهمية حيث كان أبوه جج سادنا لأحد المعابد البرهمية(٢٢٨) ، ومن ثم اشتد اضطهاد أتباع الديانة البوذية ، وكان الوضع فى السند شبيها بالوضع فى بلاد الفرس المجاورة ، حيث اضطهد الزرادشتيون اتباع الديانات الأخرى ، ولهذا رحب البوذيون بدخول المسلمين إلى السند ، واعتبروهم مخلصين لهم من الظلم والاستعباد ، وانضموا إليهم ، واقبلوا على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة ، تفوق أعداد

---

(٢٢٦) لذلك تعتبر الجينية والبوذية من المذاهب الإصلاحية وإطلاق لفظ ديانة عليهما فيه تجوز .

(٢٢٧) د. عبدالله الطرازى — المرجع السابق ج ١ ص٣٢٦ — ٣٢٩ .

(٢٢٨) المرجع السابق ج ١ ص ٣٣٣

من اعتنقوه من البراهمة ، وفى الصفحات التالية نشرح كيف كان إقبالهم على الإسـلام .

ذكرنا فيما سبق أن محمد بن القاسم الثقفى فتح السند فى بضع سنين ٨٩ — ٩٦ هـ بعد مرحلة طويلة من الغزوات المتقطعة بدأت منذ عهد عمر بن الخطاب . ومنذ أن فتح المسلمون إقليم مكران سنة ٢٣ هـ — والذىيبدو أنه كان تابعا للسند(٢٢٩) ، بدأ الاحتكاك بين المسلمين وأهل السند ، وبدأت أخبار العرب ودينهم تصل إلى السكان هناك ، ويذكر البلاذرى أن كثيرين من أهل السند الذين فروا من اضطهاد البراهمة إلى أراضى الدولة الفارسية وحاربوا فى صفوفها ، قد انحازوا إلى المسلمين واعتنقوا الإسلام ، فعندما كان أبو موسى الأشعرى يفتح فى السوس والأهواز فى عهد عمر بن الخطاب ، أرسل إليه زعيم سندى إسمه سياه ، وهو زعيم الأساورة ، وقال له : « إننا قد أحببنا الدخول معكم فى دينكم ، على أن نقاتل عدوكم من العجم معكم(٢٣٠) » واشترط أن يفرضله ولقومه فى العطاء ، وأن ينزلوا حيث شاؤا من البلاد .

فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فرد عليه عمر أن أعطهم جميع ما سألوا فلحقوا بالمسلمين وشهدوا مع أبى موسى حصار تستر(٢٣١) .

وبعد انتهاء المعارك نزلوا البصرة ، وفرض لهم العطاء ، ثم سألوا أى الأحيـاء أقرب إلى رسـول الله ﷺ فقيل لهم : بنو تميم ، فحالفوهم ، ووضعت لهم الخطط(٢٣٢) ، ويذكر البلاذرى أيضا أن قوما من أهل السند من الزط والسيابجة والأندغار ، قد لحقـوا بالاساورة وأتوا أبا موسى الأشعرى ، فأنزلهم البصرة(٢٣٣) ، وقد عمل كثيرون منهم فى بيت المال . لخبرتهم فى الشئون المالية ، ومعرفتهم بالجباية ، فيذكر البلاذرى أنه كان

(٢٢٩) انظر الطبرى ج ٤ ص ١٨١ وما بعدها
(٢٣٠) فتوح البلدان ص ٤٥٩
(٢٣١) المصدر السابق ص ٤٥٩
(٢٣٢) المصدر السابق ص ٤٥٩
(٢٣٣) المصدر السابق ص ٤٦١

فى بيت ما ل البصرة فى عهد على بن ابى طالب ، اربعون من السيابجة وقيل اربعمائة(٢٣٤) .

ولم يكن عملهم قاصرا على بيت المـــال ، وإنما عمـــل كثيرون منهم فى المصارف الخاصة حتى ليروى الجاحظ : « أنك لا ترى فى البصرة صيرفيا إلا وصاحب كيسه سندى(٢٣٥) .

وهكذا نجد فى التاريخ أمثلة كثيرة على اتصال أهل السند بالمسلمين واعتناقهم الإسلام قبل فتح بلادهم ، ولا شك أن هؤلاء كانوا يسافرون بين حين وآخر إلى بلادهم ويحدثون ذويهم واقرباءهم وأصحابهم عن الإسلام ، وتعاليمه السامية وسماحته الكبيرة(٢٣٦) ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن قلوب بعض أهل السند قد تهيأت واستعدت لقبول الإسلام ، ويؤيد هذا الإقبال الكبير على اعتناقه أثناء الفتح وبعده .

فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدات شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام فعندما فتح محمد بن القاسم مدينة الديبل واستولى على قلعتها التى كان بها الأسرى من الجنود والتجار العرب ، والنساء العربيات وقتل حراس القلعة بناء على أوامر الحجاج ، انتقاما لشهداء المسلمين ، عندئذ جاء مدير السجن الذى كان به المسلمون ، واسمه قبله بن مهترائج طالبا منه العفو عنه ، لأنه كان محسنا للأسرى المسلمين ويعاملهم معاملة كريمة ، فلما تأكد محمد بن القاسم من صدقه عفا عنه ، بل فوض إليه مهمة الإشراف على الشئون الاقتصادية بمدينة الديبل ثم اعلن الرجل إسلامه ، فقربه محمد أكثر ، وعينه مترجما لرئيس الوفد الذى أرسله إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه ، ومعنى هذا ان الرجل كان يعرف اللغة العربية ، ومن المحتمل ان يكون قد تعلمها من العرب الذين كانوا مسجونين عنده فى الديبل(٢٣٧) .

---

(٢٣٤) المصدر السابق ص ٤٦٢

(٢٣٥) أحمد أمين — المرجع السابق جـ ١ ص ٢٣٣

(٢٣٦) د. عبد الله الطرازى — المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٤

(٢٣٧) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٨

وعندما تقدم محمد بن القاسم فى السند ، بعد فتح الديبل ، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب للدخول فى الإسلام فاستجاب له كثيرون وبصفة خاصة من البوذيين(٢٣٨) .

فبعد أن اتم فتح إقليم سيوستان ، جاءه قوم من أهله وأسلموا بجملتهم(٢٣٩) ، وقصة إسلام هؤلاء تدل على عظمة الإسلام ، وتأثيره فى القلوب . فقد روى فى سبب إسلامهم ، أنهم كانوا قد أرسلوا جاسوسا منهم إلى معسكر المسلمين لمعرفة أخبارهم ، وأثناء وجوده حان وقت الصلاة فقام أحد الجنود المسلمين فأذن للصلاة بصوت خاشع جميل مؤثر ، ثم اصطف المسلمون فى صفوف منتظمة خلف قائدهم محمد بن القاسم .

فلما رأى الجاسوس السندى ، هذه الكيفية دخلت قلبه رهبة وتأثر بالمنظر تأثرا كبيرا ، فذهب إلى قومه وأخبرهم بما شاهده ، وشرح لهم شعوره فقالوا : إذا كان العرب متحدين متمسكين بدينهم بهذا الشكل فى مثل هذا الوقت الخطير ، فلا يمكن لنا التغلب عليهم ، وبعد المناقشة قرروا إرسال وفد إلى محمد بن القاسم وانتهت المفاوضات باعتناقهم الإسلام جميعا ، وانضمامهم إلى المسلمين ، ويعتبر هؤلاء أول جماعة كبيرة من البوذيين دخلوا الإسلام فى بلاد السند(٢٤٠) .

وفى أثناء المعركة الرئيسية بين محمد بن القاسم ، وبين داهر ملك السند انضمت فرقة كاملة من جيش داهر إلى المسلمين ، وأعلنوا إسلامهم وحاربوا معهم ، وبهذا يكون هؤلاء ثانى مجموعة كبيرة من أهل السند — وأول مجموعة من البراهمة — تدخل فى الإسلام أثناء الفتح « لا بالقوة وإنما

---

(٢٣٨) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٦

(٢٣٩) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٨

(٢٤٠) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ نقلا عن تاريخ معصومى بالفارسية الذى يذكر أن هؤلاء الذين أسلموا من أهل إقليم سيوستان ، قد أقاموا حفل تكريم للقائد محمد بن القاسم بمناسبة إسلامهم .

بالرغبة ، وعن إيمان ويقين بعظمة الإسلام ، مع أن الحرب كانت لاتزال دائرة ولم يكن من السهل معرفة نتيجة هذه المعركة الرئيسية(٢٤١) .

وهكذا أخذ أهل السند يقبلون على الإسلام ، قبل تمام الفتح ، لا من عامة الشعب فحسب ، بل من الزعماء والحكام والقواد ، مثل حاكم بيت البوذى الأمير كاكة بن بساية وأخوته ووالدهم ، وكبار القواد فى الديبل وسيوستان والبيرون ، ثم بعض الوزراء ، مثل سياكر وزير داهر نفسه(٢٤٢) . وكل هؤلاء أسلموا قبل مقتل داهر ، وبعد مقتله دخل كثير فى الإسلام من حكام وأمراء المناطق الأخرى ، مثل الأمر كاكه بن جندر ، ابن عم داهر ، وحاكم منطقة الباتيه الواسعة(٢٤٣) .

وغنى عن البيان أن إسلام هذا العدد الكبير من أهل السند من مختلف الأديان والطوائف من القواد والحكام ، والجيوش ، والآلاف من أفراد القبائل وقبل انتهاء عمليات الفتح ، غنى عن البيان أن هذا تم عن قناعة وإيمان ثابت ، وليس بالقوة والإكراه كما يدعى أعداء الإسلام(٢٤٤) .

وقد كان لسلوك المسلمين وقائدهم الشاب ، واهتمامه بإقامة المساجد وأداء شعائر الإسلام،أثر كبير فى جذب الأهلين إلى الإسلام.فلم يكن محمد ابن القاسم يدخل مدينة إلا ويبنى فيها مسجدا(٢٤٥) ، فقد بنى مساجد فى الديبل والرور والبيرون والملتان وغيرها من المدن السندية .

---

(٢٤١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٤٩ نقلا عن كتاب ججنامة بالفارسية ، ويقول المؤلف أن هذا الكتاب ترجمة لكتاب الفه عالم عربى فى أواخر العصر الأموى ببلاد السند بعنوان منهاج الدين والملك ، ثم ترجمة عالم عربى آخر إلى الفارسية فى القرن السابع الهجرى ، وقد فقد الأصل العربى .

(٢٤٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥٠ نقلا عن ججنامة بالفارسية .

(٢٤٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥٠

(٢٤٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥٠

(٢٤٥) انظرالبلاذرى — فتوح ص ٥٣٨ وما بعدها .

وبعد محمد بن القاسم استمر الولاة فى بناء المساجد فى سائر مدن السند ، كما أسسوا مدينتين جديدتين ، وهما مدينـة المحفوظة ، التى أنشأها الحكم بن عوانة الكلبى ، ومدينة المنصورة ، التى أنشأها عمرو ابن محمد بن القاسم(٢٤٦) ، وكان المسجد أهم منشأة يحرص المسلمون على إقامتها ، بحيث كان يقام فى مركز المدينة . ولا شك أنه كان لإنشاء هذه المساجد وأداء الشعائر الدينية فيها أثر كبير فى جذب انتباه أهل السند وإثارة حب الاستطلاع فى نفوسهم حول الإسلام ، والتساؤل حول عقيدته ومبادئه ، وكان طبيعيا أن يشرح لهم المسلمون كل هذه الأمور وكانوا كلما ازدادت معرفتهم بالإسلام يزدادون إقبالا عليه ، عن رغبة صادقة وعقيدة راسخة(٢٤٧) .

وقد رأينا أن رجلا واحدا هزه مشهد المسلمين وهم يؤدون الصلاة ، فكان ذلك سببا فى إسلام طائفة كبيرة من قومه .

وهكذا نرى أن ظاهرة انتشار الإسلام فى السند أثناء الفتح ربمـا كانت أوضح وأسرع منها فى أى بلد آخر .

وبعد الفتح بسنوات قلائل جاءت خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ)، ودعوته لملوك السند للدخول فى الإسـلام ، على أن يملكهم بلادهم ، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فاستجابوا له ، ودخل بعضهم فى الإسلام ، وتسموا بأسماء عربية ، بعد أن كانت سيرته فى العدل والتقوى والإصلاح قد وصلتهم(٢٤٨) .

والآن قد يتساءل البعض قائلا : ما الذى جعلَ الشعب فى السند يقبل على الإسلام بهذه السرعة الواضحة وعن طواعية واختيار ؟

الواقع أن السبب ، أو الأسباب هنا لا تشذ عما رأينا فى سائر البلاد التى فتحها المسلمون من كاشغر إلى الأندلس .

(٢٤٦) المصدر السابق ص ٥٤٢ — ٥٤٣

(٢٤٧) د. عبد الله الطرازى — المرجع السابق ج ١ ص ٣٥٧

(٢٤٨) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٤٠

فأولا : كانت الديانة البوذية ، وهى ديانة أغلبية السكان ، قد تضاءل شأنها نتيجة الاضطهاد الوحشى والتفرقة الطبقية القاسية من جانب البراهمة وقد عانى البوذيون كثيرا من ذلك ، فلما دخل المسلمون بلادهم ، وجدوا فى تعاليم الإسلام كل معانى الخير من حرية دينية وعدالة اجتماعية، فأقبلوا عليه ليتخلصوا من الاضطهاد ومظالم نظام الطبقات(٢٤٩) ، لأن الإسلام لا يعرف الطبقية ، فهو دين المساواة ، ولا يفاضل بين الناس على أساس الجنس أو الطبقة ، بل أفضل وأكرم الناس عند الله اتقاهم ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

ثانيا : الحرية الدينية التى منحها المسلمون لأهل السند ، سواء أكانوا براهميين أو بوذيين ، فمن رغب فى البقاء على ديانته ، فله هذا الحق ، على أن يدفع الجزية ، وبهذا عامل المسلمون أتباع هذه الأديان كمعاملتهم لأهل الكتاب .

وقد ذكر البلاذرى أن بعض المدن السندية فتحت صلحا ، وأن أهلها دفعوا الخراج — أى الجزية — ومعنى ذلك أنهم أو بعضهم بقى على دينه ، كما حدث فى مدينة البيرون(٢٥٠) .

ولاشك أن هذه الحرية اشاعت جوا من الاطمئنان بين الناس ، وأعطتهم الفرصة للتفكير والمقارنة بين أديانهم وبين الإسلام ، ومثل هذه المقارنة إذا تمت فى جو الحرية هذا ، وبعيدا عن الإكراه ، فإنها بالتأكيد تظهر عظمة الإسلام وتفوقه على أديانهم من جميع الوجوه ، ولعل ذلك ما يفسر إقبال كثيرين من البراهمة على اعتناقه ، وهؤلاء لم يكونوا مضطهدين واعتناقهم الإسلام يبرهن على سلامة اعتقادهم فيه دينا يدعو للتوحيد الخالص .

ثالثا : التزام المسلمين فى السند بما التزموا به فى سائر البلاد التى فتحوها من حيث احترامهم لأموال الناس وأنفسهم وإبقاؤهم للنظم الإدارية

(٢٤٩) د. عبد الله الطرازى — المرجع السابق ج ١ص٣٥١—٣٥٢
(٢٥٠) فتوح — ص ٥٣٦

القديمة ، واستخدام السكان فى الإدارة وإشراكهم فى الحكم ، وقد تضمنت عقود الصلح التى أشار إليها البلاذرى تأمين بعض الحكام على مابيدهم من سلطات ، وهذا جعل الطبقات الحاكمة فى السند تستجيب للإسلام على نحو ما استجابت له الطبقات الحاكمة فى إيران وما وراء النهر .

وهكذا يمكن القول إن معظم أهل السند قد وجودا أنهم لم يخسروا شيئا بدخول الإسلام بلادهم ، بل حققوا كثيرا من المكاسب ، حيث حررهم الإسلام دينيا واقتصاديا واجتماعيا ، وزاد تحررهم بالدخول فى الإسلام وتحولهم إلى جماعات المؤمنين وفتحت أمامهم الحياة الإسلامية الأبواب واسعة(٢٥١) » .

وبالإضافة إلى كل ما تقدم فقد لعبت الهجرات العربية التى تدفقت على السند بعد الفتح مباشرة الدور نفسه الذى لعبته فى الأقطار الأخرى من حيث تقريب الإسلام إلى قلوب الناس عن طريق الدعوة وإقامة الشعائر والاختلاط فالعرب لم يكونوا كغيرهم من الفاتحين ، يعيشون حياة منعزلة عن أهل البلاد بل كان هناك امتزاج ومصاهرة ومعايشة .

والخلاصة : انه منذ أن دخل الإسلام السند ، دخوله الظافر فى نهاية القرن الأول الهجرى ، أصبح هذا الإقليم جزءا من الدولة الإسلامية واحتفظ بإسلامه حتى وقتنا هذا(٢٥٢) ، وشارك ولا يزال مشاركة إيجابية فى صنع التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، والحق أن إقليم السند مدين للإسلام لقيامه بهذا الدور ، فلولا الإسلام لبقى منزويا فى عزلته كما كان . دون أن يحس به أحد ، أو يكون له دور فى التاريخ .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى(٢٥٣) : « كانت هذه البقعة من الأرض وما جاورها من البلدان تعيش فى عزلة عن العالم يحكمها ولاة

---

(٢٥١) انظر د. حسن محمود — المرجع السابق ص ٢٢٩

(٢٥٢) إقليم السند جزء من دولة باكستان المسلمة الحالية .

(٢٥٣) من تقديمه لكتاب الدكتور عبد الله الطرازى — السالفة الذكر ج ١ ص ٦ — ٧

يعتبرون انفسهم آلهة على الأرض ، والناس كانوا يكفرون بين أيديهم ، ويقدسونهم كتقديس العبد لربه ، وكانت الأرض وخيراتها ملكا لهم ، والناس عبيد عندهم ، يفعلون ما شاؤا ويحكمون بما ارادوا ، الرقاب تحت سيوفهم ، والأعراض رهينة شهواتهم ، الضعيف المكافح كان اذل من الحيوان ، ولم يكن الشرف إلا بالوراثة ، أما من ناحية العقيدة ، فلم تكن هناك ديانة واحدة بل ديانات متفرقة ، ليس فيما بينها رابط جامع ، وكل ما فى الأمر انهم كانوا يعتزون بطقوس وتقاليد ورثوها من آبائهم وتمسكوا بها جهلا وغرورا ، إن دخول الإسلام إلى بلاد السند وبلاد الهند ، كان فاتحة عصر جديد ، عصر علم ونور ، وحضارة وثقافة » ثم يقول : « لم يكن العرب المسلمون من طراز أولئك الغزاة الذين إذا دخلوا قرية افسدوها واعتبروها بقرة حلوبا ، أو ناقة ركوبا ، يحلبون ضرعها ، ويركبون ظهرها ، ويجزون صوفها ، ثم يتركونها هزيلة عجفاء ، ولايعتبرون انفسهم إلا كالإسفنج يتشرب الثروة من مكان ويصبها فى مكان آخر ، كما كان شأن الإنجليز فى الهند وفرنسا فى الجزائر والمغرب الأقصى ، وإيطاليا فى طرابلس ، وبرقة وهولندا فى إندونيسيا .

بل وهب العرب البلاد التى فتحوها أفضل ما عندهم من عقيدة ورسالة وأخلاق وسجايا ومقدرة وكفاية ، وتنظيم وإدارة ، أقبلوا عليها بالعقل النابغ ، والشعور الرقيق ، والذوق الرفيع والقلب الولوع واليد الحاذقة الصناع ، فنقلوها من طور البداوة إلى طور الحضارة ، ومن عهد الطفولة إلى عهد الشباب الغض ، فأمنت بعد خوف ، واستقرت بعد اضطراب ، وأخذت الأرض زخرفها وبلغت المدنية أوجها ، وتحولت الصحارى الموحشة والأراضى القاحلة إلى مدن زاخرة وأرض خصبة وتحولت الغابات إلى حدائق ذات بهجة والأشجار البرية إلى أشجار مثمرة مدنية ، ونشأت علوم لاعلم بها للأولين ، وفنون وأساليب فى الحضارة لاعهد لهم بها فى الماضى ، وانتشرت التجارة وازدهرت الزراعة ، فكأنما ولدت هذه البلاد فى العهد الإسلامى ميلادا جديدا ولبست ثوبا قشيبا(٢٥٤) .

---

(٢٥٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٥ — ٦

الفصل الخامس

الأحزاب والثورات المعادية لبنى أمية

امتد عصر الدولة الأموية فى التاريخ الإسلامى تسعة عقود أو تزيد ، من سنة ٤١ إلى سنة ١٣٢ هـ ، وفى خلال هذه الفترة مدت حدود الدولة الإسلامية ، ورفعت راية الإسلام من كاشغر على حدود الصين شرقا إلى الأندلس وجنوب فرنسا غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا حتى المحيط الهندى جنوبا ، وعمل الخلفاء الامويون بجد ومثابرة على نشر الإسلام فى هذه الرقعة الهائلة ، وعلى استتباب الأمن وتوطيد الحكم الإسلامى ، حتى اصبحت هذه المساحة من الأرض بمن عليها من أمم وشعوب تشكل عالما إسلاميا واحداً ، له طابعه وخصائصه كما رأينا فى الفصول السابقة ، كما أن عصر الدولة الأموية كان عصر نمو الحضارة الإسلامية — التى وضعت بذورها منذ عهد الرسول ﷺ فى ميادينها المختلفة من إدارة وعمارة وعلوم — وهذه كلها أعمال جليلة تشهد للأمويين بدورهم البارز فى التاريخ الإسلامى ، ويزداد الإعجاب بالأمويين وتقديرهم إذا عرفنا أنهم قاموا بتلك الأعمال الجليلة ، فى الوقت الذى كانوا يصارعون فيه أعداء أشداء من كل لون ، ناصبوهم العداء وحقدوا عليهم أشد الحقد ، فلم يدعوا فرصة للثورة عليهم إلا انتهزوها ، فجعلوا الدولة تعيش معظم أيامها فى صراع داخلى « فلا تكاد تتغلب على عدو ، حتى يبرز لها عدو آخر ، حتى إذا أذن الله أن تتغلب عليه فاجاها عدو غيره أو أفاق العدو الأول ليستأنف معها المعركة من جديد »(١) .

والثورات التى هبت فى وجه الدولة الأموية منذ قيامها ، والأحزاب التى ناصبتها العداء طوال تاريخها عديدة ، والعجيب أن هذه الثورات والأحزاب لا يجمعها هدف واحد سوى العداء لبنى أمية والقضاء على دولتهم ، فكانت منها الثورات ذات الطابع العقدى ، مثل ثورات الخوارج

---

(١) د. محمد الطيب النجار — الدولة الأموية فى المشرق ص ٨٥

والشيعة ، الذين اتخذوا من الدين سندا لمحاربة بنى أمية ، ويمكن أن نعتبر حركة عبد الله بن الزبير من هذا القبيل أيضا ، لأنه كان يرى نفسه أحق بالخلافة من يزيد بن معاوية ومن جاء بعده منهم ، والسند هنا دينى أيضا ، كما كانت هناك ثورات دفع إليها الطموح الشخصى والبحث عن الأضواء والسلطان ، مثل ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى ، الذى ركب تيار الشيعة ليخفى هدفه الحقيقى ، ومثل ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ويزيد بن المهلب .. إلخ .

ثم هناك عنصر آخر ناصب الدولة الأموية العداء طوال تاريخها ، وهم الموالى ، وأعنى بهم المسلمين من غير العرب ، وبصفة خاصة الفرس ، « وهؤلاء لم يظهروا كحزب معـــارض له كيـــانه واستقلاله ولكنهم كانوا ينضمون للأحزاب المعارضة للدولة ، والخارجة على سياستها ويرون فى ذلك متنفسا لهم ، وسبيلا إلى تحقيق آمالهم فى إضعاف الكيان العربى ، ومحاولة القضاء عليه »(٢) ومع أن الدولة الأموية لم تلن أمام كل هؤلاء الأعداء ، وواجهتهم بكل قوة وحزم ، وقضت على معظمهم ، إلا أن كفاحها ضدهم وما كبدوها من خسائر مادية ومعنوية ، أضعفها وأوهن من قوتها وكان من أهم أسباب سقوطها . وفى هذا الفصل سندرس قصتها مع هذه المجموعات طوال تاريخها ، بادئين بالخوارج لأنهم كانوا أولّ من شهر السلاح فى وجهها .

---

(٢) المرجع السابق ص ٨٦

الخوارج

عرف الخوارج بهذا الاسم بعد التحكيم فى معركة صفين ، وكانوا قبلها من أشد أنصار على بن أبى طالب ، وحضروا معه موقعة الجمل وصفين ، ولكنهم انشقوا عليه بعدها ، ورفضوا التحكيم ، وحاول على إقناعهم وردهم إلى الجماعة ، ولكنهم تشبثوا بموقفهم ، وبالغوا فى شقاقهم وتطرفوا ، حتى عاثوا فى الأرض فسادا ، مما جعل عليا يقاتلهم ويقضى على معظمهم فى معركة النهروان ،كماسبقت الإشارة .

وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج ، لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام ، وعلى جماعة المسلمين . أما هم فيسمون أنفسهم الشراة ، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى ، على أن لهم الجنة . يشيرون بذلك الى قوله تعالى : « **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ..** »(٣) ويسمون المحكمة ، لأنهم قالوا : لا حكم الا لله .

وكان يطلق عليهم أيضا الحرورية ، نسبة إلى قرية حروراء التى انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على على ، ولما كان سببه خروجهم هو قبول على التحكيم بينه وبين معاوية ، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية فى الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة(٤) : المبدأ الأول أن الخلافة ليست وقفا على قريش كما يذهب أهل السنة(٥) . بل تجوز لكل مسلم يكون أهلا لها حتى ولو كان عبدا حبشيا ، ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين ، وانه إذا تم اختياره لا يصح له أن يتنازل عنها ، أو يقبل التحكيم(٦) . وفى ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبى بكر وعمر ، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته فى شطرها الأول ، ثم تبرؤا

---

(٣) الآية ١١١ من سورة التوبة .

(٤) د. محمد ضياء الدين الريس — النظريات السياسية الإسلامية ص ٥٧

(٥) المـــاوردى — الأحكام السلطانية ص ٦

(٦) د. محمد الطيب النجار — المرجع السابق ص ٨٧

منه وكفروه فى بقية عهده . واما على فقد اعترفوا بخلافته من بدايتها إلى أن قبل التحكيم، وبعد قبوله التحكيم لم يعترفوا بخلافته ، بل كفروه(٧) . كذلك لم يعترفوا بخلافة معاوية وسائر بنى امية(٨) ، وكفروهم . كما كفروا عائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وابا موسى الأشعرى . وعلى الجملة كفروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم من المسلمين واعتبروا دارهم دار كفر ، وأباحوا أموالهم ودماءهم ، وحتى قتل أطفالهم(٩) . المبدأ الثانى الذى قامت عليه نظرية الخوارج ، هو وجوب الخروج على الإمام الجائر(١٠) ، وهنا وجه الخطورة فى حركتهم كلهــا ، فلو اقتصروا على الخلاف النظرى فى الراى ، أو الجدال بالحجة والبرهان ، لكان الأمر أهون ، ولكنهم شهروا السلاح فى وجه مخالفيهم ، بدءا من على بن أبى طالب ، وحاولوا فرض آرائهم ومذهبهم بالقوة ، وكما تطرفوا إلى ابعد حد فى الراى والمذهب ، فقد تطرفوا فى اللجوء إلى القوة والعنف ، وكبدوا الأمة وانفسهم خسائر فادحة ، وعكروا صفو الدولة الأموية ، وكانوا من أشد مناوئيها . يقول الدكتور النجار :

« ولم يكن الخوارج إلا فئة من الناس خدعوا بالسراب فرأوا أن الحق فى جانبهم وحدهم . وأن الناس جميعا ليسوا على شيء ، ولذا قالوا بكفر كل من يخالفهم من المسلمين ، بل لقد كانوا يرون الكفار المشركين أحسن حالا من المسلمين المخالفين لمبادئهم »(١١) ومما يدل على ذلك قصتهم مع واصل بن عطاء ، أحد شيوخ المعتزلة ، فقد وقع يوما فى أيديهم هو وبعض أصحابه ، فخافوهم على انفسهم عندما ســـالوهم من أنتم فقالوا : نحن مشركون مستجيرون(١٢) . فتركوهم ونجوا بذلك من اذاهم .

---

(٧) ابو الحسن الأشعرى — مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٨٩
(٨) د. محمد الطيب النجار — المرجع السابق ص ٨٧
(٩) أبو الحسن الأشعرى — المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٩ ، ١٨٩
(١٠) د. محمد ضياء الدين الريس — المرجع السابق ص ٦٧
(١١) المرجع السابق ص ٨٨
(١٢) المبرد — الكامل جـ ٣ / ١٦٤ — يحدث هذا مع أحد رؤوس المعتزله مع أن أفكار ومبادىء المعتزلة اقرب ماتكون إلى فكر الخوارج — انظر مقالات الاسلاميين جـ ١ / ١٨٩

ومع خطورة أفكار الخوارج ، التى لا زالت تجد لها مكانا فى عقول بعض شباب المسلمين ، الذين يكفرون المجتمع المسلم كله لقلة فهمهم لروح الإسلام، الا أننا لا نستطيع أن نحكم عليهم بالكفر ، واصدق وصف لهم ما قاله لهم عمر بن عبد العزيز ، « أردتم الآخرة واخطأتم طريقها »(١٣) فضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

اشهر فرق الخوارج

ظل الخوارج فرقة واحدة يتبنون أفكارا ومبادىء واحدة بصفة عامة إلى ما بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ . ولكنهم منذئذ بدأوا ينشقون على انفسهم وكلما اختلف أحدهم مع رفاقه فى الرأى ، انشق عنهم مكونا له فرقة خاصة ، حتى وصل عدد فرقهم إلى أكثر من ثلاثين فرقة(١٤) . ورؤوس هذه الفرق وأشهرها خمس :

١ — **الأزارقة** : وهم اتباع نافع بن الأزرق ، الذين يعدون اشد فرقهم تطرفا فى الأفكار والمبادىء وجنوحا إلى العنف ، وكان زعيم هذه الفرقة هو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه ، فقد برىء من القاعدين،الذين لايخرجون معه للقتال،كما قال بكفر من لم يهاجر إليه(١٥) . فضلا عن إباحته أموال ودماء مخالفيه ، وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده فى النار .

٢ — **النجدات** : وهم اتباع نجدة بن عامر الحنفى ، وهم أقل تطرفا من الازارقة ولا يقولون بتكفير مرتكب الكبيرة(١٦) .

---

(١٣) المسعودى — مروج الذهب ج ٣ / ٢٠١.
(١٤) انظر مقالات الإسلاميين للاشعرى ج ١ / ١٥٧ وما بعدها .
(١٥) المصدر السابق ج ١ / ١٥٨
(١٦) نفسه ١ / ١٥٧

٣ — **البيهسية** : ينسبون الى بيهس ، واسمه هيصم بن جابر من بني سعد بن ضبيعة بن قيس(١٧) . وهم اقل تطرفا من الأزارقة ، ويزعمون ان مخالفيهم تجرى عليهم احكام المنافقين ، يجوز جوارهم وزواجهم وميراثهم .

٤ — **الصفرية** : اتباع زياد بن الأصفر، وهم لايوافقون الأزارقة على تعذيب الأطفال(١٨) .

٥ — **الإباضية** : اتباع عبد الله بن إباض ويختلفون عن الأزارقة فى أنهم لا يرون اعتراض الناس بالسيف ، ولكنهم يرون إزالة ائمة الجور ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأى شىء ، بالسيف أو بغيره(١٩) .

وليس من شأن هذه الدراسة أن تدخل فى تفاصيل مبادىء الخوارج وافكارهم ، ومسائل الخلاف بينهم وبين الفرق الإسلامية الأخرى ، أو فيما بينهم وبين أنفسهم(٢٠) .

وإنما قصدنا هنا أن نبين إلى أى مدى وصل الخوارج فى مناوءة الدولة الأموية ، وشن الحرب عليها دون هوادة ، وما صحب ذلك من نتائج كان لها أثرها البعيد فى حياة هذه الدولة .

---

(١٧) ابن قتيبة — المعارف ص ٦٢٢ ، والاشعرى — المصدر السابق ١ / ١٧٧

(١٨) الأشعرى المصدر السابق ١ / ١٦٩

(١٩) المصدر السابق ١ / ١٨٩

(٢٠) أهم المسائل التى دار حولها جدل الخوارج وخلافاتهم ، هى : الجهاد أو القعود عنه ؟ التقية او المجاهرة ؟ البحث فى دار المخالفين ، أدار حرب أم دار سلام ؟ وكيف تكون المعاملة معهم ؟ من مبايعة وموارثة ونسب . الخ وهل تجوز الإقامة بينهم ؟ وهل الكفر نوع أم أنواع ؟ وما حكم أطفال المشركين وأموالهم ، وهكذا خلطوا أبحاث العقيدة بالمسائل الفقهية ، وكان لكل فرقة آراؤها الخاصة بها حول هذه المسائل . راجع حول كل هذا المصدر السابق ١ / ١٥٦ — ١٩٦ — والدكتور محمد ضياء الدين الريس — المرجع السابق ص ٦٨

ثورات الخوارج

ذكرنا قبل قليل ان خطورة حركة الخوارج تكمن فى لجوئهم إلى الثورة والعنف ، ولشدة إيمانهم بمبادئهم فقد ضحوا فى سبيلها بأرواحهم ، وأبدوا كثيرا من ضروب الشجاعة والإقدام فى حروبهم مع الدولة الأموية ، وكانوا اشبه بالفرق الإنتحارية ، فكثيرا ما كانت اعـداد قليلة منهم تهزم جيوشا جرارة للدولة ، ولو ان هذه الشجاعة والإقدام والتضحية اتجهت اتجاها سليما ، ووحد الخوارج جهودهم مع جهود الدولة فى محاربة أعداء الإسلام لربما تغير وجه التاريخ الإنسانى كله بشكل جذرى . والغريب أنهم لم يكونوا طلاب دنيا ، ولم يجروا وراء المادة ، وإنما اخلصوا للفكرة التى آمنوا بها وملكت عليهم جوانب حياتهم(٢١) ، فأفنوا انفسهم ، وكلفوا الدولة الأموية الكثير من الجهد والوقت والمال والأرواح . وإذا كان الخوارج قد خرجوا على امامهم على بن ابى طالب وكفروه وحاربوه ، فسيكون موقفهم من الدولة الأموية أعنف وبغضهم لها اشد . فقد شهروا السلاح فى وجهها من أول لحظة فثاروا على معاوية قبل أن يغادر الكوفة فى عام الجماعة ٤١ هـ . وكان أول من ثار عليه عبد الله بن ابى الحوساء،بالنخيلة(٢٢) . فبعث إليه معاوية خالد بن عرفطة العذرى ، فى جمع من أهل الكوفة فهزم جمعه ، وقتل ابن ابى الحوساء فى جمادى الأولى سنة ٤١ هـ(٢٣) .

وبعد القضاء على ثورة ابن أبى الحوسـاء ، خرج حوثرة بن ذراع الأسدى ، فأرسل إليه معاوية عبد الله بن عوف بن أحمر فى ألف جندى ،

---

(٢١) لعـل خير ما يصـور حـال الخوارج وعزوفهم عن الدنيـا واستغراقهم فى العبادة ، وتفانيهم فى سبيل مبـادئهم ، وصف أبى حمزة الخارجى لهم . انظر فى ذلك الطبرى — تاريخ ، ٣٩٦/٧ — ٣٩٧ — ولولا تطرف هذه الفرقة فى الأفكار وجنوحها إلى العنف لكان لهـا فى التـاريخ الإسلامى مكان غير الذى كان .

(٢٢) النخيلة موضع قرب الكوفة على سمت الشام — انظر — ياقوت معجم البلدان — ٢٧٨/٥

(٢٣) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٠٣ — ٢٠٤

فقضى على ثورته وقتله فى جمادى الآخرة من نفس العام(٢٤) .

ثم خرج فروة بن نوفل الأشجعى ، فى خمسمائة من الخوارج ، فأرسل إليه معاوية جمعا من اهل الشام ، ولكن الخوارج ، وهم فى قلة عددهم ، هزموا اهل الشام وكشفوهم . فقال معاوية لأهل الكوفة : « لا امان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم . فخرج اهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم »(٢٥) وكانت أشجع قد اخذوا صاحبهم فروة ، فاستعمل الخوارج بدله عبد الله بن ابى الحر — رجلا من طىء — فقاتلوا فقتلوا(٢٦) .

وفى سنة ٤٣ هـ خرج خارجى آخر هو المستورد بن جوين الطائى ، والغريب أن خروجه كان فى اثناء ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة ، الذى انتهج سياسة سلمية هادئة ، ولم يشأ أن يزيد جراح العراقيين اتساعا ، يقول الطبرى : « وبعث — معاوية — المغيرة بن شعبة واليا على الكوفة ، فأحب العافية ، واحسن فى الناس السيرة ، ولم يفتش اهل الأهواء عن أهوائهم ، وكان يؤتى فيقال له : إن فلانا يرى رأى الشيعة ، وإن فلانا يرى رأى الخوارج ، فكان يقول : قضى الله ألا تزالوا مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون . فأمنه الناس »(٢٧) كان خليقا بهذه السياسة أن تجعل الخوارج يميلون إلى الهدوء ويبتعدون عن العنف ، ولكنها على العكس أغرتهم بالخروج والتمرد ، فلما خرج المستورد، لم يجد المغيرة بدا من قتاله لتخليص الناس من شروره وشرور أمثاله ، وقد دلت الأحداث على أن أهل الكوفة رغم عدائهم للدولة الأموية ، إلا انهم ملوا حركات الخوارج،وساءهم إفسادهم فى الأرض وإراقتهم للدماء فلما دعا المغيرة رؤساءهم وقال لهم : « إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين وسوء الرأى ، فمن ترون أبعث إليهم ؟ .. فقام إليه عدى بن حاتم ، فقال : كلنا

---

(٢٤) المصدر السابق — ص ٢٠٤

(٢٥) الطبرى — تاريخ ١٦٦/٥

(٢٦) المصدر السابق ١٦٦/٥

(٢٧) المصدر السابق ١٧٤/٥

لهم عدو ، ولرأيهم مسفه ، وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار إليهم »(٢٨)
ثم قال معقلبن قيس ، وهو من زعماء الكوفة ومن أنصار على السابقين :

« إنك لاتبعث إليهم احـــدا ممن ترى حولك من أشراف المصر ، إلا وجدته سامعا مطيعا ، ولهم مفارقا ، ولهلاكهم محبا ، ولا أرى اصلحك الله أن تبعث إليهم أحـــدا من الناس أعدى لهم . ولاأشد عليهم منى ، فابعثنى إليهم ، فإنى اكفيكهم بإذن الله ، فقال : أخرج على اسم الله ، فجهز معه ثلاثة آلاف رجل »(٢٩) .

وظل معقل يتعقب المستورد وأصحابه ، ودارت بينهم عدة معارك ، وفى النهاية هزم الخوارج عند ســـاباط(٣٠) . وقتل المستورد ومعقل كل منهما صاحبه(٣١) .

وهكذا أثبت المغيرة للخوارج أنهم كانوا مخطئين عندما ظنوا لينـــه وتسامحه ضعفا . وأنه لن يسمح لأحد أن يهدد سلطان الدولة .

ازداد الضغط على الخوارج منذ ولى معاوية زياد بن أبى سفيان البصرة سنة ٤٥ هـ فزياد معروف بسياسة الحزم والقـــوة ، والحرص الشديد على استقرار الأمن والنظام ، فأخـــذ هو والمغـــيرة ، يتعقبان الخوارج ويضربان على أيديهم بيد من حـــديد . ولما توفى المغيرة سنة ٥١ هـ ، جمع معاوية الكوفة مع البصرة لزياد ، وأصبح سيد الموقف فى المشرق كله ، استمر على سياسته الحازمة القوية تجاه الخوارج ، فلم تقم لهم طيلة ولايته قائمة(٣٢) ، وبعد وفاة زياد سنة ٥٣ هـ ، حمل لواء

---

(٢٨) المصدر السابق ١٨٨/٥
(٢٩) المصدر السابق ١٨٨/٥
(٣٠) ساباط ، موضع بالقـــرب من المدائـــن — ياقوت — معجم البلدان ١٦٦/٣
(٣١) الطبرى — المصدر الســـابق ٢٠٩/٥ وابن الأثير — الكامل فى التاريخ ٤٣٦/٣
(٣٢) د. محمد الطيب النجار — المرجع السابق ص ٩٣

مقاومة الخوارج ابنه عبيد الله فقد ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥ هـ(٣٣) فاشتد فى تعقبهم ومعاقبتهم اكثر مما كان يصنع أبوه ، فقتل منهم أعدادا كبيرة ،(٣٤) ومما يدل على قسوته فى معاملتهم ، قتله عروة بن أدية ، الذى كان ينتقده ويتناوله بلسانه ، فقبض عليه ، وأمر بقطع يديه ورجليه ، وقال له : كيف ترى ؟ قال : « أرى انك افسدت دنياى وافسدت آخرتك ، فقتله ، وأرسل إلى ابنته فقتلها »(٣٥) هذه المعاملة القاسية التى لقيها عروة ابن أدية من عبيد الله بن زياد أدت إلى خروج أخيه أبى بلال مرداس بن أدية وثورته بالأهواز ، والعجيب أن مرداسا استطاع بأصحابه الذين لم يكن عددهم يزيد عن الأربعين رجلا أن يهزم عدة جيوش أرسلها إليه ابن زياد ، منها جيش كان على رأسه ابن حصن التميمى ، وكانت عدته ألفين ، فهزمهم مرداس وأصحابه ، وقال فيهم شاعرهم :

األفـــــا مؤمن منكـــــم زعمتم	**ويقتلهــم بآســـك أربعــونا**
كذبتــم ليس ذاك كما زعمتـــم	**ولكن الخـــــوارج مؤمنونــا**
هى الفئـــة القليلة قـــد علمتــم	**علـــى الفئـــة الكثيرة ينصرونــا**

ظل مرداس بن أدية ثلاث سنوات من ٥٨ هـ إلى سنة ٦١ هـ يقاوم جيوش ابن زياد ويهزمها الواحد بعد الآخـــر ، وفى النهاية أرسلَ إليــه جيشا قوامه ثلاثة آلاف عليهم عباد بن الأخضر التميمى ، فاستطاع هزيمة مرداس وأصحابه وقتلهم جميعا بتوج سنة ٦١ هـ(٣٦) .

ولما اشتد عبيدالله بن زياد على الخـــوارج ، وأسرف فى قتلهم ، اضطر كثيرون منهم إلى الخـــروج من البصرة ، فانحـــاز قسم منهم إلى عبدالله بن الزبير فى مكة ، ليدافعوا معه عن الكعبة ضد جيش مسلم بن عقبة المرى ، الذى سار إليها بعد موقعة الحـــرة فى نهاية سنة ٦٣ هـ .

---

(٣٣) الطبرى — تاريخ ٥/٢٩٩
(٣٤) المصدر السابق ٥/٣١٢
(٣٥) المصدر السابق ٥/٣١٤
(٣٦) المصدر السابق ٥/٤٧١

ولكنهم مالبثوا أن انشقوا على ابن الزبير لما عرفوا أنه لايوافقهم على آرائهم ، وبصفة خاصة فى تكفير عثمان بن عفان والبراءة منه(٣٧) . وعادوا من مكة منقسمين على انفسهم ، فخرج نجدة بن عامر الحنفى إلى اليمامة ، وعاد نافع بن الأزرق إلى البصرة مكونين فرقتى النجدات والأزارقة ، ولعل هذا أول انقسام فى صفوفهم . أما النجدات فقد كونوا لهم دولة فى اليمامة والبحرين ، اتسع نفوذها إلى اليمن والطائف ، وظلت تصارع الأمويين حتى قضى عليها عبد الملك ابن مروان سنة ٧٣ هـ(٣٨) .

أما الأزارقة ، فعند عودتهم إلى البصرة بعد وفاة يزيد بن معاوية ، فى ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . كان الأمن فيها قد اضطرب اضطرابا شديدا، وعجز عبيد الله بن زياد عن السيطرة على الموقف ، فاضطر إلى الهرب منها(٣٩) .

ولما رأى أهل البصرة خطر الخوارج يقترب منهم ، فزعوا وانزعجوا لما يعلمونه عنهم من عنف وتطرف وإفساد فى الأرض ، فاجتمع زعماؤهم للتشاور والاتفاق على دفع هذا الخطر ، واتفقوا على تكوين جيش عدته عشرة آلاف ، أمروا عليهم مسلم بن عبيس القرشى ، فاستطاع أن يطاردهم إلى الأهواز ، ولكنه قتل فى معركة معهم عند دولاب ، وقتل أيضا نافع بن الأزرق زعيم الخوارج وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ(٤٠) فولوا مكانه عبد الله بن الماحوز ، فلم يلبث أن قتل فى إحدى المعارك . فولوا بعده أخاه عبيد الله بن الماحوز ، فاستطاع هزيمة أهل البصرة ، فلما رأى أهلها تفاقم الخطروعجز القواد عن صد هذا الخطر ،

---

(٣٧) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٥٣ ، وانظر الطبرى — تاريخ ٥٦٦/٥

(٣٨) انظر الطبرى — تاريخ — ١٩٣/٦ وابن الأثير — الكامل ٣٦٢/٤ .

(٣٩) انظر الطبرى — تاريخ — ٥٢١/٦ وابن الأثير — الكامل ١٢٩/٤

(٤٠) الطبرى ٦١٤/٥ وابن الأثير ١٩٥/٤

فزعوا إلى واحــد من خيرة الرجال ليتولى قيادتهم فى قتال الخوارج ، وإبعاد خطرهم عن البصرة ، إنه : المهلب بن ابى صفرة .

كان المهلب عندما وقــع عليه هــذا الاختيار قادما من مكة من عند عبد الله بن الزبير ، الذى كان قد أعلن نفسه خليفة ، وقد ولاه خراسان ، فلماعرض عليه أهل البصرة قيادتهم لقتال الخوارج اعتذر لهم بعهده على خراسان ، ولكنهم ألحوا عليه ، وكتبوا كتابا إلى ابن الزبير يطلبون منه أن يوافق على تصدى المهلب للخــوارج ، فوافق على ذلك(٤١) . وتحت إلحــاح أهل البصرة قبل المهلب القيام بالمهمة بشروط اشترطها عليهم ، وهى ان يأخذ من بيت المال مايقوى به على قتال الخوارج ، وأن يكون له ماغلب عليه من البلاد ، فوافقوا على ذلك(٤٢) ، فاختار أثنى عشر ألفــا من أهل النجدة والشجاعة من أهل البصرة ، وتمكن المهلب بما أوتى من شجاعة وبسالة وعبقرية فى القيادة أن يبعدهم عن البصرة ، ودارت بينه وبينهم عدة معارك كان النصر حليفه فيها ، وظل يلاحقهم حتى تفرقــوا فى أقاليم الأهواز وفارس وكرمان(٤٣) .

استمر المهلب يقاوم الخــوارج مايقرب من عامين ، ثم استدعــاه مصــعب بن الزبير — الــذى أصبح والى البصرة من قبل أخيه عبد الله — ليشترك معه فى حرب المختــار الثقفى ســنة ٦٧ هـ . وبعد هزيمة المختارعين مصعب الهلب واليــا على الموصــل والجزيرة وأذربيجــان وأرمينية(٤٤) ، ولكن أحــدا لم يستطع أن يقــوم مقــام المهلب فى مقاومة الخوارج ممــا اضطر مصعبا أن يستدعيه من الموصــل ليتولى قتالهم من جديد(٤٥) ، وبينما المهلب يقاوم الخوارج فى الأهواز تمكن عبد الملك بن

---

(٤١) الطبرى — تاريخ ٦١٦/٥
(٤٢) المصدر السابق ٦١٦/٥
(٤٣) المصدر السابق ٦١٩/٥ ومابعدها . وانظر ثابت الرواى — العراق فى العصر الأموى ص ٢٣٣
(٤٤) الطبرى — تاريخ ٦ — ١١٦
(٤٥) المصدر السابق ٦ — ١٢٧

مروان من استعادة سيطرة الدولة الأموية على العراق ، بعد مقتل مصعب ابن الزبير سنة ٧٢ هـ(٤٦) ، وولى أخاه بشر بن مروان على العراق وامره بإبقاء المهلب على حرب الخوارج ومساعدته ، فعمل بشر بما أمره به أخوه . وبرهن المهلبعلى إخلاصهفى حرب الخوارجالأزارقة مهما كانت السلطةالتى تصدر إليه الأوامر(٤٧) ، فكما قاتلهم تحت لواء آل الزبير استمر يقاتلهم تحت لواء عبد الملك ، ولما اسندت ولاية العراق إلى الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٧٥ هـ جد فى مساعدة المهلب وحشد له العراقيين وشد أزره ، فاشتد فى مقاومتهم حتى تمكن من القضاء على خطرهم ، وقد أتاح له الخوارج أنفسهم فرصة كسر شوكتهم عندما انقسموا على أنفسهم قسمين ، قسم تزعمه رجل اسمه عبد ربه الكبير ، وقسم ظل تحت قيادة قطرى بن الفجاءة(٤٨) . أما مجموعة عبد ربه فقد قضى عليها المهلب نهائيا(٤٩) ، وأما قطرى بن الفجاءة ومجموعته فقد رحلوا إلى طبرستان ، ولكن المهلب تمكن من القضاء عليهم سنة ٧٧ هـ . بمساعدة جيش أرسله إليه الحجاج بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى(٥٠) ، وهكذا قضى المهلب على خطر من اكبر الأخطار التى هددت الدولة الأموية فى عهد عبد الملك بن مروان ، وهم الخوارج الأزارقة الذين كان مسرح عملياتهم العراق وبلاد فارس وكرمان والأهواز، وأستمرت حركتهم ثلاثة عشر عاما ٦٥ — ٧٨ هـ .

ثورة شبيب بن يزيد :

قبل أن يتم للمهلب القضاء على الأزارقة ، واجهت الحجاج ثورة خارجية أخرى قام بها الخوارج الصفرية من الموصل فى شمال العراق ، وكانت ثورة خطيرة جدا ، فقد تمكن قائدها شبيب بن يزيد من هزيمة العديد من جيوش الحجاج الجرارة وهو فى عدد قليل ، وتمكن من دخول الكوفة(٥١)

---

(٤٦) المصدر السابق ٦ — ١٦٠
(٤٧) ثابت الراوى — المرجع السابق ص ٢٣٣ — ٢٣٤
(٤٨) الطبرى — المصدر السابق ٦ — ٣٠١
(٤٩) المصدر السابق ٦ — ٣٠٤
(٥٠) المصدر السابق ٦ — ٣٠٩ وما بعدها
(٥١) المصدر السابق ٦ — ٢٢٤ وما بعدها

والصلاة فى مسجدها ، وقتل عددا من أشرافها ، ولكنه لم يتمكن من البقاء فيها فخرج منها ، ثم عاد إليها ثانية وضرب عليها الحصار(٥٢) ، بعد أن هزم جيشا للحجاج عدته أربعون ألفا ، وقتل قائده عتاب بن ورقاء ، وهو فى ستمائة رجل(٥٣) ، ولما يئس الحجاج من اهـل الكوفة لتقاعسهم عن القتال وهالته هزائمهم المتكررة وهم فى أعداد كبيرة أمام شبيب وهو فى أعداد قليلة . أرسل إلى عبد الملك بن مروان يطلب مددا من أهل الشام ، واضطر الحجاج أن يقود الجيش بنفسه ، واستطاع هزيمة شبيب لأول مرة ، فلاذ بالأهواز ، فأرسل الحجاج خلفه جيشا التقى به هناك ، ولم تكن النتيجة حاسمة لأى من الفريقين ، غير أن شبيبا غرق بينما كان يعبر أحد الأنهار ، فوضع القدر نهايته وكان ذلك سنة ٧٧ هـ وبهذا تخلص منه الحجاج بعد أن كبد الدولة كثيرا من الأموال والأرواح(٥٤) .

شوذب الخارجى :

كانت الضربات الموجعة والمتلاحقة التى كالها المهلب بن أبى صفرة والحجاج بن يوسف الثقفى للخوارج من القوة بحيث كسرت شوكتهم وأخمدت أنفاسهم ، فاستكانوا فترة طويلة ، مدتها اثنان وعشرون عاما ٧٨ — ١٠٠ هـ فلم نسمع لهم حسا ولم نر لهم حركة طوال ما تبقى من عهد عبد الملك بن مروان ، وعهدى ولديه الوليد وسليمان . وفجأة تحركوا من جديد بزعامة شوذب ، واسمه بسطام اليشكرى سنة ١٠٠ هـ . والعجيب أن حركتهم الجديدة هذه جاءت فىعهد رجل اشتهر بالصلاح والعدل ، وهو عمر بن عبد العزيز . فلما علم عمر بخروجهم أرسل إلى واليه على الكوفة عبدالحميد ابن عبد الرحمن،أن يختار قائدا كفأ لمواجهتهم ولكن لا يهيجهم ولا يقاتلهم إلا

---

(٥٢) المصدر السابق ٦ — ٢٦٧ وما بعدها

(٥٣) ثابت الراوى — المرجع السابق ص ٢٣٨

(٥٤) المرجع السابق ص ٢٣٨ وراجع تفاصيل ثورة شبيب وحروبه مع الحجاج فى الطبرى جـ ٦ — ٢٢٤ — ٢٥٦ ، ٢٦٧ — ٢٨٤

إذا قاتلوه(٥٥) . وفى الوقت نفسه قرر عمر أن يجرب معهم أسلوب الحوار بالحجة والبرهان ، بدلا من الصراع بالسيف والسنان ، فأرسل إلى زعيمهم شوذب يعرض عليه ذلك ، وطلب منه إرسال وفد من عنده للمناظرة، فقبل شوذب وأرسل إلى عمر رجلين من أصحابه ، فناظراه وناظرهما وأقام عليهما الحجة فى معظم المسائل التى عرضت للمناقشة فاقتنعا بمنطقه ، عدا مسألة واحدة ظهر أن حجتهم فيها أقوى من حجة عمر ، وهى ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك . فطلب عمر منهما إعطاءه فرصة للتفكير ، ولكنه توفى قبل أن تحل هذه المسألة(٥٦) . فلما بويع يزيد بن عبد الملك فى سنة ١٠١ هـ . أقر عبد الحميد بن عبد الرحمن على ولاية الكوفة ، فأراد أن يتقرب إلى يزيد بقتالهم ، فأرسل إليهم محمدبن جرير البجلى ، فأنشب معهم القتال ، فعلموا أنه ما صنع ذلك إلا لوفاة عمر ، ودارت الحرب ، وانتصر شوذب وجماعته القلية على جيش محمد بن جرير ، كما هزموا جيشين آخرين أرسلهما يزيد ابن عبد الملك(٥٧) . فلما رأى أهل الكوفة ذلك خافوا خطر الخوارج ، ففزعوا إلى مسلمة بن عبد الملك ، الذى كان قد وصل إلى الكوفة للقضاء على ثورة يزيد بن المهلب . فأرسل مسلمة جيشا عدته عشرة آلاف بقيادة عمرو ابن حريث ، فتمكن من القضاء على شوذب وأصحابه وقتلهم جميعا(٥٨) ،

آخر ثورات الخوارج فى العهد الأموى :

ظهرت حركات صغيرة للخوارج فى عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ — ١٢٥ هـ . مثل حركة بهلول بن بشر ، وحركة الصحارى بن شبيب سنة ١١٩ هـ ، فقضى خالد بن عبد الله القسرى ، والى العراق على الحركتين . وقتل زعيميهما(٥٩) . ثم شهد عهد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين

---

(٥٥) انظر الطبرى — تاريخ ٦ — ٥٥٥ — ٥٥٦

(٥٦) المصدر السابق ٦ — ٥٥٦ . وقد أشرنا إلى هذه المسألة فى ترجمة عمر بن العزيز .

(٥٧) المصدر السابق ٦ — ٥٧٦

(٥٨) المصدر السابق ٦ — ٥٧٧

(٥٩) انظر الطبرى جـ ٧ — ١٣٠ وما بعدها وص ١٣٧ وما بعدها

١٢٧ — ١٣٢ هـ ، آخر وأخطر حركتين للخوارج وهما ثورة الضحاك بن قيس الشيبانى ، وأبى حمزة الخارجى .

ثورة الضحاك بن قيس الشيبانى :

ذكرنا فيما سبق الظروف التى تولى فيها مروان بن محمد الخلافة ، وكيف انقسم أبناء البيت الأموى على أنفسهم ، قسم مع مروان ، وقسم ضده ، وتبع ذلك انقسام القبائل العربية فظاهرت قيس مروان ووقفت إلى جانبه ، بينما انضم اليمنيون إلى خصومه . وبينما كان مروان يكافح لتثبيت حكمه وتدعيم مركزه ، ويخوض الحروب ضد أبناء عمومته ، قام الخوارج الصفرية بثورتهم فى العراق بزعامة الضحاك بن قيس ، منتهزين فرصة انشغال مروان بالقتال فى جهات أخرى فى الشام ،

قاد الضحاك أصحابه الذين كانوا قلة فى البداية ، ثم أخذت أعدادهم تتزايد بسرعة وقصد بهم الكوفة التى كانت آنئذ محل نزاع بين عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وهو من خصوم مروان ، والذى كان ولاه عليها يزيد ابن الوليد ويظاهره اليمنيون ، وبين الوالى الذى عينه مروان بن محمد ، وهو النضر بن سعيد الحرشى ومعه المضريون ، ودارت بينهما حروب انتصر فيها النضر وتمكن من دخول الكوفة ، فلاذ عبد الله بن عمر بالحيرة(٦٠)،فلما داهم الضحاك الكوفة بقواته ، وحد النضر وعبد الله بن عمر قواتهما لمواجهته،ولكنه استطاع هزيمتهما ودخول الكوفة.فاضطرا إلى اللجوء إلى واسط(٦١) والعجيب أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بايع الضحاك الخارجى ، ونقض بيعه ابن عمه مروان،وتبعه فى ذلك سليمان بن هشام بن عبد الملك(٦٢) ، الذى كان فر من حمص أمام مروان — كما أشرنا سابقا — وهكذا بلغ الخبال وسوء التقدير بأبناء البيت الأموى أن ينضموا إلى أعدى أعداء دولتهم ، ولم يراعوا مصلحتهم ، ولم يدركوا أن الدائرة ستدور عليهم جميعا فى نهاية الأمر !

---

(٦٠) الطبرى — تاريخ— ج ٧ — ٣١٦ — ٣١٧ ، ابن الأثير : الكامل ٥ — ٣٣٥

(٦١) الطبرى — ٧ — ٣١٧

(٦٢) ابن الأثير ٥ — ٣٣٧

اشتدت حركة الضحاك ، وقوى ساعده بانضمام بعض الأمويين إليه ، فكاتبه أهل الموصل ، وطلبوا منه المسير إليهم ، فسار إليها ، وقد كثر أتباعه حتى صاروا أكثر من مائة ألف(٦٣) ، وهو عدد لم يجتمع تحت قيادة زعيم خارجي طوال العهد الأموى كله ، علم مروان بثورة الضحاك وهو فى حمص، فكتب إلى ابنه عبد الله ، وهو بالجزيرة أن يسير إلى نصيبين،ليمنع الضحاك من توسط الجزيرة ، فسار إليها فى حوالى ثمانية آلاف رجل ، ولكن الضحاك استطاع بقواته الكبيرة حصاره فيها ، الأمر الذى جعل مروان يسير إليها بنفسه على عجل ، ودارت بينه وبين الضحاك معركة شرسة عند كفر توثا من أعمار ماردين ، فدارت الدائرة على الخوارج ، وقتل الضحاك ، وبعث مروان برأسه إلى مدائن الجزيرة فطيف به فيها(٦٤).بعد مقتل الضحاك بايع الخوارج زعيما جديدا يسمى الخيبرى فقتل أيضا(٦٥).فولوا ثالثا هو شيبان ابن عبد العزيز الحرورى ، فأشار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، الذى كان قد تزوج أخته ، أن يسير إلى الموصل ، فسار إليها فى نحو أربعين الفا ، لكن مروان تمكن من هزيمته بعد قتال استمر ستة شهور وقيل تسعة فهرب إلى سجستان فهلك هناك سنة ١٣٠ هـ(٦٦)

ثورة أبى حمزة الخارجى :

قبل أن ينتهى مروان من القضاء على ثورات الخوارج فى العراق والجزيرة،نشبت ثورة خوارج جنوب الجزيرة العربية،بقيادةالمختاربن عوف الأزدى ، الملقب بأبى حمزة ، الذى اتصل بعبد الله بن يحيى ، المعروف

---

(٦٣) المصدر السابق جـ ٥ — ٣٤٩

(٦٤) الطبرى — التاريخ ٧ — ٣٤٦ — وابن الأثير — الكامل جـ ٥ — ٣٤٩

(٦٥) الطبرى — التاريخ ٧ — ٣٤٦ — وابن الأثير — الكامل جـ ٥ — ٣٥٠

(٦٦) الطبرى — تاريخ ٧ — ٣٨٥ — وابن الأثير — الكامل جـ ٥ — ٣٥٥

بطالب الحق ، وبايعه وكان ذلك فى آخر سنة ١٢٨ هـ(٦٧) . بدأت ثورة أبى حمزة من حضرموت ، ثم زحفَ على مكة والمدينة واستولى عليهما . ثم سار متجها إلى الشـــام ، ولكن مروان رغم المشاكل الخطيرة التى كان يواجهها لم يغفل أمر أبى حمزة ، فأرسل إليه جيشا عدته أربعة آلاف بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى ، فالتقى معـــه فى وادى القرى ، ودارت الحرب بينهما فقتل أبو حمزة وهـــزم أصحابه ، وكان ذلك ســـنة ١٣٠ هـ(٦٨) .

وهكذا قضى مروان بن محمد على حركات الخوارج فى عهده ، ولكن بعد أن أنهكوا قوته وكبدوه خسائر فادحة . فلم يستطع الصمود أمام زحف العباسيين . والآن هل لنا أن نسأل أية فائدة عادت على الأمة الإسلامية من جراء هذه الثورات التى أشعلها الخوارج ضد الدولة الأموية ، الحق أنه لا فائدة ، بل خسائر ودماء ودمار ، والأخطر من ذلكَ كله فكر متطرف خلفه الخوارج لا يزال يضلل عقولَ شباب المسلمين ويدفعهم إلى الثورة والتمرد على المجتمعات الإسلامية .

---

(٦٧) الطبرى ٧ — ٣٤٨ وابن الأثير ٥ — ٣٥١
(٦٨) الطبرى ٧ — ٣٩٩ — وابن الأثير ٥ — ٣٩١

الشــــيعة

كلمة شيعة لها معانى عــديدة ، منها الأهل والأتبــاع والأنصار والأمثال ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة « وقد غلب هذا الإسم على من يتوالى عليا وأهل بيته ، رضوان الله عليهم أجمعين ، حتى صار لهم اسما خاصا ، فإذا قيل فلان من الشيعة عرف أنه منهم ، وفى مذهب الشيعة كذا أى عندهم »(٦٩) وقد نشأ التشيع بهذا المعنى بسيطا واضحا فى أول الأمر ، ثم لم يلبث أن تطور بمضى الزمن وأصبح مذهبا دينيا معينا، دخله التعقيد والغموض بفعل عناصر كثيرة دخلت الإسلام ظاهرا ولمــا يدخل الإيمان فى قلوبهم « وكان فيهم من يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية ، وفيهم من كان يريد أن يثور على الدولة الحاكمة ويهدمها لأنها دولة عربية ومسلمة ، وكل هؤلاء كانوا يتخــذون التشيع ستارا يخفون وراءه كل ماشاءت لهم أهواؤهم »(٧٠) وقد تبلور مذهب الشيعة ، أو بدأ يتبلور بعد استشهاد الحسين بن على رضى الله عنهمــا سنــة ٦١ هـ ، وتفرعت عنه فرق عــديدة ، مثل الإمامية والزيــدية والإسماعيلية ... الخ وكل فرقــة من هــذه الفرق تفرعت منهــا فرق أخرى(٧١) . وكان منهــا المعتدل كالزيدية ، ومنها المغالى الذى لم يكتف بتفضيل على رضى الله عنه على الصحابة أجمعين ، وبأنه معصوم ، بل ألهه(٧٢) . ولا يعنينا هنا أن نتتبع مبادىء الشيعة وأفكارهم وفرقهم ، وماطرأ على تفكيرهم فنقله من البساطة إلى التعقيد ، بل خرج به أحيانا من الحق والهدى إلى الباطل والضلال(٧٣) . وإنما يعنينا أن نتحدث عن أمرين ، الأول رأيهم فى الخلافة ، وهى الإمامــة عندهم ، والثــانى تتبع ثوراتهم باعتبارهم حزبا معارضــا للدولة الأمويــة ، فأما عن آرائهم فى

---

(٦٩) أنظر لســان العرب لابن منظور جـ ٥٥/٩ وابن خلدون — المقدمــة جـ٥٨٧/٢

(٧٠) د. محمد الطيب النجار — المرجع السابق ص ١١٤

(٧١) أنظر مقالات الإسلاميين للأشعرى جـ ٦٥/١ وما بعدها

(٧٢) أنظر المصدر السابق جـ ٨٢/١ — ٨٣ ، ٨٥ — ٨٦ وأنظر أحمد أمين فجر الإسلام ص ٢٦٩

(٧٣) د. محمد الطيب النجار — المرجع السابق ص ١١٤

الخلافة — الإمامة — فإن جمهور المسلمين متفقـون على أن الخلافة من الأمور العامة التى يفوض أمرها إلى الأمة ، او إلى اهل الحل والعقد منها يختـارون من يصلح لها وتجتمع فيه شروطها المعتبرة عندهم ، فهى من فروض الكفاية . كالجهاد وطلب العلم(٧٤) . بينما يرى الشيعة انها ليست من المصـالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعـين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولايجوز للنبى إغفاله ، ولاتفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه ، صلوات الله وسلامه عليه ، بنصوص ينقلونها ويؤلونهـا على مقتضى مذهبهم ، لايعرفها جهابذة السنة ولانقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة(٧٥) .

فمذهب الشيعة فى الإمامة إذن لا يستنـد إلى دليل يعتد به لا من الكتاب ولا من السنة . كما انه لا يستند إلى واقع تاريخى ، لأن الواقع التاريخى الثابت أن الصحابة بايعوا الخلفـاء الثلاثة قبل على ، وبايعهم على معهم ، ولم نسمع أن احدا قال عندها إن عليا هو الإمام بالوصية ، ولو كان على يعلم أنه إمام منصوص عليه ، لما سكت عن حقه ، وهو المعروف بالجراة والشجاعة ، ثم إن عليا نفسه قبل الخلافة بعد استشهاد عثمان تحت إلحاح الصحابة — كما تقدم — إنقاذا للأمة من الفتنة ، ولو كان يعلم انه إمام بالنص لما أنتظر أحـدا يعرضها عليه . ثم إن عليا نفسه عندمـا طعنه ابن ملجم رفض أن يعهد لابنه الحسن — كما قدمنا — بل رفض حتى أن يأمر أصحابه ببيعته ، فلو كانت الإمامة بالوصية للإمام ومنه إلى أولاده لعهد إلى الحسن من تلقاء نفسه ، بل لكان ذلك واجبا عليه ، وإذ لـم يفعل ، فلا وصية إذن ولانص . لكل ذلك يكون مذهب الشيعة فى الإمامة باطلا ولا يقوم على اى أساس . هذا عن مذهبهم فى الإمامة بإيجاز . وننتقل الآن إلى الأمر الثـانى وهو :

---

(٧٤) الماوردى — الأحكام السلطانية ص ٥ وابن خلدون — المقدمة المقـدمة ج ٥٨١/٢

(٧٥) ابن خلدون — المقدمة ج ٥٨٧/٢ وانظر مقـالات الإسلاميين للأشـعرى ج٨٧/١

ثورات الشيعة ضد الدولة الأموية

ثورة الحسين بن على :

لم يقم الشيعة بأية ثورة مسلحة ضد معاوية بن أبى سفيان طوال خلافته ٤١ — ٦٠ هـ . وكل ماكان يحدث فى هذه الفترة انتقاد من بعض الشيعة لمعاوية أو لبعض ولاته ، كما حدث من حجر بن عدى ، حين اشتد وعنف فى نقده لزياد بن أبى سفيان فى الكوفة ، وكان من أمره ماذكرناه فى ترجمة معاوية ، أما الحسين بن على — الذى يعتبره الشيعة إمامهم وزعيمهم — فلم يتحرك ضد معاوية ولم يخرج عليه ، ولم يستجب لنداءات أهل العراق حين دعوه للخروج عليه(٧٦) . بل وفى له ببيعته التى كان أعطاه إياها مع أخيه الحسن ، وكان معاوية محسنا للحسين ولآل البيت جميعا ، قد وسعهم بكرمه وإحسانه . فلما توفى معاوية سنة ٦٠ هـ تغير الموقف ومن ثم تفجرت ثورة الحسين على يزيد بن معاوية .

كان الحسين عند وفاة معاوية بالمدينة المنورة ، فارسل يزيد إلى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان — والى المدينة — يعلمه بموت معاوية ويأمره باخذ البيعة له من الحسين بن على وعبد الله بن الزبير،فاستدعاهما الوليد ، واخبرهما بموت معاوية ، وطلب منهما البيعة ليزيد ، فاستمهلاه ولم يبايعا(٧٧) ، « وخرجا من ليلتهما إلى مكة ، فلقيهما ابن عباس وابن عمر — قادمين — من مكة ، فسألاهما ما وراءكما ؟ قالا : موت معاوية والبيعة ليزيد، فقال لهما ابن عمر : اتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين »(٧٨) ولكن ما إن وصل الحسين إلى مكة حتى توالت عليه رسل ورسائل أهل الكوفة ، تفيض حماسة وعاطفة ، وقالوا له : « إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى فأقدم علينا »(٧٩) وتحت إلحاحهم قرر الحسين

---

(٧٦) ثابت الراوى — العراق فى العصر الأموى ص ١٩٣
(٧٧) تاريخ خليفة بن خياط — ص ٢٣٣ والطبرى : تاريخ ٥ — ٣٤٣
(٧٨) الطبرى ٥ — ٣٤٣
(٧٩) المصدر نفسه ٥ — ٣٤٧ والمسعودى — مروج الذهب ٦ — ٦٤.

إرسال ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليستطلع الموقف ، وقال له :
« سر إلى أهل الكوفة فإن كان حقا ما كتبوا به عرفتنى حتى ألحق بك »
فخرج مسلم من مكة فى النصف من شهر رمضان حتى قدم الكوفة لخمس خلون من شوال(٨٠) سنة ٦٠ هـ . علم أهل الكوفة بوصول مسلم بن عقيل فتقاطروا عليه ، وبايعه منهم إثنا عشر ألفا ، وقيل ثمانية عشر ألفا(٨١) انخدع مسلم بحماس أهل الكوفة ، وشجعه تغافل النعمان بن بشير الأنصارى — والى الكوفة من قبل يزيد — عنه وعدم تعرضه له(٨٢)،فأرسل إلى الحسين ببيعة أهل الكوفة ، وان الأمر على مايرام ، وطلب منه القدوم ، لكن الأقدار كانت تخبىء شيئا آخر ، فإن أحد أنصار يزيد فى الكوفة لما رأى تقاعس النعمان عن التصدى لمسلم ومنعه من أخذ البيعة للحسين من أهل الكوفة ، كتب بذلك إلى يزيد ، فعزل النعمان من ولاية الكوفة وأسندها إلى عبيد الله بن زياد والى البصرة ، وامره بقتل مسلم بن عقيل(٨٣) . فجاء عبيد الله إلى الكوفة على عجل ، وبحث عن مسلم ، فأخبره عيونه بأنه يختبىء فى بيت أحد زعماء الكوفة وهو هانىء بن عروة المرادى ، فقبض عبيد الله بن زياد على هانىء ومسلم وقتلهما(٨٤).وهنا ظهر غدر أهل الكوفة وتخاذلهم ، فقد قتل هانىء ومسلم أمام أعينهم ولم يحركوا ساكنا ، وتنكروا لوعودهم للحسين ، واشترى ابن زياد ذممهم بالأموال . وراح مسلم ضحية تسرعه ، وعدم تثبته من ولاء أهل الكوفة وصدق عزائمهم . كما أن النعمان ابن بشير يتحمل نصيبه فيما حدث ، فلو أنه أظهر الحزم ومنع مسلما من الأتصال بأهل الكوفة كما يحتم عليه واجبه كوال مسئول عن الأمن فى الكوفة لربما تغير الموقف كله ، ولكان مسلم قد فكر فى الأمر ولم يبادر بطلب قدوم الحسين ، وربما لم تكن مأساة كربلاء قد حدثت أصلا . فلاشك أن النعمان — ربما بحسن نية — كان سببا من أسباب المأساة كلها .

---

(٨٠) المصدر نفسه ٥ — ٣٤٧ والمسعودى — مروج الذهب ٦ — ٦٤
(٨١) المصدر نفسه ٥ — ٣٤٨ والمسعودى — مروج الذهب ٦ — ٦٤
(٨٢) الطبرى : تاريخ ٥ — ٣٤٨
(٨٣) الطبرى : المصدر السابق ٥ — ٣٤٨
(٨٤) المسعودى — مروج الذهب ٣ — ٦٧ — ٦٩

خروج الحسين إلى الكوفة ونصيحة ابن عباس له بعدم الخروج :

عندما وصلت الحسين رســائل مسلم بن عقيل ببيعة أهل الكوفة وطاعتهم الكاذبة ، وازمع الرحيل إليها ، جاءه عبد الله بن عباس ، وقال له : « يا ابن عم ، إنك قد أرجف الناس انك سائر إلى العراق ، فبين لى ما انت صانع ؟ قال : إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى ، فقال له ابن عباس : فإنى أعيذك بالله من ذلك ، أخبرنى رحمك الله ! اتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم ، وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعمــاله تجبى بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ، ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشــد النــاس عليك ، فقال له الحسين ، وإنى استخير الله وانظر مــا يكون »(٨٥) كان كلام ابن عباس هو عين الحكمة والصواب ، وهو لم يقل ذلك من فراغ ، ولكن من واقع خبرته بأهل الكوفة وتقلباتهم وعدم صدقهم ، فقد رأى بنفسه — كما رأى الحسين ايضا — مواقفهم وصنيعهم مع على والحسن رضى الله عنهما ، ومن واقع حرصه على مصلحة الحسين وسلامته ، والحقيقة أنه لم يكن ابن عباس وحده هو الذى نصح الحسين تلك النصيحة الصادقة ، ولكن كان هناك كثيرون ، حتى من غير الهاشميين ، حريصون على سلامة الحسن ، ويتوجسون الشر من خروجه ، ومنهم عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، الذى رجا الحسين رجاء حارا الا يخرج وألا يعرض نفسه وأهله للهلاك(٨٦) . ولكن للأسف لم يصغ الحسين رحمه الله لهذه النصائح الصادقة فخرج فى أهله وقلة من أصحابه عددهم حوالى سبعين رجلا ، فلما وصل إلى القادسية لقيه الحر بن يزيد التميمى ، فقال له : « أين تريد يا ابن رسول الله ؟ قال: أريد هذا المصر ، فعرفه بقتل مسلم وما كان من خبره ، ثم قال له : ارجع

---

(٨٥) الطبرى : ٥ — ٣٨٣ وابن الأثير — الكامل ٤ — ٣٧

(٨٦) الطبرى : تاريخ ٥ — ٣٨٢ ، وكذلك كتب عبد الله بن جعفر بن ابى طالب الى الحسين يحذره من الخروج الى الكوفة — الطبرى ٥ — ٣٨٧

فإنى لم أدع خلفى خيرا أرجوه لك ، فهم بالرجوع ، فقال له إخوة مسلم : والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل كلنا ، فقال الحسين : لا خير فى الحياة بعدكم »(٨٧) .

والحقيقة إن الانسان لتأخذه الدهشة من موقف إخوة مسلم بن عقيل، ومنطقهم فى الثار لأخيهم ، فهم يعلمون أن الذى قتل أخاهم الدولة ، فهل كان فى مقدورهم وهم فى قلتهم هذه أن يتصدوا للدولة ليثأروا منها،الحق انه منطق عجيب فقد عرضوا أنفسهم وابن عمهم للهلاك — رحمهم الله جميعا .

سار الحسين حتى وصل إلى كربلاء ، وكان عبيد الله بن زياد لما علم بمسيره — قد انتدب لقتاله واحدا من أبناء الصحابة ، وهو عمر بن سعد ابن أبى وقاص ،(٨٨) فى ثلاثة آلاف ، وعسكر عمر بن سعد بالقرب من عسكر الحسين ، وكان الناس يختلطون من الفريقين ، بل كانوا إذا حانت الصلاة يأتى بعض جنود عمر ليصلوا خلف الحسين ، وهنا بدرت بادرة طيبة من الحسين رضى الله عنه لو قدر لها أن تمضى إلى غايتها لكان فيها حقن الدماء ، ودم الحسين بصفة خاصة ، فقد عرض على عمر بن سعد عرضا فيه السلامة ، وقال له : « إما أن تدعونى فأنصرف من حيث جئت ، وأما أن تدعونى فأذهب إلى يزيد ، وإما أن تدعونى فالحق بالثغور »(٨٩) كانت هذه فرصة ذهبية لمنع الكارثة ، والحق أن عمر بن سعد فرح بهذا العرض من الحسين ، لأنه كان قد خرج إليه على مضض(٩٠) ، فكتب بالاقتراح إلى عبيد الله بن زياد ، ولكنه رفض وقال : « لا ولا كرامة حتى يضع يده فى يدى »(٩١) بالله !! أى شيطان هذا الذى سول لابن زياد أن يسلم الحسين له نفسه أسيرا ، فالموت عند الحسين اهون من ذلك ، فبحسبه أنه عرض عليهم ذلك ، وكان يجب أن يقبل ابن زياد منه ، فلو أن

---

(٨٧) المسعودى — مروج الذهب ٣ — ٧٠ والطبرى : تاريخ ٥—٣٨٩
(٨٨) الطبرى : تاريخ ٥ — ٣٨٩
(٨٩) نفسه ٥ — ٣٨٩
(٩٠) نفسه ٥ — ٣٨٩
(٩١) نفسه ٥ — ٣٨٩

الذى عرض ذلك كان من أعداء الإسلام لما وسعه إلا قبوله ، فكيف بابن بنت رسول الله ! رفض الحسين رفضا باتا أن يضع يده فى يد ابن زياد وقال : « لا والله لا يكون ذلك أبدا »(٩٢) والحقيقة إن عاقلا لا يستطيع أن يلوم الحسين على هذا الموقف ، بل اللوم كل اللوم على ابن زياد ، الذى تحجر قلبه ، وبرهن على قصر نظر وسوء تقدير وفساد سياسة ، وتسبب فى حدوث أبشع كارثة شهدها العهد الأموى كله . ولا أدرى كيف غفل ابن زياد عن أن قتل الحسين سوف يزعزع كيان الدولة كلها ، وسوف يدمى قلوب المسلمين جميعا ويشحنها بالبغض والكراهية ليزيد وللدولة الأموية كلها . وإذا كان الحسين قد أخطأ فى الخروج من الأساس ، فإنه هنا فى هذا الموقف قد أبرأ ذمته تماما ، حيث أراد الرجوع إلى الصواب . ولذلك فإننا نرى أن مسئولية دمه تقع على عاتق ابن زياد بالدرجة الأولى ، كما تقع — بنفس المقدار — على أهل الكوفة الذين كتبوا إليه وبايعوه ووعدوه بنصرتهم له ، ثم تخلوا عنه فى أحرج اللحظات . كما أن عمر بن سعد لا يسلم من المسئولية ، وكذلك شمر بن ذى الجوشن ، ذلك الشيطان، الذى قيل إنه هو الذى أغرى ابن زياد بقتل الحسين .

رفض الحسين أن يسلم نفسه لابن زياد ، فدارت الحرب غير متكافئة، فقتل الحسين رحمه الله ، وقتل سائر أصحابه ، ومنهم سبعة عشر شابا من أهل بيته ، وكان آخر كلامه قبل أن يسلم الروح « اللهم أحكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا »(٩٣) وكان استشهاده فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ . وبعد قتله حزوا رأسه ، وأرسلوها إلى يزيد مع نسائه وأخواته ، ولم يكن قد بقى من أبنائه الذكور سوى على زين العابدين، فلما وصلوا إلى دمشق أدخلهن يزيد إلى بيوته وأكرمهم وعطف على على ابن الحسين ، ثم جهزهم وأعادهم إلى المدينة مكرمين(٩٤) .

---

(٩٢) نفسه ٥ — ٣٨٩

(٩٣) المصدر السابق ٥ — ٣٨٩

(٩٤) المصدر السابق ٥ — ٣٩٠ وانظر ابن تيمية — منهاج السنة جـ ٢ — ٢٤٩

مسئولية يزيد فى مقتل الحسين :

قد يتساءل الناس ما هو نصيب يزيد بن معاوية من المسئولية فيما حدث للحسين ؟ الحق أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ولم يسعد به ، بل بكى عليه، وساءه مقتله(٩٥) .

ولقد كان يزيد حريصا على عدم خروج الحسين أصلا تحسبا من سوء نتائجه . فقد روى ابن عساكر أن يزيد لما علم بخروج الحسين من المدينة إلى مكة وامتناعه عن بيعته ، قدر عواقب ذلك . وكتب إلى عبد الله ابن عباس يعلمه بخروج الحسين إلى مكة ، وقال له : أحسب أن رجالا من أهل هذا المشرق — يقصد أهل العراق — قد جاءوه فمنوه الخلافة ، وعندك منهم خبرة وتجربة ، فإن كان فعل فقد قطع واشنج القرابة ، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه ، فاكففه عن السعى فى الفرقة . فكتب إليه ابن عباس. إنى لأرجو أن لا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه ، ولست أدع النصيحة له فى كل ما يجمع الله به الألفة وتطفأ به الثائرة(٩٦) . هذا هو موقف يزيد حتى قبل أن يعلم بعزم الحسين على الخروج إلى الكوفة — وقد مر بنا أن ابن عباس حاول منع الحسين من الخروج ونصحه بذلك ولكنه لم يستجب — فلما حدث ما حدث وقتل الحسين ، ندم يزيد على ذلك ليقينه بأثره عليه وعلى دولته ، يقول الطبرى(٩٧) « ثم لم يلبث — يزيد — إلا قليلا حتى ندم على قتل الحسين ، فكان يقول : وما كان على لو احتملت الأذى ، وانزلته معى فى دارى ، وحكمته فيما يريد ، وإن كان على فى ذلك وكف ووهن فى سلطانى ، حفظا لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابتـه ! لعن الله ابن مرجانة ، فإنه أحرجه واضطره ، وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع فلم

---

(٩٥) المصدران السابقان على الترتيب ٥ — ٥٠٦ ، ٢ — ٢٤٩

(٩٦) انظر عبد القادر بدران — تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ — ٣٣٠ — ٣٣١

(٩٧) تاريخ ٥ — ٥٠٦

يفعل ، أو يضع يده فى يدى ، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عز وجل ، فلم يفعل ، فأبى ذلك ورده عليه وقتله ، فبغضنى بقتله إلى المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة ، فبغضنى البر والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلى حسينا ، مالى ولابن مرجانة ، لعنه الله وغضب عليه ! » هذا هو موقف يزيد من قتل الحسين ورد فعله عنده .

ولكن الإنصاف للحقيقة يقتضينا ان نقول : إنه مع ميلنا إلى تصديق أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ولم يسعد به ، إلا أن ذلك لم يكن كافيا — من وجهة نظرنا — بل كان يجب عليه أن تكون أوامره صريحة لابن زياد بعدم قتل الحسين ، والتصرف معه بكل حكمة وتعقل ، حفظـا لرحمه وقرابته من رسول الله ﷺ ومكانته فى قلوب المسلمين .

خصوصا وأن أباه معاوية كان قد وصاه بالعفو عنه إذا أخرجه أهل العراق عليه وظفر به(٩٨) . ولكنها إرادة الله وقضاؤه الذى لا راد له .

التوابـــون

هؤلاء مجموعة من الشيعة كان كثيرون منهم ممن كتبوا إلى الحسين ابن على وهو فى مكة بعد موت معـاوية ليسـير إليهم فى الكوفة — كما أسلفنا — فلما سار إليهم خذلوه وتخلوا عن نصرته وأسلموه للمصير المؤلم الذى صار إليه .

ولكن بعد استشهاده هزتهم الفاجعة ، وعضهم الندم على تقصيرهم نحوه ، فلم يجدوا طريقة يكفرون بها عن هذا التقصير الكبير ، ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب العظيم سوى الثأر للحسين بقتل قتلته ، فسموا بذلك التوابين(٩٩) وتزعمهم سـليمان بن صرد الخزاعى ، وسـموه أمير

---

(٩٨) انظر ابن الطقطقا — الفخرى ص ١١٢ .

(٩٩) راجع تفاصـيل حركة التوابـين ومـاآل إليه أمرهم ، فى الطبرى : تاريخ ٥٨٣/٥ — ٦٠٩ وابن الأثـير — الكامل فى التـاريخ ١٧٥/٤ — ١٨٩

التوابين ، وهو من الصحابة ، ومن كبار شيعة على ، وشهد معه مشاهده كلها ، وكان ممن كتبوا إلى الحسين فى القدوم إلى الكوفة(١٠٠) . ومع أن حركتهم بدأت بعد استشهاد الحسين مباشرة ، إلا انهم لم يستطيعوا التحرك لتنفيذ خطتهم فى حياة يزيد ، لشدة عبيدالله بن زياد عليهم وإحكام قبضته على الكوفة ، ومراقبة تحركاتهم . فلما مات يزيد واضطرب أمر بنى أمية ، نشطوا وأسرعوا الخطى لتنفيذ ماأجمعوا عليه، وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ(١٠١) وكانت الكوفة فى ذلك الوقت قد بايعت لعبد الله بن الزبير ، فولى عليها عبد الله بن يزيد الخطمى ، مما شجع التوابين على الخروج للقتال باعتبار الأمويين أعداء لهم جميعا ، وقد عرض عبدالله بن يزيد على سليمان بن صرد أن ينتظر حتى يهيىء له جيشا يسير معه لتقوى حركتهم ، ويكونوا أقدر على محاربة عدوهم ، وتحقيق هدفهم ، ولكن سليمان رفض هذا العرض(١٠٢) . ويبدو أن هذا لم يكن إلا تظاهرا فقط من والى ابن الزبير بمساعدتهم ، وتسجيل موقف معهم ، وحقيقة الأمر انه كان يود خروجهم من الكوفة ليتخلص منهم(١٠٣) .

أزمع سليمان السير إلى الشام لقتال عبيدالله بن زياد ، باعتباره الذى أصدر الأمر بقتل الحسين ، ولكن أصحابه أشاروا عليه بأن قتلة الحسين معظمهم لايزال بالكوفة ، ومنهم عمر بن سعد ، غير أن سليمان رفض هذا الرأى ، وقرر المسير إلى الشام (١٠٤) . فلما دعا أصحابه إلى المسير معه جاءه أربعة آلاف رجل ، فنظر فى ديوانه الذى كان يسجل فيه

---

(١٠٠) انظر ابن الأثير — أسد الغابة ٤٤٩/٢ — والذهبى سير أعلام النبلاء ٣٩٤/٣

(١٠١) الطبرى : تاريخ ٥٨٣/٥ — وابن الأثير — الكامل ١٧٥/٤

(١٠٢) الطبرى : تاريخ ٥٨٧/٥ وابن الأثير — الكامل ١٧٧/٤

(١٠٣) د. على حسنى الخربوطلى — تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ص ١٣٥

(١٠٤) الطبرى : تاريخ ٥٨٦/٥ وابن الأثير الكامل ١٧٦/٤

اسماء من بايعوه على الأخذ بثار الحسين فوجد عددهم ستة عشر الفا ، فقال : « سبحان الله ! ماوافانا إلا اربعة آلاف من ستة عشر الفا»(١٠٥) فقال له بعض اصحابه « إن المختار(١٠٦) يثبط النـاس عنك ، إنى كنت عنده ... فسمعت نفرا من اصحابه يقولون كمل عددنا الفى رجل ، فقال : وهب أن ذلك كان ، فأقـام عنا عشرة آلاف ، أما هؤلاء بمؤمنـين ، أما يخافون الله ، أما يذكرون الله ؟ وماأعطـونا من أنفسـهم من العهود والمواثيق ليجاهدن ولينصرن(١٠٧) » ولكن يبدو أن هذه هى طبيعة أهل الكوفـة التى لم تزايلهم ابدا ، فإنهم يتحمسـون أول الأمر ، ويعطون العهود والمواثيق ، فإذا جـاء وقت العمل الجاد ، نكصوا وتقاعسوا ، وتنكروا لعهودهم ومواثيقهم . فحتى الآلاف الأربعة الذين تجمعوا حوله تخلى عنه منهم الف . وبقى معه ثلاثة آلاف فقط(١٠٨) ، ومع ذلك قرر السير بهم إلى الشام ، وقبل مسـيرهم زاروا قبر الحسين فأقاموا عنده يوما وليلة يصلون ويبكون ، ونادوا بصيحة واحدة ، قائلين : « يارب إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا ، فاغفر لنا ما مضى منا ، وتب علينـا إنك أنت التواب الرحيم ، وارحم حسـينا وأصحابه الشهداء الصـديقين ، وإنا نشهدك يارب أنا على مثل ما قتلوا عليه ، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين(١٠٩) » .

فى الوقت الذى سار فيه سليمان على رأس التوابين إلى الشام ، كان هناك جيش كبير — قيل إن عدده كان ستين الفا على رأسه عبيدالله ابن زيـاد ، أرسـله مروان بن الحكم ليعيـد العراق إلى سـلطان الأمويين(١١٠) ، بعـد أن بسط حكمه على الشـام ، فالتقى بالتوابين.

---

(١٠٥) الطبرى : تاريخ ٥/٥٨٤ وابن الأثير الكامل ٤/١٧٥

(١٠٦) سنتحدث بعد قليل عن المختار وحركته ، وسنعرف لمـاذا كان يثبط الناس عن سليمان

(١٠٧) الطبرى ٥/٥٨٤ وابن الأثير ٤/١٧٥

(١٠٨) الطبرى ٥/٥٨٩

(١٠٩) الطبرى ٥/٥٨٩ وابن الأثير ٤/١٧٨

(١١٠) ثابت الراوى — العراق فى العصر الأموى ص١٩٨

فى عين الوردة ، من أرض الجـزيرة ، ودارت معركة غير متكافئة ، قتل فيها معظم التوابين ، وزعيمهم سليمان بن صرد ، وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ(١١١) . وفر الباقون عائدين إلى الكوفة ، لينضموا إلى المختار الثـقفى .

وهكذا انتهت حركة التوابين ، وهى فى الواقع من الحركات الطائشة التى دفع إليها الحماس ، ولم يكن فيها شىء من العقل أو التبصر ، فلاندرى كيف أقنع سليمان بن صرد نفسه بإمكانية التغلب على الدولة وهزيمتها فى عقر دارها بهذه الأعداد القليلة التى كانت معه ، ولم يكن لهذه الحركة من نتيجة سوى المزيد من إراقة الدمـاء ، وتعميق الكراهية بين أهل العراق والـدولة الأموية(١١٢) ، وهى نتيجة سـلبية فى حسـاب تاريخ الأمـة الإسـلامية .

---

(١١١) الطبرى ٦٠٩/٥ وابن الأثـير ١٨٩/٤

(١١٢) ثابت الراوى — المرجع السابق ص ١٩٨ — ١٩٩

ثورة المختـــار الثقفى(١١٣)

ظهر المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى على مسرح الأحـــداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، وهو من الشخصيات التى حفل بها العصر الأموى ، والتى كانتتبحث لها عن دور ، وتسعى إلى السلطان بأى ثمن ، فتقلب من العـــداء الشـــديد لآل البيت إلى ادعـــاء حبهـــم . والمطالبة بثأر الحســـين(١١٤) . فقـــد مر بنا انـــه اشـــار علـــى عمه ســـعد بن مســـعود الثقفى بالقبض على الحســـن بن على وتســـليمه إلى معـــاوية ، لينال بذلك الحظوة عنده(١١٥) ، ثم حـــاول الاتصـــال بعبدالله بن الزبير والانضمام إليه، وشرط عليه شروطا ، منها أن يكون أول داخل عليه والا يقضى الأمور دونه ، وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله(١١٦) . وباختصار أراد أن تكون له كلمة فى دولته ، ولكنه لم يجد تجاوبا من ابن الزبير ، فانصرف عنه إلى الكوفة(١١٧) . حيث كان الأمر فيها مضطربا فأراد أن يصطاد فى الميـــاه العكرة ، ولم يجد فيهـــا ورقة يلعب بها سوى الادعاء بالمطالبة بدم الحسين وآل البيت وادعى أن لديه تفويضا بذلك من محمد بن على بن أبى طالب ، الملقب بابن الحنفية . ولكنه لم يكن صادقا فى ذلك ، بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان . وقد عبر هو نفسه عن ذلك فى حواره مع رجل من رجاله الذين أخلصوا له ، وكانوا يظنونه صادقا فى دعوته للثأر لآل البيت ، وهو السائب بن مالك الأشعرى . فقد قال له المختار عندما ضيق عليه مصعب بن الزبير الخناق واقتربت نهايته : ماذا ترى ؟ فقال له السائب

---

(١١٣) انظـــر ترجمته فى المعـــارف لابن قتيبة ص ٤٠٠ والطبرى ٥٦٩/٥ ، ٧/٦ ، ٣٨ ، ومابعدها وأسد الغـــابة لابن الأثـــير ١٢٢/٥ والكامل فى التاريخ ٢١١/٤ ، ٢٦٧ وسير أعلام النبلاء للذهبى ٥٣٨/٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٨٩/٨

(١١٤) ابن كثير — المصدر السابق ٢٩٠/٨

(١١٥) الطبرى ١٥٩/٥ وابن كثـــير — المصدر الســـابق ٢٩٠/٨

(١١٦) ابن الأثير ١٧٠/٤

(١١٧) ابن كثير ٢٩٠/٨

الرأى لك،فماذا ترى ؟ قال : « أنا أرى أم الله يرى !قال : الله يرى قال : ويحك أحمق أنت ! إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز ، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة،ومروان على الشام ، فلم أكن دون أحد من رجال العرب ، فأخذت هذه البلاد،فكنت كأحدهم ، إلا أنى قد طلبت بثأر أهل بيت النبى ﷺ إذ نامت عنه العرب ، فقتلت من شرك فى دمائهم ، وبالغت فى ذلك إلى يومى هذا ، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية فقال السائب : إنا لله وإنا إليه راجعون »(١١٨) قال السائب ذلك لما تبين له أن المختار صنع كل ماصنع من أجل السلطان وحده . ولذلك يصف الذهبى المختار بالكذب وقلة الدين(١١٩) .

ظهر المختار فى الكوفة من جديد(١٢٠) . فى الوقت الذى كان فيه سليمان بن صرد الخزاعى زعيم التوابين يستعد للذهاب إلى الشام ، لقتال عبيد الله بن زياد ، فحاول تثبيط الناس عنه ، وقال لهم : « إن سليمان ليس له بصربالحرب ولا تجربة بالأمور ، وإنما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه ، وأنا أعمل على مثال مثل لى ، وأمر بين لى عن وليكم ، وأقتل عدوكم، وأشفى صدوركم،فاسمعوا قولى وأطيعوا أمرى »(١٢١).وقد نجحت دعايته فتجمع حوله نحو ألفين من الشيعة ، وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد ، فسار بهم حيث التقى بعبيد الله بن زياد فى عين الوردة فقتل هو ومعظم أصحابه كما تقدم . ولقد كانت نتيجة معركة عين الوردة فى مصلحة المختار، فقد جاءت مصدقة لتوقعاته ، كما أنه أنفرد بزعامة الشيعة ولجأ إليه الفارون من المعركة ، فقويت حركته وكثر أتباعه ، ثم ازداد مركزه قوة بانضمام

---

(١١٨) الطبرى ٦ — ١٠٧

(١١٩) سير أعلام النبلاء ٣ — ٥٣٨ — ٥٣٩

(١٢٠) كان المختار فى الكوفة حين قدوم مسلم بن عقيل إليها ، فبايعه فيمن بايعه من أهلها ، فقبض عليه عبيد الله بن زياد ووضعه فى السجن ، وظل سجينا حتى قتل الحسين ، فبعث إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان زوج أخته ، فشفع له عند يزيد بن معاوية فأمر بإطلاق سراحه انظر الطبرى ٥ — ٥٦٩ — ٥٧٠

(١٢١) ابن الأثير — الكامل ٤ — ١٧٢

إبراهيم بن الأشتر النخعى إليه ، وهو من زعماء الكوفة . فثار على عبد الله ابن مطيع العدوى ، أمير الكوفة من قبل عبد الله بن الزبير ، فأخرجه منها وأحكم سيطرته عليها . ولكى يثبت صحة دعواه فى المطالبة بدم الحسين ، فقد تتبع قتلته فقتل معظمهم فى الكوفة(١٢٢) . ثم أعد جيشـــا جعل على قيادته إبراهيم بن الأشتر ، وأرسله إلى قتال عبيد الله بن زياد ، فالتقى به عند نهر الخازر بالقرب من الموصل وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد ، الذى خر صريعا فى ميدان المعركة سنة ٦٧ هـ(١٢٣) .

تعاظم نفوذ المختار بعد انتصار جيشه على جيش ابن زياد ، وسيطر على شمال العراق والجزيرة،وأخذ يولى العمال من قبله على الولايات(١٢٤) ويجبى الخراج ، وانضم إليه عدد كبير من الموالى ، لبغضهم لبنى أمية من ناحية(١٢٥) ، ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية ثانية(١٢٦) . وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به فى العراق ، بين دولتى ابن الزبير فى الحجاز ، وعبد الملك بن مروان فى الشام . ولكنه لن ينعم طويلا بهـــذه الدولة . فسيقضى عليها سريعا . وكان المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك الذى وتره بقتل ابن زياد أبرز أعوانه ولكن هذا كان من الدهاء بحيث أدرك أن ابن الزبير وإن كان قد أسعده ظهور المختار فى البداية وقهره لجيش عبد الملك(١٢٧) ، إلا أنه لن يسمح لنفوذه أن يتسع ويهدد دولته ، وأنه لابد أن يتحرك للقضاء عليه ، فآثر الانتظار وترك ابن الزبير يواجه المختار ، لأن نتيجة المواجهة ستكون فى صالحه ، فسوف يقضى أحدهما على صاحبه ، ومن يبقى ، تكون قوته قد ضعفت فيسهل له القضاء عليه ، وقد حدث

---

(١٢٢) ثابت الراوى — العراق فى العصر الأموى ص ٢٥٠ — ٢٥١

(١٢٣) الطبرى ٦ — ٨٦ وما بعدها . وابن الأثير — الكامل ٤—٢٦١ وما بعدها

(١٢٤) انظر الطبرى ٦ — ٩٢ وابن الأثير — الكامل ٤ — ٢٦٥

(١٢٥) د. محمد الطيب النجار — الدولة الأموية فى المشرق ص ١٤٣

(١٢٦) ثابت الراوى — المرجع السابق ص ٢٥٠ — ود. على حسنى الخربوطلى — المرجع السابق ص ١٤٦

(١٢٧) د. على حسنى الخربوطلى — المرجع السابق ص ١٤٧

ما توقعه عبد الملك ، فإن المختار لم يكتف بانتصاره على جيش عبد الملك ، وبسط نفوذه على شمال العراق والجزيرة ، بل اخذ يعد نفسه للسير إلى البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير الذى اصبح واليا عليها من قبل اخيه عبد الله بعد أن بايعه أهلها ، وهنا اصبح الصدام محتوما بين المختار وآل الزبير(١٢٨) . فسار مصعب بن الزبير بنفسه إلى قتال المختار قبل أن يعاجله فى البصرة ، والتقى به عند حروراء ، فدارت الدائرة على المختار ، فأسرع بالفرار عائدا إلى الكوفة وتحصن بقصر الإمارة ، إلا أن مصعبا حاصره فى القصر ، حتى سقط ، وقتل فى سنة ٦٧ هـ(١٢٩) . وهكذا انتهت حركة هذا المغامر الذى كان كل همه الوصول إلى الحكم والسلطان بأية وسيلة ، ولم تنفعه ادعاءاته بحب آل البيت والطلب بثأرهم ، فقد انكشفت حيله ، وتخلى عنه أهل العراق ، وأسلموه إلى مصيره المحتوم .

---

(١٢٨) د. على حسنى الخربوطلى — المرجع السابق ص ١٤٧

(١٢٩) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٦٤ والطبرى ٦ — ١٠٧ وابن الأثير — الكامل ٤ — ٢٧٣

ثورة زيد بن على بن الحسين سنة ١٢١ هـ

بعد القضاء على ثورة المختار الثقفى فى الكوفة سنة ٦٧ هـ ، مضت فترة طويلة تزيد على نصف قرن ، لم يقم الشيعة فيها بثورات على الدولة الأموية ، ولعل السبب فى ذلك الهزائم المتلاحقة والخسائر التى منوا بها من ناحية ، ثم افتقارهم إلى زعامة قوية يلتفون حولها من ناحية ثانية . كما أن العراق التى هى موطن حركاتهم قد شهدت حكم ولاة أقوياء عرفوا بالحزم والقسوة مع الخارجين على الدولة مثل الحجاج بن يوسف ، كل ذلك جعلهم يستكينون ولكن إلى حين ، فجمرة الثورة والتمرد على الحكم الأموى لم تخب فى أنفسهم قط ، فلما وجدوا الفرصة لم يترددوا فى اغتنامها ، غير أن عيبهم الذى عرفوا به ، وهو الحماس الزائد فى أول الأمر ، ثم النكوص والتخاذل قبل تحقيق الهدف لم يزايلهم قط . وكان هذا حالهم مع قائد الثورة الجديدة التى هبت فى وجه هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ هـ وهو زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب(١٣٠) . كان زيد من كبار آل البيت وعلمائهم، وكان يحدث نفسه بالخلافة ويرى أنه أهل لها ، وكان هشام بن عبد الملك يخشاه لفضله وعلمه وفصاحته ومكانته بين الناس وفى لقاء بينهما قال له هشام : « يازيد لقد بلغنى أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك وانت ابن أمة »(١٣١) فغضب زيد ورد على هشام ردا غليظا ، وقال له فى كلام كثير : لا يضيرنى أن أكون ابن أمة ، وجدى رسول الله ﷺ(١٣٢) . فاستاء هشام من رده وقال له : « اخرج ، قال : اخرج ولا ترانى إلا حيث تكره »(١٣٣) خرج زيد من عند هشام مغضبا متوعدا ، ثم أتى الكوفة ، فجعل الشيعة يختلفون إليه ويحثونه على الثورة ، ويقولون له : « إنا لنرجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية»(١٣٤)

---

(١٣٠) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ٥ — ٣٢٥ وسير اعلام النبلاء للذهبى ٥ — ٣٨٩

(١٣١) الطبرى ٧ — ١٦٥

(١٣٢) نفسه ٧ — ١٦٦

(١٣٣) نفسه ٧ — ١٦٦

(١٣٤) نفسه ٧ — ١٦٦

كان من الطبيعى أن يكون زيد محل رصد هشام بعد تلك المقابلة المثيرة ، وأن يكون وجوده فى الكوفة — بخاصة — مصدر قلق له ، فأوعز إلى عامله على العراق ، يوسف بن عمر الثقفى بطرده منها(١٣٥) ، فمازال به يوسف حتى أخرجه ، ولكن الشيعة ساروا خلفه ، وقالوا له : « أين تذهب عنا ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غدا »(١٣٦) نفس النغمة القديمة التى طالما خدع بها أهل العراق آل البيت ، وعلى الرغم من أن زيدا أبدى شكوكه فيهم ، حتى بعد أن أعطوه عهودهم ومواثيقهم ، وقال لهم : « إنى أخاف أن تخذلونى وتسلمونى كفعلكم بأبى وجدى »(١٣٧) وأن أحد أبناء عمومته قال له : « يا ابن عم إن هؤلاء يغرونك من نفسك ، أليس قدخذلوا من كان أعز عليهم منك ، جدك على بن أبى طالب حتى قتل ! والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه من عنقه ، وانتهبوا فسطاطه وجرحوه ! أو ليس قد أخرجوا جدك الحسين ، وحلفوا له بأوكد الأيمان ، ثم خذلوه وأسلموه ، ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه ، فلا تفعل ولا ترجع معهم . إنى لخائف إن رجعت معهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم »(١٣٨) على الرغم من كل ذلك إلا أن زيدا — رحمه الله — غلط الغلطة الكبرى وانخدع بأهل الكوفة وعاد معهم فأوردوه حتفه كما فعلوا بجده الحسين من قبل .

تقاطر أهل الكوفة على زيد بعد عودته وأخذوا يبايعونه . وكانت بيعته التى دعا إليها : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفىء فى أهله بالسواء ، ورد الظالمين ، وإقفال المجمر ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا »(١٣٩) انتشر أمر زيد ، ووصل خبر دعوته

---

(١٣٥) نفسه ٧ — ١٦٩

(١٣٦) نفسه ٧ — ١٦٦

(١٣٧) المصدر السابق ٧ — ١٦٨

(١٣٨) نفسه ٧ — ١٦٨

(١٣٩) نفسه ٧ — ١٧٢ ، وإقفال المجمر ، يقصد به إعادة الجيش الذى طال مكثه فى أرض العدو .

الناس إلى البيعة إلى البصرة وواسط والموصل والمدائن وخراسان والرى . وبلغت أخباره يوسف بن عمر الثقفى وكان بالحيرة فأدرك خطورتها ، وكان زيد قد واعد أصحابه على الخروج ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة ١٢٢ هـ . فقرر يوسف أن يحول دون ذلك ، فأمر الحكم بن الصلت — نائبه على الكوفة — أن يدعو الناس لاجتماع فى المسجد الأعظم وهدد كل من يتخلف منهم ، وكان ذلك قبل موعد خروج زيد بيوم واحد ، فهرع أهل الكوفة إلى المسجد ، فحصرهم يوسف بن عمر فيه ، وأصبح زيد فلم يجد معه من خمسة عشر ألفا بايعوه سوى مائتين وثمانية عشر رجلا(١٤٠) فلما رأى خذلان الناس إياه قال لأحد أنصاره ، نصر بن خزيمة « أتخاف أن يكونوا قد جعلوها حسينية »(١٤١) يشير إلى حادثة جده الحسين ، وهم حقا قد فعلوها حسينية وتركوه يواجه قوات يوسف بن عمر الثقفى فى هذا العدد القليل ، كما ترك أسلافهم جده الحسين يواجه قوات عبيد الله ابن زياد من قبل ، ومن العجب أن تتشابه الحادثتان فى أمور كثيرة ، فيوسف بن عمر لم يكن أقل قسوة من عبيد الله بن زياد ، واجه زيد وأصحابه القلائل ، جيوش يوسف بن عمر ، وظل يقاتل حتى أصابه سهم فى رأسه ، فتوفى متأثرا به بعد أيام . ولم يكتف يوسف بن عمر بمقتله ، بل أمر باخراج جثته من القبر الذى دفن فيه سرا ، وأمر بقطع راسه ، وصلب جسده فى كناسة الكوفة(١٤٢) ، وهكذا لقى زيد بن على هذا المصير المؤلم ، ولا شك أن التبعة الأولى هنا تقع على أهل الكوفة الذين حرضوه على الخروج وبايعوه ثم خذلوه فى اللحظات الحرجة . وبعد مقتل زيد فر ابنه يحيى إلى خراسان(١٤٣) ، ولكنه لقى مصير أبيه هناك على يد نصر بن سيار والى خراسان .

وإذا كانت آخر ثورة علوية شيعية فى العهد الأموى قد باءت بالفشل ، فقد كانت هناك دعوة سرية منظمة ، تدعو للرضا من آل محمد ، وهى الدعوة العباسية ، التى سوف تستفيد من هذه الأحداث فى زعزعة الحكم الأموى وسيكتب لها النجاح اخيرا فى القضاء على الدولة الأموية وإقامة دولة عباسية مكانها .

---

(١٤٠) المصدر السابق ٧ — ١٨٢
(١٤١) المصدر السابق ٧ — ١٨٤ وابن الأثير ، الكامل ٥ — ٢٤٤
(١٤٢) ابن الأثير — الكامل ٤ — ٢٤٦
(١٤٣) الطبرى ٧ — ١٨٩

ثورة أهل المدينة على يزيد بن معاوية وموقعة الحرة سنة ٦٣ هـ

فى سنة ٦٣ هـ . ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية ، وخلعوا طاعته ، وهذه الثورة محيرة فى الواقع ، فلا نعرف لها سببا مقنعا ولاهدفا واضحا ، وقد ظن بعض الباحثين أنها كانت رد فعل لاستشهاد الحسين بن على وغضبا له(١٤٤) . وهذا غير صحيح ، وآية ذلك أن زعماء الهاشميين وآل البيت ، مثل عبد الله بن عباس ، ومحمد بن الحنفية، وعلى بن الحسين ، لم يشتركوا فيها ، ولم يكونوا راضين عنها ، كما رفضها وعارضها كبار الصحابة الموجودين يومئذ كعبد الله بن عمر ابن الخطاب .

وقصة هذه الثورة(١٤٥) ، بدأت حين عزل يزيد بن معاوية ابن عمه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان عن ولاية المدينة ، بناء على رغبة نجدة بن عامر الحنفى — من زعماء الخوارج — الذى اتهم الوليد بالخرق وعدم الرشد ، وطلب من يزيد أن يبعث واليا آخر مكانه سهل الخلق ، رجاء صلاح الأحوال وجمع الكلمة ، وحرصا من يزيد على هذا عزل الوليد وولى عثمان بن محمد بن أبى سفيان(١٤٦) . الذى استهل عهده بالإحسان إلى أهل المدينة ، ثم بعث منهم وفدا إلى يزيد فى دمشق ، فيهم عبد الله ابن حنظلة الأنصارى وأبناؤه وكانوا ثمانية ، والمنذر بن الزبير بن العوام ، وكثيرون غيرهم من أشراف المدينة ، فأكرم يزيد وفادتهم وعظم جوائزهم ، فأعطى عبد الله بن حنظلة مائة ألف درهم ، وأعطى أبناءه كل واحد عشرة آلاف ، وأعطى المنذر بن الزبير مائة ألف(١٤٧) . فما أن عادوا إلى

---

(١٤٤) د. عبد المنعم ماجد — التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٨٢/٢

(١٤٥) راجع تفاصيل أخبار ثورة أهل المدينة وموقعة الحرة فى تاريخ خليفة ابن خياط ص ٢٣٦ وما بعدها . والطبرى ٤٨٢/٥ وما بعدها وابن الأثير الكامل ج ١١١/٤ وما بعدها وابن كثير — البداية والنهاية ٢١٧/٨ وما بعدها .

(١٤٦) ابن كثير — البداية والنهاية ٢١٦/٨

(١٤٧) المصدر السابق ٢١٦/٨

المدينة حتى أعلنوا الثورة على يزيد وخلعوا طاعته(١٤٨) ، فلما سألهم الناس ، عن سبب ثورتهم وقد أكرمهم يزيد وأعطاهم أموالا كثيرة ، قالوا إنه يشرب الخمر ، وتعزف عنده القيان ، ويترك الصلاة ، ويتعدى حكم الكتاب(١٤٩) ، وهذه التهم نفاها عن يزيد رجل عدل لايتهم بمحاباة يزيد ، وهو محمد بن الحنفية ، لقد قال لهم عندما مشوا إليه لينضم إلى ثورتهم : « ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبا على الصلاة ، متحريا للخير ، يسأل عن الفقه ملازما للسنة ، قالوا ! فإن ذلك كان منه تصنعا لك ، فقال : وما الذى خاف منى اورجا حتى يظهر إلى الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم يكن رأيناه . فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة ، فقال : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » ولست من أمركم فى شىء . قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا ، قال : ما أستحل القتال على ما تريدوننى عليه تابعا ولا متبوعا ، قالوا : فقد قاتلت مع أبيك . قال : جيئونى بمثل أبى أقاتل على مثل ما قاتل عليه ، فقالوا : فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا ، قال : لو أمرتهما قاتلت . قالوا : فقم معنا مقاما تحض الناس فيه على القتال ، قال : سبحان الله ! ! آمر الناس بما لا افعله ولا أرضاه ، إذا ما نصحت لله فى عباده . قالوا : إذا نكرهك . قال : إذا آمر الناس بتقوى الله . ولا يرضون المخلوق بمعصية الخالق ، وخرج إلى مكة »(١٥٠) .

أوردنا هذا الحوار الطويل الذى دار بين محمد بن على بن أبى طالب وبين زعماء المدينة ، لأنه يوضح إصرارهم . على الثورة من أجل الثورة ، حتى بعد أن بين لهم أن ذلك لايحق لهم . ثم مضوا فى خطتهم ،

---

(١٤٨) تاريخ خليفة ص ٢٣٧

(١٤٩) ابن كثير المصدر السابق ٢٣٣/٨

(١٥٠) ابن كثير — المصدر السابق ٢٣٣/٨

والعجب انهم امروا عليهم اميرين ، مما يدل على ان هدفهم لم يكن واضحا ، وكلمتهم لم تكن واحـــدة ، فقد امروا على الأنصـــار عبد الله بن حنظلة الانصارى وعلى قريش عبد الله بن مطيع العدوى(١٥١) . ولمـــا وضحت نيتهم فى الثورة وتفريق أمر الأمة ، انزعج كبار الصحابـــة فى المدينـــة من نتائج ذلك فالأمة قـــد عانت من الفتن ولم تندمل جراحها بعد من ماساة الحسين فى كربلاء ، فذهب عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى عبد الله ابن مطيع ، فلما دخل عليه ، قال : مرحبا بأبى عبد الرحمن .

ضعوا له وســـادة ، فقال : ابن عمر « إنى لم آتك لأجلس جئتك لأحدثك حديثا ، سمعت رسول الله ﷺ يقوله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »(١٥٢) . ولم يكتف ابن عمر بتحذير زعماء الثورة من الخروج على الخليفة الشرعى ومن تفريق كلمة الأمة .

وإنما جاهد فى منعها وحث الناس على عدم الإشتراك فيها ، وكذلك منع أهله وولده من ذلك .

فقـــد روى البخـــارى مرفوعا إلى نافع قـــال : « لمـــا خلع أهـــل المدينة يزيد بن معاوية ، جمع ابن عمر حشمه وولده ، فقال لهم : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ، وإنا قـــد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإنى لاأعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على إبيع الله ورسوله ، ثم ينصب له القتال ، وإنى لا أعلم أحـــدا منكم خلعه ولا بايع فى هـــذا الأمر إلا كانت الفيصـــل بينى وبينه »(١٥٣) .

هذا هو موقف عبد الله بن عمر ، من ثورة أهل المدينة ، فهو يرى أن يزيد خليفة شرعى له فى أعناقهم بيعة . وهو موقف يشـــاركه فيه

---

(١٥١) تاريخ خليفة ص ٢٣٧
(١٥٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ٢٤٠
(١٥٣) البخارى — الصحيح جـ ٤ ص ٢٣٠ طبعة الحلبى .

رجالات بنى هاشم(١٥٤) . وكانت الحكمة تقضى ان يعيد الثائرون النظر فى موقفهم على ضوء معارضة هؤلاء السادة وعدم رضاهم عن ثورتهم . ولكنهم لم يفعلواوصمموا على المضى قدما فيما عزموا عليه .

بلغت هذه الأخبار يزيد فى دمشق ، فتمثل قائلا :

لقد بدلوا الحلم الذى فى سجيتى   فبـــدلت قومى غلظـــة بليان

ثم رأى أن يعالج الموقف بالحكمة ، فأرســـل النعمـــان بن بشير الأنصارى إلى اهل المدينة ، ليدعوهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة ، وعدم تفريق كلمة الأمة . فأتاهم النعمان . وفعل ما أمره بــــه يزيد ، وخوفهم الفتنة ، ولكنهم لم يستجيبوا(١٥٥) . بل عمدوا إلى والى المدينة وسائر بنى أمية فطردوهم منها . فأصبح الموقف خطيرا : ولم يكن فى وسع يزيد إلا ان يواجه هذه الثورة بما تستحقه ، فأرسل إلى المدينة جيشا كبيرا ، بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، وقال له : « ادع القوم ثلاثا فإن هم اجابوك وإلا فقاتلهم »(١٥٦) . كان أهل المدينة على يقين من أن الخليفة لن يسكت عليهم ، وأنه سيرسل إليهم جيشا لقتالهم ، لذلك قاموا بخطوة خطيرة ، حيث عمدوا إلى المياه التى بينهم وبين الشام ، فغوروها وصبوا فيهـــا القطران لتفسد ولا ينتفع بها جيش يزيد ويموت عطشا : « فأرسل الله على جيش الشـــام الســـماء مدرارا بالمطـــر فلم يســـتقوا بدلو حتى وردوا المدينة »(١٥٧) ثم حفر أهل المدينة خندقا ليمنعوا الجيش من إقتحامها . وصل مسلم بن عقبـــة بجيشه وأنذرهم ثلاثا كما أمره يزيد ، ولكنهم لم يستجيبوا ، فبدأ القتال ، وحلت الهزيمة باهل المدينة ، فى المعركة التى سميت معركة الحرة ، وذلك لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣هـ(١٥٨) وقتل زعيمهم عبد الله بن حنظلة ، وقتل كثيرون غيره من أشرافها ، وأباح

---

(١٥٤) ابن كثير — البداية والنهاية ٢١٨/٨

(١٥٥) المصدر السابق ٢١٦/٨ وانظر ابن تيمية — منهاج الســـنة جـ ٢٥٣/٢

(١٥٦) الطبرى ٤٨٤/٥

(١٥٧) ابن كثير — البداية والنهاية ٨ — ٢٢٢

(١٥٨) الطبرى ٥ — ٤٨٧

مسلم المدينة ثلاثة أيام . وهذه غلطته الكبرى ، بل غلطة يزيد إن كان أمره بذلك ، فالتصدى للثورة وقمعها والقضاء عليها،أمر مشروع للخليفة(١٥٩) ، ولا يستطيع احد ان ينكر عليه ذلك . خصوصا بعد أن انذرهم أكثر من مرة. أما إباحة مدينة الرسول ﷺ وهتك حرمتها فأمر لا يقبله مسلم ، ولم يكن له مبرر بعد أن أخمدت الثورة ، والمسلمون فى حروبهم كلها لم يفعلوا ذلك أبدا بأى مدينة من مدن الأعداء ، ولا شك أن مسلم بن عقبة ، ذلك الرجل الجلف الغشوم قد أساء إساءة بالغة بإقدامه على ذلك ، وجعل ذكرى إباحة المدينة لجند الشام تقف على قدم المساواة مع قتل الحسين وحصار الكعبة كنقاط سوداء فى تاريخ يزيد ، بل فى تاريخ الدولة الأموية كله . فلو لم يبح المدينة لما لامه احد على قتالهم .

والآن على من تقع المسئولية فيما حدث ؟ الحق أن المسئولية تقع على اهل المدينة ، وعلى عبد الله بن حنظلة وعبد الله بن مطيع بصفة خاصة . يقول الشيخ الخضرى معلقا على هذه الثورة : (وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب ، والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه ولا يدرى ما الذى كانوا يريدونه من خلع يزيد ، أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلى أمرهم ؟ أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ، ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية . إنهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة)(١٦٠) وفى ظنى انه لم يكن وراء هذه الثورة من دافع سوى الكره للحكم الاموى ، ولكن هل مجرد الكره يكفى ليكون سببا للثورة ؟ فلو أن كل كاره لحكومة ثار عليها لما بقيت حكومة ولا دولة . وهل هناك حكومة — بعد حكومة الرسول وأبى بكر وعمر — كانت موضع رضا جميع الناس ؟

---

(١٥٩) ابن كثير — المصدر السابق ٨ — ٢٣٢

(١٦٠) انظر — تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٢ — ١٣٢

عبد الله بن الزبير والدولة الأموية

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى(١٦١) ، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، ولد فى العام الأول من الهجرة ، وقيل إن أمه هاجرت وهى حامل به ، وكان أول مولود ولد للمسلمين فى المدينة بعد الهجرة ، وكان فرحهم به عظيما ، لأن اليهود كانوا قد أشاعوا أنهم سحروا المسلمين فلن يولد لهم ولد . نشأ عبد الله نشأة إسلامية خالصة ، فى تلك البيئة الطيبة الطاهرة ، فأبوه من كبار الصحابة وحوارى الرسول ﷺ وابن عمته ، وأمه أسماء ذات النطاقين من الصحابيات الجليلات ، وجده الصديق، وخالته عائشة رضى الله عنهم جميعا ، وكانت أم المؤمنين تكنى به لعدم إنجابها من رسول الله ﷺ فلما قالت له : اكننى قال لها : ﷺ « تكنى بابنك عبد الله بن الزبير »(١٦٢) وكان يتردد عليها كثيرا فى بيت النبى ﷺ وهو من الصحابة ، لأنه عاش ما يقرب من عشر سنين فى حياة النبى ﷺ وروى عنه بعض الأحاديث ، كما روى عن أبيه وجده الصديق ، وأمه أسماء وخالته عائشة . كما روى عن عمر وعثمان وغيرهم . يقول عنه الذهبى : « عداده فى صغار الصحابة وإن كان كبيرا فى العلم والشرف والجهاد والعبادة »(١٦٣) وكان إلى جانب هذا ذكى الفؤاد جريئا شجاعا ، معتدا بنفسه ، ذا طموح . شارك مبكرا فى الفتوحات ، فقد روى أنه حضر اليرموك وهو غلام(١٦٤) . ثم شارك فى غزو إفريقية مع عبد الله بن سعد

---

(١٦١) انظر ترجمته فى نسب قريش للمصعب الزبيرى ص ٢٣٧ وما بعدها . وتاريخ الطبرى ٥ — ٥٦٣ ، ٥٨٢ ، ٦٢٢ و ٦ — ١٦٦ ، ١٨٧ ، ومروج الذهب للمسعودى ٣ — ٨٢ وما بعدها . وأسد الغابة لابن الأثير ٣ — ٢٤٢ ، والكامل له ٤ — ٣٤٨ ، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٣ — ٣٦٣ وما بعدها . والبداية والنهاية لابن كثير ٨ — ٣٣٢ وما بعدها . والاصابة لابن حجر ٦ — ٨٣ وما بعدها .

(١٦٢) نسب قريش ص ٢٣٧

(١٦٣) سير أعلام النبلاء ٣ — ٣٦٤

(١٦٤) المصدر السابق ٣ — ٣٦٤

في عهد عثمان رضى الله عنه ، وقيل هو الذى قتل جرجير ، ولما حصر عثمان رضى الله عنه فى بيته سنة ٣٥ هـ كان عبد الله من المدافعين عنه . وقد حضر موقعة الجمل مع أبيه وطلحة وعائشة ، ولما بويع معاوية وحاول استمالة كبار الصحابة وأبنائهم وأحسن إليهم وأكرمهم ، كان عبد الله من جملة الذين حسنت علاقتهم معه . فكان كثير التردد عليه(١٦٥) . كثير الثناء عليه(١٦٦) ولذلك كانت له مشاركة فى الغزو والجهاد فى عهده ، فقد غزا إفريقية مع معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ . ثم اشترك فى غزو القسطنطينية مع الجيش الذى قاده يزيد بن معاوية سنة ٤٩هـ كما تقدم . واستمرت علاقته بمعاوية على أحسن ما يكون إلى أن شرع فى أخذ البيعة لابنه يزيد ، فعارض ابن الزبير ، وقيل إنه لم يبايع ليزيد هو والحسين بن على .

فلما توفى معاوية سنة ٦٠ هـ . كان أول ما اهتم به يزيد أخذ البيعة منه ومن الحسين ، وأرسل إلى والى المدينة الوليد بن عتبة يأمره بأخذ البيعة منهما ، فلما استدعاهما الوليد استمهلاه ولم يبايعا ، ثم خرجا إلى مكة ، كما ذكرنا من قبل . أما الحسين فقد راسله أهل الكوفة وطلبوا منه المسير إليهم ، وكان من أمره ما ذكرناه آنفا .

أما ابن الزبير فبقى فى مكة ، وسمى نفسه العائذ بالبيت وقد اتهم ابن الزبير بأنه حرض الحسين على الخروج إلى الكوفة ، ليخلو له الجو فى مكة وقال له : « ما يمنعك من شيعتك وشيعة أبيك » ، فوالله لو أن لى مثلهم لذهبت إليهم »(١٦٧) ولكن هناك رواية أخرى تقول عكس ذلك ، فقد روى المصعب الزبيرى ، أن الحسين ذهب إلى عبد الله بن الزبير ، وقال له : « أتتنى بيعه أربعين الف رجل من أهل الكوفة ، أو قال من أهل العراق ، فقال له عبد الله بن الزبير : اتخرج إلى قوم قتلوا أباك وأخرجوا أخاك ؟ »(١٦٨) ومعنى هذا أن ابن الزبير حذر الحسين من الخروج إلى

---

(١٦٥) الفخرى لابن الطقطقا ص ١٠٤

(١٦٦) عيون الأخبار لابن قتيبة جـ ١ — ١١ — ١٢

(١٦٧) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٣٣

(١٦٨) نسب قريش ص ٢٣٩

الكوفة ونصح له ، وذكره بمواقف أهل العراق من أبيه وأخيه ولم يكن رجلا انتهازيا . وكيفما كان الأمر فقد بقى ابن الزبير فى مكة ، وجاءته أخبار استشهاد الحسين ، فحزن عليه ورثاه . وبقى مخالفا ليزيد ، وتجمع الناس حوله لسخطهم على يزيد من أجل مقتل الحسين ، ولم يتمكن يزيد من القضاء على معارضة ابن الزبير ، لامتناعه بمكة ، وقد اشتد غضبه عليه ، وأقسم ألا يقبل بيعته إلا أن يؤتى به فى جامعة ، وأمر واليه على المدينة عمرو بن سعيد بن العاص أن يرسل إليه من يأتيه به ، فأرسل إليه عمرو أخاه عمرو ابن الزبير — الذى كان معاديا له ، وكان على شرطة عمرو بن سعيد فى المدينة — على رأس جيش ولكن عبد الله بن الزبير هزم هذا الجيش وقتل أخاه عمرا(١٦٩) . وظل بعيدا عن متناول يزيد،حتى سار إليه مسلم بن عقبة المرى بأمر من يزيد بعد القضاء على ثورة المدينة فى نهاية سنة ٦٣ هـ ، ولكن مسلما توفى فى الطريق ، فتولى قيادة الجيش الحصين بن نمير السكونى . وواصل المسير إلى مكة ، فوصلها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ هـ . وحاصر ابن الزبير فيها أربعة وستين يوما ، ودارت فى تلك المدة مناوشات بين ابن الزبير وجيش الشام . الذى نصب المنجنيق على الكعبة من جبل أبى قبيس ، وأشعل فيها الحريق(١٧٠) وفى أثناء ذلك توفى يزيد بن معاوية فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ وبلغ خبر موته ابن الزبير ، فصاح فى جيش الشام علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟(١٧١) فلما سرى خبر موت يزيد فى جيش الشام انكسرت شوكتهم . وهنا لاحت فرصة لابن الزبير ، تعتبر من الفرص القليلة التى تعرض للإنسان فى حياته ، فإما اقتنصها ، وإلا ضاعت منه إلى الأبد ، فقد بعث إليه الحصين بن نمير قائد جيش الشام ، طالبا منه أن يلتقيا ويتحادثا ، فلما التقيا قال له الحصين : « إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر ، هلم فلنبايعك ، ثم أخرج معى إلى الشام ، فإن هذا الجند الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس ، وتهدر الدماء

(١٦٩) الطبرى ٥ — ٣٤٦ — ٣٤٧
(١٧٠) المصدر السابق ٥ — ٤٩٨
(١٧١) المصدر السابق ٥ — ٤٩٩ ، ٥٠١

التى كانت بيننا وبينك ، والتى كانت بيننا وبين أهل الحرة »(١٧٢) ولكنه لم يقبل هذا ، بل قال للحصين : « أنا أهدر تلك الدماء ؟ أما والله لا أرضى أن اقتل بكل رجل منهم عشرة ، وأخذ الحصين يكلمه سرا ، وهو يجهر جهرا ، واخذ يقول : لا والله لا أفعل ، فقال له الحصين بن نمير : قبح الله من يعدك بعد هذه داهية قط أو اديبا ، قد كنت اظن أن لك رايا .. اكلمك سرا وتكلمنى جهـرا ، وأدعوك إلى الخلافة ، وتعـدنى القتـل والهلكة »(١٧٣) ! حقا إنها فرصة نادرة ، ولكن ابن الزبير ضيعها فلو قبل وذهب معهم إلى الشام لكان من المرجح أن يتم له الأمر ، لأن موقف بنى امية قد اضطرب اضطرابا شديدا بعد موت يزيد ، ثم تفاقم وازداد سوءا عقب موت ابنه معاوية بعده بقليل ، ولم يكن الأمويون قد تمكنوا بعد من إحكام أمرهم والبيعة لمروان فى مؤتمر الجابية ، أوائل ذى العقدة سنة ٦٤ هـ ، ومن أهم ما يعكس تدهور موقف بنى أمية ، تفكير مروان نفسه فى الذهاب إلى ابن الزبير فى مكة ومبايعتـه ، وذلـك لأن معظم الأمصـار الإسلامية كانت قد بايعت له ، الكوفة والبصرة ومصر وبايع له عبد الله ابن خازم الذى كان قد غلب على خراسان،حتى الشام وهى معقل الأمويين ومستقر دولتهم بايعت له بأسرها ، عدا إقليم الأردن ، فهو وحده الذى بقى على الولاء لبنى أمية بزعامة حسان بن بحدل الكلبى(١٧٤) . فتشبث ابن الزبير بالبقاء فى مكة أضاع عليه كل شىء فمكة مع حرمتها ومكانتها ، إلا أنها لم تكن تصلح عاصمة للدولة الإسلامية فى ذلك الوقت . لبعدها عن مركز الـدولة من ناحية ، ولافتقارها إلى الأموال والرجال من ناحية ثانية . ولعل ابن الزبير لو تركها يومئذ وخرج إلى الشام أو إلى العراق لتغير الموقف تغيرا حقيقيا .

متى أخذ ابن الزبير البيعة لنفسه ؟

يرى بعض الباحثين أن ابن الزبير أصبح خليفة وبايعه بعض الناس

---

(١٧٢) المصدر السابق ٥ — ٥٠٢

(١٧٣) المصدر السابق ٥ — ٥٠٢ وتاريخ اليعقوبى جـ ٢ — ٢٥٣

(١٧٤) انظر تاريخ اليعقوبى جـ ٢ — ٢٥٥

فى مكة بعد استشهاد الحسين سنة ٦١ هـ(١٧٥) . وعند ثقاة المؤرخين أنه لم يدع إلى نفسه ولم يبايع خليفة إلا بعد موت يزيد بن معاوية ، فيقول خليفة بن خياط : « وفى سنة أربع وستين دعا ابن الزبير إلى نفسه ، وذلك بعد موت يزيد بن معاوية ، فبويع فى رجب لسبع خلون من سنة أربع وستين ، ولم يكن يدعو إليها ولا يدعى لها حتى مات يزيد(١٧٦) » وهذا هو الأقرب إلى الصواب ، ففى هذه الحالة تكون بيعته بيعة شرعية صحيحة ، لأنها تمت وليس للمسلمين خليفة ، لأنها تمت قبل بيعة مروان فى الجابية فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ . ويكون موقف ابن الزبير أقوى من الناحية الشرعية من موقف مروان . لكن ابن الزبير لم يعرف كيف يدعم هذه الشرعية ، ولعله كان سعيدا ببيعة الأمصار التى جاءته طواعية ، وهو قابع فى مكة ، ولم يتحرك ليثبت هذه البيعة ويحميها ، وأتاح للأمويين الفرصة ليحكموا أمرهم ، ويفسدوا عليه كل شىء . ولقد غلط غلطة كبرى لم يدرك عواقبها إلا بعد فوات الأوان . فقد كان جل رجالات بنى أمية فى المدينة عند وفاة يزيد ، وفيهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، فأمر بطردهم منها ، فتردد مروان ، ولكن ابنه عبد الملك — وكان مريضا — أشار عليه بالخروج على وجه السرعة وقال له : « فإن هذا رأى لم يتعقبه ابن الزبير ، فخرج وأخرج عبد الملك ، وتعقب ابن الزبير الرأى ، فعلم أنه قد أخطأ ، فوجه فى ردهم ففاتوه (١٧٧) » .

ووجه الخطأ فى هذا أن ابن الزبير بإخراج بنى أمية من المدينة إلى الشام قد أعطاهم فرصة لجمع شملهم مع أنصارهم هناك سواء الذين كانوا فى الشام ، أو الذين جاءوا إليهم من الأمصار الأخرى ، مما كان

---

(١٧٥) انظر د. محمد الطيب النجار — المرجع السابق ص ١٠٣

(١٧٦) تاريخ خليفة ص ٢٥٧ ويقول ابن كثير فى البداية والنهاية ٢٣٨/٨ : « فلما رجع حصين بن نمير السكونى بالجيش إلى الشام ، استفحل أمر ابن الزبير بالحجاز وما والاها ، وبايعه الناس بعد يزيد بيعة هناك » .

(١٧٧) انظر تاريخ اليعقوبى جـ ٢/٢٥٥

له اكبر الأثر فى عقد مؤتمر الجابية وبيعة مروان . وكانت الحكمة تقضى أن يبقيهم فى المدينة تحت المراقبة ، ولو حدث ذلك ، لربما كان من العسير إقامة الدولة الأموية من جديد . خصوصا بعد أن كانت معظم أقاليم الشام قد بايعته .

عبد الله الزبير ومروان بن الحكم :

قلنا قبل قليل إن بيعة عبد الله بن الزبير تمت سنة ٦٤ هـ بعد موت يزيد ، وفى وقت لم يكن للمسلمين فيه خليفة ، فهى بيعة شرعية ، ولكن بعد بيعة مروان ، بدأ الموقف يتغير ، ولن تحسمه الشرعية ، بل السياسة والدهاء والقوة . وقد استهل مروان أمره باستعادة الشام ، وتمكن من ذلك ، حين قهر أنصار بن الزبير ، بزعامة الضحاك بن قيس فى موقعة مرج راهط فى نهاية سنة ٦٤ هـ(١٧٨) . وقيل كانت فى المحرم سنة ٦٥ هـ . ثم اتبع ذلك بخطوة هامة فاستولى على مصر(١٧٩) . وولى عليها ابنه عبد العزيز . ثم عاد إلى الشام ، ليوجه جهوده للزحف على العراق ، فأرسل عبيد الله بن زياد على رأس جيش كبير ليسترده . وهو الجيش الذى التقى بالتوابين فى عين الوردة وهزمهم كما قدمنا . وتوفى مروان فى رمضان سنة ٦٥ هـ . دون أن يتمكن من استرداد العراق . وترك هذه المهمة لابنه عبد الملك .

عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان :

عندما تولى عبد الملك بن مروان بعد وفاة أبيه ، كانت دولته تتكون من الشام ومصر ، ودولة ابن الزبير تتكون من الحجاز والعراق . وهنا ظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وتزعم الشيعة بعد مقتل سليمان ابن صرد الخزاعى فى عين الوردة ، ثم تمكن من طرد عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير من الكوفة ، وأحكم سيطرته عليها ، ثم دعم موقفه

---

(١٧٨) الطبرى ٥/٥٣٤ ، ٥٣٥ وما بعدها وبن الأثير الكامل ٤/١٤٩ — ١٥٠

(١٧٩) خليفة بن خياط — المصدر السابق ص ٢٦١

بهزيمة جيش عبد الملك بقيادة عبيد الله بن زياد فى موقعة الخازر سنة ٦٧ هـ — كما أسلفنا . وهنا رأى عبدالملك أن يترك المختار يواجه ابن الزبير . لأنه كان على يقين من أن ابن الزبير لن يترك المختار يستبد بأمر العراق . وبالفعل أحس ابن الزبير بالقلق من تصاعد قوة المختار الذى بسط سلطانه على شمال العراق والجزيرة ، وبدأ يعد العدة للزحف على البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير فأمر عبد الله أخاه مصعبا أن يسير إلى المختار للقضاء عليه ، فزحف مصعب من البصرة وقضى على المختار سنة ٦٧ هـ . وقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن ثورة المختار .

وبعد أن استعاد ابن الزبير نفوذه على العراق أصبحت المواجهة محتومة بينه وبين عبد الملك ، الذى قرر أن يقود المعركة بنفسه بعد أن شاور خاصته فى ذلك ، فمنهم من أشار عليه أن يقيم فى الشام ، ويرسل واحدا من أهله ليقود الجيش ، ومنهم من أشار عليه بأن يسير بنفسه ، فمال هو إلى هذا الرأى . وقال : « إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى ،ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له ، وإنى بصير بالحرب ، شجاع بالسيف إن احتجت إليه ، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ، ولكنه لاعلم له بالحرب ... ومعه من يخالفه ، ومعى من ينصح لى(١٨٠) » .

عزم عبد الملك اذن على السير إلى العراق لانتزاعه من ابن الزبير ، وكان ذلك فى سنة ٧١ هـ أى بعد أربع سنين من القضاء على المختار ولعله أخر الصدام مع ابن الزبير إلى هذا الوقت متعمدا ، فهو لم يشأ أن يسير إلى العراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه فى الشام ، فقضى هذه السنين فى تحقيق هذا الهدف ، فقد حل مشاكله مع زفر بن الحارث الكلابى الذى كان معتصما بقرقيسياء(١٨١) ، مهددا بذلك إقليم الجزيرة كله ، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة ، واصطلح

---

(١٨٠) ابن الأثير — الكامل ٣٢٣/٤

(١٨١) كان زفر من أنصار ابن الزبير وممن بايعوه ، وقد حضر معركة مرج راهط مع الضحاك بن قيس ، ولما حلت بهم الهزيمة وقتل الضحاك ونجا هو من الموت ذهب إلى قرقيسياء وظل معتصما بها مخالفا لعبد الملك ، حتى تم الصلح بينهما سنة ٧١ هـ .

معـــه . وأنهى بذلك مســـألة قرقيسياء التى استمرت حوالى ســـبع سنين كا لشوكة فى جنب دولته ، وأحكم سيطرته على إقليم الجزيره(١٨٢) . ثم تخلص من منافسه الخطير ، وهو عمرو بن سعيد الأشدق(١٨٣) .

ولما اطمأن إلى سلامة وقوة موقفه ، لم يضيع وقتا ، فأعد جيشه وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان ، وسار إلى العراق ليخوض المعركة الفاصلة مع مصعب بن الزبير ، ونزل بمسكن ، وكان مصعب قد علم بمسيره ، فسار هوأيضا بجيشه وعلى مقدمته إبراهيم بن الأشتر ، ونزل باجميرا(١٨٤) . وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم ، وكان إبراهيم بن الأشتر من بين الذين كتب إليهم عبد الملك ، فأخذ الكتاب مختوما ودفعه إلى مصعب ، فقال له : ما فيه ؟ فقال له : ما قرأته . « فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه ، ويجعل له ولاية العراق ، فقال لمصعب : إنه والله ما كان من احد آيس منـــه منى ، ولقد كتب إلى اصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلى ، فأطعنى فيهم فاضرب أعناقهم ، قال : إذا لاتناصحنا عشائرهم ، قال : فأوقرهم حديدا ، وأبعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك ، ووكل بهم من إن غلبت ضرب أعناقهم ، وإن غلبت مننت بهم علـــى عشائرهم . فقـــال : يا أبا النعمان إنى لفى شغل عن ذلك ، يرحم الله أبا بحر ، إنه كان ليحذرنى غدر أهل العراق ، كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه !(١٨٥) » وهذا ليس غريبا على أهل العراق ، فلهم فى الغـــدر وتغيير المواقف سجل حافل . بل لقد صرح عبد الملك بأن كتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو إليهم(١٨٦) . ولم يكن هـــذا خافيا فى معسكر مصعب ، فعندما استدعى

---

(١٨٢) انظر ابن الأثير — الكامل ٤/٣٤٠ و د. محمد ضياء الدين الريس — عبد الملك بن مروان ص ٢٠٩

(١٨٣) الطبرى ٦/١٤٠

(١٨٤) المصدر السابق ٦/١٥٧

(١٨٥) الطبرى ٦/١٥٧ وابن الأثير — الكامل ٤/٣٢٥ ، وأبو بحر هو الأحنف بن قيس .

(١٨٦) ابن الأثير — المصدر السابق ٤/٣٢٣

المهلب بن أبى صفره — وكان من رجاله فى ذلك الوقت — يستشيره ، قال له : « أعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم ، فلا تبعدنى عنك . فقال له مصعب : إن اهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى اجعلك على قتال الخوارج ، وهم قد بلغوا سوق الأهواز ، وانا اكره إذ سار عبد الملك إلى أن لا اسير إليه ، فاكفنى هذا الثغر »(١٨٧) .

فى الوقت الذى كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب والذين قبلوا التخلى عنه والانضمام إليه(١٨٨) . كان حريصا على الا يقاتل مصعبا ، للمودة والصداقة القديمة التى كانت بينهما ، فأرسل إليه رجلا من كلب ، وقال له : « أقرى ابن اختك السلام — وكانت أم مصعب كلبية — وقل له يدع دعاءه إلى أخيه ، وأدع دعائى إلى نفسى ، ويجعل الأمر شورى ، فقال له مصعب : قل له السيف بيننا(١٨٩) » ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى : فأرسل إليه اخاه محمدا ليقول له : « إن ابن عمك يعطيك الأمان ، فقال مصعب إن مثلى لاينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبا أو مغلوبا »(١٩٠) ثم دارت المعركة فبدأت خيانات أهل العراق تظهر فقد أمد مصعب ابراهيم بن الأشتر بعتاب ابن ورقاء ، وهو من الذين كانوا كاتبوا عبد الملك ، فاستاء إبراهيم من ذلك ، وقال : « قد قلت له لا تمدنى بعتاب وضربائه ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فانهزم عتاب بالناس » فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقتل »(١٩١) ، فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب ، لأنه فوق شجاعته ، كان مخلصا له غاية الإخلاص ، ولذلك لما اشتد القتال على مصعب

---

(١٨٧) المصدر السابق ٣٢٤/٤

(١٨٨) ذكر الطبرى من هؤلاء حجار بن ابجر ، والغضبان بن القبعثرى ، وعتاب بن ورقاء ، وقطن بن عبد الله الحارثى ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ، وزحر بن قيس ، ومحمد بن عمير . انظر ١٥٦/٦

(١٨٩) ابن الأثير — الكامل ٣٢٦/٤

(١٩٠) الطبرى ١٥٩/٦

(١٩١) ابن الأثير — المصدر السابق ٣٢٦/٤

وتحرج موقفه صاح قائلا : « يا إبراهيم ولا إبراهيم لى اليوم(١٩٢) » . تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه ، حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال(١٩٣) ، ولكنه ظل يقاتل فى شجاعة وبسالة ، حتى اثخنته الجراح ، وأخيرا قتله زياد بن ظبيان . وكان مقتله فى المكان الذى دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق(١٩٤) فى جمادى الآخره سنة ٧٢ هـ . فلما بلغ عبد الملك مقتله قال : « واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة ، ولكن هـذا الملك عقيم »(١٩٥) . وبمقتل مصعب انتهت المعركة ، فدخل عبد الملك الكوفة ، وبايعـه أهلهـا ، وعـادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية . وعين عبد الملك أخاه بشرا واليا عليها ، وقبل أن يغادرها أعد جيشا للقضاء على عبد الله بن الزبير فى مكة :

القضاء على عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ .

كان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير فى معركة دير الجاثليق ، إيذانا بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير ، فقد استقرت له الأمور فى جميع الأمصـار الإسـلامية ، وانحصرت دولة ابن الزبير فى الحجاز ، ولم يكن فى استطاعته الصمود ، لافتقاره إلى المـال والرجال ، كما أن مقتل أخيه مصعب قدفت فى عضده وأصابه بالإحباط ، ولكنه لم يلق الراية ، وظل يقاوم حتى النهاية .

لم يضيع عبد الملك بن مروان وقتا بعد انتصاره على مصعب ، وقرر أن يقضى نهائيا على دولة ابن الزبير ، وبينما يشارو رجاله فى شخص يتولى هـذه المهمة ، قام إليه الحجاج بن يوسف الثقفى ، فقـال له : « ابعثنى إليه يا أمير المؤمنين ، فإنى رأيت فى المنام كأنى ذبحته ، وجلست

---

(١٩٢) المصدر السابق ٣٢٦/٤

(١٩٣) المصدر السابق ٣٢٨/٤

(١٩٤) الطبرى ١٦٠/٦ ، ١٦٢ ، يذكر الطبرى تاريخين لقتل مصعب الأول انه كان سنة ٧١ هـ والثانى انه كان سنة ٧٢ هـ ولعل الثـانى هو الأرجح فقد ذكره خليفه ابن خياط فى تاريخه ص ٢٦٨

(١٩٥) الطبرى — ١٦١/٦

على صدره وسلخته . فقال : انت له ، فوجهه فى عشرين ألفا من أهل الشام وغيرهم(١٩٦) » توجه الحجاج إلى الحجاز ونزل الطائف أولا ، ثم أخذ يرسل بعض جنوده إلى قتال ابن الزبير ، ودارت بين الفريقين عدة اشتباكات فى عرفة كانت دائما لمصلحة جيش الحجاج(١٩٧) . وفى ذى القعدة زحف الحجاج من الطائف على مكة ، وحاصر ابن الزبير . ونصب المنجنيق على الكعبة من جبل أبى قبيس ، فلما أهل ذو الحجة لم يستطع ابن الزبير أن يحج ، وحج بالناس عبد الله بن عمر ، وطلب من الحجاج أن يكف عن ضرب الكعبة بالمنجنيق ، لأنه قد منع الناس من الطواف ، فامتثل الحجاج ، ولكن بعد فراغ الناس من طواف الفريضة، نادى الحجاجفىالناس أن يعودوا إلى بلادهم لأنه سيعود إلى ضرب البيت بالحجارة(١٩٨) ، وبالفعل بدأ يضرب الكعبة ، وشدد على ابن الزبير ، وتحرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه ، ومنهم ابناه حمزه وخبيب ، اللذان ذهبا إلى الحجاج واخذا منه الأمان لنفسيهما(١٩٩) . فلما راى ذلك دخلَ على أمه فقال لها : « يا أمه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما اردت من الدنيا ، فما رايك ؟ فقالت : أنت والله يابنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم انك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابكَ ، ولاتمكن من رقبتكَ يتلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ! اهلكت نفسك ، وأهلكت من قتلَ معكَ . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعلَ الأحرار ولا اهل الدين ، وكم خلودكَ فى الدنيا ! القتل أحسن . قدنا ... فقبلَ رأسها ، وقال : هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعيا إلى يومى هذا ، وما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت البقاء فيها ... ولكننى احببت أن اعلم رأيكَ فزدتنى بصيرة مع بصيرتى ، فانظرى ياأمه فإنى

---

(١٩٦) تاريخ اليعقوبى ج ٢٦٦/٢ وابن الأثير — الكاملَ ٣٤٩/٤

(١٩٧) ابن الأثير — المصدر السابقَ ٣٤٩/٤

(١٩٨) المصدر السابق ٣٥٠/٤

(١٩٩) الطبرى ٦ — ١٨٨ وابن الأثير — الكاملَ ٤ — ٣٥٢

مقتول فى يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى الأمر لله(٢٠٠) » فخرج من عندها ، وذهب إلى القتال فقتل من يومه ، وهو السابع عشر من جمادى الأولى سنة٧٣هـ (٢٠١). وبهذا انتهتدولته التى استمرت حوالىتسعسنين

اسباب فشل ابن الزبيـــر :

عندما أعلن عبدالله بن الزبير دولته وبايعه النـــاس فى رجب سنة ٦٤ هـ . كانت كل عوامل النجـــاح متوفرة له . فبيعته جاءت فى وقت لم يكن للمسلمين فيه خليفة ، فهو والحالة هذه خليفة شرعى وليس خارجا على خليفة.وكانت هذه دعامة قوية.ثم بايعته معظم اقطار الأمة الإسلامية ، عدا إقليم الاردن . فكان عليه أن يتحرك إلى الشام أو العراق ، ولو فعل وظهر فى اى من هذين القطرين لكان فى ظهوره للناس مايشد أزرهم ويقوى عزيمتهم ، وإذا قورن بمروان وابنه عبدالملك فربما رجحت كفته عند كثير من الناس . ولكنه بقى قابعا فى مكة ، ولم يقد معركة خارجهـــا بنفسه ، بينما خصومه كانوا سريعى الحركة ، فقد خرج مروان إلى مرج راهــط وهزم انصاره هناك ، ثم سار إلى مصر وأنتزعها من واليه عبدالرحمن بن جحدم . ثم جاء عبد الملك ، وقاد معركته ضد مصعب بنفسه . وكان من أهم أسباب اخفاق بن الزبير إلى جانب هذا :

١ — عـــدم بيعة بنى هاشم له ومعارضتهم لدولته ، فقـــد أمتنع عن بيعته عبدالله بن عباس،ومحمد بن على بن أبى طالب — ابن الحنفية — وغيرهما . فلم يعاملهم بالحكمة ، ولم يقدر مكانتهم بـــين الناس ، وإنما ضيق عليهم ، وسجنهم ، بل هددهم بالتحريق بالنار ، مما جعل محمد بن الحنفية يستغيث بالمختـــار الثقفى ، الذى ارســـل إليه أربعة آلاف من الشيعة ، ولولا ذلك لما أطلق سراحهـــم(٢٠٢) . كذلك امتنع عن بيعته عبدالله بن عمر بن الخطاب(٢٠٣) .

---

(٢٠٠) الطبرى ٦ — ١٨٨ وابن الأثير —الكامل ٤— ٣٥٢ — ٣٥٣
(٢٠١) الطبرى ٦ — ١٨٧
(٢٠٢) المسعودى — مروج الذهب ٣/٨٥ — ٨٦ وتاريخ اليعقوبى ٢/٢٦١ — ٢٦٢
(٢٠٣) ابن خلدون — المقدمة ٢/٦٢٣

٢ — معارضة الخوارج له ، بعد أن تبين لهم أنه لايرى رأيهم، فقد ناصبوه العداء ، وقد مر بنا أنه بينما كان مصعب يقاتل عبد الملك ، كان قائده المهلب بن أبى صفرة مشغولا بحربهم .

٣ — خيانة أهل العراق له ، وعدم إخلاصهم فى الوقوف معه .

٤ — إسراف أخيه مصعب فى الدماء بعد القضاء على المختار الثقفى ؛ حيث قتل فيما يروى ستة آلاف من أهل الكوفة(٢٠٤) دفعة واحدة مما أوغر عليه صدور عشائرهم . وليس ببعيد أن يكون موقفهم منه فى معركة دير الجاثليق له علاقة بهذه الأحداث ، فقد مر بنا أن الذى قتل مصعبا هو زياد بن ظبيان . فلما ذهب إلى عبدالملك أمر له بالف دينار فرفض ابن ظبيان أن يأخذ شيئا ، وقال لعبد الملك : « لم أقتله على طاعتك وإنما قتلته على قتل أخى النابىء(٢٠٥) » وقيل اشترك فى قتله زائدة بن قدامة الثقفى ، وقال حين طعنه : « يالثارات المختار(٢٠٦) »

٥ — ومن بين الأسباب أيضا شح ابن الزبير بالمال وعدم بذله لأنصاره، ولاشك أن سلاح المال خطير ، يجذب القلوب ويأسر النفوس ، ولقد كان خصمه عبد الملك جوادا به ، فجذب إليه القلوب ، وبصفة خاصة من أهل العراق . أما هو فكان بخيلا فانصرفوا عنه ، فقد روى أن أخاه مصعبا ذهب إليه بعد مقتل المختار بزعماء أهل العراق ، وقال له : « ياأمير المؤمنين : قد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم ، كل مطاع فى قومه ، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك ، وقاموا بإحياء دعوتك ، ونابذوا أهل معصيتك ، وسعوا فى قطع عدوك ، فاعطهم من هذا المال : فقال له ... جئتنى بعبيد أهل العراق ، وتأمرنى أن أعطيهم مال الله ! لاأفعل ، وايم الله لوددت أن أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم ، عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام ... فقال رجل منهم : علقناك وعلقت أهل الشام ، ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده ، لا يرجون رفده ، ولايطمعون فيما عنده ، فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على خلعه ، فكتبوا إلى عبدالملك بن مروان أن أقبل إلينا(٢٠٧) » . هذه هى أهم الأسباب التى أدت إلى إخفاق ابن الزبير .

---

(٢٠٤) ابن الأثير ٤/٢٧٨

(٢٠٥) ، (٢٠٦) ابن الأثير — الكامل ٤ — ٣٢٨

(٢٠٧) انظر الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة جـ ٢ — ٢٠

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ٨١ — ٨٣ هـ

هذه واحـــدة من الثورات العديدة التى قام بها اهل العراق ضد الدولة الأموية ، ولم يكن نشـــوبها على أساس مذهبى كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة ، بل دفع إليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والى العراق الحجاج بن يوسف . وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى(٢٠٨) . رئيس قبيلة كندة واحد زعماء الكوفة الذى استغل العـــداء المتأصل والحقد الدفين الذى يكنه اهل العراق للدولة الأموية ، فأشعل هذه الثورة العارمة التى كانت من اخطر الثورات التى واجهها عبدالملك بن مروان . وبدأت هذه الثورة من إقليم سجستان ، ذلك الإقليم الذى أتعب الأمويين ، وكان كثير الأنتقاض ، والتمرد عليهم(٢٠٩) فلما كانت ولاية الحجـــاج بن يوسف على العراق ٧٥ — ٩٥ هـ صبر على مضض على تجاوزات رتبيل ملك سجستان ضد الدولة ، واستغلاله الظروف الصعبة التى كانت تمر بها ، ومنعه الجزية ، فلما انتهت مشاكل العراق الخطيرة ، وكسرت شوكة الخوارج سنة٧٨هـ. قرر أن يؤدب رتبيل فارسل إليه جيشا سنة ٧٩ هـ بقيادة عبيدالله بن أبى بكرة ، وأمره أن يتوغـــل فى سجستان ويدك قلاع رتبيل وحصونه ، وقد

---

(٢٠٨) شاركت أســـرة الأشعث فى كثير من الأحـــداث البارزة فى التاريخ الإسلامى ، فالأشعث — جد عبد الرحمن — حضر صفين مع على ابن أبى طالب ، وكان من المحبذين لإيقاف القتال وقبول التحكيم ، وكان له دور فى اختيار أبى موسى ممثلا لعلى . وكان على لايحبه ولايثق فيه ، وقد حاول عزله عن رئاسة كندة وإسنادها إلى حجر بن عدى ، ولكن حجرا رفض ذلك . اما أبوه محمد فقد ولى الموصل لعبدالله بن الزبير ثم تركها وانحاز إلى المختار الثقفى ضد ابن الزبير ، ثم لم يلبث أن عاد ثانية إلى آل الزبير وكل ذلك بتأثـــير ابنه عبد الرحمن وقد اشتركا مع مصعب فى قتال المختار ، وقتل محمد والد عبد الرحمن اثناء ذلك . وبعد مقتل المختار حمل عبد الرحمن مصعبا على قتل عدة آلاف من اهل الكوفة انتقاما لمقتل أبيه ، وبعد مقتل مصعب تحول ولاؤه الى الأموين وظل فى خدمة عبد الملك بن مروان حتى قام بثورته التى نتحدث عنها الآن .

(٢٠٩) انظر البلاذرى — فتوح — ٤٨٨ — ٤٩٢

فعل عبيدالله ماأمر به الحجاج وتوغل فى البلاد وأصاب كثيرا من الغنائم ، إلا أن رتبيل خدعه حيث تظاهر بالهزيمة أمامه ثم أطبق عليه واخذ عليه العقاب والشعاب وقضى على معظم جيشه . ومات عبيدالله بن أبى بكره كمدا لما نال الناس وأصابهم(٢١٠) .

كان لهزيمة هذا الجيش وقع اليم فى نفس الحجـــاج ، بل فى نفس عبد الملك بن مروان نفسه ، الذى كلف الحجاج بتجريد جيش كبير للإنتقام من رتبيل ، فسارع الحجاج فى إعداد جيش كبير بلغ عدده أربعين ألفا ، وبالغ فى تجهيزه بالخيــول الروائع والسلاح الكامل — على حــد تعبير الطبرى(٢١١)،وبلغ من فخامة الجيش،أن سماه،الناس جيش الطواويس٢١٢ وأسند الحجاج قيادته إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذى لم تكن علاقته به على مايرام ، بل كان كل منهما يحمل الكراهية للآخـر ، ويتمنى الخلاص منه . فكان الحجاج يقول عن ابن الأشعث : « ما رأيته قط إلا أردت قتله(٢١٣) » وكان عبد الرحمن يتحدث علانية انه يحاول أن يزيل الحجاج عن سلطانه . وكان يتعالى عليه ويشمخ بأنفه باعتبــاره سليل الملوك من قبيلة كندة ، وكان يعز عليه أن يكون خاضعا لسلطان أحــد(٢١٤) . ولقــد أدرك عمــه إسماعيل بن الأشعث منــه ذلك وكان يخشى خلافه وخروجه على الحجاج فنصحه بعدم إسناد قيادة هذا الجيش إليه ، وقال له : « لاتبعثه فإنى أخاف خلافه ، والله ماجاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعــة وســلطانا(٢١٥) » ولكن يبدو أن الحجاج قد خانه ذكاؤه هــذه المرة ، أو كان مفرطا فى ثقته بنفسـه ، فلم يسمع نصيحة إسماعيل ورد مستخفا بعبد الرحمن ، فقال : « هو لى أهيب

---

(٢١٠) انظر المصدر السابق ص ٤٩١ — ٤٩٢ — والطبرى ٦/ ٣٢٢ — ٣٢٤

(٢١١) المصدر السابق ٣٢٧/٦ وابن الأثير — الكامل ٤٥٤/٤

(٣١٢) الطبرى ٣٢٩/٦

(٣١٣) المصدر السابق ٣٢٧/٦

(٢١٤) ثابت الراوى — العراق فى العضر الأموى ص٢٠٦ — ٢٠٧.

(٢١٥) الطبرى ٣٢٨/٦

وفى أرغب من أن يخالف أمرى ، أو يخرج عن طاعتى(٢١٦) » .

مضى عبد الرحمن بهذا الجيش العظيم إلى سجستان لتأديب رتبيل ، وكان ذلك فى سنة ٨٠ هـ . فلما بلغته الأخبار ، كتب إلى عبد الرحمن يعتذر إليه مما حل بالمسلمين فى بلاده ويطلب الصلح ، ولكن عبد الرحمن لم يقبل(٢١٧) ، وأخذ يتوغل فى بلاده ، وهنا حاول رتبيل أن يكرر مع عبد الرحمن ماصنعه مع عبيد الله بن أبى بكرة ، فأخذ يخلى البلاد والحصون أمامه ليوقعه فى شرك . ولكن ابن الأشعث فطن إلى ذلك ، وكان كما يقول الطبرى :

« كلما حوى بلدا بعث إليه عاملا . وبعث معه أعوانا ، ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان مخوف ، حتى إذا جاز من أرضه أرضا عظيمة ، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة ، حبس الناس عن الوغول فى أرض رتبيل ، وقال : نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم ، حتى نجبيها ونعرفها ، ويجترىء المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل ننتقصهم فى كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم ، وفى أقصى بلادهم وممتنع حصونهم ، ثم لانزايل بلادهم حتى يهلكهم الله(٢١٨) » .

أوردت هذا النص الطويل من الطبرى ، لأنه يبين بوضوح خطة عبد الرحمن ، فى حرب رتبيل وهى خطة سديدة وعملية وتدل على ذكاء وحنكة وتجربة وقد كتب إلى الحجاج بما حققه من فتوحات وبخطته التى اعتزم تنفيذها(٢١٩) .

ولكن الحجاج لم يعجبه ذلك ورد عليه ردا قاسيا اتهمه فيه بالضعف والتياث الرأى . حيث قال له : « أما بعد فإن كتابك أتانى ، وفهمت

(٢١٦) نفسه ٦/٣٢٨
(٢١٧) نفسه ٦/٣٢٨
(٢١٨) المصدر السابق ٦/٣٢٩ — وابن الأثير — الكامل ٤/٤٥٥
(٢١٩) المصدران السابقان ٦/٣٢٩ ، ٤/٤٤٥

ما ذكرت فيه ، وكتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ، ويستريح إلى الموادعة ، قد صانع عدوا قليلا ذليلا ، قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا ، وغناؤهم فى الإسلام عظيما ، لعمرك يابن أم عبد الرحمن ، إنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخى النفس عمن أصيب من المسلمين ، إنى لم أعدد رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ، ولكنى رايت انه لم يحملك عليه إلا ضعفك ، والتياث رأيك ، فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم ، والهدم لحصونهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبى ذراريهم(٢٢٠) » .

أحس ابن الأشعث بالإهانة من مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب المنيف ، والحق معه فى ذلك ، فالحجاج وقد عهد إليه بهذه المهمة الخطيرة ، وفى هذا الإقليم البعيد كان يجب أن تكون ثقته فيه كاملة ، وأن يشجعه بدلا من أن يعنفه ، فهو الذى بمعانى الحرب واقدر على تكييف موقفه وظروفه من الحجاج البعيد عن الميدان . ولو كان ضعيف الرأى يحب الموادعة — كما يقول عنه الحجاج — لكان الحجاج نفسه قد ارتكب خطأ فاحشا فى أن يعهد بمثل هذا العمل الخطير إلى رجل ضعيف الرأى ، فالحرب لايصلح لها من تكون هذه صفته .

ولم يكتف الحجاج بهذا الكتاب القاسى ، وإنما أردفه بكتابين آخرين ، يتضمنان نفس المعانى ، بل هدده فى الثانى منهما بالعزل ، حيث قاله له : « أما بعد ، فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم ، وإلا فإسحاق ابن محمد أخوك أمير الناس ، فخله وما وليته(٢٢١) » .

أحدث هذا الكتاب اثرا اليما فى نفس ابن الأشعث ، فجمع كبار جنده ، وهو فى ثورة غضب ، وقال لهم : « أيها الناس إنى لكم ناصح ، ولصلاحكم محب ، ولكم فى كل ما يحيط بكم نفعه ناظر ، وقد كان من رأيى فيما بينكم وبين عدوكم رأى استشرت فيه ذوى أحلامكم ، وأولى التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأيا ، وراوه لكم فى العاجل والآجل

---

(٢٢٠) المصدران السابقان ٣٣٥/٦ ، ٤٦١/٤

(٢٢١) المصدران السابقان ٣٣٥/٦ ، ٤٦١/٤

صلاحا ، وقـــد كتبت إلى أميركم الحجاج ، فجاءنى منـــه كتاب يعجزنى ويضعفنى ، ويأمرنى بتعجيل الوغول بكم فى أرض العدو ، وهى البلاد التى هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا مضيتم ، وآبى إذا أبيتم ، فثار إليه النـــاس فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع(٢٢٢) » .

هنا ارتكب ابن الأشعث خطأ قاتلا فى حق الدولة ، بل فى حق نفسه ، حيث جهر بأمر المكاتبات التى دارت بينه وبين الحجاج ، والتى كان يجب أن تكون فى صـــدره وحده ، وإذا كان لابد من الاستشارة فكان عليه أن يختار عـــددا محدودا من أهل الرأى والحكمة ، يأخذ رأيهم فى الطريقة التى يجب أن يتصرف بها . وكان يمكنه أن يرسل وفدا على نفس المستوى إلى الحجاج على وجه السرعة ، ليشرحوا له موقفهم وخططهم ، أما اللجوء إلى استثارتهم ضد الحجاج ، وهو يعلم أنهم لايحبونه ، ويودون التخلص منه ، فعمل ليس من الأمانة فى شىء .

وما كاد أهل العراق يسمعون مقالة ابن الأشعث حتى قام خطباؤهم وشعراؤهم يعلنون سخطهم على الحجـــاج ويعلنون خلعه ، ودعوه إلى البيعة ، فاستجاب على الفور ، وقال لهم : « تبايعونى على خلع الحجاج عـــدو الله ، وعلـــى النصرة لى ، وجهـــاده حتى ينفيـــه الله من أرض العراق ، فبايعه النـــاس ، ولم يذكر خلع عبد الملك إذ ذاك بشىء(٢٢٣) » ومن هنا بدأ ماسمى بثورة ابن الأشعث ، التى كانت من أخطر الثورات التى واجهها عبد الملك بن مروان . لقد أنصفنا ابن الأشعث عندما ذكرنا أنه كان على حق إذ اســـتاء من معاملة الحجاج له ، ولكننا هنا نحمله مسئولية هذه الثورة كاملة ، فمهما كان من أمر الحجاج معه ، وكيفما كانت علاقته به ، فنحن هنا أمام مصلحة المسلمين ومصير الدولة ، فما كان يحق له أن يعلن الثورة عليها ، وهى التى عهدت إليه بهذا العمل الكبير ، ولكن يبدو أن بذور الثورة كانت كامنة فى نفســـه ، وشجعه على ذلك الاستجابة

---

(٢٢٢) المصدران السابقان ٦/٣٣٥ ، ٤/٤٦١ — ٤٦٢

(٢٢٣) المصدران السابقان ٦/٣٣٦ ، ٤/٤٦٣

الفورية من جند العراق ، الذين كانت قلوبهم تنطوى على حقد دفين على الحجاج ، بل على الدولة الأموية نفسهـا ، وشجعه أكثر استجابة الفقراء الذين كانوا معه ، فقد كان فى الجيش عدد كبير من كبار التابعين ، ذكر منهم خليفة بن خياط أكثر من عشرين رجلا(٢٢٤) ، منهم سعيد بن جبير ، وعامر بن شراحيل الشعبى ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، والحسن ابن أبى الحسن البصرى .

ويبدو أن الحجاج قصد من إرسالهم مع الجيش أن يكون وجودهم حافزا للجند على قتـال الأعداء ، فإذا بـه يكون حافزا علـى الثورة ، وعاملا من أهم عوامل تأجيجها(٢٢٥) ، لمكانتهم من الناس ، وثقتهم فيهم . فقـد ذكر خليفة بن خياط أنه « قيل لابن الأشعث إن أحببت أن يقتلوا حولك ، كما قتلوا حول جمل عائشة فأخرج الحسـن(٢٢٦) » وهكذا انقلب كل شىء على الحجاج ليؤدى إلى عكس ما كان يريد ، عزم ابن الأشعث على الثورة إذن ، وبدلا من أن يمضى فى مقاتلة رتبيل ملك سجستان ، ارتد إلى العراق ليقاتل الحجاج ، بل عقد اتفاقا مع رتبيل وصالحه على أنـه إن انتصر على الحجاج فسيعفيه من الخراج ، وإن انهزم فعلى رتبيل أن يوفر له الملجأ والحماية(٢٢٧) .

---

(٢٢٤) تاريخ خليفة ص ٢٨٦ — ٢٨٧

(٢٢٥) كان هؤلاء الفقهاء أو القراء — كما كانوا يسمون — لا يرون من الحجاج إلا الوجه المظلم ، كوال قاس طاغية مسـتبد ، ولم يقدروا الظروف التى كان يعمل فيها والتى ألجأته إلى هذه القسوة ، فالعهد كان عهد فتن وثورات وقلاقل فى كل مكان . ولو وجد الحجاج فى عهد استقرار وأمن لربما رأى الناس منه غير ماراوا ، فالرجل رغم كل شىء كان رجل تعمير وإدارة ، وكان ينطوى على لمحات إنسانية ظهرت فى مواقف كثيرة . ولكن الفقهاء بروحهم المسالمة ينفرون من القسوة ويتصورون أن المشاكل كلها يمكن أن تحل بالوعظ والإرشاد وهذه نظرة مثالية للأمور . من قوم لم يعانوا السياسة وضروراتها .

(٢٢٦) المصدر السابق ص ٢٨٧

(٢٢٧) الطبرى ٦/٣٣٦

بلغت اخبار الثورة الحجاج فانزعج انزعاجا شديدا ، وكتب إلى عبد الك بن مروان بالأمر ، وسأله أن يعجل بإرسال الجنود من الشام(٢٢٨) . ولم يكن عبد الملك اقل انزعاجا من الحجاج لدى سماعه اخبار الثورة ، التى هزته ربما أكثر من جميع الأحداث التى مرت به حتى الآن . واستدعى خالد بن يزيد بن معاوية ليستشيره ، واقرأه الكتاب الذى جاءه من الحجاج ، فلما رأى خالد ما به من الجزع ، أراد أن يهون عليه الأمر ، فقال له : « يا أمير المؤمنين : إن كان هذا الحدث من قبل سجستان فلا تخفه ، وإن كان من قبل خراسان تخوفته(٢٢٩) » واخذ عبد الملك يوالى الحجاج بجند الشام . وكان المهلب بن أبى صفرة فى ذلك الوقت فى خراسان فلما بلغته أخبار الثورة كتب إلى ابن الأشعث يحذره من مغبة العمل الذى أقدم عليه ، وينهاه عن تفريق كلمة المسلمين وسفك دمائهم(٢٣٠) . ثم كتب إلى الحجاج بخبرته بأهل العراق ، فقال له : « أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر من عل ، وليس شىء يرده حتى ينتهى إلى قراره ، وإن لأهل العراق شره فى اول مخرجهم ، وصبابة إلى نسائهم وابنائهم ، فليس شىء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم ، ويشموا أولادهم ، ثم واقفهم عندها ، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله(٢٣١) » كان هذا الرأى الذى اشار به المهلب — صاحب الخبرة الكبيرة بأهل العراق — هو الصواب ، فقد أراد أن يوفر على الحجاج الجهد ، وقد أشار عليه بالرأى نفسه ذادان فروخ(٢٣٢) . ولكن الحجاج لم يعمل برأى المهلب ، بل اتهمه بالخديعة ، وقال : « لا والله مالى نظر ، ولكن لابن عمه نصح »(٢٣٣) ولكنه ندم

---

(٢٢٨) نفسه ٦/٣٣٨

(٢٢٩) نفسه ٦/٣٣٩

(٢٣٠) نفسه ٦/٣٣٨

(٢٣١) المصدر السابق ٦/٣٣٩

(٢٣٢) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٨١

(٢٣٣) الطبرى ٦/٣٣٩

على ذلك فيما بعد(٢٣٤) ، عندما تحقق ماأشار به المهلب، لأن ابن الأشعث ما أن دخل البصرة حتى قعد عنه عامة أهلها وركنوا إلى أهلهم(٢٣٥) .

كانت بداية الثورة سنة ٨١ هـ ، وقد هزم ابن الأشعث كل الجيوش التى أرسلها إليه الحجاج ولم تستطع إيقافه فتقدم حتى دخل البصرة ، فتركها الحجاج وسار إلى الزاوية(٢٣٦) ، حيث دارت بينهما معركة فى المحرم سنة ٨٢ هـ(٢٣٧) انتصر فيها الحجاج ، فاضطر ابن الأشعث إلى مغادرة البصرة ، فعاد الحجاج إليها . ولكن ابن الأشعث حقق مزيدا من الانتصارات ، وتزايدت جموعه ، حتى بلغت مائة ألف مقاتل(٢٣٨) .

وكان ابن الأشعث لما رأى إقبال الناس عليه واستجابتهم لدعوته قد خلع عبد الملك بن مروان(٢٣٩) ، وهنا تطورت الثورة تطورا خطيرا ، فتحولت من ثورة على الحجاج والى العراق ، إلى ثورة على الخليفة نفسه . وإزاء هذا التطور شاور عبد الملك خاصة رجاله ، فأشاروا عليه بخلع الحجاج ، وقالوا له : « إن كان إنما يرضى أهل العراق أن ينزع عنهم الحجاج،فإن نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق ، فانزعه عنهم تخلص لك طاعتهم(٢٤٠) » فاقتنععبد الملك بهذه الفكرة ، وارسل إلى العراق ابنه عبدالله وأخاه محمدا ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج ، وأن تجرى عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام ، وان ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق شاء ، وأن يكون واليا عليه مادام

---

(٢٣٤) نفسه ٣٤٠/٦ فقد قال الحجاج : « لله أبوه أى صاحب حرب هو : أشار علينا بالرأى ولكننا لم نقبل » .

(٢٣٥) تاريخ خليفة ص ٢٨١

(٢٣٦) يوجد أكثر من مكان يحمل اسم الزاوية . ولكن المقصود هنا زاوية البصرة ، مكان قريب منها — انظر ياقوت معجم البلدان ١٢٨/٣.

(٢٣٧) تاريخ خليفة ص ٢٨١ والطبرى ٣٤٢/٦

(٢٣٨) الطبرى ٣٤٧/٦

(٢٣٩) نفسه ٣٣٨/٦

(٢٤٠) نفسه ٣٤٧/

حيا ، وكان عبد الملك واليا ، فإن هم قبلوا ذلك عزل عنهم الحجاج ، وكان محمد بن مروان أمير العراق ، وإن أبوا أن يقبلوا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام وولى القتال ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك فى طاعته(٢٤١) كان من الطبيعى أن يستاء الحجاج من هذا ، وعز عليه أن يضحى به عبد الملك بن مروان ، بعد كل ماقدم له من خدمات . وكتب إليه يذكره بما حدث من أهل العراق مع عثمان بن عفان ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى لايلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدهم ذلك إلا جراة عليك ، الم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان ، فلما سألهم مايريدون قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ! إن الحديد بالحديد يفلح ، خار الله لك فيما رأيت . والسلام عليك(٢٤٢) » غير أن عبد الملك كان مقتنعا بالفكرة،وان مصلحة الدولة عنده فوق كل اعتبار . ورأى فى ذلك منع الحرب(٢٤٣) . ولكن من حسن حظ الحجاج أنه لما عرضت الفكرة على أهل العراق رفضوها بقوة ، مع أن ابن الأشعث قبلها ، وحثهم على قبولها ، لكنهم لم يوافقوه ، بل جددوا خلع عبد الملك ، وظنوا الفرصة قد واتتهم للتخلص من الحكم الأموى(٢٤٤) وبدأ الفريقان يستعدان للقتال ، فاشتبكا فى أشهر وقائعهم — التى زادت عن ثمانين موقعة — فى دير الجماجم(٢٤٥) والتى استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث . فى الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٣ هـ(٢٤٦) ثم دارت معركة أخرى بعدها فى مسكن ، فى شعبان من نفس السنة ، فهزم ابن الأشعث أيضا ، ثم ولى هاربا إلى سجستان(٢٤٧) ،

---

(٢٤١) نفسه ٣٤٨/٦

(٢٤٢) المصدر السابق ٣٤٨/٦

(٢٤٣) نفسه ٣٤٨/٦

(٢٤٤) نفسه ٣٤٨/٦ — ٣٤٩

(٢٤٥) على سبعة فراسخ من الكوفة على طريق البصرة — ياقوت معجم البلدان ٥٠٣/٢

(٢٤٦) الطبرى ٣٦٣/٦

(٢٤٧) نفسه ٣٦٦/٦ — ٣٦٧

ملتجئا إلى رتبيل للإتفاق الذى كان قد تم بينهما ، ولكن الحجاج هــدد رتبيل إن لم يسلم إليه ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل(٢٤٨) ، فرضخ للتهديد وعزم على تسليمه إليه ، فلما أحس ابن الأشعث بغدر رتبيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذى كان فيه ، فمات فأخــذ رأسه وأرسلها إلى الحجاج ، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ(٢٤٩) .

وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذى قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك ابن مروان ، أريقت فيهــا دماء عشرات الألوف من المسلمين ، وهى ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة فى نفس ابن الأشعث والحجاج ، كل منهما للآخر من ناحية ، وبغض أهل العراق للحكم الأموى من ناحية ثانيــــة .

---

(٢٤٨) نفسه ٣٨٩/٦

(٢٤٩) نفسه ٣٩١/٦

ثورة يزيد بن المهلب ١٠١ — ١٠٢ هـ

هذه ثورة أخــرى من الثورات العديدة التى هبت فى وجه الدولة الأموية ، وهى شديدة الشبه بثورة ابن الأشعث — التى سبق الحديث عنها — فلها خلفية طويلة من الأحقاد الشخصية ، ولها علاقة بصلة قائدها يزيد ابن المهلب بالحجــاج بن يوسف الثقفى ، فقد ساءت العلاقة بين الحجاج وبين آل المهلب إلى ابعدحد ، فعزلهم جميعا عن ولاياتهم ، ووضع اكبرهم يزيد فى السجن . ولاندرى السبب الذى غير الحجاج وجعله ينقلب عليهم بهذه الصورة . مع أنهم كانوا أصهاره(٢٥٠) ، وكان ابوهم المهلب ابن أبى صفرة من خيرة الرجال الذين عرفهم العهد الأموى ، ومثالا يحتذى فى الطاعــة والإخلاص لكل من عمل معهم ، فقد عمل لمعــاوية بن أبى سفيان ، ثم دخل فى خدمة عبدالله بن الزبير ، ثم آل أمره إلى أن أصبح من رجال عبدالملك بن مروان . وكان دوره فى حرب الخوارج وكسر شوكتهم بارزا . ولم تحدثه نفسه ابدا بالثورة أو الخروج عن الطاعة ، فقد رفض رفضا باتا الانضمام إلى ثورة ابن الأشعث ، بل كتب إليه ليثنيه عن الثورة ويحذره عواقبهــا ، ثم كتب إلى الحجــاج بنصيحته فى مقــاومة هــذه الثورة(٢٥١) .

وكان الحجاج قد عينه واليا على خراسان سنة ٧٨ هـ(٢٥٢) بعد قضائه على الخوارج ، وكانت له أثناء ذلك غزوات موفقة فى بلاد ماوراء النهر . ولما حانت وفاته سنة ٨٢ هـ ، استخلف ابنه يزيد من بعده فاقره الحجاج على ولاية خراسان(٢٥٣) فظل واليــا عليها إلى سنة ٨٥ هـ ، حيث عزله الحجــاج ، وعين مكانه أخاه المفضل(٢٥٤) ، ثم لم يلبث أن عزل المفضل وعين قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٨٦ هـ(٢٥٥) وبهذا تخلص

---

(٢٥٠) كان الحجاج متزوجا من هند بنت المهلب بن أبى صفرة .
(٢٥١) الطبرى ٦/٣٣٨ — ٣٣٩ .
(٢٥٢) نفسه ٦/٣٢١
(٢٥٣) نفسه ٦/٣٥٥
(٢٥٤) نفسه ٦/٣٩٣
(٢٥٥) نفسه ٦/٤٢٤

الحجاج من أسرة المهلب نهائيا ، وألح فى ذلك الحاحا شديدا على عبد الملك ابن مروان، الذى لم يكن يرى داعيا لعزلهم وحرمان الدولة من جهودهم — ولم يجد الحجاج عذرا له فى ذلك سوى اتهامهم بأنهم كانوا فى خدمة ابن الزبير ، وخوفه غدرهم ، ومع أن عبد الملك لم ير ذلك عيبا فيهم ، وقال له : « إنى لا أرى نقصا بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير ، بل أراه وفاء منهم وإن وفاءهم لهم ، يدعوهم إلى الوفاء لى(٢٥٦) »

ومن العجيب أن تكون علاقتهم بابن الزبير — الذى انتهى أمره منذ زمن بعيد — سببا للشك فى وفائهم كما ادعى الحجاج .

ولكن رغم ذلك فقد أفلح فى إقتناع عبد الملك برأيه ،وتخلص منهم ، ولم يكتف بذلك ، بل وضعهم فى السجن ، فظلوا فيه إلى أن استطاعوا الهرب فى سنة ٩٠ هـ والتجأوا إلى سليمان بن عبد الملك الذى كان ولى العهد آنذاك ، والذى كانت صلتهم به طيبة ، وفى الوقت نفسه كانت علاقاته مع الحجاج سيئة للغاية ، فشفع لهم عند أخيه الوليد ، فقبل الوليد شفاعته(٢٥٧) ، وظلوا فى حماية سليمان إلى أن توفى الوليد سنة ٩٦ هـ وأصبح سليمان خليفة ، فارتفعنجمهم من جديد ، وعين سليمان يزيد بن المهلب واليا على العراق ، ثم على خراسان بعد ذلك بناء على طلبه(٢٥٨) ، فأعاد فتح جرجان وطبرستان — اللتين كانتا قد نقضتا عهودهما — وظل واليا على خراسان طوال خلافة سليمان بن عبدالملك ، فلما توفى سليمان ، وولى عمر بن عبدالعزيز سنة ٩٩ هـ عزل يزيد بن المهلب عن خراسان ، لأنه لم يكن يحب آل المهلب وكان يقول : « هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم(٢٥٩) » . ثم لم يلبث عمر أن أمر بالقبض على يزيد ووضعه فى السجن ، بسبب أموال كانت عنده لبيت المال ، ولم يقبل فيه شفاعة أحد ، ورفض إطلاق سراحه إلا بعد أداء هذا المال(٢٦٠) .

(٢٥٦) نفسه ٦/٣٩٥
(٢٥٧) الطبرى ٦/٤٤٨
(٢٥٨) نفسه ٦/٥٢٦
(٢٥٩) نفسه ٦/٥٥٧
(٢٦٠) نفسه ٦/٥٥٧

وظل يزيد فى السجن ، حتى سمع بمرض عمر بن عبد العزيز ، فهرب من السجن(٢٦١) ، لأنه كان يخشى أن يقع فى يد يزيد بن عبدالملك ، فينكل به ، لأن يزيد كان يميل إلى آل أبى عقيل ، أسرة الحجاج ، لأنهم كانوا أصهاره . وكان يزيد بن المهلب قد أنتقم منهم بعد أن استعاد مركزه فى خلافة سليمان . ومن هنا بدأ ما سمى بثورة يزيد بن المهلب ، الذى يبدو أنه لم يكن يفكر فى الثورة عند هروبه من السجن ، وكان كل همه أن يجد لنفسه الأمان بعيدا عن بطش يزيد بن عبدالملك . ولكن ما أن وصل إلى البصرة ، حتى وجد نفسه فى بيئة الثورات وموطن الفتن ،فالتف أهل البصرة حوله كعادتهم مع كل ثائر على الدولة الأموية ، وساقوه إلى الثورة سوقا ، فانخدع بهم ، ولم يتعظ من كل الأحداث السابقة ، وأقربها ثورة ابن الأشعث ، فلما شجعوه ، وثب على عدى بن أرطاة الفزارى والى البصرة ووضعه فى السجن وسيطر عليها(٢٦٢) ، وخلع طاعة يزيد بن عبدالملك ، وأقبل عليه أهل البصرة ، فدعاهم إلى بيعته على كتاب الله وسنة نبيه وعلى الجهاد ، وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم(٢٦٣) . فبايعوه ولم يأبهوا لتثبيط الحسن البصرى الذى كان لا يرى رأيهم فى الخروج مع يزيد ، فقد رأى بنفسه ماجرته ثورة ابن الأشعث على الأمة من كوارث وما أريق فيها من دماء.ولذلك لم يخش بطش ابن المهلب ، ورأى أن من واجبه هذه المرة أن يحذر من الفتنة ، ويبصر بعواقبها ، بل ذكر أهل البصرة بأن يزيد بن المهلب طالما عذبهم وقتل منهم كثيرين فى طاعة بنى مروان ، فلما غضب عليهم ، جاء يدعوكم إلى الخروج عليهم ، فقالوا له : أنه يدعونا إلى سنة العمرين ، فقال لهم : « إن من سنة العمرين أن يوضع فى رجله قيد ثم يرد إلى محبسه(٢٦٤) » ولكن صيحة الحسن لم تؤد إلى نتيجة ، ولم تلبث حركة ابن المهلب أن اشتدت ، وأنضم إليها كثيرون من الموالى ، ومن الموتورين من زعماء القبائل العربية،

---

(٢٦١) نفسه ص ٦/٥٦٤

(٢٦٢) نفسه ٦/٥٧٨

(٢٦٣) ابن الأثير — الكامل ٥/٧٥

(٢٦٤) الطبرى ٦/٥٨٧

أمثال إسحاق بنمحمد بن الأشعث ، والنعمان بن إبراهيمبن الأشتر(٢٦٥)، وهؤلاء يمنيون ، فلعل العصبية حركتهم لمؤآزرة يزيد ، بالإضافة إلى حنقهم على الدولة ثم انضمت إليه قبائل ربيعة وتميم وبعض قيس ، بل انضم إليه بعض أهل الشام مع عمران بن مسمع الذى كان ساخطا على عدى بن أرطاة(٢٦٦) . ولما ترامت أخبار الثورة خارج البصرة ، جاءه تأييد من الجزيرة والبحرين وعمان(٢٦٧) . وبعث عماله على فارس والأهواز وكرمان(٢٦٨) . فلما استفحل أمر الثورة وعجز عبدالحميد بن عبد الرحمن والى الكوفة عن القضاء عليها ، اضطر يزيد بن عبد الملك إلى إرسال أخيه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك على رأس جيش كبير من أهل الشام ، فتمكنا من هزيمة ابن المهلب فى معركة عقر — قرب الكوفة فى صفر سنة ١٠٢ هـ ، بعد أن خذله العراقيون كعادتهم(٢٦٩) وقتل يزيد ، وقتل معه بعض أفراد أسرته ، وفر الباقون حتى لحقوا بقندابيل من أرض اسند(٢٧٠) .

وهكذا أنتهت إحدى الثورات العنيفة التى اندلعت ضد الدولة الأموية ، والتى دفع إليها الحقد والطموح ، وربما العصبية القبلية . وانتهت أسرة من الأسر نابهة الذكر ، عظيمة الشأن ، أدت دورا كبيرا فى التاريخ الإسلامى ، فى العصر الأموى .

---

(٢٦٥) ثابت الراوى — المرجع السابق ص ٢١٧ وراجع ابن الأثير ٥/٨٥

(٢٦٦) الطبرى ٦/٥٨٠

(٢٦٧) ثابت الراوى — المرجع السابق ص ٢١٧

(٢٦٨) الطبرى ٦/٥٨٥

(٢٦٩) ثابت الراوى — المرجع السابق ص ٢١٨

(٢٧٠) الطبرى ٦/٥٩٠ ومابعدها

انتشار القلاقل فى معظم الولايات فى أواخر الدولة الأموية

هذه الثورات العنيفة المتلاحقة والمتعددة الاتجاهات والأهداف، التى تحدثنا عنها ، وإن كانت الدولة الأموية قد نجحت فى القضاء عليها ، إلا انها أنهكتها واضعفت كيانها ، وكانت لها نتائج خطيرة على مستقبلها ، بل على مصيرها كله ، وساهمت فى سقوطها . فمن نتائجها المباشرة أنها عمقت العصبية القبلية ، وجعلتها تأخذ شكلا حادا بين عرب الجنوب — اليمن — وعرب الشمال — مضر وقيس كما يطلق عليها — وهذه المشكلة استعصت على الحل ، ولم يستطع أحد إيقاف مضاعفاتها حتى نهاية الدولة . كما كان من نتائجها تعميق الكراهية ضد الحكم الأموى فى كثير من الأقاليم ، فلاشك أن قتل عشرات الألوف فى هذه الثورات ، سواء من جيوش الدولة أو من أعدائها قد خلف وراءه مشاكل كثيرة وخطيرة ، فكل أسرة قتل أحد افرادها أو بعضهم فى هذه المعارك ، أصبح لها عند الدولة ثأر ، والناس عادة فى مثل هذه الأحوال ينظرون إلى الأمور بقدر انعكاساتها عليهم وتأثرهم بها بصرف النظر عن من المخطىء ومن المصيب ؟ أو من على حق ومن على باطل من أطراف الصراع ؟ ثم كان من نتائج هذه الثورات أنها كبدت الدولة خسائر فادحة فى الرجال والأموال ، وشغلتها عن العناية بإدارة البلاد والمحافظة على الأمن والاستقرار ، فتراخت قبضتها على الأقاليم ، وأدى اتساع الدولة وترامى أطرافها إلى تفاقم هذه المشكلة . كما أن التخبط فى السياسة المالية — الذى نتج عن حاجة الدولة لتمويل هذه الحروب — كان له أثره فى كثير من حركات التذمر التى سادت أكثر اقاليم الدولة منذ بداية القرن الثانى الهجرى .

ولقد حاول هشام بن عبد الملك ١٠٥ — ١٢٥ هـ . تلافى الآثار السيئة التى خلفتها هذه الثورات بقدر الإمكان ، فنجح نجاحا جزئيا فى هذا المجال ، ثم أفلت منه الزمام فى نهاية الأمر ، لأن المشاكل كانت كثيرة وصعبة .

ففى العراق ، وهى بؤرة العداء للدولة الأموية ، والتى خرجت منها معظم الثورات والحركات المناوئة ، رأى هشام أن اليمنيين هناك ازداد

حقدهم على الدولة ، بسبب الهزائم التى حلت بابن الأشعث وابن المهلب ، والقضـــاء على ثورتيهما ، وهما ينتميان إلى قبائل اليمن ، الأول كندى والثانى ازدى . فأراد أن يخفف من حدة هذا الحقد ، وأن يداوى الجراح ، فعزل والى العراق القيسى ، عمر بن هبيرة ، وولى خالد بن عبد الله القسرى ، وهو يمنى وكانت هــذه سياسـة حكيمة بدون شك . وقد حاول خالد أثناء ولايتــه الطويلة والتى استمرت خمســـة عشر عاما ١٠٥ — ١٢٠ هـ(٢٧١) . أن يكون حياديا ، وأن يعيد التوازن بين القبائل فى العراق ، وهادن جميع الأطراف،وعطف على بنى هاشم بصفة خاصة ، وحقق بذلك للعراق فترة استقرار طويلة(٢٧٢) ، كما قام بتحسـين أحواله الاقتصادية ، فاعتنى بالزراعـــة ، وشـــق الترع والقنوات ، وجفف المســـتنقعات ، ليشغل أهل العراق بالزراعة ، وكان هو نفسه مولعا بالزراعة وكان له كثير من الضـــياع ، كان ينافس بها الخليفة هشاما(٢٧٣) . كما قـــام بتجويد العملة ، وسك دراهم عرفت بالخالدية نســـبة إليه(٢٧٤) . ولكن رغم كل هذا فقد غضب هشام عليه وعزله سنة ١٢٠ هـ .

ولعل ذلك كان نتيجة سعايات السوء التى مشت بينهما ، ولفقت كثيرا من التهم لخالد ، وبصفة خاصة ميله إلى آل البيت(٢٧٥) ، أو لعل هشاما رأى منه ميلا إلى عصبيته من اليمن ، وكيفما كان السبب فقـــد عزله وولى مكانه واليا قيسيا ، وهو يوسف بن عمر الثقفى ، وكان رجلا فظا قاسيا ، متقلب المزاج ، فيه كثير من المتناقضات(٢٧٦) . فأســـاء السيرة ، واستهل عهده بتعذيب سلفه خـــالد القسرى وعشيرته ، فأوغر

---

(٢٧١) انظر ابن الأثير — الكامل ٥/٢٢٤

(٢٧٢) ثـــابت الراوى — العراق فى العصـــر الأموى ص ١٨٠ ، د. عبد المنعم ماجد التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢/٢٨١

(٢٧٣) ابن الأثير المصـــدر الســـابق ٥/٢١٩ — ٢٢١ ، وانظر فلهاوزن — تاريخ الدولة العربية ص ٣٢٠

(٢٧٤) المـــاوردى — الأحكام السلطانية ص ١٥٤

(٢٧٥) ابن الأثير — المصدر السابق ٥/٢٧٦

(٢٧٦) ابن الأثير — المصدر السابق ٥/٢٢٥

بذلك صـــدور اليمنيين من جديد ، وبغضه اهل العراق بغضا شـــديد لقرابته من الحجاج . وعادت العراق فى عهده إلى الفتن والثورات ،التى لم تنته إلى نهاية العهد الأموى ، فكانت ثورة زيد بن على بن الحسين ســـنة ١٢١ ـــ ١٢٢ هـ ـــ ثم توالت الأحداث الخطيرة فى العراق ، فكانت ثورات الخوارج التى تحدثنا عنهـــا فى عهد مروان بن محمد . كما أن احد افراد البيت الهاشمى انتهز فرصـــة الفوضى والاضطراب فى العراق ، وانشقاق البيت الأموى على نفســـه ، بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك ســـنة ١٢٦ هـ . فقام بثورة ودعا إلى نفســـه بالخلافة ، وكان ذلـــك الشخص هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . الـــذى قام بثورته ســـــنة ١٢٧ هـ(٢٧٧) مع أن والى العراق آنئـــذ ، وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز كان قد أكرمه واجرى عليه وعلـــى إخوته الأرزاق(٢٧٨) . لكنه لمـــا خرج ثائرا قاتله ابن عمر وأخرجه من الكوفة ، فذهب إلى المدائن ، ثم جمع انصـــاره مرة اخرى وتغلب على حلوان والجبـــال وهمدان وأصبهان والرى(٢٧٩) . وأخذ يولى إخوتـــه على هذه النواحى ، وقصده كثير من بنى هاشم ، منهم السفاح والمنصور ، وعيسى وعبد الله ، ابنا على بن عبد الله بن عباس(٢٨٠) ، ثم انضـــم إليه بعض الأمراء الأمويين ، المنشقين على ابن عمهم مروان بن محمد الذى كان قـــد أصبح خليفة ، ومنهم سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وعمرو ابن سهيل بن عبد العزيز بن مروان(٢٨١) . فلما استفحل أمره وكثر أتباعه، عهد مروان بن محمد إلى واليه على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة بالقضاء عليه ، فأرســـل إليه جيشا كبيرا بقيادة داود بن عامر بن ضبارة فهزمه وأسر أعدادا كبيرة من جيشـــه . أما هو فقد فر إلى خراسان طمعا فى

---

(٢٧٧) الطبرى ٣٠٢/٧ وما بعدها .

(٢٧٨) ابن الأثير ـــ الكامل ٣٢٤/٥

(٢٧٩) المصدر السابق ٣٢٧/٥

(٢٨٠) انظر مقـــاتل الطالبيين للأصفهانى ص ١٦٧ وابن الأثير ـــ الكامل ٣٧١/٥

(٢٨١) مقاتل الطالبيين ـــ ص ١٦٧

نصرة أبى مسلم الخراسانى ، الذى كان يعد للثورة العباسية فى خراسان ، ولكن أبا مسلم قبض عليه وقتله سنة ١٢٩ هـ(٢٨٢) .

وهكذا ظلت العراق تغلى بالحركات المناهضة للدولة حتى زحف أبو مسلم من الشرق ، من خراسان التى كانت هى الأخرى فى قلاقل مستمرة بسبب الصراع بين اليمنية والمضرية واندلاع الحروب بينهم(٢٨٣) ، وكان تعصب ولاة خراسان لقبائلهم يجعل العصبية تتفاقم ، فكان إذا ولى وال يمنى تعصب لليمن وجعل كل عماله منهم ، كما حدث من أسد ابن عبد الله القسرى ، الذى كان شديد العصبية لقومه من اليمنيين ، شديد الاساءة إلى المضريين(٢٨٤) . وبالمثل كان ولاة مضر يتعصبون لها ضد اليمن ، فعلى سبيل المثال كان الجنيد بن عبد الرحمن لايستعمل فى خراسان وما وراء النهر إلامضريا(٢٨٥) . وهكذا أذكى بعض الولاة بنظرتهم القبلية الضيقة نار العصبية ، وجعلوا العرب يأكل بعضهم بعضا ، مما سهل على أبى مسلم القضاء عليهم جميعا فى نهاية الأمر .

فلما أدرك هشام خطورة الموقف ، واختار لولاية خراسان رجلا عفيفا مجربا عاقلا ليدرأ خطر هذه العصبية ، وهو نصر بن سيار(٢٨٦) . جاء هذا الاختيار متأخرا حيث كانت العداوة قد استحكمت بين العرب ، فلم يستطع نصر معالجة الموقف(٢٨٧) . لأن الدعوة العباسية كانت قد

---

(٢٨٢) ابن الأثير — المصدر السابق ٥/٣٧٠ — ٣٧٣

(٢٨٣) الطبرى ٧/٣٠ — ٣٢

(٢٨٤) انظر الطبرى ٧/٤٧ — تولى أسد خراسان مرتين ، الأولى من ١٠٦ — ١٠٩ هـ والثانية من ١١٦ — ١٢٠ هـ .

(٢٨٥) الطبرى ٧/٦٩ وابن الأثير — الكامل ٥/١٥٧ — كانت ولاية الجنيد ١١١ هـ — ١١٦ هـ .

(٢٨٦) الطبرى ٧/١٥٤ وابن الأثير ٥/٢٢٦— ٢٢٧ تولى نصر سنة ١٢٠ — ١٢٩ هـ .

(٢٨٧) د. عبد المنعم ماجد — المرجع السابق جـ ٢/٢٨٦.

تمكنت فى خراسان ، وظهر ابو مسلم الخراسانى ، فانتهز الشقاق فى صفوف العرب حيث كانت اليمن وربيعة بقيادة على بن جديع الكرمانى فى جانب ، ومضر بقيادة نصر بن سيار فى جانب — وأخذ يحرش بينهم فاندلعت الحروب من جديد ، وفى النهاية سيطر أبو مسلم على الموقف كله . كذلك امتدت الفتن والقلاقل إلى ما وراء النهر ، فثار هناك الحارث ابن سريج ، سنة ١١٦ هـ(٢٨٨) . وخرج على الخلافة ، ودعا لتخليص المضطهدين ، والبيعة لمن يرتضيه المسلمون ، وانضم إليه كثير من أهالى البلاد ، وأرسل إليه هشام بن عبد الملك ، عددا من القواد خاضوا معه حروبا كثيرة ، ثم هرب إلى الترك ، ثم عاد إلى خراسان ، وانضم إلى المضرية فى صراعها ضد ربيعة واليمن ، وظل يحارب حتى قتل قرب مرو سنة ١٢٨ هـ(٢٨٩) .

فإذا تركنا العراق وخراسان وما وراء النهر ، ونظرنا إلى الشام ، التى كانت الحصن الحصين لبنى أمية ، وجدناها تغلى بالفتن والثورات والانقسامات ، وكان يمن الشام شأنهم شأن يمن العراق وخراسان قد إختاروا الجانب المعادى للدولة الأموية ، ممثلة فى شخص مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذى ثار عليه أبناء عمومته ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

وحتى مصر التى ظلت هادئة معظم سنوات الحكم الأموى ، بدأ فيها التذمر ، فقام القبط بأول ثورة ضد الدولة فى عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ . فى ولاية الحر بن يوسف ، وكان سبب هذه الثورة ، كما يذكر الكندى زيادة الخراج على الأرض(٢٩٠) . فقمع الحر ابن يوسف هذه الثورة وقضى عليها . ثم قام القبط بثورة أخرى فى الصعيد

(٢٨٨) الطبرى ٩٤/٧ وما بعدها . وابن الأثير — الكامل ١٨٣/٥ وما بعدها .

(٢٨٩) الطبرى ٣٣٠/٧ — ٣٤٢ وابن الأثير — الكامل ٣٤٢/٥ — ٣٤٦

(٢٩٠) الولاة والقضاء ص ٧٣ — ٧٤

سنة ١٢١ هـ(٢٩١) ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان جيشا فانتصر عليهم — وفى سنة ١٣٢ هـ خرج ثائر قبطى فى سمنود يدعى يحنس ، فأرسل إليه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، والى مصر فى ذلك الوقت جيشا بقيادة عبد الرحمن بن عتبة المعافرى ، فقضى على ثورته ، وقتله مع عدد من أتباعه(٢٩٢) . وهكذا تغيرت مصر وانقلبت على الأمويين ، ومما زاد الأمر سوءا خروج رجل من الأمويين ، هو عمرو ابن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان بن محمد ، وانضم إليه كثير من عرب قيس(٢٩٣) .

كما كان من أسباب إفساد الأمر فى مصر على مروان أن ثابت بن نعيم الجذامى ، وهو من أعدائه كان يكاتب من الشام اليمنيين فى مصر ويحرضهم على مروان ، وقد وجد استجابة منهم(٢٩٤) . وهكذا تغيرت أحوال مصر ، وانتشرت فيها الدعوة العباسية ، ورفع المصريون الأعلام السوداء ، شعار العباسيين ، بل حاولوا منع مروان بن محمد من دخولها عندما جاء إليها فى شوال سنة ١٣٢ هـ . مطاردا من العباسيين(٢٩٥) .

كما امتدت الفتن والثورات إلى المغرب الأقصى بتأثير الخوارج الإباضية والصفرية ، الذين فروا إليها من المشرق بعد أن ضيقت الدولة عليهم الخناق هناك ، وقد وجدت مبادئهم فى المغرب أرضا خصبة ، فاعتنقها كثير من البربر ، وتحفزوا للثورة على الدولة الأموية ، وتزعم الثورة رجل بربرى يدعى ميسرة الحقير ، الذى اعتنق مبادىء الخوارج الصفرية . وبدأ ثورته فى رمضان سنة ١٢٢ هـ(٢٩٦) فزحف على طنجة

---

(٢٩١) الكندى — المصدر السابق ص ٨١

(٢٩٢) الكندى — المصدر السابق ص ٩٤

(٢٩٣) الكندى — المصدر السابق ص ٩٤

(٢٩٤) الكندى — المصدر السابق ص ٨٦

(٢٩٥) انظر — الكندى — المصدر السابق ص ٩٤ — ٩٧

(٢٩٦) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٥٣ وابن عذارى — البيان المغرب جـ ٥٢/١

وقتل عاملها عمر بن عبدالله المرادى ، وعين عليها واحـدا من انصاره ؛ هو عبد الأعلى بن حديج ، ثم زحف يقود جموعا كبيرة من البربر إلى الســوس وكان عليهـا إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ، فقتله ، واستفحل أمره ، وازداد عـدد اتباعه من البربر وبايعوه بالخلافة ، فلما علم عبيد الله بن الحبحاب ، والى المغرب ، الذى كان بالقيروان ، بأمر هذه الثورة وبقتل عامله على طنجه وابنــه فى السوس ، أعـد جيشـا أسـند قيادته إلى خالد بن أبى حبيب الفهرى وأمره بالمسير إلى ميسرة ، وفى الوقت نفســه استدعى حملة كان أرسلها إلى صقلية بقيادة حبيب ابن أبى عبدة لتشترك فى مقاومة الثورة ، مما يدل على أنها كانت حركة خطيرة ، وسار خالد وتبعه حبيب ، ودارت بينهما وبين ميسرة معركة كبيرة قرب طنجة انتصر فيهـا ميسرة(٢٩٧) ، لكنه لم يستمتع بنصره ، فقد ثار عليه البربر وقتلوه لسوء سيرته فيهم ، وولوا عليهم خالد بن حميد الزناتى ، الذى الحق بدوره هزيمة ساحقة بخالد بن أبى حبيب ، الذى قتل فى المعركة هو وجميع من معه ، وكانوا من حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها — على حد تعبير ابن عذارى(٢٩٨) . فسميت المعركة غزوة الأشراف لذلك .

بلغت أخبار هذه الأحداث الخليفة هشام بن عبد الملك ، فانزعج منهـا انزعاجا شـديدا ، لأن عبيد الله بن الحبحاب عجز عن مواجهـة الموقف ، بل إنهم عزلوه ، وسيطر البربر على المغرب ، فقال هشـام : « والله لا غضبن لهم غضبة عربية ، ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم ، وآخره عندى »(٢٩٩) .

وأرسل منالشام كلثومبن عياض القشيرى على رأساثنى عشرألفا ، وكتب إلى عمال مصر وبرقة وطرابلس أن يخرجوا معهم ، فقدم كلثوم إلى المغرب وعلى مقدمته ابن عمه بلج بن بشر القشيرى ، ورغم ضـخامة

---

(٢٩٧) ابن عذارى — المصدر السابق ج ٥٣/١

(٢٩٨) المصدر السابق ج ٥٤/١ و د. السيد عبد العزيز سالم — المغرب الكبير ج ٣٠٦/٢

(٢٩٩) المصدر السابق ج ٥٤/١

جيش كلثوم الذى بلغ عدده ثلاثين الفا ، إلا أن البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتى هزموه هزيمة منكرة فى معركة وادى سبو قرب طنجة وقتل كلثوم فى المعركة ، وتشتت جيشه فعاد المصريون وأهل برقة وطرابلس الى القيروان ، أما أهل الشام وكانوا حوالى تسعة آلاف فقد انحازوا إلى سبته ، ولكن البربر ضيقوا عليهم الحصار فاضطروا إلى العبور إلى الأندلس(٣٠٠) . سيطر البربر على المغرب ، واخذتهم نشوة النصر ، فزحفوا إلى القيروان فى ثلاثمائة الف رجل تحت قيادة عدد من القواد منهم عكاشة بن أيوب الصفرى ، وعبد الواحد بن يزيد الهوارى ، وكلاهما من قبيلة هوارة ، وصمموا على طرد العرب من المغرب كله ، وهنا ادرك الخليفة هشام بن عبد الملك انه امام ثورة عارمة تجتاح المغرب بأسره،فعهد إلى واليه على مصر ، حنظلة بن صفوان الكلبى بالقضاء على هذه الثورة . فاستطاع أن يهزمهم ويقتل زعماءهم بعد معارك شرسة ، وقد أحصوا عدد قتلاهم فوجدوهم مائة وثمانين الفا ، وكتب حنظلة بهذا النصر المبين إلى هشام بن عبدالملك فسر سرورا عظيما ، وعادت سيطرت الدولة على المغرب ، ولكن بعد أن تكبدت خسائر فادحة ، وظل صدى هذا النصر يتردد فى المشرق سنين عديدة، حتى روى عن الليث بن سعد انه قال : مامن غزوة كان أحب إليه أن يشهدها بعد غزوة بدر من غزوة حنظلة هذه(٣٠١) .

ولكن أخطر ما فى ثورات البربر بالمغرب أنها تحولت من حركة تذمر ضد سياسة الولاة هناك ، وبصفة خاصة عبيد الله بن الحبحاب(٣٠٢) ، إلى خروج على الخلافة ، ثم أصبحت صراعا بين العرب

---

(٣٠٠) المصدر السابق ج ١/٥٤ — ٥٦ ود. احمد مختار العبادى — فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٩٢ — ٩٣ — ود. عبد المنعم ماجد — التاريخ السياسى للدولة العربية ج ١/٢٩٠.

(٣٠١) انظر ابن عذارى — البيان المغرب ج ١/٥٨ — ٥٩ ود. السيد عبدالعزيز سالم — المرجع السابق ج٢/٣١٤ ود. عبد المنعم ماجد — المرجع السابق ج٢/٢٩١ .

(٣٠٢) ابن عذارى — المصدر السابق ج١/٥١ ومابعدها .

والبربر ، سرعان ماتردد صداه فى الأندلس ، حيث ثار البربر هناك على العرب وواليهم عبدالملك بن قطن ، فى ولايته الثانية ١٢٢ — ١٢٤هـ(٣٠٣)، وتضامنوا مع بربر المغرب ، واشـــتد الأمر على عبدالملك بن قطن ، مما اضطره إلى أن يسمح لبلج بن بشر القشيرى ، وصحبه الذين هزموا فى موقعة وادى سبو ثم لجأوا إلى سبته ، فحاصرهم البربر فيها ، بالعبور إلى الأندلس ، ليساعدوه فى إخماد ثورات البربر هناك . بعد أن كان قـــد رفض السماح لهم بذلك ، ولكن الظروف أجبرته على تغيير موقفه ، وحتى سماحة لهم بالعبـــور إلى الأندلس كان مشروطا بألا يقيموا فيها بعـــد القضاء على ثورات البربر ، ولكن عليهم أن يخرجوا منها(٣٠٤) . قبل بلج ابن بشر هذا الشرط نظرا لحرج موقفه وحصار البربر له فى سبته ، فلما عبر إلى الأندلس ، وجد البربر قد وحدوا صفوفهم ضد عبدالملك بن قطن ، وقسموا انفسهم إلى ثلاثة جيوش ، جيش لمهاجمة طليطلة وآخر لمهاجمة قرطبة ، أما الجيش الثالث فكان من المفروض أن يتجه جنوبا ويعبر البحر إلى سبته للقضاء على بلج وقواته ، ثم يتصلون بإخوانهم بربر المغرب ، ولكن بلجا كان أسرع حركة من هذا الجيش الثالث ، وكان قد علم بخطته ففاجأه قبل أن يعبر وأوقع به هزيمة ساحقة فى وادى شذونة ، ثم سار من فوره إلى قرطبة وانتصر على الجيش الثانى ، ثم وحد قواته بعد ذلك مع قوات عبدالملك بن قطن ، وساروا جميعـــا إلى طليطلة لمقابلة جيش البربر الذى كان يعد نفسه لمهاجمتها ، واشتبكوا معه فى معركد كبيرة على نهر التاجو فأوقعوا به هزيمة ساحقة ، وبهذا قضوا على ثورة البربر فى الأندلس(٣٠٥) . كان بلج بن بشر يتوقع من والى الأندلس عبد الملك بن قطن أن يقدر له جهوده فى مساعدته فى القضاء على خطر البربر ، التى

---

(٣٠٣) المصدر السابق ج ٢/٣٠ ومابعدها .

(٣٠٤) المصدر الســـابقج ٢/٣٠ ود. احمد مختار العبـــادى — المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٣

(٣٠٥) انظر ابن عذارى — المصدر السابق ج ٢/٣١ ود. احمد مختار العبادى المرجع السابق ص ٩٣ ود. السيد عبدالعزيز سالم — المرجع السابق ج ٢/٣١٧

بدونها ماكان قادرا على هزيمتهم ، وأن يسمح له ولمن معه بالبقاء فى الأندلس ، ولكن عبدالملك لم يسمح له بذلك وطالبه بالخروج حسب الاتفاق الذى تم بينهما فما كان من بلج وصحبه إلا أن ثاروا عليه وقتلوه ، وتولى بلج أمر الأندلس(٣٠٦) . إلا أن عرب الأندلس — وبصفة خاصة الحجازيين — لم يرضوا بذلك ، وبدأ صراع بينهم وبين بلج ، وقامت حروب استمرت أكثر من عام ، قتل فيها بلج بن بشر سنة ١٢٥ (٣٠٧) ، فبدأت بذلك مرحلة من الفوضى والاضطراب والصراع فى الأندلس ، بين اليمنيين والمضريين ، فقد أقام العرب هناك واليا يمنيا من زعماء الأندلس ، هو أبو الخطار بن ضرار الكلبى ، الذى عمل على تهدئة الأحوال ، وسوى بين القبائل العربية ، دون تفرقة بين يمنى ومضرى(٣٠٨) ، فهدأت الأمور ، ولكن لفترة قصيرة ، ثم تفجر الصراع من جديد بسبب حادثة بسيطة مما يدل على أن النفوس كانت مشحونة بالغضب ، وأن العصبية تمكنت من القلوب وعز دواؤها . وملخص هذه الحادثة أنه وقع نزاع بين شخصين أحدهما مضرى والآخر يمنى ، فرفع الاثنان أمرهما إلى الوالى أبى الخطار ، فقضى لليمنى فظن المضرى أن هذا تعصبا من أبى الخطار لصالح خصمه اليمنى ، فلجأ إلى زعيم مضر فى الأندلس ، الصميل بن حاتم وشكا له ، فذهب الصميل إلى أبى الخطار وكلمه فى الأمر ، فحدث بينهما نقاش حاد ، وأحس الصميل أن أبا الخطار أهانه ، فخرج مغضبا ليشعل الحرب من جديد بين اليمنية والمضرية ، وبعد معارك مستمرة تمكن الصميل من هزيمة أبى الخطار وأنصاره من اليمنيين فى موقعة كبيرة عند بلدة شقندة فى جنوب قرطبة ، واستطاع الصميل أن يعزل أبا الخطار من ولاية الأندلس ، ولم يشأ أن يتولى هو ، بل ولى رجلا من عرب مضر ، هو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، الذى ظل متغلبا على الأندلس حتى قدوم عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ(٣٠٩) .

---

(٣٠٦) ابن عذارى — المصدر السابق ج ٢/٣٢

(٣٠٧) المصدر السابق ج ٢/٣٢

(٣٠٨) المصدر السابق ج ٢/٣٣ ود. احمد مختار العبادى — المرجع السابق ص ٩٤

(٣٠٩) د. أحمد مختار العبادى المرجع السابق ص ٩٥

وهكذا يتضح أن القلاقل والفتن والثورات قد عمت معظم الولايات فى أواخر الدولة الاموية ، وساد السخط فى كل مكان ، وظهر ضعف الخلافة وعجزها عن السيطرة على الموقف ، بحيث كان الناس يعزلون من يشاؤون ويولون من يشاؤون ، كما كان يحدث فى المغرب والأندلس . واضطرب الأمر على بنى أميــة ، وكان كل ذلك فى مصلحــة أعــدائهم العباسيين ، الذين كانوا يخططون فى براعة وسرية تامة لتقويض الدولة الأموية وإقامة دولة عباسية مكانها . ولعل أصبع العباسيين ودعاتهم لم تكن بعيدة عن إثارة هذه الفتن والقلاقل وتأليب البــلاد على بنى أمية ، ومازالوا فى سعيهم الدؤوب حتى نجحوا فى النهاية ، وقضوا على دولة بنى أمية ، وأقاموا دولتهم سنة ١٣٢ هـ . كما سنرى فى الصفحات التالية .



الثـــورة العباسية

كانت الثورة العباسية آخـــر واخطر الثورات التى قامت فى وجه الدولة الأموية ، لأنها كانت ثورة مخططة تخطيطا محكما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الثورات التى واجهها الأمويين طـــوال تاريخهم ، وقد استفاد العباسيون فى ثورتهم والإعداد لها من الأخطاء التى كانت الثورات السابقة تقع فيها ، كما استفادوا من جهودها فى إضـــعاف كيان الدولة الأموية وهز أركانها .

وقد توفر للثورة العباسية جميع عناصر النجاح ، من قيادة واعية مخططة صبورة غير متعجـــلة للنتائج ، لم تحـــاول اقتطاف الثمرة قبل نضجها ، فقد ظلت قيادة الثورة ثلث قرن وهى تهىء البلاد والناس للفكرة ، كما توفر لها الأنصار الأوفياء الذين بذلوا قصـــارى جهدهم لإنجاحهـــا ، والأهم من هذا كله أنها واجهت الدولة الأموية وهى فى حالة إعياء شديد ، تسودها الفتن والعصبيات ، والتذمر والاستياء ، وتحيط بها الأخطار من كل جانب ، فلم تقو على الصمود والمقاومة .

ولقد قامت الثورة العباسية على أساس الدعـــوة الشيعية(٣١٠) التى تلقاها العباسيون عن العلويين ، وإذا كان المقام لايسمح لنا بالحديث عن الدعوة والثورة العباسية بالتفصيل فإننا نوجز القول عنها فيمايلى :

الدعـــوة العباسية

لجأ الشيعة بعد مقتل الحسين بن على والقضاء على حركة التوابين وثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى إلى العمل السرى ، وفى آواخر القرن الأول الهجرى آل أمر الشيعة إلى محمد بن على بن أبى طالب ، المقلب بأبى هاشم ، والذى أخذ يدعو إلى نفسه سرا وفى كتمان شديد ، وكان له العديد من الأنصار الذين يدعون له ويروجون للفكرة فى سرية أيضا .

---

(٣١٠) مع أن العباسيين أقامـــوا دعوتهم ودولتهـــم على أساس الدعوة الشيعية إلا انهم بعد نجاحهم تخلوا عن الفكر الشيعى واصبحت دولتهم تمثل المذهب السنى .

ولكنه توفى سنة ٩٨ هـ(٣١١) ، وقيل فى سبب وفاته إنه كان فى زيارة إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك فى دمشق ، فأكرمه سليمان ، لكنه رأى من فصاحته وذكائه وعلمه ماخوفه منه ، فدس له السم(٣١٢) ، فلما عاد من عنده واحس بما دبر له قصد الحميمة(٣١٣) حيث كان يعيش على بن عبدالله بن عباس وابنه محمد ، فأفضى إليهما بالأمر ، واطلعهما على أسرار الدعوة ورجالها ، ثم أعلم شيعته من أهل العراق وخراسان انه إذا توفى فليقصدوا محمد بن على فالأمر صائر إليه . فلما توفى جاء رجال الدعوة إلى محمد بن على وبايعوه ، وأعطاهم تعليماته ووجههم إلى العراق وخراسان ، حيث وجه ميسرة إلى العراق ، ووجه محمد بن خنيس وابا عكرمة السراج ، وحيان العطار إلى خراسان(٣١٤) .

وبرهن محمد بن على على مقدرة فائقة وعبقرية فذة فى التنظيم والتخطيط للدعوة ، فقد أمر الدعاة بالدعوة إلى الرضا من آل محمد ، وذلك ليضمن تكتل الشيعة كلهم وراءها . ولم يشأ أن يصرح باسمه لئلا يحدث انشقاق فى الحركة . وهذا بعد نظر كبير منه .

كما أمر الدعاة بالتركيز على خراسان ، فهى اكثر الأقاليم حنقا وغضبا على بنى أمية ، كما أن العصبية كانت قد مزقت العرب هناك وقسمتهم إلى قسمين كبيرين ، قسم فيه اليمن وربيعة وهؤلاء كانوا ضد الأمويين ، والقسم الآخر عرب مضر وهؤلاء كانوا مع الأمويين .

---

(٣١١) انظر ابن كثير — البداية والنهاية ١٧٧/٩

(٣١٢) انظر ابن الأثير ٥٣/٥

(٣١٣) الحميمة قرية من أعمال الشراة فى جنوب الشام ، وكان ينزلها كثير من الهاشميين ومنهم على بن عبد الله بن عباس وأولاده . ولعل من تصاريف القدر العجيبة أن عبدالملك بن مروان عندما حضرته الوفاة وصى ابنه الوليد بالإحسان إلى على بن عبدالله بن عباس وقال له : « انظر إلى ابن عمنا على بن عبد الله بن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته ، وله نسب وحق ، فصل رحمه وأعرف حقه » .أنظر البداية والنهاية ٦٧/٩ ، ولم يكن عبد الملك يدرى أن أولاد على بن عبدالله سوف يقضون على دولته وأولاده واحفاده قضاء يكاد يكون تاما .

(٣١٤) ابن الأثير ٥٣/٥

فكان اختيار محمد بن علي لخراسان لتكون منطلقا للدعوة اختيارا موفقا ، ويدل على فهم عميق لأحوال الأقاليم الإسلامية ، فقد كانت خراسان حقا هى التربة الصالحة لبذر بذور الدعوة ، كما كانت الكوفة مركز الاتصال بين الحميمة مقر قيادة الدعوة وبين خراسان ، ميدانها الفسيح .

وهكذا توفر للدعوة العباسية العقلية القيادية المنظرة والدعاة المخلصون ، الذين تفانوا فى سبيلها وبذلوا كل جهدهم لإنجاحها ، وكان الواحد منهم إذا قبض عليه ولاة بنى أمية ، يفضل الموت على أن يبوح بكلمة واحدة عن الدعوة واسرارها(٣١٥) كما توفرت لها البيئة الصالحة لرعاية البذرة وإنمائها .

وقد مرت الدعوة بمرحلتين رئيسيتين :

الأولى : من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٩ هـ ، وهى المرحلة السرية ، التى أنتشر فيها الدعاة يجوبون البلاد– وبصفة خاصة فى خراسان وماوراء النهر – على هيئة تجار ، ولكن مهمتهم الحقيقية كانت الدعوة للعباسيين ، وإثارة مشاعر الناس ضد بنى أمية واتهام خلفائهم وولاتهم بالظلم والبعد عن النهج الإسلامى(٣١٦) ، وكانوا يضخمون الأخطاء اليسيرة ، بل لامانع من اختلاق الأخطاء وإطلاق الشائعات لخدمة الهدف ،وقد كان رجال الدعوة – إلى جانب إخلاصهم لها وتفانيهم فيها – يتمتعون بقدرات بارعة على الدبلوماسية والدهاء ومدارات الأحوال واجتذاب الأنصار ، ومنطق

---

(٣١٥) قبض أسد بن عبدالله القسرى والى خراسان فى عهد هشام ابن عبد الملك فى سنة ١٠٩ هـ على عدد من الدعاة العباسيين الذين كانوا يتخفون فى زى التجار ، ولما ارتاب فى أمرهم أمر بقتلهم ، وكانوا عشرة ، فأقبلوا على الموت دون أن يبوحوا بكلمة واحدة عن الدعوة وإمامها وأسرارها ورجالها – انظر الطبرى ٧/ ٥٠ – ٥١ .

(٣١٦) المصدر السابق ٧/ ٥٠

في المخاطبة فيه أدب وبلاغة وفن ومراعاة مقتضى الحال(٣١٧) . ومن هؤلاء على سبيل المثال ، ميسرة ، ومحمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج ، وبكير بن ماهان ، وسليمان بن كثير الخزاعى وأبو سلمة الخلال . وقحطبة ابن شبيب الطائى ، وأبو مسلم الخراسانى .

وقد نجح الدعاة فى خلق رأى عام معاد للدولة الأموية ، ومؤيد لقيام دولة فى آل البيت ، فقد كانوا يركزون فى خراسان بصفة خاصة على رفع شعار المساواة بين الشعوب ، اى أن الدولة الجديدة ستسوى بين العرب وغيرهم . وقد لقى هذا الشعار بالذات ترحيبا وقبولا فى خراسان ، حيث كان الناس هناك يزعمون أن الدولة الأموية متعصبة للعرب ضدهم (٣١٨) .

المرحلة الثانية : من سنة ١٢٩ إلى سنة ١٣٢ هـ . وهى مرحلة إعلان الثورة والعمل المسلح والقضاء على الدولة الأموية(٣١٩) ،وكانت قيادة الدعوة قد آلت إلى إبراهيم بن محمد بن على — الملقب بالإمام — بعد وفاة أبيه سنة ١٢٥ هـ(٣٢٠) ، وقد اثبت إبراهيم الإمام أنه لايقل مقدرة عن أبيه فى القيادة والتخطيط والدهاء السياسي وبعد النظر ، وآية ذلك أنه أسند قيادة الدعوة فى مرحلتها الحاسمة تلك ، إلى شخصية فذة ، هى شخصية أبى مسلم الخراسانى ، الذى قاد الثورة إلى النجاح ، لأنه ما من شك فى أن الخراسانيين سيكونون أكثر نشاطا وتفانيا وحماسا لإنجاح الثورة إذا أسندت قيادتهم إلى واحد منهم فإن مولى يرأس الدعوة فى خراسان ، اليق واجدر بالثقة عند أهلها من عربى حر(٣٢١) .

---

(٣١٧) انظر د. حسن محمود ، ود. احمد الشريف — العالم الإسلامى فى العصر العباسى ص ٩

(٣١٨) المرجع السابق ص ١٥ — ١٦

(٣١٩) أنظر الطبرى ٣٥٣/٧ ومابعدها — وابن الأثير ٣٥٦/٥ ومابعدها

(٣٢٠) انظر ابن كثير — البداية والنهاية ٥/١٠

(٣٢١) د. حسن محمود ود. احمد الشريف — المرجع السابق ص ٤٣

ذهب ابو مسلم إلى خراسان ليجد الصراع محتدما بين العرب هناك، اليمنيون وربيعة بزعامة على بن جديع الكرمانى ، المضريون بزعامة نصر ابن سيار الوالى الأموى ، وكان هـذا أنسب وضع لأبى مسلم ليضرب ضربته ، فقد حاول منع أى تقارب أو إنهاء للصراع بين الكتلتين العربيتين ، ونجح فى ذلك تماما ، فظلا يقتتلان ، ولما رجحت كفة اليمنيين والربعيين ، ضمهم إلى صفه وبدأ العمل المسلح .

إعلان الثورة والقضاء على الدولة الأموية :

بمجرد وصول أبى مسلم إلى خراسان ، أدرك الوالى الأموى نصر ابن سيار خطورة الوقف ، وأن نذر الخطر قد لاحت فى الأفق ، فكتب إلى الخليفة مروان بن محمد ، يشرح له الموقف ، ويطلب نجدته ، واستهل رسالته بأبيات شديدة التأثير ، ليلهب حمية الخليفة ، فقال له :

أرى بين الرماد وميض نار … واخشى أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تزكى … وإن الحرب مبدؤها كلام
فقلت من التعجب ليت شعرى … أأيقاظ أمية أم نيام(٣٢٢)

ولكن صيحات نصر واستغاثاته ضاعت فى زحمة انشغال مروان بأحداث العراق والشام ومصر وغيرها ، فلم يستطع أن يجيب نصرا إلا بتلك الرسالة المقتضبة ، حيث كتب إليه : « إن الشاهد يرى مالايرى الغائب »(٣٢٣) فلما قرأ نصر الرسالة فطن إلى حقاقة موقفه ، وقال لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم انه لانصر عنده(٣٢٤) » ثم حاول أن يستنجد بيزيد بن عمر بن هبيرة ، والى العراق ، فلم يجد عنده خيرا مما وجد عند مروان(٣٢٥) .

---

(٣٢٢) ابن الأثير ٥/٣٦٥

(٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥) — انظر ابن الأثير — ج ٥/٣٦٦

بدأ أبو مسلم ثورته فى خراسان ، سنة ١٢٩ هـ بناء على تعليمات إبراهيم الإمام(٣٢٦) . فانطلقت كالسيل الهادر ، ولم يؤثر فى انطلاقها إلقاء القبض على إبراهيم وقتله(٣٢٧) . حيث استولى أبو مسلم على خراسان فى سهولة ، ولم يستطع نصر بن سيار الصمود أمامه ، فولى هاربا ، ثم مات وشيكا بعد ذلك(٣٢٨) . ثم واصلت قوات العباسيين زحفها على العراق ، وهنا تجلت براعة القيادة العباسية حين أسندت القيادة فى هذه المرحلة إلى قحطبة بن شبيب الطائى ، وهو عربى ، فلم يشأ العباسيون أن يقود قواتهم فى زحفها على المناطق العربية إلا عربى(٣٢٩) ، واصل قحطبة الزحف ، ولكنه توفى قبل الاستيلاء على العراق(٣٣٠) ، فتولى القيادة ابنه الحسن ، الذى التقى مع ابن هبيرة ، والى مروان على العراق فألحق به هزيمة ساحقة ، ثم توالت الهزائم على ابن هبيرة ، فترك الكوفة إلى واسط ، ودخل الحسن بن قحطبه الكوفة فى ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ . وسلم الأمر إلى أبى سلمة الخلال ، الذى أصبح يسمى وزير آل محمد(٣٣١) ، والذى قيل إنه حاول صرف الخلافة عن العباسيين إلى العلويين ، ولكن تلك المحاولة لم تنجح ، حيث بويع لعبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، الذى كان أخوه إبراهيم قد عهد إليه بأمر الدعوة عندما قبض عليه مروان ، والذى لقب بالسفاح ،

---

(٣٢٦) انظر الطبرى ٣٥٣/٧ ومابعدها ، وابن الأثير ٣٥٦/٥ ومابعدها .

(٣٢٧) كان مروان بن محمد لما ظهر أمر الدعوة العباسية وأعلنت الثورة فى خراسان قد قبض على إبراهيم الإمام ووضعه فى السجن ، وقتله بعد ذلك ، وقيل لم يقتل وإنما مات بالطاعون وهو فى السجن ، انظر الطبرى ٤٣٥/٧

(٣٢٨) المصدر السابق ٤٠٣/٧ — ٤٠٤

(٣٢٩) انظر د. حسن محمود ، ود. احمد الشريف — المرجع السابق ص ٥٤

(٣٣٠) الطبرى ٤١٢/٧ — ٤١٧

(٣٣١) المصدر السابق ٤١٨/٧

وكان ذلك ، فى ربيع الأول — وقيل الثـانى ، وقيل جمادى الأولى على خلاف بين الروايات(٣٣٤) — ليصبح أول خليفة عباسى .

اما الحسن بن قحطبة ، فبعد أن سلم الأمر لأبى سلمة فى الكوفة ، إلى واسط لملاحقة ابن هبيرة فاشتبك معه فى معركة والحق به هزيمـة هنـاك .

معركة الزاب وهـزيمة مروان :

واثناء ذلك كان مروان بن محمد يستعد للقـاء الحاسم مع قوات العباسيين ، وتحرك بقواته من حران إلى الموصل .

اما أبو العباس السفـاح فقد انتدب عمه عبدالله بن على ليقود المعركة الفاصلة مع مروان ، والتقى الجيشان عند نهر الزاب الكبير — أحد روافد دجلة — ودارت رحى الحـرب بينهما ، ومع أن جيش مروان كان اضعاف جيش عبدالله بن على — حيث روى أن عدد جنـوده كان حوالى مائة وعشرين الفا ، بينما كان جيش عبدالله حوالى عشرين الفا — إلا أن الهزيمة حلت بمروان ، فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ ، وهذا من تصاريف القدر ، الذى إذا شاء صرف الأمر عن قـوم ، فلن تغنى عنهم الجموع ولا الجيوش ، فقد اضطـرب الأمر على مروان ، وتقاعس عنه جنوده ، وفقد السيطرة على جيشه ، حيث يقول ابن الأثير : « وكان مروان ذلك اليوم لايدبر شيئا إلا ظهرفيه الخلل(٣٣٥) » . بل يروى أن حادثة يسيرة حدثت كان لها أكبر الأثر فى هـزيمة مروان ، فقد أمر مروان ابنه عبدالله أن يسير إلى مؤخرة الجيش لحث الجند على النظام ، فسار ومعه الراية ، فلما رآه الناس صـاحوا قائلين : الهزيمة الهزيمة ، فانهزموا وانهزم مروان(٣٣٦) .

---

(٣٣٤) انظـر المصدر السابق ٧/٤٢١ ومابعدها ، وابن الأثـير ٥/٤٠٨ ومابعدهـا .

(٣٣٥) ، (٣٣٦) — الكامل ٥/٤٢٠

فرار مروان إلى مصر وقتله هناك :

استطاع مروان النجاةمن المعركة،واخذ يفر من بلدإلى بلد لا يلوىعلى شيء(٣٣٧) ، حتى دخل مصر ، فأرسل عبدالله بن على اخـــاه صالح بن على فى اثره ، فأدركه فى قرية بوصير — جنوب الجيزة — فقتله هناك ، فى ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ(٣٣٨) . وبهذا انتهت الدولة الأموية .

وفى الحقيقة فإن المتتبع لسير الحوادث ، لايستطيع أن يلقى مسئولية زوال الدولة على مروان ، بل يمكن أن يلتمس له العـــذر ، فالرجل ظل مايقرب من خمس سنوات وهو فى ميادين القتال يحارب عالما معاديا على جميع الجبهات ، ورغم كل ذلك ، فقد حقق أنتصارات غير مألوفة ، وفاق معظم من كان قبله من خلفـــاء بنى أمية ، بفضل مقدرته الشخصية على احتمال الجهد والمشقة ، حتى لقبه النـــاس بالحمار ، لطول صبره على الأذى ، وحقق سيطرته على معظم ولايات الدولة ، وهى الجزيرة والعراق والشام ومصر(٣٣٩) .

ولكن أحداث هذه الولايات شغلته عن الخطر الداهم القـــادم من خراسان .

ولذلك فإننا نعتقد أن مسئولية هزيمته والقضاء على الدولة الأموية ، تقع فى المقام الأول على أبناء البيت الأموى ، الذين خرجوا على خليفتهم وابن عمهم ، وانضموا إلى الخارجين عليـــه ، واشعلوا فى وجهـــه نيران الثورات التى أحرقتهم جميعا .

---

(٣٣٧) العجيب أن أهل الشام بدلا من أن يقفـــوا مع خليفتهم فى محنته ويشدوا أزره،أخذوا يحاربونه وهو يمر ببلادهم مطاردا من أعدائه ، مستغلين ضعفه وهزيمته ، انظر المصدر السابق ٥/٤٢٤

(٣٣٨) المصدر السابق ٥/٤٢٦

(٣٣٩) انظر فلهاوزن تاريخ الدولة العربية ص ٣٧٨ .

الفصل السادس

الإدارة والنظم في العصر الأموي

الإدارة :

تأسست الدولة الإسلامية على يدى رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة ، بعد الهجرة مباشرة ، وكان هو رئيسها والمدبر لشئونها ، إلى جانب قيامه بتبليغ الرسالة ، وقد اتخذ الرسول ﷺ من مسجده مقرا لحكم الدولة فلم يكن مسجده لإقامة الصلوات فقط ، وإنما كان أيضا مركزا للدعوة ومقرا للحكم .

وقد تشكلت حكومة الرسول ﷺ من الصحابة رضوان الله عليهم ، الذين كانوا يعاونونه فى تسيير أمورها ، وقد اختص بعضهم بملازمته حتى أطلق عليهم اسم الوزراء ، مثل أبى بكر وعمر ، فقد ذكر أبو بكر ابن العربى فى كتابيه أحكام القرآن وسراج المريدين ، حديثا حسنا عن الرسول ﷺ حيث قال : « وزيراى من أهل السماء جبريل وميكائيل ، ووزيراى من أهل الأرض أبو بكر وعمر »(١) كذلك كان من الصحابة كتاب الرسول ، وحراسه ، وحجابه ، ورجال شرطته ، وعماله على الولايات وسفراؤه ....(٢) الخ ، ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فى آخر حياة الرسول ﷺ وشملت الجزيرة العربية كلها ، كان يعين لكل إقليم وال من قبله يحكمه ، وقاض يقضى بين الناس ، وجامع للصدقات .. الخ .

واستمر هذا الوضع فى خلافة أبى بكر — رضى الله عنه — الذى قسم الجزيرة العربية إلى حوالى عشرة أقسام إدارية : ١ — مكة المكرمة

---

(١) انظر أبو الحسن الخزاعى — تخريج الدلالات السمعيةص٣٩ . وظافر القاسمى — نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ ج ١ ص ٤٧

(٢) راجع عن حكومة الرسول ﷺ المصدرين السابقين ، وكتاب نظام الحكومة النبوية ، المسمى بالتراتيب الإدارية لعبد الحى الكتانى .

٢ — الطـــائف ٣ — صــنــاء ٤ — حضرموت ٥ — خولان ٦ — زبيـد
٧ — الجند ٨ — نجران ٩ — جرش ١٠ — البحرين .

وكان معظم ولاة هذه المناطق ممن ولاهم الرسول ﷺ وابقاهـم ابو بكر على أعمالهم(٣) .

وفى عهد عمر بن الخـطاب اتسعت الدولة اتسـاعا كبيرا ، فقد فتحت الشام والعراق وفارس ومصر ، فاقتضى هذا تنظيما جديدا يتفق مع اتساع الدولة ، لتسهل إدارتها ، فأنشأ عمر مدينتى البصرة والكوفة ، وجعل على كل مدينة واليا من قبله يكون مسئولا أمامه مباشـرة(٤) .

أما الشـام فقد قسمها عمر إلى عدة أقسام إدارية ، سميت أجنـادا لطبيعتها الحربية فىتلك المرحلة ، ولأنه كان يقيم فى كل قسم منها فيلق من فيالق الجيش وهذه الأقسام هى : جند دمشق ، وجند فلسطين ، وجند الاردن وجند قنسرين(٥) .

أما مصر فقد أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص بتأسيس عاصمة إسلامية فيها ، فأسس مدينة الفسطاط ، وظل هذا الوضع قائما طـوال عهد الخلفاء الراشـدين دون تغيير يذكر .

وفى العهد الأموى اتسعت الدولة الإسلامية ، وامتدت حدودها من كاشـفر على حدود الصين حتى الأندلس ، ومن بحر قزوين حتى المحيط الهندى ، وأصبحت تتكون من الأقسام الإدارية الآتية(٦) :

---

(٣) انظر : أبو الحسن الخـزاعى — المصدر السـابق ص١٦٤ ومابعدها ، والشيخ محمد الخضرى — ،المرجع السابق جـ ١ ص ١٩٥ .

(٤) كان الوالى فى البصرة يعتبر مسئولا عن إدارة القسم الجنوبى من العراق والقسم الجنوبى من الدولة الفارسية القديمة ، وكانت تمتد مسئوليته حتى خراسان وكان هو الذى يعين لهذه الأقاليم من يديرونها . وكان الوالى فى الكوفة يعتبر مسئولا عن إدارة القسم الشمالى من العراق والولايات الشمالية من الدولة الفارسية القديمة ، وهو كذلك يعـين من يدير هذه الأقاليم .

(٥) انظر د. ابراهيم العدوى — المرجع السابق ص ٢٦٦ .

(٦) انظر الشيخ محمد الخضرى — المرجع السابق جـ٢ ص ٢١١ .

١ ــ الحجــاز ويشمل المدينة المنورة ومكــة المكرمة والطائف ، وكان الوالى يقيم فى المدينة .

٢ ــ اليمــن ، وكانت فى معظم الأحيان ولاية مستقلة ، أى يحكمها وال مسئول أمام الخليفة مباشرة ، وأحيانا تضاف إلى والى الحجــاز ، يعين لها واليا من قبله .

٣ ــ العــراق ، وكانت حدوده الإدارية تشمل الدولة الفارسية القديمة كلها ، بالإضافة إلى أقاليم ماوراء النهر وإقليم السند ، وكان الأمويون فى أغلب الأحوال يجعلون العراق والمشرق كله تحت حكم وال واحــد ، أى يكون الوالى على العراق ، هو الذى يعين والى خراسان ، وهذايعين الولاة من قبله على أقاليم ماوراء النهر ، وأحيانا كان والى خراسان يتبع الخليفة مباشرة وهكذا .

٤ ــ إقليم الجزيرة ، ويشمل الموصل وأرمينية ، وأذربيجــان .

٥ ــ الشام وأصبحت فى العهد الأمــوى خمسة أقسام ، حيث فصلت حمص عن قنسرين ، وغدت ولاية قائمة بذاتها .

٦ ــ مصر وكان يتبعها شمال إفريقيا إلى نهاية ولاية عبد العــزيز بن مروان سنة ٨٥ هـ . ثم أصبــح شمال إفريقيا ولاية منفردة تتبع الخلافة مباشــرة .

٧ ــ الأندلس ، وهذه كانت فى معظم الأحيان تتبع والى شمال إفريقيا وأحيانا كانت تتبع الخلافة مباشرة .

وكان كل وال من ولاة هذه الأقليم ــ والذين كانوا يسمون أمراء أيضا ــ يختار من يساعدونه فى إدارة الكور والأقاليم الصغيرة ، التى تتبع ولايته ، ويكونون مسئولين أمامه عن أعمالهم . وكان خلفاء بنى أمية يحرصون أن يكون على رأس الولايات الكبرى رجال إما من البيت الأموى نفسه ، أو من أشد المخلصين لدولتهم ، والمشهورين بالحزم والدهاء والمقدرة السياسية

والإدارية(٧) . وكانوا يمنحونهم سلطات واسعة بحيث كان الوالى مطلق التصرف تقريبا فى ولايته يعمل بما يراه محققا لمصلحة الدولة ، وذلك يختلف عما كان عليه الحال فى عهود الخلفاء الراشدين حيث كانت سلطات الولاة مقيدة إلى حد بعيد فقد حرص الخلفاء الراشدون على الفصل بين السلطات العسكرية والسياسية والإدارية وبين السلطات المالية ، حيث كانوا يعينون إلى جانب الوالى ، الذى كان يسمى أمير الحرب والصلاة ، واليا آخر على بيت المال ، وكان يسمى صاحب الخراج ويكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة ولا سلطان للوالى عليه(٨) .

أما الغالب فى العهد الأموى ، فكان الوالى يشرف أيضا على الشئون المالية ، وإذا شئنا المقارنة فى بساطة بين أسلوب الخلفاء الراشدين وأسلوب بنى أمية فى الإدارة ، قلنا إن طابع إدارة الراشدين كان المركزية الشديدة ، التى كانت تتطلبها الظروف ، فقد كانت المرحلة مرحلة تأسيس الدولة ، وكان الخلفاء الراشدون يشرفون بأنفسهم تقريبا على معظم الأمور .

أما طابع الإدارة الأموية فكان اللامركزية ، حيث كانت الدولة قد اتسعت وبعدت المسافات بين العاصمة دمشق ، وبين الولايات فى المشرق والمغرب . فلو أن كل أمير فى كل ولاية أخذ يراجع الخليفة فى كل صغيرة وكبيرة لتعطلت مصالح الناس ، وقد مر بنا أن عمر بن عبد العزيز كره أن يراجعه أحد الولاة فى كل الأمور ، وكتب إليه يؤنبه على ذلك(٩) .

وليس معنى ذلك أن الولاة فى العهد الأموى كانوا يفعلون ما يشاؤون دون رقابة أو محاسبة من الخلفاء ، فقد كان معظم الخلفاء الأمويين

---

(٧)انظر محمد كرد على — الإسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ١٥٠ ، ١٦٤ .

(٨) رأينا فيما سبق أن عثمان بن عفان عندما عين سعد بن أبى وقاص واليا على الكوفة سنة ٢٤ هـ ، كان عبد الله بن مسعود واليا على خراجها ، مسئولا أمام الخليفة مباشرة .

(٩) انظر المسعودى — مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩٤ .

يتصفحون أعمال الولاة ويراقبونهم عن طريق عيونهم من رجال البريد وغيرهم فإذا ظهر من وال تقصير ، أو تجاوز فى تقاضى الخراج والجزية ، لا يترددون فى عزله(١٠) ، فالذى كان يهمهم فى الدرجة الأولى استتباب الأمن ومصالح الناس وسلامة الدولة والمحافظة على هيبتها .

ولذلك كان معظم خلفاء بنى أمية لا يستعملون إلا من تثبت كفايته فى تأييد سلطان الدولة ، والإخلاص لها ، وتعهده لأحوال الناس وكشف ظلاماتهم ، وانتهاج أفضل الطرق إلى مافيه راحتهم وهناؤهم ، وإذا تبرم أهل قطر بتدابير من وليهم ينقله الخليفة إلى قطر آخر ويستعيض عنه أكفأ منه(١١) .

وإلى جانب الكفاية والمقدرة الإدارية ، كان الأمويون يحرصون على أن يكون ولاتهم من أهل النزاهة والأمانة والاستقامة وحسن الخلق ، وقد مر بنا أن عبد الملك بن مروان عزل أحد العمال حين بلغه عنه أنه قبل هدية(١٢) .

وقد عزل معاوية بن أبى سفيان ابن أخته عبد الرحمن بن أم الحكم عن ولاية الكوفة لما بلغه أنه أساء السيرة(١٣) .

والحق انه لولا دقة الخلفاء الأمويين فى اختيار ولاتهم وقادتهم وعمالهم ولولا كفاءة هؤلاء الولاة والقادة والعمال الإدارية والسياسية والعسكرية ، ومقدرتهم الفائقة لما أمكنهم حكم وإدارة هذه البلاد الواسعة ، وبسط الأمن والنظام فيها ، فالرقعة التى كان يحكمها الأمويون من دمشق ، يقوم عليها الآن أكثر من ثلاثين دولة وكانت تضم أمما وشعوبا عديدة مختلفة الأجناس واللغات والمشارب والاتجاهات والعادات والتقاليد فصهر هذه الشعوب فى بوتقة واحدة واخضاعها لنظام واحد ، لم يكن أمرا سهلا ، والذين يتحدثون عن أخطاء الأمويين وولاتهم ينسون هذه الحقيقة فمن ذا

---

(١٠) د. سيدة كاشف — الوليد بن عبد الملك ص ٥٦ .
(١١) محمد كرد على — المرجع السابق ج ٢ ص ١٥٠
(١٢) المسعودى — مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٥ .
(١٣) محمد كرد على — المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٩ .

الذى يستطيع أن يحكم هذه الدولة الواسعة فى مثل هذه الظـروف التى حكم فيها الأمويون دون أن تكون له أخطـاء ؟

إن الإنصاف يفرض علينـا أن نقول : إن نجـاح الأمويين فى إدارة الدولة بواسطة ولاتهم الأفذاذ يدل على عبقرية فذة فى فن الحكم والإدارة وسياسة الناس ويعتبر من أعظم أمجادهم ، مهما كانت الأخطاء ، ومهما تقول المتقولون إن أكثر من ثلاثين دولة تقـوم فى الوقت الحاضر على الأرض التى كانت تحت حكم الأمويين — كما ذكرنا آنفا — وفى وقت تيسرت فيه الاتصالات والمواصلات وتقدمت فنون الحكم والإدارة بما لا يمكن أن يقارن بما كان عليه الحال فى عصر الأمويين ، ومع ذلك فإن معظم هذه الدول تعانى من مشاكل حادة وتتخبط فى سياساتها وإداراتها ، مما نراه ونشاهده ونسمع عنـه ، فكيف يتوقع النـاس أو يفترضون ألا يخطىء الأمويون وولاتهم فى عصرهم ، إنها أحكام ظالمة تلك التى لا تأخـذ فى حسبانها الظروف التى كان يعيشها الأمويون وولاتهم ، والتى مر بنا الكثير منها فى الفصول السابقة .

ولقد برزت فى العصر الأموى أسماء لامعة فى فن الحكم والإدارة والسياسة مثل عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وعتبة بن أبى سفيان ، ومروان بن الحكم ، وزياد بن أبى سفيان ومسلمة بن مخلد ، وعقبة ابن نافع فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وعبيد الله بن زياد وإخوته ، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان فى عهد يزيد بن معـاوية ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، ومحمد بن مروان ، وعبد العزيز بن مروان . والمهلب بن أبى صفرة وأولاده ، وبصفة خاصة يزيد ، وزهير بن قيس البلوى ، وحسان بن النعمان الغسانى وغيرهم فى عهد عبد الملك بن مروان(١٤) . وعبد الله بن عبد الملك ، ومسلمة بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز وقتيبة بن مسلم الباهلى ، ومحمد بن القاسم الثقفى وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وقرة بن شريك فى عهـد الوليد بن عبد الملك ،(١٥)

(١٤) انظر تاريخ — خليفة بن خياط ص ٢٩٣ وما بعدها .
(١٥) المصدر السابق ص ٣١٠ — ٣١٢

بالإضافة إلى الحجاج الذى كان أبرز الولاة جميعا فى عهدى عبد الملك والوليد .

ومسلمة بن عبد الملك ، وأبو بكر بن حزم ، ومحمد بن يزيد وصالح بن عبد الرحمن فى عهد سليمان بن عبد الملك(١٦) .

وعبد الحميد بن عبد الرحمن والجراح بن عبد الله الحكمى ، وعدى بن ارطاة ، واسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك الخولانى ، وغيرهم فى عهد عمر بن عبد العزيز(١٧) .

وعمر بن هبيرة ، وبشر بن صفوان ومسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك وغيرهم فى عهد يزيد بن عبد الملك(١٨) .

وخالد بن عبد الله القسرى وأخوه أسد بن عبد الله ومروان بن محمد ويوسف بن عمر الثقفى ، والجنيد بن عبد الرحمن وأشرس بن عبد الله السلمى فى عهد هشام بن عبد الملك(١٩) .

ويزيد بن عمر بن هبيرة ، ونصر بن سيار فى عهد مروان بن محمد(٢٠)

وهؤلاء هم أبرز الولاة ورجال الإدارة فى العصر الأموى ، والقائمة طويلة ، ولا يتسع المجال امامنا هنا للحديث عن كل الولاة فى العصر الأموى لأن هذا يحتاج إلى بحث خاص .

ولكننا نشير إلى ثلاثة منهم ، كانوا من أكثر من تعرضوا للنقد بل لحملات التشهير والاتهام بالقسوة والظلم ، وهم زياد بن أبى سفيان والحجاج بن يوسف الثقفى وقرة بن شريك العبسى لنرى مدى الظلم الذى وقع على هؤلاء الرجال والقسوة فى الأحكام على أعمالهم .

---

(١٦) المصدر السابق ص ٣١٧ — ٣٢٠
(١٧) المصدر السابق ص ٣٢٢ — ٣٢٤
(١٨) المصدر السابق ص ٣٣٢ — ٣٣٤
(١٩) المصدر السابق ص ٣٥٧ — ٣٦١
(٢٠) المصدر السابق ص ٤٠٥ — ٤٠٧

١ — زياد بن أبى سفيان(٢١) لقد كان زياد من رجال على بن أبى طالب وكان واليا له على فارس — وقد رأينا فيما سبق كيف كان حزمه وقدرته الإدارية وضبطه للأمور آنذاك — وبعد مقتل على انضم إلى معاوية الذى كان حريصا على أن يكون من رجاله ، وحاول ذلك معه حتى قبل قتل على ، ثم نجح أخيرا فى مسعاه ، والحق زيادا بأبيه أبى سفيان سنة٤٤هـ — كما سبقت الإشارة ، ثم ولاه البصرة سنة ٤٥هـ ، وبعد وفاة المغيرة بن شعبة سنة ٥١ هـ ضم معاوية لزياد البصرة مع الكوفة فكان أول وآل يحكم العراق والمشرق كله فى عهد الأمويين فماذا كانت سياسة زياد ، وكيف كانت إدارته لهذا القسم من الدولة الإسلامية ؟

ندع الطبرى يحدثنا عن زياد وسياسته ، فيقول : « وكان زياد أول من شهد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية ، والزم الناس الطاعة وتقدم فى العقوبة ، وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس فى سلطانه خوفا شديدا حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيىء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدا قبله وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق »(٢٢) .

هذا النص يوضح سياسة زياد بشتى جوانبها ، فعلى الرغم من القسوة التى اتسمت بها ، والتى الجاه إليها أهل العراق انفسهم ، الذين مردوا على العصيان وكانوا مصدر إزعاج دائم للدولة الأموية ، فقد جاء زياد البصرة وهى جمرة تشتعل والفسق فيها ظاهر فاش ، على حد تعبير الطبرى(٢٣) ، فكان لابد من الحزم ، الذى كانت نتيجته كما سجلها

---

(٢١) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٩٩ ، والمعارف لابن قتيبه ص ٣٤٦ والطبرى — تاريخ جـ ٥ ص ١٧٦ ، ٢١٤ ، ٢٨٨ ، والمسعودى —مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٥ وابن الأثير — أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٧١ والكامل جـ ٣ ص ٤٩٣

(٢٢) تاريخ جـ ٥ ص ٢٢٢

(٢٣) نفسه جـ ٥ ص ٢١٧

الطبرى استتباب الأمن بصورة لم يسبق لها مثيل ، بحيث اطمأن الناس على أنفسهم وأموالهم ولكن برغم هذه القسوة التى لم تطبق إلا على الخارجين على النظام ، فقد كان الرجل صادقا وعادلا مع بقية الناس ، فقد قال لهم فى خطبته البتراء — القاسية التى أراد بها إرهاب العابثين بالأمن وردعهم عن الشغب والإخلال بالنظام — « فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى »(٢٤) ثم قال : « فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم واعلموا انى مهما قصرت عنه ، فإنى لا أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ، ولا مجمرا لكم بعثا(٢٥) . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم »(٢٦) .

فماذا ينتظر من حاكم فى مثل ظروف زياد — التى كانت تعتبر ظروفا استثنائية — أن يصنع أكثر من هذا ؟ إن ما فعله زياد هو توفير الهيبة للحكم ، ولا شك أن هذا من مصلحة الغالبية العظمى من الناس ، فالحكومة الضعيفة التى تفقد هيبتها لا يمكن أن تحكم ، وفى هذه الحالة يختل النظام ، ويأكل قوى الناس ضعيفهم ، يقول ابن الأثير(٢٧) فى آخر ترجمته لزياد :« وكان عظيم السياسة ضابطا لما يتولاه .. ولى العراق عقب فتنة واختلاف أهواء ، فضبط العراق برجال العراق .. وساس الناس فلم يختلف عليه رجلان » ولم يكن زياد ينتقم لنفسه من خصومه وشانئيه ولم يثبت أنه استغل نفوذه وسلطانه لمصلحته الشخصية .

بل الذى كان يهمه فى المقام الأول استتباب الأمن والنظام العام ، وكان يعلم أن له خصوما كثيرين ، فمن كان فى مكان زياد لا يمكن ان يكون موضع حب كل الناس ، فنصف الناس أعداء للحاكم ولو عدل — كما يقال — وقد وضح فى خطبته — المشهورة — بما لا يدع مجالا للشك أو اللبس

(٢٤) نفسه جـ ٥ ص ٢١٩

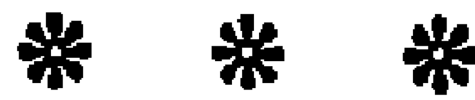
(٢٥) تجمير البعث مكثهم فى ميادين الجهاد ، ومنعهم من العودة إلى أهلهم .

(٢٦) الطبرى : المصدر السابق جـ ٥/ ٢٢٠

(٢٧) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٧٢

أن علاقاته الشخصية بالناس لن تكون هى التى توجــه سياسته لهم ، فلن يظلم إنسانا أو يمنعه حقه لأنه يكرهه ، ولن يحابى إنسانا أو يعطيه مالا يستحق لأنه يحبه ، فقد قال : « وقــد كانت بينى وبين أقــوام إحن فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قــد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يبدى لى صفحته ، فإذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفســكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس »(٢٨) .

هذا هو زياد ، وهذه هى سياسته ، فهو لم يفتش عن النــوايا ولكنه لم يدع أحدا يعبث بأمن الناس ويفسد أمورهم ، وهذه لعمرى هى مهمة أى حاكم يتوخى الصالح العام فى أى عصر من العصور ، وله بعد ذلك بعض العذر إن أخطأ أو تجاوز الحد ، فالعصمة من الخطأ لله وحده سبحانه وتعالى .



(٢٨) الطبرى ــ المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٢٠

٢ ــ الحجــاج ...

هو الحجاج بن يوسف بن أبى عقيــل بن مسعود الثقفى ، وأمــه الفارعة بنت همام بن عروة بن مســعود الثقفى ،(٢٩) ولد فى الطائف حوالى سنة ٤٠ هـ وحفظ القــرآن الكريم ، وسمع عن كثير من الصحابة منهم ابن عباس ، وكان فى بداية حياته يعلم الصبيان القرآن ، ويبدو أن طموحه لم يقنع بهذا العمل فرحل إلى الشام ، وانضم إلى روح بن زنباع صاحب شرطة الخليفة عبد الملك بن مروان ، وظهرت كفايته ومقدرته وحزمه أثناء مسير عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير سنة ٧٢ هـ حيث ضبط الجيش ضبطا محكما واعجب به عبد الملك وبعد مقتل مصعب أرسله إلى الحجاز فقضى على عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ فكافأه عبد الملك على ذلك بأن عينه واليا على الحجاز واليمن وسائر الجزيرة العربية فظل واليا عليها سنتين ٧٣ — ٧٥ هـ فضبطها وأقر الأمن والنظام فيها ، وفى سنة ٧٥ هـ عينه عبدالملك واليا على العراق والمشرق كله .. فمكث فى ولايته تلك عشرين سنة ، منها إحدى عشرة سنة فى خلافة عبد الملك ٧٥—٨٦هـ وتسع سنوات فى خلافة ابنه الوليد ٨٦ — ٩٥هـ . وخلال هــذه المدة الطويلة تصدى الحجاج بعزيمة من حديد لكل أعــداء الدولة الأموية من الخوارج إلى ابن الأشــعث إلى غيرهم ، وأخلص كل الإخــلاص لخليفته عبد الملك ، وبذل أقصى طاقته فى تثبيت ملكه(٣٠) .

---

(٢٩) انظر ترجمته فى المعارف لابن قتيبة ص ٣٩٥ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ١٣٢ وما بعــدها والكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٥٨٤ وما بعدها وسير أعلام النبلاء للذهبى ج ٤ ص ٣٤٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١١٧ وما بعدها ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ١ ص ٢٣٠ .

(٣٠) كان عبد الملك بن مروان يعرف للحجاج قدره وجهده فى توطيد دولته ولذلك وصى ابنه الوليد وهو على فراش الموت بإكرامه فقال له : « وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه ، فإنه هو الذى مهد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك » انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص٦٧. وقد عمل الوليد بوصية أبيه واعتمد على الحجاج فى حكم المشرق الإسلامى كله .

وبعد أن قضى على الثورات والفتن الداخلية ، وجه همته للفتوحات فأرسل قتيبة بن مسلم ففتح بلاد ما وراء النهر ومحمد بن القاسم الثقفى ففتح إقليم السند ، وكان هو من وراء هذين القائدين الكبيرين القوة المحركة ، يمدهم بالجنود والأموال والنصيحة ، والمشورة وقد عرفنا كثيرا من ذلك أثناء حديثنا عن الفتوحات ، حظى الحجاج بشهرة فى التاريخ الإسلامى لا تقل عن شهرة خليفته عبد الملك بن مروان ، لأعماله الكبيرة ، وافرد له المؤرخون صفحات طويلة ،(٣١) استقصوا فيها أخباره كلها ، ولما كانت الفترة التى حكم فيها الحجاج فترة فتن وثورات اضطرته إلى القسوة على الخارجين على الدولة وأخذهم بالحزم والشدة فقد حمل عليه بعض المؤرخين حملة شعواء واتهموه بالظلم والقسوة وحب سفك الدماء ،(٣٢) ولما كان تاريخ الحجاج قد كتب فى العصر العباسى ، فقد راجت روايات كثيرة تصوره حاكما ظالما مستبدا لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، وكان ذلك يعجب العباسيين الذين حرصوا على تشويه التاريخ الأموى ورجاله .

ولكن من بين هذا الكم الهائل من الروايات المعادية للحجاج نستطيع أن نعثر على ما يحملنا على الاعتقاد بأن الرجل لم يكن يحب سفك الدماء لمجرد سفك الدماء ، ولكنه كان أمام ثورات عارمة تريد تقويض الدولة ، فلم يكن يفرغ من ثورة حتى تواجهه أخرى أشد وأعتى ، فكان من الطبيعى فى هذا الجو المشحون بالفتن وتوتر الأعصاب أن يلجأ إلى الحزم وبدون ذلك لم يكن ممكنا استقرار الأمن ، الذى هو مطلب إسلامى أساسى ، ومع ذلك فكان الرجل يميل إلى الرحمة والعفو ، وقد عفا عن كثير من الذين شاركوا فى الثورات ضد الدولة ، عندما جاؤوه تائبين كما فعل مع

---

(٣١) ترجم ابن كثير فى البداية والنهاية للحجاج فى ثلاث وعشرين صفحة جـ ٩ ص ١١٧ — ١٣٩ بينما ترجم لعبد الملك بن مروان فى ثمان صفحات جـ ٩ ص ٦١ — ٦٩

(٣٢) انظر : المسعودى — مروج الذهب جـ ٣ ص ١٣٢ ، والنجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٣٠

الشعبى(٣٣) ، وغيره(٣٤) ، ممن اشتركوا فى ثورة ابن الأشعث بل كان قلبه يفيض رحمة عندما يجد إنسانا مظلوما ، فكان يسمع منه وينصفه فقد كتب إليه عبد الملك بن مروان يأمره بقتل رجل إسمه اسلم بن عبد البكرى ، لأنه بلغه عنه ما أساءه ، فلما أحضره الحجاج ، قال له الرجل : « أيها الأمير انت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب ، وقال الله تعالى : **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** » وما بلغه عنى باطل ، وإنى أعول أربعا وعشرين امرأة مالهن كاسب غيرى وهن بالباب ، فأمر الحجاج بإحضارهن ، فلما حضرن ، جعلت هذه تقول أنا خالته وهذه أنا عمته ، وهذه أنا أخته ، وهذه أنا زوجته ، وهذه أنا إبنته .. فبكى الحجاج وقال : والله لا أعنت عليكن ولا زدتكن ضعفا ، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل .. فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته »(٣٥) هذا هو الحجاج الذى يصوره بعض المؤرخين طاغية مستبدا. حتى سعيد بن جبير الذى قتله الحجاج لاشتراكه فى ثورة ابن الأشعث ، فإن الطبرى يروى أنه كان كارها لذلك . وكان هو الذى ارسل سعيدا مع الجيش ، وجعله على عطاء الجند ،(٣٦) ثقة فيه ، وتبركا وتفاؤلا بوجوده بين المجاهدين فى غزوهم بلاد الأعداء فلما اشترك فى الثورة ، وهرب بعد هزيمة ابن الأشعث طلبه الحجاج ولكنه تغافل عنه بعد ذلك وتناساه إلى أن قبض عليه خالد بن عبد الله القسرى فى مكة ، وأرسله إليه ، فغضب وقال : « لعن الله ابن النصرانية — يعنى خالدا القسرى — أما كنت أعرف مكانه ؟ بلى والله والبيت الذى هو فيه فى مكة »(٣٧) وكاد يعفو عنه ، لولا أن سعيدا اغضبه بقوله كانت لابن الأشعث فى عنقى بيعة ، يقول الطبرى ، : أقبل الحجاج على سعيد وقال له : « ما أخرجك على ؟ فقال أصلح الله الأمير ! إنما أنا امرؤ من المسلمين يخطىء مرة ويصيب مرة ،

(٣٣) المسعودى — المصدر السابق جـ ٣ ص ١٥٢ — ١٥٣
(٣٤)ابن كثير — البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٢٥
(٣٥) المصدر السابق جـ ٩ ص ١٢٤
(٣٦) الطبرى جـ ٦ ص ٤٨٧
(٣٧) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٩٠

فطابت نفس الحجاج ، وتطلق وجهه ، ورجا أن يتخلص من أمره »(٣٨) لكنه لما قال كانت لابن الأشعث فى عنقى بيعة ، غضب الحجاج غضبا شديدا ، وقال له « ياسعيد ، ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير ، ثم أخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ، قال : بلى قال : ثم قدمت الكوفة واليا على العراق ، فجددت البيعة لأمير المؤمنين ، فأخذت بيعتك له ثانية ؟ قال بلى ، قال : فنكثت ببيعتين لأمير المؤمنين وتفى بواحدة للحائك ابن الحائك إضربا عنقه »(٣٩) . هذه هى قصة سعيد بن جبير ، التى كانت من أكبر المآخذ على الحجاج ، وأعظمها أثرا فى بغض الناس له ونحن لا ندافع عن الحجاج هنا ، لأنه هو نفسه ندم ندما كبيرا على قتله(٤٠) .

ولكننا نقول إن الظروف الصعبة التى كان يعيشها الرجل والتهديد الدائم للأمن والاستقرار فى الدولة من أهل العراق ، كل ذلك جعل أعصابه فى توتر دائم ، وربما جعله ذلك يتجاوز الحد فى بعض الأحيان ، ولكنه مع ذلك كان يحترم العلماء ويجلهم ، كما كان حاله مع عامر الشعبى والحسن البصرى وأمثالهما .

ولو وجد هذا الرجل فى عهد مستقر يسوده الأمن والنظام لكان له فى مجال البناء والإصلاح والتعمير دور أعظم من الذى كان ، فبالإضافة إلى عبقريته العسكرية والإدارية وحزمه وشجاعته فقد كان رجل بناء وتعمير ، عمل على ترقية الزراعة فى العراق بإقامة السدود وشق القنوات وترقية التجارة ، وإصلاح الأحوال الاقتصادية بإصلاح النقد ونظام الموازين والمكاييل والمقاييس ومن أعماله الجليلة إعجام المصحف بوضع النقط للحروف للتمييز بين الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء ، والدال والذال ، كما وضع حركات الشكل ، الضم والفتح والكسر ، لما رأى اللحن انتشر فى قراءة القرآن(٤١) . ومن أعماله العمرانية بناء مدينة واسط بين

---

(٣٨) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٩٠

(٣٩) المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٩٠

(٤٠) نفسه جـ ٦ ص ٤٩١

(٤١) د. سيدة كاشف : الوليد بن عبد الملك ص ٨٠

البصرة والكوفة سنة٨٣ هـ(٤٢) .

كما كان يتمتع بصفات جليلة ، فحتى المؤرخين الذين انتقدوه بشدة ، اعترفوا بأنه كان شجاعا فصيحا كريما ، معظما للقرآن ، شديد الخوف من الله يقول الذهبى : « وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء ، وفصاحة وبلاغة ، وتعظيم للقرآن »(٤٣) ويقول ابن كثير : « ثم نشأ لبيبا فصيحا بليغا حافظا للقرآن،قال بعض السلف كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة»(٤٤) ومما يصور خوفه من الله مايذكره ابن كثير أيضا عن المغيرة بن مسلم قال سمعت أبى يقول : خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر ، فمازال يقول : إنه بيت الوحدة وبيت الغربة ، حتى بكى وأبكى من حوله »(٤٥) بل يروى ابن كثير ما يدل على ورعه وتقواه فيقول : « تغدى الحجاج يوما مع الوليد بن عبد الملك ، فلما انقضى غداؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ(٤٦) ، فقال ياأمير المؤمنين الحلال ما أحللت ، ولكنى أنهى عنه أهل العراق ، وأهل عملى ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح « وماأريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »(٤٧) .

أما كرم الحجاج فأمر مشهور ، فيروى أنه كان يقيم ألف مائدة كل يوم لإطعام الناس ، ويسقيهم العسل واللبن ، ويدور على الموائد ليتفقد الناس ويطمئن على كل شيىء بنفسه ، وكانت سماحته زائدة مع العلماء وأهل القرآن وكان يعطيهم ويغدق عليهم كثيرا(٤٨) .

---

(٤٢) الطبرى — المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٨٣ .
(٤٣) سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٣٤٣ .
(٤٤) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١١٩ .
(٤٥) المصدر السابق جـ ٩ ص ١١٧ .
(٤٦) النبيذ الذى دعا إليه الوليد الحجاج لم يكن خمرا وإنما هو عصير التمر والزبيب الذى أباحه فقهاء العراق ، لأنه لم يكن مسكرا .
(٤٧) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٢٧ .
(٤٨) المصدر السابق جـ ٩ ص ١٣٣

والعجيب أن هذا الرجل الذى حكم أكثر من نصف الدولة الإسلامية حوالى عشرين عاما ، لم يترك حين وفاته سوى ثلثمائة درهم(٤٩) ، مما يدل على امانته ونزاهته .

ومما يذكر للحجاج انه كان يحترم اهل البيت النبوى ، والهاشميين بصفة عامة ولم يتعرض لأحد منهم بأذى(٥٠) ، بل كان يبغض من آذاهم ؛ يروى ابن كثير أن الحجاج قال يوما : « من كان له بلاء أعطيناه على قدره ، فقام رجل فقال : أعطنى فإنى قتلت الحسين ، فقال وكيف قتلته ؟ قال : دسرته بالرمح دسرا ، وهبرته بالسيف هبرا ، وماأشركت معى فى قتله أحدا ، فقال : اذهب فوالله لاتجتمع أنت وهو فى موضع واحد ، ولم يعطه شيئا »(٥١) .

والخلاصة أن الحجاج لم يكن على هذه الصورة القاتمة ، التى يصوره بها بعض المؤرخين ، بل كان — إلى جانب همته العالية فى قمع الثورات وجهوده الكبيرة فى مجال الفتوحات والتنظيم والإدارة والأعمال العمرانية — ينطوى على نفس رحيمة ونزعة إنسانية وميل إلى العفو والعدل أما قسوته فله فيها بعض العذر ، فرجل يحكم أكثر من نصف العالم الإسلامى هذه المدة الطويلة ويواجه ماواجه من المشاكل والفتن والثورات ، لابد أن تكون له أخطاء . ولعله من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فعسى الله أن يتوب عليه .

---

(٤٩) المصدر السابق جـ ٩ ص ١٣٣ .
(٥٠) انظر : ابن تيمية — منهاج السنة جـ ٢ ص ٢٤٩ .
(٥١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٢٤ .

٣ ـ قرة بن شريك(٥٢)

تولى قرة بن شريك ولاية مصر ست سنوات ٩٠ — ٩٦ هـ فى خلافة الوليد بن عبد الملك الذى عزل أخاه عبدالله بن عبد الملك عنها وأسندها إلى قرة ، قـد كال له بعض المؤرخين التهم جزافا(٥٣) ، فقال عنه ابن تغرى بردى : « وكان سيىء التدبير ظالما غشوما فاسقا »(٥٤) وكان الوليد بن عبدالملك قد أمر قرة بتوسعة وتجديد جامع عمرو بن العاص فنهض بالأمر وجدد ووسع الجامع ، ولكن المؤرخين راحوا يشوهون هذا العمل بالقول : إن قرة كان إذا فرغ العمال والصناع من البناء دعا بالخمور والزمور والطبول ، فيشرب الخمر فى المسجد طول الليل ويقون لنا الليل ولهم النهار ء وكان أشر خلق الله »(٥٥) .

وهذه التهمة تذكرنا باتهام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بأنه هم بشرب الخمر فوق الكعبة ، ولاندرى كيف يجرؤ وال مسلم فى نهاية القرن الأول الهجرى على شرب الخمر واللهو والعبث وسماع الغناء والزمر والطبل فى بيت من بيوت الله علانية ، وهب أن هذا الوالى كان متهتكا إلى هذا الحد ، فهل ضاقت عليه الأرض حتى يصنع هذا فى المسجد ، وإن اشد الناس فجورا فى عصرنا هذا ، لايجرؤ على ارتكاب مثل هذا العمل القبيح بالقرب من احد المساجد ، فكيف بوالى مصر المسلم فى ذلك الزمان الذى كان الوازع الدينى فيه اقوى بكثير مماهو عليه الآن بكل تأكيد ؟ أغلب الظن أن هذه شائعة كاذبة ، أطلقها أعداء الوالى ليشوهوا سمعته عند

---

(٥٢) انظر ترجمته فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ص ٦٣ ، ومابعدها ، سير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٤ ص ٤٠٩ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ١٦٩ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ١ ص٢١٧ — ومابعدها .

(٥٣) انظر د. سيدة كاشف ــ الوليد بن عبد الملك ص ٨٥ — ٨٦ — حيث أوردت طائفة من اتهامات المؤرخين لقرة بن شريك ، مثل ساويرس ابن المقفع والمقريزى وابن تغرى بردى .

(٥٤)النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢١٧ .

(٥٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٢١٨ .

الناس واخـــذوا يرددونها حتى استقرت فى بطون بعض الكتب كواقعة تاريخية لازالت تروى حتى الآن .

والذى يجعلنا نميل إلى الاعتقـــاد بأنها شائعة لا اســـاس لها من الصحة أن ابن عبد الحكم والكندى وهما من المؤرخين القدامى ، أهل الثقة فى تاريخ مصر وولاتها ، لم يشيرا إليها عنـــد حديثهما عن ولاية قرة بن شريك على مصر ، فقد أشارا إلى بنـــائه الجامع وتوسعته ، ولكنهما لم يذكرا شيئا عن واقعة شرب الخمر وسماع الغناء بالمرة(٥٦) . ولو كانت حدثت لما اغفلاها ، ولا ندرى من اين جاء بها المؤرخون المتأخرون مثل صاحب النجوم الزاهرة ؟

والغريب أن بعض المؤرخين كلما تحدثوا عن الحجاج الثقفى أو قرة ابن شريك استشهدوا بمقولة منسوبة إلى عمر بن عبد العـــزيز ، حيث يزعم بعض المؤرخين أنه قال حين ذكر عنـــده الحجاج وقرة : « الحجاج بالعراق والوليد بالشام ، وقرة بن شريك بمصر .. اللهم قد امتلأت الأرض ظلما فأرح الناس »(٥٧) تعود بعـــض المؤرخين على ترديد هذه المقولة واعتبارها حقيقة مسلمة دون تأمل فيها ، ويكفى عندهم أنها منسوبة إلى عمر بن عبد العزيز ، فهل كان عمر بن عبد العزيز يعتبر ابن عمه الخليفة الوليد بن عبد الملك ظالما فعلا ؟ وإذا كان يعتبره كذلك فلماذا قبل أن يعمل له واليا على المدينة أكثر من ست سنوات ٨٧ — ٩٣ هـ ؟ أم أن الوليـــد كان عادلا أثناء ذلك ، ثم أصبح ظالمـــا فجأة بعد أن عزل عمر بن عبـــد العزيز ؟ اغلب الظن أن عمر لم يقل هذا الكلام ، وأنه منحول عنه ، وأن أعداء الأمويـــين نسبوه إلى عمر ليصدقه الناس ، ويكون تأثيره كبيرا عليهم لما عرف عن عمر من الصدق والعدل والسمعة الطيبة .

على كل حال من حسن الحظ فقد دلت أوراق البردى العربية والتى اكتشفت فى كوم اشقاو والتى تعود إلى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك

---

(٥٦) فتوح مصر ص ٩٣ وكتاب الولاة والقضاة ص ٦٤ .

(٥٧) النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢١٨ .

وولايــة قرة بن شريك على مصر(٥٨) ، دلت هــذه الأوراق على أن كل ماروواه المؤرخون عن ظلم قرة وفسقه لم يكن صحيحا ، فقد كشفت هذه الأوراق عن بيانات ومعلومات طيبة عن المجتمع المصرى ، والإدارة والنظام المالى وطريقة جباية الجزية والخــراج ، وإسناد المناصب إلى الموظفين والتجارة وطرقها ، وبناء العمائر والمساجد ، وإنشاء الأساطيل وأثمان البضائع والبيوت والأرض فضلا عن عقود الزواج والبيع والشراء وما إلى ذلك من المكاتبــات الخاصة التى تكشفَ عن بعض العادات والنظــم الاجتماعية فى ولاية قرة بن شريك ومنها يتضح أن الرجل لم يكن فاسقا ولا ظالما ، بل كان يتحرى العدل بين الناس ، ففى كتاب منه إلى صاحب كورة أشقوة نجده يأمره بأن يرسل كشفا بالأماكن المختلفة لمعرفة عــدد الرجال فى كل مكان والجزية الواجب عليهم أداؤها وما يملكه كل رجل من الأراضى ، ومايقوم به من أعمال ، ويطلب قرة من صاحب الكورة ألا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ، ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيرا حسنا ومعاقبة من يتنكب طريق العدل(٥٩) ، وفى كتاب آخر يطلب قرة من الوالى أن يكون عادلا فى تقدير الضرائب الواجبة على كل فرد ، وأن يسهل للناس الاتصال به كى يسمع مايقولون إذا كانت لهــم شكاوى(٦٠) ، وهكذا تدحض هذه الوثائق البردية المعــاصرة مايزعمه بعض المؤرخين من اتهام قرة بن شريك بالظلم والفسق ، ويصبح الأمر عبارة عن شائعات وأكاذيب كان يطلقها أعداء الدولة على رجالها وظل الناس يرددونها جيلا بعد جيــل حتى وصلت إلينا ، ولعل الأيام تكشف لنا عن الكثير من أوراق البردى وغيرها من الوثائق المعاصرة التى تعود إلى العصر الأموى ، وعندها يمكن أن يتغير كثير من المفاهيم ومن النظر إلى التاريخ الأموى ، كما تغــيرت صورة قرة بن شريك بعــد اكتشاف هــذه الأوراق .

---

(٥٨) انظر د. سيدة كاشف — الوليد بن عبد الملك ص٨٤ ومابعدها

(٥٩) المرجع السابق ص ٨٨ .

(٦٠) المرجع السابق ص ٨٩ .

لم يكن قصدى من حديثى السابق الدفاع عن زياد والحجاج وقرة بن شريك وتبرير أخطائهم ، فليست هذه مهمة دارس التاريخ ، وإنما أردت أن أوضح أنهم وإن كانت ظروف عصرهم ومشاكله قد اضطرتهم إلى القسوة أو تجاوز الحـــد فى بعض الأحيان ، إلا أنهم كانت لهم إيجابيات كثيرة ، وكانـــوا إداريـــين ممتازين ، والدراسة المنصفة والمتجـــردة لمثل هذه الشخصيات التاريخية لابد أن تأخذ فى الاعتبار الإيجابيات والسلبيات ، لتتزن الصورة ويعتدل الميزان ، وتكتمل الفائدة والاستفادة من الإيجابيات والسلبيات على السواء . أما التركيز على الأخطاء وإبرازها ، وإغفـــال الأعمال الحسنة وإهمالهـــا فليس من الإنصاف فى شىء ، فضلا عن أن ضرره أكبر من نفعه فى دراسة التاريخ .

* * *

الدواوين فى العصر الأموى

عرف عن خلفاء بنى أمية — وبصفة خاصة المؤسسين الكبار منهم ، مثل معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان — حرصهم على حسن إدارة دولتهم . والسهر على مصالح الرعية ، لينتظم لهم أمر الملك ، فلم يدخروا وسعا فى اقتباس الأساليب الإدارية النافعة لتطبيقها فى دولتهم وإنشاء الدواوين والأجهزة ، لإدارة مرافق الدولة .

والديوان كلمة فارسية معناها السجل أو الدفتر الذى تدون فيه الأسماء والأموال . وقد أطلق الإسم مجازا على المكان الذى يعمل فيه الموظفون المختصون بالعمل فى الديوان(٦١) .

واول من انشأ الدواوين فى الدولة الإسلامية عمر بن الخطاب ، فلم يكن على عهد رسول الله ﷺ ولاعهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق دواوين فقد كان الرسول ﷺ يدير أمور الدولة بمعاونة أصحابه ، وكان كل منهم يقوم بالعمل الذى يكلفه به الرسول ﷺ حسبما تقضى به الحاجة ودون أن تكون لهم اماكن محددة تسمى دواوين ، واستمر الحال كذلك فى عهد ابى بكر .

فلما كان عهد عمر بن الخطاب ، واتسعت الدولة وزادت مواردها المالية ، اقتضى الأمر خطوة إلى الامام على طريق التنظيم الإدارى والمالى للدولة ، فكان إنشاء الديوان ، ويعزو المؤرخون سبب إنشاء عمر الديوان إلى كثرة الأموال التى أخذت تتدفق على المدينة من غنائم الفتوحات ومن الصدقات وغيرها(٦٢) . فلما تحير عمر فى كيفية التصرف فى هذه الأموال الكثيرة استشار الصحابة فى ذلك ، فقال عثمان بن عفان : « أرى مالا

---

(٦١) انظر د. حسن ابراهيم حسن ، د. على ابراهيم حسن - النظم الإسلامية ص ١٨٦

(٦٢) انظر البلاذرى — فتوح البلدان ص ٥٤٩ وما بعدها . والماوردى — الأحكام السلطانية ص ١٩٩ ، وابن الطقطقا — الفخرى ص ٨٣

كثيرا يسع الناس ، وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن يشتبه الأمر فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جندا ، فدون ديوانا وجند جندا ، فأخذ بقوله : فدعا عقيل بن أبى طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وكانوا من كتاب قريش ، فقال : اكتبوا الناس على منازلهم »(٦٣) ويفهم من كلام المؤرخين أن عمر أنشأ ديوانين لا ديوانا واحدا ، فقد أنشأ ديوانا للعطاء بدأ فيه بقرابة رسول الله ﷺ وأزواجه وفرض للناس حسب سابقتهم ففضل أصحاب بدر على غيرهم .

وإلى جانب هذا كان هناك ديوان للجند ، أى المجاهدين ، تدون فيه أسماؤهم وعطاؤهم ويبدو أن أسماء الجند كانت تدون حسب قبائلهم « حتى تتميز كل قبيلة عن غيرها » كما يقول الماوردى(٦٤) ، فكأن كل قبيلة تمثل فرقة من فرق الجيش .

وهكذا وضع عمر بن الخطاب أساس نظام الدواوين فى الدولة الإسلامية مستفيدا فى ذلك بتجارب الفرس والروم .

ولما قامت الدولة الأموية دعت الضرورة إلى إنشاء دواوين أخرى . فبالإضافة إلى ديوانى العطاء والجند ، أنشأ الأمويون عدة دواوين أخرى رئيسية هى :(٦٥)

---

(٦٣) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٤٩ ، ويروى صاحب الفخرى ص ٨٣ أن الذى أشار على عمر بعمل الديوان أحد المرازبة ويذكر الماوردى فى المصدر السابق ص ١٩٩ أنه الهرمزان .

(٦٤) الأحكام السلطانية ص ٢٠٤

(٦٥) كان كل ديوان ينشأ فى دمشق عاصمة الدولة الأموية ، ينشأ له نظير فرعى فى عواصم الولايات يقوم بنفس الأعمال التى يقوم بها الديوان المركزى .

١ ــ ديوان الخراج :

وهو المختص بالأموال فكل موارد الدولة ، من غنائم وجزية وخراج الأرض ، وزكاة وعشور ، اى الضرائب التى كانت تؤخذ من التجار على انواع التجارة ، وهى شبيهة بإيرادات الجمارك فى الوقت الحاضر ، وكان التجار على ثلاثة انواع ، تجار مسلمون يؤخذ منهم ربع العشر من قيمة تجارتهم ، وتجار من أهل الذمة يؤخذ منهم نصف العشر ، وتجار من أهل الحرب ،(٦٦) يؤخذ منهم العشر ، ولا يؤخذ من احد من هذه الأنواع الثلاثة شيىء إذا كانت قيمة التجارة أقل من مائتى درهم(٦٧) . كل هذه الموارد وغيرها كانت تصب فى بيت المال ، ويهيمن عليها ديوان الخراج الرئيسى فى دمشق ، ــ عاصمة الدولة الأموية ــ فقد كان لكل إقليم ديوان محلى ، ففى العراق ديوان ، وفى مصر ديوان .. الخ .

وكانت هــذه الدواوين تجمع مايرد إليهــا من أموال على اختلاف انواعها ، ثم تصرف ما يلزمها من مرتبات الجند والموظفين ، وما تحتاجه المرافق العامة ، مثل إنشاء الطرق وبناء الجسور وشق الترع والقنوات الخ .. ثم ترسل ما يتبقى لديها إلى بيت المال المركزى فى دمشق ، الذى يقوم بدوره بالصرف على مايلزمه ، وأبوا بـالصرف كانت كثيرة ، مثل نفقات دار الخلافة ومرتبات الجند والموظفين والإنفاق على المرافق العامة للدولة . والأعطيــات التى كانت تمنــح للشــعراء والخطبـــاء من مؤيدى الدولة وللشخصيات الكبيرة التى كانت الدولة تتألفها .

٢ ــ ديوان البريد :

وهذا الديوان أنشأه معاوية بن أبى سفيان وكان لهذا الديوان مهمتان رئيسيتان ، الأولى نقل الرسائل من دار الخلافة وإليها ، سواء كانت

---

(٦٦) المقصود بأهل الحرب ، التجار من الأعداء الذين كان يسمح لهم بالمرور فى أراضى الدولة الإسلامية لبيع بضاعاتهم .

(٦٧) انظر : أبو يوسف ــ كتاب الخراج ص ٢٧١ ، والقاسم بن سلام ــ كتاب الأموال ص ٤٧٤

هذه الرسائل داخلية أو خارجية ، فالرسائل الداخلية هى التى كانت تدور بين الخلافة وولاة الأقاليم والقادة وكبار الموظفين . والرسائل الخارجية هى التى كانت تدور بين الخلافة وبين الدول الأجنبية ، حيث كانت تقوم بعثات من دار الخلافة بحمل رسائل من الخليفة إلى ملوك الدول الأجنبية ، وبصفة خاصة إلى أباطرة الدولة البيزنطية .

وفى الحقيقة أصل هذا الديوان وجوهر عمله كان موجودا منذ عهد الرسول ﷺ فقد كان يرسل رسلا ومبعوثين يحملون منه رسائل إلى الملوك والأمراء المعاصرين له ، كما حدث بعد صلح الحديبية ، حين أرسل إلى كسرى وهرقل والنجاشى والمقوقس ، وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام .

والجديد فى الأمر هو أن معاوية بن أبى سفيان انشأ لهذا النوع من العمل ديوانا خاصا ، له موظفون مخصوصون ، يقومون على العمل فيه وذلك لم يكن موجودا قبل معاوية .

وأما المهمة الثانية التى كان يقوم بها ديوان البريد فى العصر الأموى، فهى أن موظفى هذا الديوان كانوا عيون الخليفة(٦٨) ، يراقبون له الولاة والعمال وأعمالهم ومسلكهم ، ويرفعون إليه تقارير بكل ما يصل إلى علمهم من ذلك ، حتى يكون الخلفاء على علم بأحوال الولايات وبكل مايدور فيها .

ومعنى ذلك ان ديوان البريد كان يقـــوم فى العصر الأمـــوى بدور ما يسمى بالرقابة الإدارية فى الوقت الحاضر ، وهو دور خطير جدا(٦٩) .

وكلمة بريد ربما كانت من أصـــل يونانى ، بمعنى المراسلات ، أمـــا المسلمون فقد أخذوها من المسافة التى قدروها بين كل بريد وبريد . كما يقول ابن الطقطقا(٧٠) . وهى اثنا عشر ميلا ، حيث قسموا المسافات بين

---

(٦٨) د. ابراهيم العدوى — المرجع السابق ص ٢٧٠

(٦٩) لأهمية هذا الدور الذى كان يؤديه رجال البريد كان عبد الملك ابن مروان يوصى حاجبه بالا يحجب عنه رجل البريد فى أى ساعة جاء ، وكان يقول تأخير البريد ساعة قد يفسد عمل سنة .

(٧٠) الفخرى ص ١٠٦

عاصمة الخلافة وعواصم الأقاليم إلى مسافات متساوية ، كل مسافة منها إثنا عشر ميلا ، ليسهل نقل الرسائل والأخبار بسرعة ، حيث كانت خيل البريد تحمله وتسير هذه المسافة ، فإذا وصلت إلى نهايتها وجدت خيلا أخرى فى انتظارها جاهزة ومستريحة فتحمله إلى مسافة أخرى ، وهكذا إلى أن يصل إلى عاصمة الخلافة إن كان واردا إليها أو إلى عواصم الأقاليم إن كان صادرا عنها .

وقد اهتم الأمويون إهتماما كبيرا بهذا الديوان لأهميته الكبيرة فى دولتهم المترامية الأطراف ، لكثرة مشاكلها والخارجين عليها ، حيث كان رجال البريد — كما ذكرنا — يقومون بدور الرقابة على العمال والموظفين .

٣ — ديوان الخاتم :

وهو الذى كانت ترسل إليه أوامر الخليفة ومكاتباته فتنسخ منها نسخ وتحفظ فيه ، حتى يمكن الرجوع إليها عند الضرورة ، ثم يختم الأصل بخاتم هذا الديوان ، ثم يطوى ويحزم بخيط ثم يختم بالشمع ،(٧١) لئلا يمكن فتحه والإطلاع على مافيه ، فهو أشبه بإدارة الأرشيف فى الوقـتالحاضر ، وكان هذا الديوان من أهم الدواوين فى الدولة الأموية وأول من أنشأه معاوية بن أبى سفيان ، والذى حمله على ذلك كما يقول ابن الطقطقا ،(٧٢) أنه كان أحال رجلا —هو عمرو بن الزبير — على زياد فى العراق بمائة ألف درهم ، وكتب له كتابا بذلك ، فلما قرأ الكتاب — وكان غير مختوم — جعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية فى نهاية العام واطلع على ذلك أنكره ، وقال : ما أحلته إلا بمائة ألف فقط .(٧٣) ثم حبس عمرو بن الزبير حتى قضى عنه أخوه عبد الله المائة الألفَ الزائدة وأمر بإنشاء هذا الديوان .

---

(٧١) انظر ابن الطقطقا — المصدر السابق ص ١٠٧

(٧٢) المصدر السابق ص ١٠٧ ، وانظر ابن خلدون — المقدمة جـ ٢ ص ٧٠٧

(٧٣) ابن الطقطقا — المصدر السابق ص ١٠٧

وهذه الحادثة على بساطتها تصور يقظة معاوية ودقته فى تفحص أعمال الولاة ، وحرصه على ضبط الأمور كبيرها وصغيرها ومرة أخرى نقول — كما قلنا بشأن ديوان البريد — إن ختم الرسائل لم يكن جديدا ، بل كان معروفامنذعهد النبى ﷺ فعندما عزم على إرسال رسائله إلى كسرى وقيصر وغيرهما ، قالوا له : يارسول الله إن الأعاجم لا تقبل رسالة إلا ان تكون مختومة ، فاتخذ خاتما من فضه نقش عليه محمد رسول الله ، وكان يختم به رسائله ،(٧٤) وقد وكل بحمله بعض الصحابة ، مثل معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى ، الــذى عرف بحامل خاتم النبى ﷺ وظل الخلفــاء الراشدون يستخدمون خاتم النبى ﷺ فى ختم رسائلهم ، حتى سقط من يد عثمان بن عفان فى بئر أريس فاتخذ خاتما غيره ، نقش عليه أيضا محمد رسول الله ،(٧٦) فبذور الإدارة والنظم وضعت إذن منذ عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، فالجديد فى عمل معاوية هو تطوير هذه البدايات التنظيمية طبقا لمقتضيات الظروف واتساع رقعة الدولة .

٤ — **ديوان الرسائل** : وكان مختصا بصياغة الكتب والرســائل والعهود التى كانت تصدر عن الخلافة إلى الولاة والعمال فى داخل الدولة، ويتلقى المكاتبات التى تصل منهم ، ويقوم موظفوه بعرضها على الخليفة ، وكان كتاب هذا الديوان يختارون بعناية كبيرة ، من بين المشهورين بالبلاغة والفصاحة والعلم بالشريعة وأحكامها ، واللغة العربيــة وآدابها ، ومن أصحاب المرؤة والأخلاق الفاضلة ، وكان يراعى فيهم أن يكونوا من أرفع الطبقات حسبا ونسبا(٧٧) .

ومن أشهر الكتاب فى العصر الأموى ، عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد ، الذى صاغ الشروط والمواصفات التى يجب أن تتوفر

---

(٧٤) البلاذرى — فتوح ص ٥٦٦

(٧٥) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٩ ، وابو الحسن الخزاعى — تخرج الدلالات ص ١٨٢

(٧٦) البلاذرى — المصدر السابق ص ٥٦٧ وابن خلدون — المقدمة جـ ٢ ص ٧٠٥

(٧٧) انظر ابن خلدون — المقدمة جـ ٢ ص ٦٨١

فيمن يقوم بهذه المهمة الجليلة بين يدى الخلفاء والأمراء فى رسالة وجهها إلى الكتاب يعتبرها المؤرخون أحسن ما كتب فى هذا الباب(٧٨) . ويبدو أن عمل ديوان الرسائل لم يكن مقصورا على أمر المكاتبات الداخلية فى الدولة ، بل كان ينظر أمر العلاقات الخارجية ، ويشرف على الوفود والبعثات الدبلوماسية التى كانت ترسلها الدولة إلى الدول الأجنبية ، ويستقبل كذلك الوفود الأجنبية التى تأتى إلى دمشق ، سواء لمجرد الزيارة أو للمفاوضات من اجل معاهدات صلح وخلافه ويقوم على ضيافتهم وإسكانهم فى بيوت الضيافة ، وتعيين المرافقين الذين يصحبونهم اثناء إقامتهم ويطلعونهم على المعالم المهمة فى البلاد ،(٧٩) وعلى هذا يكون ديوان الرسائل فى الدولة الأموية أشبه بديوان رئاسة الجمهورية والديوان الملكى ، وإدارات المراسم والعلاقات العامة فى الدول المعاصرة .

٥ — ديوان العمال :

وهو المسئول عن جميع الموظفين المدنيين فى الدولة من حيث ترتيب أعمالهم ووظائفهم ومرتباتهم(٨٠) .. الخ . ولعل جميع أسماء موظفى الدواوين السابقة — ما عدا ديوانى الجند والعطاء — كانت مدونة فيه ، فهو أشبه بديوان الموظفين فى النظم المعاصرة ، وسبق أن أشرنا إلى ما ذكره الطبرى(٨١) : من أن سجلات هذا الديوان فى البصرة فى ولاية عبيد الله بن زياد ٥٥ — ٦٤ هـ كانت تحوى مائة وأربعين الفا من مختلف الموظفين والعمال المدنيين . وخلاصة القول : أن الأمويين كانوا يعملون جاهدين على تطوير دولتهم إداريا وإنشاء كل ما تدعو الضرورة إلى إنشائه من الدواوين والأجهزة ، وإسناد إدارتها إلى خيرة الرجال من أهل الشرف والنسب والعلم والثقافة والمرؤة والأمانة .

---

(٧٨) انظر نص الرسالة فى المصدر السابق ج ٢ ص ٦٨٢ — ٦٨٣

(٧٩) كثيرا ما كانت الدولة الأموية تتبادل إرسال هذه الوفود مع الدولة البيزنطية انظر الدكتور إبراهيم العدوى — المرجع السابق ٢٨٠ وما بعدها .

(٨٠) انظر الماوردى — المصدر السابق ص ٢٠٩ وما بعدها .

(٨١) تاريخ ج ٥ ص ٥٠٤

تعريب دواويـــن الخــراج

كانت الدواوين التى تحدثنا عنهـا آنفا تستخدم اللغة العربية منـذ إنشائها ، ما عدا دواوين الخراج ، التى كانت تستخدم اللغات الأجنبية ، حيث كان ديوان الخراج فى العراق يعمل باللغة الفارسـية ، وفى الشام ومصر باللغة اليونانية(٨٢) ، وظل هـذا الوضع قائما إلى أواخر عهـد عبد الملك بن مروان ٦٥ — ٨٦ هـ — الذى رأى أن إبقاء أهم ديوان من دواوين الدولـة ، وهو ديوان الخراج ، المهيمن على الشـئون المـالية يستخدم لغات غير عربية أمر شـاذ ، ويجب إنهاؤه ، وإذا كانت الضرورة قـد فرضت عند نشأة الدولة الإسـلامية ، لقلة خبرة العرب المسلمين بشؤون المـال والجباية من ناحية ولانشغالهم بالجهاد والفتح من ناحية ثانية ، فإن تلك الضرورة قـد زالت وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى هـذه الأمور(٨٣) ، كما أن الدولة استعادت وحدتها وتخلصت من كل مناوئيها وبدأت تشهد عهد أمن واستقرار ، لذلك قرر عبد الملك تعميم استخدام اللغة العربية فى دواوين الخراج . وامر بترجمتها فكلف سليمان ابن سـعد الخشنى الذى كان يتقلد له ديوان الرسائل وكان يجيد اللغة اليونانية ، بنقل ديوان الشام إلى اللغة العربية . فنقله فى عام كامل(٨٤) ، وقـد أعطاه عبد الملك خراج الأردن لمدة عام كامل مكافاة له ، مما يـدل على أهمية هذا العمل واهتمام الخليفةبإنجازه(٨٥) .

أما ديوان العراق فقـد أمر الحجاج بن يوسف كاتبه صـالح بن عبد الرحمن بنقله من الفارسـية ، واستمرت عملية التعريب بعد عهـد عبد الملك فترجم ديوان مصر فى ولاية عبد الله بن عبـد الملك بن مروان ٨٥ — ٩٠ هـ وديوان خراسان فى ولاية نصر بن سـيار حوالى سـنة

---

(٨٢) ابن خلدون — المقدمة جـ ٢ ص ٦٧٦

(٨٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٧٧

(٨٤) الجهشيارى — الوزراء والكتاب ص ٤٠ وابن خلدون المقدمة جـ ٢ ص ٦٧٧

(٨٥) د. ضياء الدين الريس — عبد الملك بن مروان ص ٢٨٥

١٢٤ هـ(٨٦) ، ومهما قيل عن السبب الذى حدا بعبد الملك إلى تعريب دواوين الخراج(٨٧) ، فإن هذه كانت خطوة عظيمة الأهمية ، وكانت مدروسة بعناية ، بدليل أن عملية الترجمة استغرقت ما يقرب من نصف قرن ، واستمرت إلى نهاية الدولة ، ولم تكن عملا سهلا ، حيث كان على المترجمين أن يقوموا بنقل كثير من المصطلحات المالية من الفارسية واليونانية والقبطية ، وقد قاموا بهذا العمل على درجة عالية من الإتقان . ولم تكن عملية التعريب ذات أثر عظيم من النواحى السياسية والإدارية فحسب ، بل كانت لها آثار عظيمة أخرى من النواحى الاجتماعية والحضارية . فقد فتحت أمام العرب ميدانا كبيرا من ميادين العمل كان موصدا أمامهم وهو ميدان المال ، فبعد أن عربت الدواوين انخرطوا فى العمل فيها وبرزوا فى ميدانها كما برزوا فى الميادين الأخرى .

كما أن الموظفين غير العرب الذين كانوا يقومون بالعمل فى دوارين الخراج لم يستبعدوا منها ، ولكن كان عليهم ليحتفظوا بوظائفهم أن يتعلموا اللغة العربية .

وهذه خطوة حضارية هامة ، أدت إلى سرعة انتشار اللغة العربية فى البلاد المفتوحة ، وهذا بدوره أدى إلى تفهم الإسلام والإقبال على اعتناقه . وكما كانت هذه الخطوة من أهم اصلاحات عبد الملك الإدارية والسياسية فقد كانت له خطوة أخرى لاتقل عنها أهمية فى تحرير الاقتصاد الإسلامى وتخليصه من الاعتماد على الدول الأجنبية ، تلك الخطوة هى إصدار عملة عربية إسلامية خاصة ، وإنشاء دور لصك النقود فى

---

(٨٦) د. سيدة كاشف — الوليد بن عبد الملك ص ١٨٦

(٨٧) يعلل بعض المؤرخين عملية التعريب العظيمة التى بدأها عبد الملك بن مروان بأسباب تبدو سطحية ولاتفسر تفسيرا سليما هذه الخطوة الكبرى ، كالذى يرويه الجهشيارى فى المصدر السابق ص ٤٠ من أن عبد الملك طلب من كاتب ديوان الخراج سرجون بن منصور النصرانى القيام ببعض الأعمال فتثاقل عنه ، فأمر بترجمة الديوان ، وسواء صح هذا أو لم يصح فإن عبد الملك كان سيقوم حتما بتعريب الدواوين وصبغ الدولة بالصبغة العربية الإسلامية .

الشـــام والعراق وغيرها ، فقبل عهده لم يكن للمسلمين عملة خاصـــة بهم(٨٨) . بل كانوا يعتمدون على العملات الأجنبية وبصفة خاصة الدينار البيزنطى،فرأى عبد الملك إنهاء عهد الاعتماد على النقد الأجنبى لما فيه من مساس بكرامة الدولة الإسلامية(٨٩) ، فأصـــدر أوامره بصـــك النقود الإسلامية ، وتحريم التعامل بغيرها وكان أول خليفة يتخذ هـــذا القرار العظيم(٩٠) .

---

(٨٨) بذلت محاولات محدودة لضرب عملات إسلامية قبل عبد الملك ابن مروان ، حيث يروى أن عمر بن الخطـــاب ضرب دراهم على نقش الكسروية ، وكذلك فعل معاوية بن أبى سفيان فى خلافته ، ومصـــعب ابن الزبير أثناء ولايته على العراق من قبل أخيه عبد الله .

(٨٩) يذكر المؤرخون أن من الأســـباب التى حـــدت بعبد الملك إلى إصدار عملة إســـلامية خاصة وتحريم التعامل بغيرها ، أن خلافا نشـــأ بينه وبين إمبراطور الروم جستنيـــان الثـــانى حول العملة ، حيث كانت الدولة البيزنطية تستورد الورق من مصر ، وفى مقابل ذلك كانت الدولة الإســـلامية تحصل على الدنانير الذهبية من بيزنطة . وكان الورق يصدر إلى بيزنطة مكتوبا عليه عبـــارات مسيحية ، مثل عبـــارة التثليث ، فقرر عبد الملك محو هـــذه العبارات لتنافى ذلك مع الإسلام ولمـــافيه من مساس بكرامة الدولة الإسلامية ، وأمر أن يكتب على صـــدر القراطيس الآيـــة الكريمة « **قل هو الله أحد** » فلما وصـــلت إلى بيزنطة غضب الإمبراطور وهدد عبد الملك إما بالعودة إلى كتابة العبارات المسيحية أو يكتبون هم على الدنانير ما يسيىء إلى النبى ﷺ عندئذ استشار عبد الملك كبار رجال بيته فأشار عليه خالد بن يزيد بن معـــاوية بإصدار عملة إسلامية خاصة وتحريم التعامل بالدنانير البيزنطية .

(٩٠) انظر البلاذرى ــ فتوح البلدان ص ٥٧٤

القضـــاء فى العصــر الأمــوى

القضاء وظيفة أو ولاية تفيد أهلية الحكم بين النـــاس للفصل فى الخصومات ، وقد كان الرسول ﷺ يتولى القضـــاء بنفســـه فى المدينة ولمـــا انتشر امر الدعوة فى الجزيرة العربية ، وكثرت المشاكل والقضـــايا أذن لبعض الصحابة بالقضـــاء بين النـــاس على أســـاس القرآن الكريم والسنة الشريفة والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص فيهما ، ومن هؤلاء عمر ابن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مســـعود وغيرهم ، كما كان النبى ﷺ يرســـل قضاة إلى الأقاليم البعيدة عن المدينة ، فقـــد أرســـل معـــاذ بن جبـــل وعلى بن أبى طالب إلى اليمن قضـــاة ومعلمين(٩١) .

ولمـــا انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وبويع أبو بكر رضى الله عنه ، وانشغل بمحاربة المرتدين ، وتسيير الجيوش لفتح العراق والشـــام ، وكثرت عليه أعباء الدولة ، خص عمر بن الخطاب بالقضـــاء فى المدينة(٩٢) ، أما خارج المدينة فكان عماله على الولايات فى الجزيرة العربية — والذين سبق ذكرهم — يقومون بالقضاء ، ولمـــا جاء عهد عمر وفتحت البلدان ، العراق والشـــام وفارس ومصر عين علـــى الولايات قضـــاة من قبله مثل كعب بن سور الذى ولى قضاء البصرة وشريح الذى ولى قضـــاء الكوفة(٩٣) ، وقـــد استمر كعب وشريح على قضاء البصرة والكوفة فى عهد عثمان رضى الله عنه(٩٤) . كما كان من أشهر قضـــاة عمر أبو موسى الأشعرى الذى كتب إليه عمر كتابه المشـــهور فى كيفية القضـــاء والفصل فى الخصومات بين الناس ، وفى عهد على بن أبى طالب تولى قضـــاء البصرة أبو الأسود الدؤلى ، ثم اقر على شريحا على قضاء الكوفة ، ثم عزله وولى مكانه محمد بن زيد بن خليدة الشيبانى لبضـــعة

---

(٩١) تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٧

(٩٢) المصدر السابق ص ١٢٣

(٩٣) المصدر السابق ص ١٥٤ — ١٥٥

(٩٤) نفسه ص ١٧٩

شهور ، ثم عزله وأعاد شريحا فبقى قاضيا حتى استشهد على(٩٥) .

ولمـــا قامت الدولة الأموية ســـنة ٤١ هـ ، استمر الخلفاء الأمويون على ســـنة الخلفاء الراشدين فى تعيين القضـــاة على الأقاليم ، وكان الأمويون يحرصون على أن يكون القضـــاة من العلماء المجتهدين أهل الورع والتقى ، وكان القضاة يصدرون أحكامهم طبقا للكتاب والسنة ، واجتهادهم الشخصى فيما لم يرد فيه نص فى الكتاب والسنة(٩٦) .

وقـــد استمر القضاة فى العهد الأموى يتمتعون بالحرية فى احكامهم كما كان الحال فى عهد الراشدين ، فلم يتاثروا بميول الخلفاء والولاة ولم يحاول الخلفاء والولاة التدخل فى أعمـــال القضـــاة بل كانوا يخضعون لأحكامهم كعامة الشعب(٩٧) .

وإذا كان نظام القضـــاء قد استمر فى العهد الأموى على ما كان عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، من حيث الجوهر إلا أن دائرته اتسعت عن ذى قبل لكثرة القضايا والمشاكل فأدى ذلك إلى تطورات هامة ، منها تسجيل الأحكام فى سجلات خاصة ، وأول قاض سجل الأحكام فى العصر الأموى قاضى مصر ســـليم بن عتر التجيبى ، فى عهـــد معـــاوية بن أبى سفيان(٩٨) .

ومن هـــذه التطورات التى أدى إليها اتساع دائرة القضايا والمشاكل ظهور نظـــام قضـــاء المظالم ، ونظام الحسبة لمســـاعدة القضاة وتخفيف الأعباء عنهم .

قضـــاء المظالـــم :

وهو نوع من القضـــاء المستعجل الذى يحتاج إلى سرعة البت فى القضـــايا ويبدو أن الذى دعا الأمويين إلى استحداث هذا النوع من نظم

(٩٥) نفسه ص ٢٠٠
(٩٦) انظر د. إبراهيم نجيب — القضـــاء فى الإســـلام ص ٥٤ ، د. حسن إبراهيم وعلى إبراهيم — النظم الإسلامية ص ٢٩٥
(٩٧) د. إبراهيم نجيب — المرجع السابق ص ٥٤
(٩٨) الكندى — الولاة والقضاة ص ٣١٠

القضـــاء هو حدوث خصومات بين أطراف غير متكافئين كأن يكون أحـــد طرفى الخصـــومة أميرا أو واليا أو أحـــد علية القوم ، مما يجعل الأمر يحتاج إلى حزم وإرهاب للخصوم يجل عنه منصب القـــاضى ، ولذلك يقول المـــاوردى فى تعريفه : « ونظر المظالم هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة فكان من شروط النـــاظر فيها أن يكون جليل القـــدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيئة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين(٩٩) » .

واول من نظر فى هذا النوع من القضـــاء رسول الله ﷺ حين حدث نزاع بين الزبير بن العوام واحد الأنصـــار على سقى ، فلما رفعا الأمر إلى الرسول ﷺ قال : « اسق انت يازبير ثم الانصـــارى ، فقال الانصارى : إنه لإبن عمتك يا رسول الله ، فغضب من قوله وقال يازبير أجره على بطنه حتى يبلغ المـــاء على الكعبين(١٠٠) » وإنما قال الرسول ذلك أدبا للأنصـــارى على جرأته وتلميحه باتهام النبى بالتحيز للزبير لأنه ابن عمته ، ولكن لم يصبح هذا القضاء نظاما ويأخذ له عنوانا لافى عهد الرسول،ولاعهد الخلفاء الراشدين ، لأن الناس كانوا متناصفين فى الغـــالب ، منقادين للقضـــاء العادى(١٠١) .

أما فى العهد الأموى فقـــد تغير الحال ، ولم يصبح الوازع الدينى قويا كما كان فى عهد الراشـــدين ولم يعد القضـــاء العادى كافيا للفصل فى جميع المنازعات ، حيث تجاهر بعض الناس بالظلم والتغالب . فدعت الضرورة إلى إنشـــاء نظام قضاء المظالم ، والذى كان يعرف أحيانا بديوان المظالم ، ويسمى رئيسته صاحب المظالم ، الذى كانت سلطته أعلى من القـــاضى(١٠٢) ، ولأهمية هذا النوع من القضاء ، ولمـــا يتطلبه من الحزم

(٩٩) الأحكام السلطانية ص ٧٧
(١٠٠) المصدر السابق ص ٧٧
(١٠١) نفسه ص ٧٧ — ٧٨
(١٠٢) د. حسن إبراهيم ، د. على إبراهيم — النظم الإســلامية ص ٣١١

والهيبة كان بعض خلفاء بنى امية يتولونه بانفسهم ، وأول من جلس لقضاء المظالم منهم عبد الملك بن مروان . يقول الماوردى(١٠٣) : « فكان أولُ من افرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظالمين من غير مباشرة للنظر عبد الملك بن مروان ، فكان إذا وقف منها على مشكل أو احتاج فيه إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه ابى إدريس الأودى ، فنفذ فيه احكامه لرهبة التجارب من عبد الملك فى علمه بالحال ، ووقوفه على السبب ، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الآمر » ثم يقول : ثم زاد من جور الولاة وظلم العتاة مالم يكفهم عنه إلا أقوى الأيدى وأنفذ الأوامر . فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها(١٠٤) » .

وكما كان قاضى المظالم أو صاحبها يقضى بين الأفراد ، فكذلكَ كانت ترفع إليه ظلامات الأفراد والجماعات من الولاة الذين يظلمون أو يحيدون عن طريق العدل معهم ، ومن عمال الخراج إذا اشتطوا فى الجباية ، ومن عمال وكتاب الدواوين كما كان صاحب المظالم يقضى فيما عجز القاضى ، والمحستب عن تنفيذه . وقد عدد الماوردى عشرة انواع من القضايا والمظالم التى اختص بها صاحب المظالم ، فليرجع إليه من يريد الاستزادة(١٠٥) .

وكانت محكمة المظالم تعقد فى الغالب فى المسجد ، تحت رئاسة الخليفة وأحيانا الوالى ، أو من ينوب عنهما ، وكان من يجلس للمظالم يحاط بخمسة مجموعات لاينتظم مجلسه إلا بحضورهم وهم :

١ — الحماة والأعوان ، وهم من رجال الشرطة لردع من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القاضى .

---

(١٠٣) المصدر السابق ص ٧٨

(١٠٤) المصدر السابق ص ٧٨

(١٠٥) المصدر السابق ص ٨٠ — ٨٤

٢ ـ القضاة ، وكانوا يحرصون على حضور جلسات محكمة المظالم ليلموا بشتات الأمور المتعلقة بالمتقاضين ، ويستفيدوا مما يصدر من أحكام ليطبقوه على ما يعرض عليهم من قضايا .

٣ ـ الفقهاء ، وكان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل من المسائل الشرعية .

٤ ـ الشهود ، للإدلاء بشهاداتهم عما يعرفونه عن الخصومة والخصوم .

٥ ـ الكتاب لتدوين أقوال الخصوم وإثبات مالهم وما عليهم من الحقوق(١٠٦) .

مما تقدم يتضح لنا مدى أهمية قضاء المظالم ، وما كان يتمتع به صاحبه من القوة والبأس ، وأثر ذلك على تحقيق العدل بين الناس وإنصافهم من بعضهم البعض .

---

(١٠٦) انظر د. حسن إبراهيم ، د. على إبراهيم ـ المرجع السابق ص ٢١١ ـ ٢١٢

الحســـــبة

نظام الحسبة من أجل النظم الإســـلامية ، لأنه النظام الذى عنى بتقويم كل أمر معوج فى الحياة الإســـلامية بعامة ، ولذلك عرفها فقهـــاء النظم الإســـلامية ، بأنها : « امر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله(١٠٧) » ، اخذا من قوله تعالى : ((**ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر(١٠٨)**)) ، وعلى هذا فكل مسلم مأمور أن يكون محتسبا ، لكن المســـلم العادى عليه أن يقوم بذلك عن طريق النصـــيحة فهو عليه من فروض الكفاية ، ولذلك إذا رأى أن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر قـــد يجر إلى شر او إلى منكر أكبر وجب عليه الكف عن ذلك .

ولمـــا لم يكن من طبيعة كل النـــاس الاستجابة إلى النصح بالتى هى أحسن فقد نشـــأت وظيفة المحتسب للضرب على أيدى العابثين الذين لايراعون أصـــول الشريعة فى سلوكهم ، أيا كانوا موظفين أو صـــناعا أو تجارا .. الخ .. أو يضـــايقون الناس بقول أو فعل ، فجوهر هذه الوظيفة منع الفساد والمحافظة على الأمن .

ونظام الحسبة كغيره من سائر النظم الإســـلامية ، بدأ منذ بدايـــة الإســـلام فقد ثبت أن الرسـول ﷺ كان أول من باشر عمل المحتسب بنفسه مما يدل على جلاله واهميته ، روى مســـلم فى صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه ، أن رســـول الله ﷺ مر على صبرة طعام — أى قمح — فأدخل يده فيها فنالت بللا فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام ؟ « فقال : أصابته السماء يا رســـول الله قال : « أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس ؟ من غش فليس منا(١٠٩) » .

---

(١٠٧) انظر المـــاوردى — المصدر السابق ص ٢٤٠ وانظر أيضا كتاب معـــالم القربة فى أحكام الحســـبة لمحمد بن محمد بن أحمد القرشى ص ٥١ الذى زاد على تعريف المـــاوردى للحسبة قوله : « وإصـــلاح بين النـــاس » .

(١٠٨) آل عمران — الآية ١٠٤

(١٠٩) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٢ ص ١٠٩

وكما كان النبى ﷺ يباشر عمل المحتسب بنفسه ، فقد كان يعين من الصحابة من يقوم بهذا العمـل ، فقد عين سعيد بن العاص على سوق مكة بعد فتحها وكان عمر بن الخطاب على سوق المدينة ، واستمر خلفاء الرسـول يباشرون عمل المحتسب بأنفسهم أحيانا ، وينيبون غيرهم من الصحابة للقيام به أحيانا اخرى وكان عمر فى خلافته يتجول بين النـاس وفى سـوق المدينة كلما واتته الفرصة ، فى أى وقت من ليل أو نهار ، يوجه المسلمين إلى أحكام الإسـلام وقواعد السلوك السـوى ، حتى تستقيم حياتهم(١١٠) .

وبعد أن اتسعت الدولة الإسـلامية وكثرت مشاكلها بعد عهد الخلفاء الراشدين وشـغل الخلفاء بمهام كثيرة سياسية وإدارية وعسكرية كان من الضرورى أن يختص بهذا العمل من يقوم بـه فتميزت وظيفة المحتسب واصبحت فى العصر الأموى جهـازا كبيرا يتبعه كثير من الموظفين يعاونون المحتسب فى القيام بهذه المهمة الجليلة .

وقـد اشترطوا فيمن يقوم بعمل الحسبة عدة شروط منهـا ، أن يكون مسلما حرا بالغا عاقلا قادرا(١١١) ، وهذا الشرط الأخير مهم جدا ، لأن الحسبة كما يقول المـاوردى(١١٢) ، موضوعة للرهبة أى لإرهاب الخارجين على النظـام العام ، وهؤلاء لايردهم إلى الصـواب إلا القوة والبأس ، وقد اختلفوا فى شرط الاجتهاد فى المحتسب فبعضهم رأى لزومه وأغفله البعض لأن عمله لا يتطلب اجتهادا ، بل تقوم وظيفته على منع المجاهرة بالمنكرات . وقـد تعددت مجالات الحياة التى كان على المحتسب أن يباشرها ويقيم المعوج منهـا ، وقد لخص ابن خلدون اختصاصات المحتسب علـى النحو التـالى : فقـال : « ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل النـاس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضـايقة فى الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة مايتوقع

---

(١١٠) المـاوردى — المصدر السابق ص ٢٥٠ — ٢٥١

(١١١) محمد بن محمد بن أحمد القرشى — المصدر السابق ص ٥١

(١١٢) الأحكام السلطانية ص ٢٤٢

من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه ، وليس له الحكم فى الدعاوى مطلقا ، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها ، وفى المكاييل والموازين ، وله أيضا حمل المماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينه ولا إنفاذ حكم ، وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء(١١٣) » . وقد أعتبر الماوردى الحسبة وسطا بين القضاء والمظالم وعقد فصلا لأوجه الشبه وأوجه المخالفة بينها(١١٤) ، وهكذا نرى أن الإسلام يحرص على راحة الناس ويسهر على منع المنكرات أن تشيع فى حياة المسلمين ، وإذا نظرنا إلى عمل المحتسب فى ضوء النظم المعاصرة ، وجدناه موزعا على عدد من الوزرات والهيئات مثل وزارات التموين والصحة والتعليم والصناعة والزراعة والداخلية والنيابة العامة ومصلحة الدمغة والموازين والمرافق بمختلف أنواعها .

---

(١١٣) المقدمة جـ ٢ ص ٦٣٦ وهناك أعمال كثيرة غير التى ذكرها ابن خلدون كان يقوم بها المحتسب ، تجدها مفصلة فى الكتب المخصصة لنظام الحسبة مثل كتاب القرشى السالف الذكر ، حيث استوعب جميع الميادين والمرافق التى كان يشرف عليها المحتسب .

(١١٤) الأحكام السلطانية ص ٢٤١ وما بعدها .

الشـــــرطة

جهاز الشرطة من أقدم الأجهزة فى الدولة الإســـلامية ، لأنه ضرورى لاستتباب الأمن وحفظ النظـــام ، وتعقب الجناة والمفســـدين فى الأرض والقبض عليهم ، كما كان رجال الشرطة يقومون بتنفيذ الأحكام والعقوبات والحدود التى يحكم بهـــا القضاة والمعاونة فى كشف الجرائم ولذلك يعتبر جهاز الشرطة من الزم الأجهزة للدولة بصـــفة عامة وللقضاة بصفة خاصة .

وقد عرف هذا النظـــام منذ عهد النبى ﷺ فقد روى البخارى عن انس بن مالك رضى الله عنه انه قال : « كان قيس بن سعد من النبى ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير(١١٥) » .

كما كان بعض الصحابة يقومون بدور رجال الشرطة فى حراســـة المدينة وحفظ الأمن فى عهد الرسول ﷺ مثل سعد بن أبى وقاص ، وبديل ابن ورقاء وأوس بن ثابت وأوس بن عرابة ورافع بن خديج(١١٦) ، وقد استمر الخلفاء الراشدون فى الاستعانة ببعض الصـــحابة للقيام بهـــذا العمل(١١٧) .

ولـــا قامت الدولة الأموية ازدادت اهمية جهاز الشرطة للظروف التى كانت تعيشها وكثرة الخارجين عليهـــا ، فكان ذا أثر كبير فى حفظ الأمن وتطهير البلاد من عناصر الإفساد والعبث بالأمن ، والقضاء على المناوئين للسلطة الشرعية فى الداخل وكان الأمويون يحرصون على اختيار رجال الشرطة من أهل الشرف والبأس والعفة والحزم، وكانوا يعطونهم الحرية فى اختيار أعوانهم ليؤدوا مهمتهم على الوجه الأكمل وكان رجل الشرطة ، سواء فى عاصمة الخلافة أو فى عواصم الأقاليم من أركان السلطة ، وعلى قـــدر أمانته وعفته وقوة شخصيته وسهره على الأمن يكون استقرار الأحوال وحفظ النظام فى ربوع البلاد .

---

(١١٥) ابن حجر — الإصابة جـ ٨ ص ١٨٩

(١١٦) أبو الحسن الخزاعى — تخريج ص ٣٠٣

(١١٧) المصدر السابق ص ٣٠٤ وما بعدها .

ومما يدل على أهمية المنصب ومن يشغله فى العصر الأموى ، ما يرويه الشعبى عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه قال : « دلونى على رجل للشرطة ، فقيل أى الرجال تريد ؟ قال : أريده دائم العبوس طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، لايحنق فى الحق على جرة ، يهون عليه سبال الأشراف فى الشفاعة ، فقيل له : عليك بعبد الرحمن ابن عبيد التميمى ، فأرسل إليه يستعمله فقال له : لست أقبلها إلا أن تكفينى عيالك وولدك وحاشيتك ، قال : ياغلام ناد فى الناس : من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت منه الذمة . قال الشعبى : فوالله ما رأيت صاحب شرطة قط مثله ، كان لايحبس إلا فى دين ، وكان إذا أتى برجل قد نقب على قوم وضع منقبته فى بطنه حتى تخرج من ظهره ، وإذا أتى بنباش حفر له قبرا فدفنه فيه ، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة أو شهر سلاحا قطع يده ، وإذا أتى برجل قد أحرق على قوم منزلهم أحرقه ، وإذا اتى برجل يشك فيه وقد قيل أنه لص ولم يكن منه شىء ، ضربه تلثمائة سوط ، قال : فكان ربما أقام أربعين ليلة لايؤتى بأحد ، فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة(١١٨) » .

---

(١١٨) انظر ابن قتيبة — عيون الأخبار جـ ١ ص ١٦

فانظر إلى الحجاج — الذى صب عليه بعض المؤرخين لعناتهم — وحرصه على استتباب الأمن ، وعلى أن يتحلى رجل شرطته بالأمانة والا يقبل شفاعة أحد فى الحق ، ولاعجب فى ذلك فالحجاج نفسه بدأ عمله فى جهاز الشرطة ، حيث كان يعمل مع روح بن زنباع صاحب شرطة عبد الملك بن مروان ، حتى لفت نظر الخليفة بحزمه وقدرته على ضبط النظام مما جعله يصطفيه ويتخذ منه ساعدا أيمن على إدارة الدولة ، وبدون هذا الحزم وبسط هيبة الدولة ما كان ممكنا أن يستقر نظامها وينبسط سلطانها على هذه الرقعة الواسعة من الأرض .

الحاجـــــب

من الوظائف المهمة والخطيرة فى الدولة الإســلامية ، وظيفة الحاجب الذى كان يجلس على باب الخليفة لينظم دخول النـاس عليه على قدر منازلهم واهميتهم واهمية الأعمال التى جاءوا من أجلهـا ، وكان الخلفاء يحرصون على آن يكون حاجبهم إما من أهل بيتهم وأقرب الناس إليهم ، أو من أهل الشرف والحسب والنسب ، ومن يتحلون بالعفة والفهم والثقافة العالية ، لأنهم كانوا يعتبرون الحاجب وجههم الذى يطالعون به الناس ولسانهم الذى يتحدثون به إليهم .

وقد ظن بعض الباحثين أن نظـام الحجابة من مستحدثات العصر الأموى وأنه لم يكن معروفا قبل ذلك(١١٩) ، ولكن ثقاة المؤرخين يذكرون أن وظيفة الحاجب كانت معروفة منذ عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين فالذين كانوا يترددون على منزل الرسول ﷺ والخلفاء بعده كثيرون . وكان لابد من نظـام فى الدخول ، ولابد أن يكون هناك من يقوم بعملية التنظيم وليس هذا عيبا ننزه الرسول والخلفاء الراشدين عنه ، بل هو نظـام ، والإســلام هو دين النظام والانضباط ، فلا عيب أن يقف على باب الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من ينظم دخول طلاب الحاجات عليهم .

وقد ذكر المؤرخون من حجاب الرســول ﷺ أبا أنسة مولاه ، وأنس ابن مالك وعبد الله بن زغب الإيادى ، ورباحا الأسود مولاه(١٢٠) ، وقد جاء فى صحيح مسلم ، عن جابر بن عبد الله قال : جاء أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد النـاس جلسوا ببابه ولم يؤذن لهم ، قال : « فأذن لأبى بكر فدخل ثم أقبل عمر ، فاستأذن فأذن له(١٢١) » فهذا يـدل على أنه كان للرسول ﷺ حجاب يقفون على بابه ويستأذنونه فى دخول الناس عليه .

---

(١١٩) انظر : أبو زيد شلبى — تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٠٠.
(١٢٠) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٩ ، والطبرى ج ٣ ص ١٧١.
(١٢١) عبد الحى الكتانى — نظام الحكومة النبوية ج ١ ص ٢١

وكذلك كان للخلفاء الراشدين حجاب يستأذنون للناس عليهم(١٢٢) ، فقد روى ابن قتيبة أن جماعة حضروا إلى باب عمر بن الخطاب ، منهم سهيل بن عمرو ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، فخرج الآذن فقال : أين صهيب ، أين عمار ، أين سلمان ؟ فتمعرت وجوه القوم فقال واحد منهم ، لم تتمعر وجوهكم ؟ دعوا ودعينا فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر ، لما أعده الله لهم فى الجنة أكثر(١٢٣) ، ويقول : جاء أبو سفيان يطلب الدخول على عثمان فحجبه ، فقيل له ، حجبك أمير المؤمنين فقال : لاعدمت من قومى من إذا شاء حجبنى(١٢٤) .

مما تقدم يتضح أن نظام الحجابة لم يكن من مبتكرات الأمويين ، بل هو نظام موجود منذ عهد الرسول ﷺ وكل ما أدخله الأمويون عليه هو جعله نظاما من أنظمة دولتهم واختصوا به موظفين معينين طبقا لما اقتضاه تطور الزمن وكثرة الواردين من مختلف الولايات — من ولاة وقادة وزعماء وأناس عاديين وأصحاب حاجات — على دار الخلافة ، بحيث أصبح الحاجب يقوم بمثل ما يقوم به مدير مكتب رئيس الجمهورية أو رئيس الديوان الملكى فى النظم الحاضرة ، ولأهمية المنصب كان الأمويون لايعهدون به إلا لخاصتهم ومحل ثقتهم ، وكانوا يحرصون على أن يكون حجاب الولاة فى الولايات على نفس المستوى .

انظر إلى وصية عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز ، والى مصر فى عهده ، حيث قال له : وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك فإنه وجهك ولسانك ولايقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون انت الذى تأذن له أو ترده »(١٢٥) .

والخلاصة أن الإدارة فى العصر الأموى كانت إدارة حسنة بصفة عامة ، تتوخى الصالح العام واستتباب الأمن وتسهيل مصالح الناس ،

---

(١٢٢) تاريخ خليفة ص ١٥٦
(١٢٣) عيون الأخبار جـ ١ ص ٨٥
(١٢٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٨٣
(١٢٥) ابن الطقطقا — الفخرى ص ١٢٦ .

وإن شابها القصــور أو بعض الأخطاء فهذا لايقلل من شأنها ، فالخطأ والقصور من طبيعة البشر ، وكل بنى آدم خطاء ، والذين يخطئون هــم الذين يعملون ، وحسب الأمويين انهم لم يكفوا عن تطوير الأجهزة والدواوين التى كانت موجودة قبل عهدهم واستحداث مادعت الضرورة إلى إنشائه من تلك الأجهزة لتواكب تطور الدولة والمجتمع ومتطلباته ، وانهــم كانوا يبذلون جهدهم فى حسن اختيار الولاة والعمال والموظفين لمباشرة الإدارة وتسيير شــئون الدولة ويراقبونهم باستمرار ويعاقبون المسيىء ويكافئون المحسن ، وقد رأينا أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يكرسون كل وقتهم لإدارة شئون الدولة والسهر على إنجاز الأعمال ولهذا نجحوا نجاحا كبيرا فى بسط الأمن والنظام فى ربوع الدولة ، على هذه الرقعة الهائلة من الأرض التى شملتها رغم ماكانت تمــج به من مشاكل ، وماكان يثار فيها من فتن وثورات هنا وهناك . ولعل نجــاح الأمويين فى الإدارة وسياسة الناس من أبرز امجادهم ، ومما يدل على عبقرية فذة فى فن الحكم والإدارة فليس يخفى على ذوى البصــائر أن سياسة الناس وإدارة شئونهم من أصعب الأشياء خصوصــا فى دولة كالدولة الأموية التى بسطت سلطانها على العديد من الشعوب والأجناس .

والناس فى عصرنا الحاضر يقيسون تقدم الأمم والشعوب بتقدمها فى فن الإدارة والحكم ، واكثر شعوب الأرض تقدما وحضارة الآن هى أفضلها فى أسلوبها الإدارى وإنجاز الأعمال .

وإذا نظرنا إلى العصر الأموى بهذا المقياس أمكننا القول أن إدارتهم كانت إدارة حسنة ، فهم لم يكونوا يعــرفون مايسمى الآن بالروتــين أو البيروقراطية ، وهى الأمور التى تئن منها كثير من المجتمعات فى الوقت الحاضر وتقف حجر عثرة أمام تقدم الشــعوب ، وبصفة خاصة فى العالم الإسلامى للأسف الشديد ، فخلفاء وحكام ذلك الزمان لم يكونوا يؤخرون أعمال يومهم إلى غدهم ، لأنهم كانوا يعرفون أن للغد أعماله ومسئولياته ، فإذا تأخر عمل اليوم إلى الغد تكاثرت الأعمال ، وتعطلت مصالح الناس ، وأرتبكت الإدارة ، فليت المسلمين اليوم يتأسون بأولئك الرجال فى سرعة إنجاز الأعمال ، ولو فعلوا لانصلح كثير من أحوالهم واستقامت أمورهم .

الخـــاتمة

المهمة الرئيسية لدراسة التاريخ واحداثه هى العبرة ، واستخلاص الدروس للإفادة منها ، يقول الله تعالى :« **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** »(١) وواجب الباحث التاريخى يفرض عليه أن يتجرد من كل العوامل التى تنأى به عن الوصول إلى حقائق التاريخ ، وفهم أحداثه وقضاياه على وجهها الصحيح ، حتى يمكنه أن يقدم تجارب الماضين فى حـل مشاكل عصورهم ، للإستفادة منها فى الحاضر والمستقبل .

وتعتبر الأمة الإسلامية من أغنى أمم العالم ــ إن لم تكن أغناها على الإطلاق ــ فى مجال التجارب التاريخية التى مرت بها ، فقـد حققت من الأمجـاد والانتصارات فى جميع ميـادين الحيـاة ــ عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وحضارية ــ مالم تبلغه أمة من الأمم ، كما عرفت من الهزائم والانحدار والتخبط فى سياساتها وشؤون حياتها ، ما أطمع فيها أعداءها ، ومن كان يخطب ودها ويتمنى رضاها . وكان لها من كل ذلك رصيد هائل من العبر والدروس ، يفرض على ابنائها المشتغلين بدراسة التاريخ ، والباحثين فى أحداثه وقضاياه أن يعكفوا على دراسته ، دراسة تحليلية جادة ، وأن يثيروا فيها روح الاطلاع على نتائج هذه الدراسات ؛ علها تستفيد ، وتقال من عثرتها ، وتستعيد مكانتها اللائقة بها بين الأمم .

وتاريخنا الإســلامى تــاريخ مشرق فى جملتــه ، يمتلىء بالأمجـاد والصفحات البيضاء ، وقوائم الرجال الأبطال فى كل ميدان من ميادين الحياة فيه طويلة ، وليس فيه ما نخجل منه ، حتى أحداثه المؤلمة ، وانتكاساته لا تخلو دراستها من فائدة ، فليس هناك أمة على وجه الأرض سار تاريخها فى خط مستقيم ، من النجاح الدائم أو الفشل المستمر ، بل كل الأمم تمر فى تاريخها بفترات من الازدهار والنجاح ، ثم تعتريها فترات من الذبول والفشل والإحباط . والأمم الحية هى التى تدرس أسباب وعلل ونتائج كل

---

(١) الآية ١١١ من سورة يوسف .

ذلك وتستفيد منه ، وهى التى لا تنال من عزيمتها الهزائم ، ولا تثبط همتها النكسات ، بل تعتبر كل ذلك شيئا عابرا فى مسيرتها ، عليها أن تتخطاه ، وتستأنف السير لتحقق الأمجاد ، ولا يجادل عاقل فى أن أمتنا الإسلامية أمة حيـة بدينها وقيمها ورصيدها الحضارى الهائل ، فقـد تبوأت فى تاريخ البشرية مكانا عاليا على مدى قرون عديدة ، وقدمت للإنسانيـة خدمات لا ينكرها إلا جاحد ، وهى حرية أن تتبوأ هذه المكانة مرة أخرى ، وأن تنهض من كبوتها ، وأن تتقدم ركب البشرية لتنقذها من التردى الذى تسير إليه ، فكم خسرت البشرية بانحطاط المسلمين ؟

ولن يتسنى لها ذلك إلا إذا نظرت فى تاريخها نظرة جادة ، وعرفت متى وكيف حققت أمجادها ، وأصبحت لها الريادة فى العـالم ، فى شتى الميادين ، وحاولت السير على ذلك الدرب ، ومتى وكيف ولمـاذا انحطت وساءت أحوالها فتتجنب السبل التى أدت بها إلى ذلك .

وتاريخنا الإسلامى على مدى عصوره ، وبصفة خاصة قرونه الأولى، يحتاج إلى إعادة نظر ، ولا أقول إعادة كتابة — كما يطالب البعض — فهو قد كتب ودون بخيره وشره،وحلوه ومره،بل ربما لا تعرف البشرية أمة دونت تاريخها بكل حسناته وسيئاته كما صنعت الأمة الإسلامية ، فلم يحاول المؤرخون المسلمون أن يتستروا على سيئات تاريخهم أو يخفوها ، وذلك من أعظم أمانتهم العلمية،وإذا كان تاريخنا — أثناء التدوين — قدتعرض للتشويه والدس والكيد ، من عناصر معادية للأمة الإسلامية ، أو ممن أعماهم التعصب والتحزب من بعض أبنائها ، فواجبنا الأول هو تنقيته من كل هذه الشوائب ، وتقديمه ، لا للمسلين وحدهم ، بل للدنيا كلها كما كان ، لا كما حاولت أن تصوره الروايات الزائفة .

ومن ناحية أخرى فإن لدينا كثيرا من المصادر التاريخية الموثقة ، التى سجلت كل شىء بأمانة ، والتى تنتظر الباحثين المنصفين ، ليعكفوا عليها ببصيرة نافذة ، وعزيمة صادقة ، وحيدة ونزاهة ، بغية الوصـول إلى الحقيقة وحدها .

ولقد اخترت لهذه الدراسة الجانب السياسى لفترة من فترات تاريخنا الإسلامى ، تعرضت أكثر من غيرها للتشويش والتشويه وطمس الحقائق ، وهى فترة العصر الأموى . وجعلتها كالمدخل لدراسة لاحقة نتناول الجوانب الأخرى — اقتصادية واجتماعية — والتى ستكون بإذن الله موضوع كتاب آخر .

بدأت هذه الدراسة بفصل عن قيام الدولة الأموية ، تحدثت فيه عن العلاقات بين البيتين ، الهاشمى والأموى قبل ظهور الإسلام ، وقد اتضح أنها كانت علاقات مودة وصداقة ، تحكمها قرابة قريبة ، وصلة رحم ماسة — وإن شابها شىء من التنافس على الشرف والسيادة — واتضح أن ما يزعمه بعض المؤرخين من أن هذه العلاقات كان يحكمها العداء الشديد ، هو زعم باطل ، ولا أساس له من التاريخ ، فلما بعث النبى ﷺ وقف بعض أبناء البيت الأموى ضد دعوته ، وناصبوه العداء ، ولعل السبب الرئيسى فى ذلك الموقف السيىء والخاطىء ، هو التنافس الذى كان أبرز ما يميز الحياة العربية فى ذلك الزمان ، وربما إلى يومنا هذا .

ولم يدرك الأمويون ، كما لم يدرك كثيرون غيرهم من قريش أن النبوة هبة من الخالق سبحانه وتعالى ، يهبها لمن شاء من عباده ، وليست من قبيل ما يتنافسون عليه . وظل عداء الأمويين للرسول ﷺ إلى فتح مكة ، ويوم الفتح أسلموا — كبقية قريش — وسر الرسول ﷺ بذلك ، وقربهم إليه وعرف لهم مكانتهم ، واستعان بهم فى دولته ، واتخذ منهم ولاة وكتابا . وكذلك صنع خلفاؤه الثلاثة ، أبو بكر وعمر وعثمان ، رضى الله عنهم جميعا .

وبينت الدراسة أن الأمويين منذ أسلموا حسن إسلامهم ، وأبلوا بلاء حسنا فى خدمة الإسلام ، وبذلوا أقصى طاقاتهم ، سواء أكان ذلك فى ميادين الجهاد والغزو ، أم فى مجال الإدارة والتنظيم .

وكان من الضرورى أن تتعرض هذه الدراسة إلى الفتنة التى حدثت فى أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، محللة أسبابها ودوافعها ، لأن تلك الفتنة ، وما تمخض عنها من نتائج — كان أسوأها مقتل الخليفة نفسه ظلما وعدوانا — هى السبب الرئيسى فى الصدع الذى حدث

فى العلاقات بين الهاشميين والأمويين ، كما أنها تركت آثارها الضارة على مسيرة المسلمين إلى يومنا هذا . ولقد كشفت هذه الدراسة أن تلك الفتنة كانت بفعل العناصر المعادية للإسلام ، والحاقدة عليه ، وأن أيدى ظاهرة ، يمثلها أبرز تمثيل ، اليهودى عبد الله بن سبأ ، وأخرى خفية ، هى التى حركتها ، واحرقت المسلمين فى أتونها . ولم يكن ما نسب إلى عثمان ، رضى الله عنه ، وبعض عمـــاله من أخطـــاء وتجاوزات — وهو أمر مختلق فى جملته — إلا ستارا اختفت خلفه كل العناصر التى أرادت ضرب الإسلام من الداخل ، وهدم كيان الأمة الإسلامية بأيدى بعض من ينتسبون إليها .

ولما تدارك كبار الصحابة الموقف ، وبايعوا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ليقود الأمة ، ويستأنف مسيرتها ، نشطت عناصر الفساد من جديد ، وعملت على إفساد الأمر ، وساعدها على ذلك ما نشب من خلاف بين على وبعض الصحابة، حول مقتل عثمان ، والقصاص من قتلته ، وكان لكلٍ منهم وجهة نظر أداه اجتهاده إلى أنها هى الحق ، وتوالت الأحداث المؤلمة ، فكانت موقعة الجمل بين على والسيدة عائشة وطلحة والزبير ، ومعركة صفين بين على ومعاوية ، وما ترتب عليها من التحكيم الذى لم ترض نتيجته عليا ، فاستمر التوتر فى العلاقات بينهما ، إلى سنة ٤٠ هـ ، ثم تصالحا على أن يكون لعلى حكم العراق وتوابعها ، ولمعاوية حكم الشام ومصر ، ويكف كل منهما عن التدخل فى شؤون الآخر . ولما استشهد على رضى الله عنه ، بعيد ذلك على يد أحد الخوارج ، وبويع ابنه الحسن ، رأى أن الأمة عانت الأمرين من الفتن والحروب وسفك الدماء فمال إلى المصالحة وحقن الدماء ، وتنازل عن الخلافة إلى معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ . ومن هنا بدأت الدولة الأموية رسميا .

حكم الأمويون العالم الإسلامى إحدى وتسعين سنة ٤١ — ١٣٢ هـ وتولى الحكم منهم خلال هذه الفترة أربعة عشر خليفة ، أولهم معاوية بن أبى سفيان ، وآخرهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، ولقد خصصت فصلا للتعريف بهؤلاء الخلفاء ، وسياساتهم وأسلوبهم فى إدارة الدولة ، وأبرز أعمالهم وأحداث عهودهم ومشاكلها ، واتضح من الدراسة أن معظم هؤلاء الخلفاء لم يكونوا على تلك الصورة القاتمة التى حاولت أن تصورهم

بهـا مصـادر التاريخ القديمـة ذات الاتجاهات الحزبية المعـادية لهم ، والدراسات الحديثة ، التى استقى أصحابها معلوماتهم من تلك المصادر ، وانهم كانوا رجالا على مستوى المسئولية ، كرسـوا كل وقتهم وجهدهم لإدارة الـدولة ، والسـهر على مصـالح المسـلمين ، وإن كانت لهم اخطـاء وتجاوزات أشرنا إليها فى معرض الدراسـة ، وهو أمر لا يسلم منه من يتصدى لإدارة دولة كالدولة الأموية .

أما أبرز أمجاد الأمويين الباقية على الزمن ، فهى جهودهم فى ميدان المفتوحة هيأهم لقبول الإسلام دينـا ، حيث عاملوهم معاملة حسـنة فى والقوى العديدة المعادية لهم ، والتى كانت تشدهم إلى الوراء ، فقد نفذوا برنامجا رائعا للفتوحات ، ورفعوا راية الإسلام ، ومدوا حدود العـالم الإسلامى من حدود الصين فى الشرق إلى الأندلس وجنوب فرنسا فى الغرب ، ومن بحر قزوين فى الشمال ، حتى المحيط الهندى فى الجنوب .

ولم يكن هذا الفتح العظيم فتحا عسـكريا لبسط النفوذ السياسى واستغلال خيرات الشعوب ، كما يدعى أعداء الإسلام ، وإنما كان فتحا دينيا وحضاريا ، حيث عمل الأمويون بجد واجتهاد على نشر الإسلام فى تلك الرقعة الهائلة من الأرض ، وطبقوا منهجا سياسيا فى معاملة أبنـاء البلاد المفتوحة هيأهم لقبول الإسلام دينا ، حيث عاملوها معاملة حسـنة فى جملتها ، واحترموا عهودهم ومواثيقهم معهم ، وأشركوهم فى إدارة بلادهم ، فاقبلوا على اعتناق الإسلام عن اقتنـاع ورضى ، وبذلك تكون فى العصر الأموى عالم إسلامى واحد ، على هذه الرقعة الكبيرة من الأرض ، أخذ يشق طريقه تدريجيا نحو التشابه والتماثل فى العادات والتقاليد والأخلاق ، ومعاملات الحياة ، وأخذت أممه وشعوبه تنسلخ من ماضيها كله ، وتنصهر فى بوتقة الإسلام — الذى حقق لها العزة والكرامة والحرية والمساواة — مكونة الأمة الإسلامية .

ثم حاولت هـذه الدراسـة تحليل أسباب نشوء الفرق والأحزاب التى ناصبت الأمويين العداء ، مثل الخوارج والشيعة وغيرهم ، وسياسة الأمويين فى مواجهة هذه الأحداث الهائلة ، وما تكبدته من خسائر فى تلك

المواجهة ، والنتيجة التى خلصت بهـا هذه الدراسة أن الأمة الإسلامية لم تكسب شيئا من هـذه الثورات ، التى أشعلتها هذه الأحزاب فى وجه الدولة ، بل بالعكس كانت خسائرها فادحة ، فى الرجال والأموال والجهود . وإذا كانت الدولة الأموية قد حققت تلك الأمجاد الرائعة فى مجال الفتوحات وانتشار الإسـلام ، رغم هذه الفتن والثورات ، فماذا كانت ستحقق من أمجاد أخرى ، لو لم تواجه بهذا السـيل من الثورات الداخلية ، التى استنفذت الكثير من طاقاتها ووقتها ؟

أغلب الظن أن الإسـلام كان سيسود العالم المعروف وقتذاك كله . ومن ناحية أخرى أظهر الأمويون مقدرة فائقة فى مجـال الإدارة ، وكان معاوية بن أبى سـفيان ، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، وأبناؤه ، الوليد وسـليمان وهشام ، وعمر بن عبد العزيز ، وحتى آخرهم مروان ابن محمد ، كان هؤلاء الخلفاء رجال دولة من الطراز الأول ، لم يركنوا إلى الدعة والراحة ، وإنما كرسوا كل وقتهم لإدارة دولتهم المترامية الأطراف ، ولم يكفوا عن تطوير الأجهزة الإدارية ، التى بدأت بذورها منـذ عهـد الرسول ﷺ واستحداث مادعت الضرورة ، وظروف تطور المجتمع والدولة إلى إنشائه من أجهزة ودواوين .

كما كانوا — فى أغلب الأحوال — يستعينون بأمهر رجال السياسة والإدارة فى عصرهم ، مثل عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد ابن أبى سفيان ، والحجـاج بن يوسف الثقفى ، والمهلب بن أبى صفره وأولاده ، وقتيبة بن مسلم ، وموسى بن نصير ، وقرة بن شريك ، ونصر بن سيار ، وغيرهم .

ولقد أثبتت هـذه الدراسة ، أن معظم هؤلاء الرجال — الـذين حاولت المصـادر التاريخية المعادية لبنى أمية تشويه صورتهم — كانوا رجالا ممتازين فى مجال الإدارة وسياسة الشعوب ، وإذا كانوا قد ارتكبوا بعض الأخطاء بسبب الأحداث الهائلة التى واجهتهم ، فإن ذلك لايقلل من جهودهم فى نشر الأمن والنظام فى ربوع العالم الإسلامى .

ولابد لدارس هـذا العصر ان يأخذ فى اعتباره الظروف والمشكلات التى واجهت رجاله ، وانهم كانوا يحكمون عالمـا إسلاميا فسيحا ، يضم أمما وشعوبا مختلفة .

وكما أشرنا فى ثنايا البحث ، فإن الرقعة التى كان يحكمها الأمويون من دمشـق ، يقـوم عليها فى الوقت الحاضر أكثر من ثلاثـين دولة كل منهـا تعانى الكثير من المشاكل فى مجال السياسـة الداخلية والإدارة ، وميادين الاقتصاد والاجتماع ، هذا مع تقدم المواصلات ووسائل الاتصال ، وعلوم الإدارة والاقتصاد والاجتماع ، فكيف يتصور إدارتها فى القرن الأول وبداية الثانى الهجرى بدون عثرات وأخطاء وتجاوزات ؟

ولهذا فإن الدراسة الموضوعية القائمة على أساس الواقع التاريخى ، تجنب الباحث كثيرا من المزالق .

وبعد ، فلا اريد أن أتحدث عن الجهد والعناء الذى بذل فى إعداد هـذا الكتاب ، فذلك أمر متروك لتقدير القراء . ومن الله وحده سبحانه وتعالى أرجو المثوبة على عمل ، هو وحده الذى يعلم انى ما قصدت به إلا خدمة الحقيقة ، والله من وراء القصد .

* * *

المصادر والمراجع

اولا : المصـــــادر

ابن الأثير : أبو الحسن علـــى بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ) .
١ — اسد الغابة فى معرفة الصحابة — طبعة دار الشعب — القاهرة تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا وآخرين
٢ — الكامل فى التـــاريخ — طبع دار صـــادر — بيروت — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .

الأشعرى : ابو الحسن على بن اسماعيل (ت ٣٢٤ هـ) .
٣ — مقالات الإسلاميين واختلاف المصـــلين — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضـــة المصريـــة ، القاهرة ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .

الأصفهانى : ابو الفرج على بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦ هـ) .
٤ — مقاتل الطالبيين — تحقيق السيد أحمـــد صقر — دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م .

البخارى : ابو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفى (ت ٢٥٦ هـ) .
٥ — الجامع الصحيح — دار إحياء الكتب العربية — القاهرة .

البلاذرى : أحمد بن يحى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) .
٦ — أنساب الأشراف جـ ١ تحقيق الدكتور محمد حميد الله — دار المعارف — القاهرة ١٩٥٩ م .
٧ — فتوح البلدان — تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد — النهضة المصرية — القاهرة .

ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (ت٨٧٤هـ) .
٨ — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — المؤسســـة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر — القاهرة .

ابن تيمية : أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحرانى الدمشقى (ت٧٢٨هـ)
٩ — منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية — المطبعة الأميرية — القاهرة ١٣٢١ هـ .
١٠ — السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية — دار الكاتب العربى بيروت .
١١ — سؤال فى يزيد بن معاوية — تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد — بيروت ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

الجهشيارى : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفى (ت ٣٣١ هـ) .
١٢ — الوزراء والكتاب — طبع القاهرة ١٩٣٨ م .

ابن حجر : أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) .
١٣ — الإصابة فى تمييز الصحابة — مكتبة الكليات الأزهرية — القاهرة .
١٤ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى — مطبعة الحلبى القاهرة .

ابن حنبل : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى الإمام (ت ٢٤١هـ) .
١٥ — فضائل الصحابة — تحقيق وصى الله بن محمد عباس — مؤسسة الرسالة — بيروت ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م .

الخزاعى : أبو الحسن على بن محمد المعروف بالخزاعى (٧٨٩ هـ) .
١٦ — تخريج الدلات السمعية على ما كان على عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية — طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية — القاهرة ١٤٠١ هـ — ١٩٨٠ م .

الخزرجى : أبو عبيدة (ت ٥٨٢ هـ) .
١٧ — بين الإسلام والمسيحية — تحقيق الدكتور محمد شنامة مكتبة وهبة — القاهرة ١٩٧٩ م .

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمى (ت٨٠٨ هـ) .
١٨ — المقدمة — تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى — دار نهضة مصر — الطبعة الثالثة — القاهرة .
١٩ — كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر — مؤسسة الأعلمى — بيروت .

ابن خياط : أبو عمرو خليفة بن خياط العصفرى (ت ٢٤٠ هـ) .

٢٠ — تاريخ خليفة بن خياط — تحقيق الدكتور أكرم العمرى مؤسسة الرسالة — بيروت ١٩٧٩ م .

الذهبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) .

٢١ — سير أعلام النبلاء — الأجزاء الخمسة الأولى — مؤسسة الرسالة — بيروت .

٢٢ — دول الإسلام — تحقيق محمد فهيم شلتوت ، ومحمد مصطفى إبراهيم — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٤ م .

ابن سعد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع — كاتب الواقدى — (ت ٢٣٠ هـ) .

٢٣ — الطبقات الكبرى — دار صادر — بيروت .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .

٢٤ — تاريخ الرسل والملوك — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — الطبعة الثانية — دار المعارف — القاهرة .

ابن الطقطقا : أبو جعفر محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ) .

٢٥ — الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية — دار صادر — بيروت ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م .

ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧ هـ) .

٢٦ — فتوح مصر وأخبارها — تحقيق محمد صبيح — دار التعاون للطبع والنشر — القاهرة ١٩٧٤ م .

ابن عبد الحكم : أبو محمد عبد الله عبد الحكم بن أعين (ت ٢١٤ هـ) .

٢٧ — سيرة عمر بن عبد العزيز — مكتبة وهبة — القاهرة .

أبو عبيد : القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) .

٢٨ — كتاب الأموال — تحقيق محمد خليل هراس — دار الفكر — القاهرة ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م .

ابن عذارى : ابو عبد الله محمد (أو أحمد بن محمد) المراكشى ت نحو ٦٩٥ هـ
٢٩ — البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب — تحقيق ج . س كولان ، إ . ليفى بروفنسال — دار الثقافة — بيروت .

ابن العربى : ابو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى الإشبيلى (ت ٥٤٣ هـ) .

٣٠ — العواصم من القواصم — تحقيق محب الدين الخطيب مكتبة أسامة بن زيد — بيروت ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م .

العصامى : عبد الملك بن حسين (ت ١١١١ هـ) .
٣١ — النجوم العوالى فى أخبار الأوائل والتوالى — المطبعة السلفية — القاهرة .

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى (٢٧٦ هـ) .
٣٢ — عيون الأخبار — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
٣٣ — المعارف — تحقيق الدكتور ثروت عكاشة — دار المعارف الطبعة الرابعة — القاهرة .
٣٤ — الإمامة والسياسة « المنسوب له » تحقيق الدكتور طه الزينى — مطبعة الحلبى — القاهرة .

القرشى : محمد بن محمد بن أحمد (ت ٧٢٩ هـ) .
٣٥ — معالم القربة فى أحكام الحسبة — تحقيق الدكتور محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعى — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٦ م .

القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ) .
٣٦ — آثار البلاد وأخبار العباد — دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م .
القيروانى : أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم (ت ٣٣٣ هـ) .

٣٧ — طبقات علماء إفريقية وتونس — تحقيق على الشابى ونعيم حسن اليافى — الدار التونسية للنشر ١٩٦٨م .

ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ) .
٣٨ — البداية والنهاية — مكتبة المعارف — بيروت .

الكندى : ابو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ) .
٣٩ — كتاب الولاة وكتاب القضاة — مطبعة الآباء اليسوعيين — بيروت ١٩٠٨ م .

مالك بن انس : ابو عبدالله مالك بن أنس الأصبحى (١٧٩ هـ) .
٤٠ — المؤطأ — تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى — دار الشعب — القاهرة .

المالكى : أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبدالله القيروانى (ت ٤٥٣ هـ) .
٤١ — رياض النفوس — تحقيق الدكتور حسين مؤنس النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥١ م .

الماوردى : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البغدادى (ت ٤٥٠ هـ) .
٤٢ — الأحكام السلطانية والولايات الدينية — مطبعة الحلبى — الطبعة الثالثة — القاهرة ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦ هـ) .
٤٣ — الكامل — نهضة مصر — القاهرة .

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦ هـ) .
٤٤ — مروج الذهب ومعادن الجوهر — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد — دار الفكر — القاهرة ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م .

مصعب الزبيرى : أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب (٢٣٦ هـ) .
٤٥ — نسب قريش — دار المعارف — القاهرة ١٩٧٦ م .

المقريزى : أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر (ت ٨٤٥ هـ) .
٤٦ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — دار التحرير — القاهرة .
٤٧ — النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم — تحقيق محمد عرنوس — المطبعة الإبراهيمية — القاهرة .

النووى : ابو زكريا يحى بن شرف بن مرى (ت ٦٧٦ هـ) .
٤٨ — صحيح مسلم بشرح النووى — المطبعة المصرية — القاهرة .

ابن هشام : ابو محمد عبد الملك بن هشام بن ايوب الحميرى (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ) .
٤٩ — سيرة النبى ﷺ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد — القاهرة .

ابن الوزان : ابو على الحسن بن محمد الغرناطى الفاسى — المعروف بليون الإفريقى — (ت نحو ٩٥٧ هـ) .
٥٠ — وصف إفريقية — نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية — بالرياض — ١٣٩٩ هـ وترجمه من اللغة الفرنسية الدكتور عبد الرحمن حميدة .

ياقوت الحموى : ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى (ت ٦٢٦ هـ) .
٥١ — معجم البلدان — دار صادر — بيروت — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

اليعقوبى : أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت نحو ٢٩٢ هـ) .
٥٢ — تاريخ اليعقوبى — دار بيروت للطباعة والنشر — ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

ابو يوسف : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصارى الكوفى البغدادى (ت ١٨٢ هـ) .
٥٣ — كتاب الخراج — تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا — دار الإصلاح — القاهرة .
٥٤ — اخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها لمؤلف مجهول — مكتبة المثنى — بغداد .

ثانيا : المراجع

أحمد أمين : (ت ١٣٧٣ هـ) .

١ — فجر الإسلام — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٧٥ م .

٢ — ضحى الإسلام ج ١ مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٧٢ م

آرنولد : توماس ووكر آرنولد (ت ١٣٤٩ هـ) .

٣ — الدعوة إلى الإسلام — ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين — مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م .

بارتولد :

٤ — تاريخ الترك فى آسيا الوسطى — ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان . مكتبة الأنجلوا المصرية . القاهرة ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م .

بـدران : عبد القادر بن أحمد (ت ١٣٤٦ هـ) .

٥ — تهذيب تاريخ ابن عساكر — مطبعة روضة الشام — دمشق ١٣٣٢ هـ .

بينز : نورمان بينز .

٦ — الإمبراطورية البيزنطية — ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد . الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

جيبون : ادوارد جيبون .

٧ — اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها — ج ٢. ترجمة لويس أسكندر — المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٦٩ م .

حسـن : الدكتور حسن إبراهيم حسن (ت ١٣٨٨ هـ) .

٨ — انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٤ .

٩ — النظم الإسلامية (بمشاركة الدكتور على إبراهيم حسن) مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م .

حمادة : الدكتور محمد ماهر حمادة .

١٠ — الوثائق السياسية العائدة للعصر الأموى — مؤسسة الرسالة — بيروت — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

الخربوطلى : الدكتور على حسنى الخربوطلى .

١١ — تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى — دار المعارف — القاهرة ١٩٥٩ م .

الخضرى : الشيخ محمد عفيفى الخضرى .

١٢ — تاريخ الأمم الإسلامية — المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٩٧٠ م .

خليل : الدكتور عماد الدين خليل

١٣ — ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز — الدار العلمية — بيروت ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

دبوز : محمد على دبوز .

١٤ — تاريخ المغرب الكبير ج ٢ مطبعة الحلبى . القاهرة ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م .

الراوى : ثابت اسماعيل الراوى .

١٥ — العراق فى العصر الأموى — مكتبة الأندلس — بغداد ١٩٧٠ م

ريسلر : جاك ريسلر .

١٦ — الحضارة العربية — ترجمة غنيم عبدون — الدار المصرية للتأليف والترجمة — القاهرة .

الريس : الدكتور محمد ضياء الدين الريس .

١٧ — عبد الملك بن مروان — مكتبة مصر القاهرة ١٩٦٢ م .
١٨ — النظريات السياسية الإسلامية — مكتبة دار التراث القاهرة ١٩٧٩ م .

زيتون : الدكتور محمد محمد زيتون .

١٩ — المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ دار الوفاء للطباعة — القاهرة ١٩٨٣ م .

سالم : الدكتور السيد عبد سالم .

٢٠ — تاريخ الدولة العربية — مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية .

٢١ — المغرب الكبير ج ٢ — الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٦ م .

أبو سعيد : الدكتور حامد غنيم أبو سعيد .

٢٢ — انتشار الإسلام حول بحر قزوين — ج ١ مطبعة دار نشر الثقافة — القاهرة ١٩٧٥ م .

سيد قطب : سيد قطب إبراهيم (ت ١٣٨٧ هـ) .

٢٣ — العدالة الاجتماعية فى الإسلام — طبع القاهرة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م .

شلبى : الدكتور أبو زيد شلبى .

٢٤ — تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى — مكتبة وهبة — القاهرة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م .

الشناوى : الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى .

٢٥ — الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها — ج ١ مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة ١٩٨٠ م .

الطرازى : الدكتور عبد الله مبشر الطرازى .

٢٦ — موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب — عالم المعرفة — جدة — ١٤٠٣ هـ .

طه حسين : الدكتور طه حسين .

٢٧ — الفتنة الكبرى — دار المعارف — القاهرة ١٩٦١ م .

عاشور : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

٢٨ — أوربا العصور الوسطى ج ١ — الانجلو المصرية — القاهرة — ١٩٧٨ م .

العبـادى : الدكتور احمد مختار العبادى .
٢٩ — دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس — طبع الأسكندرية الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨
٣٠ — فى تاريخ المغرب والأندلس — مؤسسة الثقافة الجامعية الأسكندرية .

العـدوى : الدكتور إبراهيم احمد العدوى .
٣١ — الأمويون والبيزنطيون — الطبعة الثانية — الدار القوية — القاهرة .

العقـاد : **عباس محمود العقاد** (ت ١٣٨٣ هـ) .
٣٢ — معاوية بن أبى سفيان فى الميزان — الطبعة الأولى دار الهلال — القاهرة .

عوض : الدكتور إبراهيم نجيب عوض .
٣٣ — القضاء فى لإسلام تاريخه ونظامه — مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية — القاهرة ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م .

فامبرى : أرمينوس فامبرى .
٣٤ — تاريخ بخـارى — ترجمة الدكتور احمـد السـاداتى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعـة والنشر القاهرة ١٩٦٥ م .

فلهوزن : يوليوس فلهوزن .
٣٥ — تاريخ الدولـة العربيـة — ترجمـة الدكتور محمـد عبد الهادى أبو ريدة — لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٨ م .

فيصـل : الدكتور شكرى فيصل .
٣٦ — المجتمعـات الإسـلامية فى القرن الأول — دار العلم للملايين — بيروت ١٩٦٦ م .
٣٧ — حركة الفتح الإسلامى — دار العلم للملايين — بيروت ١٩٥٢ م .

القـاسمى : ظافر القاسمى .
٣٨ — نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسـلامى — ج ١ ط ٢ دار النفائس — بيروت ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

قدورة : الدكتورة زاهية قدورة .

٣٩ — الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول — دار الكتاب اللبنانى — بيروت ١٩٧٢ م .

كاشف : الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف .

٤٠ — مصر فى فجر الإسلام — دار النهضة العربية — القاهرة ١٩٧٠ م .

٤١ — الوليد بن عبد الملك — مكتبة مصر — القاهرة ١٩٦٣ م .

الكتانى : عبد الحى الكتانى .

٤٢ — نظام الحكومة النبوية ، المسمى بالتراتيب الإدارية — دار الكتاب العربى — بيروت .

كرد على : محمد بن عبد الرازق بن محمد بن كرد على (ت ١٣٧٢ هـ) .

٤٣ — الإسلام والحضارة العربية — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٦٨ م .

مؤنس : الدكتور حسين مؤنس .

٤٤ — فتح العرب للمغرب — مكتبة الآداب — القاهرة سنة ١٩٤٧ م .

ماجد : الدكتور عبد المنعم ماجد .

٤٥ — التاريخ السياسى للدولة العربية — ج ٢ مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة ١٩٧٩ م .

ماهر : الدكتورة سعاد ماهر .

٤٦ — البحرية فى مصر الإسلامية — دار الكاتب العربى للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٦٧ م .

محمود : الدكتور حسن أحمد محمود .

٤٧ — الإسلام فى آسيا الوسطى — الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢ م .

٤٨ — الإســـلام والثقافة العربيـــة فى إفريقية — ج ١ مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥٨ م .

٤٩ — العالم الإسلامى فى العصر العباسى (بمشاركة الدكتور أحمـــد إبراهيم الشريف) — دار الفكر العربى — القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

النجـــار : الدكتور محمد الطيب النجار .

٥٠ — الدولة الأمويـــة فى المشرق — دار الاتحـــاد العربى لطباعة — القاهرة ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م .

هيكل : الدكتور محمد حسين هيكل .

٥١ — الصديق أبو بكر — دار المعارف — القاهرة ١٩٧٩ م .

٥٢ — الفاروق عمر — دار المعارف — القاهرة ١٩٧٧ م .

وافى : الدكتور على عبد الواحد وافى .

٥٣ — حقوق الإنسان فى الإســـلام — دار نهضـــة مصر — القاهرة ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٩ م .

تصويبات

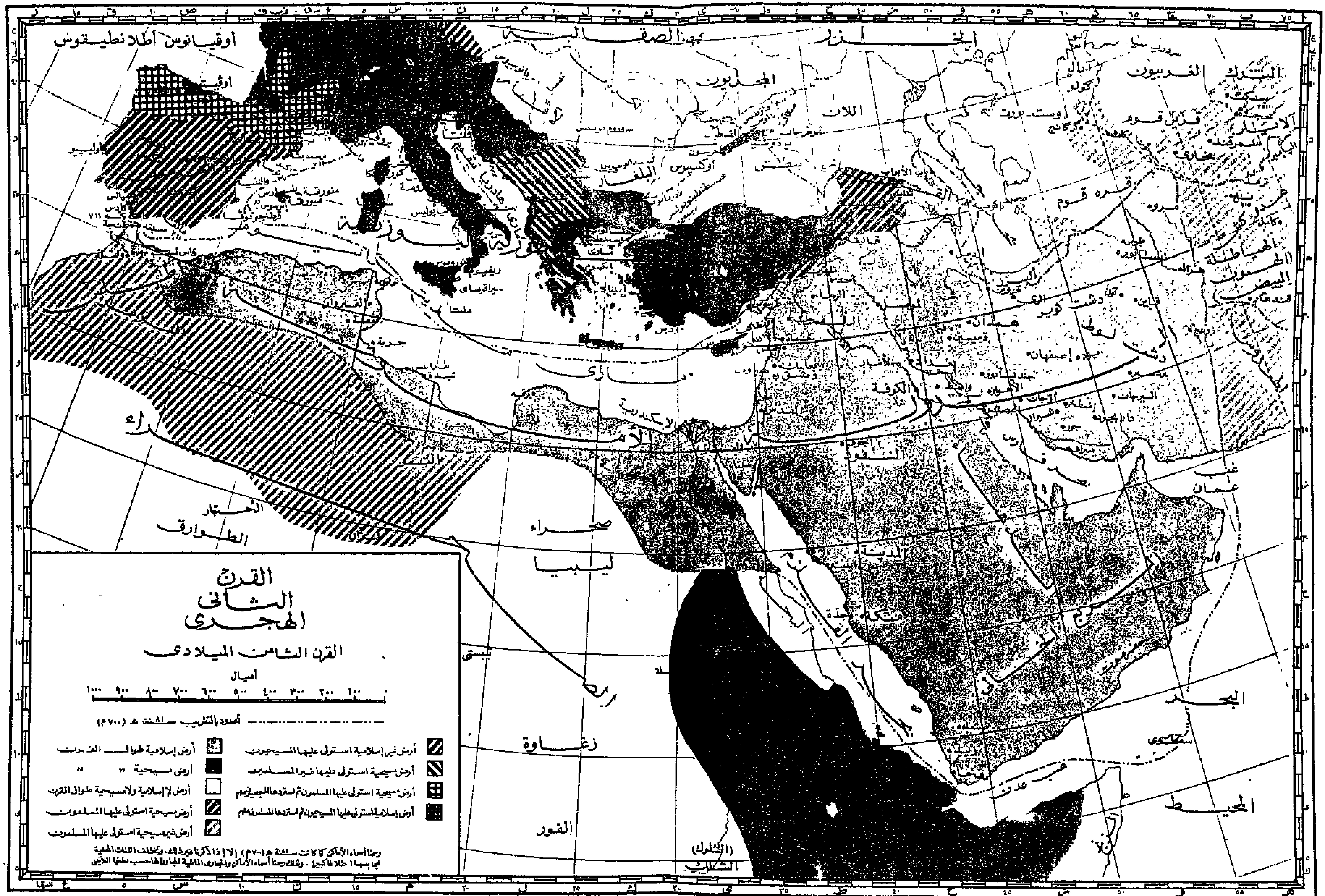
الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
فالقى	فالتقى	٥	٨
عنقكك	عنقك	٥	١٢
بكك	بك	٥	١٢
فتعبير	فتعيير	٩	٥
فبنو	فبنو	٩	٦
أموراهم	أمورهم	١٠	١٠
عهدءا	عهدى	١٣	٣
المحديثين	المحدثين	١٤	١٠
نسبح	نسيج	١٥	١٢
الهم	اللهم	١٥	١٦
وراغب	وارغب	٣١	٢٦
يستهون	يستهوون	٤١	٣
بين شمية	بن شعبة	٤٢	٢١
ويمحوا	ويمحو	٤٩	٥
شورى	الشورى	٥٤	٦
باقصاص	بالقصاص	٦٩	١٧
عمروا	عمرو	٧٤	١٧
واحدا	واحد	٧٦	١٦
التكامل	الكامل	٧٧	هامش ١٨٨
بها	فيها	٧٧	١٠
الشعراء	الشعواء	٧٧	١٨
البحث	الحث	٨٠	١٥
فيقتلون	فيقتتلون	٨٠	٢٠
مفزغة	مفزعة	٨١	١٥
السعودى	المستعودى	٨٢	هامش ٢٠٣
اننا	إننا	٨٦	١٠

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
من شر	إلامن شر	٩٩	٨
مركب	موكب	١٠٩	٣
وجهه	وجهه	١١٥	١٤
يزيدبن عمرو	زيدبن عمرو	١٢١	٨
وقل	قول	١٣٢	١٥
ازبير	الزبير	١٤٤	٨
نزاهته	نزاهة	١٥٢	٣
لا ارى	لا راى	١٥٢	١٧
السندى	السند	١٥٥	٣
لوليده	لولديه	١٥٦	١٥
الوليدبن الملك	الوليدبن عبدالملك	١٥٧	١
الشيان	الشيطان	١٦٢	١
فما	فلما	١٦٦	٢
الاصعمى	الأصمعى	١٦٨	هامش ١٩٤
بالدينة	بالمدينة	١٦٩	٢
السخيتانى	السختيانى	١٧٠	١٤
خيفة	خليفة	١٨٣	هامش ١
ولده	وولده	٢١٢	٨
فيما الحصارين	فيما بين الحصارين	٢٥٢	١١
أفاسها	أنفاسها	٢٦٧	٦
لإسلام	الإسلام	٢٦٨	١٥
بالمطيعيين	بالمطيعين	٢٨٠	١٨
الدينية	والدينية	٢٩٩	١٢
الغانقى	الغافقى	٣٢٣	٦
٣٦٠	٣٦٩	٣٣٨	هامش ٣٦٩
كاضت	كانت	٣٧٠	١٠
النواب	النوب	٣٧٥	٢

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
الطولية	الطويلة	٣٧٧	١٩
الدعوة الإسلام	الدعوةإلىالإسلام	٣٨١	هامش ٣٨
يدعوا	يدعو	٣٨١	٨
النقيوس	النقيوسى	٣٩١	٢٢
الدخول الإسلام	الدخول فى الإسلام	٣٩٣	٥
أنه	إنه	٤٠١	١٢
أن	إن	٤٠٧	١٧
لإسلام	الإسلام	٤١٢	١٨
ادنيا	أدينا	٤١٨	٥
السوداء	السواد	٤١٨	٩
السواء	السواد	٤١٨	١١
حدود	حدوده	٤٢١	٥
نصير	نصر	٤٣٠	١٩
عودا	عدوا	٤٣١	٣
الأمر	الأمير	٤٤٧	٨
إنكك	إنك	٤٦٠	٣
أعمار	أعمال	٤٦٨	٩
عبد الله الزبير	عبد الله بن الزبير	٤٩٩	٥
اسند	السند	٥٢٠	١٣
أذكى	أزكى	٥٢٤	١١
حقاقة	حقيقة	٥٣٦	١٨
إلى واسط	سار إلى واسط	٥٣٨	٤
وال	واليا	٥٤٠	١٧
قاض	قاضيا	٥٤٠	١٨
المرؤة	المروءة	٥٦٥	١٩

الفهرســت

رقم الإيداع ١٩٨٤/٤٨٣٠



أوقيانوس أطلانطيقوس
الخزر
الصقالبة
المجريون
اللان
الترك الغربيون
قزل قوم
قره قوم
بخارى
سمرقند
دشت كوير
دشت لوط
همدان
أصفهان
الكوفة
الإسكندرية
النفود
المدينة
مكة
جدة
عمان
البحر
المحيط
سقطرى
صحراء
ليبيا
زغاوة
الفور
الطوارق
القيروان
جربة
سيراقوساى
مالطة
القرن
الثانى
الهجرى
القرن الثامن الميلادى
أميال
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ ٦٠٠ ٧٠٠ ٨٠٠ ٩٠٠ ١٠٠٠
الحدود بالتقريب سنة ٨١ هـ (٧٠٠ م)
أرض غير إسلامية استولى عليها المسيحيون
أرض مسيحية استولى عليها غير المسلمين
أرض مسيحية استولى عليها المسلمون ثم استردها البيزنطيون
أرض إسلامية استولى عليها المسيحيون ثم استردها المسلمون
أرض إسلامية طوال القرن
أرض مسيحية " "
أرض لا إسلامية ولا مسيحية طوال القرن
أرض مسيحية استولى عليها المسلمون
أرض غير مسيحية استولى عليها المسلمون